بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما علمنا أن نحمده، وصلى الله وسلم على رحمته
وخاتم رسله سيدنا محمد. وبعد..

فهذا حصاد عمري العلمي، وحصيلة جهادي واجتهادي
شرفني فيه أن خدمت كتاب الله، وتفرغت لاستقبال فيض الله
ولعلي أكون قد وفيت معه إيماناً، وأديت واجب عرفاني
وأسأل الله سبحانه أن تكون هذه الخواطر مفتاح
خواطر من يأتي بعدي، وكتاب الله لا تنقضي عجائبه
حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وحينئذ نعلم
من الله ما ادخره لنا منه.

وحسبنا الله ونعم الوكيل

محمد متولي الشعراوي





مدخل ..

بسم الله الرحمن الرحيم .. والحمد لله رب العالمين ..
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..

خواطري حول القرآن الكريم لا تعنى تفسيرا للقرآن .. وانما هي هبات صفائية .. تخطر على قلب مؤمن في آية أو بضع آيات .. ولو أن القرآن من الممكن أن يفسر .. لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى الناس بتفسيره .. لأنه عليه نزل وبه انفعل وله بلّغ وبه علم وعمل .. وله ظهرت معجزاته . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. اكتفى أن يبين للناس على قدر حاجتهم من العبادة التي تبين لهم أحكام التكليف في القرآن الكريم وهي افعل ولا تفعل .. تلك الأحكام التي يثاب عليها الانسان ان فعلها ، ويعاقب ان تركها .. هذه هي أسس العبادة لله سبحانه وتعالى .. التي أنزلها في القرآن الكريم كمنهج لحياة البشر على الأرض .. أما الأسرار المكتنزة في القرآن حول الوجود ، فقد اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما علم منها .. لأنها بمقياس العقل في هذا الوقت لم تكن العقول تستطيع أن تتقبلها ، وكان طرح هذه الموضوعات سيثير جدلا يفسد قضية الدين ، ويجعل الناس ينصرفون عن فهم منهج الله في العبادة الى جدل حول قضايا لن يصلوا فيها الى شيء .

والقرآن لم يأت ليعلمنا أسرار الكون ، ولكنه جاء بأحكام التكليف واضحة وأسرار الوجود مكتنزة .. حتى تتقدم الحضارات ويتسع فهم العقل البشري .. فيكشف الله سبحانه وتعالى من أسرار الكون ما يجعلنا أكثر فهما لعطاءات القرآن

لأسرار الوجود ، فكلما تقدم الزمن وكشف الله للانسان عن سر جديد فى الكون ظهر اعجاز فى القرآن . . لأن الله سبحانه وتعالى قد أشار الى هذه الآيات الكونية فى كتابه العزيز . . وقد تكون الاشارة الى آية واحدة أو بضع آيات . . ولكن هذه الآية أو الآيات تعطينا اعجازا لا يستطيع العلم أن يصل الى دقته .

والقرآن الكريم حمل معه وقت نزوله معجزات . . تدل على صدق البلاغ عن الله سبحانه وتعالى . . وعن صدق رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وكانت أول معجزة أن القرآن كلام الله . . فيه من عطاء الله ما تحبه النفس البشرية ويستميلها . .

انه يخاطب ملكات خفية فى النفس لا نعرفها نحن ولكن يعرفها الله سبحانه وتعالى خالق الانسان وهو أعلم به . . هذه الملكات تنفعل حين تسمع القرآن فتلين القلوب ويدخل الايمان اليها . . ولقد تنبه الكفار الى تأثير القرآن الكريم فى النفس البشرية . . تأثيرا لا يستطيع أن يفسره أحد . . ولكنه يهذب النفس الى طريق الايمان ويدخل الرحمة فى القلوب .

لذلك كان أئمة الكفر يخافون أكثر ما يخافون . . من سماع الكفار للقرآن . . ويحاولون منع ذلك بأى وسيلة . . ويحتدون على من يتلو القرآن . . ولو أن هذا القرآن لم يكن كلام الله الذى وضع فيه من الأسرار ما يخاطب ملكات خفية فى النفس البشرية . . ما اهتم أئمة الكفر أن يستمع أحد للقرآن أو لا يستمع . . ولكن شعورهم بما يفعله كلام الله . . جعلهم لا يمنعون سماع القرآن فقط . . بل قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وهكذا نعرف أنه حتى أهل الكفر كانوا لا يمنعون سماع القرآن فقط . . بل يطلبون من أنصارهم أن يلغوا فيه ، ومعناها (يشوشرون عليه) . ولا يمكن أن يكون هذا هو مسلكهم وتلك هى طريقتهم الا خوفا مما يفعله القرآن فى كسب النفس البشرية الى الايمان . . إن مجرد تلاوته تهذب النفس الكافرة الى منهج الله .

ولو نأخذ مثلا قصة اسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه . . نجد أنه علم أن أخته فاطمة وزوجها ابن عمه سعيد بن زيد قد أسلما . . فأسرع اليهما ليبطش بهما وحاول أن يفتك بسعيد بن زيد . . فلما تدخلت زوجته فاطمة لحمايته . . ضربها حتى سال منها الدم . . وعندما رأى عمر الدم يسيل من وجه أخته فاطمة . . رق قلبه وحدث فى قلبه انفعال بالرحمة بدلا من انفعال الايذاء . . فخرج العناد من قلبه وملأه الصفاء . . فطلب من أخته صحيفة القرآن التى كانا يقرآن منها . . وقرأ من أول سورة طه ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . . ثم أسرع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن اسلامه . . ولذلك فانه اذا خرج العناد والكفر من القلب . . واستمع الانسان بصفاء الى القرآن دخل الايمان الى قلبه .

لقد سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه القرآن قبل ذلك ولم يسلم . . ولكنه عندما رأى الدم يسيل على وجه أخته وتبدل انفعال الايذاء فى قلبه بانفعال الرحمة . . استقبل القرآن بنفس صافية فامتلأ قلبه بالايمان وأسرع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن اسلامه .

ولذلك كان الكفار يحاولون إهاجة مشاعر الكفر فى القلوب حتى لا يدخلها القرآن . . لانه لكى تستقبل الايمان يجب ان تخلص قلبك من الكفر أولا .

وهكذا نرى ان القرآن الكريم لأنه كلام الله . . فان له تأثيرا خاصا فى النفس البشرية . . حتى ان الكفار كانوا يسترقون سماع القرآن من وراء بعضهم البعض . . وكانوا يقولون إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة . . وان أعلاه لمثمر . . وإن اسفله لمغدق . . وانه يعلو ولا يعلى عليه . . وكان هذا أول اعجاز لأن القرآن الكريم هو كلام الله تبارك وتعالى .

ولقد وقف الصحابة والمؤمنون الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند عطاء القرآن وقت نزوله فيما استطاعت عقولهم أن تطيقه من اسرار الكون . . ومن اسرار القرآن الكريم . . فلم نجد صحابيا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى آيات الكون فى القرآن . . أو عن عطاءات القرآن فى اللغة . . فمثلا لم يسأل احد عن معنى « الم » . . أو « عسق » . . أو « حم » . . مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستقبل كثيرين يؤمنون بكتاب الله . . وكثيرين يكفرون بما أنزل الله . . وكان هؤلاء الكفار يريدون أن يقيموا الحجة ضد رسول الله صلى الله عليه

وسلم وضد القرآن الكريم .. لم نسمع أن أحدا منهم .. وهم قوم بلغاء فصحاء عندهم اللغة ملكة وموهبة وليست صناعة .. لم نسمع أحدا من الكفار قال ماذا تعنى « الم » .. أو « حم » .. أو « عسق » .

كيف يمر الكافر على فواتح السور هذه ولا يجد فيها ما يستطيع أن يواجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجادله .. لقد كانت هذه هى فرصتهم فى المجادلة .. ولاشك أن عدم استخدام الكفار لفواتح السور هذه .. دليل على أنهم انفعلوا بها وإن لم يؤمنوا بها .. ولم يجدوا فيها ما يمكن أن يستخدموه لهدم القرآن أو التشكيك فيه .. ولو أن هذه الحروف فى فواتح السور كانت تخدم هدفهم .. لقالوا للناس وجاهروا بذلك .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو الذى عليه القرآن نزل ـ فسر وبين كل ما يتعلق بالتكليف الإيمانى .. وترك ما يتعلق بغير التكليف للاجيال القادمة .. ويمر الزمن ويتيح الله لعباده من أسرار آياته فى الأرض ما يشاء .. فيكون عطاء القرآن متساويا مع قدرة العقول .. لماذا ؟ لأن الرسالات التى سبقت الاسلام كانت محدودة الزمان والمكان .. أما القرآن الكريم فزمنه حتى يوم القيامة .. ولذلك فلابد أن يقدم إعجازا لكل جيل .. ليظل القرآن معجزة فى كل عصر .

والقرآن نزل يتحدى العرب فى اللغة والبلاغة .. ولكن لأنه دين للناس جميعا .. فلابد أن يتحدى غير العرب فيما نبغوا فيه .. ولذلك نزل متحديا لغير العرب وقت نزوله .. فقد حدثت حرب بين الروم والفرس وقت نزول القرآن .. وكانت الروم والفرس تمثلان فى عصرنا الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى .. كانا أعظم وأقوى دولتين فى ذلك العصر .. وحدثت الحرب بينهما وانهزم الروم .. وإذا بالقرآن ينزل بقوله تعالى :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الروم)

لو أن هذا القرآن من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ألذى يجعله يدخل فى قضية كهذه ؟ لم يطلب أحد منه أن يدخل فيها .. وكيف يغامر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فى كلام متعبد بتلاوته إلى يوم القيامة لايتغير ولايتبدل .. بإعلان نتيجة معركة ستحدث بعد سنين .. وماذا كان يمكن أن يحدث لقضية الدين كله لو أن الحرب حدثت وانتصر الفرس مرة أخرى .. أو أن الحرب لم تحدث وتوصل الطرفان إلى صلح ؟ إنها كانت ستضيع قضية الدين كله .. ولكن لأن الله سبحانه وتعالى هو القائل وهو الفاعل جاءت هذه الآية كمعجزة لغير العرب وقت نزول القرآن .. وحدثت المعركة فعلا وانتصر فيها الروم كما أخبر القرآن الكريم .

ولكن القرآن لم ينزل معجزة لفترة محدودة .. بل هو معجزة حتى قيام الساعة .. والقرآن هو كلام الله ، والكون هو خلق الله .. ولذلك جاء القرآن يعطى إعجازا لكل جيل فيما نبغوا فيه .. اذا أخذنا العلوم الحديثة التى اكتشفت فى القرن العشرين وأصبحت حقائق علمية .. نجد أن القرآن الكريم قد أشار اليها باعجاز مذهل .. بحيث أن اللفظ لا يتصادم مع العقول وقت نزول القرآن .. ولا يتصادم معها بعد تقدم العلم واكتشاف آيات الله فى الارض .. ولايقدر على هذا الاعجاز المذهل الا الله سبحانه وتعالى .. اقرأ مثلا قول الحق تبارك سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة ق)

والمد معناه البسط .. وعندما نزل القرآن الكريم بقوله تعالى : « والأرض مددناها » .. لم يكن هذا يمثل مشكلة .. للعقول التى عاصرها نزول القرآن الكريم . فالناس ترى أن الأرض ممدودة .. والقرآن الكريم يقول : « والأرض مددناها » .. وتقدم العلم وعرف الناس أن الأرض كروية .. وانطلق الانسان الى الفضاء ورأى الأرض على هيئة كرة .. هنا أحست بعض العقول بأن هناك تصادمات بين القرآن الكريم والعلم .. نقول لهم أقال الله سبحانه وتعالى أى أرض تلك المبسوطة أو الممدودة ؟ .. لم يقل ولكنه قال الأرض على اطلاقها .. أى كل مكان على الأرض ترى فيه الأرض امامك مبسوطة .

اذا نزلت فى القطب الشمالى تراها مبسوطة .. واذا كنت فى القطب الجنوبى تراها

مبسوطة .. وعند خط الاستواء تراها مبسوطة .. واذا سرت من نقطة على الأرض وظللت تسير الى هذه النقطة فالأرض أمامك دائما مبسوطة .. ولا يمكن أن يحدث هذا أبدا الا اذا كانت الأرض كروية .. فلو أن الأرض مثلثة أومربعة أو مسدسة .. أوعلى أى شكل هندسى آخر .. لوصلت فيها الى حافة ليس بعدها شىء .. ولكن لكى تكون الأرض مبسوطة أمامك فى أى مكان تسير فيه لابد أن تكون على هيئة كرة .

هذا الاعجاز الذى يتفق مع قدرات العقول .. وقت نزول القرآن الكريم .. فاذا تقدم العلم ووصل الى حقيقة لما كان يعتقده الناس .. نجد أن آيات القرآن تتفق مع الحقيقة العلمية اتفاقا مذهلا .. ولا يقدر على ذلك الا الله سبحانه وتعالى .

ولو أن النبى صلى الله عليه وسلم تعرض لهذه الآيات الكونية تعرضا لا يتناسب مع استعدادات العقول وقت نزول القرآن .. فانه ربما صرف العقول عن أساسيات الدين الى جدل فى أسرار كون لا يستطيع العقل أن يستوعبها أو يفهمها .. ولكن الحق تبارك وتعالى ترك فى الكون أشياء لوثبات العقول فى العلم .. بحيث كلما تقدم العلم وجد خيطا يربط بين آيات الله فى الكون وآياته فى القرآن الكريم .. ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر كونيات القرآن وقت نزوله لجمد القرآن .. لأنه لا أحد منا يستطيع أن يفسر بعد تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وبذلك يكون عطاء القرآن قد جمد .. ولكن ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم للتفسير أتاح الفرصة لعطاءات متجددة للقرآن الكريم الى قيام الساعة .. وهكذا كان المنع هو عين العطاء .. وهذه معجزة أخرى من اعجاز القرآن الكريم .

كلمة قرآن ساعة تسمعها تفهم أنه يقرأ .. قرآن مصدر قرأ مثل غفر غفرانا .. ولكن بعد نزول القرآن الكريم أصبح لفظ قرآن اسما بكلام موحى به من الله سبحانه وتعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقصد التحدى .. ويسميه الله تبارك وتعالى كتابا .. اذن هو قرآن اذا أخذنا أنه يقرأ .. وهو كتاب اذا أخذنا أنه يكتب .. والقراءة تستلزم حافظا والكتابة لا تستلزم حافظا .. فالانسان حين يقرأ من كتاب ليس محتاجا إلى الحفظ ، ولذلك فللقرآن وسيلتان من وسائل التلاوة . يحفظ فى الصدور ويسجل فى السطور .. بحيث تستطيع فى أى وقت أن تقرأ من الكتاب .

وحين بدأ تدوين القرآن الكريم كتابة كان لا يكتب منه آية الا اذا كانت مكتوبة على جذوع النخل أو الجلود .. أو أى وسيلة أخرى من وسائل الكتابة فى عصر نزول القرآن .. وزيادة على أن الآية تكون مكتوبة .. كان لابد أن يكون هناك اثنان على الأقل من الصحابة الحافظين لها .. إلا آية واحدة لم توجد مكتوبة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عند حافظ واحد فقط وكان القياس يقتضى ألا تكتب هذه الآية .. وهى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

ولكن أنظر الى الخواطر الايمانية يقذفها الحق سبحانه وتعالى فى قلوب المؤمنين ليكمل منهجه .. هذه الآية لم يوجد من يحفظها الا خزيمة بن ثابت ، وعندما ثار الجدل حول تدوينها ، ذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من شهد له خزيمة فحسبه) (١) .

عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت اسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها لم أجدها مع أحد الا مع خزيمة بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين (من المؤمنين رجال ..) .

وكان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قد أعطى خزيمة بن ثابت وحده نصاب شهادة رجلين .. وهذه لها قصة .. ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتاع فرسا من أعرابى .. فاستتبعه النبى صلى الله عليه وسلم ليقضيه ثمن فرسه أى ليعطيه ثمن الفرس .. فأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشى .. وأبطأ الأعرابى ..

فطفق رجال (أى أخذ رجال) يعترضون الأعرابى ليساوموه فى الفرس دون أن يعرفوا

(١) رواه البخارى وأحمد والنسائى والترمذى وقال : حسن صحيح .

أن النبى صلى الله عليه وسلم قد ابتاعه .. فنادى الأعرابى الرسول عليه الصلاة والسلام فقال : ان كنت مبتاعا هذا الفرس والا بعته .. أى هل تريد شراء الفرس أو أبيعه ؟

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أوليس ابتعته منك ؟.. فقال الأعرابى ما بعتكه (أى ما بعته لك).. فقال النبى صلى الله عليه وسلم : بلى قد ابتعته منك .. فقال الأعرابى هلم شهيدا .. أى ائتنى بشاهد .. فقال خزيمة بن ثابت أنا أشهد أنك بايعته (أى بعته له) .

وبعد أن انصرف الناس .. أقبل النبى صلى الله عليه وسلم على خزيمة .. فقال : بم تشهد ؟.. (أى كيف شهدت على هذا) .. ولم تكن موجودا وقت المبايعة بينى وبين الأعرابى.فقال خزيمة : بتصديقك يا رسول الله .. (أى هل تصدقك فى كل ما تأتينا به من خبر السماء وتكذبك فى هذه ؟.. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة خزيمة بشهادة رجلين .. فأخذت شهادته بشهادة رجلين وتم تدوين الآية .. وكان خزيمة يدعى ذو الشهادتين .. لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم اجاز شهادته بشهادتين (١)

واذا أردنا أن نعرف القرآن .. فانه لابد أن يخرج عن مقاييس البشر .. فالناس حين يعرفون الأشياء يقولون : حده كذا .. ورسمه كذا .. الى آخره .. ولكنا كى نعرف القرآن الكريم نقول ان القرآن هو ابتداء من قوله تعالى :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② ﴾

(فاتحة الكتاب)

الى أن نصل الى قوله جل جلاله :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَٰهِ النَّاسِ ③ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥ ﴾

(سورة الناس)

---

(١) سير أعلام النبلاء . الجزء الثانى . ص ٤٨٦ . واسناده صحيح

أي أنه من أول سورة الفاتحة .. الى آخر سورة الناس .. على أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .. قبل أن نقرأ أي آية من القرآن .. كما علمنا الحق سبحانه وتعالى في قوله :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾

(سورة النحل)

لكن العلماء ارادوا التخفيف على الناس في تعريف القرآن الكريم .. فقالوا هو كلام الله .. نزّله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقصد التحدي والاعجاز ليبين للناس منهج الله . والقرآن يتفق مع المناهج التي سبقته ، ولكنه يضيف عليها ويصحح ما حذف منها لأنه موحى به من الله .. فالتوراة والانجيل والزبور من الله .. ولكنها تحمل المنهج فقط .. اما القرآن الكريم .. فهو المنهج والمعجزة الدالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

التوراة كانت منهج موسى وكانت معجزته العصا .. والانجيل منهج عيسى ومعجزته ابراء الاكمه والابرص باذن الله .. اذن بالنسبة للرسل السابقين .. كانت المعجزة شيئا والمنهج شيئا آخر ، ولكن القرآن تميز أنه المنهج والمعجزة معا .. ذلك ان المناهج التي ارسلها الله مع الرسل السابقين انزلها على نية تغييرها ..

ولكن القرآن الكريم .. نزل على نية الثبات الى يوم القيامة . ولذلك كان لابد ان يؤيد المنهج بالمعجزة حتى يستطيع اي واحد من اتباع محمد عليه الصلاة والسلام ان يقول محمد رسول الله وتلك معجزته .. ولكن معجزات الرسل السابقين حدثت وانتهت .. لأنها معجزات حسية .. من رآها آمن بها .. ومن لم يرها فهو غير مقصود بها . لأنها حدثت لتثبيت المؤمنين .. الذين يتبعون الرسول .. فمعجزة عيسى عليه السلام لا يمكن ان تعود الآن من جديد .. وعصا موسى التي شقت البحر لايستطيع اتباع موسى ان يأتوا بها الان ليقولوا هذه معجزته

اذن فالرسل السابقون لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان لكل منهم منهج ومعجزة . ولكن كليهما منفصل عن الآخر .. فالمنهج غير المعجزة حالة مفقودة في الرسالات كلها .. ولكنها في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم امر موجود يمكن ان

يشار ليه فى اى وقت من الاوقات . .

ونظرة واحده فيما قال الله سبحانه وتعالى فى كونيات الحياة التى اتيحت للعقل البشرى فى القرن العشرين . . نجد أن القرآن الكريم يشير اليها لأن العصر فى الرسالة القرآنية الى ان تقوم الساعة . . ومادام الى ان تقوم الساعة . . يظل القرآن معجزة حتى قيام الساعة . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝ ﴾

(سورة فصلت)

أى أن القرآن له عطاءان فى الاعجاز . . العطاء الاول آيات فى الافاق ، وهذه هى الآيات الكونية . والعطاء الثانى « آيات فى أنفسهم ، وهذه هى الآيات التى تتعلق بأسرار الجسد البشرى . وقول الحق : « حتى يتبين لهم انه الحق » أى أن القرآن هو الحق . . ولذلك يمكن ان نقول ان آيات الكون ستأتى موافقة لآيات القرآن الكريم . . اى ان الله سبحانه وتعالى وضع فى القرآن الكريم من آيات الكون وأسراره وعن الجسد البشرى وتكوينه آيات يمكن أن يعطيها المؤمنين وغير المؤمنين .

ولقد اعطى الله تبارك وتعالى من آيات الكون المؤمنين . . فبرع المسلمون الاوائل فى العلوم . مثل جابر بن حيان الذى وضع اساس علم الكيمياء . وابن سينا الذى وضع اسس علم الطب والفلك والرياضيات . وابن النفيس الذى اكتشف الدورة الدموية ووصفها وصفا علميا دقيقا . وبن الهيثم الذى برع فى الرياضيات والطبيعيات والطب . وكان أول من شرح تركيب العين وكيف تعمل وأبو القاسم الذى نبغ فى العمليات الجراحية وغيرها .

ثم أعطى الله سبحانه من آيات الكون غير المؤمنين بما نشهده الآن من نهضة علمية فى دول الغرب . . وذلك يفسر قوله تبارك وتعالى .

« حتى يتبين لهم انه الحق » أى أن آيات الكون . ستجعل المنكرين للقرآن

الكريم يحرفون عنه الحق . ذلك ان المؤمن يعرف ان القرآن هو الحق . . ولكن المنكر للاسلام يكتشف الله له ايات امر معجز . يبين له ان هذا الدين حق ولقد حدث اخيرا في مؤتمرات الاعجاز العلمي للقرآن الكريم ان اعلن عدد من العلماء اعتناقهم للدين الاسلامي .

واذا أردنا ان نعرف شيئا عن معجزة القرآن فانظر ماذا قال عن الكون وكروية الارض ودورانها حول نفسها . . وما يحدث في اعماق البحار وغير ذلك مما لم يكتشف الا في القرن العشرين . واذا أردنا ان نعرف الاعجاز في القرآن في قوله «وفي انفسهم» فلننظر الى مراحل تكوين الجنين ومركز الاعصاب في الجسد البشري وتكوين الاذن والعين وغير ذلك من اعجاز لا يمكن ان يتحدث عنه بهذه الدقة إلا خالقه وهذا ما شهد به علماء نبغوا في علومهم بينما هم منكرون للاسلام وللقرآن ! وهذه الحقائق العلمية التي أشار اليها القرآن الكريم لا يستطيع أحد أن ينكرها الآن لانها اصبحت ثابتة الوجود

والقرآن حين يتحدى فإنه لا يمكن أن يأتي بمعجزة لا يعرف عنها الخلق شيئا فأنت لا تتحدى كسيحا في سرعة المشي . ولا شيخا كبيرا ضعيفا في حمل الاثقال ولكنك اذا تحديت فلابد ان تتحدى مجموعة من الناس فيما نبغوا فيه

ولذلك اذا قلنا ان القرآن جاء يتحدى العرب في اعجاز الاسلوب واللغة فهذه شهادة للعرب انهم نبغوا في دنيا الكلمة وهنا عندما يغلبهم القرآن ويعجزهم يكون هذا هو التحدي . . فيما نبغوا ونبغوا فيه . . ولذلك كان لابد ان يكون العرب عندهم نبوغ فطرى في الكلمة . ويكون الاداء الجيد المميز للكلمة مالوفا لديهم شعرا ونثرا وخطابة .

وحين جاء القرآن الكريم يتحدى غير العرب . تحداهم في آيات الكون و الخلق ولذلك نجد مثلا قول الحق سبحانه وتعالى عن اصحاب النار .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

هذه الآية الكريمة عندما نزلت فهمت بأنه كلما احترقت الجلود تجددت . وعندما توصل العلم الحديث الى ان مراكز الاعصاب موجودة تحت الجلد مباشرة بحيث انه اذا احترق الجلد ضاع الاحساس بالألم ، كانت هذه معجزة جديدة للدنيا كلها فى عصرنا . يريد بعض الناس ان يتخذ العلم إلها من دون الله . وهكذا كان الاعجاز المتجدد الذى يجعل القرآن معجزة خالدة . . وهذا دليل جديد على ان القرآن من عند الله وانه كلام الله .

نأتى بعد ذلك الى معجزة اخرى فى اختيار رسول الله عليه الصلاة والسلام واعداده للرسالة . انا إذا تتبعنا حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم نجد ان الله تبارك وتعالى اختاره أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك أجرى عليه معجزات كلها تنطق بصدق رسالته صلى الله عليه وسلم . أولها انه لم يشتهر عليه الصلاة والسلام انه نبغ فى شعر او نثر مثل قس بن ساعدة وأكثم بن صيفى . ومن هنا كان حظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاغة حظا عاديا دون نبوغ .

ومع ذلك فقد جاءت رسالته عليه الصلاة والسلام تتحدى قومه فى البلاغة وفى اللغة . ولو انه صلى الله عليه وسلم كان مشهورا بالشعر او النثر او الخطابة لقالوا ان القرآن عبقرية ذاتية لموهبة كانت موجودة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ الصغر . ومواهب الناس عادة تظهر قبل سن العشرين و الثلاثين اذا كانت الموهبة متأخرة ، ولكنها لا تظهر فجأة على الانسان فى سن الاربعين ، ولا توجد عبقرية تتأخر أبدا حتى الاربعين . . ولكن الناس فوجئوا بان محمداً عليه الصلاة والسلام الذى ما خطب وما كتب وما قال شعرا يأتى بقرآن يعجز عنه أشهر البلغاء واكثرهم موهبة فى فن الكلام . . من اين اتى بهذا الكلام المعجز الذى تحدى به الانس والجن وهو فى هذه السن ؟!

بعض الناس يدعون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عنده الاعجاز اللغوى . . وأخفاه عن الناس حتى سن الاربعين وبعد ذلك اظهره . . نقول ان هذا الكلام لا يتفق مع العقل . لأننا نعيش فى عالم أغيار يموت الناس فيه قبل سن العشرين وقبل سن الثلاثين وقبل سن الاربعين . فمن الذى اخبر محمدا عليه الصلاة والسلام انه لن يموت قبل سن الاربعين حتى يكتم هذه العبقرية الى هذه السن . لقد مات أبوه وهو فى بطن امه . . وماتت امه وهو طفل صغير . . هذه

المقدمات لايمكن ان توحي الى محمد عليه الصلاة والسلام ان يكتم عبقريته عن الناس حتى يصل الى هذه السن ، لأن أباه وامه قد ماتا وهو طفل صغير

ولذلك عندما جاء الكفار وطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغير القرآن كما يروى لنا القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة يونس)

ولو أن هذا القرآن من عند محمد عليه الصلاة والسلام ربما بدله حتى يؤمن من كفر ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يعلم رسوله صلى الله عليه وسلم ليرد عليهم بالحجة البالغة :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

الله سبحانه وتعالى يعلم رسوله الكريم أن يرد على الكفار انه عاش معهم أربعين سنة قبل الرسالة .. لم يشتهر بينهم بالخطابة والشعر أو البلاغة . فلو أنهم فكروا بعقولهم لعرفوا ان هذا القرآن ليس من عند رسول الله ، بل من عند الله . ثم من هذا الذي ينسب اليه الكمال فيرفضه ؟ . ويقول هذا ليس من عندي .. مع ان الناس تدعي كمالات الغير فكم من انسان رأى اعجاب الناس بعمل من الاعمال .. لم يعرف صاحبه فنسبه الى نفسه .. بل ان الناس تتصارع على نسب

الأشياء الجيدة لنفسها .. وكم رأينا نزاعا أمام القضاء بين أشخاص مختلفين كل منهم يدعى ملكيته لعمل جيد .

ثم نأتى لنقطة أخرى : رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لم يقرأ ولم يكتب .. هل يمكن أن تكون له ثلاثة أساليب متميزة تختلف بعضها عن بعض تماما .. وهى أسلوب القرآن الكريم وأسلوب الأحاديث القدسية وأسلوب الأحاديث النبوية
لا توجد عبقرية فى الدنيا من يوم أن خلقت إلى يومنا هذا لها ثلاثة أساليب لكل منها طابع مميز لا يتشابه مع الآخر .. كيف يمكن أن يفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتكلم بين القرآن والحديث القدسى والحديث النبوى .. بحيث يعطى كلا منها طابعا وأسلوبا يميزه عن الآخر .

إن لكل شخص أسلوبه الذى يتميز به ... وأنت إذا كنت مطلعا فى علوم اللغة والأدب .. فبمجرد أن تقرأ الكلام تقول هذا كلام فلان ، لأن لكل شخص ما أسلوبا يميزه .. فكيف استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسم كلامه .. فيقول هذا قرآن وهذا حديث قدسى وهذا حديث نبوى

إذن فاختلاف القرآن الكريم والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية .. أكبر دليل على أن القرآن والأحاديث القدسية ليست من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .. لأن الشخصية الأسلوبية لأى إنسان هى شخصية مميزة .. ولا يمكن أن ينفعل أحد بأحداث الحياة .. فيكتب كل مرة بأسلوب مختلف تماما عن الأسلوب الآخر .. أو يكتب اليوم بأسلوب وغدا بأسلوب وبعد غد بأسلوب .. ثم يعود بعد ذلك إلى الأسلوب الأول .. إنه إذا قرأ أحدهم القرآن يقول هذا قرآن ، وإن تلا أحدهم حديثا قدسيا يقول هذا حديث قدسى .. وإذا قال أحدهم حديثا نبويا قلنا حديث نبوى .. ولكل إنسان منا شخصية أسلوبية واحدة .. إذا حاول أن يخرج منها فإنها تغلبه .. والفروق الهائلة فى الأساليب بين القرآن والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية أكبر دليل على صدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام

واحتار الكفار ماذا يفعلون .. ولم يجدوا ثغرة من منطق ينفذون منها .. فماذا

قالوا ؟ . قالوا سحر !! وكان الرد ببساطة ان المسحور ليست له ارادة مع الساحر .. بحيث يستطيع دفع السحر عن نفسه ، وان الساحر يسحر من أمامه رغم عن إرادتهم .. فاذا كان محمد صلى الله عليه وسلم ساحرا فلماذا لم يسحركم انتم حتى تؤمنوا به .. وبأى شيء رددتم السحر عن انفسكم ؟ .

ان ادعاءكم هذا يكذب حجتكم لأن كونكم الآن جالسين تقولون ساحر .. فمعنى ذلك انه لم يسحركم .. ولو كان ساحرا حقيقيا لاجبركم بسحره على ان تتبعوه وقالوا مجنون .. نقول هم ان المجنون عمل بغير رقابة . بمعنى أنك لا تستطيع ان تتنبأ بما يفعله المجنون فى اللحظة القادمة فقد يجلس يتحدث معك وبعد دقيقة واحدة يضربك .. وتجده يبكى وبعد ثوان قليلة يضحك .. ورد الله تبارك وتعالى عليهم :

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾

(سورة القلم)

والشهادة من الله بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم .. لا تتصادم مع ما يعرفه الكفار عنه قبل الرسالة .. فهو بشهادتهم كان معروفا بالصدق والأمانة والخلق الحسن وكانوا يلقبونه بالأمين وكانوا يأمنونه على أموالهم وكل شيء له قيمة . ولنعرف كيف يتناقض الكفار مع انفسهم نقول لهم كيف تأتمنون انسانا مجنونا على أغلى ما تملكون . هل هذا يتمشى مع العقل أيذهب الانسان بأغلى ما عنده ويضعه عند رجل مجنون ؟ . طبعا مستحيل لا يمكن ان يكون المجنون على خلق عظيم .

وقالو شاعر وكاهن .. فرد القرآن الكريم بقوله تبارك تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ ﴾

(سورة الحاقة)

وقولهم شاعر مردود عليه .. بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل شعرا فى حياته . والمواهب لا تأتى فجأة بل لابد ان تصقلها التجربة والخطأ .. تماما كالذى يقود السيارة .. عندما يبدأ لابد ان يكون معه انسان يعرف قيادة السيارة ويعلمه فيخطىء ويصيب ثم بعد ذلك يقود السيارة آليا

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانت عنده ملكة الشعر ولا دربه أحد عليه . أما قولهم كاهن فالانسان ينسى بمرور الوقت . لذلك قيل اذا كنت كذوبا فكن ذكورا

واذا أردنا ان نعرف الحقيقة فإننا نسأل الانسان على فترات . فإن كان كاذبا فانه يتخبط فى أقواله . ورسول الله صلى الله عليه وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب كان ينزل عليه الوحى بالآيات فيتلوها على أصحابه . ثم يؤذن للصلاة بعد ذلك بساعات .. فيتلو رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة . الآيات التى نزلت عليه دون ان يتغير منها حرف واحد .. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى .

« قليلا ما تذكرون » .. لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان يأتى بالقرآن من عنده لنسى ولغير وبدل . لأن الذاكرة لا يمكن ان تستوعب بنفس الالفاظ ماقالته . ولو انك جئت بانسان وطلبت منه ان يتحدث فى موضوع معين وسجلته له ثم طلبت منه ان يعيد بعد نصف ساعة ما قاله .. لا يمكن أن يأتى بنفس الكلام أو بنفس الالفاظ أو بنفس الترتيب .

والحق سبحانه وتعالى يعطى رسله منهجه بالوحى .. ويكون عطاؤه غيبا لأن الله غيب فالله سبحانه وتعالى يقول

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ذلك لأن التكوين البشرى لا يمكن أن يستقبل من الله مباشرة .. والوحى اعلام

بخفاء ، ولكي نقرب المعنى من الاذهان .. نقول انك لو كنت لا تريد ان تقابل ضيفا ثقيلا فانك تتفق مع خادمك على اشارة معينة .. فاذا جاء وأخبرك أمام الحاضرين بأن فلانا وصل .. تعطيه اشارة ألا يدخله الى المنزل .. هذه الاشارة المتفق عليها .. لا يفهمها أحد من الحاضرين ولا يعرف معناها ..

هذا هو معنى الوحى اعلام بخفاء .. لا يفهمه أحد الا الموحى ومن يوحَى اليه .. والوحى مادام اعلاما بخفاء فانه يقتضى موحِيا .. وموحًى اليه وموحًى به ..

ولقد أوحى الله للرسل وأوحى الى خير الرسل .. فأوحى للملائكة والى أم موسى والى الحواريين وللنحل وللأرض .. وهناك وحى من الشيطان لأوليائه هذا هو الوحى اللغوى . أما الوحى الشرعى فيكون وحيا من الله لرسله . وكان وحى الله لموسى عليه السلام ان كلمه من وراء حجاب . وكان وحى الحق جل جلاله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. بأن أرسل له جبريل عليه السلام .. ويجىء الملك بالوحى فيسمع رسول الله عليه الصلاة والسلام صلصلة الجرس تنبيها .. ويتم اللقاء بين جبريل والرسول فتتغير كيماويات جسد الرسول .. حتى انه حينما جاءه الوحى لامست ركبته الشريفة ركبة صحابى كان يجلس بجواره فأحس كأنه جبل . واذا كان رسول الله صلى عليه وسلم راكبا الناقة .. فتئط أو تبرك الناقة على الارض ولا تستطيع السير .. وكانت لغة أخرى من الله تبارك وتعالى . انه لا تناقض مطلقا بين القرآن وبين العلم .. فاذا جاءت نظرية علمية تناقض القرآن الكريم .. فالقرآن على حق والنظرية باطلة .. وهناك نظريات أخفاها الله سبحانه وتعالى عنا .. ولكن اخفاءه لها لا يضرنا بشىء .

فالشمس ينتفع بها كل الناس ولا يعلم حقيقتها أحد .. وكذلك بعض الظواهر الكونية الاخرى .. فكل ما أخفاه الله عنا هو جهل لا يضر ولا يقلل انتفاعنا بالكون ..

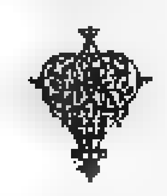
والقرآن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. ولقد جاء منهج الله للبشر ليحمى حركة الانسان الاختيارية فى الكون .. ومادام الانسان يلتزم فى حياته بالقرآن الكريم فانه يستمتع بالجمال فى الكون .. اما اذا خالفه فيكون الانسان قد سعى الى شقائه . ولقد ظهرت الداءات والامراض فى المجتمعات عندما خالف

الانسان منهج السماء ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

لماذا قدم الله سبحانه وتعالى الشفاء على الرحمة . لأن الرحمة تقى الناس من أى شر قادم .. ولكن لابد من الشفاء أولا .. وعندما نزل القرآن كانت الامراض والداءات تملأ المجتمعات الظلم وأكل حقوق الناس واستعباد الانسان للانسان وغير ذلك من أمراض المجتمع .. فجاء الاسلام أولا ليشفى هذه الامراض اذا اتبع منهجه . ثم بعد ذلك تأتى الرحمة وتمنع عودة هذه الداءات . فاذا حدثت غفلة عن منهج الله . جاءت الداءات والامراض فاذا عدت الى صيدلية القرآن تأخذ منها الدواء يتم الشفاء .



﴿ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾

طلب الله سبحانه وتعالى من كل مؤمن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم قبل أن يقرأ القرآن . إذن فالاستعاذة هي أول التقاء بين المؤمن وبين بداية قراءته للقرآن الكريم والله سبحانه وتعالى يقول

﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

وواضح أن الآية الكريمة . . تطلب منا الاستعاذة بالله من الشيطان قبل أن نقرأ القرآن ذلك أن كل مخلوق إذا اتجه إلى خالقه واستعاذ به يكون هو الأقوى برغم ضعفه وهو الغالب برغم عدم قدرته . لأن الله عندما يكون معك . تكون قدرتك وقوتك فوق كل قدرة وأعلى من كل قوة . لأنك جعلت الله سبحانه وتعالى في جانبك . ونحن حين نقرأ القرآن لابد أن نصفي جهاز استقبال لحسن استقبال كلام الله . وفي هذه الحالة لا يمكن ذلك بقدراتنا نحن ولا بقوتنا . ولكن بالاستعانة بقوة وقدرة الله . لماذا ؟ لأن معوقات المنهج عند الإنسان المؤمن إنما هي من عمل الشيطان .

وإبليس يأتي دائما من الباب الذي يرى فيه المنهج ضعيفا . فإذا وجد إنسانا متشددا في ناحية يأتي له من ناحية أخرى . فلو أن العبد المؤمن متشدد في الصلاة . يحافظ عليها ويؤديها في أوقاتها ، جاءه إبليس من ناحية المال . يوسوس له بألا يخرج الزكاة لأنه سيؤدي به إلى الفقر . ويوسوس له أن يأكل حقوق الناس مدخلا السرور الى نفسه بالوهم بأنه سيصبح غنيا آمنا مطمئنا على غده . وهذا كذب .

والحقيقة هي التي رواها لك رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : (ما نقص مال من صدقة) [١] والصدقة هي التي تكثر المال وتضع فيه البركة فيزداد وينمو .. والمال هو مال الله ينتقل من يد الى يد في الدنيا .. ثم يموت الانسان ويتركه .. ولكن ابليس يستغل غفلة الناس عن هذه الحقيقة ليدفعهم الى المال الحرام . فاذا كان الانسان متشددا من ناحية المال .. جاءه من ناحية المرأة فيظل يزين له امرأة خليعة .. يوسوس له حتى يسقط في الزنا .. وإن كان قويا في هذه النواحي كلها . زين له ابليس الخمر أو مجلس السوء أو النميمة .. المهم أن ابليس يظل يدور حول نقط الضعف في الانسان ليسقطه في المعصية .

ولذلك فإن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، إنما تجعل الله سبحانه وتعالى يقوى نقط الضعف فيك . فلا يستطيع الشيطان أن ينفذ اليك وأنت تقرأ القرآن ليضع في رأسك هواجس تلهيك عن هذه القراءة .. ذلك أن عطاء الله في القرآن الكريم يساوى بين جميع الخلق .. فعطاء القرآن متساو ولكن كل انسان يأخذ على قدر ايمانه .. فالقرآن يقرأ والناس تسمع . ولكن هل يتقبل الجميع القرآن تقبلا متساويا ؟ نقول لا . فقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة محمد)

أى أن القرآن لم يؤثر فيهم .. ولكنه أثر في المؤمنين الذين استمعوا اليه مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة فصلت)

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة ، وتتمة الحديث : «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه»

فالقرآن عطاؤه للجميع ولكن المهم من يستقبله . وكيف يستقبله عندما يتلى عليه .. والله سبحانه وتعالى يريدنا عندما نقرأ القرآن .. أن نبعد الشيطان عن أنفسنا قبل أن يبعدنا هو عن منهج الله وعن آياته .. ولما أننا لانرى الشيطان وهو يرانا .. ولانعرف أين هو بينما هو يعرف اين نحن .. مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فلابد من أن نستعيذ بقوة تستطيع أن تقهر الشيطان وتدمره . الله سبحانه وتعالى طلب منا أن نستعيذ به وأن نلجأ اليه . لأنه هو القادر على أن يحمينا . ويصفي قلوبنا ونفوسنا من همزات الشياطين . فيحسن استقبالنا للقرآن الكريم .. لأنه اذا صفيت نفسك لاستقبال القرآن .. فإن آياته الكريمة تمس قلبك ونفسك وتكون لك هدى ونورا .

والشيطان قد قضى الله سبحانه وتعالى فى أمره . فطرده من رحمته وجعله رجيما مبعدا .. والشيطان يعرف أن مصيره النار . ويعتقد أن آدم هو السبب .. لأن بداية المعصية كانت رفض ابليس طاعة أمر الله فى السجود لآدم .. وقال كما يروى لنا القرآن الكريم .

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وكانت معصية ابليس فى القمة .. لأنه رد الأمر على الآمر .. وقال لن اطيع ولن

أسجد لآدم لأنى خير منه .. هو من طين وأنا من نار فكأنه لم يرض بحكم الله سبحانه وتعالى وأراد أن يعدله . وهذه معصية فى القمة . جعلت الله تبارك وتعالى يطرد ابليس من رحمته . ويصفه بأنه رجيم .. وذلك حتى نعرف أن مصيره النار وأن الله لن يغفر له .

ويبدأ ابليس بغواية آدم عليه السلام فآدم عاش فى جنة تعطيه مقومات حياته بلا تعب وبلا عمل .. وكان فى الجنة ألوف الأشجار تعطى كل الثمرات وهى حلال لآدم وحواء يأكلان منها مايشاءان . ماعدا شجرة واحدة حرمها الله عليهما . وكانت هذه الشجرة هى بداية الخطيئة .. بدأ ابليس يغرى آدم وحواء على المعصية . كيف ؟ .. حاول اقناعهما بأن عدم الأكل من هذه الشجرة سيحرمهما من خير كبير . واقرأ قول القرآن الكريم :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وفى إغواء آخر :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾

(سورة طه)

وهكذا نعرف أن إبليس يأتى للانسان من أكثر من زاويه .. لذلك كانت الزاوية الأولى هى أن هذه الشجرة من يأكل منها .. يكون ملكا أو يكون خالدا .. وكان الاغواء الثانى ان هذه الشجرة تعطى لمن يأكل منها بجانب الخلود مُلْكاً لا ينتهى .

إذن فإبليس يصور للإنسان .. أن ما منعه الله عنه هو الخير .. وأنه لو عصى سيحصل على المال والنفوذ . لقد أكل آدم وحواء من الشجرة فلم يخلدا ولم يأت لهما مُلك لا ينتهى بل ظهرت عوراتهما وعرف أن إبليس كان كاذبا وأن الله

سبحانه وتعالى ينهيه وما ينهانا عنه انما كان يريد لنا الخير .

ولكن الشيطان يأتى ويزين للانسان طريق الباطل .. ولو أن آدم كان قد حكم عقله يعرف كذب وسوسة ابليس .. فابليس كما يدعى كان يدل آدم على شجرة الخلد . ولو أن هذه الشجرة كانت تعطى الخلد فعلا .. لما طلب ابليس من الله تبارك وتعالى أن يبقى على حياته الى يوم القيامة . بل لأكل من الشجرة ونال الخلد .

ولكن ابليس دخل من ناحية الغفلة فى النفس البشرية ليوقع آدم فى المعصية .. وهو يدخل الى أبناء آدم من ناحية الغفلة أيضا . ولو أن أبناء آدم حكموا عقولهم وهم يعرفون أن هناك عداوة مسبقة بين آدم وابليس .. وأن ابليس طلب من الله سبحانه وتعالى أن يبقيه الى يوم القيامة لينتقم من آدم وأولاده بإغوائهم عن المعصية . لو تنبهنا الى ذلك لأخذنا حذرنا . وعندما تنكشف وسوسة الشيطان فانه يهرب .

ابليس دخل الى ناحية الغواية بأن أقسم بعزة الله .. وأن الله عزيز لا يحتاج لخلقه . ولا يضره سبحانه وتعالى من كفر . ولا يزيد شيئا فى ملكه من آمن .. استعمل عزة الله فى استغنائه عن خلقه . فقال كما يروى لنا القرآن الكريم .

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

ولكن الحق تبارك وتعالى . أخبرنا أنه طرد ابليس من رحمته وسماه رجيما حتى نعرف جميعا أنه لن يدخل فى رحمة الله أبدا .

ابليس دخل الى غواية بنى آدم بعزة الله سبحانه وتعالى عن خلقه .. فلو أن الله اراد خلقه جميعا مهديين .. ما استطاع ابليس أن يتقدم ناحية واحد منهم .. واقرأ قوله سبحانه :

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

اذن الله سبحانه وتعالى هو الذي أعطى للانسان حق الاختيار ولو شاء لجعله مقهورا على الطاعة كباقي الخلق .. من نقطة الاختيار هذه . وقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالله سبحانه وتعالى . بيّن لنا طريق الهدى وطريق المعصية .. ثم ترك لنا أن نختار طاعة الله ورحمته . أو معصية الله وعذابه .. ولم يعطنا الحق تبارك وتعالى هذا الاختيار الا في فترة محدودة هي حياتنا في الدنيا .. فعندما يحتضر الانسان تخمد بشريته . ويصبح لا اختيار له كما أن الله جل جلاله لم يعطنا الاختيار في كل أحداث الدنيا . بل أعطاه لنا في المنهج فقط في الطاعة أو المعصية

ولكن نتقى الشيطان في حياتنا شرح لنا القرآن الكريم كيف سيغوى ابليس بنى آدم . واقرأ القرآن الكريم :

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى أن ابليس لا يجتهد في اغواء من باع نفسه للمعصية . وانطلق يخالف كل ما أمر به الله .. فالنفس الأمارة بالسوء لها شيطانها . وهى ليست محتاجة الى اغواء لأنها تأمر صاحبها بالسوء .. ولذلك فإن ابليس لا يذهب الى الخمارات وبيوت الدعارة . ويبذل جهدا في اغواء من يجلسون فيها . لأن كل من ذهب الى هذه الاماكن .. هو من شياطين الانس . ولكن ابليس يذهب الى مهابطُ الطاعة وأماكن العبادة . هؤلاء يبذل معهم كل جهده وكل حيله ليصرفهم عن عبادة الله ، ولذلك لابد أن ننتبه الى أن ابليس لم يقل لأقعدن لهم على الطريق المعوج

فالطريق المعوج بطبيعته يتبع الشيطان .. فإبليس يريد أهل الطاعة .. يزين لهم المعصية ويغريهم بمال الحرام .

القرآن الكريم يقول :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

هذه هي جهات الغواية التي يأتي منها ابليس .. من بين أيديهم أى من أمامهم وهذه هي الجهة الأولى . ومن خلفهم اى من ورائهم وهذه هي الجهة الثانية .. وعن أيمانهم أي من اليمين وهذه هي الجهة الثالثة .. وعن شمائلهم أى من الشمال وهذه هي الجهة الرابعة .. ولكننا نعلم أن الجهات ست وليست أربعا .. فما هما الجهتان اللتان لا يأتي منهما الشيطان ؟ .. هما فوق وتحت .. هرب ابليس من هاتين الجهتين بالذات .. ولم يقل سآتي لهم من فوقهم أو من تحتهم ، لأنه يعلم أن الجهة العليا تمثل الفوقية الالهية .. وأن الجهة السفلى تمثل العبودية البشرية حينما يسجد الانسان لله .. ولذلك ابتعد ابليس عن هاتين الجهتين تماما .

ومن العجيب أنك اذا نظرت الى أبواق الالحاد في كل عصر .. تجدها تأتي من الجهات التي يأتي منها الشيطان .. يقولون تقدمي جهة الامام .. ورجعي جهة الخلف ويميني جهة اليمين ويساري جهة اليسار نقول لهم نحن لسنا في أى جهة من هذه الجهات . لا تقدميين ندعو الى التحلل والفجور . ولا رجعيين نقول هذا ما وجدنا عليه آباءنا . ولا يساريين ننكر الدين ونناصر الكفر . ولا يمينيين نؤمن بالرأسمالية واستغلال الانسان .. ولكننا أمة عمدية فوقية . كل أمورنا من الله . ومادامت أمورنا من الله سبحانه وتعالى . فنحن لا نخضع لمساوٍ لنا . ولكننا نخضع لله العلي القدير .. ومادمت تخضع لأعلى منك فلا ذلة أبدا بل عزة ورفعة . مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

ونحن أمة محمدية فوقية .. نعلن عبوديتنا وخضوعنا له .. ونتبع منهج السماء ولذلك فقد تميزنا عن البشر جميعا لأن كل انسان في الدنيا لا يخضع لله سبحانه وتعالى ولا يأخذ منهجه عنه فهو خاضع لمنهج بشرى وضعه مساو له من البشر .. والنفس البشرية لها هوى تريد أن تحققه لذلك فهى تضع المنهج الذى يمكنها من أن تتميز به على الناس المنهج الذى تستفيد منه هى وحدها .. ولذا يكون المنهج من وضع مجموعة أفراد أو طبقة . نقول أن منهجهم لفائدتهم .. ولكن الله سبحانه وتعالى يضع منهجه ليعطيك خيرا .. لا ليأخذ منك الخير ، لأنه جل جلاله مصدر الخير كله وهو ليس محتاجا لما تملك ولا ما يملك كل البشر . اذن العدل والخير والحرية هى منهج السماء . فالله لا يأخذ منك ولكن يعطيك . ولا يذلك ولكن يحررك .

على أن هناك لفتة . لابد أن ننتبه اليها . فهذه الفوقية هى التى جعلت الله سبحانه وتعالى يختار أمة أمية . ليجعل فيها آخر صلة للسماء بالأرض ويختار من هذه الأمة رسولا أميا .. أى كما ولدته امه لم يأخذ ثقافة من مساويه .. لم يتثقف على الشرق أو على الغرب . ولم يقرأ لفلان فيتأثر به .. أو لفيلسوف فيتبعه . ولكن الذى علمه هو الله جل جلاله .

اذن فالأمية شرف لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. لأنها تؤكد أن كل ما جاء به هو من الله سبحانه وتعالى . ولذلك فكل ما يأتى به معجزة لأنه من وحى السماء . فلو أن القرآن نزل على أمة متحضرة كالفرس أو الروم .. أو على نبى غير أمىّ . قد قرأ كتب الفلاسفة والعلماء من الشرق والغرب لقيل أن « القرآن التقاء حضارات وهبات عقل واصلاحات ليقود الناس حركة حياتهم » ولكن لا هى أمة أمية ـ ورسول أمى تأكيدا لصلتها بالسماء وأن ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام . لا دخل لبشر ولا ثقافة ولا حضارة به . وهو ليس من معطيات عقول البشر . ولكنه من الحق تبارك وتعالى . ليصبح محمدٌ صلى الله عليه وسلم وهو الرسول الأمى معلما للبشرية كلها . وهكذا نعرف أن الشيطان لايستطيع أن يقترب من مكان صعود الصلاة وصالح الأعمال الى السماء،ومن مكان الخضوع والعبودية لله سبحانه وتعالى

وقد أصرّ الشيطان على غواية الانسان .. حتى لا يكون هو العاصى الوحيد .

فإدم عصى وطرد من رحمة الله لماذا يكون هو العاصي الوحيد ؟ . . لماذا لايكون الكل عاصيا ؟ . . وإذا كانت معصيه الشيطان بسبب عدم السجود لآدم . فلماذا لا يأخذ أولاد آدم معه الى النار ؟ انتقاما منهم ومن أبيهم . بعض الناس يقول . . ابليس عصى وآدم عصى . والله سبحانه وتعالى طرد ابليس من رحمته وغفر لآدم . . نقول ان هناك فرقاً بين معصية ومعصية . معصية ابليس كانت معصية في القمة . . ترد الأمر على الآمر . تقول لا . لن أسجد ولن أطيع لأنني من نار وهو من طين . . فكأنه رد الأمر على الآمر . . أما آدم فقال : يارب أمرك الحق وقولك الحق ومنهجك الحق ولكني ضعيف لم استطع أن أحمل نفسي على الطاعة . . فسامح ضعفي يارب ، ولذلك شرع له الله سبحانه وتعالى التوبة . وعلمه كلمات ليتوب عليه .

إذن فهناك فرق بين معصيتين . معصية تقول لن أطيع لأنني خير منه . . ومعصية يعترف فيها العبد بالخطأ والضعف ويتجه الى الله طالب التوبة والغفران . وبرغم أن الله سبحانه وتعالى قد أبلغنا في القرآن الكريم أن الشيطان عدو لك . . في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

(سورة فاطر)

فإن الانسان لايحتاط . . ولذلك في كل مرة نقرأ فيها القرآن . . يريد الله سبحانه وتعالى . . أن نستعيذ به من الشيطان الرجيم . حتى إذا كان الشيطان قد مسنا أو غلبنا في حدث من احداث الحياة . فإن الله سبحانه وتعالى يبعده عنا ونحن نقرأ القرآن حتى تصفو قلوبنا ونكون قد أبعدنا الشيطان . وما حاول أن يوسوسه لنا ليبعدنا عن المنهج

عندما نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . فهناك مستعاذ به وهو الله تبارك وتعالى من الشيطان . . والشيطان من خلق الله وأنت من خلق الله . فمن الممكن ان يعرد خلق لله محلق لله ، ويكون القوى بقوته . أما إذا التحم احدهما بخالقه فالثاني لايقدر عليه . وأنت إذا تركت نفسك للشيطان . انفرد بك . ولذلك نستعيذ بالله الذي خلقك وخلق الشيطان . . فيهيك عليه . ولذلك حين نجد قوما مؤمنين وقوما كافرين إن ظل المؤمنون موصولين بربهم لا يهزمهم الكفار

أبدا فاذا بعدوا عن منهج الله . يهزمهم الكفار .. لأنه فى هذه الحالة يكون القتال بين فئتين ابتعدتا عن الله .. اذن فعندما يعرد خلق بخلق فالقوى هو الذى يغلب . أما إذا احتمى خلق بخالقهم . فلا يقدر عليهم أحد . البشر يقدر على البشر إذا بعدت الفئتان عن الله . فإن كانت الفئتان معتصمتين بالله .. فلن يتقاتلا .

والحق تبارك وتعالى . يريدك حين تقرأ القرآن أن تصفّى جهاز استقبالك تصفية تضمن حسن استقبالك للقرآن .. بأن تبعد عنك نزغ الشيطان . حينئذ تستقبل القرآن بصفاء .. وتأخذ منه كل عطاء فاذا استعذت بالله من الشيطان الرجيم تكون فى جانب الله فلا يأتيك الشيطان أبدا .. ولذلك سيأتى الشيطان يوم القيامة ليقول لمن أغواهم كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

(سورة ابراهيم)

اذن فالشيطان ليس له سلطان على الانسان أن يقهره على فعل لا يريده .. أى ليس له سلطان القهر . وليس له سلطان على أن يقنع الانسان بالمعصية .. وهذا اسمه سلطان الحجة فالسلطان نوعان قهر لمن لا يريد الفعل . واقناع يجعلك تفعل الفعل وأنت راض .. الشيطان ليس له سلطان القهر على عمل لا تريده وليس له سلطان الحجة .. ليقنعك بأن تفعل ما لا تريد أن تعمله .. ولكن المسألة ان وسوسة الشيطان .. وجدت هوى فى نفوسنا فتبعته .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يمنع عنا هذه الوسوسة .. ونحن نقرأ القرآن . ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الشيطان . وهو الذى أعطاه القدرة على أن يوسوس للانسان . لماذا ؟ . لأنه لو أن الطاعة وجدت بدون مقاوم .

لا تظهر حرارة الايمان . ولا قوة الاقبال على التكليف . . وانما عندما يوجد إغراء والحاح في الاغراء . وأنت متمسك بالطاعة . فذلك دليل على قوة الايمان . . تماما كما أنك لا تعرف قوة أمانة موظف إلا إذا أغريته برشوة . فلو أنه لو لم يتعرض لهذا الاغراء . . فلن تختبر أمانته أبدا . ولكن إذا تعرض للاغراء . . وتمسك بأمانته ونزاهته فهذه هي الامانة . .

والله سبحانه وتعالى أعطانا الاختيار لأنه يريد من خلقه من يطيعه وهو قادر على معصيته . . ويؤمن به وهو قادر على عدم الايمان . . لأن هذه تثبت صفة المحبوبية لله . الخلق المقهور لله يأتى له قهرا . لا يقدر على المعصية . . وهذا يثبت القهر والجبروت لله . ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد خلقا يأتيه عن حب . وقد يكون هذا الحب من أجل عطاء الله في الآخرة ونعيمه وجنته فلا يضن الله على عباده بها . . وقد يكون عن حب لذات الله . لذلك يقول بعض اهل الصفاء في معنى الآية الكريمة :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة الكهف)

يقولون إن الجنة أحد . . لأن الحق سبحانه وتعالى قال ومن كان يريد لقاء ربه . . أى الأنس بلقاء الله . . فان كنت تعمل للذات وليس للعطاءات فانك تكون في أنس الله يوم القيامة . . والذى عمل للجنة سيأخذها . . والذى عمل لما هو فوق الجنة يأخذه .

او لم يخلق الله تعالى جنة ونارا ، أما كان اهلا لأن يعبد ؟! ولقد قالت رابعة العدوية : « اللهم إن كنت تعلم أنى أعبدك طمعا في جنتك فاحرمنى منها ، وإن كنت تعلم انى أعبدك خوفا من نارك فارسلنى فيها ، أنا أعبدك لأنك تستحق أن تعبد»

والحق سبحانه وتعالى : يريدك عندما تقرأ القرآن . . أن تصفى نفسك له سبحانه وتعالى وهو جل جلاله يعلم مكائد الشيطان ومداخله الى النفس البشرية . وأنه سيوسوس لك ما يفسد عليك فطرتك الايمانية . . فيأتى القرآن على فطرة

فسدت فلا يحدث استقبال لموصلاته على النفس البشرية ولكن اذا استعذت بالله ، فقد استعذت بخالق . فلا يجرؤ الخلق عن الاقتراب منك . ولذلك إن أردت من جهاز استقبالك أن يكون صالحا لصفاءات الارسال ، سامعا لكلام الله . . لأن الله هو الذي يتكلم . فالقرآن ليس كلام القارىء له . ولكنه كلام الله سبحانه وتعالى . . ولذلك قال سيدنا جعفر الصادق رضي الله عنه . . وكان أكثر آل بيت رسول الله معرفة بأسرار القرآن الكريم . . ان منغصات الحياة عند الانسان الخوف والغم والهم والضر وزوال النعمة . قال عجبت لمن خاف ولم يفزع الى قول الله سبحانه وتعالى : حسبنا الله ونعم الوكيل فقد سمعت الله بعدها يقول «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء» وعجبت لمن ابتلى بالضر ولم يفزع الى قول الله سبحانه وتعالى «إن مسني الضر وانت ارحم الراحمين» فقد سمعت الله بعدها يقول . «فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضره . وعجبت لمن بلى بالغم كيف لم يفزع الى قول الله تعالى «لا إله إلا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين» فقد سمعت الله بعدها يقول : «فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين» . وعجبت لمن أضير ولم يفزع لقول الله سبحانه وتعالى : «وأفوض أمرى الى الله إن الله بصير بالعباد» . فقد سمعت الله تعالى بعدها يقول «فوقاه الله سيئات مامكروا»

وأنت مادمت في معية خالقك لا يجرؤ الشيطان أن يذهب إليك أبدا

وحين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في غار ثور ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم الهجرة . والكفار عند مدخل الغار بسلاحهم . ماذا قال أبو بكر رضي الله عنه ؟ قال لو نظر احدهم تحت قدميه لرآنا . وهذا واقع لا يكذب إلا بصفاء ايماني . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحبه : ماظنك باثنين الله ثالثهما وهو ماتشير اليه الآية الكريمة بقوله تعالى :

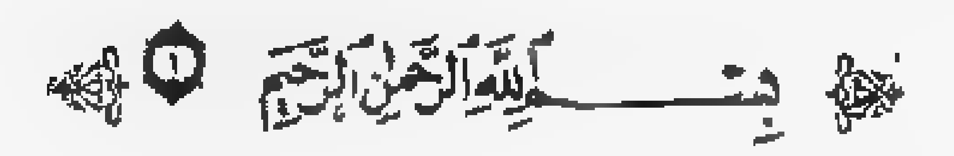
﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾

(سورة التوبة)

اذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعه أبو بكر رضي الله عنه كلاهما في معية الله ولكن هل كونهما في معية الله رد على قول أبي بكر . لو نظر احدهم تحت قدميه لرآنا نقول نعم . . لأنهما في معية الله ـ والله لا تدركه الأبصار ـ فلا تدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر الأبصار كذلك مداما في معية الله .


سورة الفاتحة





القرآن الكريم منذ اللحظة التي نزل فيها نزل مقرونا بسم الله سبحانه وتعالى - ولذلك حينما نتلوه فإننا نبدأ البداية نفسها التي أرادها الله تبارك وتعالى - وهي أن تكون البداية بسم الله . وأول الكلمات التي نطق بها الوحي لمحمد صلى الله عليه وسلم كانت «اقرأ باسم ربك الذي خلق» . وهكذا كانت بداية نزول القرآن الكريم ليباشر مهمته في الكون . . هي بسم الله . ونحن الآن حينما نقرأ القرآن نبدأ نفس البداية .

ولقد كان محمد عليه الصلاة والسلام في غار حراء حينما جاءه جبريل وكان أول لقاء بين الملك الذي يحمل الوحي بالقرآن . . وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الحق تبارك وتعالى : «اقرأ» .

و«اقرأ» تتطلب أن يكون الإنسان . إما حافظا لشيء يحفظه ، أو أمامه شيء مكتوب ليقرأه . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان حافظا لشيء يقرؤه . وما كان أمامه كتاب ليقرأ منه . وحتى لو كان أمامه كتاب فهو أمي لا يقرأ ولا يكتب .

وعندما قال جبريل : «اقرأ» . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما أنا بقارىء» . . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام منطقيا مع قدراته . وتردد القول ثلاث مرات . . جبريل عليه السلام بوحي من الله سبحانه وتعالى يقول للرسول : «اقرأ» ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ما أنا بقارىء» . . ولقد أخذ خصوم الإسلام هذه النقطة . وقالوا كيف يقول الله لرسوله اقرأ ويرد الرسول «ما أنا بقارىء» .

نقول إن الله تبارك وتعالى . كان يتحدث بقدراته التي تقول للشيء كن فيكون ،

بيها رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يتحدث بشريته التي تقول أنه لايستطيع أن يقرأ كلمة واحدة ، ولكن قدرة الله هي التي ستأخذ هذا النبي الذي لايقرأ ولايكتب لتجعله معلما للبشرية كلها الى يوم القيامة . . لأن كل البشر يعلمهم بشر . ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم سيعلمه الله سبحانه وتعالى ليكون معلما لأكبر علماء البشر يأخذون عنه العلم والمعرفة . لذلك جاء الجواب من الله سبحانه وتعالى .

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ﴾

(سورة العلق)

اى أن الله سبحانه وتعالى . الذي خلق من عدم سيجعلك تقرأ على الناس ما يعجز علماء الدنيا وحضارات الدنيا على أن يأتوا بمثله . وسيكون ماتقرؤه وأنت النبي الأميّ اعجازا . . ليس لهؤلاء الذين سيسمعونه منك فقط لحظة نزوله . ولكن للدنيا كلها وليس في الوقت الذي ينزل فيه فقط ، ولكن حتى تقوم الساعة ، ولذلك قال جل جلاله :

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ ﴾

(سورة العلق)

اى أن الذي ستقرؤه يا محمد . سيظل معجزا للانسانية كلها الى نهاية الدنيا على الأرض . ولأن المعلم هو الله سبحانه وتعالى قال : «اقرأ وربك الأكرم» مستخدما صيغة المبالغة فهناك كريم وأكرم فانت حين تتعلم من بشر فهذا دليل على كرم الله جل جلاله . لأنه يسر لك العلم عن يد بشر مثلك . . اما اذا كان الله هو الذي سيعلمك . يكون «أكرم» . . لأن ربك قد رفعك درجة عالية ليعلمك هو سبحانه وتعالى . .

والحق يريد أن يلفتنا الى أن محمدا عليه الصلاة والسلام لا يقرأ القرآن لأنه تعلم القراءة ، ولكنه يقرؤه باسم الله ، ومادام باسم الله . فلا يهم أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلم من بشر أو لم يتعلم لأن الذي علمه هو الله . . وعلمه

فوق مستوى البشرية كلها .

على أننا نبدأ أيضا تلاوة القرآن بسم الله .. لأن الله تبارك وتعالى هو الذى أنزله لنا .. ويسر لنا أن نعرفه ونتلوه .. فالأمر لله علما وقدرة ومعرفة .. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

لذلك أنت تقرأ القرآن .. باسم الله .. لأنه جل جلاله هو الذى يسره لك كلاما وتنزيلا وقراءة .. ولكن هل نحن مطالبون أن نبدأ فقط تلاوة القرآن بسم الله ؟ .. إننا مطالبون أن نبدأ كل عمل باسم الله .. لأننا لابد أن نحترم عطاء الله فى كونه .. فحين نزرع الأرض مثلا .. لابد أن نبدأ بسم الله .. لأننا لم نخلق الأرض التى نحرثها .. ولا خلقنا البذرة التى نبذرها .. ولا أنزلنا الماء من السماء لينمو الزرع .

إن الفلاح الذى يمسك الفأس ويرمى البذرة قد يكون أجهل الناس بعناصر الأرض ومحتويات البذرة وما يفعله الماء فى التربة لينمو الزرع .. إن كل ما يفعله الإنسان هو أنه يعمل فكره المخلوق من الله فى المادة المخلوقة من الله .. بالطاقة التى أوجدها الله فى أجسادنا ليتم الزرع .

والإنسان لا قدرة له على إرغام الأرض لتعطيه الثمار .. ولا قدرة له على خلق الحبة لتنمو وتصبح شجرة .. ولا سلطان له على إنزال الماء من السماء .. فكأنه حين يبدأ العمل باسم الله ، يبدؤه باسم الله الذى سخر له الأرض .. وسخر له الحب ، وسخر له الماء ، وكلها لا قدرة له عليها .. ولا تدخل فى طاقته ولا فى استطاعته .. فكأنه يعلن أنه يدخل على هذه الأشياء جميعا باسم من سخرها له .

والله تبارك وتعالى سخر لنا الكون جميعا وأعطانا الدليل على ذلك .. فلا تعتقد أن لك قدرة أو ذاتية فى هذا الكون .. ولا تعتقد أن الأسباب والقوانين فى الكون لها ذاتية .. بل هى تعمل بقدرة خالقها .. الذى إن شاء أجراها وإن شاء أوقفها

الحمل الضخم والفيل الهائل المستأنس قد يقودها طفل صغير فيطيعانه . ولكن الحية صغيرة الحجم لايقوى أى انسان على أن يستأنسه . ولو كنا نفعل ذلك بقدراتنا . . لكان استئناس الحية أو الثعبان سهلا لصغر حجمها . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعلها مثلا لنعلم أنه بقدرته هو قد أخضع لنا ما شاء ، ولم يخضع لنا ما شاء . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

وهكذا نعرف أن خضوع هذه الأنعام لنا هو بتسخير الله لها وليس بقدرتنا

يأتى الله سبحانه وتعالى الى أرض ينزل عليها المطر بغزارة . والعلماء يقولون إن هذا يحدث بقوانين الكون . فيلفتنا الله تبارك وتعالى الى خطأ هذا الكلام . بأن تأتى مواسم جفاف لا تسقط فيها حبة مطر واحدة لنعلم أن المطر لا يسقط بقوانين الكون ولكن بإرادة خالق الكون . . فاذا كانت القوانين وحدها تعمل فمن الذى عطلها ؟ ولكن إرادة الخالق فوق القوانين ان شاءت جعلتها تعمل وإن شاءت جعلتها لا تعمل . . اذن فكل شىء فى الكون باسم الله . . هو الذى سخر وأعطى . وهو الذى يمنح ويمنع حتى فى الأمور التى للانسان فيها نوع من الاختيار . . واقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

والاصل فى الذرية أنها تأتى من اجتماع الذكر والانثى . هذا هو القانون ولكن القوانين لاتعمل الا بامر الله . . لذلك يتزوج الرجل والمرأة ولا تأتى الذرية لأنه ليس القانون هو الذى يخلق . ولكنها ارادة خالق القانون . ان شاء جعله

يعمل .. وان شاء يبطل عمله .. والله سبحانه وتعالى لاتحكمه القوانين ولكنه هو الذى يحكمها .

وكما أن الله سبحانه وتعالى قادر على ان يجعل القوانين تفعل او لا تفعل .. فهو قادر على ان يخرق القوانين .. خذ مثلا قصة زكريا عليه السلام .. كان يكفل مريم ويأتيها بكل ماتحتاج إليه .. ودخل عليها ليجد عندها مالم يحضره لها .

وسألها وهى القديسة العابدة الملازمة لمحرابها .

﴿ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۝٣٧ ﴾

(سورة آل عمران)

الحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة مع أن مريم بسلوكها وعبادتها وتقواها فوق كل الشبهات . ولكن لنعرف أن الذى يفسد الكون .. هو عدم السؤال عن مصدر الأشياء التى تتناسب مع قدرات من يحصل عليها ..
الم ترى الأب ينفق ما لا يتناسب مع مرتبه .. وترى الابنة ترتدى ما هو اكبر كثيرا من مرتبها أو مصروفها .. ولو سألت الأم الأب أو الابنة من أين لك هذا ؟ لما فسد المجتمع .. ولكن الفساد يأتى من أننا نغمض أعيننا عن المال الحرام .
بماذا ردت مريم عليها السلام ؟

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧ ﴾

(سورة آل عمران)

اذن فطلاقة قدرة الله لا يحكمها قانون .. لقد لفتت مريم زكريا عليهما السلام الى طلاقة القدرة .. فدعا زكريا ربه فى قضية لا تنفع فيها الا طلاقة القدرة .. فهو رجل عجوز وامرأته عجوز وعاقر ويريد ولدا .. هذه قضية ضد قوانين الكون .. لأن الانجاب لا يتم الا وقت الشباب ، فإذا كبر الرجل وكبرت المرأة لا ينجبان .. فما بالك اذا كانت الزوجة أساسا عاقرا .. لم تنجب وهى شابة وزوجها شاب .

فكيف تنجب وهى عجوز وزوجها عجوز هذه مسألة ضد القوانين التى تحكم البشر ، ولكن الله وحده القادر على أن يأتى بالقانون وضده ولذلك شاء أن يرزق زكريا بالولد وكان .. ورزق زكريا بابنه يحيى .

اذن كل شىء فى هذا الكون بسم الله .. يتم باسم الله وباذن من الله الكون تحكمه الأسباب نعم ولكن ارادة الله فوق كل الأسباب .

أنت حين تبدأ كل شىء باسم الله . كأنك تجعل الله فى جانبك يعينك ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علمنا أن نبدأ كل شىء باسم الله .. لأن الله هو الاسم الجامع لصفات الكمال سبحانه وتعالى والعمل عادة يحتاج الى صفات متعددة فأنت حين تبدأ عملا تحتاج الى قدرة الله والى قوته والى عونه والى رحمته .. فلو أن الله سبحانه وتعالى لم يخبرنا بالاسم الجامع لكل الصفات .. كان علينا أن نحدد الصفات التى نحتاج إليها .. كأن نقول باسم الله القوى وباسم الله الرازق وباسم الله المجيب وباسم الله القادر وباسم الله النافع إلى غير ذلك من الأسماء والصفات التى نريد أن نستعين بها ولكن الله تبارك وتعالى جعلنا نقول بسم الله بسم الله بسم الله الجامع لكل هذه الصفات .

على أننا لابد أن نقف هنا عند الذين لا يبدأون أعمالهم بسم الله وإنما يريدون الجزاء المادى وحده .. إنسان غير مؤمن لا يبدأ عمله باسم الله .. وإنسان مؤمن يبدأ كل عمل وفى باله الله .. كلاهما يأخذ من الدنيا لأن الله رب للجميع له عطاء ربوبية لكل خلقه الذين استدعاهم للحياة ولكن الدنيا ليست هى الحياة الحقيقية للإنسان بل الحياة الحقيقية هى الآخرة الذى فى باله الدنيا وحدها يأخذ بقدر عطاء الربوبية بقدر عطاء الله فى الدنيا والذى فى باله الله يأخذ بقدر عطاء الله فى الدنيا والآخرة .. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ ﴾

(سورة سبأ)

لأن المؤمن يحمد الله على نعمه فى الدنيا .. ثم يحمده عندما ينجيه من النار والعذاب ويدخله الجنة فى الآخرة .. فلله الحمد فى الدنيا والآخرة .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بباسم الله الرحمن الرحيم أقطع »[1]

ومعنى أقطع أى مقطوع الذنب أو الذيل .. أى عمل ناقص فيه شيء ضائع .. لانك حين لا تبدأ العمل باسم الله قد يصادفك الغرور والطغيان بأنك أنت الذى سخرت ما فى الكون ليخدمك وينفعل لك .. وحين لا تبدأ العمل باسم الله .. فليس لك عليه جزاء فى الآخرة فتكون قد أخذت عطاءه فى الدنيا . وبترت أو قطعت عطاءه فى الآخرة .. فاذا كنت تريد عطاء الدنيا والآخرة . فأقبل على كل عمل باسم الله . قبل أن تأكل قل باسم الله لانه هو الذى خلق لك هذا الطعام ورزقك به .. عندما تدخل الامتحان قل بسم الله فيعينك على النجاح .. عندما تدخل الى بيتك قل بسم الله لانه هو الذى يسر لك هذا البيت .. عندما تتزوج قل باسم الله لانه هو الذى خلق هذه الزوجة وأباحها لك .. فى كل عمل تفعله ابدأه بسم الله .. لأنها تمنعك من أى عمل يغضب الله سبحانه وتعالى .. فأنت لا تستطيع أن تبدأ عملا يغضب الله باسم الله .. اذا أردت ان تسرق أو ان تشرب الخمر . أو أن تفعل عملا يغضب الله .. وتذكرت بسم الله . فإنك ستمتنع عنه .. ستستحى أن تبدأ عملا باسم الله يغضب الله .. وهكذا ستكون أعمالك كلها فيما أباحه الله .

الله تبارك وتعالى حين نبدأ قراءة كلامه باسم الله . فنحن نقرأ هذا الكلام لأنه من الله . والله هو الاله المعبود فى كونه .. ومعنى معبود أنه يطاع فيما يأمر به .. ولا نقدم على ما نهى عنه . فكأنك تستقبل القرآن الكريم بعطاء الله فى العبادة .. وبطاعته فى افعل ولا تفعل .. وهذا هو المقصود أن تبدأ قراءة القرآن باسم الله الذى آمنت به ربا وإلها .. والذى عاهدته على أن نطيعه فيما أمر وفيما نهى .. والذى يوجب عبادتك لله سبحانه وتعالى تقرأ كتابه لتعمل بما فيه .. والذى خلق وأوجد ويحيى ويميت وله الأمر فى الدنيا والآخرة .. والذى ستقف أمامه يوم القيامة

---

(١) رواه السيوطى فى الجامع الصغير ، وعزاه لعبد القادر الرهاوى فى أول كتاب (الأربعين) عن أبى هريرة بإسناد حسن ورواه ابن كثير فى تفسيره بلفظ «فهو أجذم»

ليحاسبك أحسنت أم أسأت . فالبداية من الله والنهاية الى الله سبحانه وتعالى

بعض الناس يتساءل كيف أبدأ بسم الله . . وقد عصيت وقد خالفت . . نقول اياك أن تستحى أن تقرأ القرآن . . وأن تبدأ بسم الله اذا كنت قد عصيت . ولذلك أعطانا الله سبحانه وتعالى الحيثية التى نبدأ بها قراءة القرآن فجعل مبدؤه باسم الله الرحمن الرحيم فالله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن العاصى بل يفتح له باب التوبة ويحثه عليها . ويطلب منه أن يتوب وان يعود الى الله فيغفر له ذنبه ، لأن الله رحمن رحيم . فلا تقل انى أستحى أن أبدأ بأسم الله لأنى عصيته . . فالله سبحانه وتعالى يطلب من كل عاص أن يعود الى حظيرة الايمان وهو رحمن رحيم . فاذا قلت كيف أقول باسم الله وقد وقعت فى معصية أمس . . نقول لك قل باسم الله الرحمن الرحيم فرحمة الله تسع كل ذنوب خلقه . وهو سبحانه وتعالى الذى يغفر الذنوب جميعا

والرحمة والرحمن والرحيم . مشتق منها الرحم الذى هو مكان الجنين فى بطن أمه . هذا المكان الذى يأتيه فيه الرزق . بلا حول ولا قوة ويجد فيه كل مايحتاج إليه نموه ميسرا . . رزقا من الله سبحانه وتعالى بلا تعب ولا مقابل . انظر الى حنو الأم على ابنها وحنانها عليه . وتجاوزها عن سيئاته وفرحته بعودته اليها . . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى فى حديث قدسى

« أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته »[1]

الله سبحانه وتعالى يريد أن نتذكر دائما أنه يحب عبيدنا ويرزقنا . ويفتح لنا أبواب التوبة بابا بعد آخر . . ونعصى فلا يأخذنا بذنوبنا ولا يحرمنا من نعمه ولا يهلكنا بما فعلنا ولذلك فنحن نبدأ تلاوة القرآن الكريم بسم الله الرحمن الرحيم . لنتذكر دائما أبواب الرحمة المفتوحة لنا . . نرفع أيدينا الى السماء ونقول يارب رحمتك . . تجاوز عن ذنوبنا وسيئاتنا وبذلك يظل قارىء القرآن متصلا بأبواب رحمة الله . كلما ابتعد عن المنهج أسرع ليعود اليه . . فمادام الله رحمانا ورحيما لا تغلق أبواب الرحمة أبدا . .

(١) رواه أحمد والبخارى وأبوداود والترمذى .

من أننا نلاحظ أن الرحمن والرحيم من صيغ المبالغة .. يقال راحم ورحمن ورحيم .. اذا قيل راحم فيه صفة الرحمة .. واذا قيل رحمن تكون مبالغة في الصفة . واذا قيل رحيم تكون مبالغة في الصفة .. والله سبحانه وتعالى رحمن الدنيا ورحيم الآخرة .

صفات الله سبحانه وتعالى لا تتأرجح بين القوة والضعف .. وإياكم أن تفهموا أن الله تأتيه الصفات مرة قليلة ومرة كثيرة . بل هي صفات الكمال المطلق ولكن الذي يتغير هو متعلقات هذه الصفات .. اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

هذه الآية الكريمة .. نفت الظلم عن الله سبحانه وتعالى ، ثم تأتي الآية الكريمة بقول الله جل جلاله :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة فصلت)

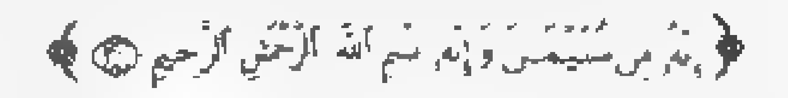
نلاحظ هنا استخدام صيغة المبالغة . « ظلام » .. أي شديد الظلم .. وقول الحق سبحانه وتعالى : « ليس بظلام » .. لا تنفي الظلم ولكنها تنفي المبالغة في الظلم ، تنفي أن يظلم ولو مثقال ذرة .. نقول انك لم تفهم المعنى .. ان الله لا يظلم أحدا .. الآية الأولى نفت الظلم عن الحق تبارك وتعالى ولو مثقال ذرة بالنسبة للعبد والآية الثانية لم تقل للعبد ولكنها قالت للعبيد .. والعبيد هم كل خلق الله .. فلو اصاب كل واحد منهم أقل من ذره من الظلم مع هذه الاعداد الهائلة .. فإن الظلم يكون كثيرا جداً ، ولو أنه قليل في كميته لأن عدد من سيصاب به هائل .. ولذلك فإن الآية الاولى نفت الظلم عن الله سبحانه وتعالى . والآية الثانية نفت الظلم أيضا عن الله تبارك وتعالى .. ولكن صيغة المبالغة استخدمت لكثرة عدد الذين تنطبق عليهم الآية الكريمة .

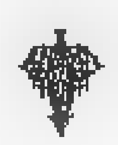
تأتى بعد ذلك الى رحمن ورحيم . . رحمن فى الدنيا لكثرة عدد الذين يشملهم الله سبحانه وتعالى برحمته . . فرحمة الله فى الدنيا تشمل المؤمن والعاصى والكافر . . يعطيهم الله مقومات حياتهم ولا يؤاخذهم بذنوبهم ، يرزق من آمن به ومن لم يؤمن به ، ويعفو عن كثير . . اذن عدد الذين تشملهم رحمة الله فى الدنيا هم كل خلقه . بصرف النظر عن ايمانهم أو عدم ايمانهم

ولكن فى الآخرة الله رحيم بالمؤمنين فقط . فالكفار والمشركون مطرودون من رحمة الله . اذن الذين تشملهم رحمة الله فى الآخرة . . أقل عددا من الذين تشملهم رحمة الله فى الدنيا . ومن أين تأتى المبالغة ؟ . . تأتى المبالغة فى العطاء وفى الخلود فى العطاء . . فنعم الله فى الآخرة اكبر كثيراً منها فى الدنيا . . المبالغة هنا بكثرة النعم وخلودها . . فكأن المبالغة فى الدنيا بعمومية العطاء ، والمبالغة فى الآخرة بخصوصية العطاء للمؤمن وكثرة النعم والخلود فيها .

ولقد اختلف عدد العلماء حول بسم الله الرحمن الرحيم . . وهى موجودة فى ١١٣ سورة من القرآن الكريم هل هى من آيات السور نفسها بمعنى أن كل سورة تبدأ « بسم الله الرحمن الرحيم » تحسب البداية على أنها الآية الأولى من السورة ، أم انها حسبت فقط فى فاتحة الكتاب ، ثم بعد ذلك نعتبر فواصل بين السور . .

وقال العلماء أن « بسم الله الرحمن الرحيم » آية من آيات القرآن الكريم . ولكنها ليست آية من كل سورة ماعدا فاتحة الكتاب فهى آية من الفاتحة . وهناك سورة واحدة فى القرآن الكريم لاتبدأ بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » وهى سورة التوبة وتكررت بسم الله الرحمن الرحيم فى الآية ٣٠ من سورة النمل فى قوله تعالى :





﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ ﴾

فاتحة الكتاب هي أم الكتاب ، لا تصلح الصلاة بدونها . فأنت في كل ركعة تستطيع ان تقرأ آية من القرآن الكريم ، تختلف عن الآية التي قرأتها في الركعة السابقة ، وتختلف عن الآيات التي قرأتها في صلواتك .. ولكن إذا لم تقرأ الفاتحة فسدت الصلاة ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من صلى صلاة لم يقرأ فيها أم القرآن فهي خداج ثلاثا غير تام»[1] أي غير صالحة .

فالفاتحة أم الكتاب التي لاتصلح الصلاة بدونها ، والله سبحانه وتعالى يقول في حديث قدسي : «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل .. فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين-قال الله عز وجل حمدني عبدي . فإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله عز وجل : أثنى علي عبدي ، فإذا قال مالك يوم الدين ، قال الله عز وجل مجدني عبدي .. فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين ، قال الله عز وجل هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل .. وإذا قال : « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » قال الله عز وجل : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل[2] .

وعلينا أن ننتبه ونحن نقرأ هذا الحديث القدسي ان الله تعالى يقول : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي ، ولم يقل قسمت الفاتحة بيني وبين عبدي ، ففاتحة الكتاب هي أساس الصلاة ، وهي أم الكتاب .

نلاحظ ان هناك ثلاثة أسماء لله قد تكررت في بسم الله الرحمن الرحيم ، وفي فاتحة الكتاب ، وهذه الأسماء هي : الله . والرحمن الرحيم . نقول انه ليس هناك تكرار

---

(١) رواه مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة

(٢) رواه أحمد ومسلم وأبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة

فى القرآن الكريم ، وإذا تكرر اللفظ يكون معناه فى كل مرة مختلفا عن معناه فى المرة السابقة ، لأن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى .. ولذلك فهو يضع اللفظ فى مكانه الصحيح ، وفى معناه الصحيح ..

قولنا : «بسم الله الرحمن الرحيم» هو استعانة بقدرة الله حين نبدأ فعل الأشياء . إذن فلفظ الجلالة «الله» فى بسم الله ، معناه الاستعانة بقدرات الله سبحانه وتعالى وصفاته . لتكون عونا لنا على ما نفعل . ولكن إذا قلنا : الحمد لله . فهى شكر لله على ما فعل لنا . ذلك أننا لانستطيع أن نقسم الشكر لله إلا إذا استخدمنا لفظ الجلالة الجامع لكل صفات الله تعالى لأننا نحمده على كل صفاته ورحمته بنا حتى لانقول باسم القهار وباسم الوهاب وباسم الكريم ، وبسم الرحمن .. نقول الحمد لله على كمال صفاته ، فيشمل الحمد كمال الصفات كلها .

وهناك فرق بين «بسم الله» الذى نستعين به على ما لا قدرة لنا عليه لأن الله هو الذى سخر كل ما فى هذا الكون ، وجعله يخدمك ، وبين «الحمد لله» فإن لفظ الجلالة إنما جاء هنا لنحمد الله على ما فعل لنا فكأن «بسم الله فى البسملة» طلب العون من الله بكل كمال صفاته .. وكان الحمد لله فى الفاتحة تقديم الشكر لله بكل كمال صفاته .

و«الرحمن الرحيم» فى البسملة لها معنى غير «الرحمن الرحيم» فى الفاتحة ، ففى البسملة هى تذكرنا برحمة الله سبحانه وتعالى ومغفرته حتى لانستحى ولانهاب أن نستعين باسم الله إن كنا قد عملنا معصية . فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نستعين باسمه دائما فى كل أعمالنا فإذا سقط واحد منا فى معصية ، قال كيف أستعين باسم الله ، وقد عصيته ؟ نقول له ادخل عليه سبحانه وتعالى من باب الرحمة فيغفر لك وتستعين به فيجيبك .

وأنت حين تسقط فى معصية ستعيذ برحمة الله من عدله ، لأن عدل الله لايترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها

وأقرأ قول الله تعالى :

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾

(سورة الكهف)

ولولا رحمة الله التي سبقت عدله . ما بقي للناس نعمة وما عاش أحد على ظهر الأرض .. فالله جل جلاله يقول :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ۖ فَإِذَا
جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) ﴾

(سورة النحل)

فالانسان خلق ضعيفا ، وخلق هلوعا . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . ولا يدخل أحدكم الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته ، قالوا : حتى أنت يارسول الله قال : حتى أنا؟

فذنوب الانسان في الدنيا كثيرة .. إذا حكم فقد يظلم . وإذا ظن فقد يسيء .. وإذا تحدث فقد يكذب . وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق . وإذا تكلم فقد يغتاب .

هذه ذنوب نرتكبها بدرجات متفاوتة . ولا يمكن لأحد منا ان ينسب الكمال لنفسه حتى الذين يبذلون اقصى جهدهم في الطاعة لا يصلون الى الكمال ، فالكمال لله وحده . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»[1] .

---

(١) رواه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجه والحاكم عن أنس رضي الله عنه .

ويصف الله سبحانه وتعالى الانسان فى القرآن الكريم

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة ابراهيم)

ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى ألا تمنعنا المعصية عن ان ندخل الى كل عمل باسم الله .. فعلمنا ان نقول : «بسم الله الرحمن الرحيم» لكى نعرف أن الباب مفتوح للاستعانة بالله . وأن المعصية لا تمنعنا من الاستعانة فى كل عمل باسم الله .. لأنه رحمن رحيم ، فيكون الله قد أزال وحشتك من المعصية فى الاستعانة به سبحانه وتعالى .

ولكن الرحمن الرحيم فى الفاتحة مقترنة برب العالمين ، الذى أوجدك من عدم وأمدك بنعم لا تعد ولا تحصى . انت تحمده على هذه النعم التى أخذتها برحمة الله سبحانه وتعالى فى ربوبيته ، ذلك أن الربوبية ليس فيها من القسوة بقدر مافيها من رحمة .

والله سبحانه وتعالى رب المؤمن والكافر ، فهو الذى استدعاهم جميعا الى الوجود . ولذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته . وليس بما يستحقون .. فالشمس تشرق على المؤمن والكافر .. ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط ،

والمطر ينزل على من يعبدون الله . ومن يعبدون أوثانا من دون الله . والهواء يتنفسه من قال لا إله إلا الله ومن لم يقلها .

وكل النعم التى هى من عطاء الربوبية لله هى فى الدنيا لخلقه جميعا ، وهذه رحمة فالله رب الجميع من أطاعه ومن عصاه وهذه رحمة ، والله قابل للتوبة ، وهذه رحمة

إذن ففى الفاتحة تأتى «الرحمن الرحيم» بمعنى رحمة الله فى ربوبيته لخلقه ، فهو يمهل العاصى ويفتح ابواب التوبة لكل من يلجأ اليه

وقد جعل الله رحمته تسبق غضبه وهذه رحمة تستوجب الشكر . فمعنى «الرحمن

الرحيم» فى البسملة يختلف عنها فى الفاتحة . فإذا انتقلنا بعد ذلك الى قوله تعالى :

«الحمد لله رب العالمين» فالله محمود لذاته ومحمود لصفاته ، ومحمود لنعمه ، ومحمود لرحمته ، ومحمود لمنهجه ، ومحمود لقضائه ، الله محمود قبل ان يخلق من يحمده . ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل الشكر له فى كلمتين اثنتين هما : الحمد لله .

والعجيب أنك حين تشكر بشرا على جميل فعله تظل ساعات وساعات .. تعد كلمات الشكر والثناء ، وتحذف وتضيف وتأخذ رأى الناس . حتى تصل الى قصيدة أو خطاب ملىء بالثناء والشكر . ولكن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته وعظمت نعمه لا تعد ولا تحصى ، علمنا ان نشكره فى كلمتين اثنتين هما : الحمد لله ..

ولعلنا نفهم ان المبالغة فى الشكر للبشر مكروهة لأنها تصيب الانسان بالغرور والنفاق وتزيد العاصى فى معاصيه . فلنقلل من الشكر والثناء للبشر .. لأننا نشكر الله لعظيم نعمه علينا بكلمتين هما : الحمد لله ، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علمنا صيغة الحمد . فلو أنه تركها دون أن يحددها بكلمتين .. لكان من الصعب على البشر أن يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الالهى .. فمهما أوتى الناس من بلاغة وقدرة على التعبير فهم عاجزون عن أن يصلوا الى صيغة الحمد التى تليق بجلال المنعم . فكيف نحمد الله والعقل عاجز أن يدرك قدرته أو يحصى نعمه أو يحيط برحمته ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانا صورة العجز البشرى عن حمد كمال الالوهية لله ، فقال : «لا أحصى ثناء عليك انت كما أثنيت على نفسك» .

وكلمتا الحمد لله ، ساوى الله بها بين البشر جميعا . فلو انه ترك الحمد بلا تحديد ، لتفاوتت درجات الحمد بين الناس بتفاوت قدراتهم على التعبير . فهذا أمى لا يقرأ ولا يكتب لا يستطيع ان يجد الكلمات التى يحمد بها الله . وهذا عالم له قدرة على التعبير يستطيع أن يأتى بصيغة الحمد بما أوتى من علم وبلاغة . وهكذا تتفاوت درجات البشر فى الحمد .. طبقا لقدرتهم فى منازل الدنيا

ولكن الحق تبارك وتعالى شاء عدله ان يسوى بين عباده جميعا فى صيغة الحمد له . فعلمنا فى أول كلماته فى القرآن الكريم .. أن نقول «الحمد لله» ليعطى

الفرصة المتساوية لكل عبيده بحيث يستوى المتعلم وغير المتعلم فى عطاء الحمد ومن أوتى البلاغة ومن لا يحسن الكلام .

ولذلك فإننا نحمد الله سبحانه وتعالى على أنه علمنا كيف نحمده وليظل العبد دائما حامدا ويظل الله دائما محمودا . فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلقنا خلق لنا موجبات الحمد من النعم ، فخلق لنا السموات والارض وأوجد لنا الماء والهواء . ووضع فى الأرض أقواتها الى يوم القيامة . وهذه نعمة يستحق الحمد عليها لأنه جل جلاله جعل النعمة تسبق الوجود الانسانى ، فعندما خلق الانسان كانت النعمة موجودة تستقبله . بل ان الله جل جلاله قبل أن يخلق آدم أبا البشر جميعا سبقته الجنة التى عاش فيها لايتعب ولا يشقى . فقد خلق فوجد ما يأكله وما يشربه وما يقيم حياته وما يتمتع به موجود ومسخرا ومعدا قبل الخلق . وحينما نزل آدم وحواء الى الأرض كانت النعمة قد سبقتهما فوجد ما يأكلانه ومايشربانه ، وما يقيم حياتهما . ولو أن النعمة لم تسبق الوجود الانسانى وخلقت بعده لهلك الانسان وهو ينتظر مجىء النعمة .

بل ان العطاء الالهى للانسان يعطيه النعمة بمجرد أن يخلق فى رحم أمه فيجد رحما مستعدا لاستقباله وغذاء يكفيه طول مدة الحمل فاذا خرج الى الدنيا يضع الله فى صدر أمه لبنا ينزل وقت أن يجوع ويمتنع وقت أن يشبع . وينتهى تماما عندما تتوقف فترة الرضاعة . ويجد أبا وأما يوفران له مقومات حياته حتى يستطيع

أن يعول نفسه . . وكل هذا يحدث قبل ان يصل الانسان الى مرحلة التكليف وقبل أن يستطيع ان ينطق : «الحمد لله»

وهكذا نرى أن النعمة تسبق الْمُنْعَم عليه دائما . . فالانسانُ حيث يقول «الحمد لله» فلأن موجبات الحمد ـ وهى النعمة ـ موجودة فى الكون قبل الوجود الانسانى .

والله سبحانه وتعالى خلق لنا فى هذا الكون أشياء تعطى الانسان بغير قدرة منه وبدون خضوع له ، والانسان عاجز عن أن يقدم لنفسه هذه النعم التى يقدمها الحق تبارك وتعالى له بلا جهد . فالشمس تعطى الدفء والحياة للارض بلا مقابل وبلا

فعل من البشر ، والمطر ينزل من السماء دون ان يكون لك جهد فيه أو قدرة على إنزاله . والهواء موجود حولك في كل مكان تتنفس منه دون جهد منك ولا قدرة . والأرض تعطيك الثمر بمجرد أن تبذر فيها الحب وتسقيه . فالزرع ينبت بقدرة الله . . والليل والنهار يتعاقبان حتى تستطيع أن تنام لترتاح ، وأن تسعى لحياتك . . لا أنت أتيت بضوء النهار . . ولا أنت الذى صنعت ظلمة الليل ، ولكنك تأخذ الراحة فى الليل والعمل فى النهار بقدرة الله دون ان تفعل شيئا .

كل هذه الاشياء لم يخلقها الانسان ، ولكنه خلق ليجدها فى الكون تعطيه بلا مقابل ولا جهد منه . ألا تستحق أن تقول الحمد لله على نعمة تسخير الكون لخدمة الانسان ؟ إنها تقتضي وجوب الحمد .

وآيات الله سبحانه وتعالى فى كونه تستوجب الحمد . . فالحياة التى وهبها الله لنا ، والآيات التى أودعها فى كونه لتدلنا على أن لهذا الكون خالقاً عظيماً فالكون بشمسه وقمره ونجومه وأرضه وكل ما فيه صنع يفوق قدرة الانسان . . ولا يستطيع احد أن يدعيه لنفسه . فلا أحد مهما بلغ علمه يستطيع أن يدعى أنه خلق الشمس أو أوجد النجوم أو وضع الأرض أو وضع قوانين الكون أو أعطى الأرض غلافها الجوى . . أو خلق نفسه أو خلق غيره .

هذه الآيات كلها أعطتنا الدليل على وجود قوة عظمى . هى التى أوجدته وهى التى خلقت . . وهذه الآيات ليست ساكنة ، لتجعلنا فى سكونها ننساها ، بل هى متحركة لتلفتنا الى خالق هذا الكون العظيم .

فالشمس تشرق فى الصباح فتذكرنا بمعجزة الخلق ، وتغيب فى المساء لتذكرنا بعظمة الخالق . . وتعاقب الليل والنهار يحدث أمامنا كل يوم علنا نلتفت ونفيق . والمطر ينزل من السماء ليذكرنا بألوهية من أنزله . والزرع يخرج من الأرض يسقى بماء واحد ومع ذلك فإن كل نوع له لون وبه شكل وله مذاق وله رائحة . . وله تكوين يختلف عن الآخر ، ويأتى الحصاد فيختفى الثمر والزرع . . ويأتى موسم الزراعة فيعود من جديد .

كل شيء فى هذا الكون متحرك ليذكرنا اذا نسينا . ويعلمنا أن هناك خالقاً عظيماً .

ونستطيع أن نمضي في ذلك بلا نهاية فنعم الله لاتعد ولا تحصى . وكل واحدة منها تدلنا على وجود الحق سبحانه وتعالى وتعطينا الدليل الإيماني على أن لهذا الكون خالقاً مبدعاً .. وأنه لا أحد يستطيع أن يدعي أنه خلق الكون أو خلق ما فيه .. فالقضية محسومة لله .. و«الحمد لله» لأنه وضع في نفوسنا الإيمان الفطري ثم أيده بإيمان عقلي بآياته في كونه .

بل إن كل شيء في هذا الكون يقتضي الحمد ، ومع ذلك فإن الإنسان يمدح الوجود وينسى الموجود !! انك حين ترى جوهرة جميلة مثلا أو زهرة غاية في الإبداع . أو أي خلق من خلق الله يشيع في نفسك الجمال تمتدح هذا الخلق .. تقول ما أجمل هذه الزهرة أو هذه الجوهرة أو هذا المخلوق .. ولكن المخلوق الذي امتدحته ، لم يعط صفة الجمال لنفسه .. فالزهرة لا دخل لها أن تكون جميلة أو غير جميلة ، والجوهرة لا دخل لها في عظمة خلقها .. وكل شيء في هذا الكون لم يضع الجمال لنفسه وإنما الذي وضع الجمال فيه هو الله سبحانه وتعالى ، فلا تخلط وتمدح المخلوق وتنسى الخالق .. بل قل الحمد لله الذي أوجد في الكون ما يذكرنا بعظمة الخالق ودقة الخلق .

ومنهج الله سبحانه وتعالى يقتضي منا الحمد .. لأن الله أنزل منهجه ليريد طريق الخير ويبعدنا عن طريق الشر .

فمنهج الله الذي أنزله على رسله قد عرفنا أن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق لنا هذا الكون وخلقنا .. فدقة الخلق وعظمته تدلك على أن هناك خالقاً عظيماً .. ولكنها لا تستطيع أن تقول لنا من هو ، ولا ماذا يريد منا .. ولذلك أرسل الله رسله ، ليقولوا لنا إن الذي خلق هذا الكون وخلقنا هو الله تبارك وتعالى وهذا يستوجب الحمد

ومنهج الله بين لنا ماذا يريد الحق منا وكيف نعبده .. وهذا يستوجب الحمد ومنهج الله جل جلاله أعطانا الطريق وشرع لنا أسلوب حياتنا تشريعاً حقاً .. فالله تبارك وتعالى لا يفرق بين أحد منا .. ولا يفضل أحداً على أحد إلا بالتقوى ، فكلنا خلق متساوون أمام الله جل جلاله .

، إذن فشريعة الحق وقول الحق ، وقضاء الحق ، هو من الله ، أما تشريعات

الناس فلها هوى تميز بعضا عن بعض . وتأخذ حقوق بعض لتعطيها للآخرين ، لذلك نجد في كل منهج بشرى ظلما بشريا .

فالدول الشيوعية أعضاء اللجنة المركزية فيها هم أصحاب النعمة والترف . بينما الشعب كله في شقاء لأن هؤلاء الذين شرعوا اتبعوا هواهم ووضعوا مصالحهم فوق كل مصلحة . .

وكذلك في الدول الرأسمالية أصحاب رأس المال يأخذون كل الخير . ولكن الله سبحانه وتعالى حين نزل لنا المنهج قضى بالعدل بين الناس . . وأعطى كل ذي حق حقه وعلمنا كيف تستقيم الحياة على الأرض عندما تكون بعيدة عن الهوى البشرى خاضعة لعدل الله ، وهذا يوجب الحمد .

والحق سبحانه وتعالى ، يستحق منا الحمد لأنه لا يأخذ منا ولكنه يعطينا . فالبشر في كل عصر يحاولون استغلال البشر لأنهم يطمعون لما في ايديهم من ثروات وأموال . ولكن الله سبحانه وتعالى لا يحتاج الى ما في أيدينا ، إنه يعطينا ولا يأخذ منا ، عنده خزائن كل شيء مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فالله سبحانه وتعالى دائم العطاء لخلقه ، والخلق يأخذون دائما من نعم الله ، فكأن العبودية لله تعطيك ولا تأخذ منك وهذا يستوجب الحمد . .

والله سبحانه وتعالى في عطائه يحب أن يطلب منه الانسان ، وأن يدعوه وان يستعين به ، وهذا يوجب الحمد لأنه يقينا الذل في الدنيا . فأنت إن طلبت شيئا من صاحب نفوذ ، فلابد ان يحدد لك موعد أو وقت الحديث ومدة المقابلة وقد يضيق بك فيقف ليُنهي اللقاء ولكن الله سبحانه وتعالى بابه مفتوح دائما . فأنت بين يديه عندما تريد وترفع يديك الى السماء وتدعو وقتما تحب وتسأل الله ما تشاء فيعطيك ما تريده إن كان خيرا لك . ويمنع عنك ما تريده ان كان شر لك

والله سبحانه وتعالى يطلب منك ان تدعوه وان تسأله فيقول .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة غافر)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والله سبحانه وتعالى يعرف ما فى نفسك ، ولذلك فإنه يعطيك دون أن تسأل
واقرأ الحديث القدسي
يقول رب العزة

(من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين)[1]

والله سبحانه وتعالى عطاؤه لا ينفد وخزائنه لا تفرغ ، فكلما سألته جل جلاله كان لديه المزيد ، ومهما سألته فإنه لا شيء عزيز على الله سبحانه وتعالى ، إذا أراد أن يحققه لك .

واقرأ قول الشاعر :

حسب نفسي عزا بأني عبد
يحتفي بي بلا مواعيد رب
هو في قدسه الأعز ولكن
أنا ألقى متى وأين أحب

(١) رواه البخارى والبزار والبيهقى عن ابن عمر

اذن عطاء الله سبحانه وتعالى يستوجب الحمد .. ومنعه العطاء يستوجب الحمد .

ووجود الله سبحانه وتعالى الواجب الوجود يستوجب الحمد .. فالله يستحق الحمد لذاته ، ولولا عدل الله لبغى الناس فى الأرض وظلموا ، ولكن يد الله تبارك وتعالى حين تبطش بالظالم تجعله عبرة .. فيخاف الناس الظلم .. وكل من أفلت من عقاب الدنيا على معاصيه وظلمه واستبداده سيلقى الله فى الآخرة ليوفيه حسابه . وهذا يوجب الحمد أن يعرف المظلوم أنه سينال جزاءه فتهدأ نفسه ويطمئن قلبه ان هناك يوما سيرى فيه ظالمه وهو يعذب فى النار .. فلا تصيبه الحسرة ، ويخف احساسه بمرارة الظلم حين يعرف ان الله قائم على كونه لن يفلت من عدله أحد .

وعندما نقول « الحمد لله » فنحن نعبر عن انفعالات متعددة .. هى فى مجموعها تحمل العبودية والحب والثناء والشكر والعرفان .. وكثير من الانفعالات التى تملأ النفس عندما تقول « الحمد لله » كلها تحمل الثناء العاجز عن الشكر لكمال الله وعطائه .. هذه الانفعالات تأتى من النفس وتستقر فى القلب . ثم تفيض من الجوارح على الكون كله ..

فالحمد ليس ألفاظا تردد باللسان ولكنها تمر أولا على العقل ليعى معنى النعم .. ثم بعد ذلك تستقر فى القلب فينفعل بها . وتنتقل الى الجوارح فأقوم واصلى لله شاكرا ويهتز جسدى كله وتفيض الدمعة من عينى .. وينتقل هذا الانفعال كله الى من حولى .

ونفسر ذلك قليلا .. هب اننى فى أزمة أو كرب أو شىء سيؤدى الى فضيحة .. وجاءنى من يفرج كربى فيعطينى مالا أو يفتح لى طريقا .. أول شىء انى سأعقل هذا الجميل فأقول انه يستحق الشكر ثم ينزل هذا المعنى الى قلبى فيهتز القلب الى صانع هذا الجميل .. ثم تنفعل جوارحى لأترجم هذه العاطفة إلى عمل يرضيه على جميل صنعه . ثم أحدث الناس عن جميله وكرمه فيسارعون إلى الالتجاء اليه . فتتسع دائرة الحمد وتنزل النعم على الناس .. فيمرون بنفس ماحدث لى فتتسع دائرة الشكر والحمد ..

والحمد لله تعطينا المزيد من نعم لله مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة ابراهيم)

وهكذا نعرف ان الشكر على النعمه يعطينا مزيدا من النعمة . . فنشكر عليها فتعطينا المزيد وهكذا يظل الحمد دائما والنعمة دائمة . . اما لو استعرضنا حياتنا كلها فكل حركة فيها تقتضى الحمد ، عندما ننام ويأخذ الله سبحانه وتعالى أرواحنا ، ثم يردها الينا عندما نستيقظ ، فإن هذا يوجب الحمد ، فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الزمر)

وهكذا فإن مجرد استيقاظنا من النوم ، وان الله سبحانه وتعالى رد علينا أرواحنا ، وهذا الرد يستوجب الحمد ، فإذا قمنا من السرير فالله سبحانه وتعالى هو الذى يعطينا القدرة على الحركة ، ولولا عطاؤه ما استطعنا ان نقوم . وهذا يستوجب الحمد فإذا تناولنا افطارنا فالله هيأ لنا طعاما من فضله ، فهو الذى خلقه ، وهو الذى انبته ، وهو الذى رزقنا به ، وهذا يستوجب الحمد . .

فإذا نزلنا الى الطريق يسر الله لنا ما يقلنا الى مقر اعمالنا وسخره لنا ، سواء كنا نملك سيارة او نستخدم وسائل المواصلات ، فله الحمد ، واذا تحدثنا مع الناس فالله سبحانه وتعالى هو الذى اعطى السنتنا القدرة على النطق ولو شاء لجعلها خرساء لا تنطق . . وهذا يستوجب الحمد ، فإذا ذهبنا الى أعمالنا ، فالله يسر لنا عملا نرتزق منه لنأكل حلالا . وهذا يستوجب الحمد

واذا عدنا الى بيوتنا فالله سخر لنا زوجاتنا ورزقنا بأولادنا وهذا يستوجب الحمد .

اذن فكل حركة حياة فى الدنيا من الانسان تستوجب الحمد .. ولهذا لابد ان يكون الانسان حامدا دائما .. بل ان الانسان يجب ان يحمد الله على اى مكروه أصابه ؛ لأنه قد يكون الشيء الذى يعتبره شرا هو عينه الخير .. فالله تعالى يقول :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾

(سورة النساء)

اذن فأنت تحمد الله لأن قضاءه خير .. سواء أحببت القضاء أو كرهته فانه خير لك .. لأنك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلم .

وهكذا من موجبات الحمد ان تقول الحمد لله عن كل ما يحدث لك فى دنياك .. فأنت بذلك ترد الامر الى الله الذى خلقك .. فهو أعلم بما هو خير لك .

فاتحة الكتاب تبدأ بالحمد لله رب العالمين .. لماذا قال الله سبحانه وتعالى رب العالمين ؟ نقول إن «الحمد لله» تعنى حمد الألوهية .. فكلمة الله تعنى المعبود بحق .. فالعبادة تكليف والتكليف يأتى من الله لعبيده .. فكأن الحمد اولا لله ثم يقتضى بعد ذلك أن يكون الحمد لربوبية الله على ايجادنا من عدم وامدادنا من عدم .. لأن المتصل بالنعم قد يكون محمودا عند كل الناس .. لكن التكليف يكون شاقا على بعض الناس .. ولو علم الناس قيمة التكليف فى الحياة .. لحمدوا الله أن كلفهم بافعل ولا تفعل .. لأنه ضمن عدم تصادم حركة حياتهم .. فتمضى حركة الحياة متساندة منسجمة .. اذن فالنعمة الاولى هى أن المعبود ابلغنا منهج عبادته ، والنعمة الثانية أنه رب العالمين .

فى الحياة الدنيا هناك المطيع والعاصى ، والمؤمن وغير المؤمن .. والذين يدخلون فى عطاء الالوهية هم المؤمنون .. أما عطاء الربوبية فيشمل الجميع .. ونحن نحمد الله على عطاء ألوهيته ، ونحمد الله على عطاء ربوبيته ، لأنه الذى خلق .. ولأنه رب العالمين .. الكون كله لا يخرج عن حكمه .. فليطمئن الناس فى الدنيا ان

النعم مستمرة لهم بعطاء ربوبيته .. فلا الشمس تستطيع أن تغيب وتقول لن أشرق ، ولا النجوم تستطيع أن تصطدم بعضها ببعض في الكون ، ولا الأرض تستطيع أن تمنع إنبات الزرع .. ولا الغلاف الجوي يستطيع أن يبتعد عن الأرض فيختنق الناس جميعا ..

اذن فالله سبحانه وتعالى يريد ان يطمئن عباده انه رب لكل ما في الكون فلا تستطيع اى قوى تخدم الانسان ان تمتنع عن خدمته . لأن الله سبحانه وتعالى مسيطر على كونه وعلى كل ما خلق .. انه رب العالمين وهذه توجب الحمد . ان يهيىء الله سبحانه وتعالى للانسان ما يخدمه ، بل جعله سيدا في كونه . ولذلك فإن الانسان المؤمن لا يخاف الغد .. وكيف يخافه والله رب العالمين . اذا لم يكن عنده طعام فهو واثق ان الله سيرزقه لأنه رب العالمين .. واذا صادفته ازمة فقلبه مطمئن

الى ان الله سيفرج الازمة ويزيل الكرب لأنه رب العالمين . واذا اصابته نعمة ذكر الله فشكره عليها لانه رب العالمين الذى انعم عليه .

فالحق سبحانه وتعالى يحمد على انه رب العالمين .. لا شيء في كونه يخرج عن مراده الفعلى . اما عطاء الالوهية فجزاؤه في الاخرة .. فالدنيا دار اختبار للايمان ، والاخرة دار الجزاء ومن الناس من لايعبد الله هؤلاء متساوون في عطاء الربوبيه مع المؤمنين في الدنيا .. ولكن في الآخرة يكون عطاء الالوهية للمؤمنين وحدهم .. فنعم الله لأصحاب الجنة ، وعطاءات الله لمن آمن .. واقرأ قوله تبارك وتعالى .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

على ان الحمد لله ليس في الدنيا فقط .. بل هو في الدنيا والاخرة .. الله محمود دائما .. في الدنيا بعطاء ربوبيته لكل خلقه . وبعطاء الوهيته لمن آمن به وفي الاخرة بعطائه للمؤمنين من عباده .. واقرأ قوله جل جلاله .

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)﴾

(سورة الزمر)

وقوله تعالى :

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾

(سورة يونس)

فاذا انتقلنا الى قوله تعالى : «الرحمن الرحيم» فمن موجبات الحمد أن الله سبحانه وتعالى رحمن رحيم .. يعطى نعمه فى الدنيا لكل عباده عطاء ربوبيه ، وعطاء الربوبيه للمؤمن والكافر . وعطاء الربوبية لا ينقطع الا عندما يموت الانسان ..

والله لا يحجب نعمه عن عبيده فى الدنيا .. ونعم الله لاتعد ولا تحصى.ومع كل التقدم فى الآلات الحاسبة والعقول الالكترونية وغير ذلك فإننا لم نجد أحدا يتقدم ويقول انا سأحصى نعم الله .. لأن موجبات الاحصاء ان تكون قادرا عليه .. فانت لا تقبل على عد شيء الا اذا كان فى قدرتك ان تحصيه .. ولكن مادام ذلك خرج قدرتك وطاقاتك فانك لا تقبل عليه .. ولذلك لن يقبل احد حتى يوم القيامة على احصاء نعم الله تبارك وتعالى لان احدا لايمكن ان يحصيها .

ولابد ان نلتفت الى ان الكون كله يضيق بالانسان ، وان العالم المقهور الذى يخدمنا بحكم القهر والتسخير يضيق حين يرى العاصين .. لان المقهور مستقيم على منهج الله قهرا .. فحين يرى كل مقهور الانسان الذى هو فى خدمته عاصيا يضيق .

واقرأ الحديث القدسى لتعرف شيئا عن رحمة الله بعباده .. يقول الله عز وجل : ما من يوم تطلع شمسه إلا وتنادى السماء تقول يارب إئذن لى أن أسقط كسفا على ابن آدم ، فقد طعم خيرك ومنع شكرك وتقول البحار يارب إئذن لى أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وتقول الجبال يارب إئذن لى أن أطبق على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . فيقول الله تعالى : دعوهم دعوهم لو خلقتموهم

لرحمتموهم نهم عبادى فإن تابو إلى فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم » رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده » .

تلك تجليات صفة الرحمن وصفة الرحيم .. وكيف ضمنت لنا بقاء كل مايخدمنا فى هذا الكون مع معصية الانسان .. انها كلها تخدمنا بعطاء الربوبية وتبقى فى خدمتنا بتسخير الله لها لانه رحمن رحيم ..

بعض الناس قد يتساءل هل تتكلم الارض والسماء وغيرها من المخلوقات فى عالم الجماد والنبات والحيوان ؟ نقول نعم ان لها لغة لا نعرفها نحن وانما يعرفها خالقها . بدليل انه منذ الخلق الاول اعلمنا الحق تبارك وتعالى ان هناك لغة لكل هذه المخلوقات واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

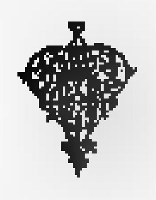
إذن فالأرض والسماء فهمت كلتاهما عن الله . وقالت له سبحانه وتعالى « أتينا طائعين » ألم يُعلِّمْ الله سليمان منطق الطير ولغة النمل ؟ ألم تسبح الجبال مع داود ؟ إذن كل خلق الله له إدراكات مناسبة .. بل له عواطف .. فعندما تكلم الله سبحانه وتعالى عن قوم فرعون .. قال :

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

اذن فالسماوات والارض لها انفعال . انفعال يصل الى مرحلة البكاء . فهما لم يبكيا على فرعون وقومه .. ولكنهما تبكيان حزنا عندما يفارقهما الانسان المؤمن المصلى المطبق لمنهج الله .. ولقد قال على بن ابى طالب رضى الله عنه : (اذا مات المؤمن

يبكى عليه موضعان موضع فى الارض وموضع فى السماء . اما الموضع فى الارض فهو مكان مصلاه الذى اسجده وهو يصلى فيه وأما الموضع فى السماء فهو مصعد عمله الطيب) .



﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾

اذا كانت كل نعم الله تستحق الحمد.. فإن «مالك يوم الدين» تستحق الحمد الكبير.. لأنه لو لم يوجد يوم للحساب، لنجا الذى ملأ الدنيا شروراً دون أن يجازى عن ما فعل. ولكان الذى التزم بالتكليف والعبادة وحرم نفسه من متع دنيوية كثيرة أرضاء لله قد شقى فى الحياة الدنيا.. ولكن لأن الله تبارك وتعالى هو «مالك يوم الدين».. أعطى الاتزان للوجود كله.. هذه الملكية ليوم الدين هى التى حمت الضعيف والمظلوم وأبقت الحق فى كون الله.. إن الذى منع الدنيا أن تتحول إلى غابة يفتك فيها القوى بالضعيف والظالم بالمظلوم هو أن هناك آخرة وحسابا، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذى سيحاسب خلقه.

والإنسان المستقيم استقامته تنفع غيره؛ لأنه يخشى الله ويعطى كل ذى حق حقه ويغفر ويسامح.. إذن كل من حوله قد استفاد من خلقه الكريم ومن وقوفه مع الحق والعدل.

أما الانسان العاصى فيشقى به المجتمع لانه لا احد يسلم من شره ولا احد الا يصيبه ظلمه.. ولذلك فإن «مالك يوم الدين» هى الميزان.. نعرف أنت ان التى يفسد فى الأرض تنظره لأخره.. لن يفلت مهما كانت قوته ونفوذه، فتطمئن اطمئنانا كاملا إلى أن عدل الله سينال كل ظالم.

على أن «مالك يوم الدين» لها قراءتان «مالك يوم الدين».. «وملك يوم الدين».. والقراءتان صحيحتان.. والله تبارك وتعالى وصف نفسه فى القرآن الكريم بأنه «مالك يوم الدين».. ومالك الشىء هو المتصرف فيه وحده.. ليس هناك دخل لأى فرد آخر.. أنا أملك عباءتى.. وأملك متاعى، وأملك منزلى، وانا المتصرف فى هذا كله أحكم فيه بما أراه..

فمالك يوم الدين.. معناها أن الله سبحانه وتعالى سيصرف أمور العباد فى ذلك اليوم بدون أسباب.. وأن كل شىء سيأتى من الله مباشرة.. دون ان يستطيع أحد أن يتدخل ولو ظاهراً.

ففي الدنيا يعطي الله الملك ظاهرا لبعض الناس . . ولكن في يوم القيامة ليس هناك ظاهر . . فالأمر مباشر من الله سبحانه وتعالى . . ولذلك يقول الله في وصف يوم الدين :

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝ ﴾

(سورة الانفطار)

فكأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في الدنيا لتمضي به الحياة . . ولكن في الآخرة لا توجد أسباب . . الملك في ظاهر الدنيا من الله يهبه لمن يشاء . . واقرأ قوله تعالى

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾

(سورة آل عمران)

ولعل قوله تعالى . « تنزع » تلفتنا إلى أن أحدا في الدنيا لايريد أن يترك الملك . . ولكن الملك يجب أن ينتزع منه انتزاعا بالرغم عن ارادته . . والله هو الذي ينزع الملك عمن يشاء . .

وهنا نتساءل هل الملك في الدنيا والآخرة ليس لله ؟ . . نقول الأمر في كل وقت لله . . ولكن الله تبارك وتعالى استخلف بعض خلقه أو مكنهم من الملك في الأرض . . ولذلك نجد في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ ﴾

(سورة البقرة)

والذى حاج ابراهيم فى ربه كافر منكر للألوهية . ومع ذلك فإنه لم يأخذ الملك بذاته بل الله جل جلاله هو الذى آتاه الملك .. اذن الله تبارك وتعالى هو الذى استخلف بعض خلقه ومكنهم من ملك فى الأرض ظاهريا .. ومعنى ذلك انه ملك ظاهر للناس فقط .. أن بشرا أصبح ملكا .. ولكن الملك ليس نابعا من ذات من يملك .. ولكنه نابع من أمر الله ولو كان نابعا من ذاتية من يملك يبقى له ولم ينزع منه. والملك الظاهر يمتحن فيه العباد ، فيحاسبهم الله يوم القيامة .. كيف تصرفوا؟ وماذا فعلوا؟ . ويمتحن فيه الناس هل سكتوا على الحكم الظالم؟ . وهل استحبوا المعصية ؟ أو انهم وقفوا مع الحق ضد الظلم ؟ .. والله سبحانه وتعالى لايمتحن الناس ليعلم المصلح من المفسد .. ولكنه يمتحنهم ليكونوا شهداء على انفسهم .. حتى لايأتى واحد منهم يوم القيامه ويقول : يارب لو أنك أعطيتنى الملك لاتبعت طريق الحق وطبقت منهجك .

وهنا يأتى سؤال. اذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء فلماذا الامتحان؟ نقول اننا اذا أردنا ان نضرب مثلا يقرب ذلك الى الأذهان .. ولله المثل الاعلى نجد ان الجامعات فى كل انحاء الدنيا تقيم الامتحانات لطلابها . فهل اساتذة الجامعة الذين علموا هؤلاء الطلاب يجهلون ما يعرفه الطالب ويريدون ان يحصلوا منه على العلم ؟ . طبعا لا . ولكن ذلك يحدث حتى اذا رسب الطالب فى الامتحان. وجاء يجادل واجهوه بإجابته فيسكت . ولو لم يعقد الامتحان لادعى كل طالب انه يستحق مرتبة الشرف.

اذا قال الحق تبارك وتعالى: «مالك يوم الدين» .. أى الذى يملك هذا اليوم وحده يتصرف فيه كما يشاء واذا قيل: «ملك يوم الدين» فتصرفه أعلى من المالك لأن المالك لايتصرف إلاّ فى ملكه . ولكن الملك يتصرف فى ملكه وملك غيره .. فيستطيع أن يصدر قوانين بمصادرة أو تأميم مايملكه غيره

الذين قالوا . «مالك يوم الدين» اثبتوا لله سبحانه وتعالى انه مالك هذا اليوم يتصرف فيه كما يشاء دون تدخل من احد ولو ظاهرا . والذين يقرأون ملك . يقولون ان الله سبحانه وتعالى فى ذلك اليوم يقضى فى امر خلقه حتى الذين ملَّكَهم فى الدنيا ظاهرا. ونحن نقول عندما يأتى يوم القيامة لا مالك ولا ملك الا الله

الله تبارك وتعالى يريد ان يطمئن عباده. فهم اذا كانوا قد ابتلوا بمالك او ملك يطغى عليهم فيوم القيامة لا مالك ولا ملك الا الله جل جلاله.. عندما تقول مالك او ملك يوم الدين.. هناك يوم وهناك الدين.. اليوم عندنا من شروق الشمس الى شروق الشمس.. هذا مانسميه فلكيا يوما.. واليوم فى معناه ظرف زمان تقع فيه الاحداث.. والمفسرون يقولون: «مالك يوم الدين» اى مالك أمور الدين لأن ظرف الزمان لا يملك.. نقول ان هذا بمقاييس ملكية البشر، فنحن لانملك الزمن. الماضى لانستطيع ان نعيده، والمستقبل لانستطيع ان نأتى به.. ولكن الله تبارك وتعالى هو خالق الزمان. والله جل جلاله لايحده زمان ولا مكان. كذلك قوله تعالى: «مالك يوم الدين» لايحده زمان ولا مكان.. واقرأ قوله سبحانه:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾

(سورة الحج)

وقوله تعالى:

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾

(سورة المعارج)

واذا تأمل هاتين الايتين نعرف معنى اليوم عند الله تبارك وتعالى.. ذلك ان الله جل جلاله هو خالق الزمن.. ولذلك فانه يستطيع ان يخلق يوما مقداره ساعة.. ويوما كأيام الدنيا مقداره أربع وعشرون ساعة.. ويوما مقداره ألف سنة.. ويوما مقداره خمسون الف سنة ويوما مقداره مليون سنة.. فذلك خاضع لمشيئة الله.

ويوم الدين موجود فى علم الله سبحانه وتعالى. بأحداثه كلها بجنته وناره.. وكل الخلق الذين سيحاسبون فيه.. وعندما يريد ان يكون ذلك اليوم ويخرج من علمه جل جلاله الى علم خلقه.. سواء كانوا من الملائكة او من البشر أو الجان يقول: كن.. فالله وحده هو خالق هذا اليوم.. وهو وحده الذى يحدد كل أبعاده.. واليوم نحن نحدده ظاهرا بانه اربع وعشرون ساعة. ونحدده بأنه الليل والنهار. ولكن الحقيقة أن الليل والنهار موجودان دائما على الارض.. فعندما تتحرك الارض، كل

حركة هي نهاية نهار في منطقة وبداية نهار في منطقة اخرى . وبداية ليل في منطقة ونهاية ليل في منطقة اخرى .. ولذلك في كل لحظة ينتهي يوم ويبدأ يوم .. وهكذا فإن الكرة الارضية لو اخذتها بنظرة شاملة لاينتهي عليها نهار أبدا .. ولا ينتهي عنها ليل أبدا .. إذن فاليوم نسبي بالنسبة لكل بقعة في الارض . ولكنه في الحقيقة دائم الوجود على كل الكرة الارضية.

والله سبحانه وتعالى يريد أن يطمئن عباده .. أنهم إذا أصابهم ظلم في الدنيا .. فإن هناك يوما لاظلم فيه وهذا اليوم لامر فيه لله وحده بدون أسباب .. فكل انسان لو لم يدركه العقاب والقصاص في الدنيا فإن الآخرة تنتظره والذى أتبع منهج الله وقيد حركته في الحياة يجزيه الله سبحانه وتعالى ان هناك يوما سيأخذ فيه أجره وعظمة الآخرة أنها تعطيك الجنة .. نعيم لايموتك ولاتفوته

ولقد دخل أحد الاشخاص على رجل من الصالحين .. وقال له أريد ان أعرف . أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال له الرجل الصالح ان الله أرحم بعباده ، فلم يجعل موازينهم في أيدى أمثالهم . فميزان كل انسان في يد نفسه .. لماذا ؟ . لأنك تستطيع ان تغش الناس ولكنك لا تغش نفسك ميزانك في يديك .. تستطيع ان تعرف أأنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة

قال الرجل كيف ذلك ؟ فرد العبد الصالح : اذا دخل عليك من يعطيك مالا . ودخل عليك من يأخذ منك صدقة . فبأيهما تفرح ؟ .. فسكت الرجل .. فقال العبد الصالح اذا كنت تفرح بمن يعطيك مالا فأنت من اهل الدنيا واذا كنت تفرح بمن يأخذ منك صدقة فأنت من أهل الآخرة . فإن الانسان يفرح بمن يقدم له ما يحبه فالذي يعطيك مالا يعطيك الدنيا .. والذى يأخذ منك صدقة يعطيك الآخرة .. فإن كنت من أهل الآخرة . فافرح بمن يأخذ منك صدقة .. أكثر من فرحك بمن يعطيك مالا .

ولذلك كان بعض الصالحين اذا دخل عليه من يريد صدقة يقول مرحبا بمن جاء يحمل حسناتي الى الآخرة بغير أجر .. ويستقبله بالفرحة والترحاب

قول الحق سبحانه وتعالى : « مالك يوم الدين » . . هي قضية ضخمة من قضايا العقائد . . لأنها تعطينا أن البداية من الله ، والنهاية الى الله جل جلاله وبما أننا جميعا سنلقى الله ، فلابد أن نعمل هذا اليوم . . ولذلك فإن المؤمن لا يعمل شيئا في حياته الا وفي باله الله . . وأنه سيحاسبه يوم القيامة . ولكن غير المؤمن يفعل ما يفعل وليس في باله الله . . وعن هؤلاء يقول الحق سبحانه :

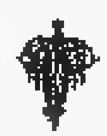
﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

وهكذا من يعمل شيئا وليس في باله الله . . فيفاجأ يوم القيامة بأن الله تبارك وتعالى الذي لم يكن في باله موجود وانه جل جلاله هو الذي سيحاسبه .

وقوله تعالى : « مالك يوم الدين » هي أساس الدين . . لأن الذي لا يؤمن بالآخرة يفعل ما يشاء . . مادام يعتقد انه ليس هناك آخرة وليس هناك حساب . فمم يخاف ؟ . ومن أجل من يقيد حركته في الحياة . .

ان الدين كله بكل طاعاته وكل منهجه قائم على أن هناك حسابا في الآخرة . . وأن هناك يوما نقف فيه جميعا أمام الله سبحانه وتعالى . . ليحاسب المخطىء ويثيب الطائع . . هذا هو الحكم في كل تصرفاتنا الايمانية . . فلو لم يكن هناك يوم نحاسب فيه . . فلماذا نصلي ؟ . . ولماذا نصوم ؟ . . ولماذا نتصدق ؟ . .



ان كل حركة من حركات منهج السماء قائمة على اساس ذلك اليوم الذى لن يفلت منه أحد . . والذى يجب علينا جميعا أن نستعد له ان الله سبحانه وتعالى سمى هذا اليوم بالنسبة للمؤمنين يوم الفوز العظيم . . والذى يجعلنا نتحمل كل ما نكره ونجاهد فى سبيل الله لنستشهد . ونتفق اموالنا نعين الفقراء والمساكين . . كل هذا أساسه أن هناك يوما سنقف فيه بين يدى الله . والله تبارك وتعالى سماه يوم الدين . لأنه اليوم الذى سيحاسب فيه كل انسان على دينه عمل به أم ضيعه . فمن آمن واتبع الدين سيكافأ بالخلود فى الجنة . ومن أنكر الدين وأنكر منهج الله سيجازى بالخلود فى النار .

ومن عدل الله سبحانه وتعالى ان هناك يوما للحساب . لأن بعض الناس الذين ظلموا وبغوا فى الأرض ربما يفلتون من عقاب الدنيا هل هؤلاء الذين أفلتوا فى الدنيا من العقاب هل يفلتون من عدل الله ؟ أبدا لن يفلتوا بل انهم انتقلوا من عقاب محدود الى عقاب خالد . . وافلتوا من العقاب بقدرة البشر فى الدنيا . . الى عقاب بقدرة الله تبارك وتعالى فى الآخرة . ولذلك لابد من وجود يوم يعيد الميزان . فيعاقب فيه كل من أفسد فى الارض وأفلت من العقاب . بل إن الله سبحانه وتعالى يجعل انسانا يفلت من عقاب الدنيا . فلا تعتقد أن هذا خير له بل انه شر له . . لانه افلت من عقاب محدود الى عقاب أبدى .

والحمد الكبير لله بأنه « مالك يوم الدين » وهو وحده الذى سيقضى بين خلقه . فالله سبحانه وتعالى يعامل خلقه جميعا معاملة متساوية . وأساس التقوى هو يوم الدين .

وقبل ان نتكلم عن قول الحق تبارك وتعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » . لابد أن نتحدث عن قضية مهمة فهناك نوعان من الرؤية الرؤية العينية أى بالعين . . والرؤية الايمانية أى بالقلب . وكلاهما يختلف عن الآخر . رؤية العين هى أن يكون الشيء أمامك تراه بعينيك ، وهذه ليس فيها قضية ايمان . فلا تقول انى أومن أنى أراك أمامى لانك ترانى فعلا . مادمت ترانى فهذا يقين . ولكن الرؤية الايمانية هى أن تؤمن كأنك ترى ما هو غيب أمامك وتكون هذه الرؤية أكثر يقينا من رؤية العين لأنها رؤية إيمان ورؤية بصيرة . وهذه قضية مهمة جدا .

وقد روى عمر بن الخطاب قال :

بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر . لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد . حتى جلس الى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه الى ركبتيه . ووضع كفيه على فخذيه قال . يا محمد أخبرني عن الاسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله . وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة . وتؤتي الزكاة . وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا قال : صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه .

قال : فأخبرني عن الايمان

قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر ؛ خيره وشره

قال : صدقت قال : فأخبرني عن الاحسان ، قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك

قال : فأخبرني عن الساعة

قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل

قال : فأخبرني عن أماراتها

قال : أن تلد الأمة ربتها . وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان .

قال : ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : يا عمر أتدري من السائل ؟

قلت : الله ورسوله أعلم

قال : فانه جبريل اتاكم يعلمكم دينكم (١)

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . (أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) . هو بيان للرؤية الايمانية في النفس المؤمنة . فالانسان حينما يؤمن ، لابد أن يأخذ كل قضاياه برؤية ايمانية . حتى اذا قرأ آية عن الجنة فكأنه يرى أهل الجنة وهم ينعمون . واذا قرأ آية عن أهل النار اقشعر بدنه . . وكأنه يرى أهل النار وهم يعذبون

(١) رواه مسلم

ذات يوم شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد صحابته وكان اسمه الحارث .. فقال له :

كيف أصبحت يا حارث ؟

فقال . أصبحت مؤمنا حقا

قال الرسول : فانظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة . فما حقيقة ايمانك ؟

قال الحارث : عزفت نفسي عن الدنيا . فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري . وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا . وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها . وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . (يتصايحون فيها) .

قال النبي « يا حارث عرفت فالزم » (١)

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى وهو يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ ﴾

(سورة الفيل)

يأخذ بعض المستشرقين هذه الآية في محاولة للطعن في القرآن الكريم .. فقوله تعالى : « ألم تر » . ورسول الله صلى الله عليه وسلم ولد في عام الفيل .. انه لم ير لأنه كان طفلا عمره أيام أو شهور . لو قال الله سبحانه وتعالى ألم تعلم لقلنا علم من غيره . فالعلم تحصل عليه انت او يعطيه لك من عَلِمَهُ .. اي يعلمك

(١) رواه الطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية ، ورواه بنحوه البيهقي وأبوهلال العسكري في الأمثال ، وابن النجار في التاريخ ولحديث شواهد ترقى به الى درجة الحسن ، وقد رواه البيهقي في الزهد عن الحارث بن مالك قال أتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذ ردائه فلبثه فوضعه تحت رأسه فسلمت عليه فقال لي كيف أنت يا حارث ؟ فقلت رجل من المؤمنين ، فقال . انظر ماذا تقول ؟ قال . قلت نعم رجل من المؤمنين حق .

فاستوى صلى الله عليه وسلم جالسا ثم قال : لكل شيء حقيقة فما حقيقة ذلك ؟ قال : قلت : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري وكأني أنظر الى عرش ربي كأني أرى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني اسمع عواء أهل النار فيها . فقال . عرفت فالزم ، عبدا نور الله قلبه بالايمان

غيرك من البشر .. ولكن الله سبحانه وتعالى قال : « ألم تر » ..

نقول ان هذه قضية من قضايا الايمان .. فما يقوله الله سبحانه وتعالى هو رؤية صادقة بالنسبة للانسان المؤمن . فالقرآن هو كلام متعبد بتلاوته حتى قيام الساعة .. وقول الله : « ألم تر » .. معناها ان الرؤية مستمرة لكل مؤمن يتلو يقرأ هذه الآية . فما دام الله تبارك وتعالى قال : « ألم تر » فأنت ترى بإيمانك ما تعجز عينك عن أن تراه . هذه هي الرؤية الايمانية ، وهي أصدق من رؤية العين .. لأن العين قد تخدع صاحبها ولكن القلب المؤمن لا يخدع صاحبه أبدا ..

على أن هناك ما يسمونه ضمير الغائب . اذا قلت زيد حضر فهو موجود أمامك .. ولكن إذا قلت قابلت زيدا .. فكأن زيداً غائب عنك ساعة قلت هذه الجملة .. قابلته ولكنه ليس موجوداً معك ساعة الحديث ..

اذن فهناك حاضر وغائب ومتكلم .. الغائب هو من ليس موجوداً أو لا نراه وقت الحديث .. والحاضر هو الموجود وقت الحديث .. والمتكلم هو الذى يتحدث . وقضايا العقيدة كلها ليس فيها مشاهدة ، ولكن الايمان بما هو غيب عنا يعطينا الرؤية الايمانية التى هى كما قلنا أقوى من رؤية البصر .

فالله سبحانه وتعالى حين يقول «الحمد لله رب العالمين» «الله» غيب و«رب العالمين» غيب . «والرحمن الرحيم» .. «غيب» . «ومالك يوم الدين» غيب .. وكان السياق اللغوى يقتضى أن يقال إياه نعبد ولكن الله سبحانه وتعالى غير السياق ونقله من الغائب الى الحاضر . وقال : «إياك نعبد» فانتقل الغيب الى حضور المخاطب .. فلم يقل إياه نعبد .. ولكنه قال : «إياك نعبد» . فأصبحت رؤية يقين ايمانى .

فأنت فى حضرة الله سبحانه وتعالى الذى غمرك بالنعم ، وهذه تراها وتحيط بك لأنه «رب العالمين» .. وجعلك تطمئن الى قضائه لأنه «الرحمن الرحيم» أى أن ربوبيته جل جلاله ليست ربوبية جبروت بل هى ربوبية «الرحمن الرحيم» فإذا لم

تحمده وتؤمن به بعض نعمه التي تحسها وتعيش فيها . فاحذر من عدالة منهجه لأنه «مالك يوم الدين»

حين يستحضر الحق سبحانه وتعالى ذاته بكل هذه الصفات التي فيها فضائل الألوهية ، ونعم الربوبية . . والرحمة التي تمحو الذنوب والرهبة من لقائه يوم القيامة تكون قد انتقلت من صفات الغيب الى حضر الشهود . . استحضرت جلال الألوهية لله وفيوضات رحمته . . ونعمه التي لا تحد وقيوميته يوم القيامة .

عندما تقرأ قوله تعالى : «إياك نعبد» فالعبارة هنا تفيد الخصوصية . . بمعنى أنني اذا قلت لانسان انني سأقابلك ، قد أقابله وحده ، وقد أقابله مع جمع من الناس . ولكن اذا قلت اياك سأقابل . . فمعنى ذلك ان المقابلة ستكون خاصة .

الحق سبحانه وتعالى حين قال : «إياك نعبد» قصر العبادة على ذاته الكريمة . . لأنه لو قال نعبدك وحدك فهي لاتؤدي المعنى نفسه ؛ لأنك قد تقول نعبدك وحدك ومعك كذا وكذا . ولكن اذا قلت «إياك نعبد» وقدمت إياك . . تكون قد حسمت الأمر بأن العبادة لله وحده فلا يجوز العطف عليها فالعبادة خضوع لله سبحانه وتعالى بمنهجه افعل ولا تفعل وبذلك جعل الصلاة أساس العبادة ، والسجود هو منتهى الخضوع لله لأنك تأتي بوجهك الذي هو أكرم شيء فيك وتضعه على الأرض عند موضع القدم . فيكون هذا هو منتهى الخضوع لله . . ويتم هذا امام الناس جميعا في الصلاة . لإعلان خضوعك لله امام البشر جميعا .

ويستوي في العبودية الغني والفقير والكبير والصغير . حتى يطرد كل منا الكبر والاستعلاء من قلبه امام الناس جميعا فيستوي الحق جل جلاله بين عباده في الخضوع له وفي اعلان هذا الخضوع .

وقول الحق سبحانه وتعالى : «إياك نعبد» تنفي العبودية لغير الله . أي لانعبد غير الله ولانعطف عليها أبدا . . اذن «إياك نعبد» أعطت تخصيص العبادة لله وحده لا إله غيره ولا معبود سواه . . وعلينا أن نلتفت الى قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

وهكذا فإننا عندما نقول «الحمد لله» فإننا نستحضر موجبات الحمد وهي نعم الله ظاهرة وباطنة .. وحين نقول «رب العلمين» نستحضر نعم الربوبية في خلقه وإخضاع كونه .. وحين نستحضر «الرحمن الرحيم» فإننا نستحضر الرحمة والمغفرة ومقابلة الاساءة بالاحسان وفتح باب التوبة .. وحين نستحضر : «مالك يوم الدين» نستحضر يوم الحساب وكيف أن الله تبارك وتعالى سيجازيك على أعمالك .. فإذ استحضرنا هذا كله نقول . «إياك نعبد» أي أننا نعبد الله وحده .. اذن عرفنا المطلوب منا وهو العبادة .

وهنا نتوقف قليلا لنتحدث عما يطلقون عليه في اللغة «العلة والمعلول» إذا أراد ابنك ان ينجح في الامتحان فإنه لابد أن يذاكر .. وعلة المذاكرة هي النجاح . فكأن النجاح ولد في ذهني اولا بكل ما يحققه من ميزات ومستقبل مضمون وغير ذلك مما أريده وأسعى اليه .

إذن فالدافع قبل الواقع . أي أنك استحضرت النجاح في ذهنك . ثم بعد ذلك ذاكرت لتجعل النجاح حقيقة واقعة . وأنت إذا أردت مثلا أن تسافر الى مكان ما فالسيارة سبب يحقق لك ما تريد وتقطع الطريق سبب آخر . ولكن الدافع الذي جعلني أنزل من بيتي واركب السيارة وأقطع الطريق هو انني أريد أن أسافر الى الاسكندرية مثلا .. الدافع هنا وهو الوصول الى الاسكندرية .. هو الذي وجد في ذهني أولا ثم بعد ذلك فعلت كل ما فعلته لتحقيقه .

والله سبحانه وتعالى خلقنا في الحياة لنعبده .. مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إذن فعلّة الخلق هي العبادة . ولقد تم الخلق لتتحقق العبادة وتصبح واقعا . ولكن «العلة والمعلول» لاتنطبق على أفعال الله سبحانه وتعالى .. نقول ليس هناك علة تعود على الله جل جلاله بالفائدة . لأن الله تبارك وتعالى غني عن العالمين .. ولكن العلة تعود على الخلق بالفائدة ؛ فالله سبحانه وتعالى خلقنا لنعبده . ولكن علة الخلق ليس لأن هذه العبادة ستزيد شيئا في ملكه .. وانما عبادتنا تعود علينا

نحس بالخير في الدنيا والآخرة ..

ان أعمال الله لاتعلل ، والمأمور بالعبادة هو الذى سينتفع بها .

ولكن هل العبادة هي الجلوس في المساجد والتسبيح أو أنها منهج يشمل الحياة كلها .. في بيتك وفي عملك وفي السعي في الارض ؟ ولو أراد الله سبحانه وتعالى من عباده الصلاة والتسبيح فقط لما خلقهم مختارين بل خلقهم مقهورين لعبادته ككل ما خلق ما عدا الانس والجن .. والله تبارك وتعالى له صفة القهر .. من هنا فانه يستطيع أن يجعل من يشاء مقهورا على عبادته .. مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

فلو أراد الله ان يخضعنا لمنهجه قهراً لا يستطيع أحد أن يشذ عن طاعته .. وقد أعطانا الله الدليل على ذلك بأن في أجسادنا وفي أحداث الدنيا ما نحن مقهورون عليه . فالجسد مقهور لله في أشياء كثيرة . القلب ينبض ويتوقف بأمر الله دون ارادة منا . والمعدة تهضم الطعام ونحن لاندرى عنها شيئا .. والدورة الدموية في اجسادنا لا ارادة لنا فيها .. وأشياء كثيرة في الجسد البشرى كلها مقهورة لله سبحانه وتعالى .. وليس لإرادتنا دخل في عملها .. ومايقع على في الحياة الدنيا من أحداث أنا مقهور فيه لا أستطيع أن أمنعه من الحدوث .. فلا استطيع أن أمنع سيارة أن تصدمنى . ولا طائرة أن تحترق بي ولا كل ما يقع على من أقدار الله في الدنيا ..

اذن فمنطقة الاختيار في حياتى محددة لا أستطيع أن أتحكم في يوم مولدى ولا فيمن هو أبى ومن هى أمى .. ولا في شكلى هل أنا طويل أو قصير ؟ جميل أو قبيح أو غير ذلك اذن فمنطقة الاختيار في الحياة هى منهج أن أفعل أو لا أفعل . الله سبحانه وتعالى له من كل خلقه عبادة القهر .. ولكنه يريد من الانس والجن عبادة المحبوبية ولذلك خلقنا ولنا اختيار في أن نأتيه أو لا نأتيه . في أن نطيعه أو نعصيه . في أن نؤمن به أو لا نؤمن

فإذا كنت تحب الله فأنت تأتيه عن اختيار . تتنازل عما يحبه حبا فيه ، وتفعل ما يطلبه حبا فيه وليس قهرا . . فاذا تخليت عن اختيارك الى مرادات الله في منهجه . . تكون قد حققت عبادة المحبوبية لله تبارك وتعالى . وتكون قد اصبحت من عباد الله وليس من عبيد الله . فكلنا عبيد لله سبحانه وتعالى ، والعبيد متساوون فيما يقهرون عليه . ولكن العباد الذين يتنازلون عن منطقة الاختيار لمراد الله في التكليف . . ولذلك فإن الحق جل جلاله . . يفرق في القرآن الكريم بين العباد والعبيد . . يقول تعالى .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾

(سورة الفرقان)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أعطى أوصاف المؤمنين وسماهم عبادا . . ولكن عندما يتحدث عن البشر جميعا يقول عبيد . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولكن قد يقول قائل : ان الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

الحديث هنا عن العاصين والضالين . ولكن الله سبحانه وتعالى قال عنهم عباد نقول إن هذا في الآخرة . . وفي الآخرة كلنا عباد لأننا مقهورون لطاعة الله الواحد المعبود تبارك وتعالى . . لأن الاختيار البشري ينتهي ساعة الاحتضار . ونصبح جميعا عبداً لله مقهورين على طاعته لا اختيار لنا في شيء

والله سبحانه وتعالى قد أعطى الانسان اختياره في الحياة الدنيا في العبودية فلم يقهره في شيء ولايرغم غير المؤمن به بأي تكليف . . بل إن المؤمن هو الذي يلزم نفسه بالتكليف ويصبح عبد الله فيدخل في عقد ايمان مع الله تبارك وتعالى . . ولذلك نجد أن الله جل جلاله لايخاطب الناس جميعا في التكليف . . وانما يخاطب الذين آمنوا فقط فيقول .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويقول سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أي أن الله جل جلاله لايكلف إلا المؤمن الذي يدخل في عقد ايماني مع الله .

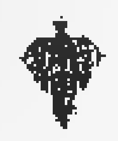
وسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم عندما نضعه في معيار العبادية يكون القمة فهو صلى الله عليه وسلم الذي حقق العبادية المرادة لله من خلق الله كما يحبها الله . .

اذن فالذي يقول غاية الخلق كله محمد عليه الصلاة والسلام نقول ان هذا صحيح ، لأنه صلى الله عليه وسلم حقق العبادية المثلى المطلوبة من الله تبارك وتعالى . والتي هي علة الخلق . . وهكذا نعرف المقامات العالية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند خالقه .

والله تبارك وتعالى قرن العبادة له وحده بالاستعانة به سبحانه . فقال جل جلاله : «إياك نعبد وإياك نستعين» أي لا نعبد سواك ولا نستعين إلا بك . والاستعانة بالله سبحانه وتعالى تخرجك عن ذل الدنيا . فأنت حين تستعين بغير الله فإنك تستعين ببشر مهما بلغ نفوذه وقوته فكلها في حدود بشريته . .

ولأننا نعيش في عالم أغيار . فإن القوى يمكن أن يصبح ضعيفا . وصاحب النفوذ يمكن أن يصبح في لحظة واحدة طريدا شريدا لا نفوذ له . . ولو لم يحدث هذا . فقد يموت ذلك الذي تستعين به فلا تجد أحدا يعينك .

ويريد الله تبارك وتعالى أن يحرر المؤمن من ذل الدنيا . . فيطلب منه أن يستعين بالحي الذي لا يموت . وبالقوي الذي لا يضعف ، وبالقاهر الذي لا يخرج عن أمره أحد . . وإذا استعنت بالله سبحانه وتعالى كان الله جل جلاله بجانبك . وهو وحده الذي يستطيع أن يحول ضعفك إلى قوة وذلك إلى عز . والمؤمن دائما يواجه قوى أكبر منه . ذلك أن الذين يحاربون منهج الله يكونون من الأقوياء ذوي النفوذ الذين يحاولون أن يستعبدوا غيرهم . والمؤمن سيدخل معهم في صراع . ولذلك فإن الحق يطمئن عباده المؤمنين بأنه معهم في الصراع بين الحق والباطل . وقوله تعالى «وإياك نستعين» مثل «إياك نعبد» . أي نستعين بك وحدك وهي دستور الحركة في الحياة . . لأن استعان معناها طلب المعونة ، أي أن الإنسان استنفد أسبابه ولكنها خذلته . حينئذ لابد أن يتذكر أن له ربا لا يعبد سواه . لن يتخلى عنه بل يستعين به . وحين تتخلى الأسباب فهناك رب الأسباب وهو موجود دائما لا يغفل عن شيء ولا تفوته همسة في الكون . ولذلك فإن المؤمن يتجه دائما إلى السماء . . والله سبحانه وتعالى يكون معه .



﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧ ﴾

بعد أن آمنت بالله سبحانه وتعالى إلها وربا .. واستحضرت عطاء الألوهية ونعم الربوبية وفيوضات رحمة الله على خلقه . وأعلنت أنه لا إله إلا الله . وقولك : «إياك نعبد» أى أن العبادة لله تبارك وتعالى لاتشرك به شيئا ولا نعبد إلا إياه .. وأعلنت انك ستستعين بالله وحده بقولك : «إياك نستعين» . فانك قد أصبحت من عباد الله . ويعلمك الله سبحانه وتعالى الدعاء الذى يتمناه كل مؤمن .. ومادمت من عباد الله ، فإن الله جل جلاله سيستجيب لك . مصداقا لقوله سبحانه

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦ ﴾

(سورة البقرة)

والمؤمن لا يطلب الدنيا أبدا . لماذا ؟ .. لأن الحياة الحقيقية للانسان فى الآخرة . فيها الحياة الأبدية والنعيم الذى لايفارقك ولاتفارقه . فالمؤمن لا يطلب مثلا أن يرزقه الله مالا كثيرا ولا أن يمتلك عمارة مثلا .. لأنه يعلم أن كل هذا وقتى وزائل .. ولكنه يطلب ما ينجيه من النار ويوصله الى الجنة ..

ومن رحمة الله تبارك وتعالى أنه علمنا ما نطلب . وهذا يترجب الحمد لله .

وأول ما يطلب المؤمن هو الهداية والصراط المستقيم : «إهدنا الصراط المستقيم»

والهداية نوعان . هداية دلالة وهداية معونة . هداية الدلالة هى للناس جميعا .. وهداية المعونة هى للمؤمنين فقط المتبعين لمنهج الله . والله سبحانه وتعالى هدى كل عباده هداية دلالة أى دلهم على طريق الخير وبينه لهم .. فمن أراد أن يتبع طريق الخير اتبعه .. ومن أراد ألا يتبعه تركه الله لما أراد .

هذه الهداية العامة هى أساس البلاغ عن الله . فقد بين لنا الله تبارك وتعالى فى منهجه بافعل ولا تفعل ما يرضيه وما يغضبه . . وأوضح لنا الطريق الذى نتبعه لنهتدى . والطريق الذى لو سلكناه حق علينا غضب الله وسخطه . . ولكن هل كل من بين له الله سبحانه وتعالى طريق الهداية اهتدى ؟ . . نقول لا . . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾

(سورة فصلت)

اذن هناك من لا يأخذ طريق الهداية بالاختيار الذى أعطاه الله له . . فلو أن الله سبحانه وتعالى أرادنا جميعا مهديين .. ما استطاع واحد من خلقه أن يخرج على مشيئته . ولكنه جل جلاله خلقنا مختارين لنأتيه عن حب ورغبة بدلا من أن يقهرنا على الطاعة . . ما الذى يحدث للذين اتبعوا طريق الهداية والذين لم يتبعوه وخالفوا مراد الله الشرعى فى كونه ؟

الذين اتبعوا طريق الهداية يعينهم الله سبحانه وتعالى عليه ويحببهم فى الايمان والتقوى ويحببهم فى طاعته . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

(سورة محمد)

أى أن كل من يتخذ طريق الهداية يعينه الله عليه . . ويزيده تقوى وحبا فى الدين . . أما الذين إذا جاءهم الهدى ابتعدوا عن منهج الله وخالفوه . . فإن الله تبارك وتعالى يتخلى عنهم ويتركهم فى ضلالهم واقرأ قوله تعالى :

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾

(سورة الزخرف)

والله سبحانه وتعالى قد بين لنا المحرومين من هداية المعونة على الايمان وهم ثلاثة كما بينهم لنا فى القرآن الكريم:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة النحل)

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

اذن فالمطرودون من هداية الله فى المعونة على الايمان هم الكافرون والفاسقون والظالمون .. الحق سبحانه وتعالى يقول : « اهدنا الصراط المستقيم » ما هو الصراط ؟ .. إنه الطريق الموصلة الى الغاية . ولماذا نص على أنه الصراط المستقيم . لأن الله سبحانه وتعالى وضع لنا فى منهجه الطريق المستقيم .. وهو أقصر الطرق الى تحقيق الغاية . فأقصر طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم ولذلك إذا كنت تقصد مكانا فأقصر طريق تسلكه هو الطريق الذى لا اعوجاج فيه ولكنه مستقيم تماما ..

ولا تحسب ان البعد عن الطريق المستقيم يبدأ باعوجاج كبير بل باعوجاج صغير جدا ولكنه ينتهى الى بُعد كبير .

ويكفى أن تراقب قضبان السكة الحديد .. حينما يبدأ القطار في اتخاذ طريق غير الذى كان يسلكه فهو لاينحرف فى أول الأمر إلا بضعة ملليمترات .. أى أن أول التحويلة ضيق جدا وكلما مشيت اتسع الفرق وازداد اتساعا . بحيث عند النهاية تجد أن الطريق الذى مشيت فيه يبعد عن الطريق الأول عشرات الكيلو مترات وربما مئات الكيلو مترات .. إذن فأى انحراف مهما كان بسيطا يبعدك عن الطريق المستقيم بعدا كبيرا .. ولذلك فإن الدعاء : «اهدنا الصراط المستقيم» أى الطريق الذى ليس فيه إعوجاج ولو بضعة ملليمترات .. الطريق الذى ليس فيه مخالفة تبعدنا عن طريق الله المستقيم .

لذلك فإن الانسان المؤمن يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يهديه الى أقصر الطرق للوصول الى الغاية .. وماهى الغاية ؟ انها الجنة والنعيم فى الآخرة .. ولذلك يقول يارب اهدنا وأعنا على أن نسلك الطريق المستقيم وهو طريق المنهج ليوصلنا الى الجنة دون أن يكون فيه أى اعوجاج يبعدنا عنها .

ولقد قال الله سبحانه وتعالى فى حديث قدسى . انه اذا قال العبد : «اهدنا الصراط المستقيم» يقول جل جلاله : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل .

يقول الحق تبارك وتعالى . «صراط الذين انعمت عليهم» ما معنى «الذين أنعمت عليهم» ؟ .. اقرأ الآية الكريمة :

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾

(سورة النساء)

وأنت حين تقرأ الآية الكريمة فأنت تطلب من الله تبارك وتعالى أن تكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . أى أنك تطلب من الله جل جلاله أن يجعلك تسلك نفس الطريق الذى سلكه هؤلاء لتكون معهم فى الآخرة .. فكأنك تطلب الدرجة العالية فى الجنة .. لأن كل من ذكرناهم لهم مقام عال فى جنة النعيم .. وهكذا فإن الطلب من الله سبحانه وتعالى هو أن يجعلك تسلك الطريق الذى لا اعوجاج فيه . والذى يوصلك فى أسرع وقت الى الدرجة العالية فى الآخرة

وعندما نعرف ان الله سبحانه وتعالى قال : (هذا لعبدى ولعبدى ما سأل) . . تعرف أن الاستجابة تعطيك الحياة العالية فى الآخرة وتمتعك بنعيم الله . ليس بقدرات البشر كما يحدث فى الدنيا . . ولكن بقدرة الله تبارك وتعالى . . وإذاكانت نعم الدنيا لا تعد ولا تحصى . فكيف بنعم الآخرة ؟ لقد قال الله سبحانه وتعالى عنها :

﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة ق)

اى أنه ليس كل ما تطلبه فقط ستجده أمامك بمجرد وروده على خاطرك . ولكن مهما طلبت من النعم ومهما تحب فالله جل جلاله عنده مزيد . ولذلك فانه يعطيك كل ما تشاء ويزيد عليه بما لم تطلب ولا تعرف من النعم . . وهذا تشبيه فقط ليقرب الله تبارك وتعالى صورة النعيم الى أذهاننا ، ولكن الجنة فيها ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

وبما ان المعانى لابد أن توجد أولا فى العقل ثم يأتى اللفظ المعبر عنها . . فكل شىء لا نعرفه لاتوجد فى لغتنا ألفاظ تعبر عنه . فنحن لم نعرف اسم التليفزيون مثلا إلا بعد أن اخترع وصار له مفهوم محدد . تماما كما لم نعرف اسم الطائرة قبل أن يتم اختراعها . . فالشىء يوجد أولا ثم بعد ذلك يوضع اللفظ المعبر عنه ولذلك فإن مجامع اللغات فى العالم تجتمع بين فترة وأخرى لتضع أسماء لأشياء جديدة اخترعت وعرفت مهمتها

ومادام ذلك هو القاعدة اللغوية ، فإنه لاتوجد ألفاظ فى لغة البشر تعبر عن النعيم الذى سيعيشه اهل الجنة لأنه لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على القلب . . ولذلك فإن كل ماتقرؤه فى القرآن الكريم يقرب لنا الصورة فقط . ولكنه لا يعطينا حقيقة ما هو موجود . ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن الجنة فى

القرآن الكريم يقول :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ
وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن
رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة محمد)

أى أن هذا ليس حقيقة الجنة ولكنها مثل فقط يقرب ذلك الى الأذهان . . لأنه لا توجد ألفاظ فى لغات البشر يمكن أن تعطينا حقيقة ما فى الجنة .

وقوله تعالى «غير المغضوب عليهم» . أى غير الذين غضبت عليهم يارب من الذين عصوا ومنعت عنهم هداية الاعانة . . الذين عرفوا المنهج فخالفوا وارتكبوا كل ما حرمه الله فاستحقوا غضبه .

ومعنى غير «المغضوب عليهم» أى يارب لا تيسر لنا الطريق الذى نستحق به غضبك . كما استحقه أولئك الذين غيروا وبدلوا فى منهج الله ليأخذوا سلطة زمنية فى الحياة الدنيا وليأكلوا اموال الناس بالباطل . .

وقد وردت كلمة «المغضوب عليهم» فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ
الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وهذه الآيات نزلت فى بنى اسرائيل .

وقول الله تعالى « ولا الضالين » هناك الضال والمضل .. الضال هو الذى ضل الطريق فاتخذ منهجا غير منهج الله .. ومشى فى الضلالة بعيدا عن الهدى وعن دين الله .. ويقال ضل الطريق أى مشى فيه وهو لايعرف السبيل الى ما يريد أن يصل اليه .. أى أنه تاه فى الدنيا فاصبح وليا للشيطان وابتعد عن طريق الله المستقيم .. هذا هو الضال .. ولكن المضل هو من لم يكتف بأنه ابتعد عن منهج الله وسار فى الحياة على غير هدى .. بل يحاول أن يأخذ غيره الى الضلالة .. يغرى الناس بالكفر وعدم اتباع المنهج والبعد عن طريق الله .. وكل واحد من العاصين يأتى يوم القيامة يحمل ذنوبه .. الا المضل فانه يحمل ذنوبه وذنوب من اضلهم .. مصداقا لقوله سبحانه :

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

أى أنك وأنت تقرأ الفاتحة تستعيذ بالله أن تكون من الذين ضلوا .. ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يأت هنا بالمضلين .. نقول انك لكى تكون مضلا لابد أن تكون ضالا أولا .. والاستعاذة من الضلال هنا تشمل الاثنين .. لأنك مادمت قد استعذت من أن تكون ضالا فلن تكون مضلا أبدا

بقى أن نتكلم عن ختم فاتحة الكتاب .. بقولك آمين أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى علمه جبريل عليه السلام أن يقول بعد قراءة الفاتحة آمين ، فهى من كلام جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليست كلمة من القرآن .

وكلمة آمين معناها استجب يارب فيما دعوناك به من قولنا : « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم » أى أن الدعاء هنا له شىء مطلوب تحقيقه .. وآمين دعاء لتحقيق المطلوب .. وكلمة آمين اختلف العلماء فيها .. أهى عربية أم غير عربية .

ومنا يثور سؤال .. كيف تدخل كلمة غير عربية فى قرآن حكم الله بأنه عربى .. ؟ نقول أن ورود كلمة ليست من أصل عربى فى القرآن الكريم .. لاينفى

أن القرآن كله عربي بمعنى أنه إذا خوطب به العرب فهموه . . وهناك ألفاظ دخلت في لغة العرب قبل أن ينزل القرآن . ولكنها دارت على الألسن بحيث أصبحت عربية وألفتها الآذان العربية . .

فليس المراد بالعربي هو أصل اللغة العربية وحدها . . وإنما المراد أن القرآن نزل باللغة التي لها شيوع على ألسنة العرب ومادام اللفظ قد شاع على اللسان قولا وفي الآذان سمعا فإن الأجيال التي تستقبله لا تفرق بينه وبين غيره من الكلمات التي هي من أصل عربي . فاللفظ الجديد أصبح عربيا بالاستعمال وعند نزول القرآن كانت الكلمة شائعة شيوع الكلمة العربية

واللغة ألفاظ يصطلح على معانيها . بحيث إذا أطلق اللفظ فهم المعنى واللغة التي نتكلمها لا تخرج عن اسم وفعل وحرف الاسم كلمة والفعل كلمة والحرف كلمة . . والكلمة لها معنى في ذاتها ولكن هل هذا المعنى مستقل في الفهم أو غير مستقل . . إذا قلت محمد مثلا فهمت الشخص الذي سمي بهذا الاسم فصار له معنى مستقل . . وإذا قلت كتب فهمت أنه قد جمع الحروف لتقرأ على هيئة كتابة . . ولكن إذا قلت ماذا وهي حرف فليس هناك معنى مستقل . . وإذا قلت « في » دلت على الظرفية ولكنها لم تدلنا على معنى مستقل بل لابد أن تقول الماء في الكوب أو فلان على الفرس غير المستقل في الفهم نسميه حرفا لايظهر معناه إلا بضم شيء له والفعل يحتاج إلى زمن ، ولكن الاسم لايحتاج الى زمن .

إذن الاسم هو مادل على معنى مستقل بالفهم وليس الزمن جزءا منه والفعل مادل على فعل مستقل بالفهم والزمن جزء منه . والحرف دل على معنى غير مستقل . . ما هي علامة الفعل هي أنك تستطيع أن تسند اليه تاء الفاعل . أي تقول كتبت والفاعل هو المتكلم . ولكن الاسم لا يضاف اليه تاء الفاعل فلا تقول محمدت . إذا رأيت شيئا يدل على الفعل أي يحتاج الى زمن . ولكنه لا يقبل تاء الفاعل فإنه يكون اسم على فعل .

آمين من هذا النوع ليست فعلا فهي اسم مدلوله مدلول الفعل . معناه استجب فأنت حين تسمع كلمة « آه » إنها اسم لفعل بمعنى أتوجع . . وساعة

تقول «أف» اسم فعل بمعنى أتضجر .. وامين اسم فعل بمعنى استجب .. ولكنك تقولها مرة وأنت القارىء ، وتقولها مرة وأنت السامع . فساعة تقرأ الفاتحة تقول آمين .. أي أنا دعوت يارب فاستجب دعائي .. لأنك لشدة تعلقك بما دعوت من الهداية فانك لاتكتفي بقول اهدنا ولكن تطلب من الله الاستجابة . واذ كنت تصلي في جماعة فأنت تسمع الامام وهو يقرأ الفاتحة .. ثم تقول آمين.لأن المأموم أحد الداعيين الذى دعا هو الامام ، وعندما قلت آمين فأنت شريك في الدعاء .. ولذلك فعندما دعا موسى عليه السلام أن يطمس الله على اموال قوم فرعون ويهلكهم قال الله لموسى :

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة يونس)

أى أن الخطاب من الله سبحانه وتعالى موجهٌ الى موسى وهارون . ولكن موسى عليه السلام هو الذى دعا .. وهارون أمن على دعوة موسى فأصبح مشاركا في الدعاء .




سورة البقرة

نأتي بعد فاتحة الكتاب إلى سورة البقرة .. وهي التي تلي الفاتحة في ترتيب المصحف الشريف .. وإذا نظرنا إلى اسم السورة وجدنا أنه لابد أن يثير انتباهنا .. لأن القرآن الكريم نزل في بيئة عربية . ولم تكن البقرة وقت نزول القرآن الكريم حيوانا معروفا أو من الانعام التي يعرفها العرب في ذلك الوقت .

نقول إن اسم السورة قد أخذ من قضية أساسية في الدين وهي الإيمان بالبعث .. والإيمان بالبعث هو أساس الدين .. فمن لا يؤمن بالآخرة والبعث والحساب يفعل ما يشاء في الدنيا دون أي وازع . لأنه مادام ليس هناك بعث تصبح الدنيا غاية .. ويصبح الدين بلا مفهوم . لأن أساس العبادة هو أن الحياة الحقيقية في الآخرة .. وأن الدنيا هي دار إختبار ودار أغيار .. أما الآخرة فهي دار نعيم مقيم . ففي الدنيا إما أن تفارق النعمة وإما تفارقك .. تفارقها بالموت .. أو تفارقك بأن تزول عنك . أما الحياة التي لا تفارقك فيها النعمة ولا تفارقها فهي الآخرة .. لذلك فإن كل عمل المؤمن في الدنيا مقصود به الجزاء في الآخرة .

ومنهج الله في الأرض يقودك الى الجنة إن طبقته . والى النار والعياذ بالله إن خالفته .. اذن فقضية الايمان كلها مبنية على الايمان بالبعث . وسورة البقرة فيها تجربة حدثت مع بني اسرائيل .. ورأوا البعث وهم مازالوا في الدنيا ، حين بعث الله سبحانه وتعالى قتيلا لينطق باسم قاتله .. ثم مات بعد ذلك .

والقصة أن رجلا من بني اسرائيل .. كان ثريا يملك المال الكثير ولم يكن له ولد يرثه . فتآمر عليه ابن أخيه فقتله ليلا ثم أخذ الجثة وألقاها في مكان قريب من إحدى القرى المجاورة ليتهم أهل هذه القرية بقتله .. وصحا أهل القرية ليجدوا جثة القتيل على باب قريتهم . واتهموا فيه وقالوا لم نقتله . وقال أقرب القتيل بل أنتم الذين قتلتموه . واحتدم الخلاف وذهبوا الى موسى عليه السلام . وقالوا ان الخلاف قد احتدم .. فاسأل لنا ربك أن يكشف لنا عن القاتل . وجاءت القصة

في سورة البقرة في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ
بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٦٧) قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا
بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ (٦٩)
قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠)
قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ
جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ
مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ﴾ (سورة البقرة)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أمر بني اسرائيل أن يذبحوا البقرة ، ولو أنهم ذبحوا أية بقرة وأخذوا بعضا منها ليضربوا به القتيل لعادت الحياة إليه ونطق باسم قاتله . ولكنهم بدلا من أن يستقبلوا أوامر الله سبحانه وتعالى بالتنفيذ .. استقبلوها أولا بعدم التصديق .. و «قالوا أتتخذنا هزوا» وظلوا يشددون على أنفسهم بطلب أوصاف البقرة حتى جاء الإيضاح من الحق تبارك وتعالى بعمر البقرة ولونها وكل ما يخصها .

وكان لهذا حكمة عند الله سبحانه وتعالى لخدمة قضية إيمانية أخرى .. وقد كان هناك رجل صالح من بني اسرائيل .. يتحرى الدقة في كسبه ولا يرضى إلا بالحلال وكان رجلا يبتغي وجه الله في كل ما يفعل . وعندما حضرته الوفاة كانت ثروته هي بقرة صغيرة وكان ابنه طفلا واحتار الرجل من يوصي على هذه البقرة التي هي كل ثروته التي تركها لابنه وزوجته .. واتجه إلى الله سبحانه وتعالى وقال اللهم إني استودعتك هذه البقرة فاحفظها لابني حتى يكبر . لأنه لم يجد أمينا على

ابنه إلا يد الله سبحانه وتعالى . ثم قال لزوجته إنى لم أجد يدا آمن من يد ربى استودعه البقرة الصغيرة .. وسألته زوجته أين البقرة ؟ قال أطلقتها فى المراعى .. ثم أسلم الروح ..

وكبر الابن فحكت له أمه ما حدث . فقال الابن وأين اجد البقرة لأستردها ؟ قالت الأم لقد استودع ابوك البقرة عند خالق الكون . فقل انى أتوكل على الله وابحث عنها . فقال الابن اللهم رب ابراهيم ويعقوب رد على ما استودعك أبى . ثم انطلق الى الحقل فوجد البقرة .. وكانت هذه هى البقرة التى ذكرت أوصافها لبنى اسرائيل . فذهبوا ليشتروها فقال الابن لن أبيعها إلا بملء جلدها ذهبا فدفعوه له

وهكذا نجد أن صلاح الأب يجعل الله حفيظا على اولاده يرعاهم وييسر لهم أمورهم . وقد أوضح الله تعالى هذه الحقيقة فى سورة الكهف .. عندما جاء العبد الصالح وبنى الجدار ليحفظ كنز يتيمين كان أبوهما صالحا .. واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

(سورة الكهف)

وهكذا كانت الحكمة الإلهية أن الرجل الصالح الذى استودع كل ما كان يملك عند الله .. بارك الله له فيه ووجد ابنه عندما يبلغ سن الشباب ثروة كبيرة .

وعندما ذبحوا البقرة . ضربوا ببعضها القتيل كما أمرهم الله سبحانه وتعالى فإذا به يبعث وينطق اسم قاتله ثم يموت مرة اخرى .. وهكذا سميت السورة باسم سورة البقرة إثباتا لقضية اساسية فى الدين وهى قضية الايمان بالبعث .

وأما بداية القرآن بسورة مدنية بدلا من سورة مكية .. فنقول إنه يجب أن نفهم أولا ما هو مكى وما هو مدنى . فمكة والمدينة مكانان مقدسان .. الأول شهد بداية

النبوة وبداية نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم .. والثاني كان مهجر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فعندما نقول مكي ومدني في القرآن الكريم ، لابد أن نلاحظ عدة أشياء أولا الحدث الذى نزلت من أجله الآية . وثانيا مكان الحدث وثالثا الزمان الذى نزلت فيه ، فكل فعل له زمن يقع فيه ومكان يحدث فيه . وفاعل ومن يقع عليه الفعل .. وسبب للحدوث وقدرة على الفعل .

وبالنسبة لنزول القرآن الكريم . الفاعل هو الله سبحانه وتعالى .. والذي نزل عليه القرآن هو رسول الله صلى الله عليه وسلم والمكان هو إما مكة وإما المدينة .. فنزول القرآن الكريم له زمان ومكان وسبب نزول ، والقرآن هو هداية البشر الى منهج الله . والله سبحانه وتعالى وضع في القرآن الكريم دستورا سماويا لكل رسالات الله للبشر .. فبنزول القرآن الكريم اكتملت الرسالات السماوية . وجاء الدين الخاتم الذى يظل دستورا للدنيا حتى يوم القيامة فجاء القرآن الكريم بقصة خلق السموات والأرض وقصة خلق الانسان وجاء بقصص الرسل والأنبياء الذين سبقوا نزول القرآن الكريم وصحح مازيف منها وعدّل ما حُرف منها لتأتي صادقة بما أبلغ به الرسل عن الله . ويأتي ناسخة لكل ما عبثت به أيدى البشر في الرسالات السابقة على نزول القرآن .. ويأتي مصحّحة لكل كلام بشريّ أضيف الى منهج الله ونسب اليه زورا وبهتانا .. ويأتي بما كتمه أهل الديانات القديمة وأحبار اليهود ورهبان النصارى عن الناس ..

إنه يفضح كل تحريف أو كتم أو اخفاء أو تزييف أو اضافة بشرية لدين الله في الرسالات السابقة . ويزيد عليه من منهج الله ليصبح القرآن الكريم المنهج الكامل المتكامل لعبادة الله في الأرض ويتضمن منهج السماء منذ عهد آدم الى قيام الساعة .

ولقد اختلف العلماء حول بعض الآيات وهل هي مكية أو مدنية

فالذين اتخذوا بعنصر الزمان مقياسا قالوا إن كل سورة من القرآن الكريم نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة تعتبر مدنية .. حتى ولو نزلت في مكة . والذين اتخذوا مقياس المكان قالوا ان كل سورة نزلت في مكة فهي مكية ، وكل سورة نزلت في المدينة فهي مدنية ، وذلك بصرف النظر عن انها نزلت قبل الهجرة أو بعدها .. ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت عليه سور في مكة بعد الهجرة .

ونحن نقول إنه لاخلاف بين علماء المسلمين كما حاول البعض أن يصوره . بل ان كل فريق أخذ الموضوع من زاوية معينة .. بعضهم نظر الى زاوية المكان ، وبعضهم نظر الى زاوية الزمان . ولم يختلف العلماء فى سور القرآن الكريم ذاته أو آياته .

عندما ننظر الى سورة البقرة نجد أنها من أوائل السور التى نزلت بالمدينة .. ففيها الطابع المدنى والطابع المكى .. الطابع المكى فى سور القرآن الكريم هو التركيز على العقيدة .. ذلك أن الآيات والسور المكية نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يواجه الوثنيين عبدة الأصنام ، والكفار الذين لا يؤمنون بدين رجعاً من أهل الكتاب الذين ضعفت صلتهم بالسماء لأنهم نسوا ما قاله رسلهم فحرفوه .. وكان لابد للقرآن أن يواجه هؤلاء جميعا ويبين لهم أنهم على باطل وأنهم يعبدون آلهة لاتنفع ولاتضر .. بل آلهة مصنوعة من أدنى أجناس الأرض وهى الحجارة .. بينما الله سبحانه وتعالى ميز الانسان وجعله خليفة فى هذا الكون .

وكان لابد للقرآن ان يخبرهم أن هناك بعثا بعد الموت .. وأن هناك جنة وناراً وان الحياة الحقيقية ليست الدنيا ولكنها الآخرة .. وكان لابد أن يحذرهم من عذاب الله . ومن يوم سيلقونه فيه ولايستطيع أحد منهم هربا من ذلك اليوم العظيم .. وكان لابد أن يلفتهم الى آيات الله فى الكون الدالة على أنه الموجد والخالق .. وأن يواجه ما يأتى به أحبار اليهود من أسئلة ظاهرها الاستفهام ، وحقيقتها محاولة الطعن فى الاسلام .

وكانوا يظنون أنه ربما يأتى محمد عليه الصلاة والسلام بشيء من عنده فيخطيء .. فجاء القرآن ليساوى بين البشرية كلها .. فلا فضل لغنى لماله ولاقلة لفقير فى الأجر .. بل الناس امام الله سواسية كأسنان المشط .

كان هذا هو اساس الدعوة فى مكة .. ايمان بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وتثبيت للمؤمنين فى الفترة التى كانوا فيها قلة وكانوا فيها ضعفاء وكانوا أذلة

وتثبيت الايمان كان يقتضى تذكيرهم دائما بأن الله معهم .. وان ماتوا شهداء دخلوا الجنة بلا حساب وان ماتوا على دين الاسلام دخلوا الجنة ومن يبقى منهم على كفره عُذب فى النار . وأن كل مشقة فى سبيل الله لها أجر فى الآخرة حتى يتحملوا المشقة والإيذاء وهم صابرون .

وإذا انتقلنا بعد ذلك الى مجتمع المدينة .. فهناك صورة أخرى ووجه فيه الاسلام بالكفار وعبدة الاوثان ومزورى التوراه من اليهود وعدو جديد هم المنافقون .. ولقد كانت هناك عداوة جاهلة فى مكة ، أما فى المدينة فقد ووجه الاسلام بعداوة عاقلة .. وهم المنافقون فلم يكن هناك نفاق فى مكة ، فالضعيف والمضطهد لا ينافق .. فعندا الذى كان يدعى فى مكة أنه مؤمن وهو كافر . ليكون عرضة للعذاب والإيذاء والاضطهاد . ولكن فى المدينة عندما قوى الاسلام وكانت له دولة ظهر فى المجتمع النفاق واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) ﴾

(سورة التوبة)

وهكذا واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة عداوة من نوع جديد ليخوض صراعا مع المنافقين واليهود .. وبجانب التوحيد والرد على المنافقين واليهود كان هناك المجتمع الاسلامى . وكانت هناك مهمة تربية هذا المجتمع لكى ينهض بالدعوة ، وكانت هناك دولة وكانت هناك غزوات ، وكان هناك أحكام بافعل ولاتفعل .

كل هذا لم يكن موجودا فى مكة . فقد اقتضى نزول القرآن الكريم فى مكة أن تكون آياته فى معظمها عن العقيدة وعن الجنة والنار ، وعن الأجر الذى ينتظر المؤمنين فى الآخرة ، وعن العذاب الذى ينتظر الكفار .

وكانت الآيات فى المدينة عن الأحكام والمجتمع الاسلامى والمعاملات وكيفية اتقاء المنافقين . وان كانت الآيات فى المدينة لم تهمل العقيدة بل أكدتها وعندما جاء جبريل عليه السلام ليرتب المصحف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الترتيب الذى نعرفه الآن .. كان الاسلام قد انتشر واعتنقه كثيرون . لذلك كانت المهمة الأولى أن يعرف هؤلاء المسلمون أحكام دينهم . وما يجب أن يفعلوه وألا يفعلوه .

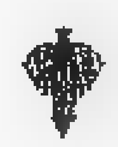
يريد الله سبحانه وتعالى أن يعلم المسلمين الذين آمنوا بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . يريد أن يعلمهم أحكام دينهم . فالعقيدة موجودة وبقى أن نعمل ونطبق المنهج فى إفعل ولا تفعل

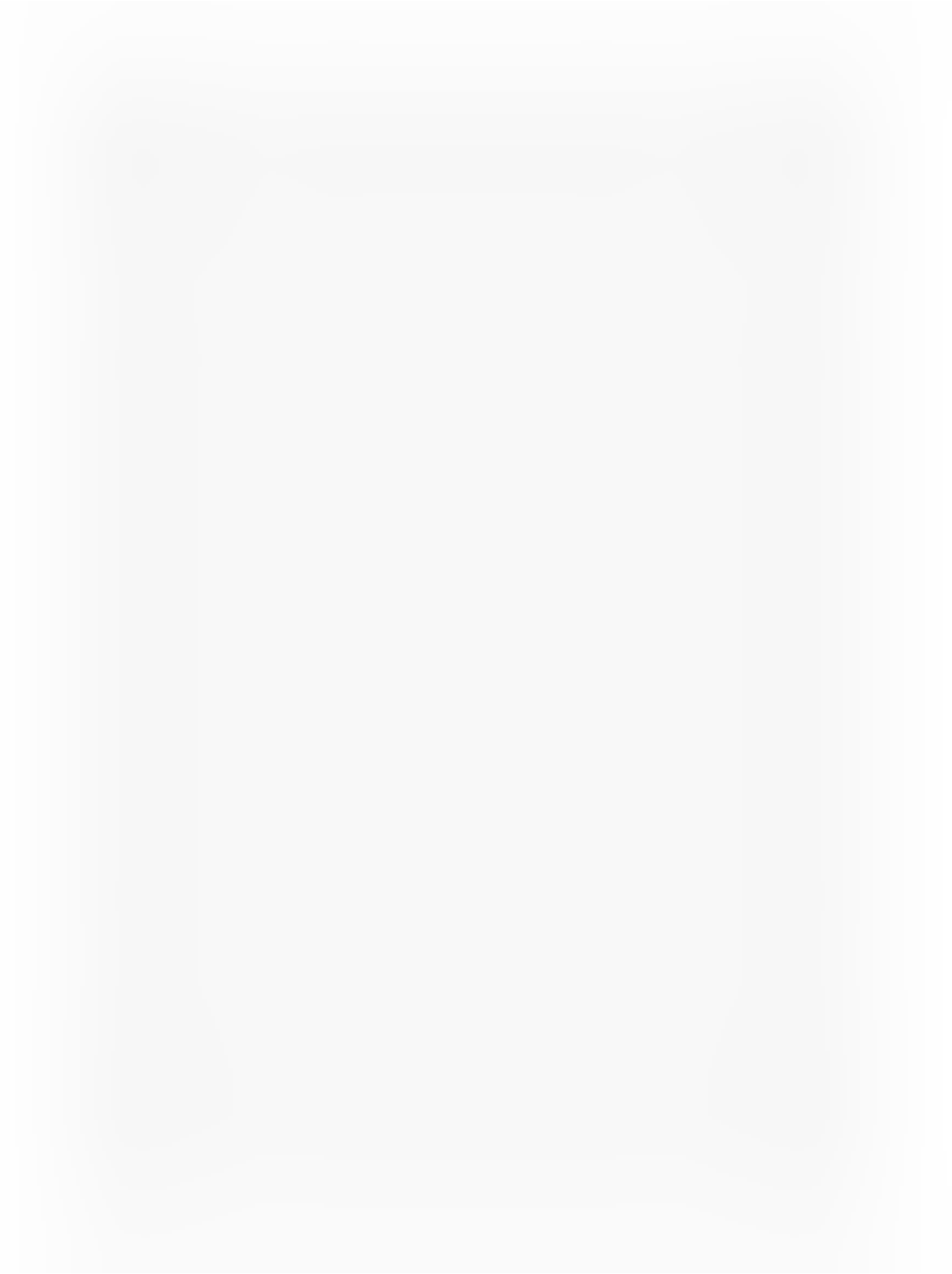
ولقد جاءت سورة البقرة متضمنة التعريف بقوة الاسلام .. وبحكمة القرآن وبعلم الله سبحانه وتعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم ، واشتملت على قصة خلق الانسان الأول آدم عليه السلام . وقصة ابراهيم فى بحثه عن الايمان وقصة بناء الكعبة الشريفة .. وركزت على اليهود باعتبارهم أشد الناس عداوة للاسلام .. واقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

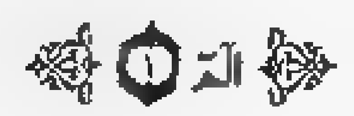
﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة المائدة)

جاءت سورة البقرة ببعض التكاليف الايمانية .. فتحدثت عن الصوم والحج والخمر والربا وأكل اموال الناس والزواج والطلاق والرضاع . كما حددت صور التعامل بالمال فى المجتمع الاسلامى .. وما كان الاسلام ليتعرض لهذه الأحكام فى مكة .. لأنه لم يكن هناك المجتمع الاسلامى الذى يتطلبها .







بدأت سورة البقرة بقوله تعالى . «ألم» .. وهذه الحروف حروف مقطعة .. ومعنى مقطعة أن كل حرف ينطق بمفرده . لأن الحروف لها أسماء ولها مسميات .. فالناس حين يتكلمون ينطقون بمسمى الحرف وليس باسمه . فعندما تقول كتب تنطق بمسميات الحروف فاذا أردت أن تنطق بأسمائها . تقول كاف وتاء وباء . ولايمكن أن ينطق بأسماء الحروف إلا من تعلم ودرس ، أم ذلك الذى لم يتعلم فقد ينطق بمسميات الحروف ولكنه لاينطق بأسمائها ، ولعل هذه أول ما يلفتنا . فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولذلك لم يكن يعرف شيئا عن أسماء الحروف . فاذ جاء ونطق بأسماء الحروف يكون هذا إعجازا من الله سبحانه وتعالى .. بأن هذا القرآن موحى به الى محمد صلى الله عليه وسلم .. ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم درس وتعلم لكان شيئا عاديا أن ينطق بأسماء الحروف . ولكن تعالَ الى أى أمى لم يتعلم .. انه يستطيع أن ينطق بمسميات الحروف .. يقول الكتاب وكوب وغير ذلك .. فاذا طلبت منه أن ينطق بأسماء الحروف فانه لايستطيع أن يقول لك . ان كلمة كتاب مكونة من الكاف والتاء والألف والباء .. وتكون هذه الحروف دالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البلاغ عن ربه . وأن هذا القرآن موحى به من الله سبحانه وتعالى .

ونجد فى فواتح السور التى تبدأ بأسماء الحروف . تنطق الحروف بأسمائها ونجد الكلمة نفسها فى آية أخرى تنطق بمسمياتها .فألم فى أول سورة البقرة نطقتها بأسماء الحروف الف لام ميم . بينما تنطقها بمسميات الحروف فى شرح السورة فى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① ﴾

(سورة الشرح)

وفى سورة الفيل فى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ ﴾

(سورة الفيل)

ما الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ينطق «ألم» فى سورة البقرة بأسماء الحروف .. وينطقها فى سورتى الشرح والفيل بمسميات الحروف . لابد ان رسول الله عليه الصلاة والسلام سمعها من الله كي نقلها جبريل عليه السلام اليه هكذا . اذن فالقرآن أصله السماع لا يجوز أن تقرأه إلا بعد أن تسمعه لتعرف أن هذه تقرأ ألف لام ميم والثانية تقرأ ألم .. مع أن الكتابة واحدة فى الاثنين .. ولذلك لابد أن تستمع الى فقيه يقرأ القرآن قبل أن تتلوه . والذى يتعب الناس أنهم لم يجلسوا الى فقيه ولا استمعوا الى قارىء .. ثم بعد ذلك يريدون أن يقرأوا القرآن كأى كتاب . نقول لا .. القرآن له تميز خاص .. انه ليس كأى كتاب تقرؤه .. لانه مرة يأتى باسم الحرف ومرة يأتى بمسميات الحرف . وأنت لايمكن ان تعرف هذ إلا إذا استمعت لقارىء يقرأ القرآن

والقرآن مبنى على الوصل دائما وليس على الوقف ، فاذا قرأت فى آخر سورة يونس مثلا : «وهو خير الحاكمين» لانجد النون عليها سكون بل نجد عليها فتحة ، موصولة بقول الله سبحانه وتعالى بسم الله الرحمن الرحيم ولو كانت غير موصولة لوجدت عليها سكون

اذن فكل آيات القرآن الكريم مبنية على الوصل . ما عدا فواتح السور المكونة من حروف فهى مبنية على الوقف .. فلا تقرأ فى أول سورة البقرة . «ألم» والميم عليها ضمة بل تقرأ الفا عليها سكون ولاما عليها سكون وميما عليها سكون . اذن كل حرف منفرد بوقف . مع أن الوقف لايوجد فى ختام السور ولا فى القرآن الكريم كله .

وهناك سور فى القرآن الكريم بدأت بحرف واحد مثل قوله تعالى

﴿ صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ ۝ ﴾

(سورة ص)

﴿ نٓ ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ ﴾

(سورة القلم)

ونلاحظ أن الحرف ليس آية مستقلة . بينما «ألم» فى سورة البقرة آية مستقلة . و : «حم» . و : «حمعسق» آية مستقلة مع أنها كلها حروف مقطعة . وهناك سور تبدأ بآية من خمسة حروف مثل «كهيعص» فى سورة مريم . وهناك سور تبدأ بأربعة حروف . مثل «المص» فى سورة «الأعراف» . وهناك سور تبدأ بأربعة حروف وهى ليست آية مستقلة مثل «المر» فى سورة «الرعد» متصلة بما بعدها .. بينما نجد سورة تبدأ بحرفين هما آية مستقلة مثل «يس» فى سورة يس «حم» فى سورة غافر وفصلت .. و : «طس» فى سورة النمل وكلها ليست موصولة بالآية التى بعدها .. وهذا يدلنا على أن الحروف فى فواتح السور لا تسير على قاعدة محددة .

«الم» مكونة من ثلاثة حروف نجدها فى ست سور مستقلة .. فهى آية فى البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم والسجدة ولقمان . و«الر» ثلاثة حروف ولكنها ليست آية مستقلة . بل جزء من الآية فى أربع سور هى : يونس ويوسف وهود وابراهيم .. و : «المص» من أربعة حروف وهى آية مستقلة فى سورة «الأعراف» و«المر» أربعة حروف ، ولكنها ليست آية مستقلة فى سورة الرعد إذن فالمسألة ليست قانونا يعمم ، ولكنها خصوصية فى كل حرف من الحروف

وإذا سألت ما هو معنى هذه الحروف ؟ .. نقول أن السؤال فى أصله خطأ .. لأن الحرف لا يسأل عن معناه فى اللغة إلا إن كان حرف معنى .. والحروف نوعان : حرف مبنى وحرف معنى . حرف المبنى لا معنى له إلا للدلالة عن الصوت فقط .. أما حروف المعانى فهى مثل فى . ومن .. وعلى . (فى) تدل على الظرفية .. و(مِنْ) تدل على الابتداء و(إلى) تدل على الانتهاء .. و(على) تدل على الاستعلاء . هذه كلها حروف معنى

وإذا كانت الحروف فى أوائل السور فى القرآن الكريم قد خرجت عن قاعدة الوصل لأنها مبنية على السكون لابد أن يكون لذلك حكمة .. أولا لنعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة

بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ولكن ألفٌ حرفٌ ولامٌ حرف وميمٌ حرف»[1]

ولذلك ذكرت في القرآن كحروف استقلالية لنعرف ونحن نتعبد تلاوة القرآن الكريم أننا نأخذ حسنة على كل حرف . فإذا قرأنا بسم الله الرحمن الرحيم . يكون لنا بالباء حسنة وبالسين حسنة وبالميم حسنة فيكون لنا ثلاث حسنات بكلمة واحدة من القرآن الكريم . والحسنة بعشر أمثالها . وحينما نقرأ «الم» ونحن لا نفهم معناها نعرف أن ثواب القرآن على كل حرف نقرؤه سواء فهمناه أم لم نفهمه . . وقد يضع الله سبحانه وتعالى من أسراره في هذه الحروف التي لانفهمها ثوابا وأجرا لانعرفه

ويريدنا بقراءتها أن نحصل على هذا الأجر . .

والقرآن الكريم ليس اعجازا في البلاغة فقط . ولكنه يحوي اعجازا في كل ما يمكن للعقل البشرى أن يحوم حوله . فكل مفكر متدبر في كلام الله يجد اعجازا في القرآن الكريم . فالذي درس البلاغة رأى الاعجاز البلاغي ، والذي تعلم الطب وجد إعجازا طبيا في القرآن الكريم . وعالم النباتات رأى اعجازا في آيات القرآن الكريم ، وكذلك عالم الفلك

وإذا أراد انسان منا أن يعرف معنى هذه الحروف فلا نأخذها على قدر بشريتنا . . ولكن نأخذها على قدر مراد الله فيها . وقدراتنا تتفاوت وأفهامنا قاصرة فكل منا يملك مفتاحاً من مفاتيح الفهم كل على قدر علمه . . هذا مفتاح بسيط يفتح مرة واحدة وآخر يدور مرتين . وآخر يدور ثلاث مرات وهكذا . ولكن من عنده العلم يملك كل المفاتيح ، أو يملك المفتاح الذى يفتح كل الأبواب . .

ونحن لايصح أن نجهد أذهاننا لفهم هذه الحروف فحياة البشر تقتضي ما في بعض الأحيان أن نضع كلمات لا معنى لها بالنسبة لغيرنا . وإن كانت تمثل أشياء ضرورية بالنسبة لنا . تماما ككلمة السر التي تستخدمها الجيوش لا معنى لها إذا سمعتها . ولكن بالنسبة لمن وضعها يكون ثمنها الحياة أو الموت فخذ كلمات الله التي تفهمها بمعانيها . . وخذ الحروف التي لاتفهمها بمرادات الله فيها فالله سبحانه وتعالى شاء أن يبقى معناها في الغيب عنده .

---

(١) رواه الترمذى في أبواب فضائل القرآن

والقرآن الكريم لا يؤخذ على نسق واحد حتى ننتبه ونحن نتلوه أو نكتبه . لذلك نجد مثلا بسم الله الرحمن الرحيم مكتوبة بدون ألف بين الباء والسين . ومرة نجدها مكتوبة بالألف في قوله تعالى .

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾

(سورة العلق)

وكلمة تبارك مرة تكتب بالألف ومرة بغير الألف . . ولو أن المسألة رتابة في كتابة القرآن لجاءت كلها على نظام واحد ولكنها جاءت بهذه الطريقة لتكون كتابة القرآن معجزة وألفاظه معجزة .

ونحن نقول للذين يتساءلون عن الحكمة في بداية بعض السور بحروف . . نقول إن لذلك حكمة عند الله فهمناها أو لم نفهمها . . والقرآن نزل على أمة عربية فيها المؤمن والكافر . . ومع ذلك لم نسمع أحداً يطعن في الأحرف التي بدأت بها السور . وهذا دليل على أنهم فهموها بملكاتهم العربية . ولو أنهم لم يفهموها لطعنوا فيها .

وأنا انصح من يقرأ القرآن الكريم للتعبد . . ألا يشغل نفسه بالتفكير في المعنى . أما الذي يقرأ القرآن ليستنبط منه فليقف عند اللفظ والمعنى . . فإذا قرأت القرآن لتتعبد فاقرأه بسر الله فيه . ولو جلست تبحث عن المعنى . تكون قد حددت معنى القرآن الكريم بمعلوماتك أنت . وتكون قد أخذت المعنى ناقصا نقص فكر البشر . . ولكن اقرأ القرآن بسر الله فيه .

إننا لو بحثنا معنى كل لفظ في القرآن الكريم فقد أخرجنا الأمي وكل من لم يدرس اللغة العربية دراسة متعمقة من قراءة القرآن . ولكنك تجد أميا لم يقرأ كلمة واحدة ومع ذلك يحفظ القرآن كله . فإذا قلت كيف ؟ نقول لك بسر الله فيه .

والكلام وسيلة الفهم وتفهم بين المتكلم والسامع . المتكلم هو الذي يبدء البداية ، والسامع يفاجأ بالكلام لأنه لا يعلم مقدما ماذا سيقول المتكلم . وقد يكون ذهن السامع مشغولا بشيء آخر . فلا يستوعب أول الكلمات . ولذلك قد تنبهه بحروف أو بأصوات لا مهمة لها إلا التنبيه للكلام الذي سيأتي بعدها .

وإذا كنا لانفهم هذه الحروف . فوسائل الفهم والاعجاز فى القرآن الكريم لاتنتهى ، لأن القرآن كلام الله والكلام صفة من صفات المتكلم . ولذلك لايستطيع فهم بشرى أن يصل الى منتهى معانى القرآن الكريم ، إنما يقترب منها لأن كلام الله صفة من صفاته . وصفة فيها كمال بلا نهاية .

فإذا قلت إنك قد عرفت كل معنى لقرآن الكريم . فإنك تكون قد حددت معنى كلام الله بعلمك . ولذلك جاءت هذه الحروف إعجازا لك حتى تعرف إنك لاتستطيع أن تحدد معانى القرآن بعلمك . .

ان عدم فهم الانسان لاشياء لايمنع انتفاعه بها فالريفى مثلا ينتفع بالكهرباء والتليفزيون وما يذاع بالقمر الصناعى وهو لايعرف عن أى منها شيئا فلماذا لايكون الله تبارك وتعالى قد أعطانا هذه الحروف نأخذ فائدتها ونستفيد من اسرارها ويتنزل الله بها علينا بما أودع فيها من فضل سواء أفهم العبد المؤمن معنى هذه الحروف أو لم يفهمها

وعطاء الله سبحانه وتعالى وحكمته فوق قدرة فهم البشر . . ولو أراد الانسان أن يجوم بفكره وخواطره حول معانى هذه الحروف لوجد فيها كل يوم شيئا جديدا.لقد خاض العلماء فى البحث كثيرا . . وكل عالم أخذ منها على قدر صفائه ، ولايدعى أحد العلماء أن ذلك هو الحق المراد من هذه الحروف بل كل منهم يقول والله أعلم بمراده . ولذلك نجد هنا يقول (ألر) و(حم) و(ن) وهى حروف من فواتح السور تكون اسم الرحمن . . نقول إن هذا لايمكن ن يمثل فهما عاما لحروف بداية بعض سور القرآن . ولكن ما الذى يتعبكم أو يرهقكم فى محاولة ايجاد معانى هذه الحروف ؟! . .

لو أن الله سبحانه وتعالى الذى أنزل القرآن يريد أن يفهمنا معانيها . لأوردها بمعنى مباشر أو أوضح لنا المعنى فمثلا أحد العلماء يقول إن معنى (ألم) هو أنا الله اسمع وأرى . . نقول هذا العالم لو أن الله أراد ذلك فما المانع من أن يورده بشكل مباشر لنفهمه جميعا . . لابد أن يكون هناك سر فى هذه الحروف وهذا السر هو من أسرار الله التى يريدنا ان ننتفع بقراءتها دون أن نفهمها .

ولابد أن نعرف أنه كما أن للبصر حدوداً وللأذن حدوداً وللمس والشم والتذوق حدودا ، فكذلك عقل الانسان له حدود يتسع لها فى المعرفة . وحدود فوق قدرات

العقل لايصل اليها .

والانسان حينما يقرأ القرآن والحروف الموجودة فى أوائل بعض السور يقول إن هذا امر خارج عن قدرة عقل . . وليس ذلك حجراً أو منعاً لباب اجتهاد . . لأننا إن لم ندرك فإن علينا أن نعترف بحدود قدراتنا أمام قدرات خالقنا سبحانه وتعالى التى هى بلا حدود .

وفى الايمان هناك ما يمكن فهمه وما لايمكن فهمه . فتحريم أكل لحم الخنزير أو شرب الخمر لاننتظر حتى نعرف حكمته لنمتنع عنه . ولكننا نمتنع عنه بإيمان أنه مادام الله قد حرمه فقد أصبح حراما .

ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما عرفتم من محكمه فاعملوا به ، وما لم تدركوا فآمنوا به»[1] .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ ﴾

(سورة آل عمران)

اذن فعدم فهمنا للمتشابه لايمنع أن نستفيد من سر وضعه الله فى كتابه . . ونحن نستفيد من أسرار الله فى كتابه فهمناها أم لم نفهمها .

---

(١) «الطبقات الكبرى لابن سعد» .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾

فى الآية الثانية من سورة البقرة وصف الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بأنه الكتاب وكلمة (قرآن) معناها أنه يُقرأ ، وكلمة (كتاب) معناها أنه لايحفظ فقط فى الصدور ، ولكن يُدوّن فى السطور ، ويبقى محفوظاً الى يوم القيامة ، والقول بأنه الكتاب ، تمييز له عن كل كتب الدنيا ، وتمييز له عن كل الكتب السماوية التى نزلت قبل ذلك ، فالقرآن هو الكتاب الجامع لكل احكام السماء ، منذ بداية الرسالات حتى يوم القيامة ، وهذا تأكيد لارتفاع شأن القرآن وتفرده وسماويته ودليل على وحدانية الخالق ، فمند فجر التاريخ ، نزلت على الأمم السابقة كتب تحمل منهج السماء ، ولكن كل كتاب وكل رسالة نزلت موقوتة ، فى زمانها ومكانها ، تؤدى مهمتها لفترة محددة وتجاه قوم محدّدين .

فرسالة نوح عليه السلام كانت لقومه ، وكذلك ابراهيم ولوط وشعيب وصالح عليهم السلام . كل هذه رسالات كان لها وقت محدود ، تمارس مهمتها فى الحياة ، حتى يأتى الكتاب وهو القرآن الكريم الجامع لمنهج الله سبحانه وتعالى . ولذلك بُشر فى الكتب السماوية التى نزلت قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام بأن هناك رسولا سيأتى ، وأنه يحمل الرسالة الخاتمة للعالم ، وعلى كل الذين يصدقون بمنهج السماء أن يتبعوه . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة الاعراف)

والقرآن هو الكتاب ، لأنه لن يصل اليه أى تحريف أو تبديل ، فرسالات السماء السابقة ائتمن الله البشر عليها ، فنسوا بعضها ، ومالم ينسوه حرفوه ، وأضافوا اليه

من كلام البشر ، مانسبوه الى الله سبحانه وتعالى ظلما وبهتانا ، ولكن القرآن الكريم محفوظ من الخالق الاعلى ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ ﴾

(سورة الحجر)

ومعنى ذلك ألا يرتاب انسان فى هذا الكتاب ، لأن كل ما فيه من منهج الله محفوظ منذ لحظة نزوله الى قيام الساعة بقدرة الله سبحانه وتعالى .

يقول الحق جل جلاله " ولا ريب فيه هدى للمتقين" .

والإعجاز الموجود فى القرآن الكريم هو فى الأسلوب وفى حقائق القرآن وفى الآيات وفيما رُوِىَ لنا من قصص الأنبياء السابقين ، وفيما صحح من التوراة والانجيل ، وفيما أتى به من علم لم تكن تعلمه البشرية ولازالت حتى الآن لا تعلمه ، كل ذلك يجعل القرآن لاريب فيه ، لأنه لو اجتمعت الإنس والجن ما استطاعوا أن يأتوا بآية واحدة من آيات القرآن ، ولذلك كلما تأملنا فى القرآن وفى أسلوبه ، وجدنا أنه بحق لاريب فيه ، لأنه لا أحد يستطيع أن يأتى بآية ، فما بالك بقرآن .

فهذا الكتاب ارتفع فوق كل الكتب ، وفوق مدارك البشر ، يوضح آيات الكون ، وآيات المنهج ، وله فى كل عصر معجزات . إن كلمة الكتاب التى وصف الله سبحانه وتعالى بها القرآن تمييزا له عن كل الكتب السابقة ، تلفتنا الى معان كثيرة ، تحدد لنا بعض أساسيات المنهج التى جاء هذا الكتاب ليبلغنا بها . وأول هذه الأساسيات ، أن نزول هذا الكتاب ، يستوجب الحمد لله سبحانه وتعالى ونقرأ فى سورة الكهف :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ ﴾

(سورة الكهف)

ويلفت الله سبحانه وتعالى عبادة الى أن إنزاله القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم يستوجب الحمد من البشر جميعا ، لأن فيه منهج السماء ، وفيه الرحمة من الله لعباده ، وفيه البشارة بالجنة والطريق اليها ، وفيه التحذير من النار وما يقود اليها ، وهذا التحذير أو الإنذار هو رحمة من الله تعالى لخلقه . لأنه لو لم يتذرهم لفعلوا ما يستوجب العذاب ، ويجعلهم يخلدون في عذاب اليم ولكن الكتاب الذى جاء ليلفتهم الى ما يغضب الله ، حتى يتجنبوه ، إنما جاء برحمة تستوجب الحمد ، لأنها أوتنا جميعاً ، الطريق الى النجاة من النار ، ولو لم ينزل الله سبحانه وتعالى الكتاب ، ما عرف الناس المنهج الذى يقودهم الى الجنة ، وما استحق احد منهم رضا الله ونعيمه في الآخرة .

وفي سورة الكهف ، تجد تأكيداً آخر . . ان كتاب الله ، وهو القرآن الكريم لن يستطيع بشر أن يبدل منه كلمة واحدة ، واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويبين الله سبحانه وتعالى لنا ان هذا الكتاب ، جاء لنفع الناس ، ولنفع العبد ، وأن الله ليس محتاجاً لخلقه ، فهو قادر على أن يقهر من يشاء على الطاعة ، ولايمكن لخلق من خلق الله أن يخرج في كون الله عن مرادات الله ، واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ويأتي الله سبحانه وتعالى بالقسم الذى يلفتنا الى أن كل كلمة في القرآن هي من

عند الله ، كما ابلغها جبريل عليه السلام لمحمد صلى الله عليه وسلم في قوله سبحانه :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى الى ذلك الكتاب الذى هو منهج للانسان على الأرض ، فبعد أن بين لنا جل جلاله ، بمالايدع مجالا للشك أن الكتاب منزل من عنده ، وأنه يصحح الكتب السابقة كالتوراة ، والانجيل والتى أئتمن الله عليها البشر ، فحرفوها وبدلوها ، وهذا التحريف أبطل مهمة المنهج الإلهى بالنسبة لهذه الكتب ، فجاء الكتاب الذى لم يصل اليه تحريف ولاتبديل ، ليبقى منهجاً لله ، الى ان تقوم الساعة . أول ما جاء به هذا الكتب هو إيمان القمة ، بأنه لا إله إلا الله الواحد الأحد . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف ان الكتاب نزل ليؤكد لنا ، ان الله واحد احد ، لاشريك له ، وأن القرآن يشتمل على كل ما تضمنته الشرائع السماوية من توراة وانجيل ، وغيرها من الكتب .

فالقرآن نزل ليفرق بين الحق الذى جاءت به الكتب السابقة ،وبين الباطل الذى أضافه أولئك الذين ائتمنوا عليها .

ثم يحدد الحق تبارك وتعالى لنا مهمتنا فى أن هذا الكتاب مطلوب أن نبلغه للناس جميعاً ، واقرأ قوله سبحانه :

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾

(سورة الأعراف)

فالخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم ، يتضمن خطابا لأمته جميعاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم كلف بأن يبلغ الكتاب للناس ، ونحن مكلفون بأن نتبع المنهج نفسه ونبلغ ما جاء فى القرآن للناس حتى يكون الحساب عدلا ، وأنهم قد بلغوا منهج الله ، ثم كفروا به أو تركوه ، اذن فإبلاغ الكتاب من المهمات الأساسية التى حددها الله سبحانه وتعالى بالنسبة للقرآن .

والكتاب فيه رد عن حجج الكفار وأباطيلهم. واقرأ قول الله تبارك وتعالى :

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾

(سورة يونس)

وفى هذه الآيات الكريمة . يلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى حقيقتين . الحقيقة الأولى هى أن الكفار يتحدون من شريه الرسول حجه بأن هذا الكتاب ليس من عند الله وكان الرد هو : أن كل الرسل السابقين كانوا بشراً ، فما هو العجب فى أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً بشراً واللفتة الثانية هى ان هذا القرآن مكتوب بالحروف نفسها التى خلقها الله لنا لنكتب بها ، ومع ذلك فإن القرآن الكريم نزل مستخدماً لهذه الحروف التى يعرفها الناس جميعاً ، معجزاً فى ألا يستطيع

الانس والجن ، مجتمعين أن يأتوا بسورة واحدة منه ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى لفتة اخرى الى أن هذا الكتاب محكم الآيات ، ثم بينه الله لعباده ، واقرأ قوله جل جلاله في سورة هود :

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ ﴾

(سورة هود)

هذه هي بعض الآيات في القرآن الكريم ، التي أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا فيها الى معنى الكتاب ، فآياته من عند الله الحكيم الخبير ، وكل آية فيها اعجاز مُتحدَّى به الإنس والجن ، وهذا الكتاب لابد أن يبلغ للناس جميعا ، فالكتاب ينذرهم ألا يعبدوا إلا الله ، ويكون الحساب عدلا في الآخرة ، فمن أنذر وأطاع كان له الجنة ، ومن عصى كانت له النار والعياذ بالله

ثم يلفتنا الله الى ان هذا الكتاب فيه قصص الأنبياء السابقين منذ آدم عليه السلام ، يقول جل جلاله :

﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ ﴾

(سورة يوسف)

وهكذا نجد أن القرآن الكريم ، قد جاء ليقص علينا أحسن القصص بالنسبة للأنبياء السابقين ، والأحداث التي وقعت في الماضي ، ولم يأت القرآن بهذه القصص للتسلية أو للترفيه ، وانما جاء بها للموعظة ولتكون عبرة ايمانية ، ذلك ان القصص القرآن يتكرر في كل زمان ومكان . ففرعون هو كل حاكم طغى في الأرض ، ونصب نفسه إلها ، وقارون هو كل من أنعم الله عليه فنسب النعمة الى نفسه ، وتكبر وعصى

الله ، وقصة يوسف هي قصة كل اخوة حقدوا على أخ لهم ، وتآمروا عليه ، وأهل الكهف هم كل فتية آمنوا بربهم ، فنشر الله لهم من رحمته في الدنيا والآخرة ، ماعدا قصة واحدة هي قصة مريم وعيسى عليهما السلام ، فهي معجزة لن تتكرر ولذلك عرف الله سبحانه وتعالى أبطالها ، فقال عيسى بن مريم وقال مريم ابنة عمران

والكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى فيه لفتة الى آيات الله في كونه واقرأ قوله تعالى :

﴿ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ① ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ② ﴾

(سورة الرعد)

وهكذا بين لنا الله في الكتاب آياته في الكون ولفت اليها ، فالسماء مرفوعة بغير عمد نراها ، والشمس والقمر مسخران لخدمة الانسان ، وهذه كلها آيات لايستطيع أحد من خلق الله أن يدعيها لنفسه أو لغيره ، فلا يوجد حتى يوم القيامة من يستطيع ان يدعي انه رفع السماء بغير عمد ، أو أنه خلق الشمس والقمر وسخرهما لخدمة الانسان . ولو تدبر الناس في آيات الكون لآمنوا ولكنهم في غفلة عن هذه الآيات ثم يحدد الحق سبحانه وتعالى مهمة هذا الكتاب وكيف أنه رحمة للناس جميعاً ، فيقول جل جلاله :

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ① ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ② ﴾

(سورة ابراهيم)

أى أن مهمة هذا الكتاب هى أن يخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والشرك الى نور الايمان ، لأن كل كافر مشرك تحيط به ظلمات ، يرى الآيات فلا يبصرها ، ويعرف أن هناك حساباً وآخرة ولكنه ينكرها ، ولايرى إلا الحياة الدنيا القصيرة غير المأمونة فى كل شىء ، فى العمر والرزق والمتعة ، ولو تطلع الى نور الايمان ، لرأى الآخرة وما فيها من نعيم أبدى ولعمل من أجلها ، ولكن لأنه تحيط به الظلمات لايرى . والطريق لأن يرى هو هذا الكتاب ، القرآن الكريم لأنه يخرج الناس إذا قرأوه من ظلمات الجهل والكفر الى نور الحقيقة واليقين . ويبين الحق سبحانه وتعالى أن الذين يلتفتون الى الدنيا وحدها ، هم كالأنعام التى تأكل وتشرب ، بل ان الانعام افضل منهم ، لأن الانعام تقوم بمهمتها فى الحياة ، بينما هم لايقومون بمهمة العبادة ، فيقول الحق تبارك وتعالى

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۞ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۞ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۞ ﴾

(سورة الحجر)

هكذا يخبرنا الحق أن آيات كتابه الكريم ومنهجه لا تؤخذ بالتمنى ، ولكن لابد أن يعمل بها ، وأن الذين كفروا فى تمتعهم بالحياة الدنيا لايرتفعون فوق مرتبة الأنعام ، وأنهم يتعلقون بأمل كاذب فى أن النعيم فى الدنيا فقط ، ولكن الحقيقة غير ذلك وسوف يعلمون .

وهكذا بعد أن تعرضنا بإيجاز لبعض الآيات التى ورد فيها ذكر الكتاب انه كتاب يبصرنا بقضية القمة فى العقيدة وهى أنه لا إله إلا الله وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله ، وهو بهذا يخرج الناس من الظلمات الى النور .

وأن يلفتهم الى آيات الكون . وأن يعرفوا أن هناك آخرة ونعيماً أبدياً وشقاء أبدياً ، وأن يقيم الدليل والحجة على الكافرين ، وأن قوله تعالى : «ذلك الكتاب» يحمل معنى التفوق الكامل الشامل على كل ما سبقه من كتب . وأنه سيظل كذلك حتى قيام الساعة ولذلك وصفه الحق تبارك وتعالى بأنه «كتاب» ليكون دليلا على الكمال .

ولابد أن نعرف أن ذلك ليست كلمة واحدة . وإنما هي ثلاث كلمات . . «ذا» اسم اشارة . . «واللام» تدل على الابتعاد ورفعة شأن القرآن الكريم ، و«ك» لمخاطبة الناس جميعا بأن القرآن الكريم له عمومية الرسالة الى يوم القيمة .

ونحن عندما نقرأ سورة البقرة نستطيع أن نقرأ آيتها الثانية بطريقتين الطريقة الأولى أن تقول «الم ذلك الكتاب لاريب فيه» ثم نصمت قليلا ونضيف « هدى للمتقين» والطريقة الثانية أن تقول : «الم ذلك الكتاب لاريب» ثم نصمت قليلا ونضيف فيه هدى للمتقين» وكلتا الطريقتين توضح لنا معنى لاريب أى لاشك . أو نفى للشك وجزم مطلق أنه كتاب حكيم منزل من الخالق الأعلى وحتى نفهم المنطلق الذى تأخذ منه قضايا الدين ، والتى سيكون دستورنا فى الحياة ، فلابد ان نعرف ما هو الهدى ومن هم المتقون ؟ الهدى هو الدلالة على طريق يوصلك الى ما تطلبه . فالاشارات التى تدل المسافر على الطريق هى هدى له لانها تبين له الطريق الذى يوصله الى المكان الذى يقصده والهدى يتطلب هاديا ومهديا وغاية تريد أن تحققه فاذا لم يكن هناك غاية أو هدف فلا معنى لوجود الهدى لأنك لاتريد أن تصل الى شيء . . وبالتالى لاتريد من أحد أن يدلك على طريق .

إذن لابد أن توجد الغاية أولا ثم نبحث عمن يوصلنا اليه .

وهنا نتساءل من الذى يحدد الهدف ويحدد لنا الطريق للوصول اليه ؟ اذا اخذنا بواقع حياة الناس فإن الذى يحدد لك الهدف لابد أن تكون واثقا من حكمته . والذى يحدد لك الطريق لابد أن يكون له من العلم مايستطيع به أن يدلك على أقصر الطرق لتصل الى ماتريد .

فاذا نظرنا الى الناس فى الدنيا نجد انهم يحددون مطلوبات حياتهم ويحددون الطريق الذى يحقق هذه المطلوبات فالذى يريد أن يبنى بيتا مثلا يأتى بمهندس يضع له الرسم . ولكن الرسم قد يكون قاصرا على أن يحقق الغاية المطلوبة فيظل يغير ويبدل فيه ثم يأتى مهندس على مستوى أعلى فيضع تصوراً جديداً للمسألة كلها وهكذا يكون الهدف متغيرا وليس ثابتا

وعند التنفيذ قد لاتوجد المواد المطلوبة فتغير وتبدل لنأتى بغيرها ثم فوق ذلك كله قد تأتى قوة أعلى فتوقف التنفيذ أو تمنعه إذن فأهداف الناس متغيرة تحكمها ظروف

حياتهم وقدراتهم، والتحديات التي يطلبونها لا تتحقق لقصور علم البشر وإمكاناته.

إذن فكلنا محتاجون إلى كامل العلم والحكمة ليرسم لنا طرق حياتنا. وأن يكون قادرا على كل شيء، وممسكا لكل شيء، والكون خاضعا لإرادته حتى نعرف يقينا أن ما نريده سيتحقق، وأن الطريق الذي سنسلكه سيوصلنا إلى ما نريده. وينبهنا الله سبحانه وتعالى إلى هذه القضية فيقول:

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة البقرة)

إن الله يريد أن يلفت خلقه إلى أنهم إذا أرادوا أن يصلوا إلى الهدف الثابت الذي لا يتغير فليأخذوه عن الله. وإذا أرادوا أن يتبعوا الطريق الذي لا توجد فيه أي عقبات أو متغيرات.. فليأخذوا طريقهم عن الله تبارك وتعالى. إنك إذا أردت عاليا.. فخذ من العالي، وإذا أردت ثابتا.. فخذ من الثابت. ولذلك كانت قوانين البشر في تحديد أهدافهم في الحياة وطريقة الوصول إليها قاصرة.. عميت عن أشياء وغابت عنها أشياء.. ومن هنا فهي تتغير وتتبدل كل فترة من الزمان

ذلك أن من وضع القوانين من البشر له هدف يريد أن يحققه، ولكن الله جل جلاله لا هوى له.. فإذا أردت أن تحقق سعادة في حياتك، وأن تعيش آمنا مطمئنا.. فخذ الهدف عن الله، وخذ الطريق عن الله.. فإن ذلك يحميك من قلق متغيرات الحياة التي تتغير وتتبدل.. والله قد حدد لخلقه ولكل ما في كونه أقصر طريق لبلوغ الكون سعادته.. والذين لا يأخذون هذا الطريق يتعبون أنفسهم ويتعبون مجتمعهم ولا يحققون شيئا

إذن فالهدف يحققه الله لك، والطريق يبينه الله لك.. وما عليك إلا أن تجعل مراداتك في الحياة خاضعة لما يريده الله

ويقول الله سبحانه وتعالى: «هدى للمتقين».. فمعنى المتقين؟ متقين جمع متق. والاتقاء من الوقاية.. والوقاية هي الاحتراس والبعد عن الشر.. لذلك

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

أي اجعلوا بينكم وبين النار وقاية . احترسوا من أن تقعوا فيها .. ومن عجيب أمر هذه التقوى أنك تجد الحق سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم ـ والقرآن كله كلام الله ـ «إتقوا الله» ويقول: «اتقوا النار» كيف نأخذ سلوكا واحدا تجاه الحق سبحانه وتعالى وتجاه النار التي سيعذب فيها الكافرون ؟!

الله تعالى يقول: «اتقوا النار» أي لاتفعلوا مايغضب الله حتى لا تعذبوا في النار فكأنك قد جعلت بينك وبين النار وقاية بأن تركت المعاصي وفعلت الخير

وقوله تعالى: «اتقوا الله» كيف نتقيه بينما نحن نطلب من الله كل النعم وكل الخير دائما كيف يمكن أن يتم هذا ؟ وكيف نتقي من نحب ؟

نقول ان لله سبحانه وتعالى صفات جلال وصفات جمال .. صفات الجلال تجدها في القهار والجبار والمذل والمنتقم والضار .كل هذا من متعلقات صفات الجلال . بل إن النار من متعلقات صفات الجلال

أما صفات الجمال فهي الغفار والرحيم وكل الصفات التي تتنزل بها رحمات الله وعطاءاته على خلقه . فاذا كنت تقي نفسك من النار ـ وهي من متعلقات صفات الجلال ـ لابد أن تقي نفسك من صفات الجلال كلها لأنه قد يكون من متعلقاتها ما هو أشد عذابا وايلاما من النار .. فكأن الحق سبحانه وتعالى حين يقول «اتقوا النار» و: «اتقوا الله» يعني أن نتقي غضب الله الذي يؤدي بنا الى أن نتقي كل صفات جلاله ونجعل بيننا وبينها وقاية فمن اتقى صفات جلال الله أخذ صفات جماله ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم

(اذا كانت آخر ليلة من رمضان تجلى الجبار بالمغفرة)[1]

وكان المنطق يقتضي أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (تجلى الرحمن بالمغفرة) ولكن مادامت هناك ذنوب ، فالمقام لصفة الجبار الذي يعذب خلقه بذنوبهم . فكأن صفة الغفار تشفع عند صفة الجبار .. وصفة الجبار مقامها للعاصين ، فتأتي صفة الغفار لتشفع عندها ، فيغفر الله للعاصين ذنوبهم ، وجمال المقابلة هنا حينما يتجلى الجبار بجبروته بالمغفرة ساعة تأتي كلمة جبار . يشعر الانسان بالفزع والخوف والرعب . لكن عندما تسمع (تجلى الجبار بالمغفرة) فإن السعادة تدخل الى قلبك . لأنك تعرف أن صاحب العقوبة وهو قادر عليها قد غفر لك . والنار ليست آمرة ولا فاعلة بذاتها ولكنها مأمورة . اذن فاستعد منها بالأمر أو بصفات الجمال في الآمر .

يقول الحق سبحانه وتعالى «هدى للمتقين» ولقد قلنا ان الهدى هدى الله .. لأنه هو الذي حدد الغاية من الخلق ودلنا على الطريق الموصل اليها . فكون الله هو الذي حدد المطلوب ودلنا على الطريق اليه فهذه قمة النعمة . لانه لم يترك لنا أن نحدد غايتنا ولا الطريق اليها . فرحمنا بذلك مما سنتعرض له من شقاء في أن نخطيء ونصيب بسبب علمنا القاصر ، فنشقى وندخل في تجارب ، ونمشي في طرق ثم نكتشف أننا قد ضللنا الطريق فنتجه الى طريق آخر فيكون أضل وأشقى .

وهكذا نتخبط دون أن نصل الى شيء .. وأراد سبحانه أن يجنبنا هذا كله فأنزل القرآن الكريم .. كتاباً فيه هداية للناس وفيه دلالة على أقصر الطرق لكي نتقي عذاب الله وغضبه

والله سبحانه وتعالى قال : «هدى للمتقين» أي أن هذا القرآن هدى للجميع . فالذي يريد أن يتقي عذاب الله وغضبه يجد فيه الطريق الذي يحدد له هذه الغاية .. فالهدى من الحق تبارك وتعالى للناس جميعا . ثم خص من آمن به بهدى آخر ، وهو أن يعينه على الطاعة

---

(1) كنز العمال ، وفي حديث آخر (اذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعا فقال رجل من القوم : أهي ليلة القدر ؟ فقال : لا . ألم تر الى العمال يعملون فاذا فرغوا من أعمالهم وُفّوا أجورهم) رواه البيهقي

اذن فهناك هدى من الله لكل خلقه وهو أن يدلهم سبحانه وتعالى ويبين لهم الطريق المستقيم . هذا هو هدى الدلالة ، وهو أن يدل الله خلقه جميعا على الطريق الى طاعته وجنته . واقرأ قوله تبارك وتعالى

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

اذن الحق سبحانه وتعالى دلهم على طريق الهداية . ولكنهم أحبوا طريق الغواية والمعصية واتبعوه . . هذه هداية الدلالة . . أما هداية المعونة ففي قوله سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَـٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

وهذه هي دلالة المعونة . وهي لا تحق إلا لمن آمن بالله واتبع منهجه وأقبل على هداية الدلالة وعمل بها والله سبحانه وتعالى لايعين من يرفض هداية الدلالة ، بل يتركه يضل ويشقى . ونحن حين نقرأ القرآن الكريم نجد أن الله تبارك وتعالى : يقول لنبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

وهكذا نفى الله سبحانه وتعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون هاديا لمن أحب . ولكن الحق يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

فكيف يأتي هذا الاختلاف مع أن القائل هو الله

نقول : عندما تسمع هذه الآيات اعلم أن الجهة منفكة . يعني ما نفي غير ما أثبت . . ففي غزوة بدر مثلا أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصى قذفها في وجه جيش قريش . يأتي القرآن الكريم الى هذه الوقعة فيقول الحق سبحانه .

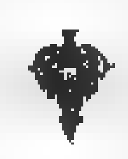
﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

نفي للحدث وإثباته في الآية نفسها . كيف رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . مع أن الله تبارك وتعالى قال . «ومارميت» ؟! نقول إنه في هذه الآية الجهة منفكة الذي رمى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الذي أوصل الحصى الى كل جيش قريش لتصيب كل مقاتل فيهم هي قدرة الله سبحانه وتعالى فما كان لرمية رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصى يمكن أن تصل الى كل جيش الكفار ، ولكن قدرة الله هي التي جعلت هذا الحصى يصيب كل جندي في الجيش .

أما قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : «وإنك لتهدي الى صراط مستقيم» .

فهي هداية دلالة أي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبليغه للقرآن وبيانه لمنهج الله قد دل الناس كل الناس على الطريق المستقيم وبينه لهم . وقوله تبارك وتعالى : «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء» . . أي إنك لا توصل الهداية الى القلوب لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يهدي القلوب ويزيدها هدى وإيمانا . ولذلك أعطانا الله تبارك وتعالى قضية إيمانية عامة في قوله : «قل ان الهدى هدى الله» فالقرآن الكريم يحمل هداية الدلالة للذين يريدون أن يجعلوا بينهم وبين غضب الله وعذابه وقاية .



﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ③ ﴾

بعد أن بيّن الله سبحانه وتعالى لنا أن هذا الكتاب ـ وهو القرآن الكريم ـ « هدى للمتقين » أي أنّ فيه المنهج والطريق لكل من يريد أن يجعل بينه وبين غضب الله وقاية أراد أن يعرفنا صفات هؤلاء المتقين ومن هم . وأول صفة هي قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » .

ما هو الغيب الذي جعله الله أول مرتبة في الهدى . وفي الوقاية من النار ومن غضب الله ؟ . .

الغيب هو كل ما غاب عن مدركات الحس . فالأشياء المحسة التي نراها ونلمسها لا يختلف فيها أحد ولذلك يقال ليس مع العين أين . . لأن ما تراه لا تريد عليه دليلا . ولكن الغيب لا تدركه الحواس . إنما يدرك بغيرها

ومن الدلالة على دقة التعريف أنهم قالوا أن هناك خمس حواس ظاهرة هي السمع والبصر والشم والذوق واللمس . . ولكن هناك أشياء تدرك بغير هذه الحواس

لنفرض أن أمامنا حقيبتين . الشكل نفسه والحجم نفسه هل تستطيع بحواسك الظاهرة أن تدرك أيها أثقل من الأخرى ؟ هل تستطيع الحواس الخمس أن تقول لك أي الحقيبتين أثقل ؟ . لا . . لابد أن تحمل واحدة منها ثم تحمل الأخرى لتعرف أيها أثقل . .

بأي شيء أدركت هذا الثقل ؟ بحاسة العضل . لأن عضلاتك أجهدت عندما حملت احدى الحقيبتين ، ولم تجهد عندما حملت الثانية تعرفت بالدقة أيها أثقل ، لا ثقل باللمس ، لأنك لو لمست احداهما ثم لمست الأخرى لاتعرف أيها

أثقل . إذن فهناك حاسة العضل التي تقيس بها ثقل الأشياء

ولنفرض أنك دخلت محلا لبيع القماش ، وأمامك نوعان من قماش واحد ولكن أحدهما أرق من الآخر . بمجرد أن تضع القماشين بين أناملك تدرك أن أحدهما رقيق والآخر أكثر سمكا . . بأي حاسة أدركت هذا ؟ ليس بحاسة اللمس ولكن بحاسة البينة وحكمها لا يخطيء .

وعندما تشعر بالجوع . . بأي حاسة أدركت أنك جوعان ؟. ليس بالحواس الظاهرة . . وكذلك عندما تظمأ . ما هي الحاسة التي أدركت بها أنك محتاج الى الماء . وعندما تكون نائما أي حاسة تلك التي توقظك من النوم لا أحد يعرف

اذن هناك ملكات في النفس وهي الحواس الظاهرة وهناك ادراكات في النفس وهي حواس لا يعلمها إلا خالقها لذلك عندما يأتي العلماء ليضعوا تعريفا للنفس البشرية نقول لهم ماذا تعرفون عن هذه النفس؟ . انكم لا تعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ولكن هناك أشياء داخل النفس لا تعرفونها . . هناك ادراكات لا يعلم عنها الانسان شيئا ، وهي ادراكات كثيرة ومتعددة . لذلك يخطيء من يقول إن ما لا يدرك بالحواس البشرية الظاهرة هو غيب لأن هناك ملكات وادراكات متعددة تعمل بغير علم منا

لو أعطى لطالب تمرين هندسي فحله وأتى بالجواب هل نقول أنه علم غيبا ؟. لأن حل التمرين كان غيبا عنه ثم وصل اليه . لا لأن هناك مقدمات وقوانين أوصلته الى هذا الحل والغيب بلا مقدمات ولا قوانين تؤدي اليه ، وهي عندما تعلن الأرصاد الجوية أن غدا يوم ممطر شديد الرياح . . أتكون قد علمت غيبا ؟ لا لأنها أخذت المقدمات ووصلت بها الى نتائج وهذا ليس غيبا .

واذا جاء أحد من الدجالين وقال لك ان ما سرق منك عند فلان . أيكون قد علم الغيب ؟. لا لأنه يشترط في الغيب ألا يكون معلوما لمثلك وما سرق منك معلوم لمثلك فالسارق والذي بيعت له المسروقات يعرفان من الذي سرق ، وما الذي حدث والشرطة تستطيع بالمقدمات والبصمات والبحث أن تصل الى السارق ومن اشترى المسروقات وإذا هناك دجال من الذين يسخرون الجن

والمعروف أن الجن مستورعنا يمتاز بخفة الحركة وسرعتها . والله سبحانه وتعالى يقول عن الشيطان :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

فقد يكون هذا المستعان به من الجن قد رأى شيئا أو انتقل من مكان إلى آخر . . فيعرف شيئا لا تعرفه أنت وهذا لا يكون غيبا لأنك جهلته ، ولكن غيرك يعلمه بقرابينه التي خلقها الله له والعلماء الذين يكتشفون أسرار الكون . . أيقال إنهم أطلعوا على الغيب ؟ . لا . . لأن هؤلاء العلماء اكتشفوا موجوداً له مقدمات فوصلوا الى هذه النتائج فهو ليس غيبا .

ولكن ما هو الغيب ؟ . .

هو الشيء الذي ليس له مقدمات ولا يمكن ان يصل اليه عِلم خَلْقٍ من خلق الله حتى الملائكة واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى حينما عَلَّمَ آدم الأسماء كلها وعرضهم على الملائكة قال جل جلاله :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والجن أيضا لا يعلم الغيب . . ولذلك عندما مات سليمان عليه السلام . . وكان الله سبحانه وتعالى قد سَخَّرَ له الجن لم تعلم الجن بموته إلا عندما أكلت دابة الأرض

حصاه .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة سبأ)

إذن فالغيب هو ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى واقرأ قول الحق جل جلاله .

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الجن)

وهكذا فإن الرسل لا يعلمون الغيب .. ولكن الله سبحانه وتعالى يخصهم بما يشاء من الغيب ويكون هذا معجزة لهم ولمن اتبعوهم .

وقمة الغيب هي الايمان بالله سبحانه وتعالى .. والايمان بملائكته وكتبه ورسله والايمان باليوم الآخر .. كل هذه أمور غيبية ، وحسبنا يخبرنا الله تبارك وتعالى عن ملائكته ونحن لا نراهم نقول مادام الله قد أخبرنا بهم فنحن نؤمن بوجودهم .. وإذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى عن اليوم الآخر . فمادام الله قد أخبرنا فنحن نؤمن باليوم الآخر .. لأن الذي أخبرنا به هو الله جل جلاله .. آمنت به أنه اله .. واستخدمت في هذا الايمان الدليل العقلي الذي جعلني أومن بأن هذا الكون إلهاً وخالقاً .. وما يأتيني عن الله حيثية الايمان به أن الله سبحانه وتعالى هو القائل .

ولابد أن نعرف أن وجود الشيء يختلف تماما عن ادراك هذا الشيء .. فأنت لك روح في جسدك تهبك الحياة .. أرأيتها ؟.. أسمعتها ؟.. أذقتها ؟.. أشممتها ؟.. ألمستها ؟.. الجواب طبعا لا .. فبأي وسيلة من وسائل الادراك تدرك أن لك روحا في جسدك ؟ بأثرها في إحياء الجسد ..

إذن فقد عرفت الروح بأثرها ، والروح مخلوق لله .. فكيف تريد وأنت عاجز أن تدرك مخلوقا في جسدك وذاتك وهو الروح بآثارها .. أن تدرك الله سبحانه وتعالى بحواسك

ونحن إذا آمنا بالقمة الغيبية وهو الله جل جلاله .. فلابد أن نؤمن بكل ما يخبرنا عنه وإن لم نره . ولقد أراد الله تبارك وتعالى رحمة بعقولنا أن يقرب لنا قضية الغيب فأعطانا من الكون المادي أدلة على أن وجود الشيء ، وإدراك هذا الوجود شيئان منفصلان تماما .

فالجراثيم مثلا موجودة في الكون تؤدي مهمتها منذ بداية الخلق . وكان الناس يشهدون آثار الأمراض في أجسادهم من ارتفاع في الحرارة وحمى وغير ذلك وهم لا يعرفون السبب .. فلما ارتقى العلم وأذن الله لخلقه أن يروا هذا الوجود للجراثيم . جعل الله العقول قادرة على أن تكتشف المجهر .. الذي يعطينا الصورة مكبرة .. لأن العين قدرتها البصرية أقل من أن تدرك هذه المخلوقات الدقيقة . فلما اكتشف العلم المجهر . استطعنا أن نرى هذه الجراثيم . ونعرف أن لها دورة حياة وتكاثر إلى غير مايكشفه الله لنا من علم كلما تقدم الزمن

إن عدم قدرتنا على رؤية أي شيء لا يعني أنه غير موجود . ولكن آلة الإدراك وهي البصر عاجزة عن أن تراه ، لأنه غاية في الصغر . فإذا جئت بالمجهر كبر لك هذا الميكروب ليدخل في نطاق وسيلة رؤيتك وهي العين . ورؤيتنا للجراثيم والميكروبات ليست دليلا على أنها خلقت ساعة رأيناها .. بل هي موجودة تؤدي مهمتها .. سواء رأيناها أو لم نرها .

فلو حدثنا أحد عن الميكروبات والجراثيم قبل أن نراها رؤية العين . هل كنا نصدق ؟ .. والله سبحانه وتعالى ترك بعض خلقه غير مدرك في زمنه لبعض حقائق الكون ليرتقي الإنسان ويدرك بعد ذلك . وكان المفروض أنه يزداد إيمانا . عندما يدرك وليعرف الخلق بالدليل المادي أن ما هو غيب عنهم موجود وإن كنا لا نراه

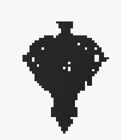
والله تبارك وتعالى قد أعطانا من آياته في الكون مايجعلنا ندرك أن لهذا الكون خالقا . فالشمس والقمر والنجوم والأرض والإنسان والحيوان والجماد لا يستطيع أحد أن يدعي أنه خلقهم . ولا أحد يمكن أن يدعي أنه خلق نفسه أو غيره .

ولا يمكن لهذا الكون بهذا النظام الدقيق أن يوجد مصادفة ، لأن المصادفات أحداث غير مرتبة أو غير منظمة .. ولو وجد هذا الكون مصادفة لتصادمت الشمس والقمر والنجوم والأرض ولاختلّ الليل والنهار ..

ولكن كل ما في الكون من آيات يؤكد لنا أن هناك قوة هائلة هي التي خلقت ونظمت وأبدعت . فإذا جاءنا رسول يبلغنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذا الكون فلابد أن نصدقه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « ويقيمون الصلاة » . والصلاة هي إدامة ولاء العبودية للحق تبارك وتعالى وهي لا تسقط عن الانسان أبدا .. فالانسان يصلي وهو واقف ، فإن لم يستطع يصلي وهو جالس . فإن لم يستطع ، فيصلي وهو راقد .. ولا تسقط الصلاة عن الانسان من ساعة التكليف إلى ساعة الوفاة كل يوم خمس مرات ..

ويقول الحق تبارك وتعالى : « ومما رزقناهم ينفقون » . وحين نتكلم عن الرزق يظن كثير من الناس أن الرزق هو المال .. نقول له لا .. الرزق هو ما ينتفع به . فالقوة رزق ، والحلم رزق ، والحكمة رزق ، والتواضع رزق .. وكل ما فيه حركة للحياة رزق .. فإن لم يكن عندك مال لتنفق منه فعندك عافية تعمل بها لتحصل على المال وتتصدق بها على العاجز المريض وان كان عندك حلم فإنك تنفقه بأن تقي الأحمق من تصرفات قد تؤذي المجتمع وتؤذيك .. وان كان عندك علم انفقه لتعلم الجاهل .. وهكذا نرى : « ومما رزقناهم ينفقون » تستوعب جميع حركة الحياة .



﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٤)

الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة يعطينا صفات أخرى من صفات المؤمنين .. فبعد أن أبلغنا أن من صفات المؤمنين الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله .. يأتى بعد ذلك إلى صفات أخرى .

فهؤلاء المؤمنون هم .. (الذين يؤمنون بما أنزل إليك) أى بالقرآن الكريم الذى أنزله الله سبحانه وتعالى .. (وما أنزل من قبلك) وهذه لم تأت فى وصف المؤمنين إلا فى القرآن الكريم .. ذلك أن الإسلام عندما جاء كان عليه أن يواجه صنفين من الناس .. الصنف الأول هم الكفار وهم لا يؤمنون بالله ولا برسول مبلغ عن الله .. وكان هناك صنف آخر من الناس .. هم أهل الكتاب يؤمنون بالله ويؤمنون برسل عن الله وكتب عن الله .

والإسلام واجه الصنفين .. لأن أهل الكتاب ربما ظنوا أنهم على صلة بالله .. يؤمنون به ويتلقون منه كتبا ويتبعون رسلا وهذا فى نظرهم كاف .. نقول لا .. فالإسلام جاء ليؤمن به الكافر ، ويؤمن به أهل الكتاب ، ويكون الدين كله لله .

والله سبحانه وتعالى فى كتبه التى أنزلها أخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن اسمه وأوصافه .. وطلب من أهل الكتاب الذين سيدركون رسالته صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به ..

ولقد أعطى الله جل جلاله أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب حتى إنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .. بل كانت معرفتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وزمنه وأوصافه معرفة يقينية .. وكان يهود المدينة يقولون للكفار .. أظل زمن رسول سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم .. فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أول من حاربه وأنكر نبوته .. فأوصاف رسول الله عليه الصلاة

والسلام موجودة فى التوراة والانجيل . ولذلك كان أهل الكتاب ينذرون الكفار بأنهم سيؤمنون بالرسول الجديد ويسودون به العرب . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أى أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن مفاجئة لأهل الكتاب بل كانوا ينتظرونها . كانوا يؤكدون أنهم سيؤمنون بها كما تأمرهم به كتبهم . ولكنهم رفضوا الايمان وانكروا الرسالة عندما جاء زمنها . .

ثم يقول سبحانه وتعالى « وبالآخرة هم يوقنون » ونلاحظ هنا أن كلمة (وبالآخرة) قد جاءت . . لأنك اذا تصفحت التوراة التى هى كتاب اليهود ، أو قرأت التلمود لا تجد شيئا عن اليوم الآخر . فقد أخذوا الأمر المادى فقط من كتبهم . والله تبارك وتعالى أكد الايمان باليوم الآخر حتى عرف الذين يقولون آمنا بالله وكتبه ورسله ولا يلتفتون الى اليوم الآخر أنهم ليسوا مؤمنين . فلو لم يجيء هذا الوصف فى القرآن الكريم ربما قالوا إن الاسلام موافق لما عندنا . ولكن الله جل جلاله يريد تصوير الايمان تصويرا كاملا بأن الايمان بالله قمة ابتداء والايمان باليوم الآخر قمة انتهاء . فمن لم يؤمن بالآخرة وأنه سيلقى الله ويحاسبه . وأن هناك جنة ينعم فيها المؤمن ، ونارا يعذب فيها الكافر يكون ايمانه ناقصا . ويكون قد اقترب من الكافر الذى جعل الدنيا غايته وهدفه

فالمؤمن يتبع منهج الله فى الدنيا ليستحق نعيم الله فى الآخرة . فلو أن الآخرة لم تكن موجودة ، لكان الكافر أكثر حظا من المؤمن فى الحياة . لأنه أخذ من الدنيا ما يشتهيه ولم يقيد نفسه بمنهج ، بل أطلق لشهواته العنان . بينما المؤمن قيد حركته فى الحياة طبقا لمنهج الله وتعب فى سبيل ذلك . ثم يموت الاثنان وليس بعد ذلك شيء . فيكون الكافر هو الفائز بنعم الدنيا وشهواتها . والمؤمن لا يأخذ شيئا . والأمر هنا لا يستقيم بالنسبة لقضية الايمان . ولذلك كان الايمان بالله قمة الايمان بداية والايمان بالآخرة قمة الايمان نهاية

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾

قوله تعالى : (أولئك) اشارة الى الذين تنطبق عليهم كل الصفات التى بينها الله سبحانه وتعالى فى الآيتين السابقتين فأولئك الذين تنطبق عليهم هذه الصفات وصلوا الى الهدى أى الى الطريق الموصل للإيمان ووصلوا إلى الفلاح ، وهو الهدف من الإيمان .

وقوله تعالى « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » تشمل الجميع . .

ولكن لماذا استخدم الله تبارك وتعالى « أولئك » مرتين ؟ تلك من بلاغة القرآن الكريم ، ولماذا دمج الخبرين بعضهما مع بعض ؟ حتى نعرف أنه ليس فى الاسلام إيمانان بل إيمان واحد يترتب عليه جزاء واحد . . وسيلته الهدى ، وغايته الفلاح . . ولو نظر الى التكليفات التى هى الهدى الموصلة الى الغاية نجد أن الله سبحانه وتعالى رفع المهتدى على الهدى . . لنعرف أن الهدى لم يأت ليقيد حركتك فى الحياة ويستذلك ، وإنما جاء ليرفعك

إن السطحيين يعتقدون أن الهدى يقيد حركة الانسان فى الحياة ويمنعه من تحقيق شهواته العاجلة ولكن الهدى فى الحقيقة يرفع الانسان ويحفظه من الضرر ، ومن غضب الله ، ومن افساد المجتمع الذى سيكون هو أول من يعانى منه لذلك قال تبارك وتعالى : « على هدى » . .

و (على) تفيد الاستعلاء . فاذا قلت أنت على الجواد فإنك تعلوه . . كأن المهتدى حين يلزم نفسه بالمنهج لا يذل . ولكنه يرتفع الى الهدى ويصبح الهدى يأخذه من خير الى خير . . وذلك بعكس الضلالة التى تأخذ الانسان الى أسفل

ولذلك حين تقرأ فى القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

ترى ما يفيد الارتفاع والعلو فى الهداية ، وما يفيد الانخفاض والنزول فى الضلالة ، وإنما كان لعلوّ فى الهدى .. لأن المنهج قَيَّدَ حركة حياتك اعزازًا لك لعلوك وسمو مقامك فى أنك لا تأخذ من بشر تشريعا .. ولا تأخذ من ذاتك حركة .. وإنما يرتفع بك لتتلقى من الله سبحانه وتعالى . وهذا علو كبير .. ولكن عند الضلال قال : « فى ضلال » .. و (فى) تدل على الظرفية المحيطة .. وهو كما وصفه الله سبحانه وتعالى فى آية أخرى بقوله جل جلاله .

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ ﴾

(سورة البقرة)

أحاطت به الخطيئة .. أى لا يستطيع أن يفلت منها لأنه مظروف فى الضلال .. وما دامت الخطيئة محيطة به فلا يجد منفذا لأنها تحكمه . وما دامت تحكمه فلا يمكن أن يصل إلى هدى مطلقا .. فالحق سبحانه وتعالى حينما قال : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .. اختار لفظا عليه دلالة دنيوية تقرب المعنى الى السامع ..

ما هو الفلاح ؟ . المعنى العام هو الفوز والمُفْلِحُ هو الفائز . ومعنى الآية الكريمة أولئك هم الفائزون وقال : « هم المفلحون » .. لأن الفلاح مأخوذ من شق الأرض للبذر . ومنه سُمِّىَ الفلاح الذى صفته شق الأرض ورمى البذور فيها .

والحق سبحانه تعالى جاء بهذا اللفظ بالنسبة للآخرة لأنه يريد أن يأتى لنا مع الشيء بدليله .. وهناك فرق بين أمر غيبى عنا لا نعرفه .. وأمر غيبى يستدل عليه بمشهود ..

فالدين يقيد حريتك في الحياة في أن تفعل ولا تفعل .. ومنهج الله جاء ليقول لك إفعل كذا ولا تفعل كذا . وكثير من الناس يظن أن ذلك تقييد لحركة حياة المؤمن والثقال عليه .. لأنه أخذ منه حرية حركته فقيدها ..

ان الله تبارك وتعالى حين يقول لك لا تفعل . معناه عند السطحيين أنه ضيق عليك ما تريد أن تفعل .. وحين يقول لك افعل . معناها يكون قد ضيق عليك في شيء لا تريد أن تفعله مثلا حين يطلب منك الزكاة .. فالزكاة في ظاهرها نقص المال ، وإن كانت في حقيقتها بركة ونماء .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه)(١) .

فالحق سبحانه وتعالى اذا قيد حركتك في الحياة لا تظن أن هذا تضييق عليك .. بل ان هذا لفائدتك . لأنه لم يأمرك وحدك ، ولكن الأمر للناس جميعا حين يقول جل جلاله لا تسرق .. فقد قالها للناس جميعا ولذلك تكون أنت الرابح . لأنه قيدك وأنت فرد من أن تسرق من غيرك .. ولكنه قيد ملايين الناس من أن يسرقوا منك .. اذن فالله لم يضيق عليك ، ولكنه حمى مالك من الناس كل الناس قيدك وأنت فرد أن تسرق من مال غيرك ، وقيد ملايين أن يسرقوا من مالك فمن الفائز ؟ . أنت طبعا .

وقوله تعالى « أولئك هم المفلحون » (المفلحون) من مادة فلح . فاذا كانت الأرض صماء صلبة نشقها ونبذرها تعطى محصولا عظيما ، العملية أخذناها أبا عن جد . فالأرض حين تشق وتبذر تعطى محصولا وافرا واذا كانت هذه العملية أخذت أبا عن جد يأتي السؤال من الذي علم آدم البذر والزرع ؟ نقول علمه الله سبحانه وتعالى كما علمه الأسماء وكما علمه ما يمكنه به أن يباشر مهمته في الأرض .

والحق جل جلاله لم يكن يترك آدم في حياته على الأرض دون أن يعلمه ما يضمن استمرار حياته وحياة أولاده يعلمه على الأقل بدايات ثم بعد ذلك تتطور هذه البدايات بما يكشفه الله من علمه لخلقه . ويمد ذلك جاءت القرون المتقدمة

---

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذي عن أبي هريرة

فاستطعنا أن نستخدم آلات حديثة متطورة تقوم بعملية الحرث والبذر ..
ولكن الحقيقة الثابتة التي لم تتغير منذ بداية الكون ولن تتغير حتى نهايته .. هي أن مهمة الانسان أن يحرث ويضع البذرة في الأرض ويسقيها .. أما نمو الزرع نفسه فلا دخل للانسان فيه .. وكذلك الثمر الذي ينتجه لا عمل للإنسان فيه ..
ولقد نبهنا الله تبارك وتعالى الى هذه الحقيقة حتى لا نغتر بحركتنا في الحياة ونقول إننا نحن الذين نزرع .. واقرأ قول الحق جل جلاله في سورة الواقعة

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧ ﴾

(سورة الواقعة)

وهكذا ظلت مهمة الفلاحة في الأرض مقصورة على الحرث والسقي والبذر ، وحينما تلقى الحبة في الأرض يخلق الله في داخلها الغذاء الذي يكفيها حتى تستطيع أن تأخذ غذاءها من الأرض . واذا جئت بحبة وبللتها تجد أنها قد نبت لها ساق وجذور من أين جاء هذا الثمر ؟ من تكوين الحبة نفسه ، والله تبارك وتعالى قد قدر في كل حبة من الغذاء ما يكفيها حتى تستطيع أن تتغذى من الأرض .. وعلى قدر كمية الغذاء المطلوبة يكون حجم الحبة .. وحين تضعها في الأرض فإنها تبدأ أولا بأن تتغذى نفسها . بحيث ينبت لها ساق وجذور وورقتان تتنفس منهما .. كل هذا لا دخل لك فيه ولا عمل لك فيه . وتبدأ الحبة تأخذ غذاءها من الأرض والهواء .. لتستمر حتى تصبح شجرة كبيرة تنتج الثمر من نوع البذرة نفسه .

ومن هنا جاءت كلمة (الفلاحون) .. ليعطينا الحق جل جلاله من الأمور المادية المشهودة ما يعين عقولنا المحدودة على فهم الغيب .. فيشبه التكليف وجزاءه في الآخرة بالبذرة والفلاحة . أولا لأنك حين ترمي بذرة في الأرض تعطيك بذورا كثيرة ..

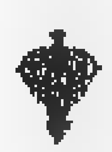
وقرأ قول الله سبحانه وتعالى .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وإذا كانت الأرض وهي المخلوقة من الله تهبك أضعاف أضعاف ما أعطيتها . فكيف بالخالق ؟ . . وكم يضاعف لك من الثواب في الطاعة ؟ . هذا هو السبب في أن الحق تبارك وتعالى يقول « وأولئك هم المفلحون » حتى يلفتنا بمادة الفلاحة . وهي شيء موجود نراه ونشهده كل يوم .

وكما أن التكليف يأخذ منك أشياء ليضاعفها لك كذلك الأرض أخذت منك حبة ولم تعطك مثل ما أخذت ، بل أعطتك بالحبة سبعمائة حبة . . وهكذا نستطيع أن نصل بشيء مشهود يُقَرِّب لنا شيئا غيبيا .



﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ ﴾

وبعد ان تحدث الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين وصفاتهم .. وجزائهم فى الآخرة وماينتظرهم من خير كبير .. اراد ان يعطينا تبارك وتعالى الصورة المقابلة وهم الكافرون .. ويبين لنا ان الايمان جاء ليهيمن على الجميع يحقق لهم الخير فى الدنيا والآخرة .. فلابد ان يكون هناك شر يحاربه الايمان .. ولولا وجود هذا الشر .. أكان هناك ضرورة للايمان .. إن الانسان المؤمن يقى نفسه ومجتمعه وعالمه من شرور يأتى بها الكفر ..

والكافرون قسمان .. قسم كفر بالله اولا ثم استمع الى كلام الله .. واستقبله بفطرته السليمة فاستجاب وآمن .. وصنف آخر مستفيد من الكفر ومن الطغيان ومن الظلم ومن اكل حقوق الناس وغير ذلك .. وهذا الصنف يعرف ان الايمان اذا جاء فانه سيسلبه جاها دنيويا ومكاسب يحققها ظلما وعدوانا ..

ان الذين يقفون امام الايمان هم المستفيدون من الكفر .. ولكن ماذا عن الذين كانوا كفارا واستقبلوا دين الله استقبالا صحيحا ..

هؤلاء قد تتفتح قلوبهم فيؤمنون .. والكفر معناه الستر .. ومعنى كَفَرَ (أى) سَتَرَ .. وكفر بالله اى ستر وجود الله جل جلاله .. والذى يستر لابد ان يستر موجودا ، لأن الستر طارىء على الوجود .. والاصل فى الكون هو الايمان بالله .. وجاء الكفار يحاولون ستر وجود الله .. فكأن الاصل هو الايمان ثم طرأت الغفلة على الناس فستروا وجود الله سبحانه وتعالى .. ليبقوا على سلطاتهم او سيطرتهم او استغلالهم او استعلائهم على غيرهم من البشر .

ولفظ الكفر فى ذاته يدل على ان الايمان سبق ثم بعد ذلك جاء الكفر .. كيف ؟ ..

لأن الخلق الأول وهو آدم الذى خلقه الله بيديه . ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة . . وعلمه الأسماء كلها . .

سجود الملائكة وتعليم الأسماء أمر مشهدى بالنسبة لآدم ولكفر ساعتها لم يكن موجودا . . وكان المفروض ان آدم بعد ان نزل الى الأرض واستقر فيها . . يلقن ابناءه منهج عبادة الله لأنه نزل ومعه المنهج فى (افعل ولا تفعل) وكان على ابناء آدم ان يلقنوا ابناءهم المنهج وهكذا . .

ولكن بمرور الزمن جاءت الغفلة فى أن الايمان يقيد حركة الناس فى الكون . . فبدأ كل من يريد ان يخضع حياته لشهوة بلاقيود يتخذ طريق الكفر والعاقل حين يسمع كلمة كفر . يجب عليه ان ينتبه الى ان معناها ستر لموجود واجب الوجود . . فكيف يكفر الانسان ويشارك فى ستر ماهو موجود . لذلك نجد ان الحق سبحانه وتعالى يقول.

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا يأتى هذا السؤال ولا يستطيع الكافر له جوابا !! لأن الله هو الذى خلقه وأوجده . ولايستطيع احد منا ان يدعى انه خلق نفسه او خلق غيره . فالوجود بالذات دليل على قضية الايمان . . ولذلك يسألهم الحق تبارك وتعالى كيف تكفرون بالله وتسترون وجود من خلقكم ؟ . .

والخلق قضية محسومة لله سبحانه وتعالى لايستطيع احد ان يدعيها . . فلا يمكن ان يدعى أحد أنه خلق نفسه قضية انك موجود توجب الايمان بالله سبحانه وتعالى الذى اوجدك . انه عين الاستدلال على الله وإذا نظر الانسان حوله

فوجد كل ما في الكون مسخراً لخدمته والأشياء تستجيب له فظن بمرور الزمن أن له سيطرة على هذا الكون .. ولذلك عاش وفي ذهنه قوة الأسباب .. يأخذ الأسباب وهو فاعلها فيجدها قد أعطته واستجابت له ولم يلتفت إلى خالق الأسباب الذي خلق لها قوانينها فجعلها تستجيب للإنسان .. وقد أشار الحق تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله جل جلاله

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ ﴾

(سورة العلق)

ذلك أن الإنسان يحرث الأرض فتعطيه الثمر . فيعتقد أنه هو الذي أخضع الأرض ووضع لها قوانينها لتعطيه ما يريد يضغط على زر الكهرباء فينير المكان فيعتقد أنه هو الذي أوجد هذه الكهرباء ! يركب الطائرة . وتسير به في الجو فيعتقد أنه هو الذي جعلها تطير وينسى الخصائص التي وضعها الله سبحانه وتعالى في الغلاف الجوي ليستطيع أن يحمل هذه الطائرة . يفتح التليفزيون ويرى أمامه أحداث العالم فيعتقد أن ذلك قد حدث بقدرته هو . وينسى أن الله تبارك وتعالى وضع في الغلاف الجوي خصائص جعلته ينقل الصوت والصورة من أقصى الدنيا إلى أقصاها في ثوان معدودة . وهكذا كل ما حوله يظن الإنسان أنه أخضعه بذاته بينما كل هذا مسخر من الله سبحانه وتعالى لخدمة الإنسان . وهو الذي خلق ووضع القوانين يقول له إنك لو فهمت معنى ذاتية الأشياء لحدثتك نفسك بذلك الشيء الذاتي هو ما كان من ذاتك لا يتغير ولا يتخلف أبداً . إنما الأمر الذي ليس بذاتك هو الذي يتغير ..

وإذا نظرت إلى ذاتيتك تلك التي أغرتك وأطغتك .. ستفهم أن كلمة ذاتية هي ألا تكون محتاجاً إلى غيرك في كل شيء من نفسك . وأنت في حياتك كلها ليس لك ذاتية ، لأن كل شيء حولك مسخر بدون إرادتك وأنت طفل محتاج إلى أبيك في بدء حياتك فإذا كبرت وأصبح لك قوة وتفاخرت بأن الأحداث لن تقهرك لا تستطيع أن تجعل فترة الشباب والفتوة هذه تبقى .. فالزمن يعطيك ولكن لفترة محدودة فإذا وصلت إلى مرحلة الشيخوخة ستحتاج إلى من يأخذ بيدك ويعينك .. ربما في أدق حاجاتك وهي الطعام والشراب

إذن فأنت تبدأ بالطفولة محتاجا إلى غيرك .. وتنتهي بالشيخوخة محتاجا إلى غيرك .. وحتى عندما تكون في شبابك قد يصيبك مرض يقعدك عن الحركة .. فاذا كانت لك ذات حقيقية فادفع هذا المرض عنك وقل لن امرض . انك لا تستطيع ..

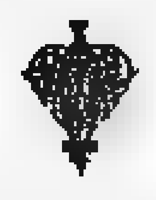
الله سبحانه وتعالى اوجد هذه المتغيرات حتى ينتهي الغرور من الانسان .. ويعرف انه قوى قادر بما اخضع الله له من قوانين الكون . لنعلم اننا جميعا محتاجون الى القادر ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وان الله غني بذاته عن كل خلقه . يغير ولا يتغير . يميت وهو دائم الوجود . يجعل من بعد قوة ضعفا وهو القوى دائما . ماعند الناس ينفد وما عنده تبارك وتعالى لاينفد أبداً .. هو الله في السموات والارض .

اذن فليست لك ذاتية حتى تدعي انك اخضعت الكون بقدراتك . لانه ليس لك قدرة ان تبقي على حال واحد وتجعله لايتبدل ولا يتغير . فكيف تكفر بالله تبارك وتعالى وتستر وجوده .. كل مافي الكون ومافي نفسك شاهد ودليل على وجود الحق سبحانه وتعالى

قلنا ان الكافرين صنفان . صنف كفر بالله وعندما جاء الهدى حكم عقله وعرف الحق فآمن .. والصنف الآخر مستفيد من الكفر .. ولذلك فهو متشبث به مهما جاءه من الايمان والادلة الايمانية فإنه يعاند ويكفر .. لانه يريد ان يحتفظ بسلطاته الدنيوية ونفوذه القائم على الظلم والطغيان .. ولا يقبل ان يُجَرَّدَ منها ولو بالحق .. هذا الصنف هو الذي قال عنه الله تبارك وتعالى : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون »

انهم لم يكفروا لأن بلاغا عن الله سبحانه وتعالى لم يصلهم .. ولم يكفروا لأنهم في حاجة الى ان يلفتهم رسول او نبي الى منهج الله .. هؤلاء اتخذوا الكفر صناعة ومنهج حياة . فهم مستفيدون من الكفر لأنه جعلهم سادة ولانهم متميزون عن غيرهم بالباطل .. ولانهم لو جاء الايمان الذي يساوي بين الناس جميعا ويرفض الظلم ، لأصبحوا اشخاصا عاديين غير مميزين في اي شيء

هذا الكافر الذي اتخذ الكفر طريقا لحب الدنيا وزخرفها .. سواء أبدرته أم لم تدره فانه من يؤمن .. انه يريد الدنيا التي يعيش فيها .. بل ان هؤلاء هم الذين يقاومون الدين ويحاربون كل من آمن .. لأنهم يعرفون ان الايمان سيسلبهم ميزات كثيرة .. ولذلك فإن عدم ايمانهم ليس عن ان منهج الايمان لم يبلغهم .. او ان أحدا لم يلفتهم الى ايات الله فى الارض .. ولكن لأن حياتهم قائمة ومبنية على الكفر



﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

وبعد أن أعطانا الحق سبحانه وتعالى أوصاف المؤمنين يعطينا صفات الكافرين . وقد يتساءل بعض الناس إذا كان هذا هو حكم الله على الكافرين ؟ فلماذا يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم الإيمان منهم وقد ختم الله على قلوبهم ؟! ومعنى الختم على القلب هو حكم بألا يخرج من القلب ما فيه من الكفر . . ولا يدخل إليه الإيمان .

نقول إن الله سبحانه وتعالى غني عن العالمين . فإن استغنى بعض خلقه عن الإيمان واختاروا الكفر . . فإن الله يساعده على الاستغناء ولا يعينه على العودة إلى الإيمان . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول في حديث قدسي :

« أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني فإن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وإن اقترب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن اقترب إلي ذراعا اقتربت إليه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » (١)

وقد وضح الحديث القدسي ن الله تبارك وتعالى يعين المؤمنين على الإيمان ، وإن الله جل جلاله كما يعين المؤمنين على الإيمان . فإنه لا يهمه أن يأتي العبد إلى الإيمان أو لا يأتي . ولذلك نجد القرآن دقيقا ومحكما بأن من كفروا قد اختاروا الكفر بإرادتهم . واختيارهم للكفر كان أولا قبل أن يختم الله على قلوبهم . والخالق جل جلاله أغنى الشركاء عن الشرك . ومن أشرك به فإنه في غنى عنه .

إن الذين كفروا . . أي ستروا الإيمان بالله ورسوله . هؤلاء يختم الله بكفرهم على آلات الإدراك كلها . القلب والسمع والبصر . والقلب أداة إدراك غير ظاهرة . وقد قدم الله القلب على السمع والبصر في تلك الآية لأنه يريد أن يلفت

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الذكر والدعاء

منفذ لادراك .. وفي القرآن الكريم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

وهكذا يعلمنا الله ان منفذ العلم في الانسان هي السمع والابصار والافئدة ولكن في الآية الكريمة التي نحن بصددها قدم الله القلوب على السمع والابصار ان الله يعلم انهم اختاروا الكفر .. وكان هذا الاختيار قبل ان يختم الله على قلوبهم .. والختم على القلوب .. معناه انه لايدخلها ادراك جديد ولايخرج منها ادراك قديم .. ومهما رأت العين أو سمعت الأذن .. فلا فائدة من ذلك لأن هذه القلوب مختومة بخاتم الله بعد ان اختار اصحاب الكفر واصروا عليه .. وفي ذلك يصفهم الحق جل جلاله :

﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولكن لماذا فقدوا كل ادوات الادراك هذه ؟ .. لأن الغشاوة التفت حول القلوب الكافرة .. فجعلت العيون عاجزة عن تأمل آيات الله .. والسمع غير قادر على التلقي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

اذن فهؤلاء الذين اختاروا الكفر واصروا عليه وكفروا بالله برغم رسالاته ورسله وقرآنه .. ماذا يفعل الله بهم ؟ انه يتخلى عنهم، ولأنه سبحانه وتعالى غني عن العالمين فانه ييسر لهم الطريق الذي مشوا فيه ويعينهم عليه .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

ويقول جل جلاله :

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) ﴾

(سورة الشعراء)

ومن عظمة علم الله تبارك وتعالى أنه يعلم المؤمن ويعلم الكافر .. دون أن يكون جل جلاله تدخل في اختيارهم .. فعندما بعث الله سبحانه وتعالى نوحا عليه السلام ودعا نوح إلى منهج الله تسعمائة وخمسين عاما . وقبل أن يأتي الطوفان علم الله سبحانه وتعالى أنه لن يؤمن بنوح عليه السلام إلا من آمن فعلا . فطلب الله تبارك وتعالى من نوح أن يبني السفينة لينجو المؤمنون من الطوفان . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)
وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) ﴾

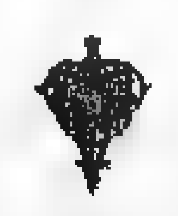
(سورة هود)

وهكذا نرى أنه من عظمة علم الله سبحانه وتعالى . أنه يعلم من سيصر على الكفر وأنه سيموت كافرا .. وإذا كانت هذه هي الحقيقة فلماذا يطلب الله تبارك وتعالى من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغهم بالمنهج وبالقرآن ؟.. ليكونوا شهداء على أنفسهم يوم القيامة . فلا يأتي هؤلاء الناس يوم المشهد العظيم ويجادلون بالباطل أنه لو بلغهم الهدى ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لآمنوا . ولكن لماذا يختم الله جل جلاله على قلوبهم ؟. لأن القلب هو مكان العقائد .. ولذلك فإن القضية تناقش في العقل فاذا انتهت مناقشتها واقتنع بها الانسان تماما فانها تستقر في القلب ولا تعود الى الذهن مرة أخرى وتصبح عقيدة وايمانا .. والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الحج)

وإذا عمي القلب عن قضية الايمان .. فلا عين ترى آيات الايمان .. ولا أذن تسمع كلام الله .. وهؤلاء الذين اختاروا الكفر على الايمان لهم فى الآخرة عذاب عظيم .. ولقد وصف الله سبحانه وتعالى العذاب بأنه أليم .. وبأنه مهين .. وبأنه عظيم .. العذاب الأليم هو الذى يسبب ألما شديدا .. والعذاب المهين هو الذى يأتى لاولئك الذين رفعهم الله فى الدنيا .. وأحيانا تكون الاهانة أشد إيلاما للنفس من ألم العذاب نفسه .. أولئك الذين كانوا أئمة الكفر فى الدنيا .. يأتى بهم الله تبارك وتعالى يوم القيامة أمام من اتبعوهم فيهينهم .. أما العذاب العظيم فإنه منسوب الى قدرة الله سبحانه وتعالى .. لأن بقدرات البشر تكون القوة محدودة .. أما بقدرات الله جل جلاله تكون القوة بلا حدود .. لأن كل فعل يتناسب مع فاعله .. وقدرة الله سبحانه وتعالى عظيمة فى كل فعل .. وبما أن العذاب من الله جل جلاله فانه يكون عذابا عظيما .



﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾

الناس في الحياة الدنيا على ثلاثة أحوال: إما مؤمن، وإما كافر، وإما منافق.

والله سبحانه وتعالى في بداية القرآن الكريم في سورة البقرة .. أراد أن يعطينا وصف البشر جميعا بالنسبة للمنهج وأنهم ثلاث فئات: الفئة الأولى هم المؤمنون، عرّفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم في ثلاث آيات، في قوله تعالى

«الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»

والفئة الثانية هم الكفار، وعرفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم في آيتين في قوله تعالى.

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

وجاء للمنافقين بعرف صفاتهم في ثلاث عشرة آية متتابعة، لماذا ..؟ لخطورتهم على الدين، فالذي يهدم الدين هو المنافق، أما الكافر فنحن نتقيه ونحذره، لأنه يعلن كفره.

إن المنافق، يتظاهر أمامك بالإيمان، ولكنه يبطن الشر والكفر، وقد تحسبه مؤمنا، فتطلعه على أسرارك، فيتخذها سلاحا لطعن الدين. وقد خلق الله في الإنسان ملكات متعددة، ولكي يعيش الإنسان في سلام مع نفسه، لابد أن تكون ملكاته منسجمة وغير متناقضة

فالمؤمن ملكاته منسجمة، لأنه اعتقد بقلبه في الإيمان ونطق لسانه بما يعتقد، فلا تناقض بين ملكاته أبداً.

والكافر قد يقال انه يعيش في سلام مع نفسه ، فقد رفض الايمان وانكره بقلبه ولسانه ينطق بذلك ، ولكن الذى فقد السلام مع ملكاته هو المنافق ، انه فقد السلام مع مجتمعه وفقد السلام مع نفسه ، فهو يقول بلسانه ، ما لا يعتقد قلبه ، يظهر غير ما يبطن ، ويقول غير ما يعتقد ، ويخشى أن يكشفه الناس ، فيعيش في خوف عميق ، وهو يعتقد أن ذلك شيء مؤقت سينتهي

ولكن هذا التناقض يبقى معه الى آخر يوم له في الدنيا ، ثم ينتقل معه الى الآخرة ، فينقض عليه ، ليقوده الى النار ، واقرأ قوله تبارك وتعالى .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١ ﴾

(سورة فصلت)

إذن كل ملكاتهم انقضت عليهم في الآخرة ، فالسلام الذى كانوا يقصدونه لم يحققوه لا في حياتهم ولا في آخرتهم ، فلسان المنافق يشهد عليه ، ويداه تشهدان عليه ، ورجلاه تشهدان عليه ، والجلود تشهد عليه ، فماذا بقي له ؟

بينه وبين ربه تناقض ، وبينه وبين نفسه تناقض ، وبينه وبين مجتمعه تناقض ، وبينه وبين آخرته تناقض ، وبينه وبين الكافرين تناقض . يقول لسانه ما ليس في قلبه ، بماذا وصف الحق سبحانه وتعالى المنافقين ؟ قال تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨ ﴾

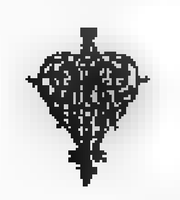
(سورة البقرة)

هذه اول صفات المنافقين في القرآن الكريم ، يعلنون الايمان وفي قلوبهم الكفر ، ولذلك فإن اعمالهم كله تظاهر ، اذا ذهبوا للصلاة لا تكتب لهم ، لانهم يتظاهرون بها ، ولا يؤدونها عن ايمان ، واذا ادوا الزكاة ، فإنها تكون عليهم حسرة ، لانهم ينفقونها وهم لها كارهون ، لأنها في زعمهم نقص من مالهم . لا يأخذون عليها ثوابا

فى الآخرة ، وإذا قتل واحد منهم فى غزوة ، انتابهم الحزن ، والأسى ، لأنهم اهدروا حياتهم ولم يقدموها فى سبيل الله .

وهكذا يكون كل ما يفعلونه شقاء بالنسبة لهم .

اما المؤمن فحين يصلى او يؤدى الزكاة او يستشهد فى سبيل الله فهو يرجو الجنة ، وأما المنافقون فإنهم يفعلون كل هذا ، وهم لا يرجون شيئا . . فكأنهم بنفاقهم قد حكم عليهم الله سبحانه وتعالى بالشقاء فى الدنيا والآخرة ، فلا هم فى الدنيا لهم متعة المؤمن فيما يعمل فى سبيل الله ، ولاهم فى الآخرة لهم ثواب المؤمن فيما يرجو من الله



﴿ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۞ ﴾

وتأتى الصفة الثانية من صفات المنافقين ، وهى صفة تدل على غفلتهم وعدم تفكيرهم ، فإنهم يحسبون انهم بنفاقهم يخدعون الله سبحانه وتعالى ، وهل يستطيع بشر ان يخدع رب العالمين ؟

ان الله عليم بكل شيء ، عليم بما نخفى وما نعلن ، عليم بالسر وماهو اخفى من السر ، وهل يوجد ماهو اخفى من السر ؟ نقول نعم ، السر هو ما اسررت به لغيرك ، فكأنه يعلمه اثنان ، انت ومن اسررت اليه . ولكن ما هو اخفى من السر ، ما تبقيه فى نفسك ولاتخبر به احدا ، انه يظل فى قلبك لا تسر به لانسان ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۞ ﴾

(سورة طه)

فلا يوجد مخلوق ، يستطيع ان يخدع خالقه ، ولكنهم من غفلتهم ، يحسبون انهم يستطيعون خداع الله جل جلاله . وفى تصرفهم هذا لا يكون هناك سلام بينهم وبين الله . بل يكون هناك مقت وغضب .

وهم فى خداعهم يحسبون ايضا انهم يخدعون الذين آمنوا ، بأنهم يقولون امامهم غير ما يبطنون ، ولكن هذا الخداع شقاء عليهم ، لأنهم يعيشون فى خوف مستمر ، وهم دائما فى قلق او خوف من ان يكشفهم المؤمنون ، او يستمعوا اليهم فى مجالسهم الخاصة ، وهم يتحدثون بالكفر ويسخرون من الايمان ، ولذلك اذا تحدثوا لابد ان يتأكدوا اولا من ان احدا من المؤمنين لا يسمعهم ، ويتأكدوا ثانيا من ان احدا من

المؤمنين لن يدخل عليهم وهم متحللون ، والخوف يملأ قلوبهم ايضا ، وهم مع المؤمنين . فكل واحد منهم يخشى ان تفلت منه كلمة ، تفضح نفاقه وكفره .

وهكذا فلا سلام بينهم وبين المؤمنين .. والحقيقة انهم لايخدعون الا انفسهم . فالله سبحانه وتعالى ، يعلم نفاقهم ، والمؤمنون قد يعلمون هذا النفاق . فإن لم يعلموه ، فإن الله يخبرهم به ،واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة محمد)

ألم يأت المنافقون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشهدوا انه رسول الله فضحهم الله امام رسوله وانزل قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

جاء المنافقون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهدون بصدق رسالته ، والله سبحانه وتعالى يعلم ان هذه الشهادة حق وصدق ، لانه جل جلاله . يعلم ان رسوله صلى الله عليه وسلم ، صادق الرسالة ،ولكنه في الوقت نفسه يشهد بأن المنافقين كاذبون. كيف ؟

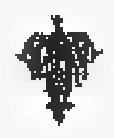
كيف يتفق كلام الله مع ما قاله المنافقون ثم يكونون كاذبين ؟

نقول : لأن المنافقين قالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، فهم شهدوا بألسنتهم فقط ان محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله ولكن قلوبهم منكرة لذلك ، مكذبة به ، ولذلك فإن ما قاله المنافقون رغم انه حقيقة الا انهم يكذبون ، ويقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، لأن الصدق هو أن يوافق الكلام حقيقة ما في القلب ،

وهؤلاء كذبوا ، لأنهم في شهادتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يعبرون عن واقع في قلوبهم ، بل قلوبهم تُكَذِّبُ ما يقولون .

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم يفضح الله سبحانه وتعالى فيها المنافقين وينبىء رسوله صلى الله عليه وسلم بما يضمرونه في قلوبهم ، اذن فخداعهم للمؤمنين ، رغم انه خداع بشر لبشر ، الا انه أحيانا تفلت ألسنتهم ، فتعرف حقيقتهم ، واذا لم يفلت اللسان ، جاء البيان من الله سبحانه وتعالى ليفضحهم ، وتكون حصيلة هذا كله ، انهم لا يخدعون احدا ، فالله يعلم سرهم وجهرهم ، فمرة يعين الله المؤمنين عليهم فيكشفونهم ، ومرة تفلت ألسنة المنافقين فيكشفون انفسهم

اذن فسلوك المنافق ، لايخدع به الا نفسه ، وهو الخاسر في الدنيا والآخرة ، فعندما يؤدى عملا ايمانيا ، فالله يعلم انه نفاق ، وعندما يحاول ان يخدع المؤمنين ، ينكشف ، والنتيجة انهم يعتقدون بأنهم حققوا لأنفسهم نفعا ، بينما هم لم يحققوا لأنفسهم الا الخسران المبين .



﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝ ﴾

فالله سبحانه وتعالى، شبه ما في قلوب المنافقين بأنه مرض ، والمرض أولا يورث السقم ، فكأن قلوبهم لا تملك الصحة الايمانية التي تحيى القلب فتجعله قويا شابا ، ولكنها قلوب مريضة ، لماذا كانت مريضة ؟ لقد أتعبها النفاق وأتعبها التنافر مع كل ماحولها ، وحست انها تعيش حياة ملؤها الكذب ، فاضطراب القلب ، جعله مريضا ، ولايمكن ان يشفى الا بإذن الله ، وعلاجه هو الايمان الحقيقي الصادق ، ذلك الذي يعطيه الشفاء ، والله سبحانه وتعالى يقول

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝ ﴾

(سورة الاسراء)

اذن فالايمان والقرآن هما شفاء القلوب ، كلاهما بعيد عن قلوب هؤلاء المنافقين ، فكأن المرض يزداد في قلوبهم مع الزمن ، والله سبحانه وتعالى ـ بنفاقهم وكفرهم ـ يزيدهم مرضا ، وهذه هي الصفة الثالثة للمنافقين . انهم اصحاب قلوب مريضة سقيمة ، لا يدخلها نور الايمان ، ولذلك فهي قلوب ضعيفة ، ليس فيها القوة اللازمة لمعرفة الحق.وهي قلوب خائفة من كل ماحولها ، مرتعبة في كل خطواتها ، مضطربة بين ما في القلب وما على اللسان ، والمريض لا يقوى على شيء وكذلك هذه القلوب لا تقوى على قول الحق ، ولا تقوى على الصدق ، ولا ترى ماحولها ، تلك الرؤية التي تتناسب وتتفق مع فطرة الايمان ، التي وضعها الله تعالى في القلوب ، ولذلك اذا دخل المنافقون في معركة في صفوف جيش المسلمين . . فأول مايبحثون عنه هو الهرب من المعركة ، يبحثون عن مخبأ يختفون فيه ، او مكان لايراهم فيه

احد ، والله سبحانه وتعالى يصفهم بقوله :

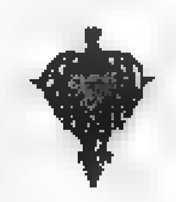
﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة التوبة)

لماذا ؟ لأنهم اصحاب قلوب مريضة ، لا تقوى على شيء ، ومرضها يجعلها تهرب من كل شيء ، وتختفي . وليت الامر يقتصر عند هذا الحد ، ولكن ينتظرهم فى الاخرة عذاب اليم ، غير العذاب الذى عانوه من قلوبهم المريضة فى الدنيا ، فبما كانوا يكذبون على الله وعلى رسوله ، ينتظرهم فى الاخرة عذاب أليم اشد من عذاب الكافرين ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة النساء)



﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ ﴾

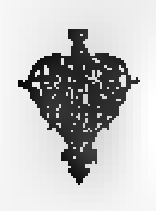
الفساد فى الارض هو ان تعمد الى الصالح فتفسده ، واقل ما يطلب منك فى الدنيا ، ان تدع الصالح لصلاحه ، ولا تتدخل فيه لتفسده ، فإن شئت ان ترتقى ايجابيا ، تأت للصالح ، وتزد من صلاحه ، فإن جئت للصالح وافسدته فقد افسدت مرتين ، لأن الله سبحانه وتعالى ، اصلح لك مقومات حياتك فى الكون ، فلم تتركها على الصلاح الذى خلقت به ، ويكان تركها فى حد ذاته ، بعدا عن الفساد ، بل جئت اليها ، وهى صالحة بخلق الله لها فافسدتها ، فأنت لم تستقبل النعمة الممنوحة لك من الله ، بأن تتركها تؤدى مهمتها فى الحياة ، ولم تزد فى مهمتها صلاحا ، ولكنك جئت الى هذه المهمة فافسدتها . فلو ان هناك بئرا يشرب منه الناس ، فهذه نعمة لضرورة حياتهم ، تستطيع انت بأسباب الله فى كون الله ان تأتى وتصلحها ، بأن تبطن جدرانها بالحجارة ، حتى تمنع انهيار الرمال داخلها ، او ان تأتى بحبل واناء حتى تعين الناس على الوصول الى مياهها ، ولكنك اذا جئت وردمتها تكون قد افسدت الصالح فى الحياة

وهكذا المنافقون . انزل الله تعالى منهجا للحياة الطيبة للانسان على الارض ، وهؤلاء المنافقون بذلوا كل ما فى جهدهم لافساد هذا المنهج . بأن تآمروا ضده وادعوا أنهم مؤمنون به ليطعنوا الاسلام من داخله

ولقد تنبه اعداء الاسلام ، الى ان هذا الدين القوى الحق ، لا يمكن ان يتأثر بطعنات الكفر ، بل يواجهها ويتغلب عليها فما قامت معركة بين حق وباطل الا انتصر الحق ، ولقد حاول اعداء الاسلام ان يواجهوه سنوات طويله ، ولكنهم عجزوا ، ثم تنبهوا الى ان هذا الدين لا يمكن ان يهزم الا من داخله ، وان استخدام المنافقين فى الافساد ، هو الطريقة الحقيقية لتفريق المسلمين ، فانطلقوا الى المسلمين اسما ليتحلوا منهم الحربة التى يوجهونها ضد الاسلام ، وظهرت مذاهب

واختلافات ، وما أسموه العلمانية واليسارية وغير ذلك ، كل هذا قام به المنافقون في الإسلام وغلفوه بغلاف إسلامي ، ليفسدوا في الأرض ويخربوا منهج الله

وإذا لفت المؤمنون نظرهم إلى أنهم يفسدون في الأرض ، وطلبوا منهم أن يمتنعوا عن الإفساد ، ادعوا أنهم لا يفسدون ولكنهم يصلحون ، وأي صلاح في عدم اتباع منهج الله والخروج عليه بأي حجة من الحجج ؟



﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٢)

وهكذا يعطينا الله سبحانه وتعالى حكمه عليهم بأنهم كما أنهم يخدعون أنفسهم ولا يشعرون ويحسبون أنهم يخدعون الله سبحانه وتعالى والمؤمنين. كذلك فإنهم يفسدون في الأرض ويدعون أنهم مصلحون، ولكنهم في الحقيقة مفسدون، لماذا؟ لأن في قلوبهم كفراً وعداء لمنهج الله، فلو قاموا بأي عمل يكون ظاهره الاصلاح، فحقيقته هي الإفساد، تماماً كما ينطقون بألسنتهم بما ليس في قلوبهم

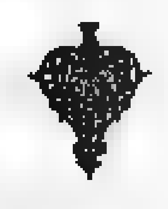
والكون لايصلح الا بمنهج الله، فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق، وهو الذي أوجد، وهو أدرى بصنعته وبما يفسدها وبما يصلحها، لأنه هو الصانع، ولايوجد من يعلم سر ما يصلح صنعته أكثر من صانعها

ونحن في المنهج الدنيوي إذا أردنا إصلاح شيء اتجهنا لصانعه؛ فهو الذي يستطيع أن يدلنا على الإصلاح الحقيقي لهذا الشيء، فإذا لم يكن صانعه موجودا في البلدة نفسها اتجهنا إلى من دربهم الصانع على الاصلاح، أو إلى مايسمونه «الكتالوج»

الذي يبين لنا طريق الاصلاح، وبدون هذا لا يصلح، بل يفسد، والعجيب أننا نتبع هذه الطريقة في حياتنا الدنيوية، ثم نأتي إلى الانسان والكون، فبدلاً من أن نتجه إلى صانعه وخالقه لنأخذ عنه منهج الاصلاح، وهو أدرى بصنعته، نتجه إلى خلق الله يضعون لنا المناهج التي تفسد، وظاهرها الاصلاح لكنها تزيد الأمور سوءا

والغريب أننا نسمي هذا فلاحا، ونسميه تقدما. ولكن لماذا لانتجه الى الصانع أو الخالق، الذي أوجد وخلق؟ هو سبحانه وتعالى أدرى بخلقه وبما يصلحهم وما يفسدهم.

ومادام الحق سبحانه وتعالى، قد حكم على المنافقين، بأنهم هم المفسدون فذلك حكم يقيني ، وكل من يحاول أن يعبر من منهج الله، أو يعطل تطبيقه بحجة الاصلاح، فهو مفسد وإن كان لايشعر بذلك، لأنه لو اراد اصلاحا لاتجه إلى ما يصلح الكون، وهو المنهج السماوي الذي أنزله خالق هذا الكون وصانعه، وهذا المنهج موجود وَمُبَلَّغٌ ولا يخفى على احد



﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

والسفهاء في قصد المنافقين هم الفقراء، ولكن ما معنى السفه في اللغة. السفه معناه الطيش والحمق والخفة في تناول الأمور. فهل ينطبق صفة السفه على المؤمنين، الذين آمنوا بالله، أو أنها تنطبق على أولئك الذين لم يؤمنوا بالله؟ إذا كنتم تعتقدون أن الذين آمنوا هم السفهاء فلماذا تدعون الايمان كذبا، لتكونوا سفهاء؟ لاشك ان هناك تناقضاً موجوداً في كل تصرفات المنافقين.

فالرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم للإيمان، والمسلمون يدعونهم للايمان، ولكنهم يصفون الذين آمنوا بأنهم سفهاء أي فقراء لا يملكون شيئا، لأن سادة قريش لم يؤمنوا. وهم يدعون أن الذين آمنوا، تصرفوا تصرف أحمق، طائش، ولكن الغفلة هي المرض الذي يملأ قلوبهم لايجعلهم يتنبهون إلى حقيقة مهمة، وهي أنهم يتظاهرون بالايمان، ويدعون الايمان ثم يصفون المؤمنين بالسفهاء، اذا كان هؤلاء سفهاء كما تدعون فهل تتظاهرون بالايمان لتصبحوا سفهاء مثلهم؟!

إن المنطق لا يستقيم ويدل على سماجة عقول المنافقين، لأن هذه العقول لم تتنبه إلى أنها حين وصفت المسلمين بالسفهاء، قد أدانت نفسها، لأن المنافقين يدعون أنهم مؤمنون، إذن فكل تصرفات المنافقين فيها تناقض. تناقض مع العقل والمنطق، هذا التناقض يأتي من تناقض ملكات النفس بعضها مع بعض. فاللسان يكذب القلب. والعمل يكذب العقيدة. والتظاهر بالايمان يحملهم مشقة الايمان ولايعطيهم شيئ من ثوابه. ولو كان لهم عقول، لتنبهوا الى هذا كله، ولكنهم لايشعرون وهم يمضون في هذا الطريق، طريق النفاق، إنهم يحسدون المؤمنين على ما هم فيه، فكل ما تحمله من حق واستخفاف، وعدم التنبه إلى الحقيقة، والرعونة التي يتصرفون بها. والله سبحانه وتعالى حين وصفهم بالسفهاء، كان وصفا دقيقا، لحالتهم وطريقة حياتهم.

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

وهكذا يرينا الحق سبحانه، أن كل منافق له أكثر من حياة يحرص عليها، والحياة لكي تستقيم يجب ان تكون حياة واحدة منسجمة بعضها مع بعض، ولكن انظر الى هؤلاء.. مع المؤمنين يقولون آمنا، ويتحدثون حياة الايمان ظاهرا، اى انهم يمثلون حياة الايمان، كما يقوم الممثل على المسرح بتمثيل دور شخصية غير شخصيته تماماً.. حياتهم كلها افتعال وتناقض، واذا بعدوا عن الذين آمنوا، يقول الحق تبارك وتعالى: «واذا خلوا الى شياطينهم».

وانظر الى دقة الأداء القرآني، الشيطان هو الدس الخفي، لحق ظاهر وواضح، اما منهج الشيطان وتآمره فيحدث فى الخفاء لأنه باطل والنفس لاتخجل من حق أبداً، ولكنها تخشى وتخاف وتحاول أن تخفى الباطل.

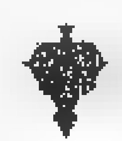
ولنضرب لذلك مثلا بسيطا، رجل يجلس مع زوجته فى منزله، وطرق الباب طارق، ماذا يحدث؟ يقوم الرجل بكل اطمئنان، ويفتح الباب ليرى من الطارق، فإن وجده صديقاً او قريبا أكرمه ورحب به واصر على ان يدخل ليضيفه وتقوم الزوجة بإعداد الطعام أو الشراب الذي سيقدم للضيف، نأخذ هذه الحالة نفسها إذا كان الانسان مع زوجة غيره فى شقته وطرق الباب طارق، يحدث ارتباك عنيف، ويبحث الرجل عن مكان يخفي فيه المرأة التي معه، أو يبحث عن باب خفى ليخرجها منه، او يحاول ان يطفىء الأنوار ويمنع الاصوات لعل الطارق يحس أنه لا يوجد أحد فى المكان فينصرف، وقبل ان يخرج تلك المرأة المحرمة عليه، فإنه يفتح الباب بحرص، وينظر يمينا ويسارا ليتأكد هل يراه احد، وعندما لا يجد احدا يسرع بدفع المرأة الى الخارج، لانها إثم يريد أن يتخلص منه، واذا نزل ليوصلها يمشى بعيدا عنها، ويظل يرقب الطريق، ليتأكد من أن احدا لم يره، وعندما يركبان السيارة ينطلقان بأقصى سرعة.

هذا هو الفرق بين منهج الايمان، ومنهج الشيطان، الحدث واحدة، ولكن الذى اختلف هو الحلال والحرام. انظر كيف يتصرف الناس فى الحلال . فى النور . . فى الامان، وكيف يتصرفون فى الحرام ومنهج الشيطان فى الظلام وفى الخفية ويحرصون على الا يراهم أحد، ومن هنا تأتى دقة التعبير القرآنى. «واذا خلوا إلى شياطينهم»

إن منهج الشيطان يحتاج إلى خلوة، اى مكان لايراك فيه احد، ولا يسمعك فيه أحد، لان العمل فى منهج الشيطان يكون فضيحة، ولذلك تجد غير المستقيم يحاول جاهدا ان يستر حركته فى عدم الاستقامة، ومحاولته ان يستتر هى شهادة منه بأن ما يفعله جريمة وقبح، ولايصح ان يعلمه احد عنه، ومادام لا يصح ان يراه أحد فى مكان ما، فاعلم انه يحس ان ما يفعله فى هذا المكان هو من عمل الشيطان الذى لايقره الله، ولايرضى عنه

ولابد أن نعلم ان القيم، هى القيم، حتى عند المنحرف، وقوله تعالى. «واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا» معناها أنهم عندما يتظاهرون بالايمان يأخذون جانب العلن، بل ربما فتملوه، وكان المعروض ان يكون المقابل عندما يخلون الى شياطينهم ان يقولوا: لم نؤمن.

وهناك فى اللغة جملة اسمية وجملة فعلية، الجملة الفعلية، تدل على التجدد، والجملة الاسمية تدل على الثبوت، فالمنافقون مع المؤمنين يقولون آمنا، ايمانهم غير ثابت، متقلب، وعندما يلقون الكافرين، لو قالوا لم نؤمن، لأخذت صفة الثبات، ولكنهم فى الفترة بين لقائهم بالمؤمنين، ولقائهم بالكافرين، الكفر متجدد، لذلك قالوا: «إنا معكم إنما نحن مستهزئون».



﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

ان هؤلاء المنافقين قوم لا حول لهم ولا قوة ، ولكن الله سبحانه وتعالى، وهو القادر القوى حين يستهزىء بهم يكون الاستهزاء أليما، وإذا كان المنافق، قد أظهر بلسانه ماليس فى قلبه، فإن الله سبحانه وتعالى يعامله بمثل فعله، فإذا كان له ظاهر وباطن، يعامله فى ظاهر الدنيا، معاملة المسلمين، وفى الآخرة يوم تبلى السرائر يجعله فى الدرك الأسفل من النار، لا يسويه بالكافر لأن ذنب المنافق أشد.

«الله يستهزىء بهم» والاستهزاء هو السخرية ، فهم يأتون يوم القيامة محاولين أن يتمسكوا بالظاهر، فيظهر الله سبحانه وتعالى لهم باطنهم . والحق سبحانه وتعالى يقول.

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الهمزة)

والهمزة هو الذى يسخر من الناس ولو بالاشارة . .

يرى انسانا مصابا بعاهة فى قدمه، يمشى وهو يعرج فيحاول ان يقلده بطريقة تثير السخرية، اما بالاشارة وإما بالكلام، وهناك همز وهمزه . . الهمز الاستهزاء والسخرية من الناس، علامة عدم الايمان، لانك كلنا مخلوقون من إله واحد. فهذه الصفة التى سخرت فيها من انسان اعرج مثلا، لا عمل له فيها، ولا حول له ولا قوة . . والانسان لم يصنع نفسه. والحقيقة أنك تسخر من صنع الله، والذى يسخر من خلق الله انسان غبى لانه سخر من خلق الله فى عيب، ولم يقدر ما تفضل الله به عليه، كما انه سخر من عيب ولم يفطن الى ان الحق سبحانه وتعالى قد اعطى ذلك

الانسان حصالا وميزات ربما لم يعطها له، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

ان مجموع كل انسان، يساوى مجموع كل انسان آخر، وذلك هو عدل الله، فإذا كنت احسن من انسان فى شيء، فابحث عن النقص فيك. فإن استهزأت بمؤمن فى شيء، فالاستهزاء غير منفصل عن صنعة الله، إذن فمن المنطق عندما قالوا: «انما نحن مستهزئون» أن يرد الله عليهم «الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون» اى يزيدهم فى هذا الطغيان، لان المد هو أن تزيد الشيء، ولكن مرة تزيد فى الشيء من ذاته، ومرة تزيد عليه من غيره، قد تأتى بخيط وتفرده إلى آخره، وقد تصله بخيط اخر، فتكون مدته من غيره، فالله يزيدهم فى طغيانهم.

وقوله تعالى «يعمهون» العمه يختلف عن العمى، والخلاف فى الحرف الاخير، العمى عمى البصر، والعمه عمى البصيرة، ويعمهون أى يتخبطون، لان العمه ينشأ عنه التخبط سواء التخبط الحسى، من عمى البصر، او التخبط فى القيم ومنهج الحياة من عمى البصيرة. والله تعالى يقول: «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور» فكأنما العمى المادى، قد لايكون، ولكن يكون هناك عمى البصيرة، واقرأ قوله تعالى

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾

(سورة طه)

فكأن عمى البصيرة فى الدنيا، يعمى بصر الانسان، عن رؤية آيات الله فى كونه، ويعميه عن الايمان والمنهج

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

يعطينا الحق سبحانه وتعالى صفة أخرى من صفات المنافقين، فيصفهم بأنهم الذين اشتروا الضلالة بالهدى. ومادام هناك شراء، فهناك صفقة، والصفقة، تتطلب مشتريا وبائعا، وقد كانت السلعة في الماضي تشترى بسلعة أخرى، اما الآن فإن كل شيء يشترى بالمال، ماذا اشتروا؟

ان هؤلاء المنافقين اشتروا الضلالة، واشتروها بأي ثمن ؟! . . اشتروها بالهدى ! الباء في اللغة تدخل على المتروك، عندما تشتري شيئا تترك ثمنه، إذن كان هؤلاء قد تركوا الهدى واشتروا الضلالة، ولكن هل كان معهم هدى ساعة الصفقة؟.

ان الحال يقتضي ان يكون معهم هدى، كأن يهتدي انسان ثم يجد أن الهدى لا يحقق له النفع الدنيوي الذي يطلبه فيتركه ليشتري به الضلال ليحقق به مايريد، والهدى الذي كان معهم، قد يكون هدى الفطرة ، فكأن هؤلاء كان يمكنهم ان يختاروا الهدى فاختاروا الضلالة

والله سبحانه وتعالى يهدي كل الناس، هدى دلالة، فمن اختار الهدى يرده . واقرأ قوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

وقول الحق وفما ربحت تجارتهم، التجارة بيع وشراء، الشاري مستهلك ، والبائع قد يكون منتجا، او وسيطا بين المنتج والمستهلك . ما حظ البائع من البيع والشراء؟ ان يكسب فاذا ماكسب فقد ربحت تجارته . واذا لم يكسب ولم يخسر، أو اذا خسر ولم يكسب، فهي الحالين لايحقق ربحا ، ونقول ما ربحت تجارته

فقوله تعالى «فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين» يدل على انهم خسروا كل شيء لانهم لم يربحوا، فكأنهم لم يحققوا شيئا له فائدة، وخسروا الهدى، اى خسروا الربح ورأس المال. ماربحت تجارتهم ربما يكونون لم يكسبوا ولم يخسروا، ولكن هم قدموا الهدى ثمنا للضلال فلم يربحوا وضاع منهم الهدى، اى رأس مالهم..

ونفسية المنافق اذا اردت ان تحددها، فهو انسان بلا كرامة، بلا رجولة لايستطيع المواجهة، بلا قوة، يحاول ان يمكر فى الخفاء، ولذلك تكون صورته حقيرة امام نفسه، حتى لو استطاع ان يخفى عيوبه عن الناس، فيكفى انه كاذب أمام نفسه لتكون صورته حقيرة امام نفسه، وفى ذلك يقول الشاعر:

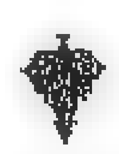
اذا انا لم آت الدنية خشية

من الناس كان الناس اكرم من نفسى

كفى المرء عارا ان يرى عيب نفسه

وان كان فى كُنٍّ عن الجن والانس

فالمهم رأيك فى نفسك.. والتمزق الذى عند المنافق انه يريد ان يخفى عيوبه عن الناس.



﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

يريد الحق سبحانه وتعالى ان يقرب صفات التمزق في المنافقين الى فهمنا، ولذلك فهو يضرب لنا الامثال، والامثال جمع مثل وهو الشبيه الذي يقرب لنا المعنى ويعطينا الحكمة ، والأمثال باب من الابواب العريقة في الادب العربي .

فالمثل ان تأتي بالشيء الذي حدث وقيل فيه قوله موجزة ومعبرة، وأى الناس ان يأخذوا هذه المقولة لكل حالة مشابهة .

ولنضرب مثلا لذلك، ملك من الملوك، اراد ان يخطب فتاة من فتيات العرب، فأرسل خاطبة اسمها عصام لترى هذه العروس وتسأل عنها وتخبره، فلما عادت قال لها ماوراءك ياعصام ؟ اى ماذا جئت من اخبار، قالت: له ابدى المخض عن الزبد. المخض هو ان تأتي باللبن الحليب وتخضه في القربة حتى ينفصل الزبد عن اللبن، فصار الاثنان - السؤال والجواب - يضربان مثلا. تأتي لمن يجيئك تنتظر منه اخبارا فتقول له: ماوراءك ياعصام.

ولايكون اسمه «عصام» . .ولم ترسله لاستطلاع اخبار، بينما تريد ان تسمع ماعنده من اخبار .

وحينما تريد مثلا - لأن تصور تنافر القلوب . . وكيف أنها اذا تنافرت لا تلتئم أبدا . . ويريد الشاعر أن يقرب هذا المعنى فيقول :

ان القلوب اذا تنافر ودها
مثل الزجاجة كسرها لا يشعب (أى لا يجبر)

وساعة تنكسر الزجاجة لا تستطيع اصلاحها .. ولكن يسهل هذا المعنى عليك وتفهمه فى يسر وسهولة .. فإنك لا تستطيع أن تصور أو تشاهد معركة بين قلبين لأن هذه مسألة غيبية .. فتأتى بشىء مشاهد وتضرب به المثل . وبذلك يكون المعنى قد قرب . لأنك شبهته بشىء محسوس . تستطيع أن تفهمه وتشهده ..

ولقد استخدم الله سبحانه وتعالى الأمثال فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع . ليقرب من أذهاننا معنى الغيبيات التى لا نعرفها ولا نشاهدها .. ولذلك ضرب لنا الأمثال فى قمة الايمان . وحدانية الله سبحانه وتعالى وضرب لنا المثل بنوره جل جلاله . الذى لا نشهده وهو غيب عنا .. وضرب لنا الأمثال بالنسبة للكفار والمنافقين . لنعرف فساد عقيدتهم ونتنبه لها . وضرب لنا الأمثال فيما يمكن أن يفعله الكفر بالنعمة . والطغيان فى الحق . وغير ذلك من الأمثال . قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

وقد ضرب الله جل جلاله لنا الأمثال فى الدنيا وفى الآخرة . وفى دقة الخلق .. وقمة الإيمان . ومع ذلك فإن الناس منصرفون عن حكمة هذه الأمثال . كافرون بها . مع أن الحق تبارك وتعالى . ضربها لنا ليقرب لنا المعنى .. تشبيها بماديات نراها فى حياتنا الدنيا .. وكان المفروض ان تزيد هذه الأمثال الناس ايمانا .. لأنها تقرب لهم معانى غائبة عنهم . ولكنهم بدلا من ذلك ازدادوا كفرا !!

ولابد قبل أن نتعرض للآية الكريمة : « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » . أن نتحدث عن بعض الأمثال التى ضربت فى القرآن الكريم . لنرى كيف أن الله سبحانه وتعالى حدثنا عن قضايا غيبية بمحسات دنيوية .

ضرب الله تبارك وتعالى لنا مثلا بالقمة الايمانية . وهى انه لا إله إلا الله . وكيف أن هذه رحمة من الله سبحانه وتعالى . يجب أن نسجد له شكرا عليها . لأن فيها وقاية لنا من شقاء .. ومع ذلك فإن الله تبارك وتعالى يريد بعباده الرحمة .

ولكن بعض الناس يريد أن يشقى نفسه فيشرك بالله جل جلاله .. وبدلا من أن يأخذ طريق الايمان الميسر .. يأخذ طريق الكفر والنفاق والشرك بالله الذى يملك كل شىء فى الدنيا والآخرة .. يقول الحق جل جلاله :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

بهذه الصورة المحسة التى نراها .. ولا يختلف فيها اثنان .. يريد الله تبارك وتعالى أن يقرب إلى أذهاننا صورة العابد لله وحده ، وصورة المشرك بالله .. ويعطينا المثل فى عبد مملوك لشركاء .. رجل مملوك لعشرة مثلا .. وليس هؤلاء الشركاء العشرة متفقين . بل هم متشاكسون أى أنهم مختلفون .. ورجل آخر مملوك لسيد واحد .. أيهما يكون مستريحا يعيش فى رحمة ؟ . طبعا المملوك لسيد واحد فى نعمة ورحمة .. لأنه يتبع أمرا واحدا ونهيا واحدا . ويطيع ربا واحدا . ويطلب رضا سيد واحد . أما ذلك الذى يملكه شركاء حتى لو كانوا متفقين .. فسيكون لكل واحد منهم أمر ونهى .. ولكل واحد منهم طلب .. فما بالك اذا كانوا مختلفين ؟ أحد الشركاء يقول له تعال .. والآخر يقول له لا تأت ، وأحد الشركاء يأمره بأمر ، والآخر يأمره بأمر مناقض ويحتار أيهما يرضى وأيهما يغضب ؟ .. وهكذا تكون حياته شقاء وتناقضا .

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقرب لنا الصورة .. فى قضية هى قمة اليقين .. وهى الايمان بالواحد الأحد .. يريدنا أن نلمس هذه الصورة .. بمثل نراه ونشهده .. وأن نرى فيض الله برحمته على عباده .. ويمضى الحق سبحانه لينبهنا إلى أن نفكر قليلا فى مثل يضربه لنا فى القرآن الكريم .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

فالحق تبرك وتعالى فى هذه الآية الكريمة .. يطلب منا أن نفكر فى مثل مادى محسوس .. أيهما خير ؟ .. أذلك الصنم الذى يعبده الكفار وهو لا يأتى لهم بخير أبدا . لأنه لا يستطيع ان ينفع نفسه فكيف يأتى بالخير لغيره .. بل هو عبء على من يتخذونه إلها .. فإنهم يجب ان يضعوه وأن يحملوه من مكان إلى آخر اذا أرادوا تغيير المعبد أو الرحيل .. واذا سقط فتهشمت اجزاء منه .. فإنه يجب أن يصلحوها .

اذن فزيادة على انه لا يأتى لهم بخير . فإنه عبء عليهم يكلفهم مشقة ويحتاج منهم الى عناية ورعاية ..

أعبادة مثل هذا الصنم خير ؟ أم عبادة الله سبحانه الذى منه كل الخير وكل النعم والذى يأمر بالعدل .. فلا يفضل أحدا من عباده على أحد .. والذى يعطى لعباده الصراط المستقيم الذى لا اعوجاج فيه .. والموصل الى الجنة فى الآخرة . ان الله سبحانه وتعالى يشرح بهذا المثل عباء فكر المشركين الذين يعبدون الأصنام ويتركون عبادة الله تبارك وتعالى

وهكذا يعطينا هذان المثلان توضيحا لقضية الوحدانية والالوهيه .. ثم يأتى الله سبحانه وتعالى بمثل آخر .. يضرب لنا مثلا لنوره . هذا النور الإلهى الذى يضىء الدنيا والآخرة .. فيضىء القلوب المؤمنة .. إنه يريد أن يضرب لنا مثلا لهذا النور بشىء مادى حسى .. فيقول جل جلاله .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾

(سورة النور)

كأن الله سبحانه وتعالى .. يريدنا أن نعرف بتشبيه محس .. أن مثل نوره كمشكاة .. والمشكاة هي (الطاقة) .. وهي فجوة في الحائط بالبيت الريفي .. ونحن نضع المصباح في هذه الطاقة .. اذن المصباح ليس في الحجرة كلها .. ولكن نوره مركز في هذه الطاقة فيكون قويا في هذا الحيز الضيق .. ولكن المصباح في زجاجة .. تحفظه من الهواء من كل جانب .. فيكون الضوء أقوى .. صافيا لا دخان فيه .. كما أن الزجاج يعكس الأشعة فيزيد تركيزه .. والزجاجة غير عادية ولكنها « كوكب درى » .. أى هى مضيئة بذاتها وكأنها كوكب . ووقودها من شجرة مباركة يملؤها النور لا شرقية ولا غربية . أى يملؤها النور من الوسط ويخرج صافيا .. والزيت مضيء بذاته دون أن تمسه النار .. فهي نور على نور .. أيكون جزء من هذه المشكاة ذات المساحة الصغيرة مظلما ؟ .. أم تكون كلها مليئة بالنور القوى ؟ .

وهذا ليس نور الله تبارك وتعالى عن التشبيه والوصف ، ولكنه مثل فقط لتقريب إلى الأذهان .. فكأن نور الله يضيء كل ركن وكل بقعة .. ولا يترك مكانا مظلما .. فهو نور على نور ..

ولقد أراد أحد الشعراء[1] أن يمدح الخليفة[2] وكانت العادة أن يشبه الخليفة .. بالأشخاص البارزين ذوى الصفات الحسنه .. فقال :

إقدام عمرو في سماحة حاتم
في حلم أحنف في ذكاء إياس

وكل هؤلاء الذين ضرب بهم الشاعر المثل كانوا مشهورين بهذه الصفات .. فعمرو كان مشهورا بالاقدام والشجاعة .. وحاتم كان مشهورا بالسماحة . وأحنف يضرب به المثل في الحلم . وإياس شعلة في الذكاء .. وهنا قام أحد الحاضرين[3] وقال : الأمير أكبر في كل شيء عن شبهته بهم .. فقال أبوتمام على الفور :

لا تنكروا ضربى له من دونه
مثلا شرودا في الندى والباس

(١) هو أبو تمام
(٢) هو احمد بن المعتصم
(٣) هو يعقوب بن اسحاق الكندى .

فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس (1)

فأعجب أحمد بن المعتصم والحاضرون من ذكائه وأمر بأن تضاعف جائزته .
والله سبحانه وتعالى .. يضرب لنا المثل بما سيشهده المؤمنون في الجنة .. فيقول جل جلاله

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾

(من الآية ١٥ سورة محمد)

هذه ليست الجنة .. ولكن هذا مثل يقرب الله سبحانه وتعالى لنا به الصورة بأشياء موجودة في حياتنا .. لأنه لا يمكن لعقول البشر أن تستوعب أكثر من هذا .
والجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. ومن هنا فإنه لا توجد أسماء في الحياة تعبر عما في الجنة .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة السجدة)

وإذا كانت النفس لا تعلم .. فلا توجد ألفاظ تعبر عما يوجد في الجنة .. والمثل متى شاع استعماله بين الناس سمي مثلا .. فأنت إذا رأيت شخصا مغترا بقوته .. وتريد أن تفهمه أنك أقوى منه تقول له .. إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا ولا توجد ريح ولا إعصار فيما يحدث بينكما .. وإنما المراد المعنى دون التقيد بمدلول الألفاظ

والحق سبحانه وتعالى .. يريد أن يعطينا صورة .. عما في داخل قلوب المنافقين .. من اضطراب وذبذبة وتردد في استقبال منهج الله .. وفي الوقت نفسه

(1) من ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي

ما يجرى فى القلوب غيب عنا . . وأراد الله أن يقرب هذا المعنى إلينا . . فقال : «مثلهم كمثل الذى استوقد نارا» . . أى حاول أن يوقد نارا . . والذى يحاول أن يوقد نارا . . لابد أن له هدفا . . والهدف قد يكون الدفء وقد يكون الطهى . . وقد يكون الضوء وقد يكون غير ذلك . . المهم أن يكون هناك هدف لإيقاد النار .

يقول الحق سبحانه وتعالى : «فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون» ذلك أنهم فى الحيرة التى تملأ قلوبهم كانوا قد سمعوا من اليهود أن زمن نبى جديد قد أتى . فقرروا أن يؤمنوا به . . ولكن إيمانهم لم يكن عن رغبة فى الإيمان . . ولكنه كان عن محاولة للحصول على أمان دنيوى لأن اليهود كانوا يتوعدونهم ويقولون أن زمن نبى سنؤمن به ونقتلكم به قتل عاد وإرم . . فأراد هؤلاء المنافقون أن يتقوا هذا القتل الذى يتوعدهم به اليهود . فتصوروا أنهم لما أعلنوا أنهم آمنوا بهذا النبى نفاقا أن يحصلوا على الأمن . .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة . . أنهم أوقدوا هذه النار . . لتعطيهم نورا يريهم طريق الإيمان . وعندما جاء هذا النور بدلا من أن يأخذوا نور الإيمان انصرفوا عنه . وعندما حدث ذلك ذهب الله بنورهم . . فلم يبق فى قلوبهم شىء من نور الإيمان . . فهم الذين طلبوا نور الإيمان أولا . . فلما استجاب الله لهم انصرفوا عنه . . فكأن الفساد فى ذاتهم . وكأنهم هم الذين بدأوا بالفساد . . وساعة فعلوا ذلك ذهب الله بنور الإيمان من قلوبهم .

ونلاحظ هنا دقة التعبير القرآنى . . فى قوله تعالى : «ذهب الله بنورهم» ولم يقل ذهب الله بضوئهم . . مع أنهم أوقدوا النار ليحصلوا على الضوء . فما هو الفرق بين الضوء والنور؟ إذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾

(من الآية ٥ سورة يونس)

نجد أن الضوء أقوى من النور . . والضوء لا يأتى إلا من إشعاع ذاتى . . فالشمس ذاتية الإضاءة . . ولكن القمر يستقبل الضوء ويعكس النور . . وقبل أن

تشرق الشمس تجد في الكون نورا .. ولكن الضوء يأتي بعد شروق الشمس .. فلو أن الحق تبارك وتعالى قال ذهب الله بضوئهم .. لكان المعنى انه سبحانه ذهب بما يعكس النور .. ولكنه أبقى لهم النور .. ولكن قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » .. معناها أنه لم يبق لهم ضوءا ولا نورا .. فكأن قلوبهم يملؤها الظلام .. ولذلك قال الله بعدها : « وتركهم في ظلمات لا يبصرون » .. لنعلم انه لا يوجد في قلوبهم أي نور ولا ضوء ايماني .. كل هذا حدث بطلبهم هم وانصرافهم عن نور الله

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى .. لم يقل وتركهم في ظلام .. بل قال : « في ظلمات » .. أي انها ظلمات متراكمة .. ظلمات مركبة لا يستطيعون الخروج منها أبدا ..

من أين جاءت هذه الظلمات ؟ .. جاءت لأنهم طلبوا الدنيا ولم يطلبوا الآخرة وعندما جاءهم نور الايمان انصرفوا عنه فصرف الله قلوبهم .

مثلا اذا أخذنا قصة زعيم المنافقين عبدالله بن أُبيّ ، نرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المدينة واهلها يستعدون لتتويج عبدالله بن ابي ملكا عليها .. وعندما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف الناس عن عبدالله بن أبي الى استقبال الرسول عليه الصلاة والسلام .. فوصول الرسول عليه الصلاة والسلام ضيع على عبدالله بن أبي المُلك .. ولقد كان من الممكن أن يؤمن .. وأن يلتمس النور من رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولو آمن حينئذ ربما أعطي في الآخرة ملكا دائما .. يفوق الملك الذي كان سيحصل عليه في الدنيا .. ولكن لأن في قلبه الدنيا وليس الدين .. ولأنه يريد رفعة في الدنيا .. ولا يريد جنة في الآخرة ، فقد ملأ الحقد قلبه فكان ظلمة .. وملأ الحسد قلبه فكان ظلمة .. وملأت الحسرة قلبه فكانت ظلمة .. وملأت الكراهية والبغضاء قلبه فكانت ظلمة .. اذن هي ظلمات متعددة ..

وهكذا في قلب كل منافق ظلمات متعددة .. ظلمة الحقد على المؤمنين وظلمة الكراهية لهم .. وظلمة تمني هزيمة الايمان .. وظلمة تمني أن يصيبهم سوء وشر وظلمة التمزق والألم من الجهد الذي يبذله للتظاهر بالايمان وفي قلوبهم الكفر .. كل

هذه ظلمات .. ولكن لا تحاول ان تأخذها بمقاييس عقلك .. والمفروض أن المثل هنا لتقريب المعنى .. لأنك اذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

كيف يكون الحجاب مستورا ؟ .. مع أن الحجاب هو الساتر الذى يستر شيئا عن شيء .. ولكن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم . انه برغم أن الحجاب يستر شيئا عن شيء ، فإن الحجاب نفسه مستور لا نراه .. وبعض العلماء يقولون : إن مستورا اسم مفعول . وهو فى معنى اسم الفاعل ساتر .. نقول لا .. واقرأ قوله تبارك وتعالى .

﴿ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة مريم)

مأتيا اسم مفعول واسم الفاعل آتى .. ويقول البعض وضع اسم المفعول مكان اسم الفاعل .. نقول لك لم تفهم . هل وعد الله يلح فى طلب العبد . أم أن العبد يلح فى طلبه بعمله فكأنه داهب إليه .. والموعود هو المستفيد وليس الوعد ..

اذن من دقة القرآن الكريم . انه يريد أن ينبهنا إلى ان الموعود هو الذى يسعى للقاء الوعد .. وليس الوعد هو الذى يطلب لقاء الموعود فيستخدم اسم الفاعل .
فحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » .. نفى النور عنهم .. والنور لا علاقة له بالسمع ولا بالشم ولا باللمس .. ولكنه قانون البصر ..

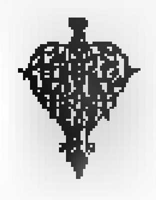
وانظر إلى دقة التعبير القرآنى .. اذا امتنع النور امتنع البصر .. أى ان العين لا تبصر بذاتها .. ولكنها تبصر بانعكاس النور على الاشياء ثم انعكاسه على العين ..

واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾

(من الآية ١٢ سورة الإسراء)

فكأن الذى يجعل العين تبصر هو الضوء أو النور .. فإذا ضاع النور ضاع الابصار .. ولذلك فأنت لا تبصر الأشياء فى الظلام .. وهذه معجزة قرآنية اكتشفها العلم بعد نزول القرآن .



﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨ ﴾

فالحق سبحانه وتعالى .. بعد أن أخبرنا أنه يظلم هؤلاء المنافقين لأنفسهم .. ذهب بنور الايمان من قلوبهم فهم لايبصرون آيات الله .. أراد أن يلفتنا الى أنه ليس البصر وحده هو الذى ذهب . ولكن كل حواسهم تعطلت فالسمع تعطل فهم صم . والنطق تعطل فهم بكم .. والبصر تعطل فهم عمى .. وهذه هى آلات الادراك فى الانسان .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

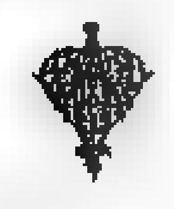
﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨ ﴾

(سورة النحل)

إذن كونهم فى ظلمات لايبصرون معناها أنها قد تعطلت وسائل الإدراك الأخرى ، فآذانهم صمت فهى لاتسمع منهج الحق ، وألسنتهم تعطلت عن نقل ما فى قلوبهم وأبصارهم لاترى آيات الله فى الكون إذن فآلات إدراكهم لهدى الله معطلة عندهم ..

وقوله تعالى : « فهم لايرجعون » أى لن تعود اليهم هذه الوسائل ليدركوا نور الله فى كونه .. الادراك غير موجود عندهم .. ولذلك فلا تطمعوا أن يرجعوا الى منهج الايمان أبدا .. لقد فسدت فى قلوبهم العقيدة .. فلم يفرقوا بين ضر عاجل وما هو نفع آجل .. نور الهداية كان سيجعلهم يبصرون الطريق الى الله .. حتى يسيروا على بينة ولا يتعثروا .. ولكنهم حينما جاءهم النور رفضوه وانصرفوا عنه .. فكأنهم انصرفوا عن كل مايهديهم الى طريق الله !!.

فالله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة .. أعطانا وصفا آخر من صفات المنافقين هو أن ادوات الادراك التى خلقها الله جل جلاله معطلة عندهم .. ولذلك فان الاصرار على هدايتهم وبذل الجهد معهم لن يأتى بنتيجة . لأن الله تبارك وتعالى بنفاقهم وظلمهم عطل وسائل الهداية التى كان من الممكن أن يعودوا بها الى طريق الحق .



﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ١٩ ﴾

وقول الحق سبحانه وتعالى : « أو كصيب من السماء » .. الصيب هو المطر .. والله تبارك وتعالى ينزل الماء فتقوم به الحياة .. مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنبياء)

ومن البديهى أننا نعرف أن إنزال المطر .. هو من قدرة الله سبحانه وتعالى وحده .. ذلك أن عملية المطر فيها خلق بحساب .. وفيها عمليات تتم كل يوم بحساب أيضا .. وفيها عوامل لايقدر عليها الا الله سبحانه وتعالى .. فمسألة المطر أعدت الأرض لها حين الخلق فكانت ثلاثة ارباع الارض من الماء والربع من اليابسة لماذا ؟ من حِكَم الله فى هذا الخلق ان تكون عملية البخر سهلة وممكنة . ذلك أنه كلما اتسع سطح الماء يكون البخر أسهل .. واذا ضاق السطح تكون عملية ابحر أصعب .. فاذا جئنا بكوب مملوء بالماء ووضعناه فى حجرة مفلقة يوما . ثم عدنا اليه نجد أن حجم الماء نقص بمقدار سنتيمتر أو اقل .. فاذا أخذنا الماء الذى فى هذا الكوب وفلطحناه فى الحجرة .. فإنه يختفى فى فترة قصيرة .. لماذا ؟ .. ؛ لأن سطح الماء اصبح واسعا فتمت عملية البحر بسرعة

والله سبحانه وتعالى حين خلق الارض .. وضع فى الخلق حكمة المطر فى أن تكون مساحة الماء واسعة لتتم عملية البحر بسهولة .. وجعل أشعة الشمس هى التى تقوم بعملية البخر من سطح الماء . وتم ذلك بحساب دقيق .. حتى لاتغرق الامطار الأرض أو يحدث فيها جفاف .. ثم سخر الريح لتدفع السحاب الى حيث يريد الله أن ينزل المطر .. وقمم الجبال البارده ليصطدم بها السحاب فينزل

المطر .. كل هذا بحساب دقيق في الخلق وفي كل مراحل المطر ..

ومادام الماء هو الذي به الحياة على الأرض فقد ضرب الله لنا به المثل كما ضرب لنا المثل بالنار وضوئها .. فكلها أمثلة مادية لتقرب الى عقولنا ما هو غيب عنا .. فالماء يعطينا الحياة ..

لكن هؤلاء المنافقين . لم يلتفتوا الى هذا الخير . الذي ينزل عليهم من السماء من غير تعب او جهد منهم . بل التفتوا الى أشياء ثانوية ، كان من المفروض ان يرحبوا بها لانها مقدمات خير لهم . فالمطر قبل أن ينزل من السماء لابد ان يكون هناك شيء من الظلمة في السحاب الذي يأتي بالمطر فيحجب أشعة الشمس ان كنا نهارا . ويحجب نور القمر والنجوم ان كنا ليلا . هذه الظلمة مقدمات الخير والماء .

انهم لم يلتفتوا الى الخير الذي ملأ الله به سبحانه وتعالى الارض بل التفتوا الى الظلمة فنفروا من الخير . كذلك صوت الرعد ونور البرق فالرعد يستقبله الانسان بالأذن وهي آلة السمع . والبرق تستقبله العين . وصوت الرعد قوي ، أقوى من طاقة الأذن . ولذلك عندما يسمعه الانسان يفزع ، ويحاول ان يمنع استقبال الأذن له ، بأن يضع أنامله في اذنيه

وهؤلاء المنافقون لم يضعوا الأنامل ولكن كما قال الله سبحانه وتعالى : « يجعلون أصابعهم في آذانهم » ولم يقل أناملهم . وذلك مبالغة في تصوير تأثير الرعد عليهم . فكأنهم من خوفهم وذعرهم يحاول كل واحد منهم أن يدخل كل اصبعه في اذنه . ليحميه من هذا الصوت المخيف فكأنهم يبالغون في خوفهم من الرعد .

ونلاحظ هنا أن الحديث ليس عن فرد واحد ، ولكن عن كثيرين لأنه سبحانه وتعالى يقول « أصابعهم » نقول ان الأمر للجماعة يعني أمرا لكل فرد فيها ، فاذا قال المدرس للتلاميذ اخرجوا أقلامكم ، فمعنى ذلك ان كل تلميذ يخرج قلمه واذا قال رئيس الجماعة اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك أن كل واحد يركب سيارته .. لذلك فان معنى « يجعلون أصابعهم في آذانهم » ان كل واحد منهم يضع اصبعيه في اذنيه .

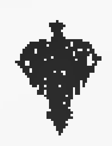
لماذا يفعلون ذلك ؟! انهم يفعلونه خوفا من الموت . لان الرعد والبرق يصاحبهما الصواعق احيانا . ولذلك فانهم من مبالغتهم في الخوف يحس كل واحد منهم ان

صاعقة ستقتله . فكأنهم يستقبلون نعمة الله سبحانه وتعالى بغير حقيقتها هم لايرون النعمة الحقيقية في ان هذا المطر يأتي لهم بعوامل استمرار الحياة ولكنهم يأخذون الظاهر في البرق والرعد . وكذلك المنافقون لايستطيع الواحد منهم ان يصبر على شهوات نفسه ونزواتها ، انه يريد ذلك العاجل ولاينظر الى الخير الحقيقي لدى وعد الله به عباده المؤمنين في الآخرة . . وهو ينظر الى التكاليف كأنها شدة ومسألة تحمل النفس بعض المشاق . ويغفل عن حقيقة جزاء التكاليف في الآخرة ، وكيف انها ستوفر لهم النعيم الدائم تماما كما ينظر الانسان الى المطر على أنه ظلمة ورعد وبرق ، وينسى انه بدون هذا المطر من المستحيل ان تستمر حياته

هم يأخذون هذه الظواهر على أنها كل شيء بينما هي في الحقيقة تأتي لوقت قصير وتختفي ، فهي قصيرة كالحياة الدنيا ، وقتية . ويكون نظرهم اليها وقتية ومادية لانهم لايؤمنون الا بالدنيا وغفلوا عن الآخرة . عميوا عن ذلك الماء الذي يبقى فترة طويلة ، وتنبهوا الى تلك الظواهر الوقتية التي تأتي مع المطر فخافوا منه وكان خوفهم منها يجعلهم لايحسون بما في المطر من خير والمنافقون يريدون ان يأخذوا خير الاسلام دون ان يقوموا بواجبات هذا الدين !!

ثم يلفت الحق سبحانه وتعالى الى قضية مهمة . وهي ان خوفهم من زوال متع الدنيا ومفرداتها لن يفعل لهم شيئا لان الله محيط بالكافرين . والاحاطة معناها السيطرة التامة على الشيء بحيث لايكون امامه وسيلة للافلات ، وقدرة الله سبحانه وتعالى محيطة بالكافرين وغير الكافرين . .

اذن عدم التفاتهم للنفع الحقيقي ، وهو منهج الله ؛ لايعطيهم قدرة للافلات من قدرة الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة .



﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾

ان الله سبحانه وتعالى يريد ان يلفتنا الى أن البرق الذى هو وقتى وزمنه قليل ، هو الذى يسترعى انتباههم. ولو آمنوا لأضاء نور الايمان والاسلام طريقهم . ولكن قلوبهم مملوءة بظلمات الكفر فلايرون طريق النور . . والبرق يخطف أبصارهم ، أى يأخذها دون ارادتهم . فالخطف يعنى أن الذى يخطف لاينتظر الاذن ، والذى يتم الخطف منه لايملك القدرة على منع الخاطف . والخطف غير الغصب . فالغصب ان تأخذ الشىء برغم صاحبه .

ولكن . . ما الفرق بين الأخذ والخطف والغصب ؟ الأخذ ان تطلب الشىء من صاحبه فيعطيه لك او تستأذنه . اى تأخذ الشىء بإذن صاحبه والخطف أن تأخذه دون ارادة صاحبه ودون ان يستطيع منعك

والغصب أن تأخذ الشىء رغم ارادة صاحبه باستخدام القوة أو غير ذلك بحيث يصبح عاجزا عن منعك من أخذ هذا الشىء .

ولنضرب لذلك مثلا ولله المثل الأعلى . اذا دخل طفل عن محل للحلوى وخطف قطعة منها ، يكون صاحب المحل لاقدرة له على الخاطف لأن الحدث فوق قدرات المخطوف منه ، فهو بعيد وغير متوقع للشىء ، فلا يستطيع منع الخطف . . أما الغصب فهو ان يكون صاحب المحل منتبه ولكنه لايملك القدرة على منع مايحدث ، واذا حاول أن يقاوم فإن الذى سيأخذ الشىء بالرغم عنه لابد ان يكون أقوى منه . أى أن قوة الْمُغتصِب ، تكون اقوى من الْمُغتصَب منه

وقوله تعالى : « يكاد البرق يخطف ابصارهم » .

لابد ان ننتبه الى قوله تعالى « يكاد » اى يكاد او يقترب البرق من ان يخطف

ابصارهم . وليس للانسان القدرة أن يمنع هذا البرق من أن يأخذ انتباه البصر .

وقوله تعالى « كلما اضاء لهم مشوا فيه » .

أى انهم يمشون على قدر النور المنيرى . الذى يعطيه لهم البرق . فلا نور فى قلوبهم . ولذلك اذا أظلم عليهم توقفوا ، لانه لانور لهم .

وقوله تعالى « ولوشاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » .

يدعى بعض المستشرقين ان ذلك يتعارض مع الاية الكريمة التى تقول « صم بكم عمى فهم لايرجعون » كيف يكونون صم بكم عميا . . أى أن منافذ الادارك عندهم لاتعمل ، ونحن هنا نتحدث عن العمى الايمانى ، ثم يقول تبارك وتعالى « ولوشاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم » مع انهم صم وبكم وعمى ؟ . .

نقول ان قول الحق سبحانه وتعالى : « صم بكم عمى » أى لايرون أيات الله ويقين الايمان ، ولايسمعون آيات القرآن ويعقلونها . . اذن فوسائل ادراكهم للمعنويات تتعطل . ولكن وسائل ادراكهم بالنسبة للمحسات تبقى كما هى . فالمنافق الذى لايؤمن بيوم القيامة ، لايرى ذلك العذاب الذى ينتظره فى الأخرة

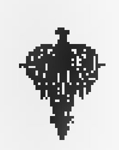
ولو شاء الله سبحانه وتعالى ان يذهب بسمعهم وأبصارهم . بالنسبة للاشياء المحسة . لاستطاع لانه قدير على كل شىء ، ولكنه سبحانه وتعالى لم يشأ ذلك . حتى لايأتوا مجادلين فى الأخرة ، من انهم لو كان لهم بصر لرأوا آيات الله . ولو كان لهم سمع لتدبروا القرآن . فأبقى الله لهم أبصارهم واسماعهم . لتكون حجة عليهم ، بأن لهم بصرا ولكنهم انصرفوا عن آيات الله الى الاشياء التى تأتيهم بفائدة عاجلة فى الدنيا مهما جاءت بغضب الله . وأن لهم سمعا يسمعون به كل شىء من حفظ المؤامرات على الاسلام . وضرب الايمان وغير ذلك . فاذا تليت عليهم آيات الله فانهم لايسمعوها . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾

(من الآية ١٦ سورة محمد)

اى انهم يسمعون ولايعقلون ولايدخل النور الى قلوبهم ، فكانهم صم عن آيات الله لايسمعونها.

والحق سبحانه وتعالى يريد ان يعطينا مثل المنافقين بأنهم لايلتفتون الى القيم الحقيقية فى الحياة ولكنهم يأخذون ظاهرها فقط يريدون النفع العاجل ، وظلمات قلوبهم . لاتجعلهم يرون نور الايمان وانما يبهرهم بريق الدنيا مع انه زائل ووقتى . فيخطف أبصارهم ولانه لانور فى قلوبهم، فاذا ذهبت عنهم الدنيا ، تحيط بهم الظلمات من كل مكان لانهم لايؤمنون بالآخرة . مع أن الله سبحانه وتعالى لوشاء لذهب بسمعهم وأبصارهم ، لأنهم لايستخدمونها الاستخدام الايمانى المطلوب والمفروض ان وسائل الادراك هذه . تزيدنا ايمانا . ولكن هؤلاء لايرون الا متاع الدنيا ولايسمعون الا وسوسة الشيطان ، فالمهمة الايمانية لوسائل الادراك توقفت ، وكأن هذه الوسائل غير موجودة .



﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

بعد أن حدثنا الله سبحانه وتعالى عن صفات المنافقين فى ثلاث عشرة آية وعطانا أوصافهم الظاهرة . وأعطانا أمثلة لما يحدث فى قلوبهم كى يعرفهم المؤمنون ظاهرا وباطنا . ويحذروهم ولا يأمنوا لهم . بين لنا كيف أن المنافقين لم يكفروا بالله كإله فقط . ويستتروا وجوده ، ولكن كفروا به كرب . والرب عطاؤه مكفول لكل من خلق مؤمنهم وكافرهم ، فهو سبحانه وتعالى الذى استدعاهم للوجود وخلقهم . ولذلك فانه سبحانه يضمن لهم رزقهم وحياتهم .

والله سبحانه وتعالى لايحرم خلقا من خلقه من عطاء ربوبيته فى الدنيا . فالشمس تشرق على المؤمن والكافر . والمطر ينزل على من قال لا اله الا الله ومن سخر وجوده تعالى : والهواء يتنفس به ذلك الذى يقيم الصلاة والذى لم يركع ركعة فى حياته . . والطعام يأكله الذى يحب الله والذى يكفر بنعم الله . . ذلك أن هذه عطاءات ربوبية يعطيها الله تعالى لكل خلقه فى الدنيا . .

اما عطاءات الألوهية ، فهى للمؤمنين فى الدنيا والآخرة .

فالله سبحانه وتعالى يلفت انتباه خلقه الى أن عطاء الربوبية من الله سبحانه وتعالى لهم يكفى ليؤمنوا بالله ويعبدوه

والحق سبحانه وتعالى حينما يخاطب الناس فى القرآن الكريم ، فذلك الكتاب الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلابد أن يكون الخطاب للناس فى كل زمان ومكان . منذ نزول القرآن الكريم الى يوم القيامة .

وخطاب الله سبحانه وتعالى خاص بقضية الإيمان فى القمة ، وهى الخضوع لإله واحد لا شريك له .

وقوله تعالى : « الذى خلقكم والذين من قبلكم » معناه أن من مقتضيات العبادة أن الله هو خالق الناس جميعا . وليس فى قضية الخلق كما قلنا شبهة ، لأنه لا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق نفسه ، أو خلق هذا الكون ، بل إن الحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحترم السببية المباشرة فى وجودنا ، فالأب والأم هما سبب فى وجود الإنسان . فنجد الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

وهكذا نرى أن الحق قد احترم السببية فى الموجد ، مع أنه سبحانه وتعالى الموجد الذى خلق كل شىء . ولكن الله يحترم عمل الإنسان . مع أنه سبب فقط ، فالمال هو مال الله ، يعطيه لمن يشاء . لكننا نجد الحق سبحانه وتعالى وهو يحث على الصدقة يقول

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

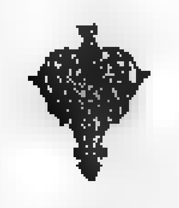
فكأنه سبحانه احترم عمل الانسان فى الحصول على المال ، رغم أن المال مال الله فقال وهو الخالق الأعظم « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا» وهكذا تتجلى رحمة الحق بالخلق .

الله يقول : «ولعلكم تتقون» تتقى ماذا ؟ نتقى صفات الجلال فى الله . فالله سبحانه وتعالى له صفات جلال وصفات جمال ، صفات الجلال هى «الجبار والقهار

والمتكبر والقوى والقادر والمقتدر والضار وغيرها من صفات الجلال .

فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية حتى لانغضب الله ، فيأمرنا بمتعلقات صفات جلاله ، وأن نتمسك بصفات جمال الله : الرحيم الودود ، الغفار ، التواب ، فإذا نجحنا فى ذلك كان لنا نجاة من النار التى هى أحد جنود الله ، ومتعلقات جلاله .

على أننا لابد أن ننتبه الى أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول «ياأيها الناس» إنما يخاطب كل الناس ، فإذا أراد الحق سبحانه وتعالى مخاطبة المؤمنين قال : «ياأيها الذين آمنوا» أى ياأيها الذين آمنتم بالله إلها ، ودخلتم معه فى عقد إيمان .



﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

فبعد أن بين لنا الحق سبحانه وتعالى أن عطاء ربوبيته الذى يعطيه لخلقه جميعا ، المؤمن والكافر ، كان يكفى لكى يؤمن الناس ، كل الناس . أخذ يبين لنا آيات من عطاء الربوبية . ويلفتنا اليها بحيث من لم يؤمن عندما يقرأ هذه الآيات يدخل الايمان فى قلبه . فيلفتنا الله سبحانه وتعالى الى خلق الأرض فى قوله تعالى «الذى جعل لكم الأرض فراشا»

والأرض هى المكان الذى يعيش فيه الناس ولايستطيع احد ان يدعى أنه خلق الأرض او أوجدها . اذن فهى آية ربوبية لاتحتاج لكى ننتبه اليها الى جهد عقلى . لأنها بديهيات محسومة لله سبحانه وتعالى . وقوله تعالى . «فراشا» توحى بأنه أعد الأرض إعداداً مريحاً للبشر كما تفرش على الارض شيئا ، تجلس عليه أو تنام عليه . فيكون فراشا يريحك

ونحن نتوارث الأرض جيلا بعد جيل . وهى تصلح لحياتنا جميعاً .

ومنذ أن خلقت الارض الى يوم القيامة ستظل فراشا للانسان

قد يقول بعض الناس أنك إذا نمت على الأرض فقد تكون غير مريحة تحتك فيها حصى أو غير ذلك مما يضايقك . نقول ان الانسان الأول كان ينام عليها مستريحا . إذن فضرورة النوم ممكنة على الأرض .

وعندما تقدمت الحضارة وزادت الرفاهية ظلت الأرض فراشاً رغم ماوجد عليها من أشياء لينة . فكأن الله تعالى . قد اعدها لنا اعداداً يتناسب مع كل جيل فكل

جيل رفه فى العيش بسبب تقدم الحضارة كشف الله سبحانه من العلم ما يطوع له الأرض ويجعلها فراشاً .

ونلاحظ ان الله سبحانه وتعالى فى آية أخرى يقول .

﴿ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة الزخرف)

والمهد هو فراش الطفل ، ولابد ان يكون مريحا لأن الطفل إذا وجد فى الفراش أى شيء يتعبه ؟ فإنه لا يملك الامكانات التى تجعله يريحه ، ولذلك تمهد الأم لطفلها مكان نومه ، حتى ينام نوماً مريحاً . ولكن الذى يمهد الأرض لكل خلقه هو الله سبحانه وتعالى . يجعلها فراشاً لعباده وإذا قرأت قوله تعالى .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الملك)

فإن معنى ذلك أن الحق سبحانه جعل الأرض مطيعة للإنسان ، تعطيه كل ما يحتاج إليه .

ويأتى الحق سبحانه وتعالى الى السماء فيقول : «والسماء بناء» والبناء يفيد المتانة والتماسك أى أن السماء ـ وهى فوقك ـ لاترى شيئا يحملها حتى لاتسقط عليك . إنها سقف متماسك متين .. ويؤكد الحق هذا المعنى بقوله تعالى :

﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الحج)

وفى آية اخرى يقول :

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأنبياء)

والهدف من هذه الآيات كلها أن نطمئن ونحن نعيش على الأرض أن السماء لن تتساقط علينا لأن الله يحفظها .

إذن من آيات الحق سبحانه وتعالى فى الأرض أنه جعلها فراشاً أى ممهدة ومريحة لحياة الانسان . وحفظ السماء بقدرته جل جلاله ، فهى ثابتة فى مكانها ، لاتهدد سكان الأرض وتفزعهم ، بأنها قد تسقط عليهم ، ثم جاء بآية اخرى .

«وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم»

فكأن الحق سبحانه وتعالى وضع فى الأرض وسائل استبقاء الحياة . فلم يترك الإنسان على الأرض دون أن يوفر له وسائل استمرار حياته . فالمطر ينزل من السماء ، والسماء هى كل ماعلاك فأظلك فينبت به الزرع والثمر ، وهذ رزق لنا ، والناس تختلف فى مسألة الرزق . والرزق هو ماينتفع به ، وليس هو ما تحصل عليه،فقد تربح مالاً وافراً ولكنك لاتنفقه ولاتستفيد منه فلا يكون هذا رزقك ولكنه رزق غيرك ، وانت تظل حارساً عليه ، لا تنفق منه قرشاً واحداً ، حتى توصله الى صاحبه والرزق فى نظر معظم الناس هو المال ، قال عليه الصلاة والسلام .

« يقول ابن ادم مالى مالى .. وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما اكلت فأفنيت ، ولبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت»[1]

هذا هو رزق المال . وهو جزء من الرزق . ولكن هناك رزق الصحة . ورزق الولد ورزق فى الطعام . ورزق فى البركة وكل نعمة من الله سبحانه وتعالى هى رزق وليس المال وحده .

فالحق سبحانه وتعالى يريد ان يلفتنا بهذه الآيه الكريمه الى أن نفكر قليلاً ، فمن خلق هذا الكون . لنعرف أنه قبل أن يخلق الانسان خلق له عناصر بقائه . ولكن هذا الاعداد لم يتوقف عند الحياة المادية بل ان الله كما أعد لنا مقومات حياتنا المادية

(١) رواه البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى والنسائى ورواه احمد وهذه رواية مسلم بسنده عن مُطَرِّف عن أبيه

أحد لنا مقومات حياتك الروحية ، أو القيم في الوجود . وبذا قرأت في سورة الرحمن قوله تعالى :

﴿ الرَّحْمَٰنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الْإِنسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ④ ﴾

(سورة الرحمن)

لوجدت القرآن يعطينا قيم الحياة ، التي بدونها تصبح الدنيا كلها لاقيمة لها . لأن الدنيا امتحان أو اختبار لحياة قادمة في الآخرة . فإذا لم تأخذها بمهمتها في أنها الطريق الذي يوصلك الى الجنة . أهدرت قيمتها تماماً .

ولم تعد الدنيا تعطيك شيئاً إلا العذاب في الآخرة .

وقد ربط الحق سبحانه وتعالى الرزق في هذه الآية بالسماء فقال سبحانه :

«فأخرج به من الثمرات رزقا لكم»

ليلفتنا الى أن الرزق ، لا يأتي إلا من أعلى ، وضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالماء لأنه رزق مباشر محسوس منا ، والماء ينزل من السماء في أنقى صوره متقطراً . كل ما يأتينا من السماء . فيه علو . ينزل ليزيد حياة القيم ارتقاء ، عملية لو أراد البشر أن يقوموا بها ما استطاعوا لأنها كانت ستتكلف ملايين الجنيهات ، لتعطينا ماء لا يكفي أسرة واحدة . ولكن الله سبحانه وتعالى أنزل من السماء ماء في أنقى صوره لينبت به الثمرات ، التي تضمن استمرار الحياة في هذا الكون

وبعد أن نفهم هذه النعم كلها . والاعجاز الذي فيها ونستوعبها يقول الحق تبارك وتعالى : «فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون»

(أندادا) جمع نِدّ ، والند هو النظير أو الشبيه . وأي عقل فيه ذرة من فكر يبتعد عن مثل هذا ، فلا يجعل لله تعالى شبيهاً ولا نظيرا ولا يُشَبِّه بالله تعالى أحداً . فالله واحد في قدرته ، واحد في قوته ، واحد في خلقه . واحد في ذاته ، وواحد في صفاته .

ولاتوجد مقاربة بين صفات الحق سبحانه وتعالى وصفات الخلق . والله خلق لكل منا عقلاً يفكر به . لو عرضت هذه المسألة على العقل لرفضها تماماً ، لأنها لا تتفق مع عقل أومنطق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى .

«وأنتم تعلمون»

أى تعرفون هذا جيداً بعقولكم لأن طبيعة العقل ترفض هذا تماماً .

فمن الذى يستطيع أن يدعى أنه خلقكم والذين من قبلكم ؟! ومنذا الذى يستطيع أن يدعى ولو كذبا ، أنه هو الذى جعل الأرض فراشاً ، وجعل السماء سقفاً محفوظاً ، أو أنزل المطر وأنبت الزرع ؟ لا أحد . إذن فأنتم تعلمون أن الفعل كله لله وحده ، ومادام لايوجد معارض ولايمكن أن يوجد . فالقضية محسومة للحق تبارك وتعالى .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة البقرة)

ماذا اتخذ هؤلاء الناس لله تعالى أندادا ؟ لأنهم يريدون دينا بلا منهج . يريدون ان يرضوا فطرة الإيمان التى خلقها الله فيهم وفى الوقت نفسه يشبعون شهواتهم . عندما فكروا فى هذا وجدوا أن أحسن طريقة هى أن يخترعوا إلهاً بلا منهج ، لا يطلب منهم شيئاً ، ولذلك كل دعوة منحرفة تجد أنها تبيح ما حرم الله ، وتحل الانسان من كل التكاليف الايمانية كالصلاة والزكاة والجهاد وغيرها .

أما الذين آمنوا ، فإنهم يعرفون أن الله سبحانه وتعالى إنما وضع منهجه لصالح الانسان ؛ فالله لا يستفيد من صلاتنا ولا من زكاتنا ولا من منهج الايمان شيئاً ، ولكننا نحن الذين نستفيد من رحمة الله . ومن نعم الله ومن جنته فى الآخرة

ولأن الذين آمنوا يعرفون هذا فإنهم يحبون الله حبا شديداً ، والذين كفروا رغم

كل مايدعون فإنهم ساعة العسرة يلجأون الى الله سبحانه وتعالى باعتباره وحده الملجأ والملاذ . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

لماذا لم يستدع الأنداد ؟ لأن الانسان لايغش نفسه أبداً في ساعة الخطر ، ولأن هؤلاء يعرفون بفطرتهم أنه لايمكن أن يوجد لله أنداد . ولكنه يتخذهم لأغراض دنيوية . فإذا جاء الخطر . يلجأ الى الله سبحانه وتعالى . لأنه يعلم يقينا أنه وحده الذي يكشف الضر . فحلاق الصحة الذي يعالج الناس دجلا إذا مرض ابنه اسرع به الى الطبيب لأنه يغش الناس . ولكنه لا يمكن أن يغش نفسه .

ولقد كان الأصمعي واقفاً عند الكعبة ، فسمع اعرابياً يدعو ويقول :

«ياربي أنت تعلم أني عاصيك وكان من حقك علي الا أدعوك وأنا عاص ولكني أعلم أنه لا إله إلا أنت فلمن أذهب . فقال الأصمعي . يا هذا إن الله يغفر لك لحسن مسألتك»



﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى لنا أن هؤلاء الذين يتخذون من دون الله أنداداً لا يعتمدون على منطق ولا عقل وبكنهم يعتمدون على شهوات دنيوية عاجلة . أراد أن يأتى بالتحدى بالنسبة للقرآن الكريم ـ المعجزة الخالدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ حتى يثبت لهم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قد جعل خلق الكون إعجازاً عقلياً .. فإن القرآن منهج معجز إعجازاً قيماً .. قال الله جل جلاله .

« وإن كنتم فى ريب » الخطاب هنا لكل كافر ومنافق غير مؤمن ، لأن الذين آمنوا بالله ورسوله ليس فى قلوبهم ريب ، بل هم يؤمنون بأن القرآن موحى به من الله ، مبلغ الى محمد صلى الله عليه وسلم بالوحى المنزل من السماء .

والريب : هو الشك . وقوله تعالى : « إن كنتم فى ريب » أى إن كنتم فى شك . من أين يأتى هذا الشك . والمعجزة محيط بالقرآن وبرسوله صلى الله عليه وسلم ؟ ما هى مبررات الشك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لايقرأ ولا يكتب ولم يعرف بالبلاغة والشعر بين قومه حتى يستطيع أن يأتى من عنده بهذا الكلام المعجز الذى لم يستطع فطاحل شعراء العرب الذين تمرسوا فى البلاغة واللغة ان يأتوا بآية من مثله . هذه واحدة . والثانية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكذب أبداً ولم يعرف عنه كذب قبل تكليفه بالرسالة بل كانوا يلقبونه صلى الله عليه وسلم بالصادق الأمين . والذين كانوا يلقبون رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين اتهموه بأن هذا القرآن ليس من عند الله . أيصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام مع الناس . ويكذب على الله ؟! .. هذا مستحيل .

الكلام الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القرآن لم يكن احد ليستطيع أن يأتى به من فطاحل علماء البلاغة العرب . والعلم الذى نزل فى القرآن

الكريم . لم يكن يعرفه بشر فى ذلك الوقت . فكيف جاء النبى الأمى بهذا الكلام المعجز . وبهذا العلم الذى لا يعلمه البشر؟! لو جلس الى معلم اوقرأ كتب الحضارات القديمة . لقالوا ربما استنبط منها ، ولكنه لم يفعل ذلك .

ممن أين دخل الريب الى قلوبهم ؟ لاشك أنه دخل من باب الباطل . والباطل لا حجة له . وبلاشك لقد فضحوا انفسهم بأنهم لايرتابون فى القرآن ولكنهم كانوا يريدونه أن ينزل على سيد من سادة قريش . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

وهؤلاء المرتابون لم يجدوا حجة يواجهون بها القرآن ، فقالوا ساحر ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ إذا كان ساحرا فلماذا لم يسحركم أنتم ؟ وقالوا مجنون . والمجنون يتصرف بلا منطق . . يضحك بلا سبب . ويبكى بلا سبب . ويضرب الناس بلا سبب . ولذلك رد الحق سبحانه عليهم بقوله تعالى :

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة القلم)

فهل يكون المجنون على خلق عظيم ؟ إذن فأسباب الريب كلها أو الأسباب التى تثير الشك غير موجودة . وغير متوافرة ولايوجد سبب حقيقى واحد يجعلهم يشكون فى أن القرآن ليس من عند الله . ولكنهم هم القائلون كما يروى لنا الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

إذن فكل أسباب الشك غير موجودة وأسباب اليقين هي الموجودة ومع ذلك ارتابوا وشكوا . وقوله سبحانه وتعالى

«مما نزلنا على عبدنا»

فالقرآن الكريم وجد في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الانسان ، وعندما جاء وقت مباشرته لمهمته في الكون نزل من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا دفعة واحدة ثم نزله الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بقدر ما احتاجت اليه المناسبات والأحداث .

اذن فقوله «نزلنا» أي نزل من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا دفعة واحدة . وقوله تعالى «أنزل» أي أنزله آيات على محمد صلى الله عليه وسلم بحسب اقتضاء الأحداث والمناسبات

الحق سبحانه وتعالى يقول . «على عبدنا» وهذه محتاجة الى وقفة . فالله جل جلاله له عبيد وله عباد . كل خلق الله في كونه عبيد لله سبحانه وتعالى . لايستطيعون الخروج عن مشيئة الله أو إرادته . هؤلاء هم العبيد . ولكن العباد هم الذين اتحدت مراداتهم مع مايريده الله سبحانه وتعالى تخلوا عن اختيارهم الدنيوي ، ليصبحوا طائعين له باختيارهم ، أي أنهم تساووا مع المقهورين في أنهم اختاروا منهج الله وتركوا أي اختيار يخالفه .

هؤلاء هم العباد . وإذا قرأت القرآن الكريم تجد أن الله سبحانه وتعالى يشير الى العباد بأنهم الصالحون من البشر فيقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هذا ليس لكل خلق الله ، ولكنه للعباد . الذين إذا قال الله تعالى لهم افعلوا فعلوا وإذا قال الله لاتفعلوا لم يفعلوا . أي أنهم لايخالفون - بقدرتهم على الاختيار - منهج الله سبحانه وتعالى . ولذلك في الجهاد لا يقول الحق سبحانه وتعالى عن المجاهدين أنهم عبيد بل يقول جل جلاله :

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ﴾

(سورة الاسراء)

وبعض المستشرقين الذين يحاولون الطعن في القرآن الكريم يقولون ان كلمة عباد قد جاءت في وصف غير المؤمن في قوله تعالى :

﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ (من الآية ١٧ سورة الفرقان)

نقول : انكم لم تفهموا أن هذا ساعة الحساب في الآخرة ، وفي الآخرة كلنا عباد لأننا كلنا مقهورون فلا اختيار لأحد في الآخرة وإنما الاختيار البشرى ينتهي ساعة الاحتضار ، ثم يصبح الانسان بعد ذلك مقهوراً .

فنحن جميعا في الآخرة عباد ولكن الفرق بين العبيد والعباد هو في الحياة الدنيا فقط . والعبودية هي ارقى مراتب القرب من الله تعالى . لأنك تأتي الى الله طائعاً . منفذاً للمنهج باختيارك . ولقد عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ملكاً رسولاً ، أو عبداً رسولا فاختار أن يكون عبداً رسولا وإذا أردنا أن نعرف معنى العبودية نقرأ في سورة الإسراء :

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الاسراء)

لنرى أنه فى أعلى درجات الانعام من الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم فى المعجزة الكبرى التى لم تحدث لبشر قبله صلى الله عليه وسلم سواء كان رسولاً أو غير رسول ، ولن تحدث لبشر بعده .. ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد الى السموات السبع بالروح وبالجسد ثم عاد الى الأرض . وتجاوز رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة جبريل فتجاوز سدرة المنتهى وهى المكان الذى ينتهى اليه علم خلق الله من البشر والملائكة المقربين .

وبشرية الرسول احدثت جدلاً كبيرا منذ بدأت الرسالات السماوية . وحتى عصرنا هذ . واقرأ قوله تعالى :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة هود)

وقوله تعالى :

﴿ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة القمر)

وقوله تعالى

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

وقوله تعالى

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

إذن فبشرية الرسول اتخذت حجة للذين لا يريدون أن يؤمنوا والرسول مبلغ عن الله . ولابد أن يكون من جنس القوم الذين أرسل اليهم . ولابد أن يكون قد عاش

بينهم فترة قبل الرسالة واشتهر بالأمانة والصدق حتى لايكذبوه . وفى الوقت نفسه هو قدوة . ولذلك لابد أن يكون من جنس قومه . لأنه سيطبق المنهج عمليا أمامهم . ولو كان من جنس آخر لقالوا لانطيق ما كلفتنا به يارب . لأن هذا رسول الله مخلوق من غير مادتنا . ومقهور على الطاعة .

إذن فبشرية الرسول حتمية . وكل من يحاول أن يعطى الرسول صفة غير البشرية . إنما يحاول أن ينقص من كمالات رسالات الله ، والله سبحانه وتعالى ليس عاجزاً ، عن أن يحول البشر الى ملائكة واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠ ﴾

(سورة الزخرف)

إذن فبشرية الرسول هى من تمام الرسالة .

ثم يأتى التحدى من الله سبحانه وتعالى «فأتوا بسورة من مثله» والمطلوب أن يأتى العرب بسورة من مثل ما جاء به القرآن الكريم .

الشهود الذين يطلب الله دعوتهم هم شهود ضعفاء شهود من البشر وليست شهادة من الله بالغيب .

والله سبحانه وتعالى وضع فى هذه الآية معظم الشكوك لنفحصها ، ولنصل فيما بعد ذلك الى جوهر الاعجاز القرآنى .

والحق سبحانه وتعالى تدرج فى التحدى مع الكافرين . فطلب منهم أن يأتوا بمثل القرآن ، ثم طلب عشر سور من مثله . ثم تدرج فى التحدى فطلب سورة واحدة . والنزول فى التحدى من القرآن كله إلى عشر سور . الى سورة واحدة . دليل ضد من تحداهم . فلا يستطيعون ان يأتوا بمثل القرآن ، فيقول : إذن فأتوا بعشر سور . فلا يستطيعون ويصبح موقفهم مدعاة للسخرية . فيقول : فأتوا بسورة . وهذا منتهى الاستهانة بالذين تحداهم الله سبحانه وتعالى وإثباتاً لأنهم لا يقدرون على شىء .

وكلمة بمثل . معناها أن الحق سبحانه وتعالى يطلب المثيل ولا يطلب نص القرآن وهذا إمعان وزيادة فى إظهار عجز القوم الذين لا يؤمنون بالله ويشككون فى القرآن . وقوله تعالى : «وادعوا شهداءكم» .

معناه أن الله سبحانه وتعالى زيادة فى التحدى يطالبهم بأن يأتوا هم بالشهداء ويعرضوا عليهم الآية ليحكم هؤلاء الشهود إذا كان ما جاءوا به مثل القرآن أم لا أليس هذا إظهار منتهى القوة لله سبحانه وتعالى لأنه لم يشترط شهداء من الملائكة ولا شهداء من الذين اشتهر عنهم الصدق وأنهم يشهدون بالحق . بل ترك الحق سبحانه لهم أن يأتوا بالشهداء وهؤلاء الشهداء لن يستطيعوا أن يشهدوا أن كلام هؤلاء المشككين يماثل سورة من القرآن .

الله سبحانه وتعالى طلب منهم أن يأتوا بأى شهداء متحيزين لهم . وأطلقها سبحانه وتعالى على كل أجناس الأرض فقال : «من دون الله إن كنتم صادقين» ولكن إياكم أن تقولوا يشهد الله بأن ما جئنا به مثل القرآن لأنكم تكونون قد كذبتم على الله وادعيتم شيئا لم يقله سبحانه وتعالى .

ولكن ما معنى قوله تعالى : «إن كنتم صادقين» صادقين فى ماذا ؟ وما هو الصدق ؟ الصدق يقابل الكذب ، والصدق والكذب ، كل منهما نسبى كلنا يعلم أن هناك كلاماً غير مفيد ، فإذا قلت محمد وسَكَتَّ فمن يسمعك سيسألك ، ماذا تقصد بقولك محمد ؟ وسؤاله دليل على أنه لم يستفد شيئ ، ولكنه لو سألك من عندك ؟ وأجبت محمد فكأنك تخبره بأن عندك محمداً وهذه كلمة واحدة لكنك فهمتها بالمعنى الذى أخذته من كلام السائل إذن فلا تقل كلمة واحدة ولكن قل كلاماً مفيداً إذن فالكلام المفيد هو الذى يسكت السامع عليه

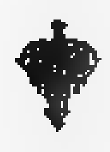
وكل متكلم قبل أن ينطق بالكلام يكون عنده نسبة ذهنية لما سيقول ، يعبر عنها بنسبة كلامية ولكن هناك نسبة خارجية لما يقول تمثل الواقع .

أى أنك لو قلت محمد مجتهد فلابد أن يكون هناك شخص اسمه محمد . ولابد أن يكون مجتهداً فعلاً . لتتطابق النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية . فإذا لم يكن هناك شخص اسمه محمد . أو كان هناك شخص اسمه محمد ولكنه ليس مجتهداً ،

فإن النسبة الكلامية تخالف النسبة الواقعية .

والصدق أن تتطابق النسبة الكلامية والنسبة الواقعية .. «والكذب» ألا تتطابق النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية .. هذا المفهوم ضرورة لعرض معنى الآية الكريمة .

إذن فقوله تعالى «صادقين» أي أن تتطابق النسبة الكلامية التي ستقولونها مع نسبة واقعية تستطيعون أن تدللوا عليها .. فإن لم يحدث ذلك فأنتم كاذبون .. فالله سبحانه وتعالى يريد منكم الدليل على صدقكم



﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾

بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن الأدلة التي يستند اليها المشككون في القرآن الكريم . وهي أدلة لاتستند الى عقل ولا الى منطق . تحداهم بأن يأتوا بسورة مثل القرآن ، وأن يستعينوا بمن يريدون من دون الله ، لأن القرآن كلام الله ، والله سبحانه هو القائل . وبما أنهم يحاولون التشكيك في أن القرآن كلام الله . وأنه منزل من عند الله ، فليستعينوا بمن يريدون ليأتوا بآية من مثله ، لأن التحدي هنا لايمكن أن يتم إلا إذا استعانوا بجميع القوى ما عدا الله سبحانه وتعالى .

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بالنتيجة قبل أن يتم التحدي . لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أنهم لن يفعلوا ولن يستطيعوا .

إن قوله سبحانه «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا» معناه أنه حكم عليهم بالفشل وقت نزول القرآن وبعد نزول القرآن الى يوم القيامة . لأن الله لايخفى عن علمه شيء . فهو بكل شيء عليم . وكلمة «لم تفعلوا» عندما تأتي قد تثير الشك حتى نعرف ان مجيء ان الشرطية يثير الشك . لأن الأمر لكي يتحقق يتعلق بشرط . وانت إن قلت إن ذاكرت تنجح ، ففي المسألة شك . أما إذا قلت كقول الحق «إذا جاء نصر الله والفتح» فمعنى ذلك أن نصر الله آت لامحالة .

«إن» حرف و«إذا» ظرف ، وكل حدث يحتاج إلى مكان وزمن . فإذا جئت بأداة الشرط فمعنى ذلك أنك تقربها من عنصر تكوين الفعل والحدث . فإذا أردت ان تعبر عن شيء سيتحقق تقول إذا ، وإذا اردت أن تشكك فيه تقول «إن» والله سبحانه وتعالى قال «فإن لم تفعلوا» ولأن الفعل ممكن الحدوث أراد أن يرجح الجانب المانع فقال «ولن تفعلوا» هذا أمر اختياري . فإذا تكلمت عن أمر اختياري ثم حكمت أنه

لن يحدث . فكان قدرتك هي التي منعته من الفعل . فلا يقال أنك قهرته على ألا يفعل. لا . علمت أنه لن يفعل . فاستعداداته لايمكن ان تمكنه من الفعل .

وهذه أمور ضمن اخبارات القرآن الكريم في القضايا الغيبية التي أخبر عنها ، فعندما يقول الله سبحانه وتعالى «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم» معناه أنهم مصدقون ولكن ألسنتهم لا تعترف بذلك . وقوله تعالى «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا» معناه أن الشك مفتعل في نفوسهم ،هم لا يريدون ان يؤمنوا ولذلك يأتون بسبب مفتعل لعدم الايمان . لقد استقر فكرهم على أنهم لا يؤمنون ، ومادام هذا هو ماقررتموه . فإنكم ستظلون تبحثون عن أسباب ملفقة لعدم الايمان .

وقوله تعالى : « فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة » .

الحق سبحانه وتعالى يريد هنا ان يلفتنا الى صورة اخرى عن عجز هؤلاء الكفار . فهم بحثوا عن أعذار ، ليبرروا بها عدم ايمانهم وتظاهروا بأنهم يشكون في القرآن الكريم يقول لهم : لو كانت لكم قدرة وذاتية فعلا فامنعوا انفسكم من دخول النار يوم القيامة . كما منعتم انفسكم من الايمان في الدنيا .

وهذا وعيد من الله . لقد أعطاهم ذاتية الاختيار في الدنيا ولم يختاروا قهراً بل اختاروا عدم الايمان بمشيئة الاختيار التي أعطاها الله لهم . ولكن هناك وقت ليس فيه اختيار وهو الآخرة فحاولوا ان تتقوا في الآخرة عذاب النار يوم القيامة . ولكن لن يكون لأحد اختيار فالله سبحانه وتعالى يقول في ذلك اليوم:



(من الآية ١٦ سورة غافر)

ويقول جل جلاله :

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الانفطار)

فإرادتكم التى منعتكم من الإيمان .. لن تغنيكم يومئذ من عذاب النار . واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

لماذا هم وما يعبدون ؟ لأن العابد يرتجى نفع المعبود . فكأنها عندما يرى كل منهما الآخر فى العذاب تكون الحسرة أشد . ولذلك فإن الحجارة والأصنام التى يعبدونها ستكون معهم فى النار يوم القيامة . وليس هذا عقاباً للأحجار والأصنام . لأنها خلق مقهور لله مسبح له ، ولكن هذه الأصنام والأحجار تكون راضية وهى تحرق الذين كفروا بالله . وتقول : «عبدونا ونحن أعبد لله من المستعمرين بالأسحار» .

وقوله تعالى : « أعدت للكافرين» الله سبحانه وتعالى يخبرهم وهم فى الدنيا ، ان النار أعدت للكافرين وقوله تعالى النار اعدت للكافرين تطمين غاية الاطمئنان للمؤمن . وإرهاب غاية الإرهاب للكافر .. وقوله تعالى «أعدت» معناها أنها موجودة فعلاً وإن لم تكن تراها . وأنها مخلوقة وإن كانت محجوبة عنا .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« عرضت علىّ الجنة ولو شئت أن آتيكم منها بقطاف لفعلت »

وهذا دليل على أنها موجودة فعلاً

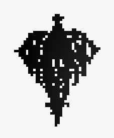
والمؤمن حينما يعلم أن الجنة موجودة فعلاً وأن الإيمان سيقوده اليها فإنه يحس بالسعادة ويشتاق للجنة فإذا سمع قول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

ساعة تقرأ هذه الآية الكريمة تعرف أن الله سبحانه وتعالى سيجعلك فى الجنة

تأخذ ما كان لغيرك . لأن الميراث يأتيك من غيرك . وقد سبق علم الله سبحانه وتعالى خلق الناس جميعا . وقبل أن يخلق أعد لكل خلقه مقعدا في النار ومقعدا في الجنة . الذين سيدخلون النار خالدين فيها ، مقاعدهم في الجنة ستكون خالية ، فيأتي الله سبحانه وتعالى يعطيها للمؤمنين ليرثوها فوق مقاعدهم ومنازلهم في الجنة . والحق سبحانه عندما يقول : «أعدت» فهي موجودة فعلا .



﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) ﴾

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا مصير الكافرين الذين يشككون في القرآن ليتخذوا من ذلك عذراً لعدم الإيمان . قال : إذا كنتم قد اخترتم عدم الإيمان ، بما أعطيتكم من اختيار في الدنيا ، فإنكم في الآخرة لن تستطيعوا أن تتقوا النار . ولن تكون لكم إرادة

ثم يأتي الحق تبارك وتعالى بالصورة المقابلة . والقرآن الكريم إذا ذكرت الجنة يأتي الله بعدها بالصورة المقابلة وهي العذاب بالنار وإذا ذكرت النار بعذابها ولهيبها ذكرت بعدها الجنة وهذه الصورة المتقابلة لها تأثير على دفع الإيمان في النفوس . فإذا قرأ الإنسان سورة للعذاب ثم جاء بعدها النعيم فإنه يعرف أنه قد فاز مرتين . فالذي يزحزح عن النار ولا يدخلها يكون ذلك فوزا ونعمة ، فإذا دخل الجنة تكون نعمة أخرى . ولذلك فإن الله تعالى يقول :

﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

ولم يقل سبحانه ومن أدخل الجنة فقد فاز . لأن مجرد أن تزحزح عن النار فوز عظيم . . وفي الآخرة . وبعد الحساب يضرب الصراط فوق جهنم ، ويعبر من فوقه المؤمنون والكافرون . فالمؤمنون يجتازون الصراط المستقيم كل حسب عمله منهم من يمر بسرعة البرق . ومنهم من يمر أكثر بطئاً وهكذا ، والكافرون يسقطون في النار .

ولكن لماذا يمر المؤمنون فوق الصراط والله سبحانه وتعالى قال .

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة مريم)

لأن مجرد رؤية المؤمنين لجهنم نعمة كبرى ، حين يرون العذاب الرهيب الذى أنجاهم الإيمان منه يحس كل منهم بنعمة الله عليه . أنه أنجاه من هذا العذاب . وأهل النار وأهل الجنة يرى بعضهم بعضاً . فأهل الجنة حينما يرون أهل النار يحسون بعظيم نعمة الله عليهم . إذ أنجاهم منها ، وأهل النار حين يرون أهل الجنة يحسون بعظيم غضب الله عليهم أن حرمهم من نعيمه ، فكأن هذه الرؤية نعيم لأهل الجنة وزيادة فى العذاب لأهل النار .. والله سبحانه وتعالى يقول :

«وبشره» والبشارة هى الإخبار بشىء سار قادم لم يأت وقته بعد . فأنت إذا بشرت إنساناً بشىء أعلمته بشىء سار قادم . والبشارة هنا جاءت بعد الوعيد للكافرين .

والإنذار هو إخبار بأمر مخيف لم يأت وقته بعد .

ولكن البشارة تأتى أحياناً فى القرآن الكريم ويقصد بها الكفار . واقرأ قوله تعالى .

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الجاثية)

البشارة هنا تهكمية من الله سبحانه وتعالى. فالحق تبارك وتعالى يريد أن يزيد عذاب الكفار ، فعندما يسمعون كلمة «فبشرهم» يعتقدون أنهم سيسمعون خبراً ساراً ، فيأتى بعدها العذاب الأليم ليزيدهم غماً على غم

يقول الحق سبحانه وتعالى : «وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات» .

البشرى هنا إعلام بخير قادم للمؤمنين ، والايمان هو الرصيد القلبي للسلوك ،
لأن من يؤمن بقضية يعمل من أجلها ، التلميذ يذاكر لأنه مؤمن أنه سينجح ، وكل
عمل سلوكي لابد أن يوجد من ينبوع عقيدي والايمان أن تنسجم حركة الحياة مع
مافي القلب وفق مراد الله سبحانه وتعالى : وتظام الحياة لا يقوم إلا على إيمان . .
فكأن العمل الصالح ينبوعه الايمان . ولذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

(سورة العصر)

وفي آية أخرى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ㉝ ﴾

(سورة فصلت)

ولكن هل يكفي الاعلان عن كوني من المسلمين ؟ لا بل لابد ان يقترن هذا الاعلان
بالعمل بمرادات الله سبحانه وتعالى

الحق سبحانه وتعالى يُريدُ أن ينفعنا . . الى أن قولنا « لا اله الا الله محمد رسول
الله » . . لابد أن يصاحبه عمل بمنهج الاسلام . ذلك أن نطقنا بالشهادة لا يزيد في
ملك الله شيئا . . فالله تبارك وتعالى شهد بوحدانية ألوهيته لنفسه ، وهذه شهادة
الذات للذات ثم شهد الملائكة شهادة مشهد لأنهم يرونه سبحانه وتعالى ثم
شهد أولو العلم شهادة دليل بما فتح عليهم الله جل جلاله من علم . . وفي ذلك
يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑱ ﴾

(سورة آل عمران)

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يعملوا بالمنهج .. لماذا ؟ .. حتى لاتتعاند حركة الحياة بل تتساند .. وما دامت حركة الحياة مستقيمة .. فإنها تصبح حياة متساندة وقوية . وعندما انتشر الاسلام فى بقاع الأرض لم يكن الهدف أن يؤمن الناس فقط لمجرد الايمان .. ولكن لابد أن تنسجم حركة الحياة مع منهج الاسلام .. فإذا ابتعدت حركة الحياة عن المنهج .. حينئذ لا يخدم قضية الدين أن يؤمن الناس أو لا يؤمنوا . ولذلك لابد أن ينص على الإيمان والعمل الصالح .. « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » . والصالحات هى جمع صالحة . والصالحة هى الأمر المستقيم مع المنهج ، وضدها الفساد .. وحين يستقبل الإنسان الوجود .. فان أقل الصالحات هو أن يترك الصالح على صلاحه أو يزيده صلاحا .

الحق تبارك وتعالى يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجرى من تحتها الأنهار .. والجنات جمع جنة ، وهى جمع لأنها كثيرة ومتنوعة .. وهناك درجات فى كل جنة أكثر من الدنيا .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

الجنات نفسها متنوعة .. فهناك جنات الفردوس ، وجنات عدن ، وجنات نعيم . وهناك دار الخلد ، ودار السلام ، وجنة المأوى . وهناك عليون الذى هو أعلى وأفضل الجنات .. وأعلى ما فيها التمتع برؤية الحق تبارك وتعالى . وهو نعيم يعلو كثيرا عن أى نعيم فى الطعام والشراب فى الدنيا ..

والطعام والشراب بالنسبة لأهل الجنة لا يكون عن جوع أو ظمأ .. وإنما عن مجرد الرغبة والتمتع . والله جل جلاله فى هذه الآية يحدثنا بأمر غيبى .. ولذلك فإنه لكى يقرب المعنى الى ذهن البشر .. لابد من استخدام ألفاظ مشهودة وموجودة .. أى عن واقع نشهده . واقرأ ، قوله تبارك وتعالى :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة السجدة)

إذن ما هو موجود فى الجنة لا تعلمه نفس فى الدنيا .. ولا يوجد لفظ فى اللغة يعبر عنه .. ولا ملكة من ملكات المعرفة كالسمع والنظر قد رأته .. ولذلك استخدم الحق تبارك وتعالى الألفاظ التى تتناسب مع عقولنا وإدراكنا .. فقال تعالى : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » ..

على أن هناك آيات أخرى تقول : « تجرى تحتها الأنهار » ما الفرق بين الاثنين . تجرى تحتها الأنهار . أى أن نبع الماء من مكان بعيد وهو يمر من تحتها .. أما قوله تعالى : « من تحتها الأنهار » فكأن الأنهار تنبع تحتها .. حتى لا يخاف إنسان من أن الماء الذى يأتى من بعيد ينقطع عنه أو يجف . وهذه زيادة لاطمئنان المؤمنين أن نعيم الجنة باق وخالد ..

وما دام هناك ماء فهناك خضرة ومنظر جميل ولا بُدّ أنْ يكون هناك ثمر . وفى قوله تعالى : « كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها » . حديث عن ثمر الجنة .. وثمر الجنة يختلف عن ثمر الدنيا . إنك فى الدنيا لابد أن تذهب إلى الثمرة وتأتى بها أو يأتيك غيرك بها . ولكن فى الجنة الثمر هو الذى يأتى إليك . بمجرد أن تشتهيه تجده فى يدك .. وتعتقد أن هناك تشابها بين ثمر الدنيا وثمر الجنة . ولكن الثمر فى الجنة ليس كثمر الدنيا لا فى طعمه ولا فى رائحته .. وإنما يرى أهل الجنة ثمرها ويتحدثون يقولون ربما تكون هذه الثمرة هى ثمرة المانجو أو التين الذى أكلناه فى الدنيا .. ولكنها فى الحقيقة تختلف تماما قد يكون الشكل متشابها ولكن الطعم وكل شىء مختلف .

فى الدنيا كل طعام له فضلات يخرجها الإنسان .. ولكن فى الآخرة لا يوجد لطعام فضلات بل إن الإنسان يأكل كما يشاء دون أن يحتاج إلى إخراج فضلات ، وذلك لاختلاف ثمار الدنيا عن الآخرة فى التكوين .

لذن ففى الجنة الأنهار مختلفة والثمر مختلفة .. والجنة يكون الرزق فيها من الله سبحانه وتعالى الذى يقول « للشىء كن فيكون » . ولا أحد يقوم بعمل .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: «ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون»

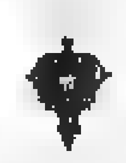
الزوجة هي متعة للإنسان في الدنيا إن كانت صالحة .. والمنغصة عليه إن كانت غير صالحة .. وهناك منغصات تستطيع أن تقدمها المرأة في حياة زوجها تجعله شقيا في حياته .. كأن تكون سليطة اللسان أو دائمة الشجار . أو لا تعطى اهتماما لزوجها أو تحاول اثارته بأن تجعله يشك فيها . أما في الآخرة فتزول كل هذه المنغصات وتزول بأمر الله . فالزوجة في الآخرة مطهرة من كل ما يكرهه الزوج فيها ، وما لم يحبه في الدنيا يختفي . فالمؤمنون في الآخرة مطهرون من كل نقائص الدنيا ومتاعبها وأولها الغل والحقد .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فمقاييس الدنيا ستختفي وكل شيء تكرهه في الدنيا لن تجده في الآخرة .. فإذا كان أي شيء قد نغص حياتك في الدنيا فإنه سيختفي في الآخرة .. والحق تبارك وتعالى ضرب المثل بالزوجات لأن الزوجة هي متعة زوجها في الدنيا .. وهي التي تستطيع أن تحيل حياته الى نعيم أو جحيم ..

وقوله تعالى : « وهم فيها خالدون » .. أي لا موت في الآخرة ولن يكون في الآخرة وجود للموت أبدا ، وإنما فيها الخلود الدائم إما في الجنة وإما في النار .



﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

بعد أن تحدث الحق تبارك وتعالى عن الجنة .. وأعطانا مثلا يقرب لنا صور النعيم الهائلة التي سينعم بها الإنسان في الجنة .. أراد أن يوضح لنا المنهج الايماني الذي يجب أن يسلكه كل مؤمن .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يكلف كافرا بعبادته ولكن الانسان الذي ارتضى دخول الايمان بالله جل جلاله قد دخل في عقد إيماني مع الله تبارك وتعالى . وما دام قد دخل العقد الايماني فانه يتلقى عن الله منهجه في افعل ولا تفعل وهذا المنهج عليه أن يطبقه دون أن يتساءل عن الحكمة في كل شيء .. ذلك أن الايمان هو إيمان بالغيب . فاذا كان الشيء نفسه غائب عنا فكيف نريد ان نعرف حكمته ..

إن حكمة أي تكليف ايماني هي : انه صادر من الله سبحانه وتعالى ، ومادام صادرا من الله فهو لم يصدر من مُساوٍ لك كي تناقشه ، ولكنه صادر من إله وجبت عليك له الطاعة لأنه اله وأنت له عابد .. فيكفي أن الله سبحانه وتعالى قال افعل حتى نفعل .. ويكفي أنه قال لا تفعل حتى لا نفعل .

الحكمة غائبة عنك .. ولكن صدور الأمر من الله هو الحكمة ، وهو الموجب للطاعة فأنا أصلي لأن الله فرض الصلاة ، ولا أصلي كنوع من الرياضة . وأنا أتوضأ لأن الله تبارك وتعالى أمرنا بالوضوء قبل الصلاة . ولكنني لا أتوضأ كنوع من النظافة وأنا أصوم لأن الله أمرني بالصوم ولا أصوم حتى أشعر بجوع الفقير . لأنه لو كانت الصلاة رياضة لاستبدلناها بالرياضة في الملاعب . ولو أن الوضوء كان نظافة لقمنا بالاستحمام قبل كل صلاة .. ولو أن الصوم كان لنشعر بالجوع ما وجب على الفقير أن يصوم لأنه يعرف معنى الجوع .

اذن فكل تكاليف من الله نفعلها لأن الله شرعها ولا نفعلها لأي شيء آخر . . وكل ما يأتينا من الله من قرآن نستقبله على أنه كلام الله ولا نستقبله بأي صيغة أخرى . . ذلك هو الايمان الذي يريد الله منا أن نتمسك به ، وأن يكون هو سلوك حياتنا .

تلك مقدمة كان لابد منها اذا أردنا أن نعرف معنى الآية الكريمة : « إن الله لا يستحى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » وعندما ضرب الله مثلا بالبعوضة . . استقبله الكفار بالمعنى الدنيوى دون أن يفطنوا للمعنى الحقيقى . قالوا كيف يضرب الله مثلا بالبعوضة ذلك المخلوق الضعيف . الذى يكفى أن تضربه بأى شيء أو بكفك فيموت ؟ . لماذا لم يضرب الله تبارك وتعالى مثلا بالفيل الذى هو ضخم الجثة شديد القوة . . أو بالأسد الذى هو أقوى من الإنسان وضرب لنا مثلا بالبعوضة فقالوا : « ماذا أراد الله بهذا مثلا » . ولم يفطنوا الى أن هذه البعوضة دقيقة الحجم خلقها معجزة . . لأن فى هذا الحجم الدقيق وضع الله سبحانه وتعالى كل الأجهزة اللازمة لها فى حياتها . فلها عينان ولها خرطوم دقيق جدا ولكنه يستطيع أن يخرق جلد الانسان . . ويخرق الأوعية الدموية التى تحت الجلد ليمتص دم الانسان . .

والبعوضة لها أرجل ولها أجنحة ولها دوره تناسلية ولها كل ما يلزم لحياتها . . كل هذا فى هذا الحجم الدقيق . . كلما دق الشيء احتاج الى دقة خلق أكبر . .

ونحن نشاهد فى حياتنا البشرية أنه مثلا عندما اخترع الانسان الساعة . كان حجمها ضخما جدا لدرجة أنها تحتاج الى مكان كبير . . وكلما تقدمت الحضارة وارتقى الانسان فى صناعته وحضارته وتقدمه ، أصبح الحجم دقيقا وصغيرا ، وهكذا أخذت صناعة الساعات تدق . حتى أصبح من الممكن صنع ساعة فى حجم الخاتم أو أقل . . وعندما بدأ اختراع المذياع أو الراديو كان حجمه كبيرا . . والآن أصبح فى غاية الدقة لدرجة انك تستطيع أن تضعه فى جيبك أو أقل من ذلك . . وفى كل الصناعات عندما ترتقى . . يصغر حجمها لأن ذلك يحتاج الى صناعة ماهر والى تقدم علمى . .

وهكذا حين ضرب الله مثلا بالبعوضة وما فوقها . أى بما هو أقل منها حجما . . فإنه تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا الى دقة الخلق . . فكلما لطف الشيء وصغر حجمه

تحتاج الى دقة الخلق .. ولكن الكفار لم يأخذوا المعنى على هذا النحو وإنما أخذوه بالمعنى الدنيوى البسيط الذى لايمثل الحقيقة .

فالله سبحانه وتعالى حينما ضرب هذا المثل . استقبله المؤمنون بأنه كلام الله . واستقبلوه بمنطق الايمان بالله فصدقوا به سواء فهموه أم لم يفهموه .. لأن المؤمن يصدق كل ما يجيء من عند الله سواء عرف الحكمة أو لم يعلمها . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

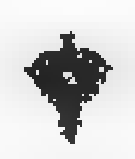
(سورة الاعراف)

إن كل مصدق بالقرآن لا يطلب تأويله أو الحكمة فى آياته .. ولذلك قال الكافرون : « ماذا أراد الله بهذا مثلا » ويأتى رد الحق تبارك وتعالى : « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين » . ومن هم الفاسقون ؟ . هم الذين

ينقضون عهد الله .. أول شيء فى الفسق أن ينقض الفاسق عهده .. ويقال فسقت الرطبة أى بعدت القشرة عن الثمر . فعندما تكون الثمرة أو البلحة حمراء تكون القشرة ملتصقة بالثمرة بحيث لا تستطيع أن تنزعها منها .. فاذا أصبحت الثمرة

أو البلحة رطبا تسود قشرتها وتبتعد عن الثمرة بحيث تستطيع أن تنزعها عنها بسهولة هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج الله ينسلخ عنه بسهولة ويسر ، لأنه غير ملتصق به .. وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه

فلا تؤدى الصلاة مثلا وتفعل ما نهى الله عنه لأنك فسقت عن دينه .. والذى أوجد الفسق هو أن الإنسان خلق مختارا . قادرا على أن يفعل أو لا يفعل .. وبهذا الاختيار أفسد الإنسان نظام الكون .. فكل شيء ليس للإنسان اختيار فيه تراه يؤدى مهمته بدقة عالية كالشمس والقمر والنجوم والأرض .. كلها تتبع نظاما دقيقا لا يختل لأنها مقهورة . ولو أن الإنسان لم يخلق مختارا .. لكان من المستحيل أن يفسق .. وأن يبتعد عن منهج الله ويفسد فى الأرض .. ولكن هذا الاختيار هو أساس الفساد كله



﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

بعد أن شرح الله لنا مفهوم الايمان . فى أننا نتلقى عن الله ونتفذ الحكم ولو لم نعرف الحكمة فكل ما يأتى من الله نأخذه بمنطق الايمان ، وهو أن الله الذى قال . وليس بمنطق الكفر والتشكك . فكل شيء عن الله حكمته أنه صادر عن الحق سبحانه وتعالى

وأخبرنا الحق تبارك وتعالى أن الفاسقين هم المتعلمون عن منهج الله وأراد الحق أن يبين لنا صفات الفاسقين فحددها فى ثلاث صفات . أولا : الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ثانيا الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ثالثا : الذين يفسدون فى الأرض . ثم حدد لنا الحق تبارك وتعالى حكمهم فقال أولئك هم الخاسرون والخسران الذى وصلوا اليه هو من عملهم لأنهم تركوا المنهج وبدأوا يشرعون لأنفسهم بهوى النفس ولذلك يقول الحق جل جلاله عنهم :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن هم الذين خسروا ، وهم الذين اشتروا الضلالة ودفعوا ثمنها من هدى الله فكأنهم عقدوا صفقة خاسرة لأن هدى الله هو الذى يقودنا الى الحياة الخالدة والنعيم الذى لا يزول

والحق سبحانه وتعالى يعطينا الصورة فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إذن فالمؤمنون باعوا لله سبحانه وتعالى أموالهم وأنفسهم ، وكانوا صادقين فى عهدهم . أما الكفار والمنافقون ، فقد باعوا هدى الله ، واشتروا به ضلال الدنيا . فالحق سبحانه وتعالى ذكر لنا أول صفات الفاسقين أنهم لا عهد لهم . ليس بينهم وبين الناس فقط . ولكن لا عهد لهم مع الله أيضا . وكلما عاهدوا الله عهدا نقضوه . والله يحب الوفاء بالعهد . ولذلك يقول جل جلاله :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ويقول تعالى :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ما هو العهد الموثق الذى أخذه الله على عباده فنقضوه ؟ إنه الإيمان الأول الإيمان

الفطرى الموجود فى كل منا فالله سبحانه وتعالى أخذ من البشر جميعا عهدا ، فوفى به بعضهم ونقضه بعضهم .

والله سبحانه وتعالى ذكر لنا فى القرآن الكريم . أن هناك عهدا موثقا بينه وبين ذرية آدم . فقال جل جلاله .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهكذا أخذ الله عهدا على ذرية آدم بأن يؤمنوا به وأشهدهم أنه ربهم وجاءت الغفلة إلى القلوب بمرور الوقت . فنقضوا العهد واتخذوا آلهة من دون الله . اذن أول صفات الفاسقين أنهم نقضوا عهد الله . والذى ينقض عهدا مع بشر ، فسلوكه هذا لا يقبله الحق سبحانه وتعالى حتى مع الكفار وغير المؤمنين واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وهكذا نرى أن الحق تبارك وتعالى حين أعلن براءته وبراءة رسوله صلى الله عليه وسلم وبراءة المؤمنين من كل كافر مشرك فى قضية ايمانية كبرى . حرم الله فيها على الكفار والمنافقين أن يقتربوا من بيته الحرام فى مكة ، احترم جل جلاله العهد . حتى مع المشركين . وطلب من المؤمنين أن يوفوا به . فاذا كان هذا هو المسلك الايمانى مع كل كافر ومشرك إن كنت قد عاهدته عهدا فأوف به الى مدته . فكيف بالمشركين وقد عاهدوا الخالق الأعظم . ثم ينقضون عهده الموثق انهم قد خانوا منهج الله وعهده واذا لم يكن لهم عهد مع الله سبحانه وتعالى فهل يكون لهم عهد مع خلق الله ؟!

اذن فالفاسقون أول صفاتهم انه لا عهد لهم مع خالقهم ولا عهد لهم مع الناس . ولذلك لا تأمن لهم أبدا .

ثم تأتى بعد ذلك الصفة الثانية للفاسقين فى قوله تعالى :
« ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل » وما أمر الله به أن يوصل هو صلة الرحم . فقد أمرنا الله تعالى بأن نصل أرحامنا . فنحن كلنا أولاد آدم . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول فى حجة الوداع « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

وهكذا نرى أن هناك روابط انسانية يلفتنا الله سبحانه وتعالى اليها . وهذه الروابط .. تبدأ بالأسرة ثم تتسع لتشمل القرية أو الحى . ثم تتسع لتشمل الدولة والمجتمع ، ثم تتسع لتشمل المؤمنين جميعا ، ثم تتسع لتشمل العالم كله . هذه هى الأخوة الانسانية التى يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا اليها .

ولكن اللفتة هنا لا تقتصر على الناحية الانسانية ، بل تسجل أن ما فعلوه معصية . ومخالفة لأمر الله تعالى . فالله أمر بأن نصل الرحم . وجاء هؤلاء وخالفوا وعصوا ما أمر الله به . وقطعوا هذه الصلة اذن فالمسألة فيها مخالفة للمنهج ، وعصيان لأمر من أوامر الله سبحانه وتعالى . فصلة الرحم توجد نوعا من التكافل الاجتماعى بين البشر . فاذا حدث لشخص مصيبة .. أسرع أقاربه يقفون معه فى محنته . ويحاول كل منهم أن يخفف عنه . هذا التلاحم بين الأسرة يجعلها قوية فى مواجهة الأحداث . ولا يحس واحد منها بالضياع فى هذا الكون ، لأنه متماسك مع أسرته ، متماسك مع حيه أو قريته وهكذا يختفى الحقد من المجتمع . ويختفى التفكك الاسرى .

ولعلنا اذا نظرنا الى المجتمعات الغربية التى يحترمها تفكك الأسرة . نجد ان كل واحد منهم قد ضل طريقه وانحرف لأنه أحس بالضياع . فانحرف الى المخدرات أو الى الخمر أو الى الزنا وغير ذلك من الرذائل التى نراها جيل ضائع . من الذى أضاعه ؟ عدم صلة الرحم .

واذا تحدثنا عن الانحرافات التى نراها بين الشباب اليوم فلا نلوم الشباب ، ولكن نلوم الآباء والأمهات الذين تركوا أولادهم وبناتهم وأهدروا صلة الرحم . فشب جيل يعانى من عقد نفسية لا حدود لها ، ان الابن الذى يفقد جو الأسرة . يفقد ميزان

حياته . والله سبحانه وتعالى يريد المؤمنين متضامنين متحابين خالين من كل العقد التى تحطم الحياة . اذن فعدم صلة الرحم تضيع اجيالا بأكملها .

ونأتى بعد ذلك الى الصفة الثالثة من صفات الفاسقين بقوله تعالى : « ويفسدون فى الأرض » . نقول : كل ما فى الكون مخلوق على نظام : « قَدَّرَ فَهَدَى » أى كل شيء له هدى لابد أن يتبعه . ولكن الانسان جاء فى مجال الاختيار وأفسد قضية الصلاح فى الكون

ومن رحمة الله أنه جعل فى كونه خلقا يعمل مقهورا . ليضبط حركة الكون الأعلى . فالشمس والنجوم والأرض وكل الكون ماعدا الانس والجان يسير وفق نظام دقيق لماذا ؟ لأنه يسير بلا اختيار له . والحق جل جلاله أخبرنا بأنه لكى يعتدل ميزان حياتنا . فلنحكم انفسنا بمنهج الله كما أن الكون المقهور محكوم بمنهج الله . فليس معنى الاختيار الانسان أن يبتعد عن منهج الله . لأن الله له صفة القهر فهو يستطيع أن يخلقنا مقهورين ، ولكنه أعطانا الاختيار حتى نأتيه عن حب . وليس عن قهر فأنت تحب الشهوات ولكنك تحب الله أكثر فتتقيد نفسك بمنهج الله . اذن فالاختيار لم يُعْطَ لك لِتُفْسِدَ فى الأرض . ولكنه أُعطى لنا . لنأتى الله سبحانه وتعالى طائعين ولسنا مقهورين .

ولذلك فكل منا مختار فى أن يؤمن أولا يؤمن . وهذا الاختيار يثبت محبوبية الله سبحانه وتعالى فى قلوبنا . ولكن الانسان بدلا من أن يأخذ الاختيار ليأتى الله عن حب . فينال الجزاء الأعظم . أخذه ليفسد فى الأرض . .

والفساد أن تنقل مجال افعل ولا تفعل . فتضع هذه مكان هذه فينقلب الميزان أى أنك فيما قال الله فيه افعل . لا تفعل ، وفيما قال لا تفعل . تفعل . .

فتكون قد جعلت ميزان حياتك معكوسا . لماذا ؟ لأننا غير محكومين بقاعدة كلية تنظم حياة الناس . فكل واحد سيضع قاعدة له . وكل واحد لن يفعل ما عليه فيحدث تصادم فى الحياة . وكل فساد يشكل قبحا فى الوجود . فهب انك تسير فى الطريق وترى عمارة مبنية حديثا قد تسربت المياه من مواسيرها . عندما ترى ذلك تتأذى . لأن هناك قبحا فى الوجود فى عدم امانة انسان فى عمله اذن فحين يفسد

عامل واحد . بعدم الاخلاص فى عمله . يفقد الكون نعمة يحبها الله . فى أن ترى الشيء الجميل . فتقول : الله . .

فكل انسان غير أمين فى عمله . يفسد فى الكون . وكل انسان غير أمين فى خلقه يفسد فى الكون . ويعتدى على حرمات الآخرين وأموالهم . وهذا يجعل الكون قبيحا ، فلايوجد انسان يأمن على عرضه وماله . . .

لقد أراد المعتدى أن يحقق ما ينفع به نفسه عاجلا . ولكنه أحدث فسادا فى الكون . كذلك عندما يغش التاجر الناس . وعندما يكتسب الانسان المال بالنهب والسرقة . فيفتح الله عليه أسوأ مصارف للمال فى الوجود . فهو أخذ الحسرة بالفساد فى الأرض .

والفساد فى الأرض أن تخرج الشيء عن حد اعتداله . فتسرف فى شهواتك وتسرف فى أطماعك . وتسرف فى عقابك للناس . وتسرف بابتعادك عن طريق الخير . والفساد فى الأرض أن يوجد منهج مطبق غير منهج الله .

إن غياب منهج الله معناه أن يصبح كل منا عبد أهوائه . واذا صارت الأمور حسب أهواء الناس . جاءت لهم حركة الحياة بالشقاء والشر بدلا من السعادة والأمن . ان ما نراه اليوم من شكوى الناس علامة على الفساد .

لأن معناها أن الناس تعانى ولا أحد يتحرك . ليرفع أسباب هذه الشكوى . ولن يستقيم أمر هذا الوجود ، ويتخلص من الفساد الا اذا حكمنا منهج لا هوى له . والذى لا هوى له هو خالق البشر . واضع ميزان الكون .

وأول مظاهر الفساد أن يوكل الأمر الى غير أهله لأنه اذا أعطى الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة . كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة »(١)

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة .

لماذا ؟ لأن المجتمع ـ حينئذ ـ يكون مبنيا على النفاق واختلال الأمور ، لا على الاتقان والاخلاص . فالذى يجيد النفاق هو الذى يصل الى الدرجات العلا ، والذى يتقن عمله لا يصل الى شىء . وتكون النتيجة أن مجموعة من المنافقين الجهلة هم الذين يسيرون الأمور بدون علم . والفساد فى الأرض هو أن يضيع الحق . ويضيع القيم . ويصبح المجتمع غابة كل انسان يريد أن يحقق هواه بصرف النظر عن حقوق الآخرين . ويحس من يعمل ولا يصل الى حقه أنه لا فائدة من العمل ، فيتحول المجتمع كله الى مجموعة من غير المنتجين .

والفساد فى الأرض هو أن نجعل عقولنا هى الحاكمة فلا نتأمل فى ميزان الكون الذى خلقه الله ، وانما نمضى بعقولنا نخطط . فنقطع الأشجار ونرمى مخلفات المصانع فى الأنهار فنفسدها . ونأتى بالكيماويات السامة نرش بها الزرع أو مجارى المياه والأنهار كما يحدث الآن فنملؤه سُماً ثم نأكله ثم نجد التلوث قد ملأ الكون وطبقة الأوزون قد أصابها ضرر واسع يعرض حياة البشر على الأرض لأخطار كبيرة . وتفسد مياه الأنهار . ولا تصبح صالحة للشرب ولا للرى . ويضيع الخير من الدنيا بالتدريج . والفساد فى الأرض هو أن ينتشر الظلم . وتصبح الحياة سلسلة لا تنتهى من الشقاء والفساد فى الأرض هو أن تضيع الأمانة . فتفسد المعاملات بين الناس . وتضيع الحقوق .

هذه هى بعض أوجه الفساد فى الأرض . والله سبحانه وتعالى قد وضع قانونا كليا ، هو منهجه يتعامل به الناس ولكن الناس تركوه ومشوا يتخبطون فى ظلام الجهل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من استعمل رجلا من عصابة ، وفيهم من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين »(1)

وهكذا يكون مدى حرص الاسلام على استقامة أمور الناس .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « أولئك هم الخاسرون »

خسروا ماذا ؟ خسروا دنياهم وآخرتهم وخسروا أنفسهم . لأن الانسان له حياتان .. حياة قصيرة فى الدنيا مليئة بالمتاعب وحياة طويلة خالدة فى الآخرة .

(1) رواه الحاكم عن ابن عباس

والذى يبيع الحياة الأبدية ونعيمها وخلودها بحياة الدنيا التى لا يضمن فيها شيئا ، يكون من الخاسرين .. فعمر الانسان قد يكون يوما أو شهرا او عاما . والحياة الدنيا مهما طالت فهى قصيرة . ومهما أعطت فهو قليل . فالذى يبيع آخرته بهذه الدنيا ، أيكون رابحا أم خاسرا ؟ طبعا يكون خاسرا . لأنه اشترى مالا يساوى بنعيم الله كله ..

واذا كان الانسان قد نسى الله سبحانه وتعالى وهو لاقيه حتما . ثم يبعث يوم القيامة ليجده أمامه . فيوفيه حسابه . أيكون قد كسب أم خسر ؟! .. طبعا يكون خاسرا . لأنه أوجب على نفسه عذاب الله . وأوجب على نفسه عقاب الله .

ان قوله تعالى : « الخاسرون » تدل على أن الصفقة انتهت وضاع كل شيء لأن نتيجتها كانت الخسران ، وليس الخسران جوقوتا ، ولا هو خسران يمكن أن يعوض فى الصفقة القادمة . بل هو خسران أبدى . والندم عليها سيكون شديدا . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة النبأ)

فلماذا يتمنى الكافر أن يكون ترابا ؟ لهول العذاب الذى يراه أمامه . وهول الخسران الذى تعرض له . وهذا دليل على شدة الندم . يوم لا ينفع الندم . على أنه سبحانه وتعالى تحدث فى هذه الآية عن الخاسرين . ولكنه جل جلاله تحدث فى آية اخرى عن الاخسرين . فقال تعالى :

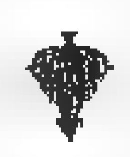
﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فهناك خاسر . وهناك من هو أخسر منه . والأخسر هو الذي كفر بالله جل جلاله . وبيوم القيامة . واعتقد أن حياته في الدنيا فقط . ولم يكن الله في باله وهو يعمل أي عمل ، بل كانت الدنيا هي التي تشغله . ثم فوجىء بالحق سبحانه وتعالى يوم القيامة . ولم يحتسب له أية حسنة ، لأنه كان يقصد بحسناته الحياة الدنيا . فلا يوجد له رصيد في الآخرة .

والعجيب أنك ترى الناس يعدون للحياة الدنيا اعدادا قويا فيرسلون أولادهم الى مدارس لغات . ويتحملون في ذلك مالا يطيقون . ثم يدفعونهم الى الجامعات . أو الى الدراسة في الخارج . هم في ذلك يعدونهم لمستقبل مظنون . وليس يقينا . لأن الانسان يمكن أن يموت وهو شاب . فيضيع كل ما أنفقوه من أجله ويمكن أن ينحرف في آخر مراحل دراسته . فلا يحصل على شيء . ويمكن أن يتم هذا الاعداد كله ، ثم بعد ذلك يرتكب جريمة يقضي فيها بقية عمره في السجن . فيضيع عمره .

ولكن اليقين الذي لاشك فيه هو اننا جميعا سنلاقي الله سبحانه وتعالى يوم القيامة . وسيحاسبنا عن أعمالنا . ومع أن هذا يقين ، فإن كثيرا من الناس لا يلتفتون اليه . يعدون للمستقبل المظنون . ولا يحس واحد منهم بيقين الآخرة . فتجد قليلا من الآباء هم الذين يبذلون جهدا لحمل أبنائهم على الصلاة وعبادة الله والأمانة وكل ما يقربهم الى الله . انهم ينسون النعيم الحقيقي ويجرون وراء الزائل فتكون النتيجة عليهم وبالا في الآخرة .



﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾

كيف في اللغة للسؤال عن الحال . والحق سبحانه وتعالى أوردها في هذه الآية الكريمة ليس بغرض الاستفهام ، ولكن لطلب تفسير أمر عجيب ما كان يجب أن يحدث . وبعد كل ما ورده الحق سبحانه وتعالى في آيات سابقة من أدلة دامغة عن خلق السموات والأرض وخلق الناس .. أدلة لا يستطيع أحد أن ينكرها لو يخطئها .. فكيف بعد هذه الأدلة الواضحة تكفرون بالله ؟ .. كفركم لا حجة لكم فيه ولا منطق .. والسؤال يكون مرة لتوبيخ .. كأن تقول لرجل كيف تسب أباك ؟ أو للتعجب من شيء قد فعله وما كان يجب ان يفعله .. وكلاهما متلاقيان . سواء كان المقصد التوبيخ او التعجب فالمقصد واحد .. فهذا ما كان يجب ان يصح منك . ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بأدلة اخرى لا يستطيع أحد أن ينكرها او يكذب بها . فيقول جل جلاله : « وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ »

وهكذا ينتقل الكلام الى اصل الحياة والموت . فبعد ان بين الحق سبحانه وتعالى .. ماذا يفعل الكافرون والفاسقون والمنافقون من افساد في الأرض وقطع لما أمر الله سبحانه وتعالى به أن يوصل .. صعد الجدل الى حديث عن الحياة والموت . وقوله تعالى « كنتم أمواتا فأحياكم » قضية لا تحتمل الجدل . ربما استطاعوا المجادلة في مسألة عدم اتباع المنهج ، او قطع ما أمر الله به ان يوصل ..

ولكن قضية الحياة والموت لا يمكن لأحد أن يجادل فيها . فالله سبحانه وتعالى خلقنا من عدم .. ولم يدع أحد قط أنه خلق الناس أو خلق نفسه .. وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال للناس ان الذى خلقكم هو الله .. لم يستطع أحد أن يكذبه ولن يستطيع .. ذلك أننا كنا قبلا غير موجودين في الدنيا .. والله سبحانه وتعالى هو الذى أوجدنا واعطانا الحياة .

وقوله تعالى : « ثم يميتكم » . فإن أحدا لايشك فى أنه سيموت .. الموت مقدر على الناس جميعا .. والخلق من العدم وقع بالدليل .. والموت واقع بالحس والمشاهدة ..

إن قضية الموت هي سبيلنا لمواجهة أى ملحد .. فإن قالوا إن العقل كاف لادارة الحياة .. وانه لا يوجد شيء اسمه غيب .. قلنا : الذى تحكم فى الخلق عهادء ، هو الذى يتحكم فيه موتا . والحياة الدنيا هى مرحلة بين قوسين .. القوس الأول هو أن الله يخلقنا ويوجدنا .. وتمضى رحلة الحياة الى القوس الثانى الذى تخمد فيه بشريتنا وتتوقف حياتنا وهو الموت . أى أننا فى رحلة الحياة من الله واليه ..

اذن فحركة الحياة الدنيا هى بداية من الله بالخلق ونهاية بالموت

إنهم عندما تحدثوا عن اطفال الانابيب . وهى عملية لعلاج العقم أكثر من اى شيء آخر .. ولكنهم صوروها تصويرا جاهليا وكل ما يحدث أنهم يأخذون بويضة من رحم الأم التى يكون انهبل عندها مسدودا أو لا يسمح بالتلقيح الطبيعى . يأخذون هذه البويضة من رحم الأم .. ويخصبونها بحيوانات المنوية للزوج .. ثم يزرعونها فى رحم الأم .

إنهم أخذوا من خلق الله وهى بويضة الأم والحيوان المنوى من الرجل .. وكل ما يفعلونه هو عملية التلقيح ومع ذلك يسمونه اطفال الانابيب .. كأن الانبوبة يمكن ان تخلق طفلا !! والحقيقة غير ذلك .. فبويضة الأم ، والحيوان المنوى للرجل هما من خلق الله .. وهم لم يخلقوا شيئا .. أننا نقول لهم . اذا كنتم تملكون الموت والحياة فامنعوا انسانا واحدا أن يموت بدلا من انفاق ألوف الجنيهات فى معالجة عقم قد ينجح أو لا ينجح . ابقوا واحدا على قيد الحياة . ولن يستطيعوا ..

إن الموت أمر حسى مشهد ولذلك فمن رحمة الله بالعقل البشرى بالنسبة للأحداث الغيبية أن الله سبحانه وتعالى قربها لنا بشيء مشهد . كيف؟ عندما ينظر الانسان الى نفسه وهو حى .. لا يعرف كيف أحياه الله وكيف خلقه الله سبحانه وتعالى ذكر لنا غيب الخلق فى القرآن الكريم فقال جل جلاله أنه خلق الانسان من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون ثم نفخ فيه من روحه ..

واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾

(من الآية ١١ سورة الصافات)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وقوله تعالى .

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة ص)

ماحق تبارك وتعالى أخبرنا عن مرحلة في الخلق لم نشهدها . . ولكن الموت شيء مشهود لنا جميعا . ومادام مشهودا لنا ، يأتي الحق سبحانه وتعالى به كدليل على مراحل الخلق التي لم نشهدها . . فالموت نقض للحياة . والحياة أخبرنا الله تبارك وتعالى بأطوارها . ولكنها غيب لم نشهده . .

ولكن الذي خلق قال أنا خلقتك من تراب . من طين . من حمأ مسنون . من صلصال كالفخار . . فالماء وضع على تراب فأصبح طينا . . والطين تركناه فتغير لونه وأصبح صلصالا . . الصلصال . . جف فأصبح حمأ مسنونا ، ثم نحته في صورة انسان ونفخ الحق سبحانه وتعالى فيه الروح فأصبح بشرا . . ثم يأتي الموت وهو نقض للحياة . . ونقض كل شيء يأتي على عكس بنائه . .

بناء العمارة يبدأ من أسفل الى أعلى . . وهدمها يبدأ من أعلى الى أسفل . . ولذلك فان آخر مرحلة من رحلة ما . . هي أول خطوة في طريق العودة . . فاذا كنت مسافرا الى الاسكندرية . . فأول مكان في طريق العودة هو آخر مكان وصلت اليه .

أول شيء يخرج من الجسد هو الروح وهو آخر ما دخل فيه . . ثم بعد ذلك يتصلب الجسد ويصبح كالحمأ المسنون . . ثم يتعفن فيصبح كالصلصال . ثم يتبخر الماء الذي فيه فيعود ترابا . وهكذا يكون الموت نقض صورة الحياة . . متفقا مع المراحل التي بينها لنا الحق سبحانه وتعالى . .

وقوله تعالى « ثم اليه ترجعون » . . أي أن الله تبارك وتعالى يبعثكم ليحاسبكم . . لقد حاول الكفار والملحدون وأصحاب الفلسفة المادية ان ينكروا قضية البعث . . وهم في هذا لم يأتوا بجديد . . بل جاءوا بالكلام نفسه الذي قاله أصحاب الجاهلية الأولى . واقرأ قوله تعالى عما يقوله أصحاب الجاهلية الأولى :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الجاثية)

وامنية الكافر والمسرف على نفسه . . الا يكون هناك بعث أو حساب . . والذين يتعجبون من ذلك نقول لهم : ان الله سبحانه وتعالى الذي أوجدكم من عدم

يستطيع أن يعيدكم وقد كنتم موجودين .. يقول جل جلاله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾

(سورة الروم)

فإيجاد ما كان موجودا أسهل من الإيجاد من عدم على غير مثال موجود .. والله سبحانه وتعالى يرد على الكفار فيقول سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾

(سورة يس)

وهكذا فإن البعث أهون على الله من بداية الخلق .. وكل شيء مكتوب عند الله سبحانه وتعالى فى كتاب مبين .. وما أخذته الأرض من جسد الانسان ترده يوم القيامة .. ليعود من جديد

وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الانسان .. واقرأ قوله وتعالى :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾

(سورة غافر)

وقول الله سبحانه وتعالى : « ثم اليه ترجعون » .. هو الاطمئنان لمن آمن .. ومادمنا اليه نرجع ومنه بدأنا .. فالحياة بدايتها من الله ونهايتها الى الله .. فلنجعلها هى نفسها لله .. ولابد أن نلتفت الى أن الله تبارك وتعالى أخفى عنا الموت زمانا ومكانا وسببا وعمرا .. لم يخفه ليحجبه .. وإنما أخفاه حتى نتوقعه فى كل لحظة .. وهذا اعلام واسع بالموت حتى يسرع الناس الى العمل الصالح .. والى التوبة.لأنه

لا يوجد عمر متيقن فى الدنيا . فلا الصغير آمن على عمره .. ولا الشاب آمن على عمره .. ولا الكهل آمن على عمره .. ولذلك يجب أن يسارع كل منا فى الخيرات .. حتى لا يفاجئه الموت .. فيموت وهو عاص ..

ونلاحظ أن قصة الحياة جاء الله بها فى آية واحدة والرجوع الى الله . وهو يعنى بالنسبة للمؤمنين . يلزمهم بالمنهج ، فيعيشون من حلال . والتزامهم هذا هو الذى يقودهم الى طريق الجنة . ويطمئنهم على اولادهم بعد أن يرحل الآباء من الدنيا .

فعمل الرجل الصالح ينعكس على أولاده من بعده . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

اذن فصاحب الالتزام بالمنهج ، يطمئن الى لقاء ربه ويطمئن الى جزائه ، والذى لا يؤمن بالآخرة أخذ من الله الحياة فأفناها فيما لا ينفع . ثم بعد ذلك لا يجد شيئا الا الحساب والنار .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

أى أن الكافر سيفاجأ فى الآخرة بالله الذى لم يكن فى باله انه سيحاسبه عن ما فعل .. وقوله تعالى « واليه ترجعون » تقرأ قراءتان . بضمة على التاء . ومرة بفتحة على التاء . الاولى معناها . أننا نُجبَر على الرجوع . فلا يكون الرجوع الى الله تعالى بإرادتنا ، وهذا ينطبق على الكفار الذين يتمنون عدم الرجوع الى الله . أما الثانية « تَرجعون » فهذه فيها ارادة . وهى تنطبق على المؤمنين لأنهم يتمنون الرجوع الى الله .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

يذكرنا الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أنه هو الذي خلق ما في الأرض جميعا . وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : « فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » لتلفتنا الى أن ما في الأرض كله ملك لله جل جلاله ، وأننا لا نملك شيئا الا ملكية مؤقتة . وأن ما لنا في الدنيا سيصير لغيرنا . وهكذا .

والحق سبحانه وتعالى حين خلق الحياة وقال « كنتم أمواتا فأحياكم » كأن الحياة تحتاج الى امداد من الخالق للمخلوق حتى يمكن أن تستمر . فلابد لكي تستمر الحياة أن يستمر الامداد بالنعم . ولكن النعم تظل طوال فترة الحياة ، وعند الموت تنتهي علاقة الانسان بنعم الدنيا . ولذلك لابد أن ينتبه الانسان الى أن الأشياء مسخرة له في الدنيا لتخدمه . وأن هذا التسخير ليس بقدرات أحد ولكن بقدرة الله سبحانه وتعالى . والانسان لا يدري كيف تم الخلق . ولا ماهي مراحله الا أن يخبرنا الله سبحانه وتعالى بها . فهو جل جلاله يقول :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وماداموا لم يشهدوا خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم فلابد أن نأخذ ذلك عن الله ما ينبئنا به الله عن خلق السموات والأرض وعن خلقنا هو الحقيقة وما يأتينا عن غير الله سبحانه وتعالى فهو ضلال وزيف . ونحن الآن نجد بحوثا

كثيرة عن كيفية السموات والأرض وخلق الانسان . وكلها لن تصل الى حقيقة . بل ستظل نظريات بلا دليل . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » أى أن هناك من سيأتى ويضل . ويقول هكذا تم خلق السموات والأرض ، وهكذا خلق الانسان . هؤلاء المضلون الذين جاءوا بأشياء هى من علم الله وحده . جاءوا تثبيتا لمنهج الايمان فلو لم يأت هؤلاء المضلون ، ولو لم يقولوا خلقت الأرض بطريقة كذا والسماء بطريقة كذا . لقلنا ان الله تعالى قد أخبرنا فى كتابه العزيز أن هناك من سيأتى ويضل فى خلق الكون وخلق الانسان ولكن لم يأتوا . فهذا دليل على صدق القرآن الذى أنبأنا بمجيئهم قبل أن يأتوا بقرون .

والاستفادة من الشىء لا تقتضى معرفة أسراره . . فنحن مثلا نستخدم الكهرباء مع أننا لا نعرف ما هى ؟ وكذلك نعيش على الارض ونستفيد بكل ظواهرها وكل ما سخره الله لنا . وعدم علمنا بسر الخلق والايجاد لا يحرمنا هذه الفائدة . فهو علم لا ينفع وجهل لا يضر . والكون مسخر لخدمة الانسان والتسخير معناه التذليل ولا تتمرد ظواهر الكون على الانسان وإذا كانت هناك ظواهر فى الكون تتمرد بقدر الله مثل الفيضانات والبراكين والكوارث الطبيعية . نقول ان ذلك يحدث ليلفتنا الحق سبحانه وتعالى الى أن كل ما فى الكون لا يخدمنا بذاتنا . ولا بسيطرتنا عليه ، وانما يخدمنا بأمر الله له ، والا لو كانت المخلوقات تخدمك بذاتك ما قدر عليها حينما تتمرد على خدمتك وكل ما فى الكون خاضع لطلاقة قدرة الله . حتى الاسباب والمسببات خاضعة أيضا لطلاقة القدرة الالهية فالاسباب والمسببات فى الكون لا تخرج عن ارادة الله

لذلك اذا تمرد الماء بالطوفان . وتمردت الرياح بالعاصفة وتمردت الأرض بالزلازل والبراكين فما ذلك الا ليعرف الانسان أنه ليس بقدرته أن يسيطر على الكون الذى يعيش فيه . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

والانسان عاجز عن أن يخضع حيوانا الا بتذليل الله له .. ومن العجيب أننا نرى الحيوانات تدرك ما لا يدركه الانسان في الكون . فهي تحس بالزلزال قبل أن يقع وتخرج من مكان الزلزال هاربة بينما الانسان لا يستطيع بعقله أن يفهم ما سيحدث .

والحق سبحانه وتعالى في قوله « خلق لكم ما في الأرض جميعا » يستوعب كل أجناس الأرض ولذلك فإن الانسان لا يستطيع أن يوجد شيئا الا من موجود أي أن الانسان لم يستحدث شيئا في الكون فأنت اذا أخذت حبة القمح . من أين جئنا بها ؟ من محصول العام الماضي . ومحصول العام الماضي . من أين جاء ؟ من محصول العام الذي قبله . وهكذا يظل تسلسل الأشياء حتى تصل الى حبة القمح الأولى من أين جاءت ؟ جاءت بالخلق المباشر من الله وكذلك كل ثمار الأرض اذا أعدتها لثمرة الأولى فهي بالخلق المباشر من الله سبحانه وتعالى . فاذا حاولت أن تصل الى أصل وجود الانسان ستجد بالمنطق والعقل .. أن بداية الخلق هي من ذكر وأنثى . خلقه بالخلق المباشر من الله لأنك أنت من أبيك وأبوك من جدك وجدك من أبيه . وهكذا نمضي حتى نصل الى خلق الانسان الأول فنجد أنه لابد أن يكون خلقا مباشرا من الله سبحانه وتعالى . وما ينطبق على الانسان ينطبق على الحيوان وعلى النبات وعلى الجماد . فكل شيء اذا رددته لأصله تجد أنه لابد أن يبدأ بخلق مباشر من الله سبحانه وتعالى .

بعض الناس يتساءل عن الرقي والحضارة وهذه الاختراعات الجديدة أليس للانسان فيها خلق ؟ . نقول فيها خلق من موجود والله سبحانه وتعالى كشف من علمه للبشر ما يستطيعون باستخدام المواد التي خلقها الله في الأرض أن يرتقوا ويصنعوا أشياء جديدة ولكننا لم نجد ولم نسمع عن انسان خلق مادة من عدم

الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق كل ما في هذا الكون من عدم . ثم بعد ذلك تكاثرت المخلوقات بقوانين سخرها الله سبحانه وتعالى لها ولكن كل هذا التطور راجع الى أن الله خلق المخلوقات وأعطاها خاصية التناسل والتزاوج لتستمر الحياة جيلا بعد جيل . وكل خلق الله الذي تراه في الكون الآن قد وضع الله سبحانه وتعالى فيه من قوانين الأسباب ما يعطيه استمرارية الحياة من جيل الى جيل حتى ينتهي الكون فاذا قال لك انسان : أنا أزرع بذكائي وعلمي . فقل له أنت تأتي

بالبذرة التي خلقها الله . وتضعها في الأرض المخلوقة لله . وينزل الله سبحانه وتعالى الماء عليها من السماء . وتنبت بقدرة الله الذي وضع فيها غذاءها وطريقة انباتها . اذن فكل ما يحدث أنك تحرث الأرض . وترمى البذرة . يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

صحيح أن الانسان يقوم بحرث الارض ورمى البذرة . وربما تعهد الزرع بالعناية والرى . ولكن ليس في كل ما يفعله مهمة خلق . بل ان الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء . ولو كنت تزرع بقدرتك فأت ببذرة من غير خلق الله . وأرض لم يخلقها الله . وماء لم ينزله الله من السماء . وطبعا لن تستطيع . . ولكن ما هو مصير الأشياء التي استحدثت ؟

نقول إن هناك فرقا بين وجود الشيء بالقوة . ووجوده بالفعل . . فالنخلة مثلا حية كانت موجودة بالقوة . كانت نواة . ثم زرعت فأصبحت موجودة بالفعل . وأنت لا عمل لك في الحالتين فلا أنت بقدرتك خلقت النواة ـ التي هي البذرة ـ ولا أنت بعملك جعلت النواة تكبر . لتصير نخلة بالفعل . على ان هناك أشياء مطمورة في الكون . خلقها الله سبحانه وتعالى مع بداية الخلق . ثم تركها مطمورة في الكون . حتى كشفها الله لمن يبحث عن اسراره في كونه .

وكل كشف له ميلاد . اذا أخذنا مثلا ما تحت الثرى . أو الكنوز الموجودة تحت سطح الأرض . لقد ظلت مطمورة حتى هدى الله الانسان اليها . وعلمه كيف يستخرجها . فالانسان لم يخترع مثلا أو يوجد البترول او المعادن . ولكنها كلها كانت مطمورة في الكون حتى جاء الوقت الذى يجب أن تؤدى فيه دورها في الحياة . فدلنا الحق عليها . فليس معنى أن الشيء كان غائبا عنا أنه لم يكن موجودا . أو أنه وجد لحظة اكتشافنا له . فالشيء الحادث الآن . والشيء الذى سيحدث بعد سنوات . خلق الله سبحانه وتعالى كل عناصره . وأودعها في الأرض لحظة الخلق . والانسان بما يكشف الله له من علم يستطيع تركيب هذه العناصر . ولكنه لا يستطيع خلقها أو ايجادها . والحق سبحانه وتعالى يقول : « ثم استوى إلى السماء »

حينما يقول الله جل جلاله استوى .. يجب ان نفهم كل شيء متصل بذات الله على أنه سبحانه ليس كمثله شيء . فالله استوى والملوك تستوى على عروشها . وانت تستوى على كرسيك . ولكن لأننا محكومون بقضية « ليس كمثله شيء » لابد أن نعرف أن استواء الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء.والله حي . وأنت حي . هل حياتك كحياته ؟ والله سبحانه وتعالى يعلم وأنت تعلم.هل علمك كعلمه ؟ والله سبحانه وتعالى يقدر . وأنت تقدر . هل قدرتك كقدرته . طبعا لا . فعندما تأتى الى « استوى » فلا تحاول أن تفهمها ابدا بالمفهوم البشرى .. فالله سبحانه وتعالى يعلم ما فى الأرض وما فى السماء وهو سبحانه يعلم المكان بكل ذراته والموجودين فى هذا المكان او المكين . بكل ذراته . وأنت تعرف ظاهر الأمر . والله سبحانه وتعالى يعلم غيب السموات والأرض حتى يوم القيامة . وبعد يوم القيامة اذن فهو جل جلاله . ليس كمثله شيء . ولا يمكن أن تحيط أنت بعقلك بشيء يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى . فعقلك قاصر عن أن يدرك ذلك . لذلك قل سبحان الله . ليس كمثله شيء فى كل فعل يتصل بذات الله . « استوى الى السماء » هذا الكلام هو كلام الله . فالمتحدث هو الله عز وجل .

بعض الناس يقولون تلقينا القرآن وحفظناه . نقول لهم ان الذى حفظ القرآن هو الله سبحانه وتعالى . ومادام قد حفظ كلامه فهو جل جلاله يعلم أن الوجود كله لن يتعارض مع القرآن الكريم . والله سبحانه وتعالى حفظ القرآن ليكون حجة له على الناس.ومادام الله جل جلاله هو الخالق . وهو القائل . فلا توجد حقيقة فى الكون كله تتصادم مع القرآن الكريم .. واقرأ قوله سبحانه وتعالى .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ ﴾

(سورة الحجر)

وهذا من عظمة الله ان حفظ كلامه ليكون حجة على الناس والله سبحانه وتعالى وجدت صفاته قبل أن توجد متعلقات هذه الصفات . فهو جل جلاله . خلق لأنه خالق . كأن صفة الخلق وجدت أولا . والا كيف خلق أول خلقه . ان لم يكن سبحانه وتعالى خالقا ؟

والله سبحانه وتعالى رزاق . قبل أن يوجد من يرزقه . والا فأي قدرة رزق الله

أول خلقه ؟ والله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون بكمال صفاته . وشهد أنه لا إله إلا هو قبل أن يشهد أي من خلق الله أنه لا إله إلا الله . واقرأ قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾

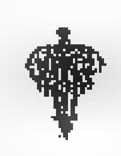
(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

فالله سبحانه وتعالى شهد أنه لا إله إلا هو قبل أن يوجد أحد من خلقه يشهد بوحدانية الوهيته . شهد أنه لا إله إلا هو قبل أن يخلق الملائكة ليشهدوا شهادة مشهد بأنه لا إله إلا الله . وأولو العلم شهادة علم . فكأن شهادة الذات للذات . في قوله تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو » هي التي يعتد بها ، وهي أقوى الشهادات ، فالله ليس محتاجا من خلقه إلى امتداد الشهادة .

الله سبحانه وتعالى . خلق الأرض وخلق السماء واستتب له الأمر . قال « وهو بكل شيء عليم » أي لا تغيب ذرة من ملكه عن علمه . فهو عليم بكل ذرات الأرض وكل ذرات الشمس . وكل ذرات الكون . والكون كله لا يعمل إلا بإذنه ومراده . واقرأ قوله تعالى :

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة لقمان)



﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

بعد أن أخبرنا الحق سبحانه وتعالى أنه خلق جميع ما في الكون أراد أن يخبرنا عمن خلقه لعمارة هذا الكون . فكانت القصة التي بدأ الله سبحانه وتعالى بها قصص القرآن كانت هي قصة آدم أول الخلق . ولقد وردت هذه القصة في القرآن الكريم كثيرا لتدلنا بما أخبرنا الحق سبحانه وتعالى بهذه القصة ؟ وجاءت لتدلنا أيضا على صدق البلاغ عن الله . واقرأ قوله تعالى :

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الكهف)

كلمة الحق التي جاءت هنا لتدلنا على أن هناك قصصا ولكن بغير حق والله سبحانه وتعالى أراد أن يخرج قصصه عن دائرة القصص التي يتداولها الناس أو قصص التاريخ لإمكان مخالفتها الواقع ويأتي بغير حق وهناك قصص تروى في الدنيا ولا واقع لها ، بل هي من قبيل الخيال

وكلمة قصة مأخوذة من قص الأثر بمعنى أن يتبع قصاص الأثر في الصحراء الأثر التي يشاهدها في الرمال حتى يصل إلى مرتبه عندما يصل إلى نهاية الأثر . وما دمنا قد عرفنا أن الله يقص الحق نعرف أن قصص القرآن الكريم كلها أحداث وقعت فعلا ولكل قصة في القرآن عبرة أو شيء مهم يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إليه فمرة تكون القصة تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم وتثبيت

المؤمنين واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة هود)

فكل قصة تثبت فؤاد الرسول والمؤمنين فى المواقف التى تزلزلهم فيها الأحداث وقصص القرآن ليست لقتل الوقت . ولكن الهدف الأسمى للقصة هو تثبيت ودفع حركة الحياة الايمانية ولو نظرنا إلى قصص القرآن الكريم نجد أنها تتحدث عن أشياء مضت وأصبحت تاريخا والتاريخ يربط الأحداث بأزمانها وقد يكون التاريخ لشخص لا لحدث . ولكن الشخص حدث من أحداث الدنيا . ولو قرأت تاريخ كل حدث لوجدت أنه يعبر عن وجهة نظر راويه . فكل قصص التاريخ كتبت من وجهات نظر من رووها . ولذلك فالقصة الواحدة تختلف باختلاف الراوى .

ولكن قصص القرآن الكريم . هو القصص الحق . والعبرة فى قصص القرآن الكريم أنها تنقل لنا أحداثا فى التاريخ تتكرر على مر الزمن . ففرعون مثلا هو كل حاكم يريد أن يُعْبَد فى الأرض وأهل الكهف مثلا هى قصة كل فئة مؤمنة هربت من طغيان الكفر واعتزلت لتعبد الله وقصة يوسف عليه السلام هى قصة كل اخوة نزغ الشيطان بينهم فجعلهم يحقدون على بعضهم . وقصة ذى القرنين هى قصة كل حاكم مصلح أعطاه الله سبحانه الأسباب فى الدنيا ومكنه فى الأرض . فعمل بمنهج الله وبما يرضى الله . وقصة صالح هى قصة كل قوم طلبوا معجزة من الله فحققها لهم فكفروا بها . وقصة شعيب عليه السلام هى قصة كل قوم سرقوا فى الميزان والمكيال

وهكذا كل قصص القرآن . قصص تتكرر فى كل زمان حتى فى الوقت الذى نعيش فيه نجد فيه أكثر من فرعون . وأكثر من أهل كهف يفرون بدينهم . وأكثر من قارون يعبد المال والذهب . . ويحسب أنه استغنى عن الله ولذلك جاءت شخصيات قصص القرآن مجهلة الا قصة واحدة هى قصة عيسى بن مريم ومريم ابنة عمران . لماذا ؟ لأنها معجزة لن تتكرر . ولذلك عرفها الله لنا فقال « مريم ابنة عمران » وقال « عيسى بن مريم » حتى لا يلتبس الأمر . وتدعى أى امرأة أنها حملت

بدون رجل . مثل مريم . نقول . لا . معجزة مريم لن تتكرر . ولذلك حددها الله تعالى بالاسم . فقال : عيسى بن مريم . ومريم ابنة عمران . . اما باقي قصص القرآن الكريم فقد جاءت مبهمة . فلم يقل لنا الله تعالى من هو فرعون موسى . ولا من هم أهل الكهف ولا من هو ذو القرنين ولا من هو صاحب الجنتين . الى آخر ما جاء في القرآن الكريم لأنه ليس المقصود بهذه القصص شخصا بعينه . لا تتكرر القصة مع غيره ، وبعض الناس يشغلون أنفسهم بمن هو فرعون موسى ؟ ومن هو ذو القرنين . . . الخ نقول لهم لن تصلوا الى شيء لأن الله سبحانه وتعالى قد روى لنا القصة دون ترضيح للأشخاص نعرف أنه ليس المقصود شخصا بعينه ولكن المقصود هو الحكمة من القصة .

والقصص في القرآن لا ترد مكررة . وقد يأتي بعض منها في آيات . وبعض منها في آيات أخرى . ولكن اللقطة مختلفة . تعطينا في كل آية معلومة جديدة . بحيث انك اذا جمعت كل الآيات التي ذكرت في القرآن الكريم . تجد أمامك قصة كاملة متكاملة . كل آية تضيف شيئا جديدا

وأكثر القصص في القرآن الكريم قصة موسى عليه السلام . ويذكرنا القرآن الكريم بها دائما لأن أحداثها تعالج قصة أسرا البشر في التاريخ . وفي كل مناسبة يذكرنا الله بلقطة من حياة هؤلاء . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ ﴾

(الآية ٧ سورة القصص)

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۝٣٨ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾

(الآيتان ٣٨ ، ٣٩ سورة طه)

والفهم السطحي يظن أن هذا تكرار ونقول لا . فقوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم »

هذه اللقطة تدل على أن الله سبحانه وتعالى يعد أم موسى اعدادا إيمانيا للحدث ولكن عند وقوع الحدث تتغير القصة على نمط سريع « أن أقذفيه في التابوت » فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل » . كلام يناسب لحظة وقوع الحدث . . فالآية الأولى . . بينت لنا أن أم موسى أرضعته قبل أن تضعه في التابوت . وأنها ستلقيه في اليم عندما يحدث خطر وتخاف عليه من القتل وفيه تطمين لها . الا تخاف ولا تحزن لأن الله منجيه وفيها بشارتان أن الله سيرده لأمه وأن الله قد اختاره رسولا .

تأتي إلى الآية الثانية التي تكمل لنا هذه القصة فتقول « اقذفيه في التابوت » هنا نعرف أن أم موسى ستلقيه في تابوت ، وهو ما لم يذكر في الآية السابقة ثم بعد ذلك نعلم أن الله سبحانه وتعالى أصدر أمره الى الماء أن يلقي التابوت الى الساحل . وهذا ما لم يرد في الآية السابقة . ونعرف أيضا أن الذي سيأخذه وهو فرعون . سيكون بينهما عداوة متبادلة . . وهكذا نرى أن آيات القصة . يكمل بعضها بعضا . وليس هناك تكرار . والله سبحانه وتعالى في الآية الثانية يريد أن يثبت أنه ستكون هناك عداوة متبادلة بين موسى وفرعون كما أثبت عداوة فرعون لله جل جلاله ولموسى ، فقال « عدو لي وعدو له » ولكن العداوة لا تستقر الا اذا كانت متبادلة فتأتي آية ثالثة لتكمل الصورة .. في قوله تعالى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

وهكذا بينت لنا الآية الكريمة كيف أن العداوة بين فرعون وموسى ستستقر حتى يقضي على فرعون . لأنه اذا كان انسان عدوا لك . وأنت تقابل العداوة بالاحسان تخمد العداوة بعد قليل . اذن هذه الآيات ليست تكرار ولكنها آيات تكمل القصة . وتعطي الصورة الكاملة المتكاملة .

ولكن لماذا لم تأت قصة موسى متكاملة كقصة يوسف ؟ لأن الله سبحانه وتعالى

يريد أن يثبت بها نبيا عليه الصلاة والسلام والمؤمنين فتأتي هنا لقطة وهنا لقطة لتؤدي ما هو مطلوب من التثبيت بما لا يخل لأن الآيات تعطينا القصة متكاملة وهكذا قصة آدم جاءت لنا في آيات متعددة ، لتعطينا في مجموعها قصة كاملة وفي الوقت نفسه كل آية لها حكمة يحتاج إليها التوقيت الذي نزلت فيه والله سبحانه وتعالى يروي لنا بداية الخلق ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب »[1]

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعرفنا كيف بدأ الخلق وقصة عداوة إبليس لآدم وذريته . فتكلم الله سبحانه وتعالى عن أول البشر عرفنا اسمه . وهو آدم عليه السلام ويتكلم عن المادة التي خلق منها وتكلم عن المنهج الذي وضعه لآدم وحدثنا عن النقاش الذي دار مع الملائكة كما أخبرنا بأن آدم سيكون خليفة في الأرض وأنه علمه الأسماء كلها ليقود حركة حياته وعلمنا سطق علم الأشياء . وعلم مسمياتها . وحدثنا عن الحوار الذي حدث بين إبليس أمام ربه حينما أبى السجود وبين لنا حجة إبليس في الامتناع عن السجود ، وخطة إبليس ومداخله إلى قلوب المؤمنين بالأهواء والوسوسة وغير ذلك .

إذن فهناك أشياء كثيرة تعرض لها قصة آدم ، ولو أن بشرا يريد أن يؤرخ لآدم ما استطاع أن يأتي بكل هذه اللقطات ولكن الحق سبحانه وتعالى جعل كل لقطة تأتي للتثبيت

والآية الكريمة التي نحن بصددها لم تأت في الأعراف ولا في الحجر ولا في الإسراء ولا في الكهف ولا في طه . وبهذا نعرف أنه ليس هناك تكرار . فالله سبحانه وتعالى أخبر ملائكته أنه جاعل في الأرض خليفة هنا لا بد لنا من وقفة أخلق آدم كفرد أم خلقه الله وكل ذريته مطمورة فيه إلى يوم القيامة . إذا قرأنا القرآن الكريم نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾
(من الآية ١١ سورة الأعراف)

---

(١) رواه البزار عن حذيفة بإسناد حسن

الخطاب هنا للجمع . لآدم وذريته . فكأنه سبحانه وتعالى يشير الى أن الأصل الأول للخلق آدم ، وهو مطمور فيه صفات المخلوقين من ذريته الى أن تقوم الساعة وراثة . أي أنه ساعة خلق آدم . كان فيه الذرات التي سيأخذ منها الخلق كله . هذا من هذا . حتى تقوم الساعة

ولقد قلتُ إن كل واحد منا فيه ذرة أو جزيء من آدم ، فأولاد آدم أخذوا منه والجيل الذي بعدهم أخذ من الميكروب الحي الذي أودعه آدم في أولاده . والذين بعدهم أخذوا أيضا من الجزيء الحي الذي خلق في الأصل مع آدم . وكذلك الذين بعدهم . والذين بعدهم . والحياة لابد أن تكون حلقة متصلة . كل ما يأخذ من الذي قبله ويعطي الذي بعده . ولو كان هناك حلقة مفقودة لتوقفت الحياة . كأن يموت الرجل قبل أن يتزوج . فلا تكون له ذرية من بعده . تتوقف حلقة الحياة فكون حلقة الحياة مستمرة . دليل أنها حية متصلة . لم تتوقف . ومادامت الحياة من عهد آدم الى يومنا هذا متصلة . فلابد أن يكون في كل منا ذرة من آدم الذي هو بداية الحياة وأصلها . وانتقلت هذه الحياة في حلقات متصلة الى يومنا هذا وستظل الى يوم القيامة

فأنت الآن حي . لأنك نشأت من ميكروب حي من أبيك . وأبوك أخذ حياته من ميكروب حي من أبيه . وهكذا حتى تصل الى آدم ، اذن فأنت مخلوق من جزيء حي فيه الحياة لم تتوقف منذ آدم الى يومنا هذا . ولو توقفت لما كان لك وجود .

اذن فحياة الذين يعيشون الآن موصولة بآدم . لم يطرأ عليها موت . والذين سيعيشون وقت قيام الساعة حياتهم أيضا موصولة بآدم أول الخلق . والحق سبحانه وتعالى . حين أمر الملائكة بالسجود لآدم . فإنهم سجدوا لآدم ولذريته الى أن تقوم الساعة . وذرية آدم كانت مطمورة في ظهره . وشهدت الخلق الأول . اذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم » فيه جزئية جديدة لقصة الخلق

وقوله تعالى . « وإذ قال ربك للملائكة » أي أن الله سبحانه وتعالى يطلب من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن يقول انه عند خلق آدم . خلقه خليفة في الأرض . والكلام هنا لا يعني أن الله سبحانه وتعالى يستشير أحدا في الخلق . بدليل

انه قال « انى جاعل » إذن فهو أمر مفروغ منه . ولكنه اعلام للملائكة . . والله سبحانه وتعالى . عندما يحدث الملائكة عن ذلك فلأن لهم مع آدم مهمة . فهناك المدبرات أمرا . والحفظة الكرام وغيرهم من الملائكة الذين سيكلفهم الحق سبحانه وتعالى بمهام متعددة تتصل بحياة هذا المخلوق الجديد فكان الاعلام . لأن للملائكة عملا مع هذا الخليفة .

قد يقول بعض الناس . ان حياة الانسان على الأرض تخضع لقوانين ونواميس . نقول ما يدريك أن وراء كل ناموس ملكا ؟

ولكن هذا الخليفة سيخلف من ؟ قد يخلف بعضه بعضا في هذه الحالة يكون هنا اعلام من الله بأن كل انسان سيموت ويخلفه غيره . فلو كانوا جميعا سيعيشون ما خلف بعضهم بعضا . وقد يكون الانسان خليفة لجنس آخر . ولكن الله سبحانه وتعالى . نفى أن يخلف الانسان جنسا آخر . واقرأ قوله جل جلاله .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة ابراهيم)

والخلق الجديد هو من نوع الخلق نفسه الذى أهلكه الله . والله سبحانه وتعالى يخبرنا أن البشر سيخلفون بعضهم الى يوم القيامة . . فيقول جل جلاله :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة مريم)

ولكن هذا يطلق عليه خَلْفٌ . ولا يطلق عليه خليفة . والشاعر يقول :

ذهب الذين يعاش فى اكنافهم

وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

ولكن الله جعل الملائكة يسجدون لآدم ساعة الخلق وجعل الكون مسخرا له

فكأنه خليفة الله في أرضه . أمده بعطاء الأسباب . مخضع الكون له بإرادة الله وليس بإرادة الانسان . والله سبحانه وتعالى يقول في حديث قدسي : « يا بن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك . وإلا تفعل ملأت يدك شغلا ولم أسد فقرك » (١)

اذن كلمة خليفة تأخذ عدة معان ..

ماذا قالت الملائكة : « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

كيف عرف الملائكة ذلك ؟ لابد أن هناك حالة قبلها قيسوا عليها . أو أنهم ظنوا أن آدم سيطغى في الأرض . ولكن كلمة سفك وكلمة دم كيف عرفتها الملائكة وهي لم تحدث بعد ؟ لابد أنهم عرفوها من حياة سابقة . والله سبحانه وتعالى يقول



﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فكأن الجن قد خلق قبل الانسان . وقوله تعالى : « إني أعلم ما لا تعلمون » معنى ذلك أن علمك أيها المخلوق مناسب لمخلوقيتك أما علم الله سبحانه وتعالى .. فهو أزلي لانهائي ولكن هل قال الملائكة حين أخبرهم الله بخلق آدم ذلك علنا أم أسروه في أنفسهم ؟ سواء قالوه أم أسروه فقد علمه الله . لأنه يعلم ما يسرون وما يعلنون . وانه يعلم السر وأخفى . فما هو السر . وما هو الأخفى من السر ؟ السر هو ما أسررته الى غيرك فما أسر به الى غيري . فهو السر وما أخفيه في صدري ولا يطلع عليه أحد هو أخفى من السر . فلا يقال أسررت الا اذا بحت به لغيري أما ما أخفيه في صدري . فلا يعلمه أحد الا الله . فهذا هو ما أخفى من السر

وعندما يقول الحق سبحانه وتعالى : « إني أعلم ما لا تعلمون » أراد أن يعطي القضية بعدها الحقيقي وقد حكى القرآن الكريم قول الملائكة . « ونحن نسبح

---

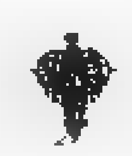
(١) (رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة)

بحمدك ونقدس لك » .

والتسبيح هو التنزيه عما لا يليق بذات المنزه والتقديس هو التطهير .. مأخوذ من القَدَس وهو الدلو الذي كانوا يتطهرون به . ولذلك نحن نقول سُبّوح قُدوس سُبوح أي مُنزه عن كل ما لا يليق بجلاله . وقدوس . أي مُطهَّر .. التسبيح يحتاج الى مُسبِّح . والى ما نسبحه . والملائكة قالوا : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا »

وهذا تسبيح وتنزيه لله سبحانه وتعالى .. والتسبيح والتنزيه لا يكونان إلا للكمال المطلق الذي لا تشوبه أية شائبة . والكمال المطلق هو لله سبحانه وتعالى وحده . لذلك صرف الله ألسنة خلقه عن أن يقولوا كلمة سبحانك لغير الله تعالى . فلا تسمع في حياتك أن إنسانا قال لبشر سبحانك . وهكذا صرفت ألسنة الخلق عن أن تسبح لغير الله سبحانه وتعالى . وقول الملائكة : « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » كأن نقول سبحان الله وبحمده . ومعناها تنزيه لله سبحانه وتعالى في ذاته .. فلا تشبه بذات . وفي صفاته . فلا تشبه بصفات وفي أفعاله فلا تشبه بأفعال ولكن ما معنى كلمة وبحمده ؟ معناها أننا نزهناك وبحمدك . أي يارب تنزيها لك نعمة . ولذلك فإني أحمدك على أنك أعطيتني القدرة لأنزهك .. والتقديس هو تطهير الله سبحانه وتعالى من كل الأغيار . ولأنك يارب قدوس طاهر . لا يليق أن يرفع إليك إلا طاهر . ولا يليق أن يصدر عمن خلقته بيديك إلا الطاهر ..

إنه عرفنا معنى نسبح بحمدك ونقدس لك . ثم أراد الله بحكمته أن يرد على الملائكة فقال : « إني أعلم ما لا تعلمون » ولم يطلقها هكذا . ولكنه سبحانه أتى بالقضية التي تؤكد صدق الواقع ..



﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

فالحق سبحانه وتعالى . رد على الملائكة بهذه الآية الكريمة . لأنه علم آدم الأسماء كلها .. وكلمة كلها تفيد الاحاطة . ومعنى الاحاطة معرفة كل شيء عن هذه الأسماء .

هنا يتبادر سؤال : هل علّم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء منذ ساعة الخلق الى قيام الساعة مادام الحق سبحانه وتعالى يقول كلها . فما هو حكم تلك الأسماء التي هي لمخترعات ستأتي بعد خلق آدم بقرون طويلة ؟

نقول إن الله سبحانه وتعالى حين علم آدم الأسماء وميزه على الملائكة يكون قد أعطى ذلك الأدنى عنصرا ميزه عن المخلوق من عنصر أعلى فآدم مخلوق من طين . والملائكة مخلوقون من نور وقدرات البشر لا تستطيع أن تعطي الأدنى شيئا أكثر من الأعلى . ولكن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يعطي ذلك ليذكرنا أن ما نأخذه ليس بقدراتنا ولكن بقدرته هو سبحانه . ولذلك نجد سليمان وهو ملك ونبي أعطاه الله تعالى ملكا لا ينبغي لأحد من بعده وميزه عن خلقه . يأتي الهدهد ليقول لسليمان : « أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين » .

كيف يحيط الهدهد وهو طائر ضعيف محدود بما لم يحط به سليمان وهو الملك النبي الذي حكم الانس والجن ؟ لأن الله سبحانه وتعالى .. يكره الغرور من خلقه . ولذلك يأتي بآية تميز الأدنى عن الأعلى ليعلموا جميعا أن كل قدراتهم ليست بذاتهم . وانما هي من الله . فيأتي موسى وهو الرسول والنبي . ليتعلم من الخضر وهو العبد الصالح ما لم يكن يعلمه .

وقد خلق الله سبحانه المسميات وان كنا لا نعرف وجودها وجعل الملائكة تتلقى أسماء هذه المسميات من آدم . وان البعض يتساءل عن وسيلة تعليم الخالق الأكرم لآدم عليه السلام . وتعليم الخالق يختلف عن تعليم الخلق . لأن الخالق يعلم إلهاما . يقذف في قلب آدم أسماء المسميات كلها لكل ما في الكون من أسماء المخلوقات . .

اذن فالمشهد الأول لآدم مع الملائكة . كان قد تم ايجاد كل المسميات وألهمها الله لآدم . بدليل أن الملائكة لم تتعرف على هذه المسميات . بينما عرفها آدم . وهنا لابد لنا من وقفة . ان الكلام هو ناتج السمع . واللغة ناتج البيئة ، والله سبحانه وتعالى علم آدم الأسماء . وهذا العلم لا يمكن أن يأتي الا اذا كان آدم قد سمع من الله سبحانه وتعالى .. ثم نطق . فأنت اذا أتيت بطفل عربي . وتركته في لندن مثلا تراه يتكلم الانجليزية بطلاقة . ولا يفهم كلمة واحدة من اللغة العربية والعكس صحيح . اذا أتيت بطفل انجليزي . وتركته في بلد عربي . يتكلم العربية .. ولا يعلم شيئا عن الانجليزية . اذن فاللغة ليست وراثة ولا جنسا ولا بيئة . ولكنها محاكاة يسمعها الانسان فينطق بها . واذا لم يسمع الانسان شيئا وكان أصم فانه لا يستطيع النطق بحرف واحد . فاذا كان آدم قد نطق بهذه الأسماء . فلابد أنه سمع من الله سبحانه وتعالى . .

والعجيب ان الطريقة التي علم الله سبحانه وتعالى آدم بها . هي الطريقة نفسها التي تتبعها البشرية الى يومنا هذا . فأنت لا تعلم الطفل بأن تقص عليه الأفعال . ولكن لابد أن يبدأ تعليمه بالأسماء والمسميات . تقول له : هذا كوب . وهذا جبل وهذا بحر . وهذه شمس . وهذا قمر . وبعد أن يتعلم المسميات . يستطيع أن يعرف الأفعال . ويتقدم في التعليم بعد ذلك . .

وهكذا نتعرف على النشأة الاولى للكلام . وطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى علمت آدم الأسماء .

وهنا نتوقف لنجيب عن سؤالين : الأول : اذا كان الله سبحانه وتعالى قد علم آدم الأسماء كلها . فهل كان فيها أسماء ما سيستجد من مخترعات في العالم ؟ نقول : إنه حتى لو تعلم آدم الأسماء التي يحتاج اليها في أولويات الوجود

ويستخدمها في متطلبات حياته على الأرض .. فاذا جد جديد ، فإن أولاد آدم يستخدمون هذه الأسماء من المقدمات والأسماء التي تعلموها . فما نجد في الوجود من أسماء .. تدخل على اللغة .. لم تأت من فراغ . وإنما جاءت من اللغة التي ننطق بها وتكتب بها .

كذلك كل شيء في هذا الكون .. لو أعدته الآن الى أصله .. تجد أن أصله من الله . فلو أعدت البشرية الى أصلها لابد أن تصل الى أن الانسان الاول خلقه الله سبحانه وتعالى . ولو اعدت العلم الى أصله . وكل علم يحتاج الى معلم .. نقول لك .. من الذي علم المعلم الأول .. أليس من البديهي أن العلم بدأ بمعلم علمه الله سبحانه وتعالى .. وكان هذا هو المعلم الأول .. اذن فالذي علم الأسماء لآدم هو الله سبحانه وتعالى .. وهو علمها لأولاده .. وأولاده علموها لأولادهم وهكذا . .

يأتي السؤال الثاني .. اذا كان الله هو المعلم للكلام .. فلماذا اختلفت اللغات على الأرض واصبح هناك ألوان من اللغات والألسنة ؟

نقول ان تنوع فترات التاريخ وانتشار الانسان على الارض جعل كل مجموعة من البشر تقترب من بعضها تتكون لها لغة واحدة .. وكل لغة موجودة مأخوذة من لغة قديمة .. فالفرنسية والانجليزية والايطالية .. مأخوذة من اللاتينية .. والعبرية والسريانية لها علاقة باللغة العربية . واللهجات التي يتكلم بها العالم العربي صاحب اللغة الواحدة ، تختلف . . حتى أن لهجة الجزائر او المغرب مثلا .. تجدها مختلفة عن اللهجة المصرية أو السودانية . ولكن إذا تكلمنا باللغة العربية يفهمَ بعضنا بعضا ، لأن هؤلاء جميعا في الأصل هي لغة القرآن . وهي العربية . ولكن في فترات الوهن الذي مر على العرب انعزلت البلاد العربية بعضها عن بعض ومضى كل مجتمع يأخذ اللغة كمظهر اجتماعي .. فسقط التفاهم بين اللهجات المختلفة

وهكذا علم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها .. ثم عرضهم على الملائكة وقال لهم « انبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين » ؟ أي أن الله سبحانه وتعالى كرم آدم في العلم . وأعطاه علما لم يعطه للملائكة .. ثم جعل آدم هو الذي يعلمهم .. أسماء مسميات لم يعرفوها . وهذا دليل على طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . يفعل

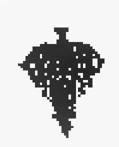
ما يشاء في كونه.. ولكن قلنا ان تمييز الأدنى عن الأعلى.. لا يتم الا بفعل الله وحده

ولكي نقرب هذا الى العقول: هب ان انسانا ضعيفا يريد أن يحمل حملا ثقيلا.. لا يقدر.. واذا كان هناك انسان قوي بجانبه فانه لا يستطيع أن يعطيه من قوته ليحمل هذا الحمل. ولكن يمكنه بأن يحمل عنه. أما الذي يستطيع أن يجعل هذا الضعيف قويا يمكنه أن يحمل هذا الحمل الثقيل فهو الله سبحانه وتعالى.. فالانسان لا يستطيع أن يعطي انسانا آخر من قوته.. ولكن الله وحده هو القادر على أن يجعل الضعيف قويا والقوي ضعيفا.

وقوله تعالى: «ان كنتم صادقين» وهل يكذب الملائكة؟ ان الملائكة خلق من نور يسبحون الله.. ويفعلون ما يؤمرون.. نقول ان قوله تعالى «ان كنتم صادقين» فيما قستم عليه الأحداث.. أو فيما قلتموه ظنا بالغيب.

ولو أن الملائكة قاسوا حكمهم على حكم جنس آخر كان في الأرض كالجن مثلا الذين خلقوا قبل الانسان.. يقول الحق تعالى انكم أخطأتم في قياسكم هذا.. أو ان كنتم صادقين فيما تنبأتم به من غيب، فلا يعلم الغيب الا الله تعالى.. فالقياسان جانبهما التوفيق.

وليس هذا طعنا في الملائكة.. ولكنه تصحيح لهم.. وتعريف لنا بأن الملائكة لا يعلمون الغيب.. ولذلك فهم فيما قاسوا أو حكموا على غيب.. جانبهم التوفيق.. لأن الله وحده هو علام الغيوب.. والذي دفع الملائكة الى أن يقولوا أو ينطقوا هذا الكلام هو حبهم الشديد لله تعالى.. وكراهيتهم لإفساد في كونه



﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة . توضح لنا أن الله سبحانه وتعالى هو المعلم الأول فى الكون وإذا كان لكل علم معلم فإن المعلم الأول لابد أن يكون هو الله سبحانه وتعالى . وإذا كنا نشهد فى عصرنا ألوانا من العلوم فهذه العلوم من تفاعل العقل الذى وهبه الله تعالى للانسان . من المواد التى وضعها الله تعالى فى الكون . فالعقل والعلم الذى علمه الله للانسان

ان كل الاختراعات والابتكارات أخذت وجودها من مقدمات كانت سابقة عليها فالماء مثلا كان موجودا منذ الازل والشمس كطاقة تبخر الماء لتصنع منه سحابا فاذا استخدم الانسان الطاقة الحرارية فى تبخير الماء واستخدم البخار كطاقة ، فهناك قفزة حضارية فى العلوم اسمها عصر البخار ، وهو الذى كانت تسير به القطارات والآلات فى المصانع وغير ذلك

إن هذا التقدم فى العلم ، إنما هو نابع من وجود العلم والطاقة ، وزاد عليهما القدرة العقلية للانسان الممنوحة له من الخالق ، التى جعلته يفكر فى استخدام الطاقة الناتجة من البخار ، فاذا توصل الانسان لمراقبة شجرة ساقطة وهى تتدحرج إلى الارض لأن جذعها اسطوانى . فانه أخذ من نظام هذه الشجرة ما يصنع منه العجلة التى كانت تطورا هاما فى تاريخ العلم . .

اذن فساق الشجرة الاسطوانية هو الذى أعطى للانسان فكرة العجلة ، فاذا طور الانسان استخدام البخار وصنع قطارا يسير بالبخار فهذا التطوير هو ابن لعلم

السابق عن قدرة الطاقة الناتجة عن تبخير الماء . وكيفية صناعة العجلة . . فكل علم نابع من علم سابق . . يترابط مع امكانات وهبها الله سبحانه وتعالى للانسان ولذلك عندما جاء الاسلام ليعرض العلم التجريبي أو المادى . جاء ليلفتنا الى آيات الخالق فى الكون . وطلب منا أن نتأمل فى هذه الآيات . . ونعمل فيها العقل والادراك . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وهكذا يلفتنا الله جل جلاله الى آياته التى فى السموات والارض لنعمل فيها العقل والادراك ، لنستنبط منها ما يعطينا الحضارة . . ان القرآن يطالبنا بأن نواصل العلم الذى علمه الله لآدم . واذا كان تاريخ العلوم يصل لنا أخبار عن قوم لم يكونوا مؤمنين ومع هذا سبقونا فى العلم والاستنباط ، فكان الواجب علينا نحن المؤمنين أن نتأمل آيات الله تعالى فى الأرض . فنيوتن . الذى لاحظ قوة جاذبية الأرض ـ كان يراقب تفاحة تسقط من أعلى الشجرة وتصطدم بالأرض فتوصل الى قانون الجاذبية .

واذا أردنا أن نأخذ لمحة من علم الله الذى علمه لنا . فيكفى أن ننظر الى النواة . ففى هذه النواة الصغيرة نخلة كاملة . متى وضعت النواة فى الأرض . نمت النخلة . وأصبح لها وجود .

ولكى نوضح هذا كله نقول إن كل علم مبنى على نظريات . النظرية الاولى تؤدى الى الثانية . والثانية تؤدى الى الثالثة . وهكذا . . ولكن بداية كل هذه العلوم لم تبدأ بنظرية ، ولكنها بدأت بما يسمونه البديهيات . أى الأشياء التى لا تحتاج الى دليل . إنها الاشياء التى خلقها الله فى الكون . وعلى هذه البديهيات تبنى النظريات الواحدة بعد الأخرى . حتى اذا أردت أن تعيدها الى أصلها ، فإنك تصل فى نهاية الأمر الى أن العلم الأول من الله سبحانه وتعالى ، فالمعلم الاول علمه الله . والثمرة الأولى خلقها الله وكل اكتشافات الانسان منذ بداية الحياة وحتى قيام الساعة موجودة بالقوة . مثل النواة التى فيها النخلة . تنتظر التأمل والعمل . لتصبح اكتشافا بالفعل . والله سبحانه وتعالى وهو المعلم الاول.. وضع فى كونه من العلم الكثير .

ويحضرني قول الشاعر أحمد شوقي حين قال .

سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى مرشدا وابن البتول فعلم الانجيلا
وفجرت ينبوع البيان محمدا فسقى الحديث وناول التنزيلا

وكان شوقي يصرح في ابياته أن كل علم هو منسوب الى الله وحده. وهكذا يتضح لك . أن قول الملائكة « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » يتضمن الاعتراف بأن العلم كله مرجعه الى الله. فالله سبحانه وتعالى هو مصدر العلم والحكمة. وقوله سبحانه وتعالى « العليم الحكيم » العليم أي الذي يعلم كل شيء خافيا كان أو ظاهرا . والعلم كله منه. أما الحكمة فتطلق في الأصل على قطعة الحديد التي توضع في فم الفرس لتلجمه حتى يمكن للراكب أن يتحكم فيه. ذلك أن الحصان حيوان مدلل شارد . يحتاج الى ترويض. وقطعة الحديد التي توضع في فمه تجعله أكثر طاعة لصاحبه. وكان إطلاق صفة الحكيم على الخالق سبحانه وتعالى هو أنه جل جلاله يحكم المخلوقات حتى لا تسير بغير هدى . ودون دراية .

والحكمة أن يوضع هدف لكل حركة لتنسجم الحركات بعضها مع بعض ، ويصير الكون محكوما بالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والحكيم العليم . هو الذي يضع لكل كائن إطاره وحدوده . والحكمة هي أن يؤدي كل شيء ما هو مطلوب منه ببراعة . والحكمة في الفقه هي أن تستنبط الحكم السليم. والحكمة في الشعر أن تزن الكلمات على المفاعيل. والحكمة في الطب أن تعرف تشخيص المرض والدواء الذي يعالجه. والحكمة في الهندسة أن تصمم المستشفى طبق لاحتياجات المريض والطبيب وأجهزة العلاج ومخازن الأدوية وغير ذلك. أو في تصميم المنزل للسكن المريح. وحكمة بناء منزل مثلا تختلف عن حكمة بناء قصر أو مكان للمصنع.

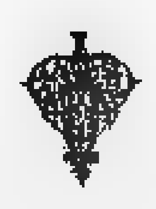
والكون كله مخلوق من قبل حكيم عليم. وضع الخالق سبحانه وتعالى فيه كل شيء في موضعه ليؤدي مهمته. ووصف الله تعالى بأنه حكيم يتطلب أن يكون عليما . لأن علمه هو الذي يجعله يصنع كل شيء بحكمة . وقد أعطى الله سبحانه

وتعالى لكل خلقه من العلم على قدر حاجته ، فليس من طبيعة الملائكة أن يعرفوا ماذا سيفعل ذلك الإنسان الذي سيستخلفه الله في الأرض . ولكنهم موجودون لمهمة أخرى . وميز الله الإنسان بالعقل ليستكشف من آيات الله في الكون على قدر حاجة حياته . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾

(سورة الأعلى)

إذن فكل شيء خلق بقدر . وكل مخلوق ميسر لما هداه الله له



﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

فالحق سبحانه وتعالى أراد أن يرد على ملاحظة الملائكة بالنسبة لخلق آدم وخلافته في الأرض، وأن الله سبحانه وتعالى في حكمته ما يخفى عليهم.. ولذلك فهم لم يدركوا هذه الحكمة. وقبل أن يخلق الله آدم ويجعله خليفة في الأرض.. كان على علم بكل ما سيحدث من آدم وذريته حتى قيام الساعة. وبعد قيام الساعة، أما الملائكة.. فهم لم يكونوا على علم بذلك. لأن هذا ليس عملهم.. وكما قلنا: كل ميسر لما خلق له.. ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطي للملائكة الصورة بأنكم قد حكمتم على آدم إما من تجربة لجنس آخر عاش في الأرض، وإما من ضرب بالغيب. والقياسان غير صحيحين. ولذلك ميز الله سبحانه في هذه اللحظة آدم على الملائكة فعلمه أسماء المسميات كلها، ثم طلب من الملائكة أن يخبروه بهذه الأسماء.. ولكنهم قالوا: إن العلم من الله وحده.. وما دام الله تعالى لم يعلمهم الأسماء فإنهم لا يعرفونها. فطلب الله من آدم أن يخبرهم بأسماء هذه المسميات فأخبرهم بها.. ولكنه لم يخبرهم بها بذاته ولا من قدرته.. ولا بعلم علمه وحده.. ولكنه أخبرهم بتعليم الله سبحانه وتعالى له.. وفي ذلك يقول الله تعالى:

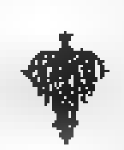
﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة يوسف)

إذن فعلْمُ آدم للأسماء كان بمشيئة الله سبحانه وتعالى. وهذه المشيئة وحدها هي التي جعلت آدم في ذلك الوقت يعلم ما لا تعلمه الملائكة.. وهنا رد الحق سبحانه وتعالى على قول الملائكة بأن آدم سيفسد في الأرض.. فذكرهم الله تعالى بقوله:

« ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض » اى ان الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعلم الغيب . والغيب هنا هو الغيب المطلق . فهناك غيب نسبى . قد تسرق حافظة نقودى مثلا وأنا لا أعلم من الذى سرقها فهو غيب عنى . ولكنه معلوم لمن سرق ، وللذى سهل له طريقة السرقة بأن حرس له الطريق حتى يسرق دون أن يفاجئه أحد . وقد يكون قد صدر قرار هام بالنسبة لى كترقية أو فصل أو حكم لم يصلنى . فأنا لا أعلمه . ولكن الذى وقع القرار أو الحكم يعلمه

هذا الغيب النسبى . لا يعتبر غيبا . ولكن الغيب المطلق هو الذى ليس له مقدمات تنبىء عما سيحدث .. هذا الغيب الذى يفاجئك . ويفاجىء كل من حولك بلا مقدمات .. هذا الغيب لا يعلمه إلا الله وحده . وقوله تعالى : « وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » تعطينا هنا وقفة . هل الملائكة قالوا لله سبحانه وتعالى : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » هل قالها الملائكة فعلا وجهرا ، أم أنهم قالوها فى أنفسهم ولم ينطقوا بها . قوله تعالى « وما كنتم تكتمون » تعطينا إشارة إلى أن الملائكة ربما قالوا هذا سرا . ولم يبدوه ، وعلى أية حال . سواء قالوه جهرا . أو قالوه سرا . فقد علمه الله . لأن الله جل جلاله بكل شىء محيط . ولا نريد لهذه النقطة أن تثير جدلا .. لماذا ؟ لأنه فى الحالتين .. سواء فى الجهر أو فى الكتمان . فإن الموقف يتساوى عند علم الله سبحانه وتعالى .. فلا داعى للجدل لأنه لاخلاف .



﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

أصدر الله تعالى أمره للملائكة ليسجدوا لآدم . وهذه القضية أحدثت جدلا طويلا . قال بعض الناس كيف يسجد الملائكة لغير الله ؟ والسجود لله وحده . وقال آخرون . هل معنى سجود الملائكة لآدم أنهم عبدوه ؟ وقالت فئة أخرى : السجود لغير الله لا يجوز تحت أي ظرف من الظروف . نقول هؤلاء : انكم لم تدركوا المعنى ، فالله سبحانه وتعالى بعد أن ميز آدم على الملائكة بعلم الأسماء . . طلب منهم أن يسجدوا لآدم ، وهنا لابد أن نعرف أن السجود لآدم هو إطاعة لأمر الله وليست عبادة لآدم . فالله سبحانه وتعالى هو الذى أمر الملائكة بالسجود ولم يأمرهم بذلك آدم . ولا يحق له أن يأمرهم فالأمر بالسجود هنا من الله سبحانه وتعالى ، من أطاعه كان عبدا . ومن لم يطعه كان عاصيا . ومن رد الأمر على الآمر كان كافرا

ولكن نفهم معنى العبادة نقول ان العبادة هى طاعة أوامر الله واجتناب نواهيه فما قال لى الله : افعل فإنى أفعل . ومن قال . لا تفعل ، فإنى لا أفعل . لأن العبادة هى طاعة مخلوق لخالقه فى أوامره ونواهيه ولذلك عندما نذهب إلى الحج فإننا نقبل الحجر الأسود فى الكعبة ، ونرجم الحجر الذى يمثل ابليس فى منى نقبل حجرا ونرجم حجرا هذا هو معنى عبادة الله واتباع منهجه . كما أمرنا نفعل . لا شىء مقدس عندنا الا أمر الله ومنهجه الملائكة هنا لم يسجدوا لآدم . ولكنهم سجدوا لأمر الله بالسجود لآدم وفرق كبير بين السجود لشىء ، وبين السجود لأمر الله السجود لأمر الله سبحانه وتعالى . لا يعتبر خروجا على المنهج ، لأن الأساس هو طاعة الله وهل سجد كل الملائكة لآدم ؟ لا وإنما

سجد لآدم الملائكة الذين لهم مهمة معه ، وتلك المهمة قد وضحها الله سبحانه وتعالى في قوله :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الانفطار)

وقوله سبحانه :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة ق)

وقوله سبحانه :

﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة النازعات)

اذن هناك من الملائكة من سيسجل على الانسان أعماله . وكل قول يقوله وكل فعل يفعله . بل ويكتبون هذه الاعمال . ومنهم من يحفظه من الشياطين . ومنهم من ينفذ أقدار الله في الأرض . هؤلاء جميعا لهم مهمة مع الانسان . ولكن الأمر بالسجود لم يشمل اولئك الملائكة العالين من حملة العرش وحراس السماء وغيرهم ممن ليست لهم مهمة مع الانسان . ولذلك عندما رفض ابليس السجود قال له الله تعالى :

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

(سورة ص)

قوله تعالى . . كنت من العالين ـ أي أنك كنت من الملائكة العالين . . الذين لم يشملهم أمر السجود . إذن فأمر السجود لآدم . . كأمر الله لنا بالسجود الى القبلة في الصلاة . فنحن لا نسجد للقبلة ذاتها . ولكننا نسجد لأمر الله بالسجود الى القبلة . فسجد الملائكة الذين شملهم أمر السجود لأمر الله سبحانه وتعالى . . ولكن ابليس رفض أن يسجد . وعصى أمر الله .

بعض الناس يقولون : أن ابليس لم يكن من الذين أمرهم الله تعالى بالسجود لأن الأمر شمل الملائكة وحدهم وإبليس ليس ملكا . ولكنه من الجن . كما يروى لنا القرآن الكريم في قوله تعالى

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

ونقول : ان كون إبليس من الجن هو الذي جعله يعصي أمر الله بالسجود . فلو أن ابليس كان من الملائكة ـ وهم مقهورون على الطاعة ـ كان لابد أن يطيع أمر الله ويسجد ولكن كونه من الجن الذين لهم اختيار في أن يطيعوا وأن يعصوا فذلك الذي مكنه أن يعصي أمر السجود . ولذلك فإن الذين يأخذون من الآية الكريمة ان إبليس كان من الجن بأنه لم يشمله أمر السجود . نقول لهم ان الحق سبحانه وتعالى قد أخبرنا عن جنس إبليس حتى نفهم من أي باب الى المعصية دخل . . ذلك أنه دخل من باب الاختيار الممنوح للانس والجن في الحياة الدنيا وحدها ، ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون إبليس مقهورا على الطاعة ما كان يستطيع أن يعصي ولكن معصيته جاءت من أنه خلق مختارا . والاختيار هو الباب الذي دخل منه الى المعصية . هذه حقيقة يجب أن نفهمها . ولذلك يرد الحق سبحانه وتعالى على كل من سيخطر بباله أن امر السجود لم يشمل ابليس لكونه من الجن لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وكان كفر إبليس وخلوده في النار أنه رد الأمر على الآمر . وقال :

﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾

(من الآية ٦١ سورة الاسراء)

وقد كان وجود إبليس مع الأعلى منه وهم الملائكة . مبررا أكبر للسجود .

فمادام قد صدر الأمر الى الأعلى بالسجود فإنه ينطبق على الأدنى .

ولقد كان ابليس كما جاء في الأثر يسمى طاووس الملائكة . . وكان يزهو بخيلاء بينهم . . وهذه الخيلاء أو الكبر هو الذي جعله يقع في المعصية ، ولأن ابليس خلق مختارا فقد كان مزهوا باختياره لطاعة الله . . قبل ان يقوده غروره الى الكفر والمعصية . ولذلك لم يكد يصدر الأمر من الله بالسجود لآدم حتى امتنع ابليس تكبرا منه . . ولم يجاهد نفسه على طاعة الله . . فمعصية إبليس هي معصية في القمة . لأنه رد الأمر على الآمر وظن أنه خير من آدم . . ولم يلتزم بطاعة الله ، ومضى غروره يقوده من معصية الى أخرى . فطرده الله من رحمته وجعله رجيما . ولما عرف إبليس أنه طرد من رحمة الله طلب من الله سبحانه وتعالى أن يبقيه الى يوم الدين ، وأقسم إبليس بعزة الله أن يغوي بني آدم . حدد الأماكن التي يأتي منها الاغواء . فقال :

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾

(سورة الأعراف)

نلاحظ هنا أن الجهات بالنسبة للانسان ستة . اليمين والشمال . والامام والخلف وأعلى وأسفل ، ولكن ابليس لم يذكر الا أربعة فقط . أما الجهتان الأخيرتان وهما الأعلى والأسفل . فلا يستطيع ابليس أن يقترب منهما . أما الأسفل فهو مكان السجود والخضوع لله . وأما الأعلى فهو مكان صعود الصلاة والدعاء وهذان المكانان لا يستطيع ابليس أن يقترب منهما .

وهكذا نرى أن إبليس لم يمتنع عن السجود فقط . وإنما رد الأمر على الآمر . وهذا أول الكفر . ثم بعد ذلك مضى في غيه فتوعد آدم وذريته بأن يضلهم عن سبيل الله

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

بعد أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم وأمر الملائكة أن تسجد له وحدث كفر ابليس ومعصيته أراد الله جل جلاله أن يمارس آدم مهمته على الأرض . ولكنه قبل أن يمارس مهمته أدخله الله فى تجربة عملية عن المنهج الذى سيتبعه الانسان فى الأرض ، وعن الغواية التى سيتعرض لها من ابليس فالله سبحانه وتعالى رحمة منه لم يشأ أن يبدأ آدم مهمته فى الوجود على أساس نظرى ، لأن هناك فرقا بين الكلام النظرى والتجربة .

قد يقال لك شىء وتوافق عليه من الناحية النظرية ولكن عندما يأتى العمل فانك لا تفعل شيئا اذن فالفترة التى عاش فيها آدم فى الجنة كانت تطبيقا عمليا لمنهج العبودية ، حتى اذا ما خرج الى مهمته لم يخرج بمبدأ نظرى ، بل خرج بمنهج عمل تعرض فيه لا تفعل ولا تفعل والحلال والحرام ، واغواء الشيطان والمعصية ثم بعد ذلك يتعلم كيف يتوب ويستغفر ويعود الى الله . وليعرف بنو آدم أن الله لا يغلق بابه فى وجه العاصى ، وانما يفتح له باب التوبة . والله سبحانه وتعالى أسكن آدم الجنة وبعض الناس يقول : أنها جنة الخلد التى سيدخل فيها المؤمنون فى الآخرة وبعضهم قال : لولا أن آدم عصى لكنا نعيش فى الجنة نقول لهم لا . جنة الآخرة هى للآخرة ولا يعيش فيها انسان فترة من الوقت ثم بعد ذلك يطرد منها بل هى كما أخبرنا الله تعالى جنة الخلد . كل من دخلها عاش فى نعيم أبدى .

اذن ما هى الجنة التى عاش فيها آدم وحواء ؟ هذه الجنة هى جنة التجربة أو المكان الذى تمت فيه تجربة تطبيق المنهج . ونحن اذا قرأنا القرآن الكريم نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد أطلق لفظ الجنة على جنات الأرض . والجنة تأتى من لفظ

«جن» وهو الستر ، ذلك أن فيها أشجارا كثيفة تستر من يعيش فيها فلا يراه أحد وفيها ثمرات تعطيه استمرار الحياة فلا يحتاج إلى أن يخرج منها . ونجد في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾
وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة القلم)

وهذه قصة الأخوة الذين كانوا يملكون جنة من جنان الأرض فمنعوا حق الفقير والمسكين واليتيم ، فذهب الله بثمر الجنة كلها وأحرق أشجارها . وهناك في سورة الكهف قصة صاحب الجنتين : في قوله تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وهي قصة ذلك الرجل الذي أعطاه الله جنتين .. فبدلا من أن يشكر الله تعالى على نعمه .. كفر وأنكر البعث والحساب وفي سورة سبأ اقرأ قوله تعالى عن أهل سبأ الذين هداهم الله وبين لهم الطريق المستقيم ولكنهم فضلوا الكفر. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ
وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ
وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ
جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ (سورة سبأ)

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم قد أطلق لفظ الجنة على جنات الدنيا ، ولم يقصره على جنة الآخرة

إذن فآدم حين قال له الله سبحانه وتعالى .

﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأعراف)

فهى ليست جنة الخلد وإنما هى جنة سيمارس فيها تجربة تطبيق المنهج . ولذلك لا يقال : كيف دخل ابليس الجنة بعد أن عصى وكفر ، لأن هذه ليست جنة الخلد ولابد أن ننتبه إلى ذلك جيدا حتى لا يقال ان معصية آدم هى التى أخرجت البشر من الجنة لأن الله تعالى قبل أن يخلق آدم حدد مهمته فقال :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

. فآدم مخلوق للخلافة فى الأرض ومن صلح من ذريته يدخل جنة الخلد فى الآخرة ، ومن دخل جنة الخلد عاش فى النعيم خالدا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « وكلا منه رغدا حيث شئتما » فالله سبحانه وتعالى أمد الجنة التى سكنها آدم وحواء بكل ما يضمن استمرار حياتهما ، تماما كما خلق كل النعم التى تضمن استمرار حياة آدم وذريته فى الأرض قبل أن تبدأ الحياة البشرية على الأرض . فالله سبحانه وتعالى له عطاء ربوبية فهو الذى خلق . وهو الذى أوجد من عدم ، ولذلك فقد ضمن لخلقه ما يعطيهم استمرار الحياة على الأرض من ماء وهواء وطعام ونعم لا تعد ولا تحصى فكأن الله تعالى قد أمد الجنة التى سكن فيها آدم وزوجته بكل عوامل استمرار حياتهما قبل أن يسكناها ، كما أمد الأرض بكل وسائل استمرار حياة الانسان قبل أن ينزل آدم اليها . اذن فقوله تعالى : « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة »

هذه فترة التدريب على تطبيق المنهج . والسكن هو المكان الذى يرتاح فيه الانسان ويرجع اليه دائما . فأنت قد تسافر فترات ، وكل الدول التى تمر بها خلال

سفرك لا تعتبر سكنا الى أن تعود الى بيتك ، فهذا هو السكن والرجل يكد ويتعب في الحياة وأينما ذهب فإنه يعود مرة أخرى الى المكان الذي يسكنه ليستريح فيه

وقوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » هو استكمال للمنهج . فهناك أمر ونهي افعل ولا تفعل : « اسكن أنت وزوجك الجنة » أمر : « وكلا منها رغدا » أمر ، « ولا تقربا هذه الشجرة » نهي وهذا أول منهج يعلم الانسان الطاعة لله سبحانه وتعالى والامتناع عما نهى عنه ، وكل رسائل السماء ومناهج الله في الأرض أمر ونهي. افعل كذا ولا تفعل كذا .

وهكذا فان الحق سبحانه وتعالى ضمن لآدم الحياة ، وليست الحياة فقط ولكن رغدا . أي مباحا وبلا تعب وعن سعة وبدون مشقة.كما أننا نلاحظ هنا أن المباح كثير والممنوع قليل . فكل ما في الجنة من الطعام والشراب مباح لآدم ، ولا قيد إلا على شيء واحد.شجرة واحدة من بين ألوف الأشجار التي كانت موجودة في الجنة . . شجرة واحدة فقط هي الممنوعة .

واذا نظرت الى منهج السماء الى الأرض تجد أن الله سبحانه وتعالى قد أباح فيه نعما لا تحصى ولا تعد وقيد فيه أقل القليل . . فالذي نهانا الله عنه بالنسبة لنعم الأرض هو أقل القليل ، كما كان في جنة آدم شجرة واحدة والمباح بعد ذلك كثير.واذا أخذنا ألفاظ العبارات نجد أن الله سبحانه وتعالى ساعة يقول : « قلنا يا آدم » أتى بضمير (نا) ضمير الجمع ، لأن الله واحد أحد ، ولكنهم يسمونها : نون الكبرياء ونون العظمة .

اذن فكل حدث يأتي فيه الحق تبارك وتعالى بنون الكبرياء ونون التعظيم . لأن كل فعل من الأفعال يحتاج الى صفات متعددة حتى يتم. فأنت لذا أردت أن تفعل شيئا فانه يقتضي منك قوة ويقتضي منك علما ويقتضي منك قدرة ويقتضي منك حكمة . . إذن فهناك صفات كثيرة موجودة يقتضيها العمل .

ولكن حين يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن شهادة التوحيد يقول « إنني أنا الله » ولا يقول : إنما نحن الله . . لأنه جل جلاله . يريد توحيدا . ففي موقع التوحيد

يأتي بضمير الافراد واحد أحد . أما في صدر الاحداث . فيأتي بضمير الكبرياء والعظمة . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وعندما اراد الحق تبارك وتعالى أن يمتدح ابراهيم قال : « ان ابراهيم كان أُمّة » ما معنى أُمّة ؟ أي جامعا لصفات الخير التي لا تجتمع في فرد ولكنها تجتمع في أمة . فالأمة تجتمع فيها صفات الخير . . هذا متميز بالصدق ، وذلك بالشجاعة ، وهذا بالحلم . فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يقول ان ابراهيم كان أمة أي أنه كان جامعا لصفات الخير .

وفي قوله « قلنا يا آدم » آدم اسم علم على المسمى الذي هو أول خلق الله من البشر « واسكن » تحتاج الى عنصرين . الهدوء والاطمئنان . هذا هو معنى اسكن . توفير الهدوء والاطمئنان ، ومنه أخذ اسم السكن . وكلمة المسكن واطلق على الزوجة . واذا فقد المكان الذي تسكن فيه عنصرا من هذين العنصرين وهما الهدوء والطمأنينة لا يقال عليه مسكن . والزوجة سميت سكنا كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾

(من الآية ٢١ سورة الروم)

لأن الهدوء والرحمة والبركة تتوافر في الزوجة الصالحة . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة التوبة)

أي راحة واطمئنانا ورحمة . فالانسان يريد في بيته أن تكون الحياة فيه مريحة له من عناء العمل وصخب الحياة . ويقول الحق سبحانه وتعالى . « اسكن انت وزوجك » وكان من الممكن أن يقول اسكن وزوجك لأن الفاعل في فعل الأمر دائما مستتر . ولكنه سبحانه قال : اسكن انت وزوجك . . وإياك أن تظن أن أنت هو فاعل الفعل اسكن . ولكنه ضمير جاء ليفصل بين اسكن وبين زوجك حتى لا يعطف الاسم على الفعل .

اننا لابد أن نلاحظ أن كلمة زوج تطلق على الفرد ومعه مثله . ولذلك لم يأت بتاء التأنيث . اسكن أنت وزوجتك لأن الأمر التكليفي من الله . سواء فيه الذكر والانثى . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة غافر)

إذن فهما متساويان في هذه الناحية . هذه الجنة ماذا وفر الله سبحانه وتعالى لآدم وزوجه فيها ؟ اقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾

(سورة طه)

هذه عناصر الحياة التي وفرها الله لآدم وزوجه في جنة التجربة الايمانية العملية على التكليف . وهكذا نرى من الأوصاف التي أعطاها الله سبحانه وتعالى لنا لهذه الجنة أنها ليست جنة الآخرة . لأنه أولا فيها تكليف في قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » وجنة الآخرة لا تكليف فيها . والحق تبارك وتعالى أباح لآدم وحواء أن يأكلا كما يشاءان من الجنة . والجنة فيها أصناف كثيرة متعددة . ولذلك قال : « حيث شئتما »

وأنت لا تستطيع أن تقدم لانسان صنفا أو صنفين وتقول له كل ما شئت . لأنه لا يوجد أمامه الا مجال ضيق للاختيار . كما أن قلة عدد الأصناف تجعل النفس تمل . ولذلك لابد أن يكون هناك أصناف متعددة وكثيرة .

ثم جاء النهي . في قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » أي لا تقتربا من مكانها ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى ولا تأكلا من هذه الشجرة ؟ . لأن الله جل جلاله رحمة بآدم وزوجه كان لا يريدهما أن يقعا في غواية المعصية فلو أنه قال : ولا تأكلا من هذه الشجرة لكان مباحا لهما أن يقتربا منها فتجذبهما بجمال منظرها ويقتربا من ثمارها فتفتنهما برائحتها العذبة ولونها الجذاب . حينئذ يحدث الاغواء وتمد أيديهما تحت هذا الاغراء الى الشجرة ليأكلا منها .

ولكن الله تعالى يعلم أن النفس البشرية اذا حرم عليها شيء ولم تحم حوله كان ذلك أدعى ألا تفعله . فالله تعالى حين حرم الخمر لم يقل حرمت عليكم الخمر والا كنا جلسنا في مجالس الخمر ومع الذين يشربونها أو نتاجر فيها وهذا كله اغراء بشرب الخمر .. ولكنه قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ ﴾

(سورة المائدة)

هذا النص الكريم قد جعلنا نبتعد عن الاماكن التي فيها الخمور فلا نجلس مع من يشربونها ، ولا نتاجر فيها حتى لا نقع في المعصية . فاذا رأيت مكانا فيه خمر فابتعد عنه في الحال حتى لا يغريك منظر الخمر وشاربها بأن تفعل مثله . والحق جل جلاله يقول في المحرمات « لا تقربوا » واجتنبوا . أي لا تحوموا حولها لأنها اذا كانت غائبة عنك فلا تخطر على بالك فلا تقع فيها ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَالْحَرَامَ بَيِّنٌ وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه. ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه) (١)

(١) (رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير)

ولقد كان بعض الناس يقولون على شرب الخمر ويقولون انه لم يرد فيها تحريم صريح .. فلم تأت مسبوقة بكلمة حرمت .. نقول ان كلمة اجتنبوا . أشد من التحريم . فقوله تعالى : « اجتنبوا الرجس من الأوثان » معناه ألا تنظر حتى الى الصنم . واجتناب الخمر ألا تقع عينك عليها .

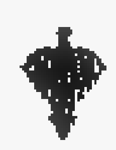
وقد اختلف الناس فى نوع هذه الشجرة . وهل هى شجرة تفاح أو تين أو عنب أو غير ذلك . ونحن نقول : ليس هذا هو المقصود . ولكن المقصود هو التحريم . لأن منهج الله سبحانه وتعالى يحلل أشياء . ويحرم أشياء .

وقوله تعالى : « فتكونا من الظالمين » الظلم هو الجور والتعدى على حقوق الغير . والظالم هو من أخذ فوق ما يستحقه بغير حق . والظلم يقتضى ظالما ومظلوما . وموضوعا للظلم . فكل حق ـ سواء كان ماديا أو معنويا ـ يعتدى عليه انسان بدون حق فقد حل ظلما . حتى الانسان انه أحيانا يظلم نفسه . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ﴾

(من الآية ١٣٥ سورة آل عمران)

كيف يظلم الانسان نفسه ؟ قد يظلم الانسان غيره ولكنه لا يظلم نفسه أبدا لانه يريد أن يعطيها كل ما تشتهيه . وهذا هو عين الظلم للنفس . لانه أعطاها شهوة عاجلة فى الدنيا . ربما استمرت ساعات . وحرمها من نعيم أبدى فى الآخرة . فكأنه ظلمها بأن أعطاها عذابا أليما فى الآخرة مقابل متعة زائلة لا تدوم .. وهناك من يبيع دينه بدنياه ولكن أظلم الناس لنفسه من يبيع دينه . بدنيا غيره . يشهد زورا . ليرضى رئيسا . أو يتقرب لمسئول . أو يرتكب جريمة .. اذن قوله تعالى : « فتكون من الظالمين » أى من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله



﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾

بعد أن أسكن الله سبحانه وتعالى آدم وزوجه فى الجنة . وأخبرهما بما هو حلال وما هو حرام بدأ الشيطان مهمته . مهمة عداوته الرهيبة لآدم وذريته . والحق سبحانه يقول « فأزلهما الشيطان » أى أن الشيطان باشر مهمته فأوقعهما فى الزلة . وهى العثرة أو الكبوة . كيف حدث ذلك والله تعالى قد نصح آدم وزوجه ألا يتبعا الشيطان . وأبلغه أنه عدو لهما . فى قوله تعالى :

﴿ ... إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة طه)

إذن فالعداوة معلنة ومسبقة . ولنفرض أنها غير معلنة . ألم يشهد آدم الموقف الذى عصى فيه إبليس أمر الله ولم يسجد لآدم ؟ ألم يعرف مدى تكبر إبليس عليه . فى قوله « أنا خير منه » وقوله « أأسجد لمن خلقت طينا » كل هذا كان ينبغى أن ينبه آدم إلى أن إبليس لن يأتى له بخير أبدا ..

والحق سبحانه وتعالى لم يكتف بالدلالات الطبيعية التى نشأت عن موقف إبليس فى رفضه السجود . بل أخبر آدم أن الشيطان عدو له ولزوجه . يقول الحق سبحانه وتعالى : « فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه » من ماذا أخرجهما ؟ من العيش الرغيد . وواسع النعمة فى الجنة . ومن الهدوء والاطمئنان فى أن رزقهما يأتيهما بلا تعب . ولذلك سيأتى الحق فى آية أخرى ويقول . « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى »

وهنا لابد أن نتساءل : لماذا لم يقل فتشقيا ؟

ان هذه لفتة من الحق سبحانه وتعالى .. الى مهمة المرأة ومهمة الرجل فى الحياة .. فمهمة المرأة أن تكون سكنا لزوجها عندما يعود الى بيته ، تذهب تعبه وشقاءه . أما مهمة الرجل فهى العمل حتى يوفر الطعام والمسكن لزوجته وأولاده . والعمل تعب وحركة .

وهكذا لفتنا الحق تبارك وتعالى إلى أن مهمة الرجل أن يكدح ويشقى ، ثم يأتى الى أهله فتكون السكينة والراحة والاطمئنان .

اذا كانت هذه هى الحقيقة ، فلماذا يأتى العالم ليغير هذا النظام ؟

نقول ان العالم هو الذى يتعب نفسه . ويتعب الدنيا . فعمل المرأة شقاء لها . فمهمتها هى البيت . وليس عندها وقت لأى شىء آخر . فاذا عملت فذلك على حساب أولادها وبيتها وزوجها .. ومن هنا ينشأ الشقاء فى المجتمع . فيضيع الأولاد ويهرب الزوج الى مكان فيه امرأة تعطيه السكن الذى يحتاج إليه . وينتهى المجتمع الى فوضى ..

وكان يجب على آدم أن يتنبه الى أن إبليس يعتبره السبب فى طرده من رحمة الله . فلا يقبل منه نصيحة ولا كلاما ويحتاط .. كيف أزل الشيطان آدم وزوجه ؟ لقد شرح الله سبحانه وتعالى لنا هذا ولكن ليس فى سورة البقرة وإنما فى آية أخرى . فقال تعالى :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

اذن فإبليس قال كاذبا أن من يأكل من هذه الشجرة يصبح ملكا . ويصبح خالدا لا يموت .. ووسوسة الشيطان تتم بكلام كاذب لتزيين المعصية ، والشيطان لا يهمه أى معصية ارتكبت . وانما يريدك عاصيا على أى وجه . ولكن النفس عندما توسوس

لك بالمعصية ، تريد شيئ بذاته . وهذا هو الفرق بين وسوسة الشيطان ووسوسة النفس . فالشيطان يريدك عاصيا بأى ذنب . فان امتنعت فى ناحية أتاك من ناحية أخرى . فقد قال لآدم : هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » ولكن هذه المحاولة لم تفلح . فقال لهما : « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » وفات على آدم أنه لو كان هذا صحيحا .. لأكل إبليس من الشجرة . ولم يطلب من الحق سبحانه وتعالى ان يمهله الى يوم الدين . .

ما الذى اسقط آدم فى المعصية ؟ انها الغفلة او النسيان . والحق سبحانه وتعالى يقول .

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة طه)

وهل النسيان معصية . حتى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

نعم النسيان كان معصية فى الأمم السابقة . لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »(١)

ونسى وعصى ، تؤدى معنى واحدا . .

وقوله تعالى :

﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

---

(١) (رواه الطبرانى عن ثوبان)

هذا الهبوط هو بداية نزول الانسان الى الأرض ليباشر مهمته فى الدنيا . ومادام الحق سبحانه وتعالى قال . « ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين » . فهى اذن حياة موقوتة على قدر وقتها ، وعلى قدر حجمها . .

والذين يقولون بأنه لابد من وجود بشر نسميه مخلّصا . ليفدى العالم بصلبه أو بغير ذلك من الخطيئة التى ارتكبها آدم . نقول له : انك لم تفهم عن الله شيئا ، لأن القصة هى هنا خطأ قد حدث وصوب . وفرق بين الخطأ والخطيئة . فالخطأ يصوب . ولكن الخطيئة يعاقب عليها .

وآدم أخطأ وصوب الله له . وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه . اذن لا توجد خطيئة بعد أن علمه الله التوبة وتاب الى الله . ثم ماذا فعل آدم . حتى نقول نخلص العالم من خطيئة آدم . لقد أكل من الشجرة . وهل خطايا العالم كلها أكل ؟!

من الذى أوجد القتل وسفك الدماء ، والزنا والاغتصاب والنميمة والغيبة ؟

لو أن كلامهم صحيح لكان لابد ألا توجد خطيئة على الأرض مادام قد وجد المخلص الذى نجى العالم من الخطيئة . ولكن الخطيئة باقية . ومن الذى قال ان الخطيئة تورث . حتى يرث العالم كله خطيئة آدم ؟! . والله سبحانه وتعالى يقول : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . .

ويقول الحق سبحانه وتعالى « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو » العداوة هنا بين الشيطان والانسان . والعداوة أيضا بين شياطين الانس والمؤمنين ، هذه العداوة التى تؤدى بنا الى نشاط وتنبه . فالمستشرقون يعادون الاسلام . ولكن معاداتهم هذه تعطينا نشاطا لكى نبحث ونطلع حتى نرد عليهم . وجنود الشيطان من الانس يعادون المؤمنين . وعداوتهم هذه تعطينا مناعة ألا نخطىء ولا نغفل . فأنت مادام لك عدو . . فحاول أن تتفوق عليه بكل السبل

ولعل الحضارة الانسانية لا ترتقى بسرعة قدر ارتقائها وقت الحروب . ففيها يحاول كل خصم ان يتغلب على خصمه . وتجند كل القوى للتفوق علميا على الدول الأخرى . هذه الارتقاءات والاختراعات . قد تكون للتدمير والقتل . ولكن بعد أن تنتهى الحرب توجه الى ارتقاءات الانسان فى الأرض . فتفتيت الذرة . وصلوا اليه فى

الحروب . والصواريخ التي وصل الانسان بها الى القمر كانت نتيجة حرب ، والارتقاءات العلمية المختلفة التي تمت في أمريكا والاتحاد السوفيتي كان اساسها عداء كل معسكر للاخر .

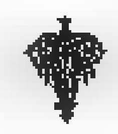
وقوله تعالى « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » . . الهبوط قد يكون من مكان أعلى الى مكان أسفل . وقد يكون الهبوط معنويا . بأن تقول هذا الانسان هبط في نظري منذ فعل كذا . هو لم يهبط من مكان أعلى الى مكان أسفل .

ولكنه هبط في قيمته . والمسافات لا تعني قربا أو بعدا . فقد يكون انسان يجلس الى جوارك وأنت بعيد عنه لا تحس به . وقد يكون هناك انسان بعيد عنك بمئات الأميال ولكنه قريب الى قلبك أكثر من ذلك الجالس الى جوارك وسواء كان الهبوط ماديا أو معنويا . فانه حدث ليباشر آدم مهمته على الأرض . . والعداوة بين الايمان والكفر مستمرة .

وهكذا بعد معصية آدم . هبط هو وحواء من الجنة ليمارسا حياتهما على الأرض . . وقوله تعالى « اهبطوا » معناه أن آدم وحواء وابليس هبطوا الى الأرض بعد أن تمت التجربة الايمانية .

لقد بين الله تعالى لآدم عمليا ان ابليس عدو له . لا يريد له الخير . وأنه كاذب في كل ما يعد به الانسان . وقد حدد الله الحياة الدنيا بأنها حياة موقوتة . قدراتها محدودة . ومتاعها محدود . في قوله تعالى :
« ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين » .

اى لا أحد سيبقى في الأرض إلا بمقدار ماقدر الله له من عمر ثم يموت . وبهذا حذر الله آدم وذريته من أن يتخذوا من الحياة هدفاً لأن متاعها قليل ، وأمدها قصير .



﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

نزل آدم وحواء الى الارض ليمارسا مهمتهما فى الكون . وقبل أن يبدآ هذه المهمة . جعلهما الله سبحانه وتعالى يمران بتجربة عملية بالنسبة لتطبيق المنهج وبالنسبة لاغواء الشيطان . وحذرهما بأن الشيطان عدو لهما .. كان لابد بعد أن وقعت المعصية أن يشرع الله تعالى التوبة رحمة بعباده . ذلك أن تشريع التوبة ليس رحمة بالعاصى وحده ، ولكنه رحمة بالمجتمع كله . فالانسان اذا عصى وعرف أنه لاتوبة له وأنه محكوم عليه بالخلود فى النار . يتمادى فى اجرامه . لأنه مادام لا أمل له فى النجاة من عذاب الآخرة . فانه يتمادى فى المعصية . لأنه لا أمل فى الغفران أو التوبة ..

من الذى سيعانى فى هذه الحالة ؟ انه المجتمع الذى يعيش فيه ذلك العاصى وسيكون المؤمنون أكثر الناس معاناة لأنهم أهل خير وتسامح . ولأن الله سبحانه وتعالى .. أمرهم بالعفو . والصفح . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة النور)

وقوله تعالى :

﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ ﴾

(من الآية ٢٣٧ سورة البقرة)

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم تحث المؤمنين على العفو . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها :

« أوصانى بالاخلاص فى السر وفى العلانية،والقصد فى الغنى والفقر وأن اعفو عمن ظلمنى ، وأعطى من حرمنى ، وأصل من قطعنى ، وأن يكون صمتى فكرا ونطقى ذكرا ، ونظرى عبرا »(١)

فالتوبة لو لم تشرع لعانى المجتمع كله . وخاصة المؤمنين الذين امروا أن يقابلوا العدوان بالصفح والظلم بالعفو ولذلك كان تشريع التوبة من الله سبحانه وتعالى . رحمة بالناس كلهم .

والله جل جلاله شرع التوبة أولا ثم بعد أن شرعها تاب العاصى ثم بعد ذلك يقبل الله التوبة او لا يقبلها تبعا لمشيئته . واقرأ قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه . أتوجد خطيئة بعد توبة آدم وقبول الله سبحانه وتعالى هذه التوبة ؟ ان بعض الناس يقول ان آدم قد عصى وتاب الله عليه وابليس قد عصى فجعله الله خالدا فى النار . نقول . انكم لم تفهموا ماذا فعل آدم ؟ أكل من الشجرة المحرمة وعندما علم أنه أخطأ وعصى . لم يصر على المعصية . ولم يرد الأمر على الآمر . ولكنه قال يارب أمرك ومنهجك حق ولكنى لم

(١) (رواه رزين)

اقدر على نفسي فسامحني .

اعترف آدم بذنبه . واعترف بضعفه . واعترف بأن المنهج حق . وطلب التوبة من الله سبحانه وتعالى . ولكن ابليس رد الأمر على الآمر . قال . « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » وقال « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » وقال : « فبعزتك لأغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين » وقال · « لأحتنكن ذريته الا قليلا » فإبليس هنا رد الأمر على الآمر . لم يعترف بذنبه ويقول يارب عليتي ضعفي . وأنت الحق وقولك الحق . ولكنه رد الامر على الله تعالى وعاند وقال سأفعل كذا وسأفعل كذا . وهذا كفر بالله .

إياك أن ترد الأمر على الله سبحانه وتعالى . فاذا كنت لا تصلي . فلا تقل وما فائدة الصلاة . واذا لم تكن تزكي . فلا تقل تشريع الزكاة ظلم للفقراء . واذا كنت لا تطبق شرع الله . فلا تقل ان هذه الشريعة لم تعد تناسب العصر الحديث . فانك بذلك تكون قد كفرت والعياذ بالله . ولكن قل يارب ان فرض الصلاة حق وفرض الزكاة حق . وتطبيق الشريعة حق ولكنني لا أقدر على نفسي . فارحم ضعفي يارب العالمين . ان فعلت ذلك . تكن عاصيا فقط .

إن الفرق بين معصية آدم ومعصية ابليس أن ادم اعترف بمعصيته وذنبه . ولكن ابليس رد الأمر على الآمر . فيكون آدم قد عصى ، وابليس قد كفر والعياذ بالله
ويقول الحق سبحانه وتعالى · « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » هذه الكلمات التي تلقاها آدم . أراد العلماء أن يحصروها . ما هذه الكلمات ؟ هل هي قول آدم كما جاء في قوله تعالى :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

هذه الآية الكريمة . دلتنا على أن ذنب ادم لم يكن من ذنوب الاستكبار . ولكن من ذنوب الغفلة . . بينما كان ذنب ابليس من ذنوب الاستكبار على أمر الله . ولكن آدم عندما عصى حدث منه انكسار .

فقال : يارب امرك بألا أقرب الشجرة حق . ولكنى لم أقدر على نفسى . فآدم أقر بحق الله فى التشريع . بينما ابليس اعترض على هذا الأمر وقال :
« أأسجد لمن خلقت طينا »

الكلمات التى تلقاها آدم من الله سبحانه وتعالى قد تكون : « ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » وقد تكون : .. اللهم لا اله الا أنت سبحانك ربى وبحمدك . انى ظلمت نفسى ظلما كثيرا فاغفر لى يا خير الغافرين .. او تقبل توبتى يا خير التوابين .. أو قال : سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله المهم أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى لآدم بكلمات يتقرب بها اليه سواء كانت هذه الآية الكريمة أو كلمات أخرى .

لو نظرنا الى تعليم الله آدم لكلمات ليتوب عليه لوجدنا مبدأ مهما فى حياة المجتمع لأن الله سبحانه وتعالى كما قلنا لو لم يشرع التوبة ولو لم يبشر بأنه سيقبلها . لكان الذى يذنب ذنبا واحدا لا يرجع عن المعصية أبدا وكان العالم كله سيعانى .

والله سبحانه وتعالى خلقنا مختارين ولم يخلقنا مقهورين القهر يثبت صفة القدرة لله ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد منا أن نأتى عن حب وليس عن قهر . ولذلك خلقنا مختارين . وجعل لنا طاقة تستطيع أن تعصى وأن تطيع ومادام هناك اختيار فالانسان يختار هذه أو تلك .

إن الله لم يخلق بشرا يختارون الخير على طول الخط . وبشرا يختارون الشر فى كل وقت فهناك من الخيرين من يقع فى الشر مرة ، وهناك من الشريرين من يعمل الخير مرة . فالعبد ليس مخلوقا أن يختار خيرا مطلقا أو أن يختار شرا مطلقا . ولذلك فأحيانا ننسى أو نسهو . أو نعصى . ومادام العبد معرضا للخطيئة . فالله سبحانه وتعالى شرع التوبة . حتى لا ييأس العبد من رحمة الله ، ويتوب ليرجع الى الله . وقد جاء فى الحكمة . « رب معصية أورثت ذلا وانكسارا . خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا » .

وهكذا عندما نزل آدم ليباشر مهمته فى الحياة . لم يكن يحمل أى خطيئة عن كتفيه . . فقد أخطأ وعلمه الله تعالى كلمات التوبة . فتاب فتقبل الله توبته . .

وقوله سبحانه وتعالى : « انه هو التواب الرحيم » . . كلمة تواب تدل على أن الله تعالى لا يأخذ عباده بذنب واحد . لأنه سبحانه وتعالى حتى لو تاب عن ذنب واحد لكل عبد من عباده كان توابا والمبالغة فى الصفة تأتى من ناحيتين . اولا أن الامر يتكرر عدة مرات من عدد قليل من الاشخاص . أو من شخص واحد . او أن الأمر يقع مرة واحدة ولكن من اشخاص كثيرين . .

فاذا قلت مثلا : فلان أكول ، قد يكون أكولا لانه يأكل كمية كبيرة من الطعام . فيسمى اكولا . . انه لا يتجاوز طعامه فى عدد مراته وجبات الطعام العادى للانسان . ولكنه يأكل كمية كبيرة . فنسميه اكولا . فيأكل مثلا عشرة ارغفة فى الافطار ومثلها فى الغداء ومثلها فى العشاء .

وقد يكون الانسان اكولا اذا تكرر الفعل نفسه . كأن يأكل كميات الطعام العادية ولكنه يأكل فى اليوم خمس عشرة مرة مثلا . . فالله سبحانه وتعالى تواب لأن خلقه كثيرون فلو اخطأ كل واحد منهم مرة يكون عدد ذنوبهم التى سيتوب الله عليها كمية هائلة . فاذا وجد من يذنب عدة مرات فى اليوم . فان الله تعالى . يكون توابا عنه ايضا اذا تاب واتجه اليه . .

اذن مرة تأتى المبالغة فى الحدث وان كان الذى يقوم به شخص واحد . ومرة تأتى المبالغة فى الحدث لأن من يقوم به أفراد متعددون . .

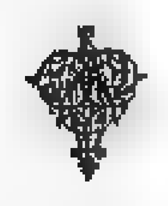
إذن فادم أذنب ذنبا واحدا . يقتضى أن يكون الله تائبا ولكن ذرية آدم من بعده سيكونون خلقا كثيرا . . فتأتى المبالغة من ناحية العدد .

وقوله تعالى : « انه هو التواب الرحيم » سيدنا عمر جاءته امرأة تصيح وتصرخ لأن ابنها ضبط سارقا . وقالت لعمر ما سرق ابنى الا هذه المرة . فقال لها عمر . الله ارحم بعبده من أن يأخذه من أول مرة . لابد أنه سرق من قبل . .

وانما المتحدى أن يوجد مجرم يضبط من أول مرة .

كلمة تواب تدل على أنه يضبط بعد مرتين أو ثلاث، فالله يستر عبده مرة ومرة . ولكن اذا ازداد وتمادى فى المعصية . يوقفه الله عند حده . وهذا هو معنى تواب .

والحق سبحانه وتعالى تواب برحمته .. لأن هناك من يعفو ويظل يمن عليك بالعفو . حتى أن المعفو عنه يقول . ليتك عاقبتني ولم تمن على بالعفو كل ساعة . لكن الحق سبحانه وتعالى . تواب رحيم . يتوب على العبد . ويرحمه بمحو عنه ذنوبه .



﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

يقول الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية : « قلنا اهبطوا منها جميعا » وفي سورة طه يقول جل جلاله « قال اهبطا منها جميعا » عندما خاطب الله سبحانه وتعالى بصورة الجمع . كان الخطاب لكل ذرية آدم المطمورة في ظهره . أمرالهم جميعا بالهبوط . آدم وحواء والذرية . لأن كل واحد منا . الى أن تقوم الساعة فيه جزىء من آدم . ولذلك لابد أن نلتفت الى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأعراف)

نلاحظ هنا أن الخطاب بصيغة الجمع ، فلم يقل الحق سبحانه وتعالى لقد خلقتك ثم صورتك ثم قلت للملائكة اسجدوا لآدم ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى أنه ساعة الخلق كان كل ذرية آدم مطمورين في ظهره . خلقهم جميعا ثم صورهم جميعا . ثم طلب من الملائكة السجود لآدم . فهل نحن كنا موجودين ؟ نعم كنا موجودين في آدم . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول . « اهبطوا » لنعرف أن هذا الخطاب موجه الى آدم وذريته جميعا الى يوم القيامة .

ومرة يقول « اهبطا منها جميعا » لأن هنا بداية تحمل المسئولية بالنسبة لآدم . في هذه اللحظة وهي لحظة الهبوط في الأرض . سيبدأ منهج الله مهمته في الحياة . ومادام هناك منهج وتطبيق فردي . تكون المسئولية فردية . ولا يأتي الجمع هنا .

فالحق سبحانه وتعالى يقول : « اهبطا منها جميعا » نلاحظ ان أمر الهبوط هنا

بالمنفى ثم يقول تبارك وتعالى جميعا جمع . يقول أنه مادامت بداية التكليف . فهناك طرفان سيواجه بعضهما البعض لطرف الأول . هو آدم وزوجه . والطرف الثانى هو ابليس . فهم ثلاثة ولكنهم فى معركة الايمان . فريقان فقط . آدم وحواء وذريتهما فريق . والشيطان فريق آخر فكأن الله تعالى يريد أن يلفتنا الى أن هذا الهبوط يتعلق بالمنهج وتطبيقه فى الأرض . وفى المنهج آدم وحواء حريصان على الطاعة . وابليس حريص على أن يقودهما الى المعصية .

وفى قوله تعالى . « فإما يأتينكم منى هدى » نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى بعد أن مر آدم بالتجربة ووقع فى المعصية ، علمه الله تعالى كلمات التوبة . ونصحه أنه اذا غفل يتوب . والله سبحانه وتعالى سيقبل توبته .

اذن فالحق سبحانه وتعالى يريد من آدم وحواء ان يسكنا الأرض . ويبدآ مهمتهما فى الحياة . والله يدلهما على الخير مصداقا لقوله تعالى : « فإما يأتينكم منى هدى » . . وهدى لها معنيان . . هى بمعنى الدلالة على الخير . أو الدلالة على الطريق الموصلة للخير . وهناك هدى وهو الاعانة على الايمان والزيادة فيه . واقرأ قوله تعالى .

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

الهدى هنا فى الآية الكريمة.. بمعنى الدلالة على طريق الخير . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

ما هو الخوف وما هو الحزن ؟ الخوف أن تتوقع شرا مقبلا لا قدرة لك على دفعه فتخاف منه والحزن أن يفوتك شىء تحبه وتتمناه .

والحق سبحانه وتعالى يقول فى هذه الآية . من مشى فى طريق الايمان الذى دللته عليه . وأنزلته فى منهجى . فلا خوف عليهم . أى أنه لا خير سيفوتهم فيحزنوا عليه . لأن كل الخير فى منهج الله . فالذى يتبع المنهج لا يخاف حدوث شىء أبدا

وهذه تعطينا قضية مهمة فى المجتمع . الذى لم يرتكب أية مخالفة .. هل يناله خوف ؟ أبدا . . ولكن من يرتكب مخالفة تجده دائما خائفا خشية أن ينكشف أمره .. ويفاجأ بشر لا قدرة له على دفعه .

إن الانسان المستقيم لا يعيش الخوف . لأن الخوف أمران . اما ذنب أنا سبب فيه . والسائر على الطريق المستقيم لم يفعل شيئا يخاف انكشافه . واما أمر لا دخل لى فيه . يجريه على خالقى . وهذا لابد أن يكون لحكمة . قد ادركها . وقد لا أدركها ولكنى اتقبلها . فالذى يتبع هدى الله . لا يخاف ولا يحزن . لأنه لم يذنب ولم يخرق قانونا . ولم يغش بشرا . أو يخفى جريمة فلا يخاف شيئا ، ولو قابله حدث مفاجىء ، فقلبه مطمئن . والذين يتبعون الله . لا يخافون . ولايخاف عليهم .. وقوله تعالى : « ولا هم يحزنون » لأن الذى يعيش طائعا لمنهج الله .. ليس هناك شىء يجعله يحزن ذلك أن ارادته فى هذه الحالة تخضع لارادة خالقه . فكل ما يحدث له من الله هو خير . حتى ولو كان يبدو على السطح غير ذلك . ملكاته منسجمة وهو فى سلام مع الكون ومع نفسه . والكون لا يسمع منه الا التسبيح والطاعة والصلاة . وكلها رحمة . فهو فى سلام مع نفسه . وفى سلام مع ربه . وفى سلام مع المجتمع .

إن المجتمع دائما يسعد بالانسان المؤمن الذى لا يفسد فى الارض . بل يفعل كل خير . فالمؤمن نفحة جمال تشع فى الكون . ونعمة حسن ورضا مع كل الناس . ومادام الانسان كذلك . فلن يفقد ما يسره أبدا . فإن اصابته أحداث .. أجراها الله عليه .. لا يقابلها الا بالشكر . وان كان لا يعرف حكمتها . . وإياك أن تعترض على الله فى حكم .

ولذلك يقول احمدك ربى على كل قضائك وجميع قدرك . حمد الرضا بحكمك واليقين بحكمتك . .

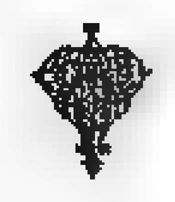
والانسان ينفعل للأحداث ولكن هناك فرق بين الانفعال للاحداث وحدها وبين الانفعال للاحداث مع حكمة مجريها . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الدقة حينما قال : (إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول الا ما يرضى ربنا وإنّا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون) (١)

---

(١) رواه البخارى ومسلم وابن ماجه وأحمد وهذا لفظ البخارى

انظروا الى الايمان وهو يستقبل الاحداث . العين تدمع . ولا يكون القلب قاسيا مثل الحجر ، لكن فيه حنان . والقلب يخشع لله . مقدرا حكمته وارادته . .

والله سبحانه وتعالى لا يريد أن نستقبل الأحداث بالحزن وحده . ولكن بالحزن مع الايمان . فالله لا يمنعك أن تحزن . ولكن عليك ألا تفصل الحدث عن مجريه وحكمته فيه . . ولذلك حين تذهب الى طبيب العظام فيكسر لك عظامك لكى يصلحها . هل يفعل لك خيرا أو شرا ؟ طبعا يفعل لك خيرا . وان كان ذلك يؤلمك .



﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى بعد أن أعلمنا أن آدم حين يهبط إلى الأرض سيتلقى من الله منهجاً لحركة حياته . من اتبعه خرج من حياته الخوف والحزن . وأصبح آمنا فى الدنيا والآخرة . أراد الله تعالى أن يعطينا الصورة المقابلة . فالحكم فى الآية السابقة كان عن الذين اهتدوا . والحكم فى هذه الآية عن الذين كفروا . يقول الحق تبارك وتعالى . . « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا » والكفر كما بينا هو محاولة ستر وجود الله واجب الوجود.ومحاولة ستر هذا الوجود هو اعلان بأن الله تعالى موجود . فأنت لا تحاول أن تستر شيئاً الا اذا كان له وجود أولا .

إن الشيء الذى لا وجود له لا يحتاج إلى ستر ، لأنه ليس موجوداً فى عقولنا . وعقولنا لاتفهم ولاتسع إلا ماهو موجود . توجد الصورة الذهنية أولا . . ثم بعد ذلك يوجدالاسم أو الصورة الكلامية . ولذلك إذا حدثك إنسان عن شيء ليس له وجود فأنت لاتفهمه . ولاتستطيع أن تفهمه إلا إذا شبه لك بموجود . كأن يقال لك : مثل هذا الجبل أو مثل هذه البحيرة . أو مثل قرص الشمس أو غير ذلك حتى تستطيع أن تفهم . فأنت لاتفهم غير موجود إلا إذا شبه بموجود .

وكل شيء لابد أن يكون قد وجد أولا . ثم بعد ذلك تجتمع مجامع اللغة فى العالم لتبحث عن لفظ يعبر عنه بعد أن وجد فى الصورة الذهنية . فلم يكن هناك اسم للصاروخ مثلا قبل أن يوجد الصاروخ ولا لسفينة الفضاء قبل ان تخترع . ولا لأشعة الليزر قبل أن تكتشف . اذن فكل هذا وجد أولا ووضع له الاسم بعد ذلك .

الذين كفروا يحاولون ستر وجود الله وستر وجود الله سبحانه وتعالى هو اثبات لوجوده . لأنك لا تستر شيئ غير موجود . وهكذا يكون الكفر مثبتا للايمان .

وعقلك لا يستطيع أن يفهم الاسم الا اذا وجد المعنى فى عقلك . وأنت لا تجد لغة من لغات العالم . ليس فيها اسم الله سبحانه وتعالى . بل ان الله جل جلاله ـ وهو غيب عنا ـ اذا ذكر اسمه فهمه الصغير والكبير والجاهل والعالم . والذى طاف الدنيا والذي لم يخرج من بيته كل هؤلاء يفهمون الله بفطرة الإيمان التى وضعها فى قلوبنا جميعا .

اذن الذين كفروا يحاولون ستر وجود الله سبحانه وتعالى . . وقوله تعالى « وكذبوا بآياتنا » والآية هى الشيء العجيب اللافت . فهناك فى الكون آيات كونية مثل الشمس والقمر والنجوم والارض والجبال والبحار وغير ذلك . هذه تسمى آيات . شيء فوق قدرة البشر خلقها الله سبحانه وتعالى لتكون آية فى كونه وتخدم الانسان .

وهناك الآيات وهى المعجزات عندما يرسل الله رسولا أو نبيا الى قومه فإنه سبحانه يخرق له قوانين الكون ليثبت لقومه انه نبي مرسل من عند الله سبحانه وتعالى وهذه الآيات مقصود بها من شهدها . لأنها تأتى لتثبيت المؤمنين بالرسل . وهم يمرون بأزمة يحتاجون فيها الى التثبيت . ودلالة على صدق رسالة النبى لقومه . . وتطلق الآيات على آيات القرآن الكريم . كلام الله المعجز الذى وضع فيه سبحانه وتعالى ما يثبت صدق الرسالة . الى يوم الدين .

يحدثنا الله سبحانه فى آياته عن كيفية خلق الانسان وعن منهج السماء للارض وغير ذلك .

والذين كذبوا بآيات الله . هم الكافرون . وهم المشركون . وهم الذين يرفضون الاسلام . ويحاربون الدين . هؤلاء جميعا . حدد لنا الله تعالى مصيرهم . ولكن هل التكذيب عدم قدرة على الفهم ؟ نقول أحيانا يكون التكذيب متعمدا مثلما حدث لآل فرعون عندما أصابهم الله بآفات وامراض وبالعذاب الأصغر حتى يؤمنوا . ولكنهم رغم يقينهم بأن هذه الآيات من الله سبحانه وتعالى . لم يعترفوا

بها .. ويقول الحق جل جلاله .

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾

(من الآية ١٤ سورة النمل)

والآيات في الكون كثيرة .. لو أننا التفتنا إليها لآمنّا .. فهي ليست محتاجة إلى فكر .. بل إن الله تعالى .. رحمة بنا جعلها ظاهرة .. ليدركها الناس .. كل الناس .. ولكن البعض رغم ذلك يكذب بآيات الله .. وهؤلاء هم الذين يريدون أن يتبعوا هوى النفس .. والحق سبحانه وتعالى جمع الكافرين والمكذبين بآيات الله في عقاب واحد .. وقال جل جلاله : « أولئك أصحاب النار » والصاحب هو الذي يألف صاحبه .. ويحب أن يجلس معه .. ويقضي أجمل أوقاته .. فكأن قوله تعالى:أصحاب النار .. دليل على عشق النار لهم .. فهي تفرح بهم .. عندما يدخلونها .. كما يفرح الصديق بصديقه .. ولا تريد أن تفارقهم أبدا .. ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝ ﴾

(سورة ق)

وهكذا نرى مدى العشق .. بين النار والكافرين .. ان النار تصاحبهم في كل مكان .. وهي ليست مصاحبة كريهة بالنسبة للنار .. ولكنها مصاحبة تحبها النار .. فالنار حين تحرق كل كافر وآثم ومنافق تكون سعيدة .. لأنها تعاقب الذين كفروا بمنهج الله وكذبوا بآياته في الحياة الدنيا .. وكذلك الحال بالنسبة للجنة .. فإن الجنة أيضا تحب مصاحبة كل من آمن بالله وأخلص له العبادة وطبق منهجه .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ ﴾

(سورة هود)

أي أن الجنة تصاحب المؤمنين . وتحبهم وتلازمهم . مثلما تصاحب النار الكافرين والمكذبين .. وكما أن النار تكون سعيدة وهي تحرق الكافر . فالجنة تكون سعيدة وهي تمتع المؤمن ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « هم فيها خالدون » أي أن العذاب فيها دائم . لا يتغير ولا يفتر . ولا يخفف . بل هو مستمر الى الأبد .. واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا نعرف ان الله سبحانه وتعالى قد انزل المنهج الى الارض مع آدم ، وأن آدم نزل الى الأرض ومعه الهدى ليطبق أول منهج لنسله على الأرض فكان الله سبحانه وتعالى لم يترك الانسان لحظة واحدة على الأرض دون أن يعطيه المنهج الذى يبين له طريق الهدى وطريق الضلال . ومع المنهج شرعت التوبة . وشرع قبول التوبة حتى لا ييأس الانسان . ولا يحس أنه اذا أخطأ أو نسى أصبح مصيره جهنم بل يحس ان أبواب السماء مفتوحة له دائما . وان الله الذى خلقه رحيم به . اذا أخطأ فتح له أبواب التوبة وغفر له ذنوبه حتى يحس كل انسان برعاية الله سبحانه وتعالى له وهو على الأرض . من أول بداية الحياة

فالمنهج موجود لمن يريد أن يؤمن . والتوبة قائمة لكل من يخطىء .

وحذر الله سبحانه وتعالى آدم وذريته أنه من يطع ويؤمن يعش الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة ومن يكفر ويكذب فإن مصيره عذاب أبدى .

لقد عرف الله آدم بعدوه ابليس . وطلب منه أن يحذره . فماذا فعل بنو آدم ؟ هل استقبلوا منهج الله بالطاعة أو بالمعصية ؟ وهل تمسكوا بتعاليم الله أو تركوها وراء ظهورهم ؟



﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠ ﴾

بعد أن قص الله علينا قصة الخلق وكيف بدأت بآدم ، وعداوة ابليس لآدم وسببها قص علينا التجربة الأولى للمنهج فى إحدى الجنات ، وكيف أن آدم تعرض للتجربة فأغواه الشيطان وعصى . ثم نزل الى الأرض مسلحا بمنهج الله . وعصما بالتوبة من أن يقنط . بدأت مهمة آدم على الأرض .

ان الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعرض علينا موكب الرسالات وكيف استقبل بنو آدم منهج الله بالكفر والعصيان . فاختار جل جلاله قصة بنى اسرائيل لأنها أكثر القصص معجزات ، وأنبياء بنى اسرائيل من أكثر الانبياء الذين ارسلوا لأمة واحدة وليس معنى هذا أنهم مفضلون . ولكن لأنهم كانوا أكثر الأمم عصيانا وآثاما فكانوا أكثرها أنبياء . كانوا كلما خرجوا من معجزة انحرفوا . فتأتيهم معجزة أخرى . فينحرفون . وهكذا حكم الله عليهم لظلمهم أن يتفرقوا فى الأرض ثم يتجمعوا مرة أخرى فى مكان واحد . ليذوقوا العذاب والنكال جزاء لهم على معصيتهم وكفرهم . ولذلك أخذت قصة بنى اسرائيل ذلك الحجم الضخم فى كتاب الله . وفى تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فموسى عليه السلام الذى ارسله الله الى بنى اسرائيل من اولى العزم من الرسل ولذلك فإنك تجد فيه تربية اولا . وتربية ثانيا . . ولابد أن نلتفت الى قول الحق سبحانه وتعالى : يا بنى اسرائيل » فالحق جل جلاله . حين يريد أن ينادى البشر جميعا يقول : « يابنى آدم » واقرأ قوله تعالى :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف) .

وقوله سبحانه

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

لماذا يخاطبنا الله تعالى بقوله : يابنى آدم ؟ لأنه يريد أن يذكرنا بنعمة علينا منذ بداية الخلق . لأن هذه النعم تخص آدم وذريته . فالله تعالى خلق آدم بيديه . وأمر الملائكة أن تسجد له . وأعد له كونا مليئا بكل مايضمن استمرار حياته . ليس بالضروريات فقط . ولكن بالكماليات . ثم دربه الحق على ما سيتعرض له من اغواء الشيطان . وأفهمه أن الشيطان عدو له . ثم علمه كلمات التوبة . ليتوب عليه . وأمده بنعم لا تعد ولا تحصى .

فالله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بكل ذلك حتى نخجل من أن نرتكب معصية بعد كل هذا التكريم للانسان . فاذا تذكرنا نعم الله علينا . فاننا نخجل أن نقابل هذه النعم بالمعصية .

وقد علمنا الله سبحانه وتعالى علما ميزنا الله تعالى فيه عن ملائكته . لذا كان يجب أن نظل شاكرين عابدين طوال حياتنا فى هذه الدنيا .

لكننا نلاحظ ان الحق سبحانه وتعالى بدأ هذه الآية الكريمة بقوله : « يا بنى اسرائيل » لماذا ؟ ومن هو اسرائيل ؟

اسرائيل مأخوذه من كلمتين : اسر و ئيل (اسر) بمعنى عبد مصطفى أو مختار . (وئيل) معناها الله فى العبرانية . فيكون معنى الكلمة صفوة الله . والاصطفاء هنا ليعقوب وليس لذريته . .

فاذا نظرنا الى اسرائيل الذى هو يعقوب كيف أخذ هذا الاسم . نجد أنه أخذ الاسم لأنه ابتلى من الله بلاء كبيرا . استحق به أن يكون صفيا لله . وعندما ينادى الله تعالى قوم موسى بقوله : يا بنى اسرائيل . فانه يريد أن يذكرهم بمنزلة اسرائيل عند الله . وما واجهه من بلاء . وما تحمله فى حياته . فاذكروا ما وصاكم به حين

حضرته الوفاة .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

(سورة البقرة)

ثم يأتي بعد ذلك قول يعقوب . واقرأ قوله تعالى .

﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

(من الآية ١٣٢ سورة البقرة)

تلك هي الوصية التي وصى بها يعقوب بنيه .. فيها علم وفيها عظة . علم بأن الله اله واحد . لا شريك له وأن الدين هو الاسلام . وعظة وتذكير بأن الله اختار لهم الدين . فيحرصوا عليه حتى الموت .

ولقد جاءت هذه الوصية حين حضر يعقوب الموت وساعة الموت يكون الانسان صادقا مع نفسه . وصادقا مع ربه . وصادقا مع ذريته فكأنه سبحانه وتعالى حينما يقول : « يابني اسرائيل » يريد أن يذكرهم باسرائيل وهو يعقوب وكيف تحمل وظل صابرا . ووصيته لهم ساعة الموت .

إن الله سبحانه وتعالى يذكر الأبناء بفضله على الآباء علهم يتعظون أو يخجلون من المعصية تماما كما يكون هناك عبد صالح اسرف أبناؤه على أنفسهم .

فيقال لهم :

ألا تخجلون ؟ أنتم أبناء فلان الرجل الصالح . لا يصح أن ترتكبوا ما يغضب الله ... « يابني إسرائيل »

اسرائيل هو يعقوب ابن اسحاق . واسحاق ابن ابراهيم . وابراهيم انجب اسحاق واسماعيل ورسولنا صلى الله عليه وسلم من ذرية اسماعيل . والله سبحانه وتعالى يقول . « يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم » ولكن الله سبحانه وتعالى حين يخاطب المسلمين لا يقول اذكروا نعمة الله . وانما يقول : « اذكروا الله » لأن بني اسرائيل ماديون ودنيويون .

فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لهم : ما دمتم ماديين ودنيويين . فاذكروا نعمة الله المادية عليكم

ولكننا نحن المسلمين أمة غير مادية .

وهناك فرق بين أن يكون الانسان مع النعمة . وأن يكون مع المنعم المايون يحبون النعمة وغير الماديين يحبون المنعم . ويعيشون في معيته . ولذلك . فخطاب المسلمين « اذكروا الله » لأننا نحن مع المنعم بينما خطابه سبحانه لبني اسرائيل « اذكروا نعمة الله »

والحديث القدسي يقول : « أنا أهل أن اتقى فلا يجعل معي إله ، فمن اتقى ان يجعل معي الها كان أهلا أن أغفر له » [1]

فالله سبحانه وتعالى واجب العبادة . ولو لم يخلق الجنة والنار . . ولذلك فان المؤمنين هم أهل الابتلاء من الله لماذا ؟ لأن الابتلاء منه نعمة . والله سبحانه وتعالى يباهي بعباده ملائكته ويقول : انهم يعبدونني لذاتي . فتقول الملائكة : هل يعبدونك لنعمتك عليهم . فيقول سبحانه لهم : سأقبضها عنهم ولا يزالون يحبونني . . ومن عبادي من أحب دعاءهم . فأنا أبتليهم حتى يقولوا يارب لأن أصواتهم يحبها الله سبحانه وتعالى . ولذلك اذا ابتلى عبد في صحته مثلا . وسلب منه نعمة العافية ترى الجاهل هو الذي ينظر الى هذا نظرة عدم الرضا وأما المتعمق فينظر الى قول الله في الحديث القدسي ان الله عز وجل يقول يوم القيامة « يا بن آدم مرضت فلم تعدني قال : يارب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عدته لوجدتني

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه من حديث الخباب ورواه النسائي .

عنه » (٢) فلو فقد المؤمن نعمة العافية . . فلا ييأس فان الله تعالى يريده ان يعيش مع المنعم . . وأنه طوال فترة مرضه فى معية الله تعالى ولذلك حين يقول الحق تبارك وتعالى : « يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم » معناها . ان لم تكونوا مؤمنين لذاتى . فستحيوا أن ترتكبوا المعصية بنعمتى التى أنعمت عليكم.ولقد جاءت النعمة هنا لأن بنى اسرائيل يعبدون الله من أجل نعمه .

«اذكروا نعمتى » الذكر هو الحفظ من النسيان ، لأن روتين الحياة يجعلنا ننسى المسبب لنعم . فالشمس تطلع كل يوم . كم منا يتذكر أنها لا تطلع الا بإذن الله ويشكره . والمطر ينزل كل فترة من منا يتذكر أن المطر ينزله الله فيشكره.فالذكر يكون باللسان وبالقلب . والله سبحانه وتعالى غيب مستور عنا وعظمته أنه مستور . ولكن نعم الله سبحانه تدلنا عليه . . فالذكر يكون فى بالنا دائما . وبنعمه يكون ذكره وشكره دائما

والحق سبحانه وتعالى طلب من بنى اسرائيل أن يذكروا النعمة التى انعمها عليهم فقط . وكان يجب عليهم أن يطيعوا الله فيذكروا المنعم . لأن ذكر الله سبحانه وتعالى يجعلك فى ركن ركين . لا يصل اليك مكروه ولا شر .

إن ذكر الله المنعم يعطينا حركة الحياة فى كل شىء . فذكر الله يوجد فى القلوب الخشوع . ويقلل من المعاصى وينتفع الناس كل الناس به ، ويجعل حركة الحياة مستقيمة وحين يقول الحق سبحانه وتعالى . « اذكروا نعمتى » معناها اذكرونى حتى بالنعمة التى أنعمت عليكم . وقوله تعالى : « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » العهد هو الميثاق. واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة طه)

اذن فالعهد أمر موثق بين اثنين وربه . ما هو العهد الذى يريد الله من بنى

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة

سرائيل أن يوفوا به ليفى الله بعهده لهم ؟

نقول : اما أن يكون عهد الفطرة . وعهد الفطرة كما قلنا أن نؤمن بالله ونشكره على نعمه . وكما قلنا اذا هبط الانسان فى مكان ليس فيه أحد . ثم نام وقام فوجد مائدة حافلة بالنعم أمامه . ألا يسأل نفسه : من صنع هذا ؟ لو أنه فكر قليلا لعرف أنه لابد أن يكون لها من صانع . خصوصا أن الخلق هنا فوق قدرات البشر . فاذا أرسل الله سبحانه وتعالى رسولا يقول إن الله هو الذى خلق وأوجد . ولم يوجد مدع ولا معارض نظرا لأن ايجاد هذه النعم فوق قدرة البشر . تكون القضية محسومة لله سبحانه وتعالى .

اذن فذكر الله وشكره واجب بالفطرة السليمة ، لا يحتاج الى تعقيدات وفلسفات . والوفاء بعهد الله أن نعبده ونشكره هو فطرة الايمان لما اعطاه لنا من نعم على أن الحق سبحانه وتعالى نجده يقول :

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة البقرة)

وفى آية اخرى :

﴿ فَاذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة البقرة)

وفى آية ثالثة :

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

ما هى هذه القضية التى يريد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا اليها فى هذه الآيات الكريمة ؟ الله سبحانه وتعالى يريد أن نعرف أنه قد وضع فى يدنا مفتاح الجنة . ففى يد كل واحد منا مفتاح الطريق الذى يعوده الى الجنة او الى النار . ولذلك اذا وفيت بالعهد أوفى الله . واذا ذكرت الله ذكرك . واذا نصرت الله نصرك . .

والحديث القدسي يقول : « وإن تقرب الىّ شبرا تقربت اليه ذراعا وان تقرب الىّ ذراعا تقربت اليه باعا وان أتاني يمشي أتيته هرولة »[1]

هكذا يريد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا أن المفتاح فى يدنا نحن . فاذا بدأنا بالطاعة . فإن عطاء الله بلا حدود . واذا تقربنا الى الله تقرب الينا . واذا بعدنا عنه نادانا . هذا هو ايمان الفطرة

هل هذا هو العهد المقصود من الله سبحانه فى قوله : « أوفوا بعهدى أوف بعهدكم » أو هو العهد الذى اخذه الله على الانبياء ليبلغوا أقوامهم بأنهم اذا جاء رسول مصدق لما معهم فلابد أن يؤمنوا به وينصروه ؟ فالحق سبحانه وتعالى أخذ على الانبياء جميعا العهد لرسول الاسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .. أو هو العهد الذى أخذه الله بواسطة موسى عليه السلام على علماء بنى اسرائيل الذين تلقوا التوراة ولقنوها وكتبوها وحفظوها عهد بألا يكتموا منها شيئا . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والهدف من هذا العهد . الا يكتموا ما ورد عن الاسلام فى التوراة . والا يخفوا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم التى جاءت بها . والله سبحانه وتعالى لقد أعطى صفات رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة وفى الانجيل . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

---

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد ورواه مسلم والترمذى

ولقد جاء القرآن الكريم . مصدقا لما نزل من التوراة وعرف بنو اسرائيل أنفسهم صدق ما نزل في القرآن . ولكنهم كفروا لأن رسول الله لم يكن من قومهم وقد كان أهل الكتاب من توراة وانجيل يعرفون أن رسالة رسول الله هي الرسالة الخاتمة . وانه لابد أن يؤمن به قوم كل نبي . هل هذا هو العهد الذي يوجب على كافة الأمم الايمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ونصرته ان أدركوه . وان لم يدركوه فالمسئولية على أبنائهم واحفادهم أن ينصروه ويؤمنوا به متى أدركوه ان كانت هي عهد ايمان الفطرة ، او كانت هي عهد الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم فكلاهما وارد .

وقوله تعالى . « أوف بعهدكم » أي بما وعدتكم من جنة النعيم في الآخرة فالله سبحانه وتعالى بعد نزول الاسلام اختص برحمته الذين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام وكل من لم يؤمن بهذا الدين لا عهد له عند الله .

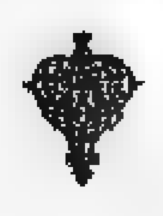
واقرأ قوله تبارك وتعالى عندما أخذت الرجفة موسى وقومه وطلب موسى من الله سبحانه وتعالى الرحمة قال تعالى :

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾

(سورة الأعراف)

فالحق سبحانه وتعالى يذكر بني إسرائيل في هذه الآية الكريمة بالعهد الذي أخذه عليهم ويذكرهم أن رحمته هي للمؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم متى جاءت رسالته ..

وقوله تعالى : «وإياي فارهبون» أي إنه لا توجد قوة ولا قدرة في الكون إلا قوة الله سبحانه وتعالى . ولذلك فاتقوا يوما ستلاقون فيه الله ويحاسبكم وهو سبحانه وتعالى قهار جبار . ولا نجاة من عذابه لمن لم يؤمن .



﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى بنى اسرائيل بالعهود التى قطعوها على نفسهم سواء بعدم التبديل والتغيير فى التوراة لإخفاء أشياء واضافة أشياء وذكرهم بعهدهم بالنسبة للايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ذكر الله سبحانه وتعالى أوصافه فى التوراة . حتى أن الحبر اليهودى ابن سلام كان يقول لقومه فى المدينة : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد حتى أنه كان يذكر قومه أن أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم الموجودة فى التوراة . لا تجعلهم يحضنونه . قال الحق تبارك وتعالى : « وءمنوا بما انزلت مصدقا لما معكم » . لأن القرآن مصدق للتوراة والقصد هنا التوراة الحقيقية قبل أن يحرفوها فالقرآن ليس موافقا لما معهم من المحرف أو المبدل من التوراة بل هو موافق للتوراة التى لا زيف فيها .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « ولا تكونوا أول كافر به » . . ولقد قلنا ان اليهود لم يكونوا أول كافر بمحمد صلى الله عليه وسلم . وانما كانت قريش قد كفرت به فى مكة والمقصود فى هذه الآية الكريمة أول كافر به من أهل الكتاب . لماذا ؟ لأن قريشا لا صلة لها بمنهج السماء ولا هى تعرف شيئا عن الكتب السابقة ولكن أحبار اليهود كانوا يعرفون صدق الرسالة وكانوا يستفتحون برسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل المدينة ويقولون : « جاء زمن رسول سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم » ولما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلا من أن يسارعوا بالايمان به . كانوا أول كافر به .

والله سبحانه وتعالى لم يفاجىء أهل الكتاب بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم . وانما نبههم الى ذلك فى التوراة والانجيل . ولذلك كان يجب ان يكونوا أول المؤمنين وليس أول الكافرين . لأن الذى جاء يعرفونه

وقوله تعالى : « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا » : الحق سبحانه وتعالى حينما يتحدث عن الصفقة الإيمانية . يستخدم كلمة الشراء وكلمة البيع وكلمة التجارة اقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

وفي آية أخرى يقول

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾

(من الآيتان ١٠ ، ١١ سورة الصف)

ان الحق سبحانه وتعالى استعمل كلمة الصفقة والشراء والبيع بعد ذلك في قوله تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

ونعلم أن التجارة هي وسطة بين المنتج والمستهلك .. المنتج يريد أن يبيع انتاجه . والمستهلك محتاج الى هذا الانتاج . والربح عملية تطول فترة .. وتقصر فترة مع عملية تحرك السلعة والاقبال عليها ان كان سريعا أو بطيئا وعملية الاتجار استخدمها الله سبحانه وتعالى ليبين لنا أنها أقصر طريق الى النفع . فالتجارة تقوم على يد الانسان . يشتري السلعة ويبيعها ولكنها مع الله سيأخذ منك بعضا من حرية نفسك . ليعطيك أخلد وأوسع منها .

وكما قلت : لو قارنا بين الدنيا بعمرها المحدود ـ عمر كل واحد منا ـ كم سنة ؟ خمسين .. ستين .. سبعين !! نجد أن الدنيا مهما طالت .. ستنتهي .والانسان العاقل هو الذي يضحي بالفترة الموقوتة والمنتهية ليكون له حظ في الفترة الخالدة .

وبذلك تكون هذه الصفقة رابحة .

ان النعيم في الدنيا على قدر قدرات البشر والنعيم في الآخرة على قدر قدرات الله سبحانه وتعالى . يأتي الانسان ليقول لماذا أضيق على نفسي في الدنيا ؟ لماذا لا أتمتع ؟ نقول له : لا .. إن الذي ستناله من العذاب والعقاب في الآخرة لا يساوي ما أخذته من الدنيا .. اذن الصفقة خاسرة . أنت اشتريت زائلا . ودفعته ثمن نعيم خالد ..

والله سبحانه وتعالى يقول لليهود : « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا » أي لا تدفعوا الآيات الايمانية التي أعطيت لكم لتأخذوا مقابلها ثمنا قليلا وعندما يأخذ الانسان أقل مما يعطى . فذلك قلب للصفقة والقلب تأتي منه الخسارة دائما .

وكأن الآية تقول . تدفعون آيات الله التي تكون منهجه المتكامل لتأخذوا عرضا من أعراض الدنيا . قيمته قليلة ووقته قصير . هذا قلب للصفقة .

ولذلك جاء الأداء القرآني مقابلا لهذا القلب في الصفقات .. الاثمان دائما تدفع والسلعة تؤخذ . ولكن في هذه الحالة التي تتحدث عنها الآية في قوله تعالى « ولاتشتروا بآياتي ثمنا قليلا » قد جعلت الثمن الذي يجب أن يكون مدفوعا جعلته مشترى وهذا هو الحمق والخطأ .

الله يقول « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا » أي لا تقلبوا الصفقة . الشيء الذي كان يجب أن تضحوا به لا تجعلوه ثمنا . لأنك في هذه الحالة تكون قد جعلت الثمن سلعة . مادمت ستشتري الآيات بالثمن .. فقد جعلت آيات الله ثمنا لتحصل على مكاسب دنيوية . وليتك جعلتها ثمنا عاليا . بل جعلتها ثمنا رخيصا .

لقد تنكرت لعهدك مع الله ليبقى لك مالك أو مركزك !! أما اذا ضحى الانسان بشيء من متع الدنيا ليأخذ متع الآخرة الباقية . فتكون هذه هي الصفقة الرابحة . ذلك لأن الانسان في الدنيا ينعم على قدر تصوره للنعيم ولكنه في الآخرة ينعم على قدر تصور الله سبحانه وتعالى في النعيم .

بعض الذين لا يريدون أن يحملوا أنفسهم على منهج الله يستعجلون مكاسب الصفقة . استعجالا أحمق . انهم يريدون المتعة حراما أو حلالا . . نقول لكل واحد منهم : ان كنت مؤمنا بالآخرة : أو غير مؤمن فالصفقة خاسرة . . لأنك فى كلتا الحالتين ستعذب فى النار . . فكأنك اشتريت بإيمانك ودينك متعة زائلة . وجعلت الكفر ومعصية الله هو الثمن فقلبت الآية ، وجعلت الشيء الذى كان يجب أن يشترى بمنهج الله وهو نعيم الآخرة يباع . ويباع بماذا ؟ بنعيم زائل ! وعندما يأخذ الانسان أقل مما يعطى . . يكون هذا قلبا للصفقة

فكأن الآية تقول : انكم تدفعون آيات الله وما تعطيكم من خيرى الدنيا والآخرة لتأخذوا عرضا زائلا من أعراض الدنيا وثمنه قليل . والثمن يكون دائما من الأعيان كالذهب والفضة وغيرهما . . وهى ليست سلعة . هب أن معك كنز قارون ذهبا . وأنت فى مكان منعزل وجائع . ألا تعطى هذا الكنز لمن سيعطيك رغيفا . . حتى لا تموت من الجوع ؟ ولذلك يجب ألا يكون المال غاية أو سلعة . فإن جعلته غاية يكون معك المال الكثير . ولا تشترى به شيئا لأن المال غايتك . فيفسد المجتمع .

إن المال عبد مخلص . ولكنه سيد ردىء . هو عبدك حين تنفقه . ولكن حين تخزنه وتتكالب عليه يشقيك ويمرضك . لأنك أصبحت له خادما .

والآية الكريمة . تعطينا فكرة عن اليهود لأن محور حياتهم وحركتهم هو المال والذهب . فالله سبحانه وتعالى حرم الربا لأن المال فى الربا يصبح سلعة . فالمائة تأخذ بمائة وخمسين مثلا . . وهذا يفسد المجتمع ، لأنه من المفروض أن يزيد المال بالعمل . فإذا أصبحت زيادة المال بدون عمل . فسدت حركة الحياة . وزاد الفقير فقرا . وزاد الغنى غنى . وهذا ما نراه فى العالم اليوم

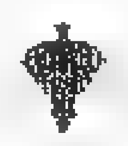
فالدول الفقيرة تزداد فقرا لأنها تقترض المال وتتراكم عليها فوائده حتى تكون الفائدة أكثر من الدين نفسه . وكلما مر الوقت . زادت الفوائد . فيتضاعف الدين . ويستحيل التسديد . والدول الغنية تزداد غنى ، لأنها تدفع القرض وتسترده بأضعاف قيمته

واذا قال الله سبحانه وتعالى : « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » يجب ألا نفهم أنه

يمكن شراء آيات الله بثمن أعلى . لا . لأنه مهما ارتفع الثمن وعلا سيكون قليلا . وقليلا جدا . لأنه يقابل آيات الله وآيات الله لا تقدر بثمن . فالصفقة خاسرة مهما كانت قيمتها .

وقول الحق تبارك وتعالى : « وإياى فاتقون » وفى الآية السابقة قال . « وإياى فارهبون » وهى وعيد . ولكن « إياى فاتقون » واقع بقوله تعالى « وإياى فارهبون » هى وعيد وتحذير لما سيأتى فى الآخرة . ولكن « وإياى فاتقون » يعنى اتقوا صفات الجلال من الله تعالى وصفات الجلال هى التى تتعلق ببطش الله وعذابه . ومن هذه الصفات الجبار والقهار والمتكبر والقادر والمنتقم والمذل . وغيرها من صفات الجلال .

الله سبحانه وتعالى يقول : « اتقوا الله » ويقول « اتقوا النار » كيف ؟ نقول إن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نجعل بيننا وبين النار ـ وهى أحد جنود لعذاب الله سبحانه وتعالى ـ وقاية . ويريدنا أن نجعل بيننا وبين عذاب النار وقاية . ويريدنا أيضا ، أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال فى الله وقاية . فقوله تعالى « وإياى فاتقون » أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية . حتى لا يصيبكم عذاب عظيم . وكيف نجعل بيننا وبين صفات الجلال فى الله وقاية ؟ أن تكون أعمالنا فى الدنيا وفقا لمنهج الله سبحانه وتعالى إذن فالتقوى مطلوبة فى الدنيا



﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

بعد أن حذر الحق سبحانه وتعالى اليهود من أن يبيعوا دينهم بثمن قليل وهو المال أو النفوذ الدنيوى . قال تعالى : « ولا تلبسوا الحق بالباطل » مادة تلبس . مأخوذة من اللباس الذى يرتديه . واللبس هو التغطية أو التعمية بأن نخفى الحق ولا نظهره . فاللباس تغليف للجسم يستره فلا يبين تفصيلاته . .

والحق هو القضية الثابتة المقدرة التى لا تتغير . فلنفرض أننا شهدنا شيئا يقع . ثم روى كل منا ما حدث . اذا كنا صادقين لن يكون حديثنا الا مطابقا للحقيقة . ولكن اذا كان هناك من يحاول تغيير الحقيقة فيكون لكل منا رواية . وهكذا فالحق ثابت لا يتغير .

فى التوراة آيات لم يحرفها اليهود . . وآيات محرفة . كل الآيات التى تتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفه . . وأنه النبى الخاتم . . حرفها اليهود . والآيات التى لا تتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحرفوها . . فكأنهم خلطوا الحق بالباطل . . ما الذى جعلهم يدخلون الباطل ويحاولون اخفاء الحقائق ؟ المصلحة الأولى : يشتروا بآيات الله ثمنا قليلا . والباطل هو ما لا واقع له . ولذلك فان أبواب الباطل متعددة .

وباب الحق واحد . فالله سبحانه وتعالى يريد أن يبلغنا أن اليهود قد وضعوا فى التوراة باطلا لم يأمر به الله . وكتموا الحقيقة عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن هل فعلوا ذلك عن طريق الخطأ أو السهو أو النسيان ؟ لا بل فعلوه وهم

يعلمون تأتى مثلا الى قول الحق تبارك وتعالى لليهود :

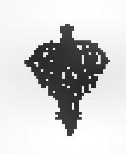
﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة البقرة)

وحطة أى حط عنا يارب ذنوبنا . يأتى اليهود ويغيرون قول الله بدلا من أن يقولوا حطة . يقولوا حنطة . من يسمع هذا اللفظ قد لا ينتبه ويعتقد أنهم قالوا ما أمرهم الله به . مع أن الواقع أنهم حرفوه . وبذلك عندما كانوا يأتون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : راعنا ليا بألسنتهم وكان المفروض أن يقولوا راعينا ولكنهم قالوا راعنا من الرعونة والله تعالى نبه المؤمنين برسوله صلى الله عليه وسلم ألا يقولوا مثلهم . فقال جل جلاله : « لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا » .

أى اتركوا هذه الكلمة نهائيا ، هذا لبس الحق بالباطل . اذن فاليهود ألبسوا الحق بالباطل . والانسان لا يلبس الحق بالباطل .. إلا اذا كان لا يستطيع مواجهة الحق . لأن عدم القدرة على مواجهة الحق ضعف تفرّ منه الى الباطل ، لأن الحق يتعب صاحبه .. والانسان لا يستطيع أن يحمل نفسه على الحق .

وقوله تعالى . « وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » أى أنهم يفعلون ذلك عن عمد وليس عن جهل . فقد يكتم الانسان حقا وهو لا يعلم أنه الحق ولكن اذا كنت تعلمه فتلك هى النكبة لأنك تخفيه عامدا متعمدا أو وأنتم تعلمون . قد يكون معناها أن اليهود ـ وهم أهل كتاب ـ يعلمون ما سيصيبهم فى الآخرة من العذاب الأليم .. بسبب اخفائهم الحق . فهم لا يجهلون ماذا سيحدث فى الآخرة . ولكنهم يقدمون على عملهم مع علمهم أنه خطأ فيكون العذاب حقا .



﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

اقامة الصلاة معروفة . وهي تبدأ بالتكبير وتختم بالتسليم . بشرائطها من عناصر التيمم والركوع والسجود . ولكن الحق يقول « وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » إنما انه يريد منهم أن ينضموا الى موكب الايمان الجامع لأن صلاتهم لم يكن فيها ركوع . اذن فهو يريدهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . ولا يظنوا أن ايمانهم بموسى عليه السلام يعفيهم من أن يكونوا خاضعين لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقولون دينا كافيا انما جاء الاسلام لمن لا دين له وهم الكفار والمشركون .. فيقول لهم : « اركعوا مع الراكعين » .

ان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم الى أن صلاتهم لن تقبل منهم إلا أن يكون فيها ركوع . وصلاة اليهود ليس فيها ركوع .. وان كان فيها سجود ، وفي كلتا الحالتين فإن الحق سبحانه وتعالى يلفتهم الى ضرورة الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم .

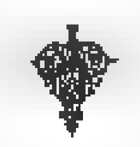
الحق سبحانه وتعالى حينما قال . (ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا) يريد أن يلفتهم الى أن العكس هو المطلوب وانهم كان يجب أن يشتروا الايمان ويختاروا الصفقة الرابحة . ولن يحدث ذلك الا اذا آمنوا بالرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم . فهذا هو الطريق الوحيد لرضا الله سبحانه وتعالى .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يهدم تكبرهم على الدين الجديد فأمرهم بالصلاة كما يصلي المسلمون . وبالزكاة كما يزكي المسلمون فلا يعتقدون أن ايمانهم بموسى والتوراة سيقبل منهم بعد أن جاء الرسول الجديد الذى أمروا ان يؤمنوا به . بل ان ايمانهم بموسى والتوراة . لو كانوا مؤمنين بها حقا .. يستوجب هذا الايمان عليهم أن

يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . لأن التوراة تأمرهم بذلك . فكأن عدم إيمانهم بمحمد صلى الله عليه سلم كفر بالتوراة ونقض لتعاليمها .

والصلاة كما قلت .. استحضار العبد وقفته بين يدي ربه وحينما يقف العبد بين يدي الله .. لابد أن يزول كل ما في نفسه من كبرياء ويدخل بدلا منه الخشوع والخضوع والذلة لله . والمتكبر معزول عن رؤية ربه الذي يقف أمامه . إنما عدم إيمانهم بهذا الشيء والوقوف بين يدي الله للصلاة كما يجب ان تؤدى ، وكما فرضها الله تعالى من فوق سبع سماوات . إنما هو رفض للخشوع لأوامر الله

وبعد ذلك تأتي الزكاة لأن العبد المؤمن لابد أن يوجه حركة حياته إلى عمل نافع يتسع له ولمن لا يقدر على الحركة في الحياة والله سبحانه وتعالى حينما يطالبنا بالسعي في الأرض لا يطالب أن يكون ذلك على قدر احتياجاتنا فقط ، بل يطالبنا أن يكون تحركنا أكثر من حاجة حياتنا . حتى يتسع هذا التحرك ليشمل حياة غير القادر على حركة الحياة . فيتسع المجتمع للجميع . ويزول منه الحقد والحسد ، وتصفى النفوس .



﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

بعد أن لفت الله انظار اليهود . الى ان عدم ايمانهم بالاسلام هو كفر بالتوراة . . لأن تعاليم التوراة تأمرهم أن يؤمنوا بالرسول الجديد . وقد أعطوا أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزمنه فى التوراة . وأمروا أن يؤمنوا به . قال تبارك وتعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » لقد كان اليهود يبشرون بمجىء رسول جديد . ويعلنون أنهم سيؤمنون به . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن من قومهم كفروا به . لأنهم كانوا يريدون أن تكون السطوة لهم . بأن يأتى الرسول الجديد منهم . فلما جاء من العرب عرفوا أن سطوتهم ستزول . وأن سيادتهم الاقتصادية ستنتهى . فكفروا بالرسول وبرسالته .

ولابد أن ننبه الى أنه اذا كانت هذه الآيات قد نزلت فى اليهود . فليس معناها أنها تنطبق عليهم وحدهم . بل هى تنطبق على أهل الكتاب جميعا . وغير المؤمنين . فالعبرة ليست بخصوص الموضوع . ولكن العبرة بعموم السبب .

ان الكلام منطبق هنا حتى على المسلمين الذين يشترون بآيات الله ثمنا قليلا وهؤلاء هم خطباء الفتنة الذين رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تقرض شفاههم بمقارض من نار . فسأل : من هؤلاء يا جبريل : فقال خطباء الفتنة . انهم الذين يزينون لكل ظالم ظلمه ويجعلون دين الله فى خدمة أهواء البشر . وكان الأصل أن تخضع أهواء البشر لدين الله . وهؤلاء هم الذين يحاولون ـ تحت شعار التجديد ـ أن يجعلوا للناس حجة فى أن يتحللوا من منهج الله . فهم يبررون ما يقع . ولا يتدبرون حساب الآخرة .

إن علماء الدين الذين يحملون منهج الله ليس من عملهم تبرير ما يقع من غيرهم. ومنهج الله لا يمكن أن يخضع أبدا لأهواء البشر. وعلى الذين يفعلون ذلك أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله. ويحاولوا استدراك ما وقع منهم. لأن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

وقول الحق سبحانه وتعالى: «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم» يعطينا منهجا آخر من مناهج الدعاة. لأن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحمل منهج الله.. يريد أن يخرج من لا يؤمن من حركة الباطل التي ألفها. وخروج غير المؤمن من حركة الباطل أمر شاق على نفسه. لأنه خروج عن الذي اعتاده. ويعد هذا ألمه. واعتراف أنه كان على باطل لذلك فهو يكون مفتوح العينين على من يدله طريق الإيمان ليرى هل يطبق ذلك على نفسه أم لا؟ أيطبق الناهي عن المنكر ما يقوله؟ فإذا طبقه عرف أنه صادق في الدعوة. وإذا لم يطبقه كان ذلك عذرا ليعود إلى الباطل الذي كان يسيطر على حركة حياته.

إن الدين كلمة تقال. وسلوك يعمل. فإذا انفصلت الكلمة عن السلوك ضاعت الدعوة. فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الصف)

لماذا..؟ لأن من يراك تفعل ما تنهى عنه يعرف أنك مخادع وغشاش. وما لم ترتضه أنت كسلوك لنفسك. لا يمكن أن تبشر به غيرك. لذلك نقرأ في القرآن الكريم:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١ ﴾

(سورة الأحزاب)

فمنهج الدين وحده لا يكفي .. الا بالتطبيق . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأمر أصحابه بأمر الا كان أسبقهم اليه ، فكان المسلمون يأخذون عنه القدوة قولا وعملا . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه . حين يريد أن يقنن أمرا في الاسلام يأتي بأهله وأقاربه ويقول لهم : لقد بدا لي أن آمر بكذا وكذا ، والذي نفسي بيده من خالف منكم لأجعلنه نكالا للمسلمين . وكان عمر بن الخطاب بهذا يقفل أبواب الفتنة ، لأنه يعلم من أين تأتي . .

وفي الدعوة الاسلامية لابد أن يكون العلماء قدوة ليصلح أمر الناس . ففي كل علوم الدنيا القدوة ليست مطلوبة الا في الدين . فأنت اذا ذُكِرَ لك عالم كيمياء بارع . وقيل لك أنه يتناول الخمر . أو يعمل كذا . تقول مالي وسلوكه . أنا أخذ عنه علم الكيمياء لأنه بارع في ذلك . ولكن لا شأن لي بسلوكه . وكذلك كل علماء الأرض ماعدا عالم الدين . فاذا كان هناك عالم يبصرك بالطريق المستقيم . وتتلقى عنه علوم دينك ثم بعد ذلك تعرف أنه يشرب الخمر أو يسرق . أتستمع له ؟ أبدا . انه يهبط من نظرك في الحال ولا تحب أن تسمعه . ولا تجلس في مجلسه مهما كان علمه ستقول له كفاك دجلا

وهكذا فان عالم الدين لابد ان يكون قدوة فلا ينهى عن منكر ويفعله أو يأمر بمعروف وهو لا يفعله . فالناس كلهم مفتحة اعينهم لما يصنع والاسلام قبل أن ينتشر بالمنهج العلمي . . انتشر بالمنهج السلوكي . وأكبر عدد من المسلمين اعتنق هذا الدين من أسوة سلوكية قادته اليه . فالذين نشروا الاسلام في الصين.. كان أغلبهم من التجار الذين تخلقوا بأخلاق الاسلام . فجذبوا حولهم الكثيرين فاعتنقوا الاسلام . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

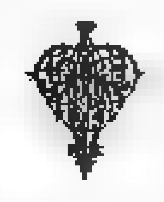
﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣ ﴾

(سورة فصلت)

فالشرط الأول هو الدعوة الى الله . والشرط الثاني العمل الصالح . وقوله « من المسلمين » لم ينسب الفضل لنفسه أو لذاته . ولكنه نسب الفضل الى الاسلام . ولكن قولوا لي : أي فائدة أن نقول أننا مسلمون ونعمل بعمل غير المسلمين ؟

الآن بقوله تعالى . « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » يذكر الله بأن اليهود يقولون مالا يفعلون . ولو كانوا يؤمنون حقا بالتوراة لآمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالاسلام . لأن ذلك أمر في التوراة . ولكنهم نسوا أنفسهم فهم أول مخالف للتوراة . لأنهم لم يتبعوها .. وهم يتلون كتابهم الذى يأمرهم بالإيمان الجديد .

ومع أنهم متأكدون من صدق رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . الا أنهم لا يؤمنون ولو كان عندهم ذرة من العقل لآمنوا بما يطلبه منهم كتابهم الذى يتلونه ولكنهم لا يفكرون بعقولهم ، وانما يريدون علوا في الأرض والآية ـ كما قلنا ـ لا تنطبق على اليهود وحدهم . بل على كل من يسلك هذا السلوك



﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ (٤٥)

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى أن الايمان ندرة . وبعد أن لفتنا الى أن التوراة تطالب اليهود . بأن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام . يطلب الله سبحانه وتعالى الاستعانة بالصبر والصلاة . ومعنى الاستعانة بالصبر أن هناك أحداثا شاقة ستقع . وأن المسألة لن تكون سهلة بل تحتاج الى جهد . فالصبر معناه حمل النفس على أمر صعب . وهم ماداموا قد تعودوا على شراء آيات الله بثمن قليل .. لأنهم قلبوا الصفقة . فجعلوا آيات الله ثمنا لمتع الدنيا . واشتروا بها متعهم وملذاتهم . وبعد أن تعودوا على الربا وغيره من وسائل الكسب الحرام . لابد أن يستعينوا بالصبر اذا أرادوا العودة الى طريق الايمان

وكما قلنا فإن المسألة ليست بخصوصية الموضوع ولكن بعموم السبب . فانها موجهة للجميع . فكل مؤمن يدخل منهج الايمان محتاج الى الاستعانة بالصبر ليحمل نفسه على مشقة المنهج وتكاليفه . وليمنع نفسه عن الشهوات التي حرمها الله سبحانه وتعالى .

والصبر في الآية الكريمة فسره بعض العلماء بأنه الصيام ، فكأن الله تعالى يأمرهم أن يجوعوا ويصبروا على ألم الجوع . ومشقة الايمان والصلاة كما قلنا خشوع وخضوع وذلة لله .. تنهى استكبارهم بأن يؤمنوا بدين لم ينزل على أحد من احبار اليهود . والحق سبحانه وتعالى يقول : « وانها لكبيرة الا على الخاشعين »

ويطلب الحق في قوله . « واستعينوا بالصبر والصلاة » الاستعانة بشيئين هما الصبر

والصلاة . وكان سياق الآية يقتضي أن يقال : « وإنهما » لكن القرآن قال : « وإنها لكبيرة » فهل المقصود وحدة منهما الصلاة فقط أم الصبر ؟

نقول انه عندما يأتي أمران منضمان الى بعضهما لا تستقيم الأمور الا بهما معا .. يكونان علاجا واحدا .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فقال يرضوه ولم يقل يرضوهما . التفسير السابق نفسه نفهمه : ليس لله حق ولرسوله حق . ولكن الله ورسوله يلتقيان على حق واحد . وكذلك قوله تعالى

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾

(من الآية ١١ سورة الجمعة)

وكان المفروض أن يقال اليهما . ولكن التجارة واللهو لهي عمل واحد . هو شغل المؤمنين عن العبادة والذكر : « واستعينوا بالصبر والصلاة » لأن العلاج في الصبر مع الصلاة . والصبر كبير أن تتحمله النفس وكذلك الصلاة لأنهما يأخذان من حركة حياة الانسان . والصبر هنا مطلوب ليصبروا على ما يمنعون عنه من نعيم الدنيا وزخرفها . والصلاة تحارب الاستكبار في النفس . فكأن الوصفة الايمانية لا تتجزأ . فلا يتم الصبر بلا صلاة ، ولا تتقن الصلاة الا بالصبر .

وقوله تعالى : (إلا على الخاشعين) . ما معنى الخشوع ؟ الخشوع هو الخضوع لمن ترى أنه فوقك بلا منازع . فالناس يتفاوتون في القيم والمواهب . وكل واحد يحاول أن يفاخر بعلوه ومواهبه . ويقول . أنا خير من فلان . أو أنت خير من فلان . اذن فمن الممكن أن يستكبر الانسان بما عنده . ولكن الانسان يخضع لمن كانت له حاجة عنده . لأنه لو تكبر عليه أتعبه في دنياه . ولذلك أعطى الله سبحانه وتعالى للناس المواهب عن الشيوع والخشوع على الشيوع فكل انسان منا محتاج للآخر . هذا خشوع على الشيوع . وكل انسان منا مميز بما لا يقدر عليه غيره هذه مواهب

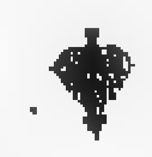
على الشيوع . هذا فى البشر ، أما بالنسبة لله سبحانه فإنه خشوع لمن خلق ووهب وأوجد .

والخشوع يجعل الانسان يستحضر عظمة الحق سبحانه ويعرف ضآلة قيمته أمام الحق سبحانه وتعالى ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون . ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به الله تعالى فى لحظة .. ذلك أننا نعيش فى عالم الأغيار . ولذلك فلنخضع للذى لا يتغير لأن كل ما يحصل عليه الانسان هو من الله وليس من ذاته . والذين يعترون بوجود الأسباب نقول لهم : اعبدوا واخشعوا لواهب الأسباب وخالقها . لأن الأسباب لا تعمل بذاتها . والله سبحانه وتعالى يجعل الأيام دولا .. أى متداولة بين الناس . انسان يفاخر بقوته . يأتى من هو أقوى منه فيهزمه . انسان يفاخر بماله . يضيع هذا المال فى لحظة .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) ﴾

(سورة آل عمران)

ولذلك لابد أن نفهم . أن الانسان الذى يستعلى بالاسباب سيأتى وقت لا تعطيه الأسباب . فالانسان اذا بلغ فى عينه وأعين الناس مرتبة الكمال . اغتر بنفسه نقول له . لا تغتر بكمالات نفسك . فإن كانت موجودة الآن . فستتغير غدا .. فالخشوع لا يكون الا لله والحق سبحانه وتعالى يقول : « وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » من هم الخاشعون ؟ الخاشع هو الطائع لله . الممتنع عن المحرمات . الصابر على الأقدار . الذى يعلم يقينا داخل نفسه أن الأمر لله وحده . وليس لأى قوة أخرى .. فيخشع لمن خلقه وخلق هذا الكون له .



﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

بعد ان أوضح لنا الحق سبحانه وتعالى ان الصبر والصلاة كبيرة إلا على كل من خشع قلبه لله . فهو يقبل عليها بحب وإيمان ورغبة . أراد ان يعرفنا من هم الخاشعون فقال جل جلاله : (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم)

ما هو الظن ؟ سبق ان تحدثنا عن النسب . وقلنا هناك نسبة أنا جازم بها والواقع يصدقها عندما أقول مثلا : محمد مجتهد . فاذا كان هناك شخص اسمه محمد ومجتهد . أكون قد جزمت بواقع فهذه نسبة مجزوم بها بشرط ان أستطيع ان أدلل على صدق ما أقول وإذا كنت جازما بالنسبة على صدق ما أقول . فهذا تقليد مثلما يقول ابنك البالغ من العمر ست سنوات مثلا . لا إله إلا الله محمد رسول الله ولكن عقله الصغير لا يستطيع ان يدلل على ذلك وإنما هو يقلد أباه أو مدرسيه

فاذا كنت جازما بالشيء وهو ليس له وجود في الواقع فهذا هو الجهل والجاهل شر من الأمي . لأن الجاهل مؤمن بقضية لا واقع لها ويدافع عنها أما الأمي . فهو لا يعلم . ومتى علم فانه يؤمن . ولذلك لابد بالنسبة للجاهل ان تخرج الباطل من قلبه أولا . ليدخل الحق . وإذا كانت القضية غير مجزوم بها ومتساوية في النفي والوجود فإن ذلك يكون شكا فان رجحت إحدى الكفتين على الأخرى يكون ذلك ظنا . والحق سبحانه وتعالى يقول : « الذين يظنون » ولم يقل الذين تيقنوا انهم ملاقوا ربهم . . لماذا لم يستخدم الحق تعالى لفظ اليقين وأبدله بالظن ؟ لان مجرد الظن انك ملاق الله سبحانه وتعالى كاف ان يجعلك تلتزم بالمنهج فما بالك اذا كنت متيقنا فمجرد الظن يكفي .

وإذا أردنا ان نضرب لذلك مثلا ـ ولله المثل الأعلى ـ نقول . هب انك سائر في طريق وجاء شخص يحذرك ان هذا الطريق فيه لصوص وقطاع طرق . فمجرد

هذا الكلام يجعلك لا تمشي في هذا الطريق إلا اذا كنت مسلحا ومعك شخص أو اثنان . فأنت تفعل ذلك للاحتياط . اذن فمجرد الظن دفعت للاحتياط . اذن فقوله تعالى : « يظنون انهم ملاقوا ربهم » فمجرد ان القضية راجحة . هذا يكفي لاتباع منهج الله . فتقي نفسك من عذاب عظيم

ويقول المعرّي في آخر حياته :

زعم المنجّم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلتُ اليكما
ان صحّ قولكما فلستُ بخاسرٍ أو صحّ قولي فالخسارُ عليكما

فكل مكذب بالآخرة خاسر . والنفس البشرية لابد ان تحتاط للقاء الله . وان تعترف ان هناك حشرًا وتعمل لذلك .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون » والرجوع الى الله سبحانه وتعالى أمر يقيني مادمت قد جئت الى الدنيا مخلوقا من الله فأنت ـ لا محالة ـ سترجع اليه . وهذا اليوم يجب أن نحتاط له . حيطة كبرى . وان نترقبه . لأنه يوم عظيم .. والحق سبحانه يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾

(سورة الحج)

ويقول جل جلاله :

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ﴾

(سورة المزمل)

اذ كان هذا حالنا يوم القيامة ، فكيف لا يكفي مجرد الظن لان نتمسك بمنهج الله . ونحن نحتاط لأحداث دنيوية لا تساوي شيئا بالنسبة لأهوال يوم القيامة . ان الظن هنا باننا سنلاقي الله تعالى يكفي لان نعمل له ألف حساب .

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ
عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾

يدعى بعض الناس ان هناك تكرارا . للآيات السبع التى سبق فيها تذكير بنى اسرائيل . نقول : لا لم تتكرر هذه الآيات .. وهى قوله تعالى .

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ
وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ
بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ
(٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا
بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ
وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾

(سورة البقرة)

هذه الآيات السبع كلها تذكر بنى اسرائيل . برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والذى جاء وصف صفاته وزمنه فى التوراة ولتذكيرهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نعمة اليهم والى الناس جميعا واذا كان الله قد فضل بنى اسرائيل بأن أرسل اليهم رسلا فليس معنى ذلك ان ينكروا نعمة الله عليهم بالرسول

الخاتم . وبما ان أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرت في التوراة وطلب منهم ان يؤمنوا به وينصروه فان عدم ايمانهم به هو كفر بالتوراة . كما ان الانجيل بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم وطلب منهم ان يؤمنوا به . فعدم ايمانهم به كفر بالانجيل .

وقوله تعالى : « اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم » أي اذكروا انني جعلت في كتابكم ما يثبت صدق محمد صلى الله عليه وسلم في نبوته . والمعنى اذكروا نعمتي بأني فضلتكم على العالمين ممن عاصروكم وقت نزول رسالة موسى . وجعلت منكم الأنبياء .

ومادام الحق سبحانه وتعالى . قد فضلهم على العالمين فكيف يمن عليهم ؟ نقول المن هنا لشدة النكاية بهم . فالله سبحانه وتعالى . لشدة معصيتهم وكفرهم جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت .
واقرأ قوله تعالى

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فالله سبحانه وتعالى يبين لنا كيف كفر بنوا اسرائيل بأنبيائهم وقتلوهم . رغم ان الله تعالى أعطاهم خيرا كثيرا .. لكنهم نكثوا العهد .. فاستحقوا العذاب . فهم لم

يجعلوا نعمة الله عليهم سببا فى اخلاصهم ولايمان به سبحانه وتصديق منهجه . وتصديق الرسول الخاتم الذى ذكر عندهم فى التوراة . كان يجب ان يؤمنوا بالله وان يذكروا نعمه الكثيرة التى تفضل بها عليهم

والحق يريد ان يلفتنا الى انه مادام قد أنعم عليهم .. فلا يظنوا انهم غير مطالبين بالايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . انما كان لابد ان يفهموا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ليصحح لهم كتابهم ويوضح لهم الطريق الصحيح فكان يجب عليهم ان ينصروه . والنعمة لا يمكن ان تستمر مع الكفر بها والحق لا يظن ان الله سبحانه وتعالى قد قسا عليهم بأن جعلهم أمما متفرقة فى الأرض كلها . ثم بعد ذلك يجمعون فى وطن واحد ليقتلوا .. واقرأ قوله تعالى .

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأسراء)

أى أرض تلك التى طلب الله سبحانه وتعالى من بنى اسرائيل ان يسكنوها ؟ مادام الحق سبحانه وتعالى قال . « اسكنوا الارض » فهى الأرض كل الأرض . وهل تكون الأرض كلها وطنا لليهود . طبعا لا . ولكن الحق سبحانه كتب عليهم ان يتفرقوا فى الأرض فلا تكون لهم دولة الا عندما يشاء الله ان يجمعهم فى مكان واحد . ثم يسلط عليهم عباده المؤمنين . والحق سبحانه وتعالى يقول

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

هذه هى المرة الأولى التى انتصر فيها المسلمون على اليهود . يقول الحق سبحانه

وتعالى . « ثم رددنا لكم الكرة عليهم » ومادام الحق سبحانه وتعالى قال عليهم فهى على المسلمين . لأنهم هم الذين انتصروا على اليهود . وقوله تعالى : « وأمددناكم بأموال وبنين » معناها انهم ينتصرون على المسلمين وهذا ما هو حادث الآن ، وما شاهدناه وما نشاهده فى الفترة الأخيرة . أى ان المدد والقوة تأتيهم من الخارج وليس من ذاتهم .

ونحن نرى ان اسرائيل قائمة على جلب المهاجرين اليهود من الدول الأخرى . وجلب الأموال والمساعدات من الدول الأخرى ايضـا.أى أن كل هذا يأتيهم بمدد من الخارج . واسرائيل لا تستطيع ان تعيش الا بالمهاجرين اليها وبالمعونات التى تأتيها . فالمدد لابد أن يأتى من الخارج . اذا كانت هناك معركة وطلب قائد المدد .. فمعناه أنه يريد رجالا يأتونه من خارج أرض المعركة ليصبحوا مددا وقوة لهذا الجيش وقوله تعالى : « وجعلناكم أكثر نفيرا » النفير هو الصوت العالى الذى يجذب الانتباه . ونحن نرى الآن ان اسرائيل تسيطر على وسائل الاعلام والدعاية فى العالم . وان صوتها عال ومسموع .. ويقول الحق سبحانه وتعالى : « فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » .. ومعنى هذا أن المسجد الأقصى سيصبح من المسلمين ويصبح تحت حكم اليهود فيأتى المسلمون ويحاربونهم ويدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ويقول الله تعالى : « فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا » واللفيف هو الجمع غير المتجانس . الذى يتنافر مع نفسه ومع من حوله . وبما ان الله سبحانه وتعالى قد قضى ان يحدث قتال بين اليهود وبين المسلمين .. يستعيد فيه المسلمون المسجد الأقصى . فكان لابد ان يجمعهم فى مكان واحد . لانهم لو بقوا كجاليات متفرقة فى كل دول العالم ومعزولة عن المجتمعات التى يعيشون فيها لاقتضى ذلك ان يحارب المسلمون العالم كله . ولكن الله سبحانه وتعالى سيأتى بهم من كل دولة الى المكان الذى فيه بيت المقدس حتى يمكن ان يحاربهم المسلمون ، وان يدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة .

فالحق سبحانه وتعالى يذكر بنى اسرائيل بنعمه عليهم . وبمعاصيهم وكفرهم حتى لا يقول أحد إن الله سبحانه كان قاسيا عليهم لأنهم هم الذين كفروا . وهم الذين عصوا وأفسدوا فى الأرض فاستحقوا هذا العقاب من الله سبحانه وتعالى.

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا
شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى : « واتقوا يوما » يذكرهم بهذا اليوم . وهو يوم القيامة الذي لا ينفع الانسان فيه إلا عمله . ويطلب الحق سبحانه وتعالى منهم ان يجعلوا بينهم وبين صفات الجلال لله تعالى في ذلك اليوم وقاية .

ان هناك آية أخرى تقول :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهذه الآية وردت مرتين وصدر الآيتين متفق . ولكن الآية الأولى تقول : « ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » والآية الثانية : « ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون » هل هذا تكرار ؟ نقول لا . والمسألة تحتاج الى فهم . فالآيتان متفقتان في مطلعهما : في قوله تعالى : « واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا » .

ففي الآية الأولى قدم الشفاعة وقال : لا يقبل والثانية أخر الشفاعة وقال لا تنفع الشفاعة في الآية الأولى مقدمة والعدل متأخر . وفي الآية الثانية العدل مقدم والشفاعة مؤخرة . وفي الآية الأولى لا يقبل منها شفاعة وفي الآية الثانية .. لا تنفعها شفاعة. والمقصود بقوله تعالى « اتقوا يوما » هو يوم القيامة الذي قال عنه سبحانه وتعالى .

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩ ﴾

(سورة الانفطار)

وقوله تعالى :

« لا تجزى نفس عن نفس شيئا » كم نفسا هنا ؟ انها اثنتان . نفس عن نفس . هناك نفس أولى ونفس ثانية . فما هى النفس الأولى ؟ النفس الأولى هى الجازية . والنفس الثانية . . هى المجزى عنها . . ومادام هناك نفسان فقوله تعالى . « لا تقبل منها شفاعة » هل من النفس الأولى أو الثانية ؟

اذا نظرت الى المعنى فالمعنى انه سيأتى انسان صالح فى يوم القيامة ويقول يارب أنا سأجزى عن فلان أو أغنى عن فلان أو أقضى حق فلان . النفس الأولى أى النفس الجازية تحاول ان تتحمل عن النفس المجزى عنها .

ولكى نقرب المعنى ولله المثل الأعلى نفترض ان حاكما غضب على أحد من الناس وقرر ان ينتقم منه أبشع انتقام يأتى صديق لهذا الحاكم ويحاول ان يجزى عن المغضوب عليه . فما لهذا الرجل من منزلة عند الحاكم يحاول ان يشفع للطرف الثالث . وفى هذه الحالة اما ان يقبل شفاعته أو لا يقبلها . فاذا لم يقبل شفاعته فانه سيقول للحاكم أنا سأسدد ما عليه . . أى سيدفع عنه فدية ، ولا يتم ذلك إلا اذا فسدت الشفاعة .

فإذا كانت المسألة وفى يوم القيامة رمع الله سبحانه وتعالى . . يأتى إنسان صالح ليشفع عند الله تبارك وتعالى لإنسان أسرف على نفسه . فلا بد أن يكون هذا الإنسان المشفع من الصالحين حتى تقبل شفاعته عند الحق جل جلاله . واقرأ قوله سبحانه

﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

والانسان الصالح يحاول ان يشفع لمن أسرف على نفسه فلا تقبل شفاعته ولا يؤخذ منه عدل ولا يسمح لها بأى مساومة أخرى اذن لا يتكلم عن العدل فى الجزاء إلا اذا فشلت الشفاعة

هنا الضمير يعود الى النفس الجازية أى التى تتقدم للشفاعة عند الله فيقول الحق سبحانه وتعالى : « لا يقبل منها شفاعة » فلا يقبل منها أى مساومة أخرى ويقول سبحانه : « ولا يؤخذ منها عدل » . وهذا ترتيب طبيعى للاحداث .

فى الآية الثانية يتحدث الله تبارك وتعالى عن النفس المجزى عنها قبل ان تستشفع بغيرها وتطلب منه ان يشفع لها . لابد ان تكون قد ضاقت حيلها وعزت عليها الأسباب فيضطر ان يذهب لغيره . وفى هذا اعتراف بعجزه . فيقول يارب ماذا أفعل حتى أكفر عن ذنوبى فلا يقبل منه . فيذهب الى من تقبل منهم الشفاعة فلا تقبل شفاعتهم .

واذا أردنا ان نضرب لذلك مثلا من القرآن الكريم فاقرأ قول الحق تبارك وتعالى

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ
صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة السجدة)

هؤلاء هم الذين يطلبون العدل من الله بأن يعيدهم الى الدنيا ليكفروا عن سيئاتهم . ويعملوا عملا صالحا ينجيهم من العذاب ذلك ان الحسنات يذهبن السيئات . .

فهذا كان رد الحق سبحانه وتعالى عليهم . قال جل جلاله :

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة السجدة)

فهم عرضوا ان يكفروا عن سيئاتهم . بأن طلبوا العودة الى الدنيا ليعملوا صالحا . فلم يقبل الله سبحانه وتعالى منهم هذا العرض . اقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

لقد طلب هؤلاء الشفاعة أولا ولم تقبل . فدخلوا فى حد آخر وهو العدل فلم يؤخذ مصداقا لقوله تعالى : « لا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » . . وهكذا نرى الاختلاف فى الآيتين . فليس هناك تكرار فى القرآن الكريم . .

ولكن الآية التى نحن بصددها تتعلق بالنفس الجازية . أو التى تريد أن تشفع لمن أسرف على نفسه : « فلا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » . والآية الثانية : « لا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة » . أى ان الضمير هنا عائد على النفس المجزى عنها فهى تقدم العدل أولا : « ارجعنا نعمل صالحا » فلا يقبل منها ، فتبحث عن شفعاء فلا تجد ولا تنفعها شفاعة .

وهذه الآيات التى أوردناها من القرآن الكريم كلها تتعلق بيوم القيامة . على ان هناك مثلا آخر فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

والآية الثانية فى قوله سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

(سورة الاسراء)

يقول بعض الناس ان « نرزقكم » فى الآية الأولى « ونرزقهم » فى الآية الثانية من جمال الاسلوب . نقول لا . قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من املاق » أى من فقر موجود . ومادام الفقر موجودا فالانسان لا يريد أولادا ليزداد فقره . ولذلك قال له الحق سبحانه وتعالى : « نحن نرزقكم وإياهم » . أى ان مجىء الأولاد لن يزيدكم فقرا . لأن لكم رزقكم ولهم رزقهم . وليس معنى ان لهم رزقهم ان ذلك سينقص من رزقكم . فللأب رزق وللولد رزق . أما فى الآية الثانية « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق » فكأن الفقر غير موجود . ولكنه يخشى ان رزق بأولاد يأتيه الفقر . يقول له الحق : « نحن نرزقهم وإياكم » . أى ان رزقهم سيأتيهم قبل رزقكم

عندما تقرأ قول الله سبحانه وتعالى . « اتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا » مكررة فى الآيتين لا تظن ان هذا تكرار . لأن احداهما ختامها . « ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » . والثانية : « لا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة » فالضمير مختلف فى الحالتين . مرة يرجع الى النفس الجازية فقدم الشفاعة وأخر العدل . ولكن فى النفس المجزى عنها يتقدم العدل وبعد ذلك الشفاعة .
الحق سبحانه وتعالى يقول

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٣٣ سورة لقمان)

أى ان الانسان لا يمكن ان يجزى عن انسان مهما بلغت قرابته .. لا يجرى الولد عن امه أو أبيه . أو يجزى الوالد عن أولاده . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة عبس)

وقول الحق سبحانه وتعالى : « لا يقبل منها عدل » . « لا يؤخذ منها عدل » . العدل هو المقابل . كأن يقول لمسرف على نفسه يارب فعلت كذا وأسرفت على نفسى فاعدنى الى الدنيا أعمل صالحا . وكلمة العدل مرة تأتى بكسر العين وهى مقابل الشيء من جنسه أى ان يعدل القماش قماش مثله ويعدل الذهب ذهب مثله وعدل بفتح العين مقابل الشيء ولكن من غير جنسه والعدل معناه الحق والعدل لا يكون إلا بين خصمين . ومعناه الانصاف ومعناه الحق . والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير . وانك لا تتحيز لجهة على حساب جهة أخرى . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان يجلس مع أصحابه يوزع نظره الى كل الجالسين . حتى لا يقال انه مهتم بواحد منهم عن الآخر .

ولابد ان نعرف ما هى النفس . كلمة النفس اذا وردت فى القرآن الكريم . فافهم ان لها علاقة بالروح . حينما تتصل الروح بالمادة وتعطيها الحياة توجد النفس . المادة وحدها قبل ان تتصل بها الروح تكون مقهورة ومنقادة مسبحة لله فلا تقل الحياة الروحية والحياة المادية . لأن الروح مسبحة والمادة مسبحة . ولكن عندما تلتقى الروح بالمادة وتبدأ الحياة وتتحرك الشهوات يبدأ الخلل . والموت يترتب عليه خروج الروح من الجسد . الروح تذهب الى عالمها التسخيرى . والمادة تذهب الى عالمها التسخيرى . وذلك يجعلنا نفهم قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة النور)

لماذا تشهد ؟ لانها لم تعد مسخرة للانسان تتبع أوامره فى الطاعة والمعصية فحواسك مسخرة لك بأمر الله فى الحياة الدنيا وهى مسبحة وعابدة . فاذا أطاعتك فى معصية فانها تلعنك لانك أجبرتها على المعصية حتى يوم القيامة وتشهد عليك . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الشمس)

ولقد شاع عند الناس لفظ الحياة المادية والحياة الروحية . لان الحياة الروحية تختلف عن الروح التى فى جسدك . وهى تنطبق على الملائكة مصداقا لقوله تعالى :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾

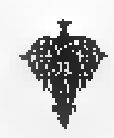
(سورة الشعراء)

وقوله جل جلاله :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

هذه هى الروح التى فيها انقاء ولصفاء . وقوله تعالى : « ولا هم ينصرون » . أى ان الله سبحانه وتعالى اذا اقتضى عليهم العذاب لا يستطيع أحد نصرهم أو وقف عذابهم . لا يمكن ان يحدث هذا . لان الأمر كله لله .



﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

بعد أن حذر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل من يوم لا تنفع فيه الشفاعة.. أراد أن يذكرهم بفضله عليهم ونعمه.. قوله تعالى: « وإذ » هي ظرف لشيء وسبق أن قلنا أن الظرف نوعان.. لأن كل حدث من الأحداث يحتاج الى زمان يقع فيه والى مكان يقع فيه.. وعندما أقول لك إجلس مكانك. هذا الظرف يراد به المكان وعندما يخاطب الله عز وجل عباده. أذكر إذ فعلت كذا.. أي اذكر وقت أن فعلت كذا ظرف زمان.. وقول الحق تبارك وتعالى: « وإذ نجيناكم » أي اذكروا الوقت الذي نجاكم فيه من فرعون.

والآية التي نحن بصددها وردت ثلاث مرات في القرآن الكريم.. قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأعراف)

وقوله جل جلاله في سورة إبراهيم:

﴿ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة ابراهيم)

الاختلاف بين الأولى والثانية هو قوله تعالى فى الآية الأولى « يذبحون أبناءكم » وفى الثانية . (يقتلون أبناءكم) « ونجيناكم » فى الآية الأولى « وأنجيناكم » فى الآية الثانية . ما الفرق بين نجينا وأنجينا ؟ هذا هو الخلاف الذى يستحق أن نتوقف عنده . فى سورة البقرة « وإذ نجيناكم من آل فرعون » . . الكلام هنا من الله . أما فى سورة ابراهيم فنجد « أذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم » .

الكلام هنا كلام موسى عليه السلام ما الفرق بين كلام الله سبحانه وتعالى وكلام موسى ؟ . .

ان كلام موسى يحكى عن كلام الله ان الله سبحانه وتعالى حين يمتن على عباده يمتن عليهم بقمم النعمة ، ولا يمتن بالنعم الصغيرة . والله تبارك وتعالى حين امتن على بنى اسرائيل قال : « نجيناكم من آل فرعون يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم » . ولم يتكلم عن العذاب الذى كان يلاقيه قوم موسى من آل فرعون انهم كانوا يتخذونهم أجراء فى الأرض ليحرثوا وفى الجبال لينحتوا الحجر وفى المنازل ليخدموا . ومن ليس له عمل يفرضون عليه الجزية . ولذلك كان اليهود يمكرون ويسيرون بملابس مذهبة حتى يتهاون فرعون فى أخذ الجزية منهم وهذا معنى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

أى انهم يتمسكنون ويظهرون الذلة حتى لا يدفعوا الجزية . ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يمتن عليهم بأنه انجاهم من كل هذا العذاب . بل يمتن عليهم بقمة النعمة . وهى نجاة الابناء من الذبح واستحياء النساء . لأنهم فى هذه الحالة ستستذل نساؤهم ورجالهم . فامرأة لا تجد رجلا يحميها وتنحرف .

كلمة نجّى وكلمة أنجى بينهما فرق كبير . كلمة نجّىٰ تكون وقت نزول العذاب . وكلمة أنجى تمنع عنهم العذاب الأولى للتخليص من العذاب والثانية يبعد عنهم عذاب فرعون نهائيا . فتفضل الله عليهم كان على مرحلتين . مرحلة انه خلصهم من عذاب واقع عليهم . والمرحلة الثانية أنه أبعدهم عن آل فرعون فمنع عنهم العذاب

قوله تعالى . « يسومونكم سوء العذاب » ما هو السوء ؟ انه المشتمل على الوان شتى من العذاب كالجلد والسخرة والعمل بالاشغال الشاقة . ما معنى يسوم ؟ يقال سام فلان خصمه أى أذله وأعنته وأرهقه . وسم مأخوذة من سام الماشيه تركها ترعى لذلك سميت بالسلم اى المتروكة . وعندما يقال إن فرعون يسوم بنى اسرائيل سوء العذاب . معناها أن كل حياتهم ذل وعذاب . . فنجد أن الله سبحانه وتعالى عندما يتكلم عن حكام مصر من الفراعنة يتكلم عن فراعنة قدماء كانوا فى عهد عاد وعهد ثمود . واقرأ قوله تعالى .

﴿ وَٱلْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ③ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ④ هَلْ فِى
ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ⑤ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ⑥ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ⑦
ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ⑧ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ⑨ وَفِرْعَوْنَ
ذِى ٱلْأَوْتَادِ ⑩ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ⑪ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ⑫ ﴾

(سورة الفجر)

أى أن الله تبارك وتعالى جاء بحضرة الفراعنة وقدماء المصريين بعد عاد وثمود . وهذا دليل على أن حضارة عاد وثمود قديمة والله سبحانه وتعالى وصف عادا بأنها التى لم يخلق مثلها فى البلاد . أى أنها حضارة أرقى من حضارة قدماء المصريين .
قد يتساءل بعض الناس كيف يصف الله سبحانه وتعالى عادا بأنها التى لم يخلق مثلها فى البلاد . مع أنه يوجد الآن حضارات متقدمة كثيرة .

نقول إن الله قد كشف لنا حضارة الفراعنة وآثارهم . ولكنه أخفى هنا حضارة

عاد . ولقد وجدنا فى حضارة الفراعنة أشياء لم نصل اليها حتى الآن . مثل براعتهم فى تحنيط الموتى والمحافظة على الجثث . وبناء الأهرامات وغير ذلك . وبما أن حضارة عاد كانت أرقى من حضارة الفراعنة . فإنها تكون قد وصلت إلى أسرار ما زالت خافية على العالم حتى الآن ولكنا لا نعرف شيئا عنها ، لأن الله لم يكشف لنا آثارها .

ولقد تحدث الحق تبارك وتعالى عن الفراعنة باسم فرعون وتكلم عنهم فى أيام موسى باسم آل فرعون . ولكن الزمن الذى كان بين عهدى يوسف وموسى لم يسم ملك مصر فرعون . إنما سماه العزيز الذى هو رئيس الوزراء ورئيسه الملك . وقال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة يوسف)

اذن فالحاكم أيام يوسف كان يسمى ملكا ولم يسم فرعون . بينما حكام مصر قبل يوسف وبعده كانوا يلقبون بفرعون . ذلك لأنه قبل عهد يوسف عليه السلام حكم مصر الهكسوس أهل بنى اسرائيل . فقد أغاروا على مصر وانتصروا على الفراعنة . وحكموا مصر سنوات حتى تجمع الفراعنة وطردوهم منها .

والغريب أن هذه القصة لم تعرف الا بعد اكتشاف حجر رشيد ، وفك رموز اللغة الهيروغليفية . وكان ملوك الهكسوس من الرعاة الذين استعمروا مصر فترة . ولذلك نرى فى قصة يوسف عليه السلام قول الله سبحانه وتعالى : « وقال الملك ائتونى به »

وهكذا نعلم أن القرآن الكريم قد روى بدقة قصة كل حاكم فى زمنه . وصف الفراعنة بأنهم الفراعنة . ثم جاء الهكسوس فلم يكن هناك فرعون ولكن كان هناك ملك . وعندما جاء موسى كان الفراعنة قد عادوا لحكم مصر فاذا كان هذا الأمر لم نعرفه الا فى مطلع القرن الخامس . عندما اكتشف الفرنسيون حجر رشيد ، ولكن القرآن أرخ له التاريخ الصحيح منذ أربعة عشر قرنا . وهذه معجزة تنضم لمعجزات

كبيرة في القرآن الكريم عن شيء كان مجهولا وقت نزول القرآن وأصبح معلوما الآن . لنجد أن القرآن جاء به في وصفه الصحيح والسليم .

بعد أن تحدثنا عن الفرق بين نجيناكم وأنجيناكم . نتحدث عن الفرق بين « يذبحون أبناءكم » . و « يقتلون أبناءكم » . . الذبح غير القتل . . الذبح لابد فيه من اراقة دماء . والذبح عادة يتم بقطع الشرايين عند الرقبة ، ولكن القتل قد يكون بالذبح أو بغيره كالخنق والإغراق . كل هذا قتل ليس شرطا فيه أن تسفك الدماء .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن فرعون حينما أراد أن ينتقم من ذرية بني اسرائيل انتقم منهم انتقامين . . انتقاما لأنهم كانوا حلفاء للهكسوس وساعدوهم على احتلال مصر . ولذلك فان ملك الهكسوس اتخذ يوسف وزيرا . فكأن الهكسوس كانوا موالين لبني اسرائيل وعندما انتصر الفراعنة انتقموا من بني اسرائيل بكل وسائل الانتقام . فقتلوهم وأحرقوا عليهم بيوتهم .

أما مسألة الذبح في قوله تعالى : « يذبحون أبناءكم » فلقد رأى فرعون نارا هبت من ناحية بيت المقدس فأحرقت كل المصريين ولم ينج منها غير بني اسرائيل . فلما طلب فرعون تأويل الرؤيا . قال له الكهان يخرج من ذرية اسرائيل ولد يكون على يده نهاية ملكك . فأمر القوابل (الدايات) بذبح كل مولود ذكر من ذرية بني اسرائيل . ولكن قوم فرعون الذين تعودوا السلطة قالوا لفرعون : ان بني اسرائيل يوشك أن ينقرضوا وهم يقومون بالخدمات لهم . فجعل الذبح سنة والسنة الثانية يبقون على المواليد الذكور،وهارون ولد في السنة التي لم يكن فيها ذبح فنجا . وموسى ولد في السنة التي فيها ذبح فحدث ما حدث

ان سبب الذبح هو خوف فرعون من ضياع ملكه . وفرض الذبح حتى يتأكد قوم فرعون من موت المولود . ولو قتلوه بأي طريقة أخرى كأن القوه من فوق جبل أو ضربوه بحجر غليظ . أو طعنوه بسيف أو برمح قد يصحو من الموت . ولكن الذبح يجعلهم يتأكدون من موته في الحال فلا ينجو أحد .

والحق يقول : « يسومونكم سوء العذاب يذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم » كلمة الابن تطلق على الذكر ، ولكن الولد يطلق على الذكر والانثى ولذلك كان

الذبح للذكور فقط . أما النساء فكانوا يتركونهن أحياء

ولكن لماذا لم يقل الحق تبارك وتعالى يذبحون أبناءكم ويستحيون بناتكم بدلا من قوله يستحيون نساءكم . الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى أن الفكرة من هذا هو ابقاء عنصر الأنوثة يتمتع بهن آل فرعون . لذلك لم يقل بنات ولكنه قال نساء أى أنهم يريدونهن للمتعة وذلك للتنكيل ببنى اسرائيل . ولا يقتل رجولة الرجل الا انه يرى الفاحشة تصنع فى نسائه

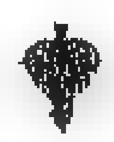
والحق سبحانه وتعالى يقول « وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » . ما هو البلاء ؟ بعض الناس يقول إن البلاء هو الشر . ولكن الله تبارك وتعالى يقول : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون »

اذن هناك بلاء بالخير وبلاء بالشر . والبلاء كلمة لا تخيف أما الذى يخيف هو نتيجة هذا البلاء . لأن البلاء هو امتحان أو اختبار إن أديته ونجحت فيه كان خيرا لك . وان لم تؤده كان وبالا عليك . والحق سبحانه وتعالى يقول فى خليله ابراهيم .

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فإبراهيم نجح فى الامتحان ، والبلاء جاء لبنى اسرائيل من جهتين . . بلاء الشر بتعذيبهم وتقتيلهم وذبح أبنائهم . وبلاء الخير بانجائهم من آل فرعون . ولقد نجح بنو اسرائيل فى البلاء الأول . وصبروا على العذاب والقهر وكان بلاء عظيما . وفى البلاء الثانى فشلوا أشياء سنعرض لها فى حينها .



﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

مرة ثانية تأتى « وإذ ». ويأتى الانجاء وسيلة . هذه الوسيلة ذكرتها الآية الكريمة . فقد خرج موسى وقومه وكانوا ستمائة ألف كما تقول الروايات وعرف فرعون بخروجهم فخرج وراءهم على رأس جيش من ألف ألف (مليون). عندما رآهم قوم موسى كما يروى لنا القرآن الكريم .

﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وقال لهم موسى كما جاء فى الكتاب العزيز :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وعندما جاء قوم فرعون بعددهم الضخم يقاومون قوم موسى وتراءى الجمعان أى انهم رأوهم رؤية العين قال قوم موسى « انا لمدركون »

وهذا كلام منطقى . فأمامهم البحر ووراءهم فرعون وجنوده . ولكن حين تخرج الأحداث من نطاق الأسباب الى قدرة المسبب فهى لا تخضع لأسباب الكون . ولذلك قال لهم موسى بملء فمه :
« كلا ان معى ربى سيهدين ».

وبذلك نقل المسألة من الأسباب الى المسبب تبارك وتعالى . فبمنطق الأحداث يكون فرعون وجنوده سيدركونهم . ولكن بمنطق الحق سبحانه وتعالى فانه سيهيىء لهم طريق النجاة .

وأوحى الله سبحانه وتعالى الى موسى بان يضرب بعصاه البحر فانفرق . وهكذا توقف قانون الماء وهو الاستطراق والسيولة وانفرق البحر وأصبح كل جزء منه كالجبل ذرات الماء تماسكت مع بعضها لبعض لتكون جبلين كبيرين بينهما يابس يمر منه بنو اسرائيل .

هذا هو معنى قوله تعالى : « واذ فرقنا بكم البحر » والفرق هو الفصل بين شيئين واذا كان البحر قد انشق فأين ذهب الطين المبتل في قاع البحر ؟ . . قالوا ان الله ارسل ريحا مرت عليه فجففته . ولذلك قال الحق جل جلاله : « طريقا في البحر يبسا »

ويقال انه حين كان موسى وقومه يعبرون البحر سألوا عن بقية اخوانهم . فقال لهم موسى انهم في طرق أخرى موازية لطريقنا . قالوا نريد أن نطمئن عليهم فرفع موسى يده الى السماء وقال اللهم أعنّي على اخلاقهم السيئة . فأوحى الله الى موسى أن يضرب بعصاه الحواجز فانفتحت طاقة بين كل ممر . فكانوا يرون بعضهم بعضا .

وعندما رأى موسى عليه السلام فرعون وجيشه يتجهون الى البحر ليعبروه . اراد أن يضرب البحر ليعود الى السيولة . فلا يلحق بهم آل فرعون . ولكن الله أوحى اليه .

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الدخان)

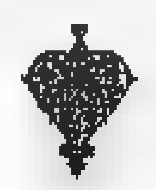
أي اترك البحر على ما هو عليه حتى يتبعكم قوم فرعون . ظانين أنهم قادرون

على أن يسلكوا نفس الطريق ويمشوا فيه . وحينما يكون أولهم قريبا من شاطئكم وآخرهم عند الشاطىء الآخر . أعيد الماء إلى استطراقه . فأكون قد أنجيت وأهلكت بالسبب الواحد . فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يمن على بنى اسرائيل بأنه أنجاهم من العذاب وأهلك عدوهم . فكان العطاء عطاءين . عطاء ايجاب بأن انجاهم، وعطاء سلب بأن أهلك عدوهم .

* *

وقوله تعالى : « وأنتم تنظرون » فى هذه الآية لم يتحدث الحق جل جلاله عن فرعون . وانما حدث عن اغراق آل فرعون . لماذا ؟ لأن آل فرعون هم الذين أعانوه على جبروته وبطشه وطغيانه . هم الأدلة التى استخدمها لتعذيب بنى اسرائيل .

والله سبحانه وتعالى أراد أن يرى بنو اسرائيل آل فرعون وهم يغرقون فوقفوا يشاهدونهم . وأنت حين ترى مصرع عدوك . تشعر بالمرارة التى فى قلبك تزول . « وأنتم تنظرون » تحتمل معنى آخر . أى ينظر بعضكم الى بعض وانتم غير مصدقين أنكم نجوتم من هذا البلاء العظيم . وفى نفس الوقت تطمئنون وانتم تشاهدونهم . وهم يغرقون دون أن ينجو منهم أحد حتى لا يدخل فى قلوبكم الشك انه ربما نجى بعضهم وسيعودون بجيش ليذبحوكم .



﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

قول الحق سبحانه وتعالى «وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة» هذا الوعد كان لإعطاء موسى المنهج، وحينما كلّم الله سبحانه وتعالى موسى بجانب الطور. كان هذا لإبلاغ موسى عليه السلام أنه رسول من رب العالمين. وأنه أرسله ليخلص بني اسرائيل من طغيان فرعون وعذابه .. وأنه سيمده بآيات ومعجزات .. حتى يقتنع فرعون وقومه أن موسى رسول من الله تبارك وتعالى .. بعد تكليف موسى بالرسالة وذهابه الى فرعون . وما حدث مع السحرة ثم نجاة موسى وقومه .. بأن شق الله جل جلاله لهم البحر هذا في وقت لم يكن المنهج قد نزل بعد .. ولذلك بمجرد أن نجىّ الله سبحانه وتعالى موسى وقومه وأغرق فرعون كان لابد أن يتم ابلاغ موسى بالمنهج . وكان الوعد يشمل أربعين ليلة .. هذه الليالي الأربعون حددت كثلاثين أولا .. ثم أتمها الحق سبحانه وتعالى بعشر أخرى .. واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

وعندما يتكلم الدين عن الزمن يتكلم دائما بالليلة .. والسبب في ذلك أنك لاتستطيع أن تحدد الزمن بدقة بالنهار .. الشمس تشرق وتغرب ثم تعود لتشرق .. فإذا نظرت الى قرص الشمس .. لايمكن أن تحدد في أي وقت من الشهر نحن .. هل في أوله أو في وسطه أو في آخره .. ولكن إذا جاء الليل بمجرد أن تنظر الى القمر تستطيع أن تحدد الزمن . فإذا كان القمر هلالا فنحن في أوائل

الشهر .. وإذا كان بدرا فنحن في وسطه وهكذا ..

إن هناك مقاييس دقيقة بالنسبة للقمر وقياس الزمن في عرف الناس ؛ الانسان العادى يستطيع أن يحدد ذلك الزمن بالتقريب بالليالي . ويقول لك البدوى في الصحراء ، هذا القمر ابن كذا ليلة .

وفي منطق الدين نحسب كل شيء بدخول الليل .. فهذه ليلة الأول من شهر رمضان نصلي فيها التراويح .. وليلة العيد لا نصلي فيها التراويح .. وليلة النصف من شعبان .. وليلة الاسراء والمعراج .

وفي كل مقاييس الدين الليل لا يتبع النهار إلا في شيء واحد هو يوم عرفه .. فلا نقول ليلة عرفه وانما نقول يوم عرفه .. اذن الليلة هي ابتداء الزمن في الدين .. والزمن عند الله مدته اثنا عشر شهرا للعام الواحد .. السنة الميلادية تختلف عن السنة الهجرية والسبب في ذلك أن الله سبحانه وتعالى وزع رحمته على كونه .. فلو أن المواقيت الدينية سارت على مواقيت الشمس .. لجاء رمضان مثلا في شهر محدد لا يتغير . يصومه الناس صيفا في مناطق محددة . وشتاء في مناطق محددة ولا يختلف أبدا .. فيظل رمضان يأتي في الصيف والحر دائما بالنسبة لبعض الناس .. وفي الشتاء والبرد دائما بالنسبة لبعض الناس ..

ولكن لأن السنة الهجرية تقوم على حساب الهلال .. فمعنى ذلك أن كل نفحات الله في كونه تأتي في كل الفصول والأزمان .. فتجد رمضان في الصيف والشتاء .. وكذلك وقفة عرفات وكذلك كل المناسبات الدينية العلية .. لأن السنة الهجرية تنقص أحد عشر يوما عن السنة الميلادية . والفرق سنة كل ثلاث وثلاثين سنة .

والحق سبحانه يقول : «ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون» .

يريد أن يقصص بني اسرائيل .. ويبين لنا كفرهم بنعم الله . فالله نجاهم من آل فرعون .. ولم يكادو يعبرون البحر حتى رأوا قوما يعبدون الأصنام . فقالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ (من الآية ١٣٨ الاعراف)

حدث هذا بمجرد خروجهم من البحر سالمين . موسى عليه السلام أخذ النقباء وذهب لميقات ربه . وترك أخاه هارون مع بني اسرائيل . وبنو اسرائيل عندما كانوا في مصر . وكانوا يخدمون نساء آل فرعون . أخذوا منهن بعض الحلي والذهب خلسة . . ومع أن فرعون وقومه متمردون على الله تبارك وتعالى . . فإن هذا لا يبرر سرقة حلي نسائهم . . فنحن لا نكافيء من عصى الله فينا بأن نعصي الله فيه . . ونصبح متساويين معهم في المعصية . . ولكن نكافيء من عصى الله فينا بأن نطيع الله فيه

وأبو الدرداء رضي الله عنه حينما بلغه أن شخصا سبه . بعث له كتابا قال فيه يا أخي لا تسرف في شتمنا . واجعل للصلح موضعا فإنا لا نكافيء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه بنو اسرائيل سرقوا بعض حلي نساء آل فرعون . . فجعلها الله فتنة لإغوائهم . وزين لهم الشيطان أن يصنعوا منها عجلا يعبدونه صنعه لهم موسى السامري الذي رباه جبريل فأخذ الحلي وصهرها ليجعلها في صورة عجل له خوار . وقال لهم هذا الحكم واله موسى

أتعرف لماذا فتنهم الله سبحانه وتعالى بالعجل ؟

لأن الذهب المصنوع منه العجل من أصل حرام والحرام لا يأتي منه خير مطلقا . . ولابد أن نأخذ العبرة من هذه الواقعة . وهي ان الحرام ينقلب على صاحبه شراً ووبالا ، إن كان طعامك حراما يدخل في تكوين خلاياك ويصبح في جسدك الحرام . . فاذا دخل الحرام الى الجسد يميل عقلك الى الحرام . . فالحرام يؤرق الجسد ويسوقه الى المعاصي .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا» وقال تعالى : يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم إياه تعبدون ، ثم ذكر ، الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه الى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنىّ يستجاب لذلك»(١) .

(١) رواه احمد ومسلم والترمذي

وقد حصل لبني إسرائيل الشيء نفسه وسرقوا ذهب آل فرعون فانقلب عليهم ظلماً ، وقال الله تعالى عنهم : « ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون »

وعد الله لموسى كما قال أهل العلم كان ثلاثين ليلة . . إتمام الثلاثين ليلة يؤتيه ما وعد . . وكلمة وعد هي الإخبار بشيء سار . والوعيد هي الإخبار بشيء سيىء . فإذا سمعت وعدا فاعرف أن ما سيجيء بعده خير . وإذا سمعت وعيدا تعرف أن ما بعدها شر ، إلا آية واحدة وهي قوله سبحانه وتعالى :

﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

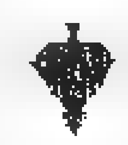
(من الآية ٧٢ سورة الحج)

فهل الوعد هنا بخير أو المعنى اختلف ؟ . . نقول : إن كانت النار موعودا فهي شر . وإن كانت النار هي الموعودة والكفار هم الموعود بهم فهي خير للنار ؛ لأن النار تفرح بتعذيب الكافرين من عباد الله . ونعرف هذا الفرح من قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۞ ﴾

(سورة ق)

ولا يستزيد الإنسان إلا من شيء يحبه . . والنار ـ ككل شيء مسخر ـ مسبحة لله تكره العصاة . . ولكنها غير مأمورة بحرقهم في الدنيا . . ولكن في الآخرة تكون سعيدة وهي تحرق العصاة والكافرين .



﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢ ﴾

الله سبحانه وتعالى يمن على بني اسرائيل مرة اخرى مع أنهم ارتكبوا ذنبا من ذنوب القمة .. ومع ذلك عفا الله عنهم لأنه يريد أن يستبقى عنصر الخير للناس .. يريد أن يعلم خلقه أنه رب رحيم . يفتح أبواب التوبة للواحد بعد الآخر .. لتمحو خلايا الشر في النفس البشرية ..

إن الانسان حين يذنب ذنبا ينفلت من قضية الايمان .. ولو لم تشرع التوبة والعفو من الله لزاد الناس في معاصيهم وغرقوا فيها .. لانه إذا لم تكن هناك توبة وكان الذنب الواحد يؤدي الى النار .. والعقاب سينال الانسان فإنه يتمادى في المعصية وهذا ما لا يريده الله سبحانه وتعالى لعباده .. وفي الحديث الشريف :

لَلَّهُ أفرحُ بتوبةِ عبدِه مِن أحدِكم سَقَطَ على بعيرِه وقد أضلَّه في أرضٍ فلاةٍ(١)

معنى الحديث . رجل معه بعير يحمل ماله وطعامه وشرابه وكل ما يملكه.هذا البعير تاه في صحراء جرداء .. بحث عنه صاحبه فلم يجده .. لقد فقده وفقد معه كل مقومات حياته . ثم ينظر فيراه أمامه . كيف تكون فرحته ؟ .. طبعا بلا حدود .هكذا تكون فرحة الله تعالى بتوبة عبده المؤمن بل أشد من ذلك .

ان الله تبارك وتعالى حين يفتح باب التوبة . يريد لحركة العالم أن تسير .. هب ان نفسا غفلت مرة . أو قادتها شهوتها مرة الى معصية . أو وسوس الشيطان لها كما حدث مع آدم وحواء . لو لم تكن هناك توبة ومغفرة . لا نقلب

(١) رواه البخاري ومسلم

كل هؤلاء إلى شياطين .. بل إن أعمال الخير تأتي من الذين أسرفوا على أنفسهم .. فهؤلاء يحسنون كثيرا ويفعلون الخير كثيرا .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾

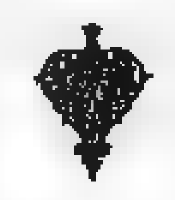
(من الآية ١١٤ سورة هود)

وقوله جل جلاله :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة التوبة)

إذن فكون الله سبحانه وتعالى يتوب على بني إسرائيل مع أنهم كفروا بالنعمة في عبادة العجل .. فذلك لأن الله يريد استبقاء الخير في كونه .. ولقد عبد بنو إسرائيل العجل قبل أن ينزل عليهم المنهج وهو التوراة .. ولكن هل بعد أن أنزل عليهم المنهج والتوراة تابوا وأصلحوا أو استمروا في معصيتهم وعنادهم ؟



﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يذكر بنى اسرائيل هنا . . أنه بعد أن أراهم من المعجزات الكثير ونجاهم من آل فرعون وشق لهم البحر ـ كان لابد أن يؤمنوا ايمانا حقيقيا لا يشوبه أى نوع من التردد . . ذلك لأنهم رأوا وشهدوا . وكانت شهادتهم عين يقين . أى شهدوا بأعينهم ماذا حدث . .

ولكن هل استطاعت هذه المشاهدة أن تمحو من قلوبهم النفاق والكفر ؟
لا . . لقد ظلوا معاندين طوال تاريخهم . لم يأخذوا أى شىء بسهولة .

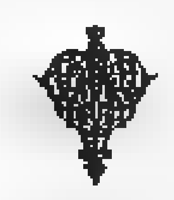
إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر أمته من أن يكونوا كبنى إسرائيل ويكونوا قوما شددوا فشدد الله عليهم . . وكان ذلك بالنسبة لقصة البقرة . . التى أمروا أن يذبحوها ليعرفوا من القاتل فى جريمة قتل كادت تثير حروبا بينهم . . فأخذوا يسألون ما هى وما لونها الى آخر ما سنتحدث عنه . . عندما نأتى الى الآيات الكريمة الخاصة بهذه الواقعة . فلو ذبحوا أى بقرة لكفتهم . . لأنه يكفى أن يقول لهم الله سبحانه وتعالى إذبحوا بقرة فيذبحوا أى بقرة . وعدم التحديد يكون أسهل عليهم . ولكنهم سألوا وظلوا يسألون فشدد عليهم . بتحديد بقرة معينة بذاتها . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ذَرُونِى ما تَرَكْتُكُمْ فإنما هلكَ من قبلِكُم بكثرةِ سؤالهِمْ واختلافِهِمْ على انبيائهم فإذا أمرتُكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نَهَيْتُكم عن شىء فدعُوه)[1] .

والله سبحانه وتعالى فى قوله : « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان » كان إتيان موسى الكتاب والفرقان . . نعمة يجب أن يذكرها قومه . . وأن يستقبلوا منهج الله

(١) رواه مسلم

عن أنه نعمة .. فلا يأخذ الانسان التكليف الالهي من زاوية ما يقيد حركته ولا ما يعطيه له .. ذلك أن الله حين حرم عليك السرقة .. حرم على الناس جميعا أن يسرقوك .. فاذا أخذ منك حريتك أن تسرق .. فقد أخذ من الناس كل الناس حريتهم أن يسرقوا مالك .. وهذه حماية كبيرة لك.

ما هو الكتاب وما هو الفرقان ؟ . الكتاب هو التوراة .. هو الذي يبين المنهج .. والفرقان هو الأشياء التي يفرق الله فيها بين الحق والباطل .. فكأن الفرقان تطلق مرة على التوراة . لأنها تفرق بين الحق والباطل . وتطلق ايضا على كل ما يفرق بين الحق والباطل .. ولذلك سمى يوم بدر يوم الفرقان .. لأنه فرق بين الحق والباطل .. فكأن منهج الله وكتابه يبين لنا أين الحق وأين الباطل ويفرق بينهما .



﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾

يذكر الله تبارك وتعالى بني إسرائيل بقصة عبادة العجل . وهي قصة مخالفة خطيرة لمنهج الله ومخالفة في القمة .. عبادة الله وحده . والذي حدث ان موسى عليه السلام ذهب لميقات الله ومعه نقباء قومه ليتلقى المنهج والتوراة . وأخبره الله سبحانه وتعالى أن قومه قد ضلوا وعبدوا غير الله .. وعاد موسى وهو في قمة الغضب . وأمسك بأخيه هارون يجره من رأسه ولحيته .. ويقول له لقد استخلفتك عليهم لكيلا يضلوا ، فقال هرون عليه السلام .

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة طه)

فتنة عبادة العجل حدثت بسبب السامري . والسامري اسمه موسى السامري ولدته أمه في الصحراء وماتت فكفله جبريل ورباه . وكان جبريل عليه السلام يأتيه على حصان يحمل له مايحتاج إليه من طعام وشراب ، وكان موسى السامري يرى حصان جبريل ، كلما مشى على الأرض وقع منه تراب فتخضر وتنبت الأرض بعد هذا التراب وأيقن أن في حافر الحصان سراً .. فأخذ قبضة من أثر الحصان ووضعها في العجل المصنوع من الذهب فأخذ يحدث خوارا كأنه حي ..

ولا تتعجب من أن صاحب الفتنة يجد معونة من الأسباب حتى يفتن بها الناس .. لأن الله تبارك وتعالى يريد أن يمتحن خلقه . والذي يحمل دعوة الحق

لابد أن يهيئه الله سبحانه وتعالى تهيئة خاصة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينتقل الى المدينة . تعرض هو والمسلمون لا بتلاءات كثيرة .. ولقد جاء حدث الاسراء والمعراج لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن تخلت عنه أسباب الدنيا فى مكة وذهب الى الطائف يدعو أهلها فسلطوا عليه غلمانهم وسفهاءهم فقذفوه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين .. ورفع يديه الى السماء بالدعاء المأثور :

«اللهم اليك اشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس»

وليس هذا على الرسول وحده بل والمؤمنين معه .. حتى أن مصعب بن عمير فتى قريش المدلل .. الذى كان عنده من الملابس والأموال والعبيد ما لا يعد ولا يحصى رئى بعد اسلامه وهو يرتدى جلد حمار وذلك حتى يختبر الحق سبحانه وتعالى فى قلب مصعب بن عمير حبه للايمان .. هل يحب الدنيا أكثر أو يحب الله ورسوله أكثر .. حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان يقول للصحابة انظروا كيف فعل الايمان بصاحبكم .

والله تبارك وتعالى لابد ان يمحص ويختبر أولئك الذين سيحملون دعوته الى الدنيا كلها .. لابد أن يكونوا صابرين على البلاء . أقوياء امام خصوم الدعوة .. مستعدين لتحمل المتاعب والآلام . لأن هذا هو دليل الصدق فى الايمان ..

ولذلك تجد كل دعوة ضلال تأتى بالفائدة لأصحابها .. دعوة الشيوعية يستفيد منها أعضاء اللجنة المركزية .. أما الشعب فإنه يرتدى ملابس رخيصة .. ويسكن فى بيوت ضيقة . أما السادة الذين ينفقون بلا حساب فهم أعضاء اللجنة المركزية .. هذه دعوة الباطل . وعكس ذلك دعوة الحق .. صاحب الدعوة هو الذى يدفع أولا ويضحى أولا . لا ينتفع بما يقول بل على العكس يضحى فى سبيل ما يقول .. اذن الباطل يأتى بالخير لصاحب الدعوة . فإذا رأيت دعوة تغدق على أتباعها فاعلم أنها دعوة باطل .. لولا أنها أعطت بسخاء ما تبعها أحد .

والآية الكريمة التى نحن بصددها هى تقريع من موسى عليه السلام لقومه .. الذين نجاهم الله من آل فرعون وأهلك عدوهم فاتخذوا العجل إلها .. ومن

حدث ذلك ؟ في الوقت الذي كان موسى فيه قد ذهب لميقات ربه ليأتي بالمنهج . والذين اتخذوا العجل إلها .. هل ظلموا الله سبحانه وتعالى أو ظلموا انفسهم ؟ .. ظلموا أنفسهم لأنهم أوردوها مورد التهلكة دون أن يستفيدوا شيئا .. والظالم على أنواع .. ظالم في شيء أعلى أي في القمة .. وظالم في مطلوب القمة .. الظالم في القمة هو الذي يجعل لله شريكا ولذلك قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

وعلاقة الشرك بالظلم أنك جئت بمن لم يخلق ومن لم يرزق شريكا لمن خلق ورزق .. وذلك الذي جعلته إلها كيف يعبد ؟ .. العبادة طاعة العابد للمعبود .. فماذا قال لكم هذا العجل الذي عبدتموه من دون الله أن تفعلوا .. لذلك فأنتم ظالمون ظلم القمة .. والظلم الآخر هو الظلم فيما شرعت القمة .. بأن اخذتم حقوق الناس واستحللتموها .. في كلتا الحالتين لا يقع الظلم على الله سبحانه وتعالى ولكن على نفسك . لماذا ؟ .. لأنك آمنت بالله أو لم تؤمن سيظل هو الله القوى القادر العزيز . لن يُنْقص إيمانك أو عدم إيمانك من ملكه شيئا . ثم تأتي يوم القيامة فيعذبك . فكأن الظلم وقع عليك .. وإذا أخذت حقوق الناس فقد تتمتع بها أياما أو اسابيع أو سنوات ثم تموت وتتركها وتأخذ العذاب . فكأنك ظلمت نفسك ولم تأخذ شيئا .. لذلك يقول الحق جل جلاله :

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة البقرة)

وظلم الناس يعود على أنفسهم .. لأنه لا أحد من خلق الله يستطيع أن يظلم الله سبحانه وتعالى .. وقوله سبحانه «فتوبوا الى بارئكم» .. الحق تبارك وتعالى قال في الآية السابقة «عفونا عنكم» ثم يقول في هذه الآية «فتوبوا الى بارئكم» .. لأن التوبة هي أصل المغفرة . أنت تتوب عن فعلك للذنب وتعتزم ألا تعود لمثله أبدا ويقبل الله توبتك ويعفو عنك ..

وقد كان من الممكن أن يأخذهم الله بهذا الذنب ويهلكهم كما حدث بالنسبة للأمم السابقة . . أما وقد شرع الله لهم أن يتوبوا . فهذا فضل من الله وعفو .
ثم يقول الحق تبارك وتعالى : «فاقتلوا أنفسكم» . فانظروا الى دقة التكليف ودقة الحيثية فى قوله تعالى : «فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم» الله سبحانه وتعالى يقول لهم . . أنا لم أغلب عليكم خالقا خلقكم أو أوجدكم منه . . ولكن أنا الذى خلقتكم . ولكن الخالق شىء والبارىء شىء آخر . . خلق أى أوجد الشىء من عدم . . والبارىء أى سَوَّاهُ على هيئة مستقيمة وفى أحسن تقويم . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾

(سورة الأعلى)

ومن هنا نعرف أن الخلق شىء والتسوية شىء آخر . بارئكم مأخوذة من برىء السهم . . وبرىء السهم يحتاج الى دقة وبراعة .

وقوله تعالى : « فاقتلوا أنفسكم » لأن الذى خلقك وسواك كفرت به وعبدت سواه . فكأنك فى هذه الحالة لابد ان تعيد له الحياة التى وهبها لك . . وعندما نزل حكم الله تبارك وتعالى . جعل موسى بنى اسرائيل يقفون صفوفا . وقال لهم ان الذى لم يعبد العجل يقتل من عبده . . ولكنهم حين وقفوا للتنفيذ . كان الواحد منهم يجد ابن عمه وأخاه وذوى رحمه أمامه فيشق عليه التنفيذ . . فرحمهم الله بان بعث ضبابا يسترهم حتى لايجدوا مشقة فى تنفيذ القتل . . وقيل أنهم قتلوا من أنفسهم سبعين ألفا .

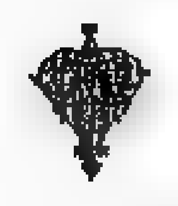
وعندما حدث ذلك أستصرخ موسى وهارون ربهما . . وقالا البكية البكية.أى أبكوا عسى أن يعفو الله عنهم . ووقفوا يبكون أمام حائط المبكى فرحمهم الله . .

وقوله تعالى «فاقتلوا انفسكم» لأن هذه الأنفس بشهوتها وعصيانها . . هى التى جعلتهم يتمردون على المنهج .

إن التشريع هنا بالقتل هو كفارة الذنب . لأن الذى عبد العجل واتخذ إلها آخر غير الله . كونه يقدم نفسه ليقتل فهذا اعتراف منه بأن العجل الذى كان يعبده

باطل .. وهو بذلك يعيد نفسه التي تمردت على منهج الله الى العبادة الصحيحة .. وهذا أقسى أنواع الكفارة .. وهو أن يقتل نفسه اثباتا لإيمانه .. بأنه لا إله إلا الله وندما على ما فعل واعلانا لذلك .. فكأن القتل هنا شهادة صادقة للعودة الى الايمان .

وقوله تعالى «ذلكم خير لكم عند بارئكم» .. أى أن هذه التوبة هى أصدق أنواع التوبة .. وهى خير لأنها تنجيكم من عذاب الآخرة .. وقوله سبحانه «فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم» . التوبة الأولى أنه شرع لكم الكفارة والتوبة الثانية عندما تقبل منكم توبتكم . وعفا عنكم عفوا أبديا



﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ﴾

بعد أن تاب الله على قوم موسى بعد عبادتهم للعجل .. عادوا مرة أخرى الى عنادهم وماديتهم . فهم كانوا يريدون إلها ماديا .. إلها يرونه ولكن الاله من عظمته أنه غيب لا تدركه الأبصار .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣ ﴾

(سورة الأنعام)

فكون الله سبحانه وتعالى فوق إدراك البشر .. هذا من عظمته جل جلاله .. ولكن اليهود الذين لا يؤمنون إلا بالشيء المادى المحس .. لاتتسع عقولهم ولا قلوبهم الى أن الله سبحانه تعالى فوق المادة وفوق الأبصار .. وهذه النظرة المادية نظرة حمقاء .. والله تبارك وتعالى قد لفتنا الى قضية رؤيته جهرا فى الدنيا .. بقوله تعالى :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ ﴾

(سورة الذاريات)

أى أن الله جل جلاله وضع دليل القمة على وجود الله الذى لا تدركه الأبصار . وضع هذ الدليل فى نفس كل واحد منا . وهى الروح الموجودة فى الجسد .. والانسان مخلوق من مادة نفخت فيها الروح فدبت فيها الحياة والحركة والحس .. اذن كل ما فى جسدك من حياة .. ليس راجع الى المادة التى تراها

أمامك .. وإنما يرجع الى الروح التى لا تستطيع أن تدركها إلا بآثارها .. فاذا خرجت الروح ذهبت الحياة وأصبح الجسد رمة .

اذا كانت هذه الروح التى فى جسدك .. والتى تعطيك الحياة لا تستطيع أن تدركها مع أنها موجودة داخلك .. فكيف تريد أن تدرك الله سبحانه وتعالى .. كان يجب أولا أن تسأل الله أن يجعلك تدرك الروح التى فى جسدك .. ولكن الله سبحانه وتعالى قال إنها من أمر الله .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الأسراء)

اذا كانت هذه الروح هى مخلوقة لله لا تدركها .. فكيف تطمع أن ترى خالقها .. وانظر الى دقة الأداء القرآنى فى قوله سبحانه « حتى نرى الله جهرة » .. فكلمة نرى تطلق ويراد بها العلم .. مثلا .

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الفرقان)

أى أعلمت .. ولكن جاءت كلمة جهرة لتنفى العلم فقط وتطالب بالرؤية مجهورة وضحة يدركونها بحواسهم . وهذا دليل على أنهم متمسكون بالمادية التى هى قوام حياتهم .. نقول لهؤلاء إن سؤالكم يتسم بالغباء .. فأنتم حين تطلبون أن تروا الله جهرة . والمفروض أن الله تبارك وتعالى له مدلول عندكم .. ولذلك تطلبون رؤيته لتقارنوا المدلول على الموجود .. ذلك لو كانت القضية أصلا أن تعرفوا أن الله موجود أو غير موجود .. والذى شجعهم على أن يقولوا ما قالوا .. طلب موسى عليه السلام من الله سبحانه وتعالى أن يراه . واقرأ قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

ولابد أن نعرف أن قضية رؤية الله في الدنيا محسومة .. وأنه لا سبيل الى ذلك والانسان في جسده البشرى .. لأن هذا الجسد له قوانين في ادراكاته .. ولكن يوم القيامة نكون خلقا بقوانين تختلف .. ففى الدنيا لابد أن تخرج مخلفات الطعام من اجسادنا . وفى الآخرة لا مخلفات ، وفى الدنيا يحكمنا الزمن .. وفى الآخرة لا زمن . إذ يظل الانسان شبابا دائما .. إذن فهناك تغيير ..

المقاييس هنا غير المقاييس يوم القيامة فى الدنيا باعدادك وجسدك لايمكن أن ترى الله . وفى الآخرة يسمح إعدادك وجسدك بأن يتجلى عليك الله سبحانه وتعالى . وهذا قمة النعيم فى الآخرة . أنت الآن تعيش فى آثار قدرة الله .. وفى الآخرة تعيش عيشة الناظر الى الله تبارك وتعالى . وفى ذلك يقول الحق جل جلاله

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

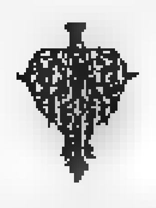
(سورة القيامة)

والانسان فى الدنيا قد اخترع الات مكنته من أن يرى ما لا يراه بعينه المجردة يرى الاشياء الدقيقة بواسطة الميكروسكوب والاشياء البعيدة بواسطة التلسكوب .. فاذا كان عمل الانسان فى الدنيا جعله يبصر ما لم يكن يبصره .. فما بالك بقدرة الله فى الآخرة .. وإذا كان الانسان عندما يضعف نظره يطلب منه الطبيب استعمال نظارة فاذا ذهب الى طبيب أمهر اجرى له عملية جراحية فى عينه يستغنى بها عن النظارة ويرى بدونها .. فما بالكم باعداد الحق للخلق وبقدرة الله التى لاحدود لها فى أن يعيد خلق العين بحيث تستطيع أن تتمتع بوجهه الكريم .

ولقد حسمَ الله تبارك وتعالى المسألة مع موسى عليه السلام بأن أراه العجز البشرى لأن الجبل بقوته وجبروته لم يستطع احتمال نور الله فجعله دكا .. وكأن الله يريد أن يفهم موسى .. أن الله تبارك وتعالى حجب عنه رؤيته رحمة منه . لأنه إذا كان هذا قد حدث للمتجلى فماذا كان يمكن أن يحدث بالنسبة لموسى إذا كان موسى قد صعق برؤية المتجلى عليه فكيف لو رأى المتجلِّ ؟ .

والانسان حين يعجز عن إدراك شيء فى الدنيا لأنه مخلوق بهذه الامكانات

يكون العجز عن الادراك ادراكا لأن العجز عن الادراك هو فى عظمة الله سبحانه وتعالى .. وقوم موسى حينما طلبوا منه أن يرو الله جهرة أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون .. عندما تجرأوا هذا الاجتراء على الله أخذتهم الصاعقة .. والصاعقة إما نار تأتى وإما عذاب ينزل .. المهم أنه بلاء يعمهم .. والصاعقة قد أماتت موسى .



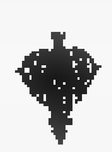
﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

فالحق سبحانه وتعالى يكمل لنا قصة الذين قالوا «أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة» . موسى عليه السلام أصيب بالصعقة أيضا . عندما طلب أن ينظر الى الله . ولكن هناك فرق بين الحالتين . . الله تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

. (من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

ولكن الأمر لم يكن كذلك مع قوم موسى . فمع موسى قال الله سبحانه وتعالى : «فلما أفاق» أي أن الصاعقة أصابته بنوع من الاغماء . ولكن مع قوم موسى . قال : «ثم بعثناكم من بعد موتكم» . فكأن قوم موسى ماتوا فعلا من الصاعقة . . فموسى أفاق من تلقاء نفسه . . أما أولئك الذين أصابتهم الصاعقة من قومه . فقد ماتوا ثم بعثوا لعلهم يشكرون .



﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

فالله سبحانه وتعالى يريد أن يمتن على بني إسرائيل بنعمه ومعجزاته .. ويرينا أنه برغم كل هذه النعم عاش بنو إسرائيل في عنادهم وتعنتهم ، بعد أن طلب بنو إسرائيل أن يروا الله جهرة فقتلهم الصاعقة .. ثم بعثهم الله تبارك وتعالى لعلهم يشكرون .. ذكر الحق جل جلاله نعما أخرى من نعمه على بني إسرائيل .. وقال اذكروا إذ كنتم في الصحراء وليس فيها ظل تحتمون به من حرارة الشمس القاسية .. وليس فيها مكان تستظلون فيه ، لأنه لا ماء ولا نبات في الصحراء .. فظلل الله سبحانه وتعالى عليكم بالغمام .. أي جاء الغمام رحمة من الله سبحانه وتعالى .. ثم بعد ذلك جاء المن والسلوى .

والمن نقط حمراء تتجمع على أوراق الشجر بين الفجر وطلوع الشمس .. وهي موجودة حتى الآن في العراق .. وفي الصباح الباكر يأتي الناس بالملاءات البيضاء ويفرشونها تحت الشجر .. ثم يهزون الشجر بعنف فتتساقط القطرات الموجودة على ورق الشجر فوق الملاءات .. فيجمعونها وتصبح من أشهى أنواع الحلويات .. فيها طعم القشدة وحلاوة عسل النحل .. وهي نوع من الحلوى اللذيذة المغذية سهلة الهضم سريعة الامتصاص في الجسم .. والله سبحانه وتعالى جعله بالنسبة لهم وقود حياتهم .. وهم في الصحراء يعطيهم الطاقة .. أما السلوى فهي طير من السماء ويقال انه السمان .. يأتيهم في جماعات كبيرة لا يعرفون مصدرها .. ويبقى على الأرض حتى يمسكوا به ويذبحوه ويأكلوه

فالله تبارك وتعالى قد رزقهم بهذا الرزق الطيب من غمام يقيهم حرارة الشمس ، ومَنّ يعطيهم وقود الحركة .. وسلوى كغذاء لهم ، وكل هذا يأتيهم من

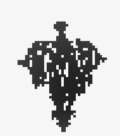
السماء دونما تعب منهم .. ولكنهم لعدم ايمانهم بالغيبيات يريدون الأمر المادى وهم يخافون أن ينقطع المن والسلوى عنهم يوما ما فماذا يعملون ؟

لو كانوا مؤمنين حقا لقالوا : إن الذى رزقنا بالمن والسلوى لن يضيعنا .. ولكن الحق جل جلاله ينزل لهم طعامهم يوميا من السماء وهم بدلا من أن يقابلوا هذه النعمة بالشكر قابلوها بالجحود

وقوله تعالى : «وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» فالحق سبحانه وتعالى يتحدث للمرة الثالثة عن ظلم قوم موسى . ففى المرة الأولى قال «وأنتم ظالمون» وفى الآية الثانية قال : «ظلمتم أنفسكم» .. وفى هذه الآية قال : «وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» ..

ولقد سبق أن قلت انه لا أحد يستطيع أن يظلم الله لأن الله سبحانه وتعالى باق بقدرته وقوته وعظمته .. لا يقلل منها لو كفر أهل الأرض جميعا ولايزيد فيها لو آمن اهل الارض كلهم . فقدرة الله باقية وكلمته ماضية .. ولكن نحن الذين نظلم أنفسنا . بأن نوردها مورد التهلكة والعذاب الذى لا نجاة منه دون أن نعطيها شيئا

إن الدنيا كما قلنا عالم أغيار والنعمة التى أنت فيها زائلة عنك . إما أن تتركها بالموت أو تتركك هى وتزول عنك . وتخرج من الدنيا تحمل اعمالك فقط .. كل شىء زال وبقيت ذنوبك تحملها الى الآخرة ولذلك فإن كل من عصى الله وتمرد على دينه قد ظلم نفسه لأنه قادها الى العذاب الأبدى طمعا فى نفوذ أو مال زال بعد فترة قصيرة ولم يدم .. فكأنه ظلمها بأن حرمها من نعيم أبدى واعطاها شهوة قصيرة عاجلة .



﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

من هذه الآية الكريمة نعرف أن بنى اسرائيل رفضوا رزق السماء من المن والسلوى مع أنه كان رزقا عاليا عاليا فى الجودة لأنه طعام حلو نقى شهى ينزل لهم من السماء مباشرة ، وعاليا فى الكثرة من أنه كان يأتيهم بلا عمل وبلا تعب وبكميات هائلة تكفيهم وتزيد .. وطلبوا من موسى طعام الأرض الذى يزرعونه بأيديهم ويرونه أمامهم كل يوم فقد كانوا يخافون أن يستيقظوا يوما فلا يجدون المن والسلوى . الحق سبحانه وتعالى يكمل لنا القصة فى آية قادمة :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

فالله سبحانه وتعالى مازال يمتن على بنى اسرائيل بنعمه وكيف قابلوها بالجحود .. فيذكرهم بإنجائهم من عذاب آل فرعون . ويذكرهم بالبحر الذى انشق لهم فمشوا فيه ثم انقض الماء بعد ذلك على آل فرعون فأغرقهم . ويذكرهم كيف أنهم عبدوا العجل بعد ذلك وكان من الممكن أن يهلكهم الله بذنوبهم . كما أهلك الأمم السابقة ولكنه عفا عنهم . ثم يذكرهم بفضله عليهم بأن أعطاهم الكتاب الذى يفرق بين الحق والباطل . ويذكرهم بأنهم طلبوا أن يروا الله جهرة .. فصعقوا وماتوا ثم بعثهم الله . ويذكرهم كيف ظللهم بالغمام

من حرارة الشمس المحرقة .. ورزقهم بالمن والسلوى .. ثم يذكرهم بأنهم طلبوا طعام الأرض فاستجاب لهم .

في هذه الآية يقول الحق تبارك وتعالى : « فكلوا منها حيث شئتم رغدا » . وفي آية أخرى يقول « رغدا حيث شئتم » .الفرق في المعنى أن قوله تعالى : « حيث شئتم رغدا » تدل على أن هناك أصنافا كثيرة من الطعام .
«ورغدا حيث شئتم» يكون هناك صنف واحد والناس جائعون يقبلون على الطعام .. عندما يقول الحق جل جلاله : كلوا رغداً يكون المخاطب هنا نوعين : إنسان غير جائع ولذلك تعد له ألوانا متعددة من الطعام لتغريه على الأكل . فتتقدم في هذه الحالة «حيث شئتم» فيقال : «فكلوا منها حيث شئتم رغدا» فإذا كان الانسان جوعان يرضى بأي طعام .. فيقال رغدا حيث شئتم .

إن المسألة في القرآن الكريم ليست تقديما وتأخيرا في الألفاظ .. ولكن المعنى لا يستقيم بدون هذا التعبير . قوله تعالى «ادخلوا هذه القرية» .. والقرية هي هنا بيت المقدس أو فلسطين أو الأردن . الحق تبارك وتعالى يقول : «وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين» ..

والحق جل جلاله حين خاطبهم بين لنا أنهم لم يكونوا في حالة جوع شديد بحيث يأكلون أي شيء فقال : «فكلوا منها حيث شئتم رغدا» أي ستجدون فيها ألوانا كثيرة من الطعام تغريكم على الأكل ولو لم تكونوا جائعين . وقوله تعالى . «وادخلو الباب سجدا» .. أي ادخلوا الباب وأنتم في منتهى الخضوع .. «وقولوا حطة» أي حط عنا ذنوبنا يارب . غير أنهم حتى في الأمر يغيرون مضمونه .. ويلبسون الحق بالباطل . وهذه خاصية فيهم . ولذلك دخلوا الباب وهم غير ساجدين . دخلوه زاحفين على ظهورهم .. مع أن ما أمرهم الله به أقل مشقة مما فعلوه .. فكأن المخالفة لم تأت من أن أوامر الله شاقة .. ولكنها أتت من الرغبة في مخالفة أمر الخالق وبدلا من أن يقولوا حطة . أي حط عنا يارب ذنوب قالوا حنطة والحنطة هي القمح .. ليطوعوا اللفظ لأغراضهم .. فكأن المسألة ليست عدم قدرة على الطاعة ولكن رغبة في المخالفة .

ومع ان الحق تبارك وتعالى وعدهم بالمغفرة والرحمة والزيادة للمحسنين ..

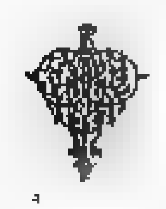
بأنهم خالفوا وعصوا وقوله تعالى . «وسنزيد المحسنين» يأتي في الآية الكريمة :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يونس)

أي لهم أجر مثل ما فعلوا أضعافا مضاعفة وما هي الزيادة ؟

أن يروا الله يوم القيامة هذه هي الزيادة التي ليس لها نظير في الدنيا .



﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

الله سبحانه وتعالى يشرح لك فى هذه الآية الكريمة كيف أن اليهود قوم معصية رغم نعم الله عليهم .. فلو أن الله سبحانه وتعالى كلفهم تكليفا لم يستطيعوه ، لأنه شاق عليهم فربما كان لهم عذرهم .. ولكن الله تبارك وتعالى لا يكلف إلا بما هو فى طاقة الانسان لو أقل منها فيقول جل جلاله :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

والله تبارك وتعالى لم يكلف بنى اسرائيل بأن يدخلوا هذه القرية التى يقال: إنها القدس ويقال أنها قرية فى فلسطين أو قرية فى الاردن .. إلا بناء على طلبهم هم . فهم الذين طلبوا من موسى أن يدعو الله لهم أن يدخلوا واديا فيه زرع . ليأكلوا مما تنبت الأرض ويطمئنوا على طعامهم .. لأنهم يخافون أن يأتى يوم . لاينزل عليهم المن والسلوى من السماء .. فلما استجاب الله لدعواهم وقال لهم ادخلوا الباب خاشعين . وقولوا يارب حط عنا ذنوبنا .. بدل بنو اسرائيل القول فبدلا من أن يقولوا حطة قالوا حنطة .. وبدلوا طريقة الدخول فبدلا من أن يدخلوا ساجدين دخلوا على ظهورهم زاحفين .. وكان هذا رغبة فى المخالفة .. فأصابهم الله بعذاب من السماء بما كانوا يفسقون أى يبتعدون عن منهج الله ولا يطبقونه . رغبة فى المخالفة وإصرارا على العناد

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ
فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ
كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

ومعناها . اذكر إذ استسقى موسى لقومه .. وكلمة وإذ وردت كثيرا في عدة آيات في قوله تعالى :

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه :

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

(من الآية ٥١ سورة البقرة)

وقوله جل جلاله :

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

وقلنا أن هذه كلها نعم امتن الله بها على بني إسرائيل وهو سبحانه وتعالى يذكرهم بها . إما مباشرة وإما على لسان موسى عليه السلام . والحق يريد أن يذكر بني إسرائيل حينما تاهوا في الصحراء أنه أظلهم بالغمام وسقاهم حين

طلبوا السقيا .. ولقد وصلت ندرة الماء عند بنى اسرائيل لدرجة أنهم لم يجدوا ما يشربونه .. لأن الانسان يبدأ الجفاف عنده لعدم وجود ماء يسقى به زرعه .. ثم يقل الماء فلا يجد ما يسقى به أنعامه .. ثم يقل الماء فلا يجد ما يشربه .. وهذا هو قمة الجفاف أو الجدب ..

وموسى عليه السلام طلب السقيا من الله تبارك وتعالى .. ولا تطلب السقيا من الله إلا إذا كانت الأسباب قد نفدت .. وانتهت آخر نقطة من الماء عندهم ، فالماء مصدر الحياة ينزله الله من السماء ، وينزله نقيا طاهرا صالحا للشرب والرى والزرع وسقيا الأنعام ..

والحق سبحانه وتعالى جعل ثلاثة أرباع الأرض ماء والربع يابسا .. حتى تكون مساحة سطح الماء المعرضة للتبخر بواسطة اشعة الشمس كبيرة جدا فتسهل عملية البخر ، فانك اذا جئت بكوب ماء وتركته فى حجرة مغلقة لمدة يومين أو ثلاثة . ثم عدت تجده ناقصا قيراطا أو قيراطين . ولكن إذا أمسكت ما فى الكوب من ماء وألقيته على أرض الحجرة .. فإنه يجف قبل أن تغادرها .. لماذا ؟ .. لأن مساحة سطح الماء هنا كبيرة .. ولذلك يتم البخر بسرعة ولا يستغرق وقتا .

هذه هى النظرية نفسها التى تتم فى الكون . الله تبارك وتعالى جعل سطح الماء ثلاثة أرباع الأرض ليتم البخر فى سرعة وسهولة .. فيتكون السحاب وينزل المطر نأخذ منه ما نحتاج اليه ، والباقى يكون ينابيع فى الأرض ، مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الزمر)

هذه الينابيع تذهب الى أماكن لا يصلها المطر . ليشرب منها الناس بما نسميه الآبار أو المياه الجوفية . وتشرب منها أنعامهم .. فإذا حدث جفاف يخرج الناس رجالا ونساء وصبيانا وشيوخا . يتضرعون الى الله ليمطرهم بالماء ، ونحن اذا توسلنا بأطفالنا الرضع وبالضعفاء يمطرنا الله .

وبعض الناس يقولون ان المطر ينزل بقوانين علمية ثابتة .. يصعد البخار من البحار ويصبح سحابا فى طبقات الجو العليا ثم ينزل مطرا .. تلك هى القوانين الثابتة لنزوله .

وأن السحاب لابد أن يكون ارتفاعه عدد كذا من الأمتار .. ليصل الى برودة الجو التى تجعله ينزل مطرا .. ولابد أن يكون السحاب ملقحا .. نقول ان هذا كله مرتبط بمتغيرات .. فالريح تهب أو لا تهب . وتحمل السحاب الى منطقة عالية باردة ولا تحمله وغير ذلك .

إذن فكل ثابت محمول على متغير .. قد تعرف أنت القوانين الثابتة .. ولكن القوانين المتغيرة لايمكن أن تتنبأ بما سيحصل ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الجن)

إذن فعوامل سقوط المطر لاتخضع لقوانين ثابتة . ولكن المتغير هو العامل الحاسم . ليسوق السحاب الى المناطق الباردة والى الارتفاع المطلوب .. ولابد أن ننتبه الى ان هناك قوانين ثابتة فى الكون وقوانين تتغير .. وأن القانون المتغير هو الذى يحدث التغيير .

وقوله تعالى : «وإذ استسقى موسى لقومه» .. تدل على أن هناك مُستسقى بفتح القاف وأن هناك مستسقى بكسر القاف .. مستسقى بكسر القاف أى ضارع الى الله لينزل المطر .. أما المستسقى بفتح القاف فهو الله سبحانه وتعالى الذى ينزل المطر

إن هذا الموقف خاص بالله تبارك وتعالى فلا توجد مخازن للمياه وليس هناك ماء فى الأرض .. من أنهار أو آبار أو عيون ولامنجأ الا الله .. فلابد من التوسل لله تبارك وتعالى :

عن أنس رضى الله عنه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبدالمطلب رضى الله عنه فقال : اللهم إنا كنا نتوسل اليك

بنبينا صلى الله عليه وسلم فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال : فيسقون»(١)

بعض الناس يقولون هذا دليل على أن الميت لا يستعان به . بدليل أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه لم يتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته ، وإنما توسل بعم رضوان الله . . نقول ومن توسل عمر ؟ . . أتوسل بالعباس أم بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . . توسل بالرسول ، وبذلك أخذنا الحجة أن الوسيلة ليست مقصورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإنما تتعدى الى أقاربه . .

وهنا يأتي سؤال لماذا نقل الأمر من رسول الله عليه الصلاة والسلام الى عم الرسول ؟ . . نقول لأن رسول الله قد انتقل ولا ينتفع الآن بالماء . . ولكن عمه العباس هو الحي الذي ينتفع بالماء . لذلك كان التوسل بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يكن منطقيا أن يتوسلوا برسول الله عليه الصلاة والسلام وهو ميت لا يحتاج الى الماء . . والذين أرادوا أن يأخذوا التوسل بدعوى الجاه . نقول لهم أن الحديث ضدكم وليس معكم . . لأنه أثبت أن التوسل جائز بمن ينتسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لابد أن نتحدث كيف أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن قابل بنو اسرائيل النعمة بالجحود والنكران فكيف يسقيهم ؟ . . نقول إنها النبوة الرحيمة التي كانت السبب في تنزل الرحمة تلو الرحمة على بنى اسرائيل . وكان طمع موسى في رحمة الله بلا حدود . ولذلك فإن الدعوات كانت تتوالى من موسى عليه السلام لقومه وكانت الاستجابة من الله تأتى

كان من المفروض لاستكمال المعنى أن يقال وإذا استسقى موسى ربه لقومه فقال يارب اسقهم . . ولكن هذه لم تأت حذفت وجاء بعدها الاجابة : «وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر» . إذن قوله يارب اسق قومى واستجابة الله له محذوفة لأنها مفهومة . . ولذلك جاء القرآن باللقطات الأساسية وترك اللقطات المفهومة لذكاء الناس . . تماما كما جاء في سورة النمل. الهدهد ذهب ورأى ملكة بلقيس وعرشها . وعاد الى سليمان وأخبره . فطلب سليمان من الهدهد

---

(١) رواه البخارى .

ان يلقى الى ملكة سبأ وقومها كتابا وقال .

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ
يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾

(سورة النمل)

سليمان أمر الهدهد أن يلقى كتابا الى بلقيس وقومها . والآية التي بعدها جاءت بقوله تعالى « قالت «يأيها الملأ إني ألقى الىّ كتاب كريم» كل التفاصيل حدثت من أن الهدهد أخذ الكتاب وطار الى ملكه سبأ وألقى الكتاب أمام عرشها والتقطت بلقيس ملكة سبأ الكتاب وقرأته . . ودعت قومها وبدأت تروى اليهم قصة الكتاب . . كل هذا حُذف لأنه مفهوم

قال موسى يارب اسق قومى . . والله سبحانه وتعالى قال له إنى أوردت الماء لقومك . . كل هذا محذوف . وتأتى الآية الكريمة . «فقلنا اضرب بعصاك الحجر» .

واضرب بعصاك الحجر لنا معها وقفه . . لأن الانسان حين يستسقى الله . . يطلب منه أن ينزل عليه مطرا من السماء ، والحق تبارك وتعالى كان قادرا على أن ينزل على بنى اسرائيل مطرا من السماء ولكن الله جل جلاله أراد المعجزة . . فقال سأمدكم بماء ولكن من جنس ما سمكم الماء وهو الحجر الموجود تحت أرجلكم . . لن أعطيكم ماء من السماء . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يُرى بنى اسرائيل مدى الإعجاز . . فأعطاهم الماء من الحجر الذى تحت أرجلهم .

ولكن من الذى يتأثر بالضرب : الحجر أم العصا ؟ . . العصا هى التى تتأثر وتتحطم والحجر لا يحدث فيه شىء . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد بضربة واحدة من العصا أن ينفلق الحجر . . ولذلك يقول الشاعر :

أيا هازئاً من صنوف القدرْ
بنفسك تُعنف لا بالقدرْ
ويا ضاربا صخرةً بالعصا
ضربْتَ العصا أم ضربْتَ الحجرْ

إن انفجار الماء من ضربة العصا دليل على أن العصا أشيرت فقط الى الصخرة فتفجر منها الماء . وحتى لو كانت العصا من حديد . . هل تكون قادرة على ان تجعل الماء ينبع من الحجر ؟

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفت الى أنه كان من الممكن أن ينزل الماء من السماء . . ولكن الله أرادها معجزة مركبة . . ليعلموا أنه يستطيع أن يأتي بالماء من الحجر الصلب . . وأن نبع الماء من متعلقات «كن»

هنا لابد أن ننظر الى تعنت بني اسرائيل.قالوا لموسى هب أننا في مكان لا حجر فيه . من أين ينبع الماء ؟ . لابد أن نأخذ معنا الحجر حتى اذا عطشنا نضرب الحجر بالعصا . . ونسوا أن هناك ما يتم بالأسباب وما يتم بكلمة «كن» . . ولذلك نجد مثلا كبار الأطباء يحتارون في علاج مريض . ثم يشفى على يد طبيب ناشيء حديث التخرج . هل هذا الطبيب الناشيء يعرف أكثر من أساتذته الذين علموه ؟ . الجواب طبعا لا

إن التلميذ لا يتفوق على استاذه الذي علمه فليس العلاج بالأسباب وحدها ولكن بقدرة المسبب . ولذلك جاء موعد الشفاء على يد هذا الطبيب الناشيء . . فكشف الله له الداء وألهمه الدواء .

يقول الحق سبحانه وتعالى : «فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا» لماذا اثنتا عشرة عينا . لأن اليهود كانوا يعيشون حياة انعزال . كل مجموعة منهم كانت تسمى «سبطا» لها شيخ مثل شيخ القبيلة . . والحق تبارك وتعالى يقول : «قد علم كل أناس مشربهم» أي كل سبط أو مجموعة ذهبت لمشرب . . تبعت العيون من الحجر وامتدت متشعبة الى الأسباط جميعا كل في مكانه . فإذا ما أخذوا حاجتهم ضرب موسى الحجر فيجف . ولذلك نعرف أن الحجر كان يعطيهم الماء على قدر الحاجة وكانت الجهة السفلى من الحجر الملامسة للأرض . والجهة العليا التي ضرب عليها بالعصا لم ينبع منها شيء ، أما باقي الجهات الأربع فقد نبع منها كل منها ثلاثة ينابيع .

وهناك شيء في اللغة يسمونه اللفظ المشترك . . وهو الذي يستخدم في معاني متعددة . فاذا قلت سقى القوم دوابهم من العين . . العين هنا عين الماء . . واذا قلت أرسل الأمير عيونه في المدينة يعني أرسل جنوده . . وإذا قلت اشتريته

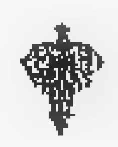
بعين أى بذهب .. وإذا قلت نظر إلى بعينه شذرا أى ببصره .. إذن كلمة عين تستخدم فى أشياء متعددة .. ومعناها هنا عين الماء الجارية

قوله تعالى : «قد علم كل أناس مشربهم» أى أن كل سبط عرف مكانه الذى يلزمه .. حتى لايضيع من كل منهم الماء .. ولكن الانسان حينما يكون مضطرا يلتزم بما يطلبه الله منه ويكون ملتزما بالأداء ، فإذا فرج الله كربه وعادت إليه النعمة يعود إلى طغيانه .. ولذلك يقول الحق جل جلاله فيها : «كلوا واشربوا من رزق الله ولاتعثوا فى الأرض مفسدين» أى لا يكون شكركم على النعمة بالإفساد فى الأرض .. واقرأ قوله تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦﴾

(سورة سبأ)

هنا نرى أن أهل سبأ رزقهم الله فأعرضوا عن شكره .. كانوا ينتفعون بالسد الذى يحفظ لهم مياه الأمطار .. ويمدهم بما يحتاجون إليه منها طوال العام ، وأخذوا يتفاخرون بعلمهم ونسوا الله الذى علمهم .. فكان هذا السد هو النكبة أو الكارثة التى أهلكت زرعهم .. كذلك حدث لبنى اسرائيل قبل لهم : «كلوا واشربوا من رزق الله ولاتعثوا فى الأرض مفسدين» فأفسدوا فى الأرض ونسوا نعمة الله فنزل بهم العذاب



﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ
لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ
أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ
لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ
مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ
بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة أيضا من آيات التذكير بنعم الله سبحانه وتعالى على موسى وعلى بني إسرائيل. وكنا قد تعرضنا لمعنى طعام واحد عند ذكر المن والسلوى. وقلنا أن تكرار نزول المن والسلوى كل يوم جعل الطعام لونا واحدا. وكلمة واحد هي أول العدد.. وإذا انضم إليه مثله يصير اثنين.. وإذا انضم إليه مثله يصبح ثلاثة. إذن فأصل العدد هو الواحد.. والواحد يدل على وحدة الفرد ولا يدل على وحدانية.. فإذا قلنا الله واحد فإن ذلك يعني أنه ليس كمثله أحد.. ولكنه لا يعني أنه ليس مكونا من أجزاء.. فأنت لست واحدًا ولست أحدًا لأنك مكون من أجزاء ـ كما أن هناك من يشبهونك.. والشمس في مجموعة واحدة ولكنها ليست أحدًا لأنها مكونة من أجزاء وتتفاعل. والله سبحانه وتعالى واحد ليس كمثله شيء. وأحد ليس مكونا من أجزاء. ولذلك من أسمائه الحسنى الواحد الأحد.. ولا نقول أن الاسم مكرر فهذه تعني الفردية، وهذه تنفي التجزئة.

وقوله تعالى: «لن نصبر على طعام واحد».. نلاحظ هنا أن الطعام وُصف بأنه واحد رغم أنه مكون من صنفين هما المن والسلوى.. ولكنه واحد لرتابة نزوله.. الطعام كان يأتيهم من السماء.. ولكن تعنتهم مع الله جعلهم لا يصبرون عليه فقالوا ما يدرينا لعله لا يأتي. نريد طعاما نزرعه بأيدينا ويكون طوال الوقت أمام عيوننا.. وكأن هذه المعجزات كلها ليست كافية.. لتعطيهم الثقة في استمرار رزق الله.. إنهم يريدون أن يروا.. ألم يقولوا لموسى: «أرنا الله جهرة»..

ماذا طلبوا ؟ . . قالوا . « فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض » « ادع لنا ربك » أي أطلب من الله ولأن الدعاء لون من الطلب فإنك حين تتوجه إلى الله طالبا أن يعطيك . . فإنك تدعو بذلة الداعي أمام عزة المدعو . . والطلب إن كان من أدنى إلى أعلى قيل دعاء . . ومن مساوٍ إلى مساوٍ قيل طلب . ومن أعلى إلى أدنى قيل أمر . .

لقد طلب بنو إسرائيل من موسى أن يدعو الله سبحانه وتعالى أن يخرج لهم أطعمة مما تنبت الأرض . وعددوا ألوان الأطعمة المطلوبة . . وقالوا « من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها » ولكنها كلها أصناف تدل على أن من يأكلها هم من صنف العبيد . . والمعروف أن آل فرعون إستعبدوا بني إسرائيل . . ويبدو أن بني إسرائيل أحبوا حياة العبودية واستطعموها .

الحق تبارك وتعالى كان يريد أن يرفع قدرهم فنزل عليهم المن والسلوى ولكنهم فضلوا طعام العبيد . . والبقل ليس مقصودًا به الفول فحسب . ولكنه كل نبات لا ساق له مثل الخس والعجل والكرات والجرجير . . والقثاء هو القتة صنف من الخيار . . والفوم هو القمح أو الثوم . والعدس والبصل معروفان . . والله سبحانه وتعالى قبل أن يجيبهم أراد أن يؤنبهم . فقال « أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير » .

عندما تسمع كلمة استبدال فاعلم أن الباء تدخل على المتروك . . تقول إشتريت الثوب بدرهم يكون معنى ذلك إنك أخذت الثوب وتركت الدرهم .

قوله تعالى : « الذي هو أدنى بالذي هو خير » أي انهم تركوا الذي هو خير وهو المن والسلوى . . وأخذوا الذي هو أدنى . . والدنو هنا لا يعني الدناءة . . لأن ما تنتجه الأرض من نعم الله لا يمكن أن يوصف بالدناءة . . ولكن الله تبارك وتعالى يخلق بالأسباب ويخلق بالأمر المباشر ما يخلقه الله بالأمر المباشر منه بكلمة « كن » . . يكون خيرا مما جاء بالأسباب . لأن الخلق المباشر لا صنعة لك فيه . . عطاء خالص من الله . أما الخلق بالأسباب فقد يكون لك دور فيه . كأن تحرث الأرض أو تبذر البذور . . ما جاء خالصا من الله بدون أسباب يقترب

من عطاء الآخرة التي يعطى الله فيها بلا أسباب ولكن بكلمة « كن » .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة طه)

فالله تبارك وتعالى يصف رزق الدنيا بأنه فتنة .. ويصف رزق الآخرة بأنه خير منه .. مع أن رزق الدنيا والآخرة ، وكل رزق في هذا الوجود حتى الرزق الحرام هو من الله جل جلاله .. فلا رازق إلا الله ولكن الذي يجعل الرزق حراما هو استعجال الناس عليه فيأخذونه بطريق حرام .. ولو صبروا لجاءهم حلالا ..

نقول إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يرزق .. ولكنه سمى رزقا فتنة وسمى رزقا خيرا منه .. ذلك أن الرزق من الله بدون أسباب أعلى وأفضل منزلة من الرزق الذي يتم بالأسباب ..

إذن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : « أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير » .. يكون المعنى أتستبدلون الذي هو رزق مباشر من الله تبارك وتعالى .. وهو المن والسلوى يأتيكم « بكن » قريب من رزق الآخرة بما هو أقل منه درجة وهو رزق الأسباب في الدنيا .. ولم يجب بنو إسرائيل على هذا التأنيب .. وقال لهم الحق سبحانه وتعالى .. « اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم » .. ولا يقال لهم ذلك إلا لأنهم أصروا على الطلب برغم أن الحق جل جلاله بين لهم أن ما ينزله إليهم خير مما يطلبونه ..

نلاحظ هنا أن مصر جاءت منونةً .. ولكن كلمة مصر حين ترد في القرآن الكريم لاترد منونة .. ومن شرف مصر أنها ذكرت أكثر من مرة في القرآن الكريم .. نلاحظ أن مصر حينما يقصد بها وادى النيل لا تأتى أبدا منونة واقرأ قوله تعالى :

﴿ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾

(من الآية ٨٧ سورة يونس)

وقوله جل جلاله .

﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾

(من الآية ٥١ سورة الزخرف)

وقوله سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾

(من الآية ٢١ سورة يوسف)

وقوله تبارك وتعالى :

﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة يوسف)

كلمة مصر ذكرت في الآيات الأربع السابقة بغير تنوين .. ولكن في الآية التي نحن بصددها : « اهبطوا مصراً » بالتنوين .. هل مصر هذه هي مصر الواردة في الآيات المشار إليها ؟ . نقول لا .. لأن الشيء الممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث . إذا كان لبقعة أو مكان .. مرة تلحظ أنه بقعة فيبقى مؤنثاً .. ومرة تلحظ أنه مكان فيكون مذكراً . فإن كان بقعةً فهو علم ممنوع من الصرف . وإن كان مكاناً تكون فيه علمية وليس فيه تأنيث . ومرة تكون هناك علمية وعجمة ولكن الله صرفها في القرآن الكريم . كلمات نوح ولوط وشعيب ومحمد وهود .

كل هذه الأسماء كان مفروضاً أن تمنع من الصرف ولكنها صرفت . فقيل في القرآن الكريم نوحاً ولوطاً وشعيباً ومحمداً وهوداً . إذن فهل من الممكن أن تكون مصر التي جاءت في قوله تعالى : « اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم » هي مصر التي عاشوا فيها وسط حكم فرعون . قوله تعالى : « اهبطوا مصراً » من

الممكن ان يكون المعنى أى مصر من الأمصار .. ومن الممكن أن تكون مصر التى عاش فيها فرعون .. وكلمة مصر تطلق على كل مكان به مفتى وأمير وقاض .. وهى مأخوذة من الاقتطاع . لأنه مكان يقطع إمتداد الأرض الخلاء .. ولكن الثابت فى القرآن الكريم .. ان مصر التى لم تنون هى علم على مصر التى تعيش فيها أما مصرًا التى خضعت للتنوين فهى تعنى كل واد فيه زرع ..

وقوله تعالى : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة » .. الذلة هى المنفذ التى تؤدى إلى الإنكسار .. ويمكن أن ترفع عنك بأن تكون فى حمى غيرك فيمرك بأن يقول إنك فى حماه . والله سبحانه وتعالى يقول عن بنى إسرائيل :

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾

(من الآية ١١٢ سورة آل عمران)

حبل من الله كما حدث عندما عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة . وعاشوا فى حمى العهد .. إذن بحبل من الله أى على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المؤمنين به .. وبحبل من الناس أى فى حماية دولة قوية كالولايات المتحدة الأمريكية إذا عاهدتهم عزوا وإن تركتهم ذلوا .

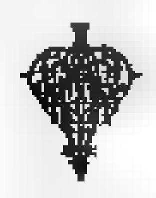
وقوله تعالى : « وضربت عليهم الذلة » ضربت أى طبعت طبعة قوية بضربة قوية تجعل الكتابة بارزة على النقود .. ولذلك يقال ضربت فى مصر .. أى أحدث بضربة قوية أذلتهم وبقيت بارزة لا يستطيعون محوها أما المسكنة فهى إنكسار فى الهيئة

أهل الكتاب كانوا يدفعون الجزية والجزية كانت تؤخذ من الأغنياء .. وكانوا يلبسون الملابس القذرة .. ويقفون فى موقف الذل والخزى حتى لا يدفعوا الجزية

وقوله تعالى : « وباءوا بغضب من الله » .. أى غضب الله عليهم بذنوبهم وعصيانهم حتى أصبح الغضب ـ من كثرة عصيانهم ـ كأنه سمة من سماتهم

لماذا ؟ . وذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ، أى انهم كانوا يكفرون بالنعم ولا يشكرون . ويكفرون بالآيات ويشترون بها ثمنا قليلا .. ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يقتلون أنبياء الله بغير حق ..

الأنبياء غير الرسل والأنبياء أسوة سلوكية ولكنهم لا يأتون بمنهج جديد . أما الرسل فهم أنبياء بأنهم أسوة سلوكية ورسل لأنهم جاءوا بمنهج جديد . ولذلك كل رسول نبى وليس كل نبى رسولا . والله سبحانه وتعالى يعصم أنبياءه ورسله من الخطيئة .. ولكنه يعصم رسله من القتل فلا يقدر عليهم أعداؤهم .. فمجىء الأنبياء ضرورة .. لأنهم نماذج سلوكية تسهل على الناس التزامهم بالمنهج ، وبنو إسرائيل بعث الله لهم أنبياء ليقتدوا بهم فقتلوهم . لماذا ؟ . لأنهم فضحوا كذبهم وفسقهم وعدم التزامهم بالمنهج .. ولذلك تجد الكافر والعاصى وغير الملتزم يحار ويكره الملتزم بمنهج الله . ويحاول إزاحته عن طريقه ولو بالقتل .. إذن فغضب الله عليهم من عصيانهم واعتدائهم على الأنبياء وما ارتكبوه من آثام



﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَٰرَىٰ وَالصَّٰبِـِٔينَ
مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

بعد أن تحدث الحق سبحانه وتعالى عن بنى إسرائيل وكيف كفروا بنعمه .. أراد أن يعرض لنا حساب الأمم التى سبقت أمم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، ولقد وردت هذه الآية فى سورة المائدة ولكن بخلاف يسير من التقديم والتأخير . ففى سورة المائدة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِـُٔونَ وَالنَّصَٰرَىٰ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة المائدة)

أى أنه فى سورة المائدة تقدمت الصابئون على النصارى . واختلف الإعراب فبينما فى البقرة « الصابئين » . وفى المائدة « الصابئون » .. وردت آية أخرى فى سورة الحج :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِـِٔينَ وَالنَّصَٰرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا
إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الحج)

الآيات الثلاث تبدو متشابهة .. إلا أن هناك خلافات كثيرة .. ما هو سبب التكرار الموجود فى الآيات . وتقديم الصابئين مرة وتأخيرها .. ومع تقديمها رفعت وتغير الإعراب . وفى الآيتين الأوليين (البقرة والمائدة) تأتى « من آمن

بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . أما في الآية التي في سورة الحج فقد زاد فيها : « المجوس والذين أشركوا » . . واختلف فيها الخبر . . فقال الله سبحانه وتعالى : « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » .

فعندما خلق الله آدم وأنزله ليعمر الأرض أنزل معه الهدى . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

مفروض أن آدم أبلغ المنهج لأولاده . . وهؤلاء أبلغوه لأولادهم وهكذا . . وتشغل الناس الحياة وتطرأ عليهم الغفلة . . ويصيبهم طمع الدنيا وجشعها ويتبعون شهواتهم . . فكان لابد من رحمة الله بخلقه أن يأتي الرسل ليذكروا وينذروا ويبشروا .

الآية الكريمة تقول : « إن الذين آمنوا » . . أي إيمان الفطرة الذي نزل مع آدم إلى الأرض . . وبعد ذلك جاءت أديان كفر الناس بها فأبيدوا من على الأرض . . كقوم نوح ولوط وفرعون وغيرهم . . وجاءت أديان لها أتباع حتى الآن كاليهودية والنصرانية والصابئة ، والله سبحانه وتعالى يريد أن يجمع كل ماسبق في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء لتصفية الوضع الإيماني في الأرض . .

إذن الذين آمنوا أولا سواء مع آدم أو مع الرسل . الذين جاءوا بعده لمعالجة الداءات التي وقعت . ثم الذين تسموا باليهود والذين تسموا بالنصارى والذين تسموا بالصابئة . فالله تبارك وتعالى يريد أن يبلغهم لقد انتهى كل هذا . فمن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . فكان رسالته عليه الصلاة والسلام جاءت لتصفية كل الأديان السابقة . . وكل إنسان في الكون مطالب بأن يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام . . فقد دعى الناس كلهم إلى الإيمان برسالته . . ولو بقي إنسان من عهد آدم أو من عهد إدريس أو من

عهد نوح أو إبراهيم أو هود . . وأولئك الذين نسبوا إلى اليهودية وإلى النصرانية وإلى الصابئة . كل هؤلاء مطالبون بالايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والتصديق بدين الاسلام . . فالاسلام يمسح العقائد السابقة في الأرض . . ويجعلها مركزة في دين واحد . . الذين آمنوا بهذا الدين : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . والذين لم يؤمنوا لهم خوف وعليهم حزن . . وهذا إعلان بوحدة دين جديد . . ينتظم فيه كل من في الأرض إلى أن تقوم الساعة . . أما أولئك الذين ظلوا على ما هم عليه ولم يؤمنوا بالدين الجديد لا يفصل الله بينهم إلا يوم القيامة . . ولذلك فإن الآية التي تضمنت الحساب والفصل يوم القيامة . . جاء فيها كل من لم يؤمن بدين محمد عليه الصلاة والسلام . . بما فيهم المجوس والذين أشركوا .

والحق تبارك وتعالى أراد أن يرفع الظن . . عمن تبع ديناً سبق الاسلام وبقى عليه بعد الاسلام . . وهو يظن أن هذا الدين نافعه . . نقول له أن الحق سبحانه وتعالى قد حسم هذه القضية في قوله تعالى :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة آل عمران)

وقوله جل جلاله :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَٰمُ ﴾

(من الآية ١٩ سورة آل عمران)

إذن التصفية النهائية لموكب الإيمان والرسالات في الوجود حسمت . . فالذى آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام . . لا يخاف ولا يحزن يوم القيامة والذى لم يؤمن بقول الله تبارك وتعالى له « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » . إذن الذين آمنوا هم الذين ورثوا الإيمان من عهد آدم . . والذين هادوا هم أتباع موسى عليه السلام . . وجاء الإسم من قولهم . « إنا هدنا إليك » ـ أى عدنا إليك . . والنصارى جمع نصرانى وهم منسوبون إلى الناصرة البلدة التى ولد فيها عيسى عليه

السلام .. أو من قول الحواريين نحن أنصار الله فى قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

أما الصابئة فقد اختلف العلماء فيهم . قال بعضهم هم أتباع نوح ولكنهم غيروا بعده وعبدوا من دون الله الوسائط فى الكون كالشمس والقمر والكواكب . أو الصابئة هم الذين انتقلوا من الدين الذى كان يعاصرهم إلى الدين الجديد . أو هم جماعة من العقلاء قالوا ما عليه قومنا لا يقنع العقل .. كيف نعبد هذه الأصنام ونحن نصنعها ونصلحها ؟ . فامتنعوا عن عبادة أصنام العرب . فقالوا عنهم إنهم صبئوا عن دين آبائهم .. أى تركوه وآمنوا بالدين الجديد وأيا كان المراد بالصابئين فهم كل من مال عن دينه إلى دين آخر

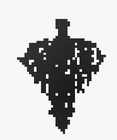
أننا نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى . جاء بالصابئين فى سورة البقرة متأخرة ومنصوبة .. وفى سورة المائدة مقدمة ومرفوعة .. نقول هذا الكلام يدخل فى قواعد النحو الآية تقول : « إن الذين آمنوا » .. نحن نعرف أن (إن) تنصب الإسم وترفع الخبر . فالذين مبنى لأنه إسم موصول فى محل نصب إسم لأن : « والذين هادوا » معطوف على الذين آمنوا يكون منصوباً أيضا .. والنصارى معطوف أيضا على إسم إن .. والصابئين معطوف أيضا ومنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم ..

نأتى إلى قوله تعالى : « من آمن بالله واليوم الآخر » هذه مستقيمة فى سورة البقرة إعراباً وترتيبا . والصابئين تأخرت عن النصارى لأنهم فرقة قليلة .. لا تمثل جمهرة كثيرة كالنصارى .. ولكن فى آية المائدة تقدمت الصابئون وبالرفع فى قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا » .. الذين آمنوا إسم إن والذين هادوا معطوف و« الصابئون » كان القياس إعرابيا أن يقال والصابئين .. وبعدها النصارى معطوفة .. ولكن كلمة (الصابئون) توسطت بين اليهود وبين

النصارى .. وكسر إعرابها بشكل لا يقتضيه الظاهر .. والعرب إذن مرهفة لغويا .. فمتى سمع الصابئين التى جاءت معطوفة على إسم إن تأتى بالرفع يلتفت لفتة قسرية ليعرف السبب ..

حين تولى أبا جعفر المنصور الخلافة .. وقف على المنبر ولحن لحنة أى أخطأ فى نطق كلمة .. وكان هناك إعرابى يجلس فأذنت أذنيه .. وأخطأ المنصور للمرة الثانية فحرك الإعرابى أذنيه باستغراب .. وعندما أخطأ للمرة الثالثة قام الإعرابى وقال .. أشهد أنك وليت هذا الأمر بقضاء وقدر .. أى انك لا تستحق هذا .. هذا هو اللحن إذا سمعه العربى هز اذنيه .. وإذا جاء لفظ مرفوعا والمفروض أن يكون منصوبا .. فإن ذلك يجعله يتنبه أن الله له حكمة وعلة .. فما هى العلة ؟ ..

الذين آمنوا أمرهم مفهوم والذين هادوا أمرهم مفهوم والنصارى أمرهم مفهوم .. أما الصابئون فهؤلاء لم يكونوا تابعين لدين .. ولكنهم سلكوا طريقا مخالفا .. فجاءت هذه الآية لتلفتنا أن هذه التصفية تشمل الصابئين أيضا .. فقدمتها ورفعتها لتلفت إليها الآذان بقوة .. فالله سبحانه وتعالى يعطف الإيمان على العمل لذلك يقول دائما : « آمن وعمل صالحا » .. لأن الإيمان إن لم يقترن بعمل فلا فائدة منه .. والله يريد الإيمان أن يسيطر على حركة الحياة بالعمل الصالح .. فيأمر كل مؤمن بصالح العمل وهؤلاء لا خوف عليهم فى الدنيا ولا هم يحزنون فى الآخرة



﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

يمتنّ الله سبحانه وتعالى مرة أخرى على بنى إسرائيل بالنعم التى أنعم بها عليهم ويذكرهم بجحودهم بها .. ولكنا نلاحظ أن القرآن الكريم حينما يتكلم عن ليهود . يتكلم عنهم بالخطاب المباشر .. فهل الذين عاصروا نزول القرآن وهم الذين أخذ الله تبارك وتعالى عليهم الميثاق . هؤلاء مخاطبون بمراد آبائهم وأجدادهم الذين عاصروا موسى عليه السلام .

نقول انه كان المطلوب من كل جد أو أب أن يبلغ ذريته ما انتهت إليه قضية الإيمان .. فحين يمتن الله عليهم أنه أهلك آل فرعون وأنقذهم .. يمتن عليهم لأنه أنقذ آباءهم من التذبيح . ولولا أنه أنقذهم ما جاء هؤلاء اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فهم كانوا مطمورين فى ظهور آبائهم .. ولكى ينقذهم الله كان لابد أن تستمر حلقة الحياة متصلة .. فمتى انتهت حياة الأب قبل أن يتزوج وينجب نتهت فى اللحظة نفسها حياة ذريته . الشىء نفسه ينطبق على قول الحق سبحانه وتعالى . « وإذا استسقى موسى لقومه » .. إمتنان على اليهود المعاصرين لنزول لقرآن .. لأنه سبحانه وتعالى لو لم ينقذ آباءهم من الموت عطشا لماتوا بلا ذرية .

إذن كل إمتنان على اليهود فى عهد موسى هو إمتنان على ذريته فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. والحق سبحانه وتعالى أخذ على اليهود الميثاق القديم .. ولولا هذا الميثاق ما آمنوا ولا آمنت ذريتهم .

وقوله تعالى : « ورفعنا فوقكم الطور » .. أى ان الله تبارك وتعالى يذكرهم

بأنهم بعد أن نجوا وأغرق الله فرعون وقومه ذهب موسى لميقات ربه ليتلقى عنه التوراة . . فعبد بنو اسرائيل العجل . وعندما عاد موسى بالتوراة وبالألواح . وجدوا في تعاليمها مشقة عليهم . وقالوا نحن لا نطيق هذا التكليف وفكروا ألا يلتزموا به وألا يقبلوه .

التكليف هو من مكلف هو الله سبحانه وتعالى . . وهم يقولون إن الله كلفهم ما لا يطيقون مع أن الله جل جلاله لا يكلف نفسا إلا وسعها . . هذا هو المبدأ الإيماني الذي وضعه الحق جل جلاله . . يظن بعض الناس أن معنى الآية الكريمة :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

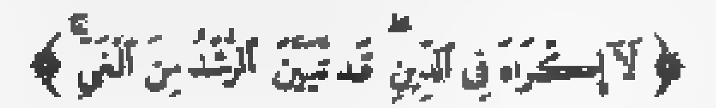
يظنون أننا نضع أنفسنا حكما على تكليف الله . . فإن كنا نعتقد أننا نقدر على هذا التكليف نقل إ هو من الله وإن كنا نعتقد أننا لا نقدر عليه بحكمنا نحن . . نقل الله لم يكلفنا بهذا لأنه فوق طاقتنا . . ولكن الحكم الصحيح هل كلفك الله بهذا الأمر أو لم يكلفك ؟ إن كان الله قد كلفك فهو عليم بأن ذلك في وسعك ؛ لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها . . ونحن نسمع الآن صيحات تقول أن العصر لم يعد يحتمل . . وان ظروف الدنيا وسرعة الحركة فيها وسرعة الأحداث هي لتبرير أنه ليس في وسعنا أن نؤدى بعض التكاليف . . ربما كان هذا التكليف في الوسع في الماضي عندما كانت الحياة بسيطة وحركتها بطيئة ومشكلاتها محدودة .

نقول لمن يردد هذا الكلام : إن الذي كلفك قديما هو الله سبحانه وتعالى،إنه يعلم أن،في وسعك أن تؤدى التكليف وقت نزوله . . وبعد آلاف السنين من نزوله وحتى قيام الساعة . . والدليل على ذلك أن هناك من يقوم بالتكليف ويتطوع بأكثر منه ليدخل في باب الإحسان ؛ فهناك من يصلى الفروض وهي لتكليف . . وهناك من يزيد عليها السنن . . وهناك من يقوم الليل . . فيظل يتقرب الى الله تبارك وتعالى بالتطوع من جنس ما فرض . . وهناك من يصوم رمضان ومن يتطوع ويصوم أوائل الشهور العربية . . أو كل اثنين وخميس على

مدار العام أو في شهري رجب وشعبان .. وهناك من يحج مرة ومن يحج مرات .. وهناك من يلتزم بحدود الزكاة ومن يتصدق بأكثر منها .

إذن كل التكاليف التي كلفنا الله بها في وسعنا وأقل من وسعنا .. ولا يقال إن العصر قد اختلف ، فنحن الذين نعيش هذا العصر .. بكل ما فيه من متغيرات نقوم بالتكليف ونزيد عليها دون أي مشقة .. والله سبحانه وتعالى رفع فوق بني إسرائيل الطور رحمة بهم .. تماما كما يمسك الطبيب المشرط ليزيل صديدا تكون داخل الجسد .. لأن الجسد لا يصح بغير هذا .

لذلك عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يصيب بفضله ورحمته بني إسرائيل رغم أنوفهم .. رفع فوقهم جبل الطور الموجود في سيناء .. وقال لهم تقبلوا التكليف أو أطبق عليكم الجبل .. تماما كما أهلك الله تبارك وتعالى الذين كفروا ورفضوا الإيمان وقاوموا الرسل الذين من قبلهم .. قد يقول البعض إن الله سبحانه وتعالى أرغم اليهود على تكليف وهو القائل :



﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

(من الآية ٢٥٦ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

نقول إن الله جل جلاله لم يرغم أحدا على التكليف .. ولكنه رحمة منه خيرهم بين التكليف وبين عذاب يصيبهم فيهلكهم .. وهذا العذاب هو أن يُطْبِقَ عليهم جبل الطور .. إذن المسألة ليس فيها إجبار ولكن فيها تخيير .. وقد خير الذين من قبلهم بين الإيمان والهلاك فلم يصدقوا حتى أصابهم الهلاك .. ولكن حينما رأى بنو إسرائيل الجبل فوقهم خشعوا ساجدين على الأرض .. وسجودهم دليل

على أنهم قبلوا المنهج .. ولكنهم كانوا وهم ساجدون ينظرون إلى الجبل فوقهم خشية أن يطبق عليهم .. ولذلك تجد سجود اليهود حتى اليوم على جهة من الوجه .. بينما الجهة الأخرى تنظر إلى أعلى وكان ذلك خوفا من أن ينقض الجبل عليهم .. ولو سألت يهوديا لماذا تسجد بهذه الطريقة يقول لك أحمل التوراة ويهتز منتفضا .. نقول انهم اهتزوا ساعة أن رفع الله جبل الطور فوقهم .. فكانوا في كل صلاة يأخذون الوضع نفسه ، والذين شهدوهم من أولادهم وذريتهم اعتقدوا انها شرط من شروط السجود عندهم .. ولذلك أصبح سجودهم على جانب من الوجه . ونظرهم إلى شيء أعلاهم يخافون منه .. أى أن الصورة التى حدثت لهم ساعة رفع جبل الطور لازالوا باقين عليها حتى الآن

في هذه الآية الكريمة يقول الحق تبارك وتعالى . « وإذ رفعنا فوقكم الطور .. »
وفي آية أخرى يقول المولى جل جلاله في نفس ما حدث :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ
وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

« نتقنا » كأن الجبل وتد في الأرض ونريد أن نخلعه .. فنحركه يمينا ويسارا حتى يمكن أن يخرج من الأرض .. هذه الحركة والزحزحة والجذب هي النتق .. والجبل كالوتد تماما يحتاج إلى هز وزعزعة وجذب حتى يخرج من مكانه .. وهذه الصورة عندما حدثت خشعوا وسجدوا وتقبلوا المنهج

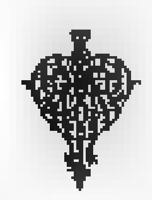
يقول الحق سبحانه وتعالى « خذوا ما آتيناكم بقوة » . الأخذ عادة مقابل للعطاء .. أنت تأخذ من معط .. والتكليف أخذ من الله حتى تعطى به حركة صلاح في الكون .. إذن كل أخذ لابد أن يأتى منه عطاء ، فأنت تأخذ من الجيل الذى سبقك وتعطى للجيل الذى يليك .. ولكنك لا تعطيه كما هو ، ولكن لابد أن تضيف عليه . وهذه الإضافة هى التى تصنع الحضارات .

وقوله تعالى : « بقوة » .. أى لا تأخذوا التكليف بتخاذل .. والإنسان عادة

يأخذ بقوة ما هو نافع له .. ولذلك فطبيعة مناهج الله أن تؤخذ بقوة وبيقين لتعطي خيرا كثيرا بقوة ويقين .. وإذا أخذت منهج الله بقوة فقد اطمأنت عليه وإن صدرك قد انشرح وتريد أن تأخذ أكثر .. لذلك نجد في القرآن الكريم يسألونك عن كذا .. دليل على أنهم عشقوا التكليف وعلموا أنه نافع فهم يريدون زيادة النفع .

ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : « خذوا ما آتيناكم بقوة » .. فقد عشقوا التكليف ولم يعد شاقا على أنفسهم .

وقوله تعالى : « واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » اذكروا ما فيه أي ما في المنهج وأنه يعالج كل قضايا الحياة واعرفوا حكم هذه القضايا .. « لعلكم تتقون » أي تطيعون الله وتتقون عقابه وعذابه يوم القيامة



﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

بعد أن بيّن الحق سبحانه وتعالى لنا كيف أمر اليهود بأن يتذكروا المنهج ولا ينسوه .. وكان مجرد تذكرهم للمنهج يجعلهم يؤمنون بالإسلام وبرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه مكتوب عندهم في التوراة ومذكورة أوصافه .. ماذا فعل اليهود ؟

يقول الحق تبارك وتعالى : «ثم توليتم من بعد ذلك» .. أي أعرضتم عن منهج الله ونسيتموه ولم تلتفتوا إليه .. «ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين» ما هو الفضل وما هي الرحمة ؟ الفضل هو الزيادة عما تستحق .. يقال لك هذا حقك وهذا فضل مني أي زيادة على حقك ..

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يُدْخِل أحداً الجنةَ عملهُ قالوا : ولا أنت يا رسولَ الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة)[1] .

فإذا تساءلت كيف يتم هذا ؟ وكيف أنه لا أحد يدخل الجنة بعمله ؟ نقول نعم لأن عمل الدنيا كله لا يساوي نعمة من نعم الله على خلقه ، فأنت تذكرت العمل ولم تتذكر الفضل .. وكل من يدخل الجنة فبفضل الله سبحانه وتعالى .. حتى الشهداء الذين أعطوا حياتهم وهي كل ما يملكون في هذه الدنيا .. يقول الحق سبحانه وتعالى عنهم :

---

(١) «رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجه والدارمي» .

﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فإذا كان هؤلاء الشهداء وهم فى أعلى مراتب الجنة قد دخلوا الجنة بفضل الله .. فما بالك بمن هم أقل منهم أجرا .. والله سبحانه وتعالى له فضل على عباده جميعا .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

(من الآية ٢٤٣ سورة البقرة)

أما الرحمة فهى التى فتحت طريق التوبة لغفران الذنوب.والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه لولا هذا الفضل لبنى إسرائيل .. ولولا أنه فتح لهم باب الرحمة والمغفرة ليعودوا مرة أخرى إلى ميثاقهم ومنهجهم .. لولا هذا لكانوا من الخاسرين الذين أصابهم خسران مبين فى الدنيا والآخرة .. ولكن الله تبارك وتعالى بفضل منه ورحمة قد قادهم إلى الدين الذى حفظه الله سبحانه وتعالى بقدرته من أى تحريف .. ورفع عنهم عبء حفظ الكتاب .. وما ينتج عن ذلك من حمل ثقيل فى الدنيا .. ورحمهم برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أرسله رحمة للعالمين .. مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

وأعطاهم فضل هذا الدين الخاتم الذى حسم قضية الإيمان فى هذا الكون .. ومع هذه الرحمة وهذا الفضل .. بأن نزل إليهم فى التوراة أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وموعد بعثه .. فتح لهم بابا حتى لا يصبحوا من الخاسرين .. ولكنهم تركوا هذا الباب كى تولوا عن دينهم

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

بعد أن بين الله جل جلاله لنا كيف أنه فتح باب الفضل والرحمة لليهود فتركوه.. أراد أن يبين لنا بعض الذي فعلوه في مخالفة أوامر الله والتحايل عليها.. والله تبارك وتعالى له أوامر في الدين وأوامر تتعلق بشئون الدنيا.. وهو لا يحب أن نأخذ أي أمر له يتعلق بالدين أو بالدنيا مأخذ عدم الجد.. أو نفضل أمرا على أمر.. ولذلك نجد في سورة الجمعة مثلا قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾

(سورة الجمعة)

هذان أمران أحدهما في الدين والثاني يتعلق بالدنيا.. وكلاهما من منهج الله.. فالله لا يريدك أن تتاجر وتهمل وقت الصلاة.. ولا أن تترك عملك بلا داع وتبقى في المسجد بعد الصلاة.. إذا نودي للصلاة فإلى المسجد.. وإذا قضيت الصلاة فإلى السعي للرزق.. وهناك يومان في الأسبوع ذكرا في القرآن بالإسم وهما يوما الجمعة والسبت.. بينما أيام الأسبوع سبعة، خمسة أيام منها لم تذكر في القرآن بالإسم.. وهي الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس.. الجمعة هي عيد المسلمين الذي شرع فيه إجتماعهم في المساجد وأداء صلاة الجمعة.. ونلاحظ أن يوم الجمعة لم يأخذ اشتقاقه من العدد.. فأيام الأسبوع

نسبت إلى الأعداد في عدا الجمعة والسبت لذلك تجد الأحد منسوب الى واحد والإثنين منسوب إلى إثنين .. والثلاثاء منسوب إلى ثلاثة والأربعاء منسوب إلى أربعة والخميس منسوب إلى خمسة ..

كان المفروض أن ينسب يوم الجمعة إلى ستة ولكنه لم ينسب . لماذا ؟ لأنه اليوم الذى اجتمع فيه للكون نظام وجوده .. فسماه الله تبارك وتعالى الجمعة وجعله لنا عيدا .. والعيد هو اجتماع كل الكون فى هذا اليوم ، إجتماع نعمة الله فى إيجاد الكون وتمامها فى ذلك اليوم فالمؤمنون بالله يجتمعون اجتماع حفاوة بتمام خلق الكون هم والسبت الباء والتاء تفيد معنى انقطع وسبت ويسبت سبتا إذا انقطع عمله .. ونلاحظ أن خلق السموات والأرض تم فى ستة أيام مصداقا لقوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

(من الآية ٤ سورة الحديد)

وكان تمام الخلق يوم الجمعة .. وفى اليوم السابع وهو يوم السبت . كان كل شىء قد إستقر وفرغ من خلق الكون ولذلك به سبات أي أن هذا اليوم يسمى سبتا لأن فيه سكون الحركة بعد تمام الخلق فلما أراد اليهود يوما للراحة أعطاهم الله يوم السبت وأراد الحق تبارك وتعالى أن يبتليهم فى هذا اليوم والإبتلاء هو إمتحانهم فقد كانوا يعيشون على البحر وعملهم كان صيد السمك .. وكان الإبتلاء فى هذا اليوم حيث حرم الله عليهم فيه العمل وجعل الحيتان لتى يصطادونها تأتى إليهم وقد بدت أشرعتها وكانوا يبحثون عنها طوال الإسبوع وربما لا يجدونها .. وفى يوم السبت جاءتهم ظاهرة على سطح الماء تسعى إليهم لتفتنهم .. واقرأ قوله سبحانه وتعالى

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهكذا يمتلئ سطح البحر بالأسماك والحيتان يوم السبت .. فإذا جاء صباح الأحد اختفت بعيدا وهم يريدون أن يجعلوا السبت عيدا هم لا يعملون فيه أى شىء .. ولكنهم فى الوقت نفسه يريدون أن يحصلوا على هذه الأسماك والحيتان .. صنعوا شيئا اسمه الحياض العميقة ليحتالوا بها على أمر الله بعدم العمل فى هذا اليوم .. وفى الوقت نفسه يحصلون على الأسماك .. هذه الحياض يدخلها السمك بسهولة .. ولأنها عميقة لا يستطيع الخروج منها ويتركونه يبيت الليل وفى الصباح يصطادونه .. وكان هذا تحايلا منهم على مخالفة أمر الله .. والله سبحانه وتعالى لا يحب من يحتال فى شىء من أوامره .

ويقول الله تعالى : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » .. وهذه قصة مشهورة عند اليهود ومتواترة .. يعلمها الأجداد للأبناء والآباء للأحفاد .. وهى ليست جديدة عليهم وإن كان المخاطبون هم اليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولذلك عندما نسمع : « ولقد علمتم » أى لقد عرفتم ومعنى ذلك أن القصة عندكم معروفة .. وكأنها من قصص التراث التى يتناقلونها ..

وقوله تعالى : « الذين اعتدوا منكم فى السبت » .. المفعول هنا واحد هنا حيلة مذكورة أنهم اعتدوا على أمر الله بالراحة يوم السبت .. هم حقيقة لم يصطادوا يوم السبت .. ولكنهم تحايلوا على الممنوع بنصب الفخاخ للحيتان والأسماك .. وكانوا فى ذلك أغبياء .. وقد كان الممنوع أن يأخذوا السمك فى حيازتهم بالصيد يوم السبت .. ولكنهم أخذوه فى حيازتهم بالحيلة والفخاخ .. وقوله تعالى : « اعتدوا » أى تجاوزوا حدود الله المرسومة لهم .. وعادة حين يحرم الله شيئا يأتى بعد التحريم قوله تعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

لأنه يريد أن يمنعك من الإغراء .. حتى لا تقع فى المعصية يقول لك لا تقترب .. ولكن بنى اسرائيل اعتدوا على حكم الله متظاهرين بالطاعة وهم عاصون .. وحسبوا أنهم يستطيعون خداع الله بأنهم طائعون مع أنهم

عاصون . وصدر حكم الله عليهم : « فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » .

وعادة أنك لا تأمر إنسانا أمرا إلا إذا كان في قدرته أن يفعله .. الأمر هنا أن يكونوا قردة . فهل يستطيعون تنفيذه ؟ وأن يغيروا خلقتهم إلى قردة .. إنه أمر في مقدرة الله وحده فكيف يقول لهم كونوا قردة ؟

نقول إن الأمر نفسه هنا هو الذى يستطيع أن يجعلهم قردة .. وهذا الأمر يسمى أمرًا تسخيريًا ولم يقل لهم كونوا قردة ليكونوا هم بإرادتهم قردة . ولكنه سبحانه بمجرد أن قال كونوا قردة كانوا . وهذا يدلنا على انصياع المأمور للأمر وهو غير مختار .. ولو كان لا يريد ذلك ولا يلزم أن يكونوا قد سمعوا قول الله أو قال لهم . لأنه لو كان المطلوب منهم تنفيذ ما سمعوه ربما كان ذلك لازما .. ولكن بمجرد صدور الأمر وقبل أن يتنبهوا أو يعلموا شيئا كانوا قردة .

ولقد اختلف العلماء كيف تحول هؤلاء اليهود إلى قردة ؟ كيف مسخو ؟ قال بعضهم لقد تم المسخ وهم لا يدرون .. فلما وجدوا أنفسهم قد تحولوا إلى خلق أقل من الإنسان .. لم يأكلوا ولم يشربوا حتى ماتوا .. وقال بعض العلماء ان الإنسان إذا مسخ فإنه لا يتناسل ، ولذلك بمجرد مسخهم لم يتناسلوا حتى انقرضوا ولماذا لم يتناسلوا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

ولو انهم تناسلوا .. لتحمل الأبناء وزر آبائهم . وهذا مرفوض عند الله . إذن فمن رحمة الله أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون .. ويبقون فترة ثم ينقرضون بالأمراض والأوبئة وهذا ما حدث لهم

قد يقول بعض الناس لو أنهم مسخو قردة . فمن أين جاء اليهود الموجودون الآن ؟ نقول لهم أنه لم يكن كل اليهود عاصين .. ولكن كان منهم أقلية هى التى عصت ومسخت . وبقيت الأكثرية ليصل نسلها إلينا اليوم . وقد قال عليه

آخرون أن هناك آية فى سورة المائدة تقول :

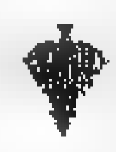
﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ۞ ﴾

(سورة المائدة)

إذن هذه قضية قوم غضب الله عليهم ومسخهم قردة وخنازير وعبدة الطاغوت . . ولقد أخبرنا الله جل جلاله أن اليهود مسخوا قردة . ولكنه لم يقل لنا أنهم مسخوا خنازير . . فهل مسخوا قردة ؟ ثم بعد ذلك إزداد غضب الله عليهم ومسخوا خنازير ؟ وهل نقلهم الله من إنسانية إلى بهيمية فى القيم والإرادة والخلقة ؟

نقول علينا أولا أن ننظر إلى البهيمية التى نقلهم الله إليها . نجد أن القردة هى الحيوان الوحيد المفضوح العورة دائما . . وإن عورته لها لون مميز عن جسده . . وأنه لا يتأدب إلا بالعصا . . واليهود كذلك لم يقبلوا المنهج إلا عندما رفع فوقهم جبل الطور . . وما هم فيه الآن ليس مسخ خلقه ولكن مسخ خلق . . والخنازير لا يغارون على أنثاهم وعدم لازمة موجودة فى اليهود . . وعبدة الطاغوت . الطاغوت هو كل إنسان تجاوز الحد فى البغى والظلم . . وعباد الطاغوت هم الطائعون لكل ظالم يعينونه على ظلمه وهم كذلك

إذن فمسألة المسخ هذه سواء تمت مرة واحدة أو على مرتين مسألة شكلية . . ولكن الله سبحانه وتعالى أعطانا فى الآية التى ذكرناها فى سورة المائدة سمات اليهود الأخلاقية . فكأنهم مسخوا خلقة ومسخوا أخلاقا .



﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يريد الله تبارك وتعالى أن يلفتنا إلى أنه بعد أن جعل المسخة الخلقية والأخلاقية لليهود : « وجعلناها نكالا لما بين يديها » أى ما سبقها : « وما خلفها » أى ما بعدها : « والنكال » هو العقوبة الشديدة . والعقوبة لابد أن تنشأ عن تجريم أولا .. هذا هو المبدأ الإسلامى والمبدأ القانونى .. فرجال القانون يقولون لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص .. قبل أن تعاقب لابد ان تقول ان هذا الفعل جريمة عقوبتها كذا وكذا .. وفى هذه الحالة عندما يرتكبها أى إنسان يكون مستحقا للعقوبة . ومادام هذا هو الموقف فلابد من تشريع .

والتشريع ليس معناه ان الله شرع العقوبة .. ولكن معناه محاولة منع الجريمة بالتخويف حتى لا يفعلها أحد .. فإذا تمت الجريمة فلابد من توقيع العقوبة .. لأن توقيعها عبرة للغير ومنع له من ارتكابها .. وهذا الزجر يسمى نكولا ومنها النكول فى اليمين أى الرجوع فيه .

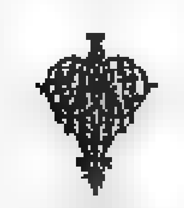
إذن قوله تعالى : « فجعلناها نكالا » . أى جعلناها زجرا وعقابا قويا .. حتى لا يعود أحد من بنى إسرائيل إلى مثل هذه المخالفة : « ونكالا لما بين يديها » .. أى عقوبة حين يرونها الذين عاصروها تكفى لكيلا يقتربوا من هذه المعصية أبدا .. وتكون لهم موعظة لا ينسونها : « وما خلفها » يعنى جعلناها تتوارثها الأجيال من بنى إسرائيل جيلا بعد جيل .. كى يبقى الأب يحكى لابنه حتى لا يعود أحد فى المستقبل إلى مثل هذا العمل من شدة العقوبة : « وموعظة للمتقين » .. أى موعظة لكل الناس الذين سيبلغهم الله تبارك وتعالى بما حدث من بنى إسرائيل وما عاقبهم به . حتى يقوا أنفسهم شر العذاب يوم القيامة الذى

سيكون فيه ألوان أشد كثيرا من هذا العذاب .. على أننا لابد أن نلفت الانتباه إلى أن مبدأ أنه لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص هو مبدأ إلهي .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

أي يأتي الرسول أولا ليجرم هذه الأفعال .. فإن ارتكبها أحد من خلق الله حقت عليه العقوبة . ومن هنا فإن كل ما يقال عن قوانين بأثر رجعي مخالف لشريعة الله تبارك وتعالى وعدله .. فلا يوجد في عدالة السماء ما يقال عنه أثر رجعي .



﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

تعرضنا إلى هذه الآية الكريمة في بداية سورة البقرة . لأن السورة سميت بهذا الإسم ونلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى أتى بحرف . « وإذ » . يعني واذكروا : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » .. ولم يقل لماذا أمرهم بأن يذبحوا البقرة .. ولابد أن نقرأ الآيات إلى آخر القصة لنعرف السبب في قوله تعالى .

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والمفروض في كل الأمور أن الأمر تسبقه علته .. ولكن هذه عظمة القرآن الكريم . لأن السؤال عن العلة أولا معناه أن الأمر صادر من مساو لك .. فإذا قال لك إنسان إعمل كذا . تسأله لماذا حتى أطيع الأمر وأنفذه . إذن الأمر من المساوي هو الذي تسأل عن علته .. ولكن الأمر من غير المساوي . كأمر الأب لابنه والطبيب لمريضه والقائد لجنوده . مثل هذا الأمر لا يسأل عن علته قبل تنفيذه . لأن الذي أصدره أحكم من الذي صدر إليه الأمر ولو أن كل مكلف من الله أقبل على الأمر يسأل عن علته أولا . فيكون قد فعل الأمر بعلته.فكأنه قد فعله من أجل العلة .. ومن هنا يزول الإيمان .. ويستوي أن يكون الإنسان مؤمنا أو غير مؤمن .. ويكون تنفيذ الأمر بلا ثواب من الله ..

إن الإيمان يجعل المؤمن يتلقى الأمر من الله طائعا . عرف علته أو لم يعرف ويقوم بتنفيذه لأنه صادر من الله . ولذلك فإن تنفيذ أى أمر إيمانى يتم لأن الأمر صادر من الله .. وكل تكليف يأتى .. علة حدوثه هى الإيمان بالله .. ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يبدأ كل تكليف بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » .. أى يا من آمنت بالله ربا وإلها وخالقا .. خذ عن الله وافعل لأنك آمنت بمن أمرك .

فى هذه الآيات التى نحن بصددها أراد الله تعالى أن يبين لنا ذلك . فجاء بالأمر بذبح البقرة أولا وبالعلة فى الآيات التى روت لنا علة القصة . وأنت حين تعبد الله فكل ما تفعله هو طاعة لله سبحانه وتعالى .. سواء عرفت العلة أو لم تعرفها « فأنت تؤدى الصلاة لأن الله تبارك وتعالى أمرك بأن تصلى .. فلو أديت الصلاة على انها رياضة أو انها وسيلة للاستيقاظ المبكر .. أو أنها حركات لازمة لليونة المفاصل فإن صلاتك تكون بلا ثواب ولا أجر . إن أردت الرياضة فاذهب إلى أحد النوادى وليدربك أحد المدربين لتكون الرياضة على أصولها . وأن أردت اللياقة البدنية فهناك ألف طريقة لذلك . وإن أردت عبادة الله كما أمرك الله فلتكن صلاتك التى فرضها الله عليك لأن الله فرضها .. وكذلك كل العبادات الأخرى ..

الصوم ليس شعورا بإحساس الجائع . ولا هو طريقة تعمل لرجيم ولكنه عبادة إن لم تصم تنفيذا لأمر الله بالصوم فلا ثواب لك . وإن جعلت للصيام أى سبب إلا العبادة فإنه صيام لا يقبله الله .. والله أغنى الشركاء عن الشرك .. فمن أشرك معه أحدا ترك الله عمله لمن أشركه .. وكذلك كل العبادات .

هذا هو المفهوم الإيمانى الذى أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إليه فى قصة بقرة بنى إسرائيل .. ولذلك لم يأت بالعلة أو السبب أولا .. بل أتى بالقصة ثم أخبرنا سبحانه فى آخرها عن السبب .. وسواء أخبرنا الله عن السبب أو لم يخبرنا فهذا لا يغير فى إيماننا بحقيقة ما حدث . وإن القصة لها حكمة وإن خفيت علينا فهى موجودة .

قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » .. أعطى الله تبارك وتعالى

الأمر أولا ليختبر قوة إيمان بني إسرائيل .. ومدى قيامهم بتنفيذ التكليف دون تلكؤ أو تمهل .. ولكنهم بدلا من أن يفعلوا ذلك أخذوا في المساومة والتباطؤ .
« وإذ قال موسى لقومه » .. كلمة قوم تطلق على الرجال فقط .. ولذلك يقول القرآن الكريم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

إذن قوم هم الرجال .. لأنهم يقومون على شئون أسرهم ونسائهم .. ولذلك يقول الشاعر العربي :

وما أدري ولست إخال أدري
أقومٌ آل حصنٍ أم نساء

فالقوامة للرجال .. والمرأة حياتها مبنية على الستر في بيتها .. والرجال يقومون لها بما تحتاج اليه من شئون .. والمفروض أن المرأة سكن لزوجها وبيتها وأولادها وهي في هذا لها مهمة أكبر من مهمة الرجال .. قوله تعالى : « إن الله يأمركم » .. الأمر طلب فعل.وإذا كان الآمر أعلى من المأمور نسميه أمرا .. وإذا كان مساويا له نسميه إلتماسا .. وإذا كان إلى أعلى نسميه رجاء ودعاء .. على أننا لابد أن نلتفت إلى قوله تعالى على لسان زكريا :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾

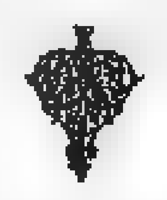
(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

هل هذا أمر من زكريا ؟ طبعا لا .. لأنه دعاء والدعاء رجاء من الأدنى إلى الأعلى .. قوله تعالى : « الله يأمركم » .. لو أن إنسانا يعقل أدنى عقل ثم يطلب منه أن يذبح بقرة .. أهذه تحتاج إلى إيضاح ؟ لو كانوا ذبحوا بقرة لكان كل شيء قد تم دون أي جهد .. فمادام الله قد طلب منهم أن يذبحوا بقرة .. فكل

ما عليهم هو التنفيذ . .

ولكن أنظر إلى الغباء حتى فى السؤال . . إنهم يريدون أن يفعلوا أى شىء لإبطال التكليف . . لقد قالوا لموسى نبيهم إنك تهزأ بنا . أى أنهم استنكروا أن يكلفهم الله تبارك وتعالى بذبح بقرة على إطلاقها دون تحديد . . فاتهموا موسى أنه يهزأ بهم . كأنهم يرون أن المسألة صعبة على الله سبحانه وتعالى . . لا يمكن أن تحل بمجرد ذبح بقرة . . وعندما سمع موسى كلامهم ذهل . فهل هناك نبى يهزأ بتكليف من تكليفات الله تبارك وتعالى . . أينقل نبى الله لهم أمرا من أوامر الله جل جلاله على سبيل الهزل ؟

هنا عرف موسى أن هؤلاء اليهود هم جاهلون . . جاهلون بربهم وبرسولهم وجاهلون بآخرتهم . . وأنهم يحاولون أن يأخذوا كل شىء بمقاييسهم وليس بمقاييس الله سبحانه وتعالى . . فاتجه إلى السماء يستعيذ بالله من هؤلاء الجاهلين . . الذين يأتيهم اليسر فيريدونه عسرا ويأتيهم السهل فيريدونه صعبا . ويطلبون من الله أن يعنتهم وأن يشدد عليهم وأن يجعل كل شىء فى حياتهم صعب وشاقا .



﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

وكان سؤالهم يبين نقص درجة الإيمان عندهم . لم يقولوا ادع لنا ربنا . بل قالوا إدع لنا ربك ، وكأنه رب موسى وحده . ولقد تكررت هذه الطريقة فى كلام بنى إسرائيل عدة مرات . حتى إنهم قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة المائدة)

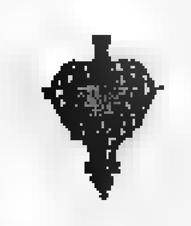
ولقد استمر الحوار بينهم وبين موسى فترة طويلة . يوجهون السؤال لموسى فيدعو الله فيأتيه الجواب من الله تبارك وتعالى . فبدلا من أن ينفذوا الأمر وتنتهى المسألة يوجهون سؤالا آخر . فيدعو موسى ربه فيأتيه الجواب ، ويؤدى الجواب إلى سؤال فى غير محله منهم . ثم يقطع الحق سبحانه وتعالى عليهم أسباب الجدل . بأن يعطيهم أوصافا لبقرة لا تنطبق إلا على بقرة واحدة فقط . فكأنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم .

نأتى إلى أسئلة بنى إسرائيل . يقول الحق سبحانه وتعالى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى » . سؤال لا معنى له ولا محل . لأن الله تبارك وتعالى قال لهم إنها بقرة . ولم يقل مثلا إنه حيوان على إطلاقه فلم يكن هناك محل للسؤال .. فجاء الحق تبارك وتعالى يقول لهم : « إنها بقرة لا فارض ولا بكر » . الفارض فى اللغة هو الواسع والمراد به بقرة غير مسنة .. ولكن ما العلاقة بين سن البقرة وبين الواسع ؟ البقرة تتعرض للحمل كثيرا وأساسا هى للبن وللإنجاب . ومادامت قد تعرضت للحمل كثيرا يكون مكان اللبن فيها فى

اتساع .. أي أن بطنها يزداد اتساعا مع كل حمل جديد .. وعندما يكون بطن البقرة واسعا يعرف عنها أنها مسنة وولدت كثيرا وصارت فارضا .

وكلمة « بكر » لها معانٍ متعددة منها أنه لم يطأها فحل .. ومنها أنها بكر ولدت مرة واحدة .. ومنها أنها ولدت مرارا ولكن لم يظهر ذلك عليها لأنها صغيرة السن .

وقوله تعالى : « عوان بين ذلك » .. يعني وسط بين هذه الأوصاف كلها .
الحق بعد ذلك يقرعهم فيقول : « فافعلوا ما تؤمرون » .. يعني كفاكم مجادلة وتعدوا أمر الله واذبحوا البقرة .. ولكنهم لم يسكتوا لأنهم يريدون أن يحاوروا .
ولذلك غيروا صيغة السؤال .



﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾

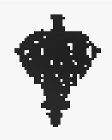
بحثوا عن سؤال آخر . مالونها ؟ كأن الله تبارك وتعالى حين حدثهم عن السن فتحوا الأبواب ليسألوا، ما لونها ؟ مع انه سبحانه وتعالى قال لهم : « فافعلوا ما تؤمرون » فلم يفعلوا بل سألوا ما لونها ؟ « قال إنه يقول إنها بقرة صفراء » والصفرة لون من الألوان ثم قال جل جلاله « فاقع لونها » . يعني صفرة شديدة .. ثم قال « تسر الناظرين » .. يعني أن كل من ينظر إليها يُسر لنضارتها ونظافتها وحسن مظهرها وتناسق جسدها ..

وصف البقرة بأنها صفراء هذا لون معروف . وفي الألوان لا يمكن أن تحدد لونا إلا برؤيته ولذلك فإن المختصّين في الألوان لابد أن تسبق معرفتهم وبعد ذلك تأتي باللون المطلوب .. لذلك لا يقال صفراء فقط لأنك لا تستطيع تحديده ، لأن اللون الأصفر له درجات لا نهاية لها . ومزج الألوان يعطيك عددا لا نهائيا من درجاتها ولذلك فإن المشتغلين بدهان المنازل لا يستطيعون أن يقوموا بدهان شقة بلون إلا إذا قام بعمل مزيج اللون كله مرة واحدة حتى يخرج الدهان كله بدرجة واحدة من اللون . ولكن إذا طلبت منه أن يدهن الشقة باللون نفسه .. بشرط أن يدهن حجرة واحدة كل يوم فإنه لا يستطيع . فإذا سمعت صفراء يأتي اللون الأصفر إلى ذهنك فإذا سمعت "فاقع" فكل لون من الألوان له وصف يناسبه يعطيا دقة اللون المطلوب .. "فاقع" أي شديد الصفرة

أظن أن المسألة قد أصبحت واضحة إنها بقرة لونها أصفر فاقع تسر الناظرين . وكان من المفروض أن يكتفي بنو إسرائيل بذلك ولكنهم عادوا إلى السؤال مرة أخرى .

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ
عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

ورغم أن ما قيل لبني إسرائيل .. واضح تمام الوضوح عن البقرة . وعمرها وشكلها ولونها ومنظرها .. فإن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤدبهم فجعلهم ينظرون إلى البقر .. وهذا يقول هذه هي والآخر يقول لا بل هي في مكان كذا .. والثالث يقول لا بل هي في موقع كذا .. وعادوا إلى موسى يسألونه أن يعود إلى ربه ليبين لهم لأن البقر تشابه عليهم .. وهنا ذكروا الله الذي نسوه ولم ينفذوا أمره منذ أن قال لهم اذبحوا بقرة ثم قال لهم : « افعلوا ما تؤمرون » .. فطلبوا منه الهداية بعد أن تاهوا وضاعوا بسبب عنادهم وجدلهم .. وجاء الجواب من الله سبحانه وتعالى .



﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

«بقرة لا ذلول» . البقرة الذلول هى البقرة المروضة المدربة تؤدى مهمتها بلا تعب . تماما مثل الخيل المروضة التى لاتتعب راكبها لأنه تم ترويضها . وسيدنا اسماعيل هو أول من روض الخيل وساسها . وقال الله سبحانه وتعالى لهم أول وصف للبقرة انها ليست مروضة لا أحد قادها ولا قامت بعمل إنما انطلقت على طبيعتها وعلى سجيتها فى الحقول بدون قائد «تثير الأرض» أى لم تستخدم فى حراثة الأرض أو فلاحتها «ولا تسقى الحرث» أى لم تستخدم فى ادارة السواقى لسقية الزرع . «مسلمة لا شية فيها» أى خالية من العيوب لا أذنها مثقوبة . ولا فيها أى علامة من العلامات التى يميز الناس أبقارهم بها . . ولا رجلها عرجاء ، خالية من البقع والألوان غير اللون الأصفر الفاقع . وكلمة «لا شية فيها» أى لا شىء فيها

والمتأمل فى وصف البقرة كما جاء فى الآيات يرى الصعوبة والتشدد فى اختيار أوصافها كأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يجازيهم عن أعمالهم . ولم يجد بنو اسرائيل إلا بقرة واحدة تنطبق عليها هذه المواصفات فقالوا «الآن جئت بالحق» كأن ما قاله موسى قبل ذلك كان خارجا عن نطاق الحق وذبحوا البقرة ولكن عن كره منهم . . لأنهم كانوا حريصين على ألا يذبحوها ، حرصهم على عدم تنفيذ المنهج . هم يريدون أن يماطلوا الله سبحانه وتعالى . والله يقول لنا أن سمة المؤمنين أن يسارعوا الى تنفيذ تكاليفه . واقرأ قوله تعالى

﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

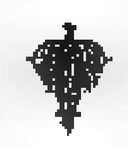
(سورة آل عمران)

وهذه السرعة من المؤمنين فى تنفيذ التكاليف .. دليل على عشق التكليف .. لانك تسارع لتفعل مايطلبه منك من تحب . وقوله تعالى : «وما كادوا يفعلون» .. يدلك على أنهم حاولوا الابطاء فى التنفيذ والتلكؤ .

انما لابد أن نلتفت الى أن تباطؤ بنى اسرائيل فى التنفيذ خدم قضية ايمانية أخرى . فالبقرة التى طلبها الله منهم بسبب عدم قيامهم بتنفيذ الأمر فور صدوره لهم بقرة نادرة لا تتكرر .. والمواصفات التى أعطيت لهم فى النهاية . لم تكن تنطبق إلا على بقرة واحدة ليتحكم صاحبها فى ثمنها ويبيعها بأغلى الأسعار

والقصة أنه كان هناك فى بنى اسرائيل رجل صالح . يتحرى الحلال فى الرزق والصدق فى القول والايمان الحقيقى بالله . وعندما حضرته الوفاة كان عنده عجلة وكان له زوجة وابنها الصغير . ماذا يفعل وهو لا يملك سوى العجلة اتجه الى الله وقال : اللهم إنى استودعك هذه العجلة لولدى ، ثم أطلقها فى المراعى .. لم يوصِّ عليها أحداً ولكن استودعها الله . استودعها يد الله الأمينة على كل شيء .. ثم قال لامرأته إنى لا أملك إلا هذه العجلة ولا آمن عليها إلا الله .. ولقد اطلقتها فى المراعى ..

وعندما كبر الولد قالت له أمه، إن أباك قد ترك لك وديعة عند الله وهى عجلة .. فقال يا أمى وأين أجدها ؟ . قالت كن كأبيك هو توكل واستودع ، وأنت توكل واسترد . فقال الولد:اللهم رب ابراهيم ورب موسى . رد الى ما استودعه أبى عندك . فاذا بالعجلة تأتى اليه وقد أصبحت بقرة فأخذها ليريها لأمه . وبينما هو سائر رآه بنو اسرائيل . فقالوا ان هذه البقرة هى التى طلبها الرب .. وذهبوا الى صاحب البقرة وطلبوا شراءها فقال بكم . قالوا بثلاثة دنانير .. فذهب ليستشير أمه فخافوا أن ترفض وعرضوا عليه ستة دنانير قالت أمه لا .. لا تباع . فقال الابن لن أبيعها إلا بملء جلدها ذهبا ، فدفعوا له ماأراد .. وهكذا نجد صلاح الأب يجعل الله حفيظا على أولاده يرعاهم وييسر لهم أمورهم



﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

قصة القتيل هي أن رجلا ثرى من بني اسرائيل لم يكن له ولد يرثه . . وكان له أقارب كل منهم يريد أن يستأثر بأموال هذا الرجل . . والمال والذهب هما حياة بنى اسرائيل . فتآمر على هذا الرجل الثرى ابن أخيه فقتله ليرثه ويستولى على أمواله . . ولكنه أراد أن يبعد التهمة عن نفسه فحمل الجثة وألقاها على باب قرية مجاورة ليتهم اهلها بقتل الثرى . . وفى الصبح قام اهل القرية ووجدوا جثة الثرى امام قريتهم ووجدوه غريبا عن القرية فسألوا من هو؟ حتى وصلوا الى ابن اخيه فتجمع أهل القتيل واتهموهم بقتله . وكان أشدهم تحمسا فى الاتهام القاتل ابن أخيه . .

وقوله تعالى «فادارأتم فيها» اللدرأ هو الشيء حين يجيء اليك وكل واحد ينفيه عن نفسه . . إدارأتم أى ان كلا منكم يريد أن يدفع الجريمة عن نفسه فكل واحد يقول لست أنا . .

وليس من الضرورى أن يتهم أحدا آخر غيره المهم أن يدفعها عن نفسه .

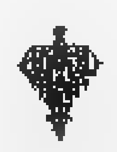
ولقد حاول أهل القريتين . قرية القتيل ، والقرية التى وجدت امامها الجثة . أن يدفع كل منهما شبهة الجريمة عن نفسه وربما يتهم بها الآخر . . ولم يكن هناك دليل دامغ يرجح اتهاما محددا . بل كانت الادلة ضائعة ولذلك استحال توجيه اتهام لشخص دون آخر أو لقرية دون أخرى .

وكان التشريع فى ذلك الوقت ينص على أنه إذا وجد قتيل على باب قرية ولم

يستدل على قاتله .. فإن قرية القتيل وأهله يأخذون خمسين رجلا من أعيان القرية التى وجدت بجوارها الجثة . فيلقوا اليمين بأنهم ما قتلوه . ولا علموا قاتله وإذا كان الأعيان والأكابر أقل من خمسين رجلا تكررت الأيمان حتى تصير خمسين يمينا . فيحلفون أنهم ما قتلوه ولا يعرفون قاتله . عندها يتحمل بيت المال دية القتيل ..

ولكن الله كان يريد شيئا آخر . يريد أن يرد بهذه الجريمة على جحود بنى اسرائيل باليوم الآخر .. ويجعل الميت يقف امامهم وينطق اسم قاتله . ويجعلهم يرون البعث وهم أحياء ولذلك قال سبحانه وتعالى . «والله مخرج ما كنتم تكتمون» .. أى أن بنى اسرائيل أو أولئك الذين ارتكبوا الجريمة ديروها على أن تبقى فى طى الكتمان فلا يعلم أحد عنها شيئا .. ولذلك جاء الشاب وقتل عمه دون أن يراه أحد .. ثم حمل الجثة خفية فى ظلام الليل وخرج بها فلم يلتفت أحد اليه ثم ذهب الى قرية مجاورة وألقى بالجثة على باب القرية وأهلها نائمون وانصرف عائدا .

كانت كل هذه الخطوات فى رأيه ستجعل الجريمة غامضة لا تنكشف ابدا ولا يعرف سرها أحد ولكن الله تبارك وتعالى أراد غير ذلك .. أراد أن يكشف الجريمة بطريقة لاتحتمل الجدل ، وفى نفس الوقت يرد على جحود بنى اسرائيل للبعث .. بأن يريهم البعث وهم أحياء .

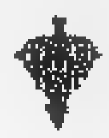


﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

احتدم الخلاف بين بني اسرائيل وكادت تحدث فتنة كبيرة .. فقرروا أن يلجأوا الى موسى عليه السلام ليطلب من الله تبارك وتعالى أن يكشف لهم لغز هذه الجريمة ويدلهم على القاتل. وجاء الأمر من الله سبحانه وتعالى أن اذبحوا البقرة ولو ذبحوا بقرة أية بقرة لانتهت المشكلة .. ولكنهم ظلوا يقولون ما لونها وما شكلها الى آخر ما رويناه. حتى وصلوا الى البقرة التي كان قد استودعها الرجل الصالح عند الله حتى يكبر ابنه فاشتروها وذبحوها .. فأمرهم الله أن يضربوه ببعضها. أي أن يضربوا القتيل بجزء من البقرة المذبوحة بعد أن سال دمها وماتت ..

ونظر الى المعجزة في القصة. جزء من ميت يُضرب به ميت فيحيا. الله المسألة أعدها الحق بصورة لا تجعلهم يشككون أبدا .. فلو أن الله احياه بدون أن يضرب بجزء من البقرة لقالوا لم يكن قد مات. كانت فيه حياة ثم أفاق بعد غيبوبة. ولكن الله أمرهم أن يذبحوا بقرة حتى تموت ليعطيهم درسا ايمانيا بقدرة الله وهم الماديون الذين لا يؤمنون إلا بالماديات .. وأن يأخذوا جزءا أو أجزاء منها وأن يضربوا به القتيل فيحيا وينطق باسم قاتله ويميته الله بعد ذلك.

يقول الحق جل جلاله .. «كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون» ليرى بنو اسرائيل وهم على قيد الحياة كيف يحيي الله الموتى وليعرفوا أن الانسان لا يبقى حيا بأسباب الحياة. ولكن بارادة مسبب الحياة في أن يقول «كن فيكون».



﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

لماذا ذكر الحق سبحانه وتعالى القلب ووصفه بأنه يقسو ولم يقل نفوسكم ـ لأن القلب هو موضع الرقة والرحمة والعطف .. وإذا ما جعلنا القلب كثير الذكر لله فانه يمتلىء رحمة وعطفا . والقلب هو العضو الذى يحسم مشاكل الحياه .. فإذا كان القلب يعمر باليقين والايمان .. فكل جارحة تكون فيها خميرة الايمان .

وحتى نعرف قوة وقدرة وسعة القلب على الايمان واحتوائه أوضح الله تعالى هذا المعنى فى كتابه العزيز حيث يقول :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الزمر)

وهكذا نرى أن الجلود تقشعر من هول الوعيد بالنار .. وبمجرد قراءة ما ذكره القرآن عنه . وبعد ذلك تأتى الرحمة ، وفى هذه الحالة لا تلين الجلود فقط ولكن لابد أن تلين القلوب لأنها هى التى تعطى اللمحة الايمانية لكل جوارح الجسد

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

«ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد

الجسد كله ألا وهى القلب»[١]

إذن فالقلب هو منبع اليقين ومصب الايمان ، وكما أن الايمان فى القلب فإن القسوة والكفر فى القلب . فالقلب حينما ينسى ذكر الله يقسو .. ماذا ؟ . لأنه يعتقد أنه ليس هناك إلا الحياة الدنيا والا المادة فيحاول أن يحصل منها على أقصى ما يستطيع وبأى طريقة فلا تأتى إلا بالظلم والطغيان وأخذ حقوق الضعفاء ، ثم لايفرط فيها أبدا لأنها هى منتهى حياته فلا شىء بعدها

انه يجد انسانا يموت امامه من الجوع ولايعطيه رغيفا وإذا خرج الأيمان من القلب خرجت منه الرحمة وخرج منه كل ايمان الجوارح . فلمحة الايمان التى فى اليد تخرج فتمتد اليد الى السرقة والحرام . ولمحة الايمان التى فى العين تخرج فتنظر العين الى كل ماحرم الله ولمحة الايمان التى فى القدم تخرج فلا تمشى القدم الى المسجد أبدا ولكنها تمشى الى الخمارة والى السرقة .. لأنه كما قلنا القلب مخزن الايمان فى الجسم .

ويشبه الحق تبارك وتعالى قسوة قلوبهم فيقول : «فهى كالحجارة أو أشد قسوة» .. الحجارة هى الشىء القاسى الذى تدركه حواسنا ومألوف لنا ومألوف لبنى اسرائيل ايضا .. لأن لهم مع الحجارة شوط كبيرا عندما تاهوا فى الصحراء .. وعندما عطشوا وكان موسى يضرب لهم الحجر بعصاه

الله تبارك وتعالى لفتهم الى أن المفروض أن تكون قلوبهم لينة ورقيقة حتى ولو كانت فى قسوة الحجارة . ولكن قلوبهم تجاوزت هذه القسوة فلم تصبح فى شدة الحجارة وقسوتها بل هى أشد .

ولكن كيف تكون القلوب أشد قسوة من الحجارة .. لا تنظر الى ليونة مادة القلوب ولكن انظر الى ادائها لمهمتها .

الجبل قسوته مطلوبة لأن هذه مهمته ان يكون وتداً للأرض صلبا قويا ، ولكن هذه القسوة ليست مطلوبة من القلب وليست مهمته .. أما قلوب بنى اسرائيل فهى أشد قسوة من الجبل . والمطلوب فى القلوب اللين ، وفى الحجارة

(١) رواه البخارى ومسلم .

القسوة .. فكل صفة مخلوقة لمخلوق ومطلوبة لمهمة .. فالخطاف مثلا أعوج .
هذا العوج بجعله يؤدى مهمته على الوجه الأكمل .. فعوج الخطاف استقامة لمهمته . وحين تفسد القلوب وتخرج عن مهمتها تكون أقسى من الحجارة .. وتكون على العكس تماما من مهمتها ..

ثم يقول الحق تبارك وتعالى .

﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة البقرة)

هنا يذكرهم الله بما رأوه من الرحمة الموجودة فى الحجارة .. عندما ضرب موسى الحجر بالعصا فانفجرت منه العيون . وذلك مثل حسى شهدوه . يقول لهم الحق جل جلاله : ان الرحمة تصيب الحجارة فتتفجر منها الانهار ويخرج منها الماء ويقول سبحانه . «وان منها لما يهبط من خشية الله»

اذن فالحجارة يصيبها اللين والرحمة فيخرج منها الماء . ولكن قلوبكم اذا قست لا يصيبها لين ولا رحمة فلا تلين أبدا ولا تخشع أبدا والله سبحانه وتعالى نزل عليكم التوراة وأعطاكم من فضله ورحمته وستره ومغفرته الكثير كان المفروض أن تلين قلوبكم لذكر الله .

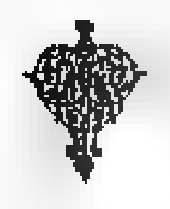
ولكن ما الفرق بين تفجر لانهار من الحجارة وبين تشققها ليخرج منها الماء ؟ عندما تتفجر الحجارة يخرج منها الماء . نحن نذهب الى مكان الماء لنأخذ حاجتنا .. ولكن عندما تتفجر منها الأنهار فالماء هو الذى يأتى الينا ونحن فى أماكننا وفرق بين عطاء تذهب اليه وعطاء يأتى اليك . أما هبوط الحجر من خشية الله فذلك حدث عندما تجلى الله للجبل فجعله دكا . واقرأ قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

يذكرهم الحق سبحانه كيف أن الجبل حين تجلى الله له هبط وانهار من خشية الله. وهكذا لايعطيهم الأمثلة مما وقع لغيرهم ، ولكن يعطيهم الأمثلة مما وقع لهم .

وقوله تعالى: «وما الله بغافل عما تعملون» أي تذكروا ان الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء وأن كل ما تعملونه يعرفه وأنكم ملاقوه يوم القيامة ومحتاجون إلى رحمته ومغفرته ، فلا تجعلوا قلوبكم تقسو حتى لايطردكم الله من رحمته كما خلت قلوبكم من ذكره .



﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

يعطينا الحق تبارك وتعالى هنا الحكمة فيما رواه لنا عن بني إسرائيل ومن قصصهم . لأنهم سيكون لهم دور مع المسلمين في المدينة ، ثم في بيت المقدس ، ثم في المسجد الأقصى . . فهو يروى لنا كيف أتعبوا نبيهم وكيف عصوا ربهم وكيف قابلوا النعمة بالمعصية والرحمة بالجحود . وإذا كان هذا موقفهم يا محمد مع الله ومع نبيهم . . فلا تطمع أن يؤمنوا لك ولا أن يدخلوا في الاسلام ، مع أنهم عندهم التوراة تدعوهم الى الايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . .

هذه الآيات تحمل أعظم تعزية للرسول الكريم . وتطالبه ألا يحزن على عدم ايمان اليهود به لأنه عليه البلاغ فقط ، ولكن حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يؤمن كل أهل الأرض يهود ونصارى وكفرا ، ليس معناه انه لم يبلغ مهمته ، ولكن معناه أنه أدرك حلاوة التكليف من ربه ، بحيث يريد أن يهدى كل خلق الله في الأرض . . يطمئنه الله ويقول له لا تعتقد أنهم سيؤمنون لك. وليس معنى عدم ايمانهم أنك لست صادقا . . فتكذيبهم لك لا ينبغي أن يؤثر فيك . . فلا تطمع يا محمد أن يؤمنوا لك . .

ما هو الطمع ؟ . . الطمع هو رغبة النفس في شيء غير حقها وإن كان محبوبا لها . . والأصل في الانسان العاقل ألا يطمع إلا في حقه . . والانسان أحيانا يريد أن يرفه حياته ويعيش مترفا ولكن بحركة حياته كما هي . نقول له إذا أردت أن تتوسع في ترفك فلابد أن تتوسع في حركة حياتك ، لأنك لو أترفت معتمدا على حركة حياة غيرك فسيفسد ميزان حركة الحياة في الأرض ، أي إن كنت تريد أن تعيش حياة مترفة فعش على قدر حركة حياتك ، لأنك إن فعلت غير ذلك تسرق وترتشي وتفسد فإن كان عندك طمع فليكن فيما تقدر عليه .

إذن فكلمة «أفتطمعون» ما تحدد أنه يجب ألا نطمع إلا فيما نقدر عليه . هؤلاء اليهود هل نقدر على أن نجعلهم يؤمنون ؟ يقول الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم .. هذا أمر زائد على ما كلفت به .. لأن عليك البلاغ ، وحتى لو كان حبيا الى نفسك .. فإن مقدماتهم مع الله لا تعطيك الأمل فى أنك ستصل الى النتيجة التى ترجوها

وهذه الآية فيها تسرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما سيلاقيه مع اليهود وتعطيه الشحنة الايمانية التى تجعله يقابل عدم ايمان هؤلاء بقوة وعزيمة .. لأنه كان يتوقعه فلا يحزن ولا تذهب نفسه حسرات ، لأن الله تبارك وتعالى قد وضع فى نفسه التوقع لما سيحدث منهم .. فإذا جاء تصرفهم وفق ما سيحدث . يكون ذلك أمرا محتملا من النفس .

والحق سبحانه وتعالى يقول «وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله» انظر إلى الأمانة والدقة فريق منهم ليس كلهم هذا هو ما استنبط منه العلماء نظرية صيانة الاحتمال .. وهى عدم التعميم بحيث تقول انهم جميعا كذا . لابد أن تضع احتمالا فى أن شخصا ما سيؤمن أو سيشذ أو سيخالف . هنا فريق من أهل الكتاب عرفوا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوراة والانجيل .. وعندما بعث آمنوا به ، وهؤلاء لم يحرفوا كلام الله لو أن القرآن جاء بالحكم عاما لتغيرت نظرة الكافرين للاسلام . ولقالوا لقد قال عنا هذا الدين اننا حرفنا كتاب الله ولكننا لم نحرفه ونحن ننتظر رسوله .. فكأن هذا الحكم غير دقيق ولابد أن شيئا ما خطأ .. لأن الله الذى نزل هذا القرآن لا يخفى عليه شىء ويعرف ما فى قلوبنا جميعا . ولكن لأن الآية الكريمة تقول ان فريقا منهم كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه الكلام هنا لا تعميم ومنطق بدقة على كل حال

والحق جل جلاله يقول : «ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون» .. هذه معصية مركبة سمعوا كلام الله وعقلوه وعرفوا العقوبة على المعصية ثم بعد ذلك حرفوه . لقد قرأوه فى التوراة وقرأوا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انهم يعرفونه كأبنائهم ثم حرفوا كلام الله وهم يعلمون .. ومعنى التحريف تغيير معنى الكلمة كانوا يقولون السّام عليكم بدلا من السلام عليكم . ولم يتوقف الأمر عند التحريف بل تعداه الى أن جاءوا بكلام من عندهم وقالوا انه من التوراة

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) ﴾

هذه صورة من صور نفاق اليهود . والناس مقسمون إلى ثلاث . مؤمنون وكافرون ومنافقون المؤمن انسجم مع نفسه ومع الكون الذى يعيش فيه . والكافر انسجم مع نفسه ولم ينسجم مع الكون ، والكون يلعنه والمنافق لا انسجم مع نفسه ولا انسجم مع الكون ، والآية تعطينا صورة من صور النفاق وكيف لا ينسجم المنافق مع نفسه ولا مع الكون . . فهو يقول ما لا يؤمن به . . وفى داخل نفسه يؤمن بما لا يقول . والكون كله يلعنه ، وفى الآخرة هو فى الدرك الأسفل من النار . وهذه الآية تتشابه مع آية تحدثنا عنها فى أول هذه السورة . . وهى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) ﴾

(سورة البقرة)

فى الآية الأولى كان الدور لليهود ، وكان هناك منافقون من غير اليهود وشياطينهم من اليهود . . وهنا الدور من اليهود والمنافقين من اليهود . الحق سبحانه وتعالى يقول : وإذا لقوا الذين امنوا قالوا آمنا، وهل الايمان كلام ؟ . . الايمان يقين فى القلب وليس كلاما باللسان . والاستدلال على الايمان بالسلوك فلا يوجد انسان يسلك سبيل المؤمنين نفاقا أو رياء . يقول آمنت نفاقا ولكن سلوكه لا يكون سلوك المؤمن . . ولذلك كان سلوكهم هو الذى يفضحهم يقول تعالى : وإذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم»

وفي سورة أخرى يقول الحق :

﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة آل عمران)

وفي سورة المائدة يقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ ﴾

(من الآية ٦١ سورة المائدة)

هذا أربع صور من صور المنافقين . كلها فيها التظاهر بإيمان كاذب . في الآية الأولى «وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم» وفي الآية الثانية : «وإذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم» وفي الآية الثالثة : «عضوا عليكم الأنامل من الغيظ» . وفي الآية الرابعة : «وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به» .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما بعث كان اليهود يقولون للمؤمنين هذا هو نبيكم موجود عندنا في التوراة أوصافه كذا . . حينئذ كان أحبار اليهود ينهرونهم عن ذلك ويقولون لهم : «أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم» فكأنهم علموا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم أرادوا أن يخفوها . إن الغريب أنهم يقولون : «بما فتح الله عليكم» . وإذا كان هذا فتحا من الله فلا فضل لهم فيه . . ولو أراد الله لهم الفتح لآمنت القلوب . .

قوله تعالى : « ليحاجوكم به عند ربكم » يدل على أن اليهود المنافقين والكفار وكل خلق الأرض يعلمون انهم من خلق الله ، وان الله هو الذى خلقهم . . ومادامو يعلمون ذلك فلماذا يكفرون بخالقهم ؟ «ليحاجوكم به» أي لتكون حجتهم عليكم قوية عند الله . . ولكنهم لم يقولوا عند الله بل قالوا «عند ربكم» والمحاجة معناها أن يلتقى فريقان لكل منهما وجهة نظر مختلفة . وتقام بينهما مناظرة

يدلى فيها كل فريق بحجته . واقرأ قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَٰهِيمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذه هى المناظرة التى حدثت بين ابراهيم عليه السلام والنمرود الذى آتاه الله الملك .. ماذا قال ابراهيم ؟

﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذه كانت حجة ابراهيم فى الدعوة الى الله ، فرد عليه النمرود بحجة مزيفة . قال أنا أحيى وأميت .. ثم جاء بواحد من جنوده وقال حراسه اقتلوه .. فلما اتجهوا اليه قال اتركوه .. ثم التفت الى ابراهيم :

﴿ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

جدل عقيم لأن هذا الذى أمر النمرود بقتله . كان حيا وحياته من الله .. والنمرود حين قال اقتلوه لم يمته ولكنه أمر بقتله .. وفرق بين الموت والقتل .. القتل أن تهدم بنية الجسد فتخرج الروح منه لأنه لا يصلح لإقامتها . والموت أن تخرج الروح من الجسد والبنية سليمة لم تهدم .. الذى يميت هو الله وحده ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

والنمرود لو قتل هذا الرجل ما كان يستطيع أن يعيده الى الحياة .. ولكن ابراهيم عليه السلام .. لم يكن يريد أن يدخل فى مثل هذا الجدل العقيم ..

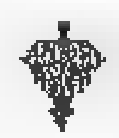
الذى فيه مقارعة الحجة بالحجة يمكن فيه الجدال ولو زيفا .. ولذلك جاء بالحجة البالغة التى لا يستطيع النمرود ان يجادل فيها :

﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذا هو معنى المحاجّة .. كل طرف يأتى بحجته ، وما داموا يحاجونكم عند ربكم وهم يعتقدون أن القضية لن تمر أمام الله بسلام لأنه رب الجميع وسينصف المظلوم من الظالم .. اذا كانت هذه هى الحقيقة فهل أنتم تعملون لمصلحة أنفسكم ؟ الجواب لا .. لو كنتم تعلمون الصواب ما كنتم وقعتم فى هذا الخطأ فهذا ليس فتحا ..

وقوله تعالى : «أفلا تعقلون» ختام منطقى للآية .. لأن من يتصرف تصرفهم ويقول كلامهم لا يكون عنده عقل .. الذى يقول «ليحاجوكم عند ربكم» يكون مؤمنا بأن له ربا ، ثم لا يؤمن بهذا الاله ولا يخافه لا يمكن أن يتصف بالعقل .



﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾

يبين الله لنا بأنه يعلم امرهم وما يفعلون . لقد ظنوا أن الله غافل عندما خلا بعضهم إلى بعض وقالوا : «أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم» .. الله عليم وسميع .. وعندما يلاقي المنافقون المؤمنين ويقولون آمنا .. «وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ» هذا انفعال حركي ليس له كلام يقال ولكن فيه واقع يرى .. ومع ذلك فهو ليس سرا .

ما هو السر وما هو العلن ؟ .. الأمر المعلن هو الذي يخرج منك الى من عنده آله السماع ليسمعك .. والأمر المعلن يخرج منك الى من عنده آله الرؤية ليراك .. فإن كان حركة بلا صوت فهذا عدته العين . وان كان بصوت فعدته الأذن .. هذه وسائل الادراك الأصلية ..

وقوله تعالى «يعلم مايسرون وما يعلنون» الم يكن أولى أن يقول سبحانه يعلم ما يعلنون وما يسرون .. وإذا كان يعلم ما تسر أفلا يعلم ما تعلن ؟ . لاشك انه يعلم .. ولكنها دقة في البلاغة القرآنية ، ذلك أن المتكلم هو الله سبحانه .

ونحن نعلم أن الله غيب .. وغيب يعني مستور عن حواسنا .. ومادام الله غيبا فهو يعلم الغيب المستور .. وربما كان العلن الظاهر له قوانين أخرى .. فمثلا إذا كان هناك شخص في المنزل ، ثم يقول وأنا اعلم ما في المنزل وما هو خارج المنزل .. لو قال أنا أعلم ما في المنزل لقلنا له أنت داخله فلا غرابة في ذلك .. ولكنك مستور عنا في الخارج فكيف تعلمه ؟

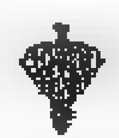
ومادام الله غيبا فقوله ما يسرون أقرب لغيبه . وما يعلنون هى التى تحتاج وقفة . لا تظنوا أن الله تبارك وتعالى لأنه غيب لا يعلم إلا ما هو مستور وخفى فقط .. لا .. إنه يعلم المشهود والغائب .. إذن فالمناسب لأن الله غيب عن ابصارنا وكوننا لا ندركه أن يقول ما يسرون أولا ..

ما معنى ما يسرون ؟ .. السر هو ما لم تهمس به الى غيرك .. لأن همسك للغير بالشىء لم يعد سرا . ولكن السر هو ما تسره فى نفسك ولا تهمس به لأحد من الناس .. وإذا كان السر هو ما تسره فى نفسك ، فالعلن هو ما تجاهر به . ويكون علنا مادام قد علمه اثنان .. والعلن عند الناس واضح والسر عندهم خفى .. والله سبحانه وتعالى حين يخبرنا أنه غيب .. فليس معنى ذلك أنه لا يعلم إلا غيبا . إنه يعلم السر والعلن .. والله جل جلاله يقول فى القرآن الكريم :

﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾

(من الآية ٧ سورة طه)

فإذا كان السر هو ما تخفيه فى نفسك وله واقع داخلك .. وما هو أخفى، هو أن الله يعلم أنك ستفعله قبل أن تفعله . ويعلم أنه سيحدث منك قبل أن يحدث منك .



﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

الله سبحانه وتعالى لازال يتحدث عن أهل الكتاب .. فبعد أن بين لنا الذين يقولون : « أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم » .. انتقل سبحانه وتعالى الى طائفة أخرى وهم من أسماهم بالأميين .. وأصح قول في الأمي هو أنه كما ولدته أمه .. أي لم يعلم شيئا من ثقافة وعلم في الوجود منذ لحظة نزوله من بطن أمه . ولذلك فإن الأمي على إطلاقه هو الذي لا يكتسب شيئا من ثقافة الوجود حوله ، بصرف النظر عن أن يقال كما ولدته أمه .. لأن الشائع في المجتمعات أن الذي يعلم هم الخاصة لا العامة .. وعلى أية حال فالمعاني كلها ملتقية في تعريف الأمي .

قوله تعالى : « ومنهم أميون » .. نلاحظ أن هناك معسكرات من الأميين واجهت الدعوة الاسلامية .. فالمعسكر الأول كان المشركون في مكة ، والمعسكر الثاني كان أهل الكتاب في المدينة . وأهل الكتاب تطلق على أتباع موسى وأتباع المسيح .. ولكن في الجزيرة العربية كان هناك عدد لا يذكر من النصارى .. وكان هناك مجتمع . والمقصود من قوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني » هم اليهود الذين كان لهم مجتمع في المدينة .. ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : « ومنهم أميون » . معنى هذا أنه لابد أن يكون هناك منهم غير أميين .. وهؤلاء هم الذين سيأتي قول الله تعالى عنهم في الآية التالية :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة البقرة)

هنا قسّم الله تبارك وتعالى اليهود إلى أقسام .. منهم قسم أمّي لا يعرفون

الكتاب وما يقوله لهم أحبارهم هو الذى يعرفونه فقط .. وهؤلاء ربما لو كانوا يعلمون ما فى التوراة . من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم لآمنوا به .. والكتاب هنا يقصد به التوراة .. والله سبحانه وتعالى لم ينف عنهم مطلق العلم .. ولكنه نفى خصوصية العلم ، لأنه قال لا يعلمون إلا أمانى .. فكأن الأمانى يعلمونها من الكتاب .

ولكن ما الأمانى ؟ .. إنها تطلق مرة بدون تشديد الياء ومرة بتشديد الياء . فإن كانت بالتخفيف تكون جمع أمنية .. وإن كانت بالتشديد تكون جمع أمنية بالتشديد على الياء . الأمنية نجدها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة النساء)

هذا بالنسبة للجمع . أما بالنسبة للمفرد .. فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

ما هى الأمنية ؟ .. الأمنية هى الشىء الذى يحب الانسان أن يحدث ولكن حدوثه مستحيل .. إذن لن يحدث ولن يكون له وجود .. ولذلك قالوا إن من معانى التمنى اختلاق الأشياء .. الشاعر الذى قال :

ألا لَيتَ الشّبابَ يعودُ يوماً
فأُخبِرَهُ بما فَعَلَ المَشيبُ

هل الشباب يمكن أن يعود ؟ .. طبعا مستحيل .. هذا شىء لن يحدث .. والشاعر الذى قال :

لَيْتَ الكواكبَ تدنُو لى فأنظمَها
عُقُودَ مدحٍ فما أرضَى لكُمْ كَلِمِى

هل النجوم ستنزل من السماء وتأتى إلى هذا الشاعر .. ينظمها أبيات شعر إلى حبيبته .. إذن من معانى التمنى الكذب والاختلاق . ولقد فسر بعض المستشرقين قول الله تبارك وتعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى (أى قرأ) : « ألقى الشيطان فى أمنيته » (أى فى قراءته) .. وطبعا الشيطان لن يلقى فى قراءة الرسول إلا كذبا وافتراء وكفرا .. اقرأ قوله سبحانه :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة النجم)

قال أعداء الإسلام مادام قد ذكر فى القرآن أسماء الغرانيق .. وهى الأصنام التى كان يعبدها الكفار .. ومنها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى .. إذن فشفاعة هذه الأصنام ترتجى فى الآخرة .. وهذا كلام لا ينسجم مع منطق الدين كله الذى يدعو لعبادة الله وحده .. وخرج المستشرقون من ذلك بأن الدين فعلا يدعو لعبادة الله وحده .. إذن فيكون الشيطان قد ألقى فى أمنيته فيما يقوله رسول الله .. ثم أحكم الله سبحانه آياته فقال تعالى :

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة النجم)

وهم يريدون بذلك أن يشككوا .. فى أنه من الممكن أن يلقى الشيطان بعض أفكاره فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولكن الله سبحانه ينسخ ما يلقى الشيطان ويحكم آياته .

إن الله جل جلاله لم يترك وحيه لعبث الشيطان .. ولذلك سبحت الآية بعيدا عن كل ما قيل .. نقول لو أنك تنبهت إلى قول الله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى) لو قلنا تمنى بمعنى قرأ ، ثم أن الله ينسخ ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته .. إذن هو سبحانه لن يترك رسوله

يخطئ .. وبذلك ضمنا أن كل ما ينتهي إليه الرسول صواب .. وأن كل ما وصلنا عن الرسول محكم .. فنطمئن إلى أنه ليس هناك شيء يمكن أن يلقيه الشيطان في تمني الرسول ويصلنا دون أن ينسخ .

فإذا قلنا : إن الله ينسخ مايلقى الشيطان فما الذى جعلكم تعرفون ماألقاه الشيطان مادام رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل لكم إلا المحكم .. ثم من هو الرسول ؟ بَشَرٌ أُوحِيَ إليه بمنهج من السماء وأمر بتبليغه .. ومن هو النبي ؟ .. بشر أوحى إليه بمنهج ، ولم يؤمر بتبليغه .. ومادام لم يؤمر بتبليغه يكون خاصا بهذا النبي .. ويكون النبي قدوة سلوكية .. لأنه يطبق منهج الرسول الذى قبله فهو لم يأت بجديد .

الآية الكريمة جاءت بكلمتي رسول أو نبي .. إذا كان معنى أمنية الشيطان مستقيم بالنسبة للرسول فهو غير مستقيم بالنسبة للنبي .. لأن النبي لا يقرأ شيئا ، ومادام النبي ذكر في الآية الكريمة فلابد أن يكون للتمني معنى آخر غير القراءة .. لأن النبي لم يأت بكلام يقرؤه على الناس .. فكأنه سيقرأ كلاما محكما ليس فيه أمنية الشيطان أي قراءته .

إن التمني لا يأتي بمعنى قراءة الشيطان . وأمنية الرسول والنبي أن ينجحا في مهمتهما .. فالرسول كمبلغ لمنهج الله ، النبي كأسوة سلوكية .. المعنى هنا يختلف .. الرسول أمنيته أن يبلغ منهج الله .. والشيطان يحاول أن ينزع المنهج من قلوب الناس . هذا هو المعنى .. والله سبحانه وتعالى حين يحكم آياته ينصر الإيمان ليسود منهج الله في الأرض وتنتظم حركة الناس .. هذا هو المعنى .

وكلمة تمنى في هذه الآية الكريمة بمعنى أن الرسول أو النبي يحب أن يسود منهجه الأرض .. والشيطان يلقي العراقيل والله يحكم آياته وينصر الحق . ويجب أن تفهم الآية على هذا المعنى . بهذا ينتهي تماما ما يدعيه المستشرقون من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان يقرأ ما يوحى إليه يستطيع الشيطان أن يتدخل ويضع كلاما في الوحي .. مستحيل .

وقوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني » معناها أنه يأتي

قوم لا يعرفون شيئا عن الكتاب إلا ظنا . فيصدقهم هؤلاء الأميون دون علم . وكأن الله سبحانه يريد أن يلفتنا إلى أن كثيرا من المذاهب الدينية في الأرض ينشأ عن الملبسين لها . فهناك أناس يأتمون آخرين ليقولوا لهم ما إنتهت إليه الأحكام الدينية . فيأتي الأمي أو غير المثقف يسأل عالما عن حكم من الأحكام الشرعية ثم يأخذ منه الحكم ويطبقه دون أن يناقشه .. لأن علمه قد إنتهى عند السؤال عن الفتوى . والحق سبحانه وتعالى كما يقول

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

أي لا يحمل أحدا ذنب أحد يوم القيامة .. فيقول تعالى :

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النحل)

بعض الناس يظن أن الآيتين بينهما تعارض . نقول لا . من يرتكب إثما يحاسب عليه ومن يضل غيره بفتوى غير صحيحة يحل له بها ما حرم الله فإنه يحمل معاصيه ومعاصي من أضل .. فيكون له وزر لأنه ضل،ووزر لأنه أضل غيره . بل وأكثر من ذلك . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول .

(من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)[1]

ولابد أن ننتبه إلى خطورة الفتوى في الدين بغير علم . الفتوى في الدنيا أقصى ما يمكن ان تؤدي اليه هو ان تجعلك تخسر صفقة . لكن الفتوى في الدين ستدوم عمرا طويلا

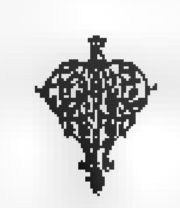
(١) (رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة)

الحق تبارك وتعالى يقول . « إن هم إلا يظنون » . . والظن كما قلنا هو نسبة راجحة ولكن غير مؤكدة وإذا كان التمني كما ورد في اللغة هو القراءة . فهؤلاء الأميون لا يعلمون الكتاب إلا قراءة لسان بلا فهم . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عن اليهود :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾

(من الآية ٥ سورة الجمعة)

وهكذا نرى أن هناك صنفا يحمل التوراة وهو لا يعرف عنها شيئا . والله جل جلاله قال إن مثله كالحمار . ولكن أقل من الحمار ، لأن الحمار مهمته أن يحمل الأثقال . ولكن الإنسان ليست مهمته أن يحمل ما يجهل . ولكن لابد أن يقرأ الكتاب ويعلم المطلوب منه



﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ
هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ
لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة جاءت في القسم الثاني من اليهود وهو المقابل للأميين .. وهم إما أميون لا يعلمون الكتاب .. وإما يعلمون ولكنهم يغيرون فيه ويكتبونه بأيديهم ويقولون هذا من عند الله . ولذلك توعدهم الله تبارك وتعالى فقال : ويل لهم ، وبدأ الآية بالوعيد بالجزاء مباشرة نلاحظ أن كلمة ويل في اللغة تستعمل معها كلمتى ويح وويس .. وكلها تعني الهلاك والعذاب .. وتستعمل للتحسر على غفلة الإنسان عن العذاب .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الكهف)

وقوله جل جلاله :

﴿ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة الأنبياء)

هذه الويلات تعني الحسرة وقت رؤية العذاب . وقيل إن الويل وادٍ في جهنم يهوى الإنسان فيه أربعين خريفا والعياذ بالله .. والحق تبارك وتعالى ينذر الذين يكتبون الكتاب بأيديهم أن عذابهم يوم القيامة سيكون مضاعفا .. لأن كل من ارتكب إثما نتيجة لتزييفهم لكتاب سيكونون شركاء وسيحملون عذابهم معهم يوم القيامة ، وسيكون عذابهم مضاعفا أضعافا كثيرة .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » ألم يكن يكفي أن يقول الحق فويل للذين يكتبون الكتاب ويكون المعنى مفهوما يكتبون الكتاب بماذا ؟ بأيديهم .. نقول لا .. لأن الفعل قد يتم بالأمر وقد يتم بالفعل . رئيس الدولة مثلا يتصل بأحد وزرائه ويقول له ألم أكتب إليك كتابا بكذا فلماذا لم تنفذه ؟ هو لم يكتب هذا الكتاب بيده ولكنهم كتبوه بأمره ، ورؤساء الدول نادرا ما يكتبون كتبا بأيديهم

إن الله سبحانه وتعالى يريد هنا أن يبين لنا مدى تعمد هؤلاء للإثم . فهم لا يكتفون مثلا بأن يقولوا لغيرهم اكتبوا . ولكن لاهتمامهم بتزييف كلام الله سبحانه وتزويره يقومون بذلك بأيديهم ليتأكدوا بأن الأمر قد تم كما يريدون تماما . فليست المسألة نزوة عابرة ولكنها مع سبق الإصرار والترصد وهم يريدون بذلك أن يشتروا ثمنا قليلا . هو المال أو ما يسمى بالسلطة الزمنية يحكمون ويكون لهم نفوذ وسلطان .

ولقد كان أهل الكتاب في الماضي إذا اختلفوا في شيء ذهبوا إلى الكهان والرهبان وغيرهم ليقضوا بينهم لماذا ؟ لأن الناس حين يختلفون يريدون أن يستتروا وراء ما يحفظ كبرياءهم إن كانوا مخطئين . يعني لا أنهزم أمامه ولا ينهزم أمامي .. وإنما يقولون ارتضينا حكم فلان . فإذا كنا سنلجأ إلى تشريع السماء ليحكم بيننا . لا يكون هناك غالب ومغلوب أو منهزم ومنتصر . ذلك حين أخضع أنا وأنت لحكم الله يكون كل منا راضيا نتيجة هذا الحكم .

ولكن رجال الدين اليهودي والمسيحي أخذوا يصدرون فتاوى متناقضة .. كل منهم حسب مصلحته وهواه ولذلك تضاربت الأحكام في القضايا المتشابهة . لأنه لم يعد الحكم بالعدل . بل أصبح الحكم خاضعا لأهواء ومصالح وقضايا البشر . وحين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله . إنما يريدون أن يخلعوا على المكتوب قداسة تجعل الإنسان يأخذه بلا مناقشة .. وبذلك يكونون هم المشرعين باسم الله ، ويكتبون ما يريدون ويسجلونه كتابة ، وحين أحس أهل الكتاب بتضارب حكم الدين بما أضافه الرهبان والأحبار ، بدأوا يطلبون تحرير الحكم من سلطة الكنيسة

ولكن لماذا يكتب هؤلاء الناس الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله ؟! .. الحق سبحانه وتعالى يقول : « ليشتروا به ثمنا قليلا » .. وقد قلنا إن الإنسان لا يشترى الثمن . ولكنه يدفع الثمن ويشترى السلعة .. ولكنك هنا تدفع لتأخذ ثمنا .. تدفع من منهج الله وحكم الله فتغيره وتبدله لتأخذ ثمنا موقوتا .. والله سبحانه وتعالى يعطيك فى الآخرة الكثير ولكنك تبيعه بالقليل . وكل ثمن مهما بلغ تأخذه مقابل منهج الله يعتبر ثمنا قليلا

والحق سبحانه وتعالى يقول : « فويل لهم مما كتبت أيديهم » الآية الكريمة بدأت بقوله تعالى « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » ثم جاء قوله تعالى : « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » فساعة الكتابة لها ويل وعذاب . وساعة بيع الصفقة لها ويل وعذاب .. والذى يكسبونه هو ويل وعذاب

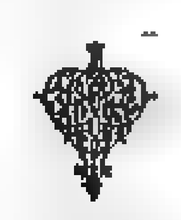
لقد انتشرت هذه المسألة فى كتابة صكوك الغفران التى كانت تباع فى الكنائس لمن يدفع أكثر والحق سبحانه وتعالى يقول . « وويل لهم مما يكسبون » وكلمة كسب تدل على عمل من أعمال جوارحك يجلب لك خيرا أو نفعا . وهناك كسب وهناك اكتسب . كسب تأتى بالشىء النافع ، واكتسب تأتى بالشىء الضار .. ولكن فى هذه الآية الكريمة الحق سبحانه وتعالى قال : « وويل لهم مما يكسبون » .. وفى آية ثانية قال : « بلى من كسب سيئة » .

فلماذا تم هذا الإستخدام ؟ نقول إن هذا ليس كسبا طبيعيا ، إنما هو افتعال فى الكسب . أى اكتساب ولابد أن نفهم إنه بالنسبة لجوارح الإنسان .. فإن هناك القول والفعل والعمل بعض الناس يعتقد إن هناك القول والعمل نقول لا . هناك قول هو عمل اللسان .. وفعل هو عمل الجوارح الأخرى غير اللسان .. وعمل وهو أن يوافق القول الفعل .. لذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الصف)

إذن هناك قول وفعل وعمل .. والإنسان إذا استخدم جوارحه استخداما سليما يفعل ما هو صالح له .. فإذا انتقل إلى ما هو غير صالح إلى ما يغضب الله فإن جوارحه لاتفعل ولكنها تفتعل .. تصادم ملكاتها بعضها مع بعض والإنسان وهو يفتح الخزانة ليأخذ من ماله يكون مطمئنا لا يخاف شيئا والإنسان حين يفتح خزانة غيره يكون مضطربا وتصرفاته كلها افتعال .. والإنسان مع زوجته منسجم فى هيئة طبيعية ، بعكس ما يكون فى وضع مخالف .. إنها حالة افتعال .. وكل من يكسب شيئا حراما إفتعله .. ولذلك يقال عنه اكتسب .. إلا إذا تمرس وأصبح الحرام لا يهزه ، أو من نقول عنهم محترفو الإجرام .. فى هذه الحالة يفعل الشىء بلا افتعال لأنه اعتاد عليه .. هؤلاء الذين وصلوا إلى الحد الذى يكتبون فيه بأيديهم ويقولون من عند الله .. أصبح الإثم لا يهزهم ، ولذلك توعدهم الله بالعذاب مرتين فى آية واحدة .



﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) ﴾

هنا يكشف الله سبحانه وتعالى فكر هؤلاء الناس .. لقد زين لهم الشيطان الباطل فجعلهم يعتقدون أنهم كسبوا فعلا وأنهم أخذوا المال والجاه الدنيوى وفازوا به .. لأنهم لن يعذبوا فى الآخرة إلا عذابا خفيفا قصيرا .. ولذلك يفضح الله تبارك وتعالى مايقولونه بعضهم مع بعض . ماذا قالوا ؟ « وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة »

المس يعنى اللمس الخفيف أو اقتراب شىء من شىء .. ولكن لا يحس أحدهما بالآخر إلا إحساسا خفيفا لا يكاد يذكر . فإذا أتيت إلى إنسان ووضعت أنت يدك على يده يقال مسست . ولكنك لم تستطع بهذا المس أن تحس بحرارة يده أو نعومة جلده .. ولكن اللمس يعطيك إحساسا بما تلمس : « قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » وهكذا أخذوا أقل الأقل فى العذاب .. ثم أقل الأقل فى الزمن فقالوا أياما معدودة .. الشىء إذا قيل عنه معدود فهو قليل .. أما الشىء الذى لا يحصى فهو الكثير .. ولذلك حين يتحدث الله عن نعمه يقول سبحانه :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾

(من الآية ١٨ سورة النحل)

فمجرد الإقبال على العد معناه أن الشىء يمكن إحصاؤه .. فإن لم يكن ممكنا لا يُقبل أحد على عده ، ولا ترى من حاول عدّ حبات الرمال أو قطرات الماء فى البحر .. نِعَمُ الله سبحانه وتعالى ظاهرة وخفية لا يمكن أن تحصى ، ولذلك

لا يُقبل أحد على إحصائها .. وإذا سمعت كلمة « أياما معدودة » فاعلم أنها أيام قليلة . ولذلك نرى في سورة يوسف قول الحق جل جلاله .

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة يوسف)

قولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودة .. دليل على غبائهم لأن مدة المس لا تكون إلا لحظة . ولكنها أماني وضعها الشيطان في عقولهم ليأتي الرد من الله في قوله سبحانه : « قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده » أي إذا كان ذلك وعدًا من الله ، فالله لا يخلف وعده . والله يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم لستم أنتم الذين تحكمون وتقررون ماذا سيفعل الله سبحانه وتعالى بكم .. بل هو جل جلاله الذي يحكم .. فإن كان قد أعطاكم عهدا فالله لا يخلف وعده .

وقوله تعالى : « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » هنا أدب النبوة والخلق العظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. فبدلا من أن يقول لهم أتفترون على الله أو أتكذبون على الله . أو أتختلقون على الله ما لم يقله .. قال : « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » إن الذي يختلق الكلام يعلم أنه مختلق . إنه أول من يعلم كذب ما يقول ، وقد يكون له حجة ويقنع من أمامه فيصدقه ، ولكنه يظل يعلم إن ما قاله مختلق رغم أنهم صدقوه . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها)[1] .

إذن مختلق الشيء يعرف إن هذا الشيء مختلق . وهؤلاء اليهود هم أول من يعلم إن قولهم .. « لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » قول مختلق . ولكن لمن يقولون على الله ما هو إفتراء وكذب ؟ يقولون للأميين الذين لا يعرفون الكتاب

(١) (رواه مالك وأحمد والبخاري ومسلم)

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

أراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح كذبهم .. فجاء القرآن قائلا .. « بلى » وهي حرف جواب مثل نعم تماما .. ولكن « بلى » حرف جواب في النفي .. يحق ينفي الذى قبله .. هم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ورسول الله سألهم هل اتخذوا عند الله عهدا أو يقولون على الله ما لا يعلمون ، فجاء القرآن ليقول : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .. بداية الجواب بلى تنفي ما قالوا .. لأن بلى تأتى بعد النفي . ونعم تأتى بعد الاجابة .. فإذا قال إنسان ليس لك عندى شيء وقلت نعم ، فمعناها أنه صحيح أنك ليس لك عندى شيء .. أما إذا قلت بلى ، فمعنى ذلك أن لك عندى شيئا أو أشياء .. ولذلك بعد قولهم « لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » .. لو جاء بعدها نعم ، لكان قولهم صحيحا ، ولكن بلى نفت . وجاء الكلام بعدها مؤكدا النفي :

« من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » هم قالوا لن تمسنا النار .. قال لن تمسكم فقط بل أنتم فيها خالدون .. وقوله تعالى : « أصحاب النار » .. الصحبة تقتضى نوعا من الملازمة فيها تجاذب المتصاحبين .. ومعنى ذلك أنه سيكون هناك تجاذب بينهم وبين النار

هنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال .. « بلى من كسب سيئة » .. وكان السياق يقتضى أن يقال اكتسب .. ولكن لأنهم ظنوا أنهم كسبوا .. كما يأتى في الآية السابقة .. وقوله تعالى « وأحاطت به خطيئته » .. احاطة بحيث

لا يوجد منفذ للإفلات من الخطيئة لأنها محيطة به .. وأنسب تفسير لقوله تعالى : « كسب سيئة وأحاطت به خطيئته » .. أن المراد الشرك .. لأن الشرك هو الذى يحيط بالإنسان ولا مغفرة فيه .. والله تعالى يقول .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

ولذلك فهؤلاء لم يكونوا عصاة فقط .. ولكنهم كانوا كافرين مشركين .. والدليل قوله تعالى : « هم فيها خالدون » .. وأصحاب الصغائر أو الكبائر الذين يتوبون منها لا يخلدون فى النار .. ولكن المشرك بالله والكافر به هم الخالدون فى النار .. وكل من لم يؤمن بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كافر .. لأن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الْءَاخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

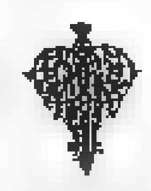
(سورة آل عمران)

ولذلك قلت هناك فرق بين .. الإنسان الذى يرتكب معصية لأنه لا يقدر على نفسه فيندم ويتوب .. وبين إنسان يفرح بالمعصية .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾

(من الآية ١٧ سورة النساء)

وهناك من يندم على المعصية وهذا له توبة .. وهناك من يفرح بالمعصية وهذا يزداد معصية



﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

عندما يذكر الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم .. العذاب والنار، يأتى بالمقابل وهو النعيم والجنة .. ذلك أن المقابلة ترينا الفرق .. وتعطى للمؤمن إحساسا بالسعادة .. لأنه زحزح عن عذاب الآخرة ، وليس هذا فقط .. بل دخل الجنة ليقيم خالدا فى النعيم .. ولذلك يقول سبحانه .

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

إذن الفوز فى الآخرة ليس على درجة واحدة ولكن على درجتين .. أولى درجات الفوز أن يزحزح الإنسان عن النار ولو إلى الأعراف وهذا فوز عظيم .. يكفى انك تمر على الصراط المضروب فوق النار وترى ما فيها من ألوان العذاب ، ثم بعد ذلك تنجو من هذا الهول كله .. يكفى ذلك ليكون فوزا عظيما .. لأن الكافر فى هذه اللحظة يتمنى لو كان ترابا حتى لا يدخل النار . فمرور المؤمن فوق الصراط ورؤيته للنار نعمة لأنه يحس بما نجا منه . فإذا تجاوز النار ودخل إلى الجنة لينعم فيها نعيما خالدا كان هذا فوزًا آخر .. ولذلك حرص الله تبارك وتعالى أن يعطينا المرحلتين . فلم يقل : من زحزح عن النار فاز .. ولم يقل من أدخل الجنة فاز .. بل قال « فمن زُحْزِحَ عن النارِ وأُدخِلَ الجَنَّةَ فقد فاز » .. وجاءت هذه الآية الكريمة بعد آيات العذاب لتعطينا المقارنة .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

أخذ الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل ثمانية أشياء: الميثاق .. وهو العهد الموثق المربوط ربطا دقيقا وهو عهد الفطرة أو عهد الذر .. مصداقا لقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ
بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وهناك عهد آخر أخذه سبحانه وتعالى عن رسله جميعا .. أن يبشروا برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ويطلبوا من أتباعهم أن يؤمنوا به عند بعثه .. أو ألا يكتموا ما في كتبهم وألا يغيروه .. والميثاق هو كل شيء فيه تكليف من الله .. ذلك أنك تدخل في عقد إيمان مع الله سبحانه وتعالى بأن تفعل ما يأمر به وتترك ما نهى عنه .. هذا هو الميثاق .. كلمة الميثاق وردت في القرآن الكريم بوصف غليظ .. في علاقة الرجل بالمرأة .. قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ
شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة النساء)

يقول نعم لأن هذا الميثاق سيحل للمرأة أشياء لا تكون إلا به .. أشياء لا تحل لأبيها أو لأخيها أو أي إنسان عدا زوجها .. والرجل إذا دخل على ابنته وكانت ساقها مكشوفة تسارع بتغطيته .. فإذا دخل عليها زوجها فلا شيء عليها .. إذن هو ميثاق غليظ لأنه حلل مناطق العورة وأباح العورة للزوج والزوجة .. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

إن كلا منهما يغطي ويحمي ويستر عورة الآخر .. والأب لا يفرح من انتقال ولاية ابنته إلى غيره .. إلا انتقال هذه الولاية لزوجها .. ويشعر بالقلق عندما تكبر الفتاة ولا تتزوج.

الحق يقول : « وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله » هذا الميثاق شمل ثلاثة شروط : « لا تعبدون إلا الله » .. أي تعبدون الله وحده .. وتؤمنون بالتوراة وبموسى نبيا .. لماذا ؟ لأن عبادة الله وحده هي قمة الإيمان .. ولكن لا تحدد أنت منهج عبادته سبحانه .. بل الذي يحدد منهج العبادة هو المعبود وليس العابد .. لابد أن تتخذ المنهج المنزل من الله وهو التوراة وتؤمن به .. ثم بعد ذلك تؤمن بموسى نبيا .. لأنه هو الذي نزلت عليه التوراة .. وهو الذي سيبين لك طريق العبادة الصحيحة .. وبدون هذه الشروط الثلاثة لا تستقيم عبادة بني إسرائيل.

وقوله تعالى : « وبالوالدين إحسانا » لأنهما السبب المباشر في وجودك .. ربياك وأنت صغير ، ورعياك ، وقوله تعالى : « إحسانا » معناه زيادة على المفروض . لأنك قد تؤدي الشيء بالقدر المفروض منك .. فالذي يؤدي الصلاة مثلا بقدر الفرض يكون قد أدى .. أما الذي يصلي النوافل ويقوم الليل يكون قد دخل في مجال الإحسان .. أي عطاؤه أكثر من المفروض .. والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ

ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ
﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

(سورة الذاريات)

وهكذا نرى أن الإحسان زيادة عن المفروض فى الصلاة والتسبيح والصدقة. والله تبارك وتعالى يريد منك أن تعطى لوالديك أكثر من المفروض أو من الواجب عليك..

وقوله تعالى: « وبذى القربى » . يحدد الله لنا فيها المرتبة الثانية بالنسبة للإحسان.. فالله جل جلاله أوصانا أن نحسن لوالدينا ونرعى أقاربنا. ولو أن كل واحد منا قام بهذه العملية ما وجد محتاج أو فقير أو مسكين فى المجتمع.. والله يريد مجتمعا لا فقر فيه ولا حقد. وهذا لا يتأتى إلا بالتراحم والإحسان للوالدين والأقارب.. فيكون لكل محتاج فى المجتمع من يكمله..

يقول الله سبحانه: « واليتامى » . واليتيم هو من فقد أباه وهو طفل لم يبلغ مبلغ الرجال. هذا فى الإنسان. أما فى الحيوان فإن اليتيم من فقد أمه.. لأن الأمومة فى الحيوان هى الملازمة للطفل، ولأن الأب غير معروف فى الحيوان ولكن الأم معروفة. اليتيم الذى فقد أباه فقد من يعوله ومن يسعى من أجله ومن يدافع عنه.. والله سبحانه وتعالى جعل الأم هى التى تربى وترعى.. والأب يكافح من أجل توفير إحتياجات الأسرة. ولكن الحال إنقلب الآن ولذلك يقول شوقى رحمه الله:

لَيْسَ اليَتِيمُ مَنِ انْتَهَى أَبَوَاهُ مِنْ
هَمِّ الحَيَاةِ وَخَلَّفَاهُ ذَلِيلاً
إِنَّ اليَتِيمَ هُوَ الَّذِى تَلْقَى لَهُ
أُمًّا تَخَلَّتْ أَوْ أَبًا مَشْغُولاً

إن اليتيم يكون منكسرا لأنه فقد والده فأصبح لا نصير له. فإذا رأينا فى المجتمع الإسلامى أن كل يتيم يرعاه رعاية الأب كل رجال المجتمع. فذلك

يجعل الأب لا يخشى أن يترك إبنه بعد وفاته .. إذن فرعاية المجتمع لليتيم تضمن أولا حماية حقه ، لأنه إذا كان يتيما وله مال فإن الناس كلهم يطمعون فى ماله ، لأنه لا يقدر أن يحميه .. هذه واحدة .. والثانية أن هذا التكافل يُذهب الحقد من المجتمع ويجعل كل إنسان مطمئنا على أولاده ..

وقوله سبحانه وتعالى : « والمساكين » .. فى الماضى كنا نقول إن المساكين هم الذين لا يملكون شيئا على الإطلاق ليقيموا به حياتهم .. إلى أن نزلت الآية الكريمة فى سورة الكهف :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الكهف)

عرفنا أن المسكين قد يملك .. ولكنه لا يملك ما يكفيه .. وهذا نوع من التكافل الإجتماعى لابد أن يكون موجودا فى المجتمع .. حتى يتكافل المجتمع كله .. فأنت إن كنت فقيرا أو مسكينا ويأتيك من رجل غنى ما يعينك على حياتك .. فإنك ستتمنى له الخير لأن هذا الخير يصيبك .. ولكن إذا كان هذا الغنى لا يعطيك شيئا .. هو يزداد غنى وأنت تزداد فقرا .. تكون النتيجة أن حقدك يزداد عليه ..

ويقول الحق سبحانه وتعالى : « وقولوا للناس حُسنا » .. كلمة حسنا بضم الحاء ترد بمعنى حسن بفتح الحاء .. والحسن هو ما حسنه الشرع .. ذلك أن العلماء اختلفوا : هل الحسن هو ما حسَّنه الشرع أو ما حسنه العقل ؟ نقول ، ما حسنه العقل مما لم يرد فيه نص من تحسين الشرع .. لأن العقل قد يختلف فى الشيء الواحد .. هذا يعتبره حسنا وهذا يعتبره قبيحا .. والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة النحل)

هذا هو معنى قوله تعالى « وقولوا للناس حسنا » .. ثم جاء قوله جل

جلاله : « وأقيموا الصلاة » وقد تكلمنا عن معنى إقامة الصلاة وما يجعلها مقبولة عند الله . وهناك فرق بين أن تقول صلوا .. وبين أن تقول أقيموا الصلاة .. أقيموا الصلاة معناها صلّ ولكن صلاة على مستواها الذي يطلب منك .. وإقامة الصلاة كما قلنا هي الركن الذي لا يسقط أبدا عن الإنسان .

ويقول الحق : « وآتوا الزكاة » .. بالنسبة للزكاة عندما يقول الله سبحانه .. « وذوى القربى واليتامى والمساكين » .. نقول أن الأقارب واليتامى والمساكين لهم حق في الزكاة ماداموا فقراء .. لنحس جميعا أننا نعيش في بيئة إيمانية متكاملة متكافلة .. يحاول كل منا أن يعاون الآخر .. فالزكاة في الأساس تعطى للفقير ولو لم يكن يتيما أو قريبا .. فإن لكل فقير حقوقا ورعاية .. فإذا كان هناك فقراء أقارب أو يتامى يصبح لهم حقان .. حق القريب وحق الفقير .

وإن كان يتيما فله حق اليتيم وحق الفقير .. بعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى عناصر الميثاق الإيمانية .. قال .. « ثم توليتم » .. تولى يعني أعرض أو لم يطع أو لم يستمع .. يقول الحق سبحانه .. « ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » .. هذا هو واقع تاريخ بني إسرائيل .. لأن بعضهم تولى ولم يطع الميثاق وبعضهم أطاع ..

إن القرآن لم يشن حملة على اليهود ، وإنما شن حملة على المخالفين منهم ولذلك احترم الواقع وقال : « إلا قليلا » .. وهذا يقال عنه بالنسبة للبشر قانون صيانة الاحتمال ..

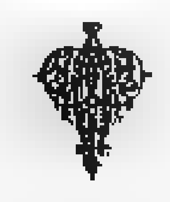
إن الحق جل جلاله يتكلم بإنصاف الخالق للمخلوق .. لذلك لم يقل « ثم توليتم » بل قال إلا قليلا .. « توليتم » يعني أعرضتم .. ولكن الله تبارك وتعالى يقول : « ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » نريد أن نأخذ الدقة الأدائية .. إذا أردت أن نفسر تولىّ .. معناها أعرض أو رفض الأمر .. ولكن الدقة لو نظرنا للقرآن لوجدنا أنه حين يلتقى المؤمن بالكافر في معركة .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

إذن فالتولي هو الإعراض .. والحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يبين لنا أن الإعراض يتم بنوايا مختلفة .. المقاتل يوم الزحف يعرض أو يتولى ليس بنية الهرب من المعركة .. ولكن بنية أن يذهب ليقاتل في مكان آخر أو يعاون إخوانه الذين تكاثر عليهم الأعداء .. هذا إعراض. ولكن ليس بنية الهرب من المعركة .. ولكن بنية القتال بشكل أنسب للنصر ..

نفرض أن إنسانا مدين لك رأيته وهو قادم في الطريق فتوليت عنه .. أنت لم تعرض عنه كرها .. ولكن رحمة لأنك لا تريد المساس بكرامته .. إذن هناك تول أو إعراض ليس بنية الإعراض . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن هؤلاء اليهود تولوا بنية الإعراض ، ولم يتولوا بأي نية أخرى أي أنهم أعرضوا وهم متعمدون أن يعرضوا .. وليس لهدف آخر .



﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

قلت ساعة تسمع « إذ » فاعلم أن معناها أذكر وهنا إن الميثاق هو العهد الموثق . وقوله تعالى : « لا تسفكون دماءكم » .. والله تبارك وتعالى ذكر قبل ذلك في الميثاق عبادة الله وحده . وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة إلى آخر ما جاء في الآية الكريمة وكلها أوامر أي وكلها افعل استكمالا للميثاق يقول الله في هذه الآية الكريمة ما لا تفعل .. فالعبادة كما قلنا هي إطاعة الأوامر والامتناع عن النواهي .. أو ما نهى عنه الميثاق .

« لا تسفكون دماءكم » ومعناها لا يسفك كل واحد منكم دم أخيه . لا يسفك بعضكم دم بعض . ولكن لماذا قال الله : « دماءكم » ؟ لأنه بعد ذلك يقول : « ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » .. الحكم الإيماني يخاطب الجماعة الإيمانية على أنها وحدة واحدة .. لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى)[1] .

فكأن المجتمع الإيماني وحدة واحدة . والله سبحانه وتعالى يقول :

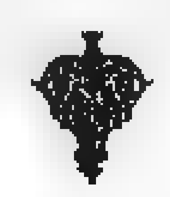
﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

(رواه البخاري)

ولكن إذا كنت أنا الداخل فكيف أسلم على نفسي ؟ كأن الله يخاطب المؤمنين على أساس أنهم وحدة واحدة .. وعلى هذا الأساس يقول سبحانه : « لا تسفكون دماءكم » أي لا تقتلوا أنفسكم . السفك معناه صب الدم .. « ودماءكم » هو السائل الموجود في الجسم اللازم للحياة .. وقوله تعالى : « ولا تخرجوا أنفسكم من دياركم » يعني لا يخرج بعضكم بعضا من ديارهم .. ثم ربط المؤمنين من بني إسرائيل بقوله تعالى : « ثم أقررتم وأنتم تشهدون » . أقررتم أي اعترفتم : « وأنتم تشهدون » الشهادة هي الإخبار بمشاهد .. والقاضي يسأل الشهود لأنهم رأوا الحادث فيروون ما شاهدوا .. وأنت حين تروي ما شاهدت .. فكأن الذين سمعوا أصبح ما وقع مشهودا وواقعا لديهم . وشاهد الزور يغير الواقع

الحق سبحانه وتعالى يخاطب اليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ويذكرهم بما كان من آبائهم الأولين .. وموقفهم من أخذ الميثاق حين رفع فوقهم جبل الطور وهي مسألة معروفة .. والقرآن يريد أن يقول لهم إنكم غيرتم وبدلتم فيما تعرفون . فالذي جاء على هواكم طبقتموه . والذي لم يأت على هواكم لم تطبقوه .



﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن
دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ
تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ
الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ
إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ
بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٨٥ ﴾

يخاطب الحق جل جلاله اليهود ليفضحهم لأنهم طبقوا من التوراة ماكان على هواهم . ولم يطبقوا مالم يعجبهم ويقول لهم : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » . إنه يذكرهم بأنهم وافقوا على الميثاق وأقروه

ولقد نزلت هذه الآية عندما زنت امرأة يهودية وأرادوا ألا يقيموا عليها الحد بالرجم فقالوا نذهب إلى محمد ظانين أنه سيعفيهم من الحد الموجود في كتابهم . . أو أنه لا يعلم ما في كتابهم . . فلما ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم هذا الحكم موجود عندكم في التوراة . . قالوا عندنا في التوراة أن نلطخ وجه الزاني والزانية بالقذارة ونطوف به على الناس . قال لهم رسول الله لا . . عندكم آية الرجم موجودة في التوراة فافتضحوا فكأنهم حين يحسبون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيخفف حدا من حدود الله . يذهبون إليه ليستفتوه .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » . . أي بعد أن أخذ عليكم الميثاق ألا تفعلوا . . تقتلون أنفسكم . يقتل بعضكم بعضا ، أو أن من قتل سيقتل فكأنه هو الذي قتل نفسه والحق سبحانه قال « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » . لماذا جاء بكلمة هؤلاء هذه ؟ لأنها إشارة للتنبيه لكي نلتفت إلى الحكم .

وقوله تعالى « وتخرجون فريقا منكم من ديارهم » وحذرهم بقوله « ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » . . وجاء هذا في الميثاق ما هو الحكم الذي

يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا إليه ؟ نقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما هاجر إلى المدينة إنتقل من دار شرك إلى دار إيمان .. ومعنى دار إيمان أن هناك مؤمنين سبقوا .. فهناك من آمن من أهل المدينة .. لقد هاجر المسلمون قبل ذلك إلى الحبشة ولكنها كانت هجرة إلى دار أمن وليست دار إيمان . ولكن حين حدثت بيعة العقبة وجاء جماعة من المدينة وعاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا به .. أرسل معهم الرسول مصعب بن عمير ليعلمهم دينهم .. وجاءت هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام عن خميرة إيمانية موجودة .. لما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أفسد على اليهود خطة حياتهم .. فاليهود كانوا ممثلين في بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة .. وكان هناك في المدينة الأوس والخزرج .. وبينهما حروب دائمة قبل أن يأتي الإسلام .. فاليهود قسموا أنفسهم إلى قوم مع الأوس وقوم مع الخزرج حتى يضمنوا إستمرار العداوة . فكلما هدأ القتال أهاجوا أحد المعسكرين على الآخر ليعود القتال من جديد .. وهم كذلك حتى الآن وهذه طبيعتهم .

إن الذي صنع الشيوعية يهودي ، والذي صنع الرأسمالية يهودي .. والذي يحرك العداوة بين المعسكرين يهودي .. وكان بنو النضير وبنو قينقاع مع الخزرج وبنو قريظة مع الأوس .. فإذا إشتبك الأوس والخزرج كان مع كل منهم حلفاؤه من اليهود . عندما تنتهي المعركة ماذا كان يحدث ؟ إن المأسورين من بني النضير وبني قينقاع يقوم بنو قريظة بالمساعدة في فك أسرهم . مع انهم هم المتسببون في هذا الأسر . فاذا إنتصرت الأوس وأخذوا أسرى من الخزرج ومن حلفائهم اليهود .. يأتي اليهود ويعملون على إطلاق سراح الأسرى اليهود . لأن عندهم نصًا انه إذا وجد أسير من بني إسرائيل فلابد من فك أسره .

والحق سبحانه وتعالى يقول لهم إن أعمالكم في أن يحارب بعضكم بعضا وأن تسفكوا دماءكم .. لا تتفق مع الميثاق الذي أخذه الله عليكم بل هي مصالح دنيوية .. تقتلون أنفسكم والله نهاكم عن هذا : « وتخرجون فريقا منكم من ديارهم » والله نهاكم عن هذا . « تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم » .. وهذا ما كان يحدث في المدينة في الحروب بين الأوس والخزرج كما بينا .. والأسارى جمع أسير وهي على غير قياسها ، لأن القياس فيها أسرى . ولذلك نرى في آية أخرى انه يأتي قول الله

سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الأنفال)

ولكن القرآن أتى بها أسرى . واللغة أحيانا تأتى على غير ما يقتضيه قياسها لتلفتك إلى معنى من المعانى .. فكسلان تجمع كسالى . والكسلان هو هابط الحركة . والأسير أيضا أنت قيدت حركته .. فكان جمع أسير على أسارى إشارة إلى تقييد الحركة .. القرآن الكريم جاء بأسارى وأسرى .. ولكنه حين استخدم أسارى أراد أن يلفتنا إلى تقييد الحركة مثل كسالى .. ومعنى وجود الأسرى أن حربا وقعت .. الحرب تقتضى الالتقاء والالتحام .. ويكون كل واحد منهم يريد أن يقتل عدوه .

كلمة الأسر هذه أخذت من أجل تهدئة سعار القتال .. فكأن الله أراد أن يحمى القوم من شراسة نفوسهم وقت الحرب فقال لهم إستأسروهم .. لا تقتلوهم إلا إذا كنتم مضطرين للقتل . ولكن خذوهم أسرى وفى هذا مصلحة لكم لأنكم ستأخذون منهم الفدية .. وهذا تشريع من ضمن تشريعات الرحمة .. لأنه لو لم يكن الأسر مباحا .. لكان لابد إذا التقى مقاتلان أن يقتل أحدهما الآخر .. لذلك يقال خذه أسيرا إلا إذا كان وجوده خطرٌ على حياتك .

وقول الحق تبارك وتعالى : « وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم » . كانت كل طائفة من اليهود مع حليفتها من الأوس أو الخزرج .. وكانت تخرج المغلوب من دياره وتأخذ الديار . وبعد أن تنتهى الحرب يفادوهم .. أى يأخذون منهم الفدية ليعيدوا إليهم ديارهم وأولادهم .

لماذا يقسم اليهود أنفسهم هذه القسمة .. إنها ليست تقسيمة إيمانية ولكنها تقسيمة مصلحة دنيوية .. لماذا ؟ لأنه ليس من المعقول وأنتم أهل كتاب . ثم تقسمون أنفسكم قسما مع الأوس وقسما مع الخزرج .. ويكون بينكم إثم وعدوان

وقوله تعالى « تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان » . تظاهرون عليهم.أى

تعاونون عليهم وأنتم أهل دين واحد : « بالإثم » . والإثم هو الشيء الخبيث الذي يستحي منه الناس : « والعدوان » . أي التعدي شراسة وقوله تعالى « وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم » أي تخرجونهم من ديارهم وتأخذوا الفدية لترجعوهم إليهم .

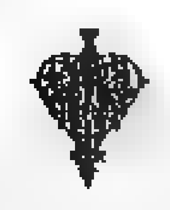
ثم يقول الله تبارك وتعالى : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » . أي تأخذون القضية على أساس المصلحة الدنيوية وتقسمون أنفسكم مع الأوس أو الخزرج .. تفعلون ذلك وأنتم مؤمنون بإله ورسول وكتاب .. مستحيل أن يكون دينكم أو نبيكم قد أمركم بهذا .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى « فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى في الحياة الدنيا » أي إنكم فعلتم ذلك وخالفتم لتصلوا إلى نفع دنيوي ولكنكم لم تصلوا إليه .. سيصيبكم الله بخزي في الدنيا أي أن الجزاء لن يتأخر إلى الآخرة بل سيأتيكم خزي وهو الهوان والذل في الدنيا وماذا في الآخرة ؟ يقول الله تعالى « ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب » الخزي في الدنيا أصابهم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وأخرج بنو قينقاع من ديارهم في المدينة كذلك ذبح بنو قريظة بعد أن خانوا العهد وخانوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين وهكذا لا يؤخر الله سبحانه وتعالى جزاء بعض الذنوب إلى الآخرة وجزاء الظلم في الدنيا لا يؤجل إلى الآخرة ، لأن المظلوم لابد أن يرى مصرع ظالمه حتى يعتدل نظام الكون . ويعرف الناس أن الله موجود وأنه سبحانه لكل ظالم بالمرصاد اليهود أتاهم خزي الدنيا سريعا . « يوم القيامة يردون إلى أشد العذاب »

قد يتساءل الناس ألا يكفيهم الخزي في الدنيا عن عذاب الآخرة ؟ نقول لا .. لأن الخزي لم ينلهم في الدنيا حدا . ولم يكن نتيجة إقامة حدود الله عليهم فالخزي حين ينال الإنسان كحد من حدود الله يعفيه من عذاب الآخرة .. فالذي سرق وقطعت يده والذي زنا ورجم هؤلاء نالهم عذاب من حدود الله فلا يحاسبون في الآخرة .. أما الظالمون فالأمر يختلف .. لذلك فإننا نجد إناسا من الذين ارتكبوا إثما في الدنيا يلحون على إقامة الحد عليهم لينجوا من عذاب الآخرة .. مع أنه لم يرهم أحد أو يعلم بهم أحد أو يشهد عليهم أحد ..

حتى لا يأتي واحد ليقول : لماذا لا يعفى الظالمون الذين أصابهم خزى فى الدنيا من عذاب الآخرة ؟ نقول إنهم فى خزى الدنيا لم يحاسبوا عن جرائمهم أصابهم ضر وعذاب ولكن أشد العذاب ينتظرهم فى الآخرة وما أهون عذاب الدنيا الذى هو بقدرة البشر بالنسبة لعذاب الآخرة الذى هو بقدرة الله سبحانه وتعالى ، كما أن هذه الدنيا تنتهى فيها حياة الإنسان بالموت ، أما الآخرة فلا موت فيها بل خلود فى العذاب .

ثم يقول الحق جل جلاله . « وما الله بغافل عما تعملون » . . أى لا تحسب ان الله سبحانه وتعالى يغفل عن شىء فى كونه فهو لا تأخذه سنة نوم . . وهو بكل شىء محيط .



﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ويذكر لنا الله سبحانه وتعالى سبب خيبة هؤلاء وضلالهم لأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة .. جعلوا الآخرة ثمنا لنزواتهم ونفوذهم فى الدنيا .. هم نظروا إلى الدنيا فقط .. ونظرة الإنسان إلى الدنيا ومقارنتها بالآخرة تجعلك تطلب فى كل ما تفعله ثواب الآخرة .. فالدنيا عمرك فيها محدود .. ولا تقل عمر الدنيا مليون أو مليونان أو ثلاثة ملايين سنة .. عمر الدنيا بالنسبة لك هو مدة بقائك فيها .. فإذا خرجت من الدنيا انتهت بالنسبة لك .. والخروج من الدنيا بالموت .. والموت لا أسباب له ولذلك فإن الإسلام لا يجعل الدنيا هدفا لأن عمرنا فيها مظنون .. هناك من يموت فى بطن أمه .. ومن يعيش ساعة أو ساعات ، ومن يعيش إلى أرذل العمر .. إذن فاتجه إلى الآخرة ، ففيها النعيم الدائم والحياة بلا موت والمتعة على قدرات الله .. ولكن خيبة هؤلاء أنهم إشتروا الدنيا بالآخرة .. ولذلك يقول الحق عنهم : « فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون » .. لا يخفف عنهم العذاب أى يجب ألا يأملوا أن العذاب فى الآخرة سيخفف عنهم .. او ستقل درجته أو تنقص مدته .. أو سيأتى يوم ولا يأتى يوما وقوله : « ولا هم ينصرون » .. النصرة تأتى على معنيين .. تأتى بمعنى أنه لا يغلب .. وتأتى بمعنى أن هناك قوة تنتصر له أى تنصره .. كونه يغلب .. الله سبحانه وتعالى غالب على أمره فلا أحد يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .. ولكن الله يملك النفع والضر لكل خلقه .. ويملك تبارك وتعالى أن يقهر خلقه على ما يشاء .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾

(من الآية ١٨٨ سورة الأعراف)

أما مسألة أن ينصره أحد .. فمن الذى يستطيع أن ينصر أحدا من الله .. واقرأ قوله سبحانه وتعالى عن نوح عليه السلام :

﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ ﴾

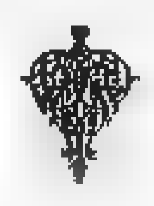
(من الآية ٣٠ سورة هود)

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فلا يخفف عنهم العذاب » . أمر لم يقع بعد بل سيقع مستقبلا .. يتحدث الله سبحانه وتعالى عنه بلهجة المضارع .. نقول إن كل أحداث الكون وما سيقع منها هو عند الله تم وانتهى وقضى فيه . لذلك نجد فى القرآن الكريم قوله سبحانه :

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

أتى فعل ماض .. ولا تستعجلوه مستقبل .. كيف يقول الله سبحانه وتعالى أتى ثم يقول لا تستعجلوه ؟ إنه مستقبل بالنسبة لك .. أما بالنسبة لله تبارك وتعالى فمادام قد قال أتى .. فمعنى ذلك أنه حدث .. فلا أحد يملك أن يمنع أمرا من أمور الله من الحدوث .. فالعذاب آت لهم آت .. ولا يخفف عنهم لأن أحدا لا يملك تخفيفه .



﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۝٨٧ ﴾

بعد أن بيّنَ الحق سبحانه وتعالى لنا ما فعله اليهود مع نبيهم موسى عليه السلام .. أراد أن يبين لنا ما فعله بنو إسرائيل بعد نبيهم موسى . وأراد أن يبين لنا موقفهم من رسول جاءهم منهم .. ولقد جاء لبني إسرائيل رسل كثيرون لأن مخالفاتهم للمنهج كانت كثيرة .. ولكن الآية الكريمة ذكرت عيسى عليه السلام .. لأن الديانتين الكبيرتين اللتين سبقتا الإسلام هما اليهودية والنصرانية .. ولكن لابد أن نعرف أنه قبل مجيء موسى .. وبين رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام رسل كثيرون .. منهم داود وسليمان وزكريا ويحيى وغيرهم . فكأنه في كل فترة كان بنو إسرائيل يبتعدون عن الدين .. ويرتكبون المخالفات وتنتشر بينهم المعصية . فيرسل اللهُ رسولاً يعدل ميزانَ حركة حياتهم .. ومع ذلك يعودون مرة أخرى إلى معصيتهم وفسقهم .. فيبعث اللهُ رسولاً جديدًا .. ليزيل الباطل وهوى النفس من المجتمع ويطبق شرع الله .. ولكنهم بعده يعودون مرة أخرى إلى المعصية والكفر .

وقال اللهُ سبحانه وتعالى : « ولقد آتينا موسى الكتابَ » والقائلُ هو اللهُ جل جلاله .. والكتابُ هو التوراة : « وقفينا من بعده بالرسل » . واللهُ تبارك وتعالى بين لنا موقفَ بني إسرائيل من موسى .. وموقفَهم من رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين .. ولكنه لم يبين لنا موقفَهم من الرسل الذين جاءوا بعد موسى حتى عيسى ابن مريم .

الحقّ سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا .. إلى أنه لم يترك الأمر لبني إسرائيل بعد موسى .. أن يعملوا بالكتاب الذي أرسل معه فقط .. ولكنه أتبع ذلك بالرسل .. حين تسمع « قفينا » .. أي اتبعنا بعضهم بعضا .. كل يخلف الذي سبقه. « وقفينا »

مشتقة من قفا وقفا الشيء خلفه . وتقول قفوت فلاناً أي سرت خلفه قريباً منه .

إن الحق يريد أن نلتفت إلى أن رسالة موسى لم تتقف عند موسى وكتابه .. ولكنه سبحانه أرسل رسلاً وأنبياء ليذكروا وينبهوا . ولقد قلنا إن كثرة الأنبياء لبني إسرائيل ليست شهادة لهم ولكنها شهادة عليهم .. إنهم يتفاخرون أنهم أكثر الأمم أنبياء . ويعتبرون ذلك ميزة لهم ولكنهم لم يفهموا فكثرة الأنبياء والرسل دلالة على كثرة فساد الأمة ، لأن الرسل إنما يجيئون لتخليص البشرية من فساد وأمراض وإنقاذها من الشقاء . وكلما كثر الرسل والأنبياء دل ذلك على أن القومَ قد انحرفوا بمجرد ذهاب الرسول عنهم ، ولذلك كان لابد من رسول جديد .. تماما كما يكون المريض في حالةٍ خطرةٍ فيكثر أطباؤه بلا فائدةٍ .. وليقطع اللهُ سبحانه وتعالى عليهم الحجة يومَ القيامة .. لم يترك لهم فترة من غفلةٍ .. بل كانت الرسلُ تأتيهم واحدا بعد الآخر على فتراتٍ قريبةٍ

وإذا نظرنا إلى يوشع وأشمويه وشمعون . وداود وسليمان وشعيب وأرميا . وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى .. نرى موكبًا طويلا جاء بعد موسى .. حتى إنه لم تمر فترة ليس فيها نبي أو رسول . ونحن نفرق بين النبي والرسول .. نقول النبيّ مرسل والرسولُ مرسل .. كلاهما مرسلٌ من الله . ولكن النبيَ لا يأتي بتشريع جديدٍ . وإنما هو مرسلٌ على منهج الرسول الذي سبقه .. واقرأ قولَه سبحانه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إذن فالنبي مرسل أيضاً . ولكنه أسوة سلوكيةٌ لتطبيقِ منهجِ الرسولِ الذي سبقه .

وهل اللهُ سبحانه وتعالى قص علينا قصص كل الرسل والأنبياء الذين أرسلهم ؟ إقرأ قوله تبارك وتعالى .

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

إذن هناك رسل وأنبياء أرسلوا إلى بنى إسرائيل لم نعرفهم .. لأن الله لم يقصص علينا نبأهم . ولكن الآية الكريمة التى نحن بصددها لم تذكر إلا عيسى عليه السلام .. باعتباره من أكثر الرسل أتباعا .. والله تبارك وتعالى حينما أرسل عيسى أيده بالآيات والبينات التى تثبت صدق بلاغه عن الله .. ولذلك قال جل جلاله : « وآتينا عيسى ابنَ مريمَ البيناتِ وأيدناه بروحِ القُدُسِ » .. وعيسى ابنُ مريمَ عليه السلام جاء ليرد على المادية التى سيطرت على بنى إسرائيل .. وجعلتهم لا يعترفون إلا بالشىء المادى المحسوس .. فعقولهم وقلوبهم أغلقت من ناحية الغيب .. حتى إنهم قالوا لموسى : « أرنا اللهَ جهرةً » . وحين جاءهم المن والسلوى رزقا من الله .. خافوا أن ينقطع عنهم لأنه رزقٌ غيبىّ فطلبوا نبات الأرض . لذلك كان لابد أن يأتى رسول كل حياته ومنهجه أمور غيبية .. مولده أمر غيبى ، وموته أمر غيبى ورفعه أمر غيبى ومعجزاته أمور غيبية حتى ينقلهم من طغيان المادية إلى صفاء الروحانية .

لقد كان أول أمره أن يأتى عن غير طريق التكاثر المادى .. أى الذى يتم بين الناس عن طريق رجل وأنثى وحيوان منوىّ .. والله سبحانه وتعالى أراد أن يخلع من أذهان بنى إسرائيل أن الأسباب المادية تحكمه .. وإنما هو الذى يحكم السبب .. هو الذى يخلق الأسباب ومتى قال : « كن » كان .. بصرف النظر عن المادية المألوفة فى الكون .. وفى قضية الخلق أراد الله جل جلاله للعقول أن تفهم أن مشيئته هى السبب وهى الفاعلة .. واقرأ قوله سبحانه :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

فكأن الله سبحانه وتعالى جعل الذكورة والأنوثة هي السبب في الإنجاب ولكنه جعل طلاقة القدرة مهيمنة على الأسباب . فيأتي رجل وامرأة ويتزوجان ولكنهما لا ينجبان فكأن الأسباب نفسها عاجزة عن أن تعمل شيئا إلا بإرادة المسبب .

والله سبحانه وتعالى يقول « وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » . لماذا قال الحق تبارك وتعالى « وأيدناه بروح القدس » . . ألم يكن باقي الرسل والأنبياء مؤيدين بروح القدس ؟

نقول : لقد ذكر هنا تأييد عيسى بروح القدس لأن الروح ستشيع في كل أمر له ميلاداً ومعجزة وموتاً والروح القدس هو جبريل عليه السلام لم يكن يفارقه أبدا لقد جاء عيسى عليه السلام على غير مألوف الناس وطبيعة البشر مما جعله معرضاً دائماً للهجوم . ولذلك لابد أن يكون الوحي في صحبته لا يفارقه ليحمل من مهمات على القوم ما يرد الناس عنه . وعندما يتحدث القرآن أنه رفع إلى السماء . اختلف العلماء هل رفع إلى السماء حيا ؟ أو مات ثم رفع إلى السماء ؟ نقول . لو أننا عرفنا أنه رفع حيا أو مات فما الذي يتغير في منهجنا ؟ لا شيء . وعندما يقال إنه شيء عجيب أن يرفع إنسان إلى السماء ، ويظل هذه الفترة ثم يموت نقول إن عيسى ابن مريم لم يتبرأ من الوفاة . إنه سيتوفى كي يتوفى سائر البشر . ولكن هل كان ميلاده طبيعيا ؟ الإجابة لا . إذن فلماذا تتعجب إذا كانت وفاته غير طبيعية ؟ لقد خلق من أم بدون أب . فإذا حدث أنه رفع إلى السماء حياً وسينزل إلى الأرض فما العجب في ذلك ؟ ألم يصعد رسولنا صلى الله عليه وسلم إلى السماء حيا ؟ ثم نزل لنا بعد ذلك إلى الأرض حياً ؟ لقد حدث هذا لمحمد عليه الصلاة والسلام . . إذن فالمبدأ موجود فلماذا تستبعد صعود عيسى ثم نزوله في آخر الزمان ؟ والفرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وعيسى هو أن محمدا لم يمكث طويلاً في السماء ، بينما عيسى مكث . والخلاف على الفترة لا ينقض المبدأ .

عن ابن المسيب أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم صلى الله عليه وسلم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد)[1] .

---

(١) رواه البخاري في البيوع ومسلم في الإيمان وأبو داود في الملاحم والترمذي في الفتن وابن ماجه في الفتن ورواه أحمد في المسند

وهذا الحديث موجود فى صحيح البخارى .. فقد جعله الله مثلا لبنى إسرائيل .. واقرأ قوله سبحانه :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

قوله تعالى : « وآتينا عيسى ابنَ مريمَ البيناتِ » .. البينات هى المعجزات مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله وغير ذلك من المعجزات .. وهى الأمور البينة الواضحة على صدق رسالته .

لكننا إذا تأملنا فى هذه المعجزات .. نجد أن بعضها نسبت لقدرة الله كإحياء الموتى جاء بعدها بإذن الله .. وبعضها نسبها إلى معجزته كرسول .. ومعروف أنه كرسول يؤيده اللهُ بمعجزات تخرق قوانين الكون .. ولكن هناك فرق بين معجزة تعطى كشفاً للرسول .. وبين معجزة لابد أن تتم كل مرة من الله مباشرة .. واقرأ الآية الكريمة :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نرى فى الآية الكريمة أنه بينما كان إخبار عيسى لما يأكل الناس وما يدخرون فى بيوتهم كشفاً من الله .. كان إحياء الموتى فى كل مرة بإذن الله .. وليس كشفاً ولا معجزة ذاتية لعيسى عليه السلام .. إن كل رسول كان مؤيداً بروح القدس وهو جبريل عليه السلام .. ولكن الله أيد عيسى بروح القدس دائما معه . وهذا معنى قوله تعالى : « وأيدناه بروحِ القُدُسِ » .. وأيدناه مشتقة من القوة ومعناها قويناه

بروح القدس فى كل أمر من الأمور .. وكلمة روح تأتى على معنيين . المعنى الأول ما يدخل الجسم فيعطيه الحركة والحياة . وهناك روح أخرى هى روح القيم تجعل الحركة نافعة ومفيدة ولذلك سمى الحق سبحانه وتعالى القرآن بالروح .. واقرأ قوله تعالى

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

والقرآن روح . من لا يعمل به تكون حركة حياته بلا قيم إذن كل ما يتصل بالمنهج فهو روح . والقدس هذه الكلمة تأتى مرة بضم القاف وتسكين الدال . ومرة بضم القاف وضم الدال .. وكلا اللفظين صحيح وهى تفيد الطهر والتنزه عن كل ما يعيب ويشين .. والقدس يعنى المطهر عن كل شائبة

قوله تبارك وتعالى : أفكلما جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم » قوله تعالى : « أفكلما » هناك عطف وهناك استفهام ، وهى تعنى أكفرتم ، وكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم . أى إن اليهود جعلوا أنفسهم مشرعين من دون الله . وهم يريدون أن يشرعوا لرسلهم .. فإذا جاء الرسول بما يخالف هواهم كذّبوه أو قتلوه .

وقوله تعالى : « بما لا تهوى أنفسكم » هناك هَوَى بالفتحة على الواو وهَوِىَ بالكسرة على الواو .. هَوَى بالفتحة عن الواو بمعنى سقط إلى أسفل .. وهَوِىَ بالكسرة على الواو معناه أحب واشتهى . والمعنيان ملتقيان . الأول معناه الهبوط ، والثانى حب الشهوة والهوى يؤدى إلى الهبوط .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حينما يشرع يقول (تَعَالَوْا) ومعناها إرتفعوا من موقعكم الهابط . إذن فالمنهج جاء ليعصمنا من السقوط .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم .. يعطينا هذا المعنى ، وكيف ان الدين يعصمنا من أن نهوى ونسقط فى جهنم يقول :

(إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارًا فجعلت الدواب والفراش يقعْن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم موحمون فيه)(١) .

---

(١) رواه مسلم فى الزهد ، وابن ماجه فى الزهد ، ورواه أحمد

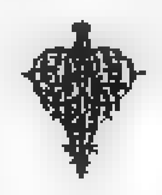
ومعنى أخذ بحجزكم أي آخذ بكم .. وكأننا نقبل على النار ونحن نشتهيها باتباعنا شهوتنا .. ورسول الله يجتهد الله يحول أن يتقدما منها .. ولكن رب نفس عشقت مصرعها .. والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

(من الآية ٨٧ سورة البقرة)

معنى استكبرتم أي أعطيتم لأنفسكم كبرا لستم أهلا له .. إدعيتم أنكم كبارٌ ولستم كبارًا .. ولكن هل المشرع مساوٍ لك حتى تتكبر على منهجه ؟ طبعا لا .. قوله تعالى : « ففريقا كذبتم » .. والكذب كلام يخالف الواقع . أي أنكم اتهمتم الرسل بأنهم يقولون كلاما يخالف الواقع . لأنه يخالف ما تشتهيه أنفسكم . وقوله تعالى : « وفريقا تقتلون » .. التكذيب مسألة منكرة .. ولكن القتل أمر بشع .. وحين ترى إنسانا يتخلص من خصمه بالقتل فاعلم أنها شهادة بضعفه أمام خصمه .. وإن عافيته وحياته لا تطيق وجود الخصم .. ولو انه رجلٌ مكتمل الرجولة لما تأثر بوجود خصمه .. ولكن لأنه ضعيف أمامه قتله ..

قوله تعالى : « وفريقا تقتلون » . مثل نبي الله يحيى ونبي الله زكريا .. وهناك قصص وروايات تناولت قصة سالومي .. وهي قصة راقصة جميلة أرادت إغراء يحيى عليه السلام فرفض أن يخضع لإغرائها .. فجعلت مهرها أن يأتوها برأسه .. وفعلا قتلوه وجاءوها برأسه على صينية من الفضة .



﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

الله سبحانه وتعالى يذكر لنا كيف برر بنو إسرائيل عدم إيمانهم وقتلهم الأنبياء وكل ما حدث منهم .. فماذا قالوا ؟ لقد قالوا « قلوبنا غلف » والغلف مأخوذ من الغلاف والتغليف .. وهناك غلْف بسكون اللام ، وغلُف بضم اللام .. مثل كتاب وكتب « قلوبنا غلف » أى مغلفة وفيها من العلم ما يكفيها ويزيد ، فكأنهم يقولون إننا لسنا فى حاجة إلى كلام الرسل .. أو « قلوبنا غلف » أى مغلفة ومطبوع عليها .. أى أن الله طبع على قلوبهم وختم عليها حتى لا ينفذ إليها شعاع من الهدى .. ولا يخرج منها شعاع من الكفر .

إذا كان الله سبحانه وتعالى قد فعل هذا .. ألم تسألوا أنفسكم لماذا ؟ ما هو السبب ؟ والحق تبارك وتعالى يرد عليهم فيقول : « بل لعنهم اللهُ بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » .. لفظ « بل » يؤكد لنا أن كلامهم غير صحيح .. فهم ليس عندهم كفاية من العلم بحيث لا يحتاجون إلى منهج الرسل .. ولكنهم ملعونون ومطرودون من رحمة الله .. فلا تنفذ إشعاعات النور ولا الهداية إلى قلوبهم .. ولكن ذلك ليس لأن الله ختم عليها بلا سبب .. ولكنه جزاء على أنهم جاءهم النور والهدى .. فصدوه بالكفر أولا .. ولذلك فإنهم أصبحوا مطرودين من رحمة الله .. لأن من يصد الإيمان بالكفر يطرد من رحمة الله ، ولا ينفذ إلى قلبه شعاع من أشعة الإيمان .

وهنا يجب أن نتنبه إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يبدأهم باللعنة .. وبعض الناس الذين يريدون أن يهربوا من مسئولية الكفر ــ عليها تنجيهم من العذاب يوم القيامة ــ يقولون إن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ (من الآية ٨ سورة فاطر)

تلك هي حجة الكافرين الذين يظنون انها ستنجيهم من العذاب يوم القيامة . . إنهم يريدون أن يقولوا إن الله يضل من يشاء . . ومادام الله قد شاء أن يضلني فما ذنبي أنا ؟ وهل أستطيع أن أمنع مشيئة الله . . نقول له . إن الله إذا قيد أمرا من الأمور المطلقة فيجب أن تلجأ إلى التقييد . . والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة التوبة)

ويقول سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة التوبة)

ويقول جل جلاله :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة التوبة)

والحق سبحانه وتعالى أخبرنا أنه منع إعانته للهداية عن ثلاثة أنواع من الناس . . الكافرين والظالمين والفاسقين . . ولكن هل هو سبحانه وتعالى منع معونة الهداية أولا ؟ أم أنهم هم الذين ارتكبوا من الضلال ما جعلهم لا يستحقون هداية الله ؟! إنسان واجه الله بالكفر . كفر بالله . . رفض أن يستمع لآيات الله ورسله . . رفض أن يتأمل في كون الله . ورفض أن يتأمل في خلقه هو نفسه ومن الذي خلقه . . ورفض أن يتأمل في خلق السموات والأرض . . كل هذا رفضه تماما . ومضى يصنع لنفسه طريق الضلال ويشرع لنفسه الكفر . لأنه فعل ذلك أولا . ولأنه بدأ بالكفر برغم أن الله سبحانه وتعالى وضع له في الكون وفي نفسه آيات تجعله يؤمن بالله ، وبرغم ذلك رفض . هو الذي بدأ والله سبحانه وتعالى ختم على قلبه

الإنسان الظالم يظلم الناس ولا يخشى الله .. يذكرونه بقدرة الله وقوة الله فلا يلتفت . يختم الله على قلبه .. كذلك الإنسان الفاسق الذى لا يترك منكرا إلا فعله .. ولا إثما إلا ارتكبه . ولا معصية إلا أسرع إليها .. لا يهديه الله .. أكنت تريد أن يبدأ هؤلاء الناس بالكفر والظلم والفسوق ويصرون عليه ثم يهديهم الله ؟ يهديهم قهرا أو قسرًا ، والله سبحانه وتعالى خلقنا مختارين ؟ طبعا لا .. ذلك يضيع الاختيار البشرى فى أن يطيع الإنسان أو يعصى .

والحق تبارك وتعالى أثبت طلاقة قدرته فيما نحن مقهورون فيه .. فى أجسادنا التى تعمل أعضاؤها الداخلية بقهر من الله سبحانه وتعالى وليس بإرادة منا كالقلب والتنفس والدورة الدموية .. والمعدة والأمعاء والكبد .. كل هذا وغيره مقهور لله جل جلاله . لا نستطيع أن تأمره ليفعل فيفعل .. وأن تأمره ألا يفعل فلا يفعل . وأثبت الله سبحانه وتعالى طلاقة قدرته فيما يقع علينا من أحداث فى الكون . فهذا يمرض ، وهذا تدهمه سيارة ، وهذا يقع عليه حجر وهذا يسقط ، وهذا يعتدى عليه إنسان .. كل الأشياء التى تقع عليك لا دخل لك فيها ولا تستطيع أن تمنعها . بقى ذلك الذى يقع منك وأهمه تطبيق منهج الله فى افعل ولا تفعل .. هذا لك اختيار فيه .

إن الله سبحانه وتعالى أوجد لك هذا الاختيار حتى يكون الحساب فى الآخرة عدلا .. فإذا اخترت الكفر لا يجبرك الله على الإيمان .. وإذا اخترت الظلم لا يجبرك الله على العدل . وإذا اخترت الفسوق لا يجبرك الله على الطاعة . إنه يحترم اختيارك لأنه أعطاك هذا الاختيار ليحاسبك عليه يوم القيامة .

لقد أثبت الله لنفسه طلاقة القدرة بأنه يهدى من يشاء ويضل من يشاء . ولكنه سبحانه قال إنه لا يهدى القوم الكافرين ولا القوم الظالمين ولا القوم الفاسقين فمن يرد أن يخرج من هداية الله فليكفر أو يظلم أو يفسق .. ويكون فى هذه الحالة هو الذى اختار فحق عليه عقاب الله .. لذلك فقد قال الكافرون من بنى إسرائيل إن الله ختم على قلوبهم فهم لا يهتدون ، ولكنهم هم الذين اختاروا هذا الطريق ومشوا فيه .. فاختاروا عدم الهداية ..

لقد أثارت هذه القضية جدلا كبيراً بين العلماء ولكنها فى الحقيقة لا تستحق هذا

الجدل .. فالله سبحانه وتعالى قال : « بل لعنهم الله بكفرهم » .. واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله .. ويتم ذلك بقدرة الله سبحانه وتعالى .. لأن الطرد يتناسب مع قوة الطارد .

فمثلا .. إنك الصغير يطرد صغيرا أمامه تكون قوة الطرد متناسبة مع سنه وقوته .. والأكبر أشد فأشد .. فإذا كان الطارد هو الله سبحانه وتعالى فلا يكون هناك مقدارٌ لقوة اللعن والطرد يعرفه العقل البشرى .

قوله تعالى : « بل لعنهم اللهُ بكفرهم » .. أى طردهم الله بسبب كفرهم .. والله تبارك وتعالى لا يتوعد للناس لكى يؤمنوا .. ولا يريد للرسل أن يتعبوا أنفسهم فى حمل الناس على الإيمان .. إنما وظيفة الرسول هى البلاغ حتى يكون الحساب حقا وعدلا .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

أى انهم لا يستطيعون الا يؤمنوا إذا أردناهم مؤمنين قهرا .. ولكننا نريدهم مؤمنين اختيارا .. وإيمان العبد هو الذى ينتفع به .. فالله لا ينتفع بإيمان البشر .. وقولنا لا إله إلا الله لا يسند عرش الله .. قلناها أو لم نقلها فلا إله إلا الله .. ولكننا نقولها لتشهد علينا يوم القيمة .. نقولها لتنجينا من أهوال يوم القيامة ومن غضب الله ..

وقوله تعالى : « بكفرهم » يعطينا قضية مهمة هى : أنه تبارك وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك .. فمن يشرك معه أحدا فهو لمن أشرك .. لذلك يقول الحق جل جلاله فى الحديث القدسى :

(أنا أغنى الشركاء عن الشِّرْكِ من عَمِلَ عملا أشْرَكَ فيه معى غيرى تركتُهُ وشِرْكَهُ)[1] .

---

(١) رواه مسلم

وشهادة الله سبحانه وتعالى لنفسه بالألوهية .. هي شهادة الذات للذات .. وذلك في قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾

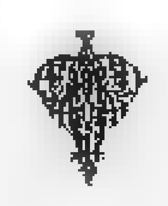
(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق خلقا يشهدون أنه لا إله إلا الله .. شهد لنفسه بالألوهية .. ولنقرأ الآية الكريمة :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

والله سبحانه وتعالى شهد لنفسه شهادة الذات للذات. والملائكة شهدوا بالمشاهدة .. وأولو العلم بالدليل .. والحق تبارك وتعالى يقول : « فقليلا ما يؤمنون » .. عندما تقول قليلا ما يحدث كذا ، فإنك تقصد به هنا صيانة الإحتمال ، لأنه من الممكن أن يثوب واحد منهم إلى رشده ويؤمن . فيبقى الله الباب مفتوحا لهؤلاء . ولذلك نجد الذين أسرفوا على أنفسهم في شبابهم قد يأتون في آخر عمرهم ويتوبون .. في ظاهر الأمر انهم أسرفوا على أنفسهم .. ولكنهم عندما تابوا واعترفوا بخطاياهم وعادوا إلى طريق الحق تقبل الله إيمانهم .. لذلك يقول الله جل جلاله : « فقليلا ما يؤمنون » أي أن الأغلبية تظل على كفرها .. والقلة هي التي تعود إلى الإيمان .



﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى . أن بنى إسرائيل قالوا إن قلوبهم غلف لا يدخلها شعاع من الهدى أو الإيمان .. أراد تبارك وتعالى أن يعطينا صورة اخرى لكفرهم بأنه أنزل كتابا مصدقا لما معهم ومع ذلك كفروا به .. ولو كان هذا الكتاب مختلفا عن الذى معهم لقلنا إن المسألة فيها خلاف .. ولكنهم كانوا قبل أن يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل عليه القرآن كانوا يؤمنون بالرسول والكتاب الذى ذكر عندهم فى التوراة .. وكانوا يقولون لأهل المدينة .. أظل زمن رسول سنؤمن به ونتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم .

ولقد كان اليهود يعيشون فى المدينة .. وكان معهم الأوس والخزرج وعندما تحدث بينهم خصومات كانوا يهددونهم بالرسول القادم .. فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كفروا به وبما أنزل عليه من القرآن .

واليهود فى كفرهم كانوا أحد أسباب نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. لأن الأوس والخزرج عندما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام قالوا هذا النبى الذى يهددنا به اليهود وأسرعوا يبايعونه.. فكان اليهود سخرهم الله لنصرة الإسلام وهم لا يشعرون .

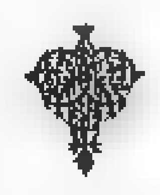
والرسول عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى الناس فى الطائف وينتظر القبائل عند قدومها إلى مكة فى موسم الحج ليعرض عليهم الدعوة فيصدونه ويضطهدونه .. وعندما شاء الله أن تنتشر دعوة الإسلام جاء الناس إلى مكة ومعهم الأوس والخزرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يذهب هو إليهم ،

وأعلنوا متابعته والإيمان برسالته ونشر دعوته .. دون أن يطلب عليه الصلاة والسلام منهم ذلك .. ثم دعوه ليعيش بينهم في دار الإيمان .. كل هذا تم عندما شاء الله أن ينصر الإسلام بالهجرة إلى المدينة وينصره بمن إتبعوه .

ويقول الحق تبارك وتعالى : « وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا» .. أي أنهم قبل أن يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستفتحون بأنه قد أظل زمن رسول سنؤمن به ونتبعه .. فلما جاء الرسول كذبوه وكفروا برسالته .

وقوله تعالى : « على الذين كفروا » .. أي كفار المدينة من الأوس والخزرج الذين لم يكونوا أسلموا بعد .. لأن الرسول لم يأت .. الحق سبحانه وتعالى يعطينا تمام الصورة في قوله تعالى : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

وهكذا نرى أن بني إسرائيل فيهم جحود مركب جاءهم الرسول الذي انتظروه وبشروا به .. ولكن أخذهم الكبر رغم أنهم موقنون بمجيء الرسول الجديد وأوصافه موجودة عندهم في التوراة إلا أنهم رفضوا أن يؤمنوا فاستحقوا بذلك لعنة الله .. واللعنة كما قلنا هي الطرد من رحمة الله



﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ
اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

عندما رفض اليهود الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وطردهم الله من رحمته .. بين لنا أنهم « بئسما اشتروا به أنفسهم » .. وكلمة إشترى سبق الحديث عنها وقلنا إننا عادة ندفع الثمن ونأخذ السلعة التي نريدها .. ولكن الكافرين قلبوا هذا رأسا على عقب وجعلوا الثمن سلعة .. على أننا لابد أن نتحدث أولا عن الفرق بين شرى واشترى .. شرى بمعنى باع . واقرأ قوله عز وجل :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

(سورة يوسف)

ومعنى الآية الكريمة انهم باعوه بثمن قليل .. واشترى بمعنى ابتاع .. ولكن اشترى قد تأتي بمعنى شرى .. لأنك في بعض الأحيان تكون محتاجا إلى سلعة ومعك مال .. وتذهب وتشترى السلعة بمالك وهذا هو الوضع السليم .. ولكن لنفرض أنك احتجت لسلعة ضرورية كالدواء مثلا .. وليس عندك المال ولكن عندك سلعة أخرى كأن يكون عندك ساعة أو قلم فاخر . فتذهب إلى الصيدلية وتعطى الرجل سلعة مقابل سلعة .. أصبح الثمن في هذه الحالة مشترى .. إذن فمرة يكون البيع مشترى ومرة يكون مبيعًا ..

والحق تبارك وتعالى يقول : « بئسما اشتروا به أنفسهم » .. وكأنما يعيرهم بأنهم يدعون الذكاء والفطنة .. ويؤمنون بالمادية وأساسها البيع والشراء .. لو كانوا حقيقة يتقنون هذا لعرفوا أنهم قد أتوا صفقة خاسرة .. الصفقة الرابحة

كانت أن يشتروا أنفسهم مقابل التصديق بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم .. ولكنهم باعوا أنفسهم واشتروا الكفر فخسروا الصفقة لأنهم أخذوا الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة . والله سبحانه وتعالى يجعل بعض العذاب فى الدنيا ليستقيم ميزان الأمور حتى عند من لم يؤمن بالآخرة .. فعندما يرى ذلك من لا يؤمن بالآخرة عذابا دنيويا يقع على ظالم . يخاف من الظلم ويبتعد عنه حتى لا يصيبه عذاب الدنيا ويعرف أن فى الذنب مقاييس فى الثواب والعقاب . وحتى لا ينتشر فى الأرض فساد من لا يؤمن بالله ولا بالآخرة .. وضع الحق تبارك وتعالى قصاصا فى الدنيا .. واقرأ قوله جل جلاله

﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُولِى الْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والله سبحانه وتعالى فى قصاصه يلفت المؤمن وغير المؤمن إلى عقوبة الحياة الدنيا .. فيأتى بالمرابى الذى يمتص دماء الناس ويصيبه بكارثة لا يجد بعدها ما ينفقه . ولذلك نحن نقول يارب إن القوم غرهم حلمك واستبطأوا آخرتك فخذهم ببعض ذنوبهم أخذ عزيز مقتدر حتى يعتدل الميزان .

والله تبارك وتعالى جعل مصارع الظالمين والباغين والمتجبرين فى الدنيا .. جعلها الله عبرة لمن لايعتبر بمنهج الله . فتجد إنسانا ابتعد عن دينه وأقبلت عليه الدنيا بنعيمها ومجدها وشهرتها ثم تجده فى آخر أيامه يعيش على صدقات المحسنين .. وتجد امرأة غرها المال فانطلقت تجمعه من كل مكان حلالا أو حراما وأعطتها الدنيا بسخاء .. وفى آخر أيامها تزول عنها الدنيا فلا تجد ثمن الدواء .. وتموت فيجمع لها الناس مصاريف جنازتها .. كل هذه الأحداث وغيرها عبرة للناس .. ولذلك فهى تحدث على رؤوس الأشهاد .. يعرفها عدد كبير من الناس . إما لأنها تنشر فى الصحف وإما أنها تذاع بين أهل الحى فيتناقلونها . المهم أنها تكون مشهورة .

وتجد مثلا أن اليهود الذين كانوا زعماء المدينة تجار الحرب والسلاح .. ينتهى بهم الحال أن يطردوا من ديارهم وتؤخذ أموالهم وتسبى نساؤهم . أليس هذا خزيا ؟

قوله تعالى : « أن يكفروا بما أنزل الله بغيا » .. البغى تجاوز الحد ، والله جعل لكل شيء حدا مَنْ تجاوزه بَغَى .. والحدود التي وضعها الله سبحانه هي أحكام .. ومرة تكون أوامر ومرة تكون نواهي. ولذلك يقول الحق بالنسبة للأوامر :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

ويقول تعالى بالنسبة للنواهي :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

ولكن ما سبب بغيهم ؟ .. بغيهم حسد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تأتي إليه الرسالة . وعلى العرب أن يكون الرسول منهم .. واليهود اعتقدوا لكثرة أنبيائهم أنهم الذين ورثوا رسالات الله إلى الأرض . وعندما جاءت التوراة والإنجيل ببشارات برسول خاتم قالوا إنه منا .. الرسالة والنبوة لن تخرج عنا فنحن شعب الله المختار .. ولذلك كانوا يعلنون أنهم سيتبعون النبي القادم وينصرونه .. ولكنهم فوجئوا بأنه ليس منهم .. حينئذ ملأهم الكبر والحسد وقالوا ما دام ليس منا فلن نتبعه بل سنحاربه .. لقد خلعت منهم الرسالات لأنهم ليسوا أهلا لها .. وكان لابد أن يعاقبهم الله على كفرهم ومعصيتهم ويجعل الرسالة في أمة غيرهم . والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة فاطر)

لقد اختبرهم الله في رسالات متعددة ولكنهم كما قرأنا في الآيات السابقة . كذبوا فريقا من الأنبياء ومن لم يكذبوه قتلوه .. لذلك كان لابد أن ينزع الله منهم هذه الرسالات ويجعلها في أمة غيرهم .. لتكون أمة العرب فيها ختام رسالات السماء إلى الأرض .. ولذلك بغوا

وقوله تعالى « بغيًا أن ينزل اللهُ من فضله على من يشاء من عباده » .. ومن هنا نعرف أن الرسالات واختيار الرسل .. فضل من الله يختص به من يشاء .. والله سبحانه حين يطلق أيدينا ويملكنا الأسباب .. فإننا لا نخرج عن مشيئته بل نخضع لها ونعرف أنه لا ذاتية في هذا الكون .. وذلك حتى لا يغتر الإنسان بنفسه فإن بطل العالم في لعبة معينة هو قمة الكمالات البشرية في هذه اللعبة . ولكن هذه الكمالات ليست ذاتية فيه لأن غيره يمكن أن يتغلب عليه ولأنه قد يصيبه أي عائق يجعله لا يصلح للبطولة وعلى كل حال فإن بطولته لا تدوم .. لأنها ليست ذاتية فيه ومَنْ وهبها له وهو الله سيهبها لغيره متى شاء . ولذلك لابد أن يعلم الإنسان أن الكمال البشري متغير لا يدوم لأحد وأن كل من يبلغ القمة ينحدر بعد ذلك لأنك في عالم أغيار . ولابد لكل من علا أن ينزل فالكمال لله وحده . والله سبحانه يحرس كماله بذاته .

إذن اليهود حسدوا رسول الله . حسدوا نزول القرآن على العرب . والحق سبحانه يقول « فباءوا بغضبٍ على غضب وللكافرين عذابٌ مهين » والله جل جلاله يخبرنا أنه غضبَ عليهم مرتين .

الغضب الأول أنهم لم ينفذوا ما جاء في التوراة فغضب الله عليهم .. والغضب الثاني حين جاءهم رسول مذكور عندهم في التوراة ومطلوب منهم أن يؤمنوا به فكفروا به .. وكان المفروض أن يؤمنوا حتى يرضى الله عنهم ولذلك غضب الله عليهم مرة أخرى عندما كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم

وقوله تعالى : « وللكافرين عذابٌ مهين » . العذاب في القرآن الكريم وُصِفَ بأنه أليم ووُصِفَ بأنه عظيم ووُصِفَ بأنه مهين . أليم أي شديد الألم يصيب من يعذب بألم شديد ولكن نفرض أن الذي يعذب يتجلد . ويحاول ألا يظهر الألم حتى لا يشمت فيه الناس .. يأتيه الله بعذاب عظيم لا يقدر على احتماله . ذلك أن عظمة العذاب تجعله لا يستطيع أن يحتمل .. فإذا كان الإنسان من الذين تزعموا الكفر في الدنيا .. ووقفوا أمام دين الله يحاربونه وتزعموا قومهم . يأتيهم الله تبارك وتعالى بعذاب مهين . ويكون هذا أكثر إيلاما للنفس من الألم تماما كما تأتي لرجل هو أقوى مَنْ في المنطقة يخافه الناس جميعا ثم تضربه بيدك وتسقطه على الأرض تكون في هذه الحالة قد أهنته أمام

الناس .. فلا يستطيع بعد ذلك أن يتجبر أو يتكبر على واحد منهم .. ويكون هذا أشد إيلاما للنفس من ألم العذاب نفسه ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾

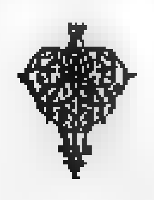
(سورة مريم)

وقوله جل جلاله :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

ذلك هو العذاب المهين .



﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

يبين لنا الحق سبحانه وتعالى موقف اليهود .. من عدم الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. مع أنهم أومروا بذلك في التوراة . فيقول جل جلاله : « وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله » أي إذا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا بالإسلام وأن يؤمنوا بالقرآن رفضوا ذلك « وقالوا نؤمن بما أنزل علينا » أي نؤمن بالتوراة ونكفر بما وراءه ، أي بما نزل بعده

ونحن نعرف أن الكفر هو الستر . ولو أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء يناقض ما معهم ربما قالوا : جاء ليهدم ديننا ولذلك نكفر به .. ولكنه جاء بالحق مصدقا لما معهم

إذن حين يكفرون بالقرآن يكفرون أيضا بالتوراة لأن القرآن يصدق ما جاء في التوراة .

وهنا يقيم الله تبارك وتعالى عليهم الحجة البالغة . إن كفركم هذا وسوككم ضد كل نبي جاءكم .. ولو أنكم تستقبلون الإيمان حقيقة بصدر رحب . فقولوا لنا لِمَ تقتلتم أنبياء الله ؟ . ولذلك يقول الحق : « فلم تقتلون أنبياءَ اللهِ من قبلُ » . هل هناك في كتابكم التوراة أن تقتلوا أولياء الله . كأن الحق سبحانه وتعالى قد أخذ الحجة من قولهم : « نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه » .. إذا كان هذا صحيحا وانكم تؤمنون بما أنزل عليكم فهاتوا لنا مما أنزل إليكم وهي التوراة ما يبيح لكم قتل الأنبياء إن كنتم مؤمنين بالتوراة . وطبعا لم يستطيعوا ردا لأنهم كفروا بما أنزل عليهم . فهم كاذبون في قولهم نؤمن بما أنزل

عليها .. لأن ما ينزل عليهم لم يأمرهم بقتل الأنبياء .. فكأنهم كفروا بما أنزل عليهم .. وكفروا بما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام .

والقرآن يأتينا بالحجة البالغة التي تخرس أفواه الكافرين وتؤكد أنهم عاجزون غير قادرين على الحجة في المناقشة . وهنا لابد أن ننبه الى قوله تعالى : « فلم تقتلون أنبياء الله من قبل » قوله تعالى : « من قبل » طمأنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قتلهم الأنبياء انتهى ، وفي الوقت نفسه قضاء على آمال اليهود في أن يقتلوا محمدا عليه الصلاة والسلام .. والله يريد نزع الخوف من قلوب المؤمنين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن ما جرى للرسل السابقين من بني إسرائيل لن يجرى على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وبذلك تقطع القرآن خط الرجعة على كل من يريد أذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. لأن ذلك كان عهدا وانتهى وأنهم لو تآمروا على قتله عليه الصلاة والسلام فلن يفلحوا ولن يصلوا إلى هدفهم .

واليهود بعد نزول هذه الآية الكريمة لم يتراجعوا عن تآمرهم ولن يكفوا عن سعيهم في قتل الرسل والأنبياء . فحاولوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة .. مرة وهو في حيهم ألقوا فوقه حجرا ولكن جبريل عليه السلام أنذره فتحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانه قبل إلقاء الحجر ومرة دسوا له السم ، ومحاولات أخرى فشلت كلها .

إذن فقوله تعالى « من قبل » معناه .. إن كنتم تفكرون في التخلص من محمد صلى الله عليه وسلم بقتله كما فعلتم في أنبيائكم نقول لكم : إنكم لن تستطيعوا أن تقتلوه .

ولقد كانت هذه الآية كافية لإلقاء اليأس في نفوسهم حتى يكفوا عن أسلوبهم في قتل الأنبياء ولكنهم ظلوا في محاولاتهم ، وفي الوقت نفسه كانت الآية تثبيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين . بأن اليهود مهما تآمروا فلن يمكنهم الله من شيء .. وقوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » .. أي بما أنزل إليكم .

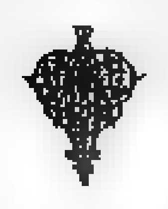
وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ

بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى رفضهم للإيمان بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. بحجة أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم فقط ، أوضح لنا أن هذه الحجة كاذبة وأنهم فى طبيعتهم الكفر والإلحاد .. فقال سبحانه : « ولقد جاءكم موسى بالبينات » .. أى أن موسى عليه السلام أيده الله ببينات ومعجزات كثيرة كانت تكفى لتملأ قلوبكم بالإيمان وتجعلكم لا تعبدون إلا الله .. فلقد شق لكم البحر ومررتم فيه وأنتم تنظرون وترون .. أى أن المعجزة لم تكن غيبا عنكم بل حدثت أمامكم ورأيتموها .. ولكنكم بمجرد أن تجاوزتم البحر وذهب موسى للقاء الله .. بمجرد أن حدث ذلك اتخذتم العجل إلها من دون الله وعبدتموه .. فكيف تدعون أنكم آمنتم بما أنزل إليكم .. لو كنتم قد آمنتم به ما كنتم اتخذتم العجل إلها .

والحق تبارك وتعالى يريد أن ينقض حجتهم فى أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم .. ويرينا أنهم ما آمنوا حتى بما أنزل إليهم .. فجاء بحكاية قتل الأنبياء .. ولو أنهم كانوا مؤمنين حقا بما أنزل إليهم فليأتوا بما يبيح لهم قتل أنبيائهم ولكنهم كاذبون .. أما الحجة الثانية فهى إن كنتم تؤمنون بما أنزل إليكم .. فقولوا لنا كيف وقد جاءكم موسى بالآيات الواضحة من العصا التى تحولت إلى حية واليد البيضاء من غير سوء والبحر الذى شققناه لكم لتنجوا من قوم فرعون .. والقتيل الذى أحياه الله أمامكم بعد أن ضربتموه ببعض البقرة التى ذبحتموها .. آيات كثيرة ولكن بمجرد أن ترككم موسى وذهب للقاء ربه عبدتم العجل

إذن فقولكم نؤمن بما أنزل إلينا غير صحيح .. فلا أنتم مؤمنون بما أنزل إليكم ولا أنتم مؤمنون بما أنزل من بعدكم .. وكل هذه حجج الهدف منها عدم الإيمان أصلا .

وقوله تعالى : « ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » .. واتخاذ العجل في ذاته ليس معصية إذا اتخذته للحرث أو للذبح لتأكل لحمه .. ولكن المعصية هي اتخاذ العجل معبودا .. وقوله تعالى : « اتخذتم العجل » .. أي أن ذلك أمر مشهود لم تعبدوا العجل سرا بل عبدتموه جهرا ، ولذلك فهو أمر ليس محتاجا إلى شهود ولا إلى شهادة لأنه حدث علنا وأمام الناس كلهم .. وذكر حكاية العجل هنا ليشعروا بذنبهم في حق الله .. كأن يرتكب الإنسان خطأ ثم تمر عليه وقت .. وكلما أردت أن تؤنبه ذكرته بما فعل .. وقوله تعالى : « وأنتم ظالمون » .. أي ظالمون في إيمانكم .. ظالمون في حق الله بكفركم به



﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟
مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ
بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

بعد أن ذكَّرهم الله سبحانه وتعالى بكفرهم بعبادتهم للعجل وكان هذا نوعا من التأنيب الشديد والتذكير بالكفر أراد أن يؤنبهم مرة أخرى وأن يذكِّرهم أنهم آمنوا خوفا من وقوع جبل الطور عليهم . ولم يكن الجبل سيقع عليهم لأن الله لا يقهر أحدا على الإيمان . ولكنهم بمجرد أن رأوا جبل الطور فوقهم آمنوا . مثلهم كالطفل الذي وصف له الطبيب دواء مرا ليشفى .ولذلك فإن رفع الله سبحانه وتعالى لجبل الطور فوقهم ليأخذوا الميثاق والمنهج لا يقال إنه فعل ذلك إرغاما لكي يؤمنوا إنه إرغام المحب يريد الله من خلقه ألا يعيشوا بلا منهج سماوى فرفع فوقهم جبل الطور إظهارا لقوته وقدرته تبارك وتعالى حتى إذا استشعروا هذه القوة الهائلة وما يمكن أن تفعله فيهم آمنوا فكأنهم حين أحسوا بقدرة الله آمنوا . . تماما كالطفل الصغير يفتح فمه لتناول الدواء المر وهو كاره . . ولكن هل أعطيته الدواء كرها فيه أو أعطيته له قمة في الحب والإشفاق عليه ؟

الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى أنه لم يترك حيلة من الحيل حتى يتلقى بنو إسرائيل منهج الله الصحيح . فيقول إنه لم يترك حيلة إلا فعلها لكن غريزة الاستكبار والعناد منعتهم أن يستمروا على الإيمان تماما كما يقال للأب إن الدواء مر لم يحقق الشفاء وطفلك مريض فيقول وماذا أفعل أكثر من ذلك أرغمته على شرب الدواء المر ولكنه لم يشف

وقول الله تعالى : « ميثاقكم » هل الميثاق منهم أو هو ميثاق الله ؟ طبعا هو ميثاق الله . . ولكن الله جل جلاله خاطبهم بقوله : « ميثاقكم » لأنهم أصبحوا طرفا في العقد . وماداموا قد أصبحوا طرفا أصبح ميثاقهم . . ولابد أن يؤمن أن رفع

جبل الطور فوق اليهود لم يكن لإجبارهم لأخذ الميثاق منهم حتى لا يقال انهم أجبروا على ذلك .. هم اتبعوا موسى قبل أن يرفع فوقهم جبل الطور .. فلابد أنهم أخذوا منهجه باختيارهم وطبقوه باختيارهم لأن الله سبحانه وتعالى لم يبق الطور مرفوعا فوق رءوسهم أينما كانوا طوال حياتهم حتى يقال أنهم أجبروا .. فلو أنهم أجبروا لحظة وجود جبل الطور فوقهم .. فإنهم بعد أن انتهت هذه المعجزة لم يكن هناك ما يجبرهم على تطبيق المنهج .. ولكن المسألة أن الله تبارك وتعالى .. حينما يرى من عباده مخالفة فإنه قد يخيفهم . وقد يأخذهم بالعذاب الأصغر علهم يعودون إلى إيمانهم . وهذا يأتي من حب الله لعباده لأنه يريدهم مؤمنين ..

ولكن اليهود قوم ماديون لا يؤمنون إلا بالمادة والله تبارك وتعالى أراد أن يريهم آية مادية على قلوبهم تخشع وتعود إلى ذكر الله .. وليس في هذا إجبار لأنه كما قلنا إنه عندما انتهت المعجزة كان يمكنهم أن يعودوا إلى المعصية .. ولكنها آية تدفع إلى الإيمان وقوله تعالى : (خذوا ما آتيناكم بقوة) لأن ما يؤخذ بقوة يعطي بقوة والأخذ بقوة يدل على عشق الآخذ للمأخوذ .. وما دام المؤمن يعشق المنهج فإنه سيؤدي مطلوباته بقوة .. فالإنسان دائما عندما يأخذ شيئا لا يحبه فإنه يأخذه بفتور وتهاون .

قوله تعالى : « واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا » .. القول هو عمل اللسان والفعل للجوارح كلها ما عدا اللسان هناك قول وفعل وعمل القول أن تنطق بلسانك والفعل أن تقوم جوارحك بالتنفيذ .. والعمل أن يطابق القول الفعل . هم : « قالوا سمعنا وعصينا » هم سمعوا ما قاله لهم الله سبحانه وتعالى وعصوه .. ولكن (عصينا) على أي شيء معطوفة ؟ .. إنها ليست معطوفة على « سمعنا » .. ولكنها معطوفة على (قالوا) .. قالوا سمعنا في القول وفي الفعل عصينا .. وليس معنى ذلك أنهم قالوا بلسانهم عصينا في الفعل .. فالمشكلة جاءت من عطف عصينا على سمعنا . فتحسب أنهم قالوا الكلمتين لا . هم قالوا سمعنا ولكنهم لم يفعلوا فلم يفعلوا.والله سبحانه وتعالى يريدهم أن يسمعوا سماع طاعة لا سماع مجرد أي مجرد سماع .. ولكنهم سمعوا ولم يفعلوا شيئا فكأن عدم فعلهم معصية .

قوله تعالى : « وأشربوا في قلوبهم العجل » . الحق تبارك وتعالى يريد أن يصور لنا ماديتهم . فالحب أمر معنوي وليس أمرًا ماديًا لأنه غير محسوس . وكان التعبير

يقتضي أن يقال واشربوا حب العجل .. ولكن الذي يتكلم هو الله .. يريد أن يعطينا الصورة الواضحة الكاملة في أنهم أشربوا العجل ذاته أي دخل العجل إلى قلوبهم .

لكن كيف يمكن أن يدخل العجل في هذا الحيز الضيق وهو القلب .. الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى الشيوع في كل شيء بكلمة أُشْرِبُوا .. لأنه وصف لشرب الماء والماء يتغلغل في كل الجسم .. والصورة تعرب عن تغلغل المادية في قلوب بني إسرائيل حتى كأن العجل دخل في قلوبهم وتغلغل كما يدخل الماء في الجسم مع أن القلب لا تدخله الماديات .

ويقول الحق جل جلاله : « وأُشربوا في قلوبهم العجلَ بكفرهم » . كأن الكفر هو الذي أسقاهم العجل .. هم كفروا أولا .. وبكفرهم دخل العجل إلى قلوبهم وختم عليها .. وقوله تعالى : « قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » . جم قالوا نؤمن بما أنزل علينا ولا نؤمن بما جاء بعده . قل هل إيمانكم يأمركم بهذا ؟ . وهذا أسلوب تهكم من القرآن الكريم عليهم . مثل قوله تعالى :

﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النمل)

هل الطهر والطهارة مبرر لإخراج آل لوط من القرية ؟ طبعا لا ولكنه أسلوب تهكم واستنكار .. والحق أن إيمانهم لا يأمرهم بهذا بل يأمرهم بالإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم واقرأ قوله تبارك وتعالى

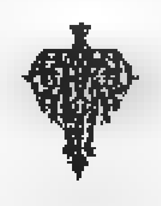
﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ

عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ
آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

(سورة الأعراف)

هذا هو مايأمرهم به إيمانهم .. أن يؤمنوا بالنبي الأمي محمد عليه الصلاة والسلام .. والله تبارك وتعالى يعلم ما يأمرهم به الإيمان لأنه منه جل جلاله . ولذلك عندما يحاولون خداع الله .. يتهكم الله سبحانه وتعالى عليهم ويقول لهم : « بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » .

وقوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » دليل على أنهم ليسوا مؤمنين .. ولكن لازال في قلوبهم الشرك والكفر أو العجل الذي عبدوه .



﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ٩٤

والله سبحانه وتعالى يريد أن يفضح اليهود . ويبين إن إيمانهم غير صحيح وأنهم عدلوا وبدلوا واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا . وهو سبحانه يريدنا أن نعرف أن هؤلاء اليهود لم يفعلوا ذلك عن جهل ولا هم خدعوا بل هم يعلمون أنهم غيروا وبدلوا ويعرفون أنهم جاءوا بكلام ونسبوه إلى الله سبحانه وتعالى زورا وبهتانا ولذلك يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفضحهم أمام الناس ويبين كذبهم بالدليل القاطع .. فيقول : «قل إن كانت لكم الدارُ الآخرة» «قل» موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أي قل لهم يا محمد .. ولا يقال هذا الكلام إلا إذا كان اليهود قد قالوا إن لهم . «الدار الآخرة عند الله خالصة».

الشيء الخالص هو الصافي بلا معكر أو شريك أي الشيء الذي لك بمفردك لا يشاركك فيه أحد ولا ينازعك فيه أحد . فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم: إن كانت الآخرة لهم وحدهم عند الله لا يشاركهم فيها أحد فكان الواجب عليهم أن يتمنوا الموت ليذهبوا إلى نعيم خالد . فمادامت لهم الدار الآخرة وما داموا موقنين من دخول الجنة وحدهم . فما الذي يجعلهم يبقون في الدنيا . ألا يتمنون الموت كما تمنى المسلمون الشهادة ليدخلوا الجنة .. وليست هذه هي الافتراءات الوحيدة من اليهود على الله سبحانه وتعالى .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

من الذي قال ؟ اليهود قالوا عن أنفسهم لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ،

والنصارى قالوا عن أنفسهم لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا .. كل منهم قال عن نفسه إن الجنة خاصة به . ولقد شكل قولهم هذا لنا لغزا في العقائد .. من الذي سيدخل الجنة وحده .. اليهود أم النصارى ؟ نقول : إن الله سبحانه وتعالى أجاب عن هذا السؤال بقوله جل جلاله :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

وهذا أصدق قول قاله اليهود وقاله النصارى بعضهم لبعض . فاليهود ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء .. وكلاهما صادق في مقولته عن الآخر .. في الآية الكريمة التي نحن بصددها .. اليهود قالوا إن لدار الآخرة خالصة لهم . سنصدقهم ونقول لهم لماذا لا يتعجلون ويتمنون الموت .. فالمفروض أنهم يشتاقون للآخرة مادامت خالصة لهم .. ولذلك قال الله تبارك وتعالى : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » . ولكنها أماني كاذبة عند اليهود وعند النصارى .. واقرأ قوله سبحانه :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إذن هم يتوهمون أنهم مهما فعلوا من ذنوب فإن الله لن يعذبهم يوم القيامة .. ولكن عدل الله يأبى ذلك . كيف يعذب بشرا بذنوبهم ثم لا يعذب اليهود بما اقترفوا من ذنوب . بل يدخلهم الجنة في الآخرة . وكيف يجعل الله سبحانه وتعالى الجنة في الآخرة لليهود وحدهم . وهو قد كتب رحمته لأتباع محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين برسالة الإسلام . وأبلغ اليهود والنصارى بذلك في كتبهم .. واقرأ قوله سبحانه وتعالى .

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾

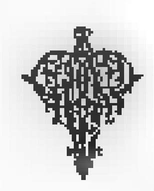
(الآية ١٥٦ ومن الآية ١٥٧ سورة الأعراف)

إذا كانت هذه هي الحقيقة الموجودة في كتبهم .. والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فكيف يدّعي اليهود أن الدار الآخرة خالصة لهم يوم القيامة ؟ ولكن الحق جل جلاله يفضح كذبهم ويؤكد لنا ان ما يقولونه هم أول من يعرف إنه كذب .



﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

إنهم لن يتمنوا الموت أبدا بل يخافوه. والله تبارك وتعالى حين أنزل هذه الآية .. وضع قضية الإيمان كله في يد اليهود .. بحيث يستطيعون إن أرادوا أن يشككوا في هذا الدين .. كيف؟ ألم يكن من الممكن عندما نزلت هذه الآية أن يأتي عدد من اليهود ويقولوا ليتنا نموت .. نحن نتمنى الموت يا محمد.فادع لنا ربك يميتنا .. ألم يكن من الممكن أن يقولوا هذا؟ ولو نفاقا .. ولو رياء ليهدموا هذا الدين .. ولكن حتى هذه لم يقولوها ولم تخطر على بالهم .. أنظر إلى الإعجاز القرآني في قوله سبحانه : «ولن يتمنوه» .

لقد حكم الله سبحانه حكما نهائيا في أمر إختياري لعدو يعادي الإسلام .. وقال إن هذا العدو وهم اليهود لن يتمنوا الموت .. وكان من الممكن أن يعلنوا ذلك التحدي .. ويقولوا بل نحن نتمنى الموت ونطلبه من الله .. ولكن حتى هذه لم تخطر على بالهم ، لأن الله تبارك وتعالى إذا حكم في أمر اختياري فهو يسلب من أعداء الدين تلك الخواطر التي يمكن أن يستخدموها في هدم الدين .. فلا تخطر على بالهم أبدا مثلما تحداهم الله سبحانه من قبل في قوله تعالى :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

ولقد نزلت هذه الآية الكريمة قبل أن يقولوا .. بدليل إستخدام حرف السين في قوله : «سيقولُ» .. ووصفهم الله جل جلاله بالسفهاء .. ومع ذلك فقد قالوا .. ولو أن عقولهم تنبهت لسكتوا ولم يقولوا شيئا .. وكان في ذلك تحدٍ للقرآن

الكريم . كانوا سيقولون لقد قال الله سبحانه وتعالى « سيقولُ السفهاءُ من الناس » . . ولكن أحدا لم يقل شيئا فأين هم هؤلاء السفهاء ولماذا لم يقولوا ؟ وكان هذ يعتبر تحديا للقرآن الكريم فى أمر يملكون فيه حرية الاختيار . ولكن لأن الله هو القائل والله هو الفاعل . . لم يخطر ذلك على بالهم أبدا ، وقالوا بالفعل

فى الآية الكريمة التى نحن بصددها . . تحداهم القرآن أن يتمنوا الموت ولم يتمنوه . . وكان الكلام المنطقى مادامت الدار الآخرة خالصة لهم . والله تحداهم أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين لتمسوه . . ليذهبوا إلى نعيم أبدى ولكن الحق حكم مسبقا ان ذلك لن يحدث منهم . . لماذ ؟ لأنهم كاذبون ويعلمون أنهم كاذبون . . لذلك فهم يهربون من الموت ولا يتمنونه

إنظرو مثلا إلى العشرة المبشرين بالجنة عمار بن ياسر فى الحرب فى حنين . كان ينشد وهو يستشهد الآن ألقى الأحبة محمدا وصحبه . . كان سعيدا لأنه أصيب وكان يعرف وهو يستشهد انه ذاهب إلى الجنة عند محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته هكذا تكون الثقة فى الجزاء والبشرى بالجنة . وعبدالله بن رواحه كان يحارب وهو ينشد ويقول .

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

والإمام على رضى الله عنه يدخل معركة حنين ويرتدى غلالة ليس لها دروع . . لا ترد سهما ولا طعنة رمح حتى أن إبنه الحسن يقول له . يا أبى ليست هذه لباس حرب فيرد على كرم الله وجهه : يا بنى إن أباك لا يبالى أسقط على الموت أم سقط الموت عليه . . وسيدنا حذيفة بن اليمان ينشد وهو يحتضر . حبيب جاء على فاقة لا أربح من ندم . إذن الذين يثقون بآخرتهم يحبون الموت .

وفى غزوة بدر سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . يا رسول الله أليس بينى وبين الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلونى . فيجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم وكان فى يد الصحابى تمرات يمضغها . فيستطيل أن يبقى بعيدا عن الجنه حتى يأكل التمرات فيلقيها من يده ويدخل المعركة ويستشهد

هؤلاء هم الذين يثقون بما عند الله فى الآخرة ولكن اليهود عندما تحداهم

القرآن الكريم بقوله لهم : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .. سكتوا ولم يجيبوا .. ولو تمنوا الموت لانقطع نفس الواحد منهم وهو يبلع ريقه وماتوا جميعا .. قد يقول قائل وهل التمني باللسان ؟ ربما تمنوا بالقلب .. نقول ما هو التمني ؟ نقول إن التمني هو أن تقول لشيء محبوب عندك ليته يحدث. فهو قول .. وحيث انه عمل قلبي فلو أنهم تمنوا بقلوبهم لأطلع الله عليها وأماتهم في الحال .. ولكن مادام الحق تبارك وتعالى قال : « ولن يتمنوه أبدا » .. فهم لن يتمنوه سواء كان باللسان أو بالقلب .. لأن الادعاء منهم بأن لهم الجنة عند الله خالصة أشبه بقولهم الذي يرويه لنا القرآن في قوله سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى : « بما قدمت أيديهم » .. أي ان أعمالهم السيئة تجعلهم يخافون الموت .. أما صاحب الأعمال الصالحة فهو يسعد بالموت .. ولذلك نسمع ان فلانا حين مات كان وجهه أشبه بالبدر لأن عمله صالح .. فساعة الموت يعرف فيها الإنسان يقينا انه ميت .. فالإنسان إذا مرض يأمل في الشفاء ويستبعد الموت .. ولكن ساعة الغرغرة يتأكد الإنسان انه ميت ويستعرض حياته في شريط عاجل .. فإن كان عمله صالحا تنبسط أساريره ويفرح لأنه سينعم في الآخرة نعيما خالدا .. لانه في هذه الساعة والروح تغادر الجسد يعرف الإنسان مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار .. وتتسلمه إما ملائكة الرحمة وإما ملائكة العذاب .. فالذي أطاع الله يستبشر بملائكة الرحمة .. والذي عصى وفعل ما يغضب الله يستعرض شريط أعماله فيجده شريط سوء وهو مقبل على الله .. وليست هناك فرصة للتوبة أو لتغيير أعماله .. عندما يرى مصيره إلى النار تنقبض أساريره وتقبض روحه على هذه الهيئة .. فيقال فلان مات وهو أسود الوجه منقبض الأسارير .

إذن فالذي أساء في دنياه لا يتمنى الموت أبدا .. أما صاحب العمل الصالح فإنه يستبشر بلقاء الله .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن تمنى الموت فقال :

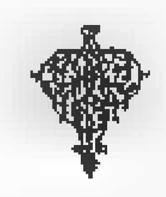
(لا يتمنَّينَّ أحدكم الموتَ ولا يدعو به من قَبلِ أن يأتِيَه إلا أن يكون قد وَثِق بعمله)(١)

نقول إن تمنى الموت المنهى عنه هو تمنى اليأس وتمنى الاحتجاج على المصائب . يعنى يتمنى الموت لأنه لا يستطيع أن يتحمل قدر الله فى مصيبة حدثت له . . أو يتمناه احتجاجا على أقدار الله فى حياته . . هذا هو تمنى الموت المنهى عنه . . أما صاحب العمل الصالح فمستحب له أن يتمنى لقاء الله . . واقرأ قوله تعالى فى آخر سورة يوسف :

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أى لا تتمنوا الموت جزعا مما يصيبكم من قدر الله . . ولكن إصبروا على قدر الله . . وقوله تعالى : « واللهُ عليمٌ بالظالمين » . . لأن الله عليم بظلمهم ومعصيتهم هذا الظلم والمعصية هو الذى يجعلهم يخافون الموت ولا يتمنونه



(١) رواه أحمد فى المسند عن أبى هريرة

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى بعد أن فضح كذبهم .. فى انهم لا يمكن أن يتمنوا الموت لأنهم ظالمون .. وماداموا ظالمين فالموت أمر مخيف بالنسبة لهم . وهم أحرص الناس على الحياة .. حتى إن حرصهم يفوق حرص الذين أشركوا . فالمشرك حريص على الحياة لأنه يعتقد ان الدنيا هى الغاية .. واليهود أشد حرصا على الحياة من المشركين لانهم يخافون الموت لسوء أعمالهم السابقة .. لذلك كلما طالت حياتهم ظنوا انهم يبعدون عن عذاب الآخرة .. الحياة لا تهمهم يواجهون العذاب ولذلك فهم يفرحون بها

إن اليهود لا يبالون أن يعيشوا فى ذلة أو فى مسكنة . أو أى نوع من أنواع الحياة .. المهم انهم يعيشون أى حياة .. ولكن لماذا هم حريصون على الحياة أكثر من المشركين ؟ لأن المشرك لا آخرة له فالدنيا هى كل همه وكل حياته .. لذلك يتمنى أن تطول حياته بأى ثمن وبأى شكل .. لأنه يعتقد ان بعد ذلك لا شىء . ولا يعرف ان بعد ذلك العذاب .. واليهود أحرص من المشركين على حياتهم .

وقوله تعالى : « يودُّ أحدُهم لو يعمَّرُ ألفَ سنة » .. الود هو الحب .. أى انهم يحبون أن يعيشوا ألف سنة أو أكثر .. ولكن هب انه عاش ألف سنة أو حتى أكثر من ذلك .. أيزحزحه هذا عن العذاب ؟ لا .. طول العمر لا يغير النهاية .

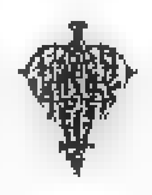
فمادامت النهاية هى الموت.يتساوى من عاش سنوات قليلة ومن عاش ألوف



السن . قوله تعالى : « يعمر » بفتح العين وتشديد الميم يقال عنها إنها مبنية للمجهول دائما . ولا يصح أن يقال يعمر بكسر الميم . فالعمر ليس بيد أحد ولكنه بيد الله . . فالله هو الذي يعطي العمر وهو الذي ينهيه . . وبما أن العمر ليس ملكا لإنسان فهو مبني للمجهول . .

والعمر هو السن الذي يقطعه الإنسان بين ميلاده وموته . ومادة الكلمة مأخوذة من العمار لأن الجسد تعمره الحياة وعندما تنتهي يصبح الجسد أشلاء وخرابا . قوله تعالى : « ألف سنة » لماذا ذكرت الألف ؟ لأنها هي نهاية ما كان العرب يعرفونه من الحساب . ولذلك فإن الرجل الذي أسر في الحرب أخت كسرى فقالت كم تأخذ وتتركني ؟ قال ألف درهم . قالوا له بكم فديتها ؟ قال بألف . قالوا لو طلبت أكثر من ألف لكانوا أعطوك . . قال والله لو عرفت شيئا فوق الألف لقلته . . فالألف كانت نهاية العدد عند العرب . ولذلك كانوا يقولون ألف ألف ولم يقولوا مليونا .

وقوله تعالى : « وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر » . . معناها أنه لو عاش ألف سنة أو أكثر فلن يهرب من العذاب . وقوله تعالى : « والله بصير بما يعملون » . أي يعرف ما يعملونه وسيعذبهم به سواء عاشوا ألف سنة أو أكثر أو أقل .



﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

الله تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا إلى أن اليهود لم يقتلوا الأنبياء ويحرفوا التوراة ويشتروا بآيات الله ثمنا الدنيا فقط .. ولكنهم عادوا الملائكة أيضا .. بل إنهم أضمروا العداوة لأقرب الملائكة إلى الله الذي نزل بوحي القرآن وهو جبريل عليه السلام .. وإنهم قالوا جبريل عدو لنا .

الخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولقد جلس ابن جوريا أحد أحبار اليهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له من الذي ينزل عليك بالوحي ؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام جبريل .. فقال اليهودي لو كان غيره لآمنا بك .. جبريل عدونا لأنه ينزل دائما بالخسف والعذاب .. ولكن ميكائيل ينزل بالرحمة والغيث والخصب . وأيضا هو عدوهم لأنهم اعتقدوا أن بيت المقدس سيخربه رجل اسمه بختنصر، فأرسل اليهود إليه من يقتله .. فلقى اليهودي غلاما صغيرا وسأله الغلام ماذا تريد ؟ قال إني أريد أن أقتل بختنصر لأنه عندنا في التوراة هو الذي سيخرب بيت المقدس .. فقال الغلام إن يكن مقدرا أن يخرب هذا الرجل بيت المقدس فلن تقدر عليه .. لأن المقدر نافذ سواء رضينا أم لم نرض .. وإن لم يكن مقدرا فلماذا تقتله ؟ أي أن الطفل قال له إذا كان الله قد قضى في الكتاب أن بختنصر سيخرب بيت المقدس .. فلا أحد يستطيع أن يمنع قضاء الله .. ولن تقدر عليه فتقتله ويتم تخريب بيت المقدس على يديه .. وإن كان هذا غير صحيح فلماذا تقتل نفسا بغير ذنب .. فعاد اليهودي دون أن يقتل بختنصر . وعندما رجع إلى قومه قالوا له إن جبريل هو الذي تمثل لك في صورة طفل وأقنعك ألا تقتل هذا الرجل .

ويروى أن سيدنا عمر بن الخطاب كان له أرض في أعلى المدينة وكان حين يذهب إليها يمر على مدارس اليهود ويجلس إليهم . وظن اليهود أن مجلس عمر معهم إنما يعبر عن حبه لهم فقالوا له إننا نحبك ونحترمك ونطمع فيك فهم عمر مرادهم فقال والله ما جالستكم حبا فيكم ولكني أحببت أن أزداد تصورا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلم عنه ما في كتابكم فقالوا له ومن يخبر محمدا بأخبارنا وأسرارنا ؟ فقال عمر إنه جبريل ينزل عليه من السماء بأخباركم قالوا هو عدونا فقال عمر كيف منزلته من الله ؟ قالوا إنه يجلس عن يمين الله وميكائيل يجلس عن يسار الله .. فقال عمر مادام الأمر كما قلتم فليس أحدهما عدوّ للآخر لأنهما عند الله في منزلة واحدة فمن كان عدوا لأحدهما فهو عدو لله فلن تشفع لكم عداوتكم لجبريل ومحبتكم لميكائيل لأن منزلتهما عند الله عالية

إن عداوتهم لجبريل عليه السلام تؤكد ماديتهم . فهم يقيسون الأمر على البشر .. إن الذي يجلس على يمين السيد ومن يجلس على يساره يتفاوتان على المنزلة عنده . ولكن هذا في دنيا البشر . ولكن عند الملائكة لا شيء من هذا . الله عنده ما يجعله يعطى لمن يريد المنزلة العالية دون أن ينقص من الآخر .. ثم إن الله سبحانه وتعالى اسمه الحق . وما ينزل به جبريل حق وما ينزل به ميكائيل حق والحق لا يخاصم الحق وقال لهم عمر أنتم أشد كفرا من الحمير .. ثم ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكد الرسول يراه حتى قال له وافقك ربك يا عمر . ونزل قول الله تبارك وتعالى . « قل مَنْ كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » فقال عمر يا رسول الله .. إني بعد ذلك في إيماني لأصلب من الجبل .

إذن فقولهم ميكائيل حبيبنا وجبريل عدونا من الماديات . والله تبارك وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم إنهم يُعَادُون جبريل لأنه نزل على قلبك بإذن الله .. ومادام نزل من عند الله على قلبك .. فلا شأن لهم بهذا . وهو مصدق لما بين يديهم من التوراة . وهو هدى وبشرى للمؤمنين .. فأى عنصر من هذه العناصر تنكرونه على جبريل . إن عداوتكم لجبريل عداوة لله سبحانه وتعالى

﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٩٨ ﴾

وهكذا أعطى الله سبحانه وتعالى الحكم .. فقال إن العداوة للرسل .. مثل العداوة للملائكة .. مثل العداوة لجبريل وميكائيل .. مثل العداوة لله. ولقد جاء الحق سبحانه وتعالى بالملائكة ككل .. ثم ذكر جبريل وميكائيل بالاسم .

إن المسألة ليست مجزأة ولكنها قضية واحدة .. فمن كان عدوا للملائكة وجبريل وميكائيل ورسل الله .. فهو أولا وأخيرا عدو لله .. لأنه لا انفصام بينهم فكلهم دائرون حول الحق .. والحق الواحد لا عدوان فيه .. وإنما العدوان ينشأ من تصادم الأهواء والشهوات وهذا يحدث في أمور الدنيا

والآية الكريمة أثبتت وحدة الحق بين الله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل .. ومن يعادي واحدا من هؤلاء يعاديهم جميعا وهو عدو لله سبحانه .. واليهود أعداء الله لأنهم كفروا به .. وأعداء الرسل لأنهم كذبوهم وقتلوا بعضهم .

وهكذا فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى وحدة الحق في الدين .. مصدره هو الله جل جلاله .. ورسوله من الملائكة هو جبريل .. ورسله من البشر هم الرسل والأنبياء الذين يبعثهم الله .. وميكائيل ينزل بالخير والخصب لأن الإيمان أصل وجود الحياة .. فمن كان عدوا للملائكة والرسل وجبريل وميكائيل فهو كافر .. لأن الآية لم تقل إن العداوة هؤلاء هي مجرد عداوة .. وإنما حكم الله عليهم بأنهم كافرون .. والله سبحانه وتعالى لم يخبر محمدا صلى الله عليه وسلم بهذا الحكم فقط ، وإنما أمره بأن يعلنه حتى يعرفه الناس جميعا ويعرفوا أن اليهود كافرون .

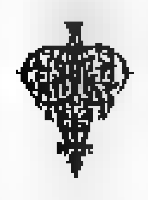
﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

ينتقل الله سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى تأكيد صدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .. وأن الآيات فيها واضحة بحيث إن كل إنسان يعقل ويريد الإيمان يؤمن بها . ولكن الذين يريدون الفسق والفجور . هم هؤلاء الذين لا يؤمنون .. ما معنى الآيات البينات ؟ إن الآية هي الأمر العجيب . وهو عجيب لأنه معجز .. والآيات معجزات للرسول تدل على صدق بلاغه عن الله . وهي كذلك الآيات في القرآن الكريم .. وبينات معناها أنها أمور واضحة لا يختلف عليها ولا تحتاج إلى بيان « وما يكفر بها إلا الفاسقون » . والفسق هو الخروج عن الطاعة وهي مأخوذة من الرطبة البلح قبل أن يصبح رطبا لا تستطيع أن تنزع قشرته ولكن عندما يصبح رطبا تجد أن القشرة تبتعد عن الثمرة فيقال فسقت الرطبة . ولذلك من يخرج عن منهج الله يقال له فاسق .

والمعنى أن الآيات التي أيد بها الله سبحانه وتعالى محمدًا عليه الصلاة والسلام ظاهرة أمام الكفار ليست محتاجة إلى دليل . فرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لم يقرأ كلمة في حياته يأتي بهذا القرآن المعجز لفظا ومعنى .. هذه معجزة ظاهرة لا تحتاج إلى دليل . ورسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا تغريه الدنيا كلها ليترك هذا الدين مهما أعطوه .. دليل على أنه صاحب منهج ورسالة من السماء . ورسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يخبر بقرآن موحى من السماء عن نتيجة حرب ستقع بعد تسع سنوات .. ويخبر الكفار والمنافقين بما في قلوبهم ويفضحهم وينبأ بأحداث قادمة وبقوانين الكون وغير ذلك مما احتواه القرآن المعجز من كل أنواع الإعجاز علميا وفلكيا وكونيا .. كل هذه آيات بينات يتحدى القرآن بها الكفار . كلها آيات واضحة لا يمكن أن

يكفر بها إلا الذي يريد أن يخرج عن منهج الله ، ويفعل ما تهواه نفسه .

إن الإعجاز في الكون وفي القرآن وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم .. كل هذا لا يحتاج إلا لمجرد فكر محايد .. لنعرف ان هذا القرآن هو من عند الله مليء بالمعجزات لغة وعلما .. وإنه سيظل معجزة لكل جيل له عطاء جديد .



﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) ﴾

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى أن الدين الإسلامي ، وكتابه القرآن فيه من الآيات الواضحة ما يجعل الإيمان به لا يحتاج إلا إلى وقفة مع العقل مما يجعل موقف العداء الذي يقفه اليهود من الإسلام منافيا لكل العهود التي أخذت عليهم ، منافيا للإيمان الفطرى ، ومنافيا لأنهم عاهدوا الله ألا يكتموا ما جاء في التوراة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنافيا لعهدهم أن يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنافيا لما طلب منهم موسى أن يؤمنوا بالإسلام عندما يأتي الرسول ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾

(سورة آل عمران)

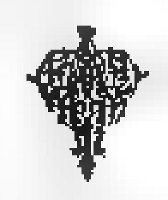
وهكذا نعرف أن موسى عليه السلام الذي أخذ عليه الميثاق قد أبلغه إلى بني إسرائيل ، وأن بني إسرائيل كانوا يعرفون هذا الميثاق جيدا عند بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت عندهم أوصاف دقيقة للرسول عليه الصلاة والسلام ولكنهم نقضوه كما نقضوا كثيرا من المواثيق . منها عهدهم بعدم العمل في السبت ، وكيف تحايلوا على أمر الله بأن صنعوا مصايد للأسماك تدخل فيها ولا تستطيع الخروج وهذا تحايل على أمر الله ، ثم كان ميثاقهم في الإيمان بالله إلها واحدا أحدا ، ثم عبدوا

العجل. وكان قولهم لموسى عليه السلام بعد أن أمرهم الله بدخول واد فيه زرع لأنهم أرادوا أن يأكلوا من نبات الأرض بدلا من المن والسلوى التي كانت تأتيهم من السماء .. قالوا لموسى : « فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون » .. وغير ذلك الكثير من المواثيق بالنسبة للحرب والأسرى والصلاة ، حتى عندما رفع الله تبارك وتعالى جبل الطور فوقهم ودخل في قلوبهم الرعب وظنوا أنه واقع عليهم ، ولم يكن هذا إلا ظنا وليس حقيقة .. لأن الله تبارك وتعالى يقول . « وظنوا أنه واقع بهم » .. وبمجرد ابتعادهم عن جبل الطور نقضوا الميثاق .

ثم نقضوا عهدهم وميثاقهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة وذلك في غزوة الخندق .. وعندما أرادوا أن يفتحوا طريقا للكفار ليضربوا جيوش المؤمنين من الخلف

قوله تعالى « نبذه فريق منهم » قلنا إن هذا يسمى قانون صيانة الاحتمال .. لأن منهم من صان المواثيق .. ومنهم من صدق ما عاهد الله عليه . ومنهم مثلا من كان يريد أن يعتنق الدين الجديد ويؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام .

إذن فليسوا كلهم حتى لا يقال هذا على مطلق اليهود .. لأن فيهم أناسا لم ينقضوا العهد .. ويريد الله تبارك وتعالى أن يفتح الباب أمام أولئك الذين يريدون الإيمان ، حتى لا يقولوا لقد حكم الله علينا حكما مطلقا ونحن نريد أن نؤمن ونحافظ على العهد ، ولكن هؤلاء الذين حافظوا على العهد كانوا قلة .. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : « بل أكثرهم لا يؤمنون » .. أي أن الفريق الناقض للعهد الناقض للإيمان هم الأكثرية من بني إسرائيل .



﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن اليهود الذين نقضوا المواثيق الخاصة بالإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ونقضوها وهم يعلمون. قال الله سبحانه: «ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم». أي أن ما جاء في القرآن مصدق ما جاء في التوراة، لأن القرآن من عند الله والتوراة من عند الله. ولكن التوراة حرفوها وكتموا بعضها وغيروا وبدلوا فيها فأخفوا ما يريدون إخفاءه لذلك جاء القرآن الكريم ليظهر ما أخفوه ويؤكد ما لم يخفوه ولم يتلاعبوا فيه.

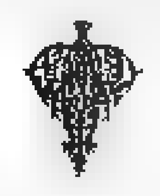
وقوله تعالى: «نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم». قل إن هناك كتابا نبذوه أولا وهو التوراة. ولما جاءهم الكتاب الخاتم وهو القرآن الكريم نبذوه هو الآخر وراء ظهورهم.. ما معنى نبذه؟. المعنى طرحه بعيدا عنه. إذن ما في كتابهم من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم نبذوه بعيدا.. ومن التبشير بمجيء رسول الله عليه الصلاة والسلام نبذوه هو الآخر. لأنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا ويقولون أتى زمن نبي سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم.

وقوله تعالى: «نبذ فريق». يعني نبذ جماعة وبقيت جماعة أخرى لم تنبذ الكتاب. بدليل أن ابن سلام وهو أحد أحبار اليهود صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به. وكعب الأحبار مخيريق أسلم. فلو أن القرآن عمم ولم يقل فريق لقيل إنه غير منصف لهؤلاء الذين آمنوا.

وقوله تعالى: «وراء ظهورهم» النبذ قد يكون أمامك.. وكونه أمامك

فأنت تراه دائما ، وري يغريك بالإقبال عليه ، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم أي جعلوه وراءهم حتى ينسوه تماما ولا يلتفتوا إليه .

وقوله تعالى : « كأنهم لا يعلمون » .. أي يتظاهرون بأنهم لا يعلمون ببشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصافه . وقوله تعالى : « كأنهم » .. دليل على أنهم يعلمون ذلك علم يقين .. لأنهم لو كانوا لا يعلمون .. لقال الحق سبحانه : « نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم » وهم لا يعلمون .. إذن هم يعلمون يقينا ولكنهم تظاهروا بعدم العلم .. ولابد أن نتنبه إلى أن نبذ يمكن أن يأتي مقابلها فتقول نبذ كذا واتبع كذا .. وهم نبذوا كتاب الله ولكن ماذا اتبعوا ؟



﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ
وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى
الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا
نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ
مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ
مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ
(١٠٢) ﴾

يخبرنا الحق تبارك وتعالى أن فريقا من اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلو الشياطين .. لأن النبذ يقابله الإتباع . واتبعوا يعني اقتدوا وجعلوا طريقهم في الاهتداء هو ما تتلوه الشياطين عن ملك سليمان .. وكان السياق يقتضي أن يقال ما تلته الشياطين على ملك سليمان ولكن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن هذا الاتباع مستمر حتى الآن كأنهم لم يحددوا المسألة بزمن معين .

إنه حتى هذه اللحظة هناك من اليهود من يتبع ما تلته الشياطين عن ملك سليمان ، ونظرا لأن المعاصرين من اليهود قد رضوا وأخذوا من فعل أسلافهم الذين اتبعوا الشياطين فكأنهم فعلوا .

الحق سبحانه يقول . « واتبعوا ما تتلو الشياطين » ولكن الشياطين تلت وانتهت .. واستحضار اليهود لما كانت تتلوه الشياطين حتى الآن دليل على أنهم يؤمنون به ويصدقونه .. الشياطين هم العصاة من الجن . والجن فيهم العاصون والطائعون والمؤمنون .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) ﴾

(سورة الجن)

وقوله سبحانه عن الجن :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الجن)

إذن الجن فيهم المؤمن والكافر .. والمؤمنون من الجن فيهم الطائع والعاصي .. والشياطين هم مردة الجن المتمردون على منهج الله . وكل متمرد على منهج الله نسميه شيطانا سواء كان من الجن أو من الإنس .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

إذن فالشياطين هم المتمردون على منهج الله . قوله تعالى : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان » .. يعني ما كانت تتلو الشياطين أيام ملك سليمان ..

ولكن ما هي قصة ملك سليمان والشياطين ؟ . الشياطين كانوا قبل مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الله قد مكنهم من قدرة الاستماع إلى أوامر السماء وهي نازلة إلى الأرض وكانوا يستمعون للأوامر تلقى من الملائكة وينقلونها إلى أئمة الكفر ويزيدون عليها بعض الأكاذيب والخرافات .. فبعضها يكون على حق والأكثر على باطل .. ولذلك قال الله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الأنعام)

وكان الشياطين قبل نزول القرآن يسترقون السمع ، ولكن عند بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إمتنع ذلك كله ، حتى لا يضع الشياطين خرافاتهم في منهج

رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فى القرآن ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ ﴾

(سورة الجن)

أى أن الشياطين كانت لها مقاعد فى السماء تقعد فيها لتستمع الى ما ينزل من السماء إلى الأرض ليتم تنفيذه .. ولكن عند نزول القرآن أرسل الله سبحانه وتعالى الشهب - وهى النجوم المحترقة - عندما تحاول الشياطين الاستماع إلى ما ينزل من السماء ينزل عليهم شهاب يحرقهم . ولذلك فإن عامة الناس حين يرون شهابا يحترق فى السماء بسرعة يقولون : سهم الله فى عدو الدين .. كأن المسألة فى أذهان الناس وجعلتهم يقولون : سهم الله فى عدو الدين الذى هو الشيطان .

واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ ﴾

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ ﴾

(سورة الجن)

أى أن الأمر اختلط على الشياطين لأنهم لم يعودوا يستطيعون استراق السمع وبذلك لم يعرفوا هل الذى ينزل من السماء خير أو شر ؟ . أنظر إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى : « وأنا لمسنا السماء » .. كأنهم صعدوا حتى بلغوا السماء لدرجة أنها أصبحت قريبة لهم حتى كادوا يلمسونها .. فالله تبارك وتعالى فى هذه الحالة - وهى اتباع اليهود لما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر والتعاويذ والأشياء التى تضر ولا تفيد - أراد أن يبرىء سليمان من هذا كله فقال جل جلاله « وما كفر سليمان » ..

وكان المنطق يقتضى أن يخص الله سبحانه وتعالى حكاية الشياطين قبل أن يبرىء سليمان من الكفر الذى أرادوا أن ينشروه . ولكن الله أراد أن ينفى تهمة الكفر عن

سليمان ونشرها لكل من اتبع الشياطين فقال جل جلاله . « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » .

إذن الشياطين هم الذين نشروا الكفر . وكيف كفر الشياطين وبماذا أغروا أتباعهم بالكفر ؟ يقول الله سبحانه وتعالى . « ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق » .

ما قصة كل هذا ؟ اليهود نبذوا عهد الله واتبعوا ما تتلو الشياطين أيام سليمان ، وأرادوا أن ينسبوا كل شيء في عهد سليمان على أنه سحر وعمل شياطين ، وهكذا أراد اليهود أن يوهموا الناس أن منهج سليمان هو من السحر ومن الشياطين والحق سبحانه وتعالى أراد أن يبرىء سليمان من هذه الكذبة .. سليمان عليه السلام حين جاءته النبوة طلب من الله سبحانه وتعالى أن يعطيه ملكا لا يعطيه لأحد من بعده .. واقرأ قوله تعالى

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة ص)

وهكذا أعطى سليمان الملك على الإنس والجن ومخلوقات الله كالريح والطير وغير ذلك .. حين أخذ سليمان الملك كان الشياطين يملأون الأرض كفرًا بالسحر وكتبه فأخذ سليمان كل كتب السحر وقيل أنه دفنها تحت عرشه .. وحين مات سليمان وعثرت الشياطين على مخبأ كتب السحر أخرجتها وأذاعتها بين الناس .. وقال أولياؤهم من أحبار اليهود إن هذه الكتب من السحر هي التي كان سليمان يسيطر بها على الإنس والجن ، وأنها كانت منهجه ، وأشاعوها بين الناس .. فأراد الله سبحانه

وتعالى أن يبرىء سليمان من هذه التهمة ومن أنه حكم بالسحر ونشر الكفر .. قال جل جلاله « وما كفر سليمانُ ولكن الشيطين كفروا يعلمون الناسَ السحرَ »

ما هو السحر؟ الكلمة مشتقة من سحر وهو آخر ساعات الليل وأول طلوع النهار . حيث يختلط الظلام بالضوء ويصبح كل شيء غير واضح . هكذا السحر شيء يخيل اليك أنه واقع وهو ليس بواقع .. إنه قائم على شيئين . سحر لعين لترى ما ليس واقعا على أنه حقيقة . ولكنه لا يغير طبيعة الأشياء . ولذلك قال الله تبارك وتعالى في سحرة فرعون .

﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأعراف)

إذن فالساحر يسيطر على عين المسحور ليرى ما ليس واقعا وما ليس حقيقة .. وتصبح عين المسحور خاضعة لإرادة السحر .. ولذلك فالسحر تخيل وليس حقيقة واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة طه)

إذن ما دام الله سبحانه وتعالى قال « يخيل إليه » . فهي لا تسعى إذن فالسحر تخيل . وما الدليل على أن السحر تخيل؟ .. الدليل هو المواجهة التي حدثت بين موسى وسحرة فرعون ذلك أن الساحر يسحر أعين الناس ولكن عينه لا يسحرها أحد . حينما جاء السحرة وموسى . اقرأ قوله سبحانه .

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة طه)

عندما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم خُيِّل للموجودين إنها حيات تسعى .. ولكن هل خيل للسحرة إنها حيات ؟ طبعا لا .. لأن أحدا لم يسحر أعين السحرة .. ولذلك ظل ما ألقوه فى أعينهم حبالا وعصيًا .. حين ألقى موسى عصاه واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة طه)

هنا تظهر حقيقة السحر .. لماذا سجد السحرة ؟ لأن حبالهم وعصيهم ظلت كما هى حبالا وعصيا .. ذلك ان أحدا لم يسحر أعينهم .. ولكن عندما ألقى موسى عصاه تحولت إلى حية حقيقية .. فعرفوا ان هذا ليس سحرا ولكنها معجزة من الله سبحانه وتعالى .. لماذا ؟ لأن السحر لا يغير طبيعة الأشياء ، وهم تأكدوا أن عصا موسى قد تحولت إلى حية .. ولكن حبالهم وعصيهم ظلت كما هى وإن كان قد خيل إلى الناس أنها تحولت إلى حيات .

إذن فالسحر تخييل والساحر يرى الشيء على حقيقته لذلك فإنه لا يخاف .. بينما المسحورون الذين هم الناس يتخيلون ان الشيء قد تغيرت طبيعته .. ولذلك سجد السحرة لأنهم عرفوا أن معجزة موسى ليست سحرا .. ولكنها شيء فوق طاقة البشر .

السحر إذن تخيل والشياطين لهم قدرة التشكل بأى صورة من الصور ، ونحن لا نستطيع أن ندرك الشيطان على صورته الحقيقية ، ولكنه إذا تشكل نستطيع أن نراه فى صورة مادية .. فإذا تشكل فى صورة إنسان رأيناه إنسانا ، وإذا تشكل فى صورة حيوان رأيناه حيوانا ، وفى هذه الحالة تحكمه الصورة .. فإذا تشكل كإنسان وأطلقت عليه الرصاص مات ، وإذا تشكل فى صورة حيوان ودهته بسيارتك مات ، ذلك لأن الصورة تحكمه بقانونها .. وهذا هو السر فى إنه لا يبقى فى تشكله إلا لمحة ثم يختفى فى ثوان .. لماذا ؟ لانه يخشى من يراه فى هذه الصورة أن يقتله خصوصا ان قانون التشكل يحكمه .. ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تشكل له الشيطان فى صورة إنسان قال :

(ولقد هممت أن أربطه في سارية المسجد ليتفرج عليه صبيان المدينة ولكني تذكرت قول أخي سليمان : « رب هب لي مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعدي » . فتركته) الحديث لم يُخَرَّج .

ومن رحمة الله بنا انه اذا تشكل الشيطان فإن الصورة تحكمه .. وإلا لكانوا فزعونا وجعلوا حياتنا جحيماً .. فالله سبحانه وتعالى جعل الكون يقوم على التوازن حتى لا يطغى أحد على أحد .. بمعنى أننا لو كنا في قرية وكلنا لا نملك سلاحاً وجد التوازن .. فإذا ملك أحدنا سلاحاً وادعى انه يفعل ذلك ليدافع عن أهل القرية ، ثم بعد ذلك استعمل السلاح ليسيطر على أهل القرية ويفرض عليهم إتاوات وغير ذلك ، يكون التوازن قد اختل وحدث مالا يقبله الله .

السحر يؤدي لاختلال التوازن في الكون .. لأن الساحر يستعين بقوة أعلى في عنصرها من الإنسان وهو الشيطان وهو مخلوق من نار خفيف الحركة قادر على التشكل وغير ذلك .. الإنسان عندما يطلب ويتعلم كيف يسخر الجن .. يدعي أنه يفعل ذلك لينشر الخير في الكون ، ولكنها ليست حقيقة .. لأن هذا يغريه على الطغيان .. والذي يخل بأمن العالم هو عدم التكافؤ بين الناس .. إنسان يستطيع أن يطغى فإذا لم يقف أمامه المجتمع كله إختل التوازن في المجتمع .. والله سبحانه وتعالى يريد تكافؤ الفرص ليحفظ أمن وسلامة الكون .. ولذلك يقول لنا لا تطغوا وتستعينوا بالشياطين في الطغيان حتى لا تفسدوا أمن الكون .

ولكن الله جل جلاله شاءت حكمته أن يضع في الكون ما يجعل كل مخلوق لا يغتر بذاتيته .. ولا يحسب انه هو الذي حقق لنفسه العلو في الأرض .. وقد كانت معصية إبليس في انه رفض أن يسجد لآدم .. إنه قال :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

إذن فقد أخذ عنصر الخلق ليدخل الكبر إلى نفسه فيعصى ، ولذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلم البشر من القوانين ، ما يجعل هذا الأعلى في العنصر ـ وهو الشيطان ـ يخضع للأدنى وهو الإنسان ، حتى يعرف كل خلق الله أنه إن ميزهم الله في عنصر من العناصر ، فإن هذا ليس بإرادتهم ولا ميزة لهم .. ولكنه بمشيئة الله

سبحانه وتعالى .. فأرسل الملكين ببابل هاروت وماروت ليعلما الناس السحر. الذى يخضع الأعلى عنصراً للأدنى.

واقرأ قوله سبحانه: «وما كفر سليمانُ ولكنّ الشياطين كفروا يعلمون الناسَ السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر».. فالله تبارك وتعالى أرسل الملكين هاروت وماروت ليعلما الناس السحر. ولقد رويت عن هذين الملكين قصص كثيرة. ولكن مادام الله سبحانه وتعالى قد أرسل ملكين ليعلما الناس السحر.. فمعنى ذلك أن السحر علم يستعين به الإنسان بالشياطين. وقيل إن الملائكة قالوا عن خلق آدم كما يروى لنا القرآن الكريم:

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

حينئذ طلب الحق جل جلاله من الملائكة، أن يختاروا ملكين ليهبطا إلى الأرض لينظروا ماذا يفعلان؟ فاختاروا هاروت وماروت.. وعندما نزلا إلى الأرض فتنتهما امرأة فارتكبا الكبائر. هذه القصة برغم وجودها في بعض كتب التفسير ليست صحيحة. لأن الملائكة بحكم خلقهم لا يعصون الله. ولأنه من تمام الإيمان أن يؤدي المخلوق كل ما كُلِّف به من الله جل جلاله.. وهذان الملكان كلفا بأن يعلما الناس السحر.. وأن يحذرا بأن السحر فتنة تؤدى إلى الكفر وقد فعلا ذلك والفتنة هي الامتحان.. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: «وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله».. إذن فهذان الملكان حذرا الناس من أن ما يعلمانه من السحر فتنة تؤدى إلى الكفر. وإنها لا تنفع إلا في الشر وفي التفريق بين الزوج وزوجه.. وأن ضررها لا يقع إلا بإذن الله. فليس هناك أي قوى في هذا الكون خارجة عن مشيئة الله سبحانه وتعالى..

ثم يأتي قول الحق تبارك وتعالى: «ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا

يعلمون » . ان الله سبحانه وتعالى يخبرنا أن تعلم السحر يضر ولا ينفع فهو لا يجلب نفعا أبدا حتى لمن يشتغل به فتجد من يشتغل بالسحر يعتمد فى رزقه عن غيره من البشر فهم أفضل منه . وهو يظل طوال اليوم يبحث عن إنسان يقربه بأنه يستطيع أن يعمل له اشياء ليأخذ منه مالا ، وتجد شكله غير طبيعى وحياته غير مستقرة وأولاده مسحورين وكل من يعمل بالسحر يموت فقيرا لا يملك شيئا وتصيبه الأمراض المستعصية ، ويصبح عبرة فى آخر حياته .

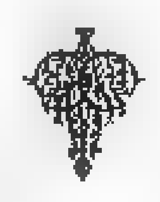
إذن فالسحر لا يأتى إلا بالضرر ثم بالفقر ثم بلعنة الله فى آخر حياة الساحر .. والذى يشتغل بالسحر يموت كافرا ولا يكون له فى الآخرة إلا النار .. ولذلك قد اشتروا أنفسهم بأسوأ الأشياء لو كانوا يعلمون ذلك لأنهم لم يأخذوا شيئا إلا الضر ولم يعملوا شيئا إلا التفريق بين الناس .. وهم لا يستطيعون أن يضروا أحدا إلا بإذن الله .

والله سبحانه وتعالى إذا كانت حكمته قد اقتضت أن يكون السحر من فتن الدنيا وابتلاءاتها فإنه سبحانه قد حكم على كل من يعمل بالسحر بأنه كافر ولذلك لا يجب أن يتعلم الإنسان السحر أو يقرأ عنه . لأنه وقت تعلمه قد يقول سأفعل الخير ثم يستخدمه فى الشر . كما أن الشياطين التى يستعين بها الساحر غالبا ما تنقلب عليه لتذيقه وبال أمره وتكون شرا عليه وعلى أولاده .. واقرأ قوله سبحانه وتعالى

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ ﴾

(سورة الجن)

أى أن الذى يستعين بالجن ينقلب عليه ويذيقه ألوانا من العذاب



﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

يفتح الله جل جلاله أمام عباده أبواب التوبة والرحمة . فقد بين لهم أن السحر كفر ، وأن من يقوم به يبعث كافرا يوم القيامة ويخلد فى النار . . وقال لهم سبحانه وتعالى لو أنهم امتنعوا عن تعلم السحر ليمتازوا به على من سواهم إمتيازا فى الضرر والإيذاء . . لكان ذلك خيرا لهم عند الله تبارك وتعالى لأن الملكين اللذين نزلا لتعليم السحر قال الله سبحانه عنهما : « وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر » .

إذن فممارسة السحر كفر . فلو انهم آمنوا بهذه القضية وبأنهم يدخلون فى الكفر ، واتقوا الله لكان ذلك ثوابا لهم عند الله وخيرًا فى الدنيا والآخرة . . ولكن ما هى المثوبة ؟ هى الثواب على العمل الصالح . . يقابلها العقوبة وهى العقاب على العمل السيىء . . وهى مشتقة من ثاب أى رجع . . ولذلك يسمى المبلغ عن الإمام فى الصلاة المثوب . لأن الإمام يقول الله أكبر فيرددها المبلغ عن الإمام بصوت عال حتى يسمعها المصلون الذين لا يصلهم صوت الإمام . . وهذا إسمه التثويب . . أى إعادة ما يقوله الإمام لتزداد فرصة الذين لم يسمعوا ما قاله الإمام . . وكما قلت فهى مأخوذة من ثاب أى رجع . . لأن الإنسان عندما يعمل صالحا يرجع عليه عمله الصالح بالخير . . فلا تعتقد أن العمل الصالح يخرج منك ولا يعود . ولكنه لابد أن يعود عليك بالخير .

وإذا نظرنا إلى دقة التعبير القرآنى : « لمثوبة من عند الله خير » . نجد أن كلمة مثوبة مأخوذة من نفس معنى كلمة ثوب وجمعه ثياب . . وكان الناس قديما يأخذون أصواف الأغنام ليصنعوا منها ملابسهم . فيأتى الرجل بما عنده من غنم ويجز صوفها

ثم يعطيه لآخر ليغزله وينسجه ثوبا ويعيده إلى صاحبه فكأن ما أرسله من الصوف رد إليه كثوب ولذلك سميت مثوبة لأن الخير يعود إليك ستنعم به نعيما عاليا وكذلك الثواب عن العمل الصالح يرتد إليك بالنعيم العالي

إذن فكلمة ثوب جاء منها الثواب ، والله سبحانه وتعالى علمنا أن الثوب لستر العورة . والعمل الصالح يستر الأمراض المعيبة والمعيبة في الإنسان وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى

﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

فكأن هناك لباسين أحدهما لستر العورة ولثاني لستر الإنسان من العذاب . ولباس التقوى خير من لباس ستر العورة . . قوله تعالى . « لمثوبة من عند الله خير » . انظر إلى المثوبة التي تأتي من عند الله . . إذا كان الثوب يأتيك من عند من صنعه جميلا مزركشا وله ألوان مبهجة إذا كان هذا ما يصنعه لك بشر فما بالك بالثواب الذي يأتيك من عند الله . إنه قمة الجمال . فالله هو القادر على أن يرد الثواب بقدراته سبحانه فيكون الرد عاليا وعاليا جدا ، بحيث يضاعف الثواب مرات ومرات

على أننا لابد أن ننتبه إلى قول الله تعالى « ولو أنهم آمنوا واتقوا » قلنا معنى اتقوا أنهم جعلوا بينهم وبين صفات الجلال في الله وقاية ولذلك قلنا إن بعض الناس يتساءل . كيف يقول الله تبارك وتعالى : « إتقوا الله » . ويقول جل جلاله « إتقوا النار » نقول إن معنى اتقوا الله أي اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال في الله وقاية . « واتقوا النار » أي اجعلوا بينكم وبين عذاب النار وقاية . . لأن النار من متعلقات صفات الجلال . لذلك فإن قوله : « اتقوا الله » . . تساوي : « اتقوا النار » . . والحق تبارك وتعالى حينما قال : « اتقوا » أطلقها عامة . والحذف هنا المراد به التعميم . . والله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أن السحرة لو آمنوا بأن تعلم السحر فتنة تؤدي إلى الكفر . واتقوا الله وخافوا عذابه في الآخرة لكان ذلك خيراً لهم . لذلك قال جل جلاله : « لمثوبة من عند الله خير » .

وساعة تسمع كلمة خير تأتي إلى الذهن كلمة شر . لأن الخير يقابله الشر . . ولكن في بعض الأحيان كلمة خير لا يقابلها شر . ولكن يقابلها خير أقل وكلمة

خير هي الوحيدة في اللغة العربية التي يساوي الإسم فيها أفعل التفضيل .. فأنت تقول هذا فاضل وهذا مفضول عليه .. كلمة خير إسم تفضيل فيقال ذلك خير من كذا .. أي واحد منهما يعطي أكثر من الآخر .. وكلمة خير إذا لم يأت مقابلها أي خير من كذا يكون مقابلها شر . فإذا قلت فلان خير من فلان .. فكلاهما إشترك في الخير ولكن بدرجة مختلفة .. والخير هو ما يأتي لك بالنفع .. ولكن مقياس النفع يختلف باختلاف الناس . واحد ينظر إلى النفع العاجل وآخر ينظر إلى النفع الآجل . وفي ظاهر الأمر كل منهما أراد خيراً .

وإذا أردنا أن نقرب ذلك إلى الأذهان فلنقل إن هناك أخوين أحدهما يستيقظ مبكراً ليذهب إلى مدرسته والثاني ينام حتى الضحى ، ويخرج من البيت ليجلس على المقهى .. الأول يحب الخير لنفسه والثاني يحب الخير لنفسه والخلاف في تقييم الخير . الكسول يحب الخير العاجل فيعطي نفسه حظها من النوم والترفيه وعدم العمل .. والمجتهد يحب الخير الآجل لنفسه لذلك يتعب ويشقى سنوات الدراسة حتى يرتاح بعد ذلك ويحقق مستقبلا مرموقا .

الفلاح الذي يزرع ويذهب إلى حقله في الصباح الباكر ويروي ويبذر الحب ويشقى ، يأتيه في آخر العام محصول وافر وخير كثير .. والفلاح الذي يجلس على المقهى طول النهار أعطى نفسه خير الراحة ، ولكن ساعة الحصاد يحصد الندم .

إذن كل الناس يحبون الخير ولكن نظرتهم ومقاييسهم تختلف .. فمنهم من يريد متعة اليوم ، ومنهم من يعمل لأجل متعة الغد .. والله تبارك وتعالى حين يأمرنا بالخير .. قد يكون الخير متعبا للجسد والنفس . ولكن النهاية متاع أبدي في جنة الخلد . إذن فالخير الحقيقي هو ما جاء به الشرع .. لماذا ؟ لأن الخير هو ما ليس بعده بعد . فأنت تولد ثم تكبر ثم تتخرج في الجامعة .. ثم تصبح في أعلى المناصب ثم تموت ثم تبعث ثم تدخل الجنة .. وبعدها لا شيء إلا الخلود في النعيم .

قوله تعالى : « لو كانوا يعلمون » .. الله ينفي عنهم العلم بينما في الآية السابقة أثبت لهم العلم في قوله تعالى : « ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق » .. نقول إن العلم الذي لا يخضع حركة الإنسان له فكأنه لم يعلم شيئا ..

لأن هذا العلم سيكون حجة على صاحبه يوم القيامة وليته لم يعلمه .. واقرأ قول الشاعر :

زرقوا وما رزقوا سماح يد
فكأنهم رزقوا وما رزقوا
خلقوا وما خلقوا لمكرمة
فكأنهم خلقوا وما خلقوا

فكأن العلم لم يثبت لك لأنك لم تنتفع به .. والله سبحانه وتعالى يقول

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

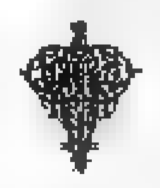
(من الآية ٦ سورة الروم)

(يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ..) وهكذا نفى الله عن الناس العلم الحقيقى .. وأثبت لهم العلم الدنيوى الظاهر .. وقوله جل جلاله

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ⑤ ﴾

(سورة الجمعة)

أى إنهم حملوا التوراة علما ولكنهم لم يحملوها منهجا وعملا . وهؤلاء السحرة علموا أنّ مَنْ يمارس السحر يكفر .. ومع ذلك لم يعملوا بما علموا .



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾

هذا نداء للمؤمنين .. لأن الآية الكريمة تبدأ : « يا أيها الذين آمنوا » .. وعندما ينادى الحق المؤمنين بقوله . « يا أيها الذين آمنوا » .. نعرف أن الإيمان هنا هو سبب التكليف .. فالله لا يكلف كافرا أو غير مؤمن .. ولا يأمر بتكليف إلا لمن آمن . فمادام العبد قد آمن فقد أصبحت مسئولية حركته فى الحياة عند ربه .. ولذلك يوحى إليه بمنهج الحياة . أما الكافر فلا يكلفه الله بشىء .

إذن قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » .. أمر لمن آمن بالله ورضى به إلها ومشرعا .. قوله : « يا أيها الذين آمنوا » .. نداء للمؤمنين وقوله : « لا تقولوا راعنا » .. نهى .. وكأن راعنا كانت مقولة عندهم يريد الله أن ينهاهم عنها .. والإيمان يلزمهم أن يستمعوا إلى نهى الله .

ما معنى راعنا ؟ نحن نقول فى لغتنا الدارجة (راعينا) .. يعنى احفظنا وراقبنا وخذ بيدنا وكلها مأخوذة من مادة الرعاية والراعى . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته).(١)

وأصل المادة مأخوذة من راعى الغنم .. لأن راعى الغنم لابد أن يتجه بها إلى الأماكن التى فيها العشب والماء .. أى إلى أماكن الرعى .. وأن يكون حارسا عليها حتى لا تشرد واحدة أو تضل فتفتك بها ذئاب الصحارى .. وأن يوفر لها الراحة حتى

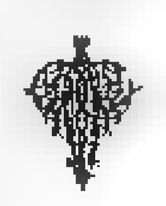
(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن ابن عمر .

لا تتعب وتتعق فى الطريق .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كنتُ أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة).(١)

ولكن لماذا استبدل الحق سبحانه وتعالى كلمة راعنا بكلمة انظرنا ؟ إن عند اليهود فى العبرانية والسريانية كلمة راعنا ومعناها الرعونة . ولذلك كانوا إذا سمعوا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة راعنا .. اتخذوها وسيلة للسباب بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون لا يدرون شيئا . لذلك أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يتركوا هذه الكلمة .. حتى لا يجد اليهود وسيلة لستر سبهم ، وأمرهم بأن يقولوا انظرنا .

ثم قال الحق سبحانه وتعالى : « واسمعوا » .. والله هنا يشير إلى الفرق بين اليهود والمؤمنين . فاليهود قالوا سمعنا وعصينا ، ولكن الله يقول للمؤمنين اسمعوا سماع طاعة وسماع تنفيذ

سعد بن معاذ سمع واحدا من اليهود يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم راعنا . وسعد كان من أحبار اليهود ويعرف لغتهم . فلما سمع ما قاله فهم مراده . فذهب إلى اليهودى وقال له لو سمعتها منك مرة أخرى لضربت عنقك .. وقال اليهودى أو لستم تقولونها لنبيكم ؟ أهى حرام علينا وحلال لكم ؟ فنزلت الآية الكريمة تقول :«لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا » . ولو تأملنا كلمة (راعنا) وكلمة (انظرنا) لوجدنا المعنى واحدا .. ولكن (انظرنا) تؤدى المعنى وليس لها نظير فى لغة اليهود التى تعنى الإساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله تعالى : « وللكافرين عذاب أليم » . أى من يقولون راعنا إساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لهم عذاب أليم .



(١) رواه البخارى

﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾

ثم كشف الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين العداوة التى يكنها لهم أهل الكتاب من اليهود والمشركين الذين كفروا لأنهم رفضوا الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام .. فيلفتهم إلى أن اليهود والمشركين يكرهون الخير للمؤمنين .. فتشككوا فى كل أمر يأتى منهم ، واعلموا أنهم لا يريدون لكم خيرا .. قوله تعالى : « ما يود » .. أى ما يحب ، والود معناه ميل القلب إلى من يحبه .. والود يختلف عن المعروف .. أنت تصنع معروفا فيمن تحب ومن لا تحب .. ولكنك لا تود إلا من تحب .. لذلك قال الله تبارك وتعالى :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

ثم بعد ذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى ليقول عن الوالدين :

﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

يقول بعض المستشرقين إن هناك تناقضا بين الآيتين . كيف أن الله سبحانه وتعالى يقول : لا توادوا من يحارب الله ورسوله . ثم يأتى ويقول إذا حاول أبواك أن

يعملاك تشرك بالله فصاحبهما في الدنيا معروفا .. وهما الوالدان اللذان يحاولان دفع ابنهما إلى الكفر إنما يحاربان الله ورسوله .. كيف يتم هذا التناقض ؟.

نقول إنكم لم تفهموا المعنى .. إن الإنسان يصنع المعروف فيمن يحب ومن لا يحب كما قلنا .. فقد تجد إنسانا في ضيق وتعطيه مبلغا من المال كمعروف .. دون أن يكون بينك وبينه أي صلة .. أما الود فلا يكون إلا مع من تحب .

إذن : « ما يود » معناها حب القلب .. أي أن قلوب اليهود والنصارى والمشركين لا تحب لكم الخير .. إنهم يكرهون أن ينزل عليكم خير من ربكم .. بل هم في الحقيقة لا يريدون أن ينزل عليكم من ربكم أي شيء مما يسمى خيرا .. والخير هو وحي الله ومنهجه ونبوة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : « من خير » .. أي من أي شيء مما يسمى خير .. فأنت حين تذهب إلى إنسان وتطلب منه مالا يقول لك ما عندي مال .. أي لا أملك مالا ، ولكنه قد يملك جنيها أو جنيهين .. ولا يعتبر هذا مالا يمكن أن يوفي بما تريده .. وتذهب إلى رجل آخر لنفس الغرض تقول أريد مالا .. يقول لك ما عندي من مال .. أي ليس عندي ولا قرش واحد ، ما عندي أي مبلغ مما يقال له مال حتى ولو كان عدة قروش . والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن أهل الكتاب والكفار والمشركين .. مشتركون في كراهيتهم للمؤمنين .. حتى إنهم لا يريدون أن ينزل عليكم أي شيء من ربكم مما يطلق عليه خير

وقوله تعالى : « من ربكم » .. تدل على المصدر الذي يأتي منه الخير من الله .. فكأنهم لا يحبون أن ينزل على المؤمنين خير من الله .. وهو المنهج والرسالة . ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « والله يختص برحمته من يشاء » .. أي أن الخير لا يخضع لرغبة الكافرين وأمانيهم .. والله ينزل الخير لمن يشاء .. والله قد قسم بين الناس أمور حياتهم الدنيوية .. فكيف يطلب الكافرون أن يخضع الله منهجه لإرادتهم ؟ واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ

﴿ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

اعترض الكفار على نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا لو نزل على رجل من القريتين عظيم .. فيرد عليهم الله سبحانه وتعالى .. أنتم لا تقسمون رحمة الله ولكن الله يقسم بينكم حياتكم فى الدنيا .

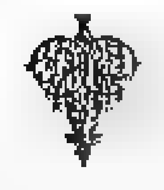
الحق تبارك وتعالى فى الآية التى نحن بصددها يقول . « والله يختص برحمته من يشاء » .. ساعة تقرأ كلمة يختص تفهم أن شيئا خصص لشيء دون غيره .. يعنى أننى خصصت فلانا بهذا الشيء : « والله يختص برحمته من يشاء » .. أى يعطى الرحمة لمن يشاء لكى يؤدى مهمته أو ينزل رحمته على من يشاء ، فليس لهؤلاء الكفار أن يتحكموا فى مشيئة الله ، وحسدهم وكراهيتهم للمؤمنين لا يعطيهم حق التحكم فى رحمة الله . ولذلك أراد الله أن يرد عليهم بأن هذا الدين سينتشر ويزداد المؤمنون به .. وسيمنح الله به أقطارا ودولا .. وسيدخل الناس فيه أفواجا وسيظهره على الدين كله .

ولو تأملنا أسباب انتصار أى عدو على من يعاديه لوجدنا إنها إما أسباب ظاهرة واضحة وإما مكر وخداع .. بحيث يظهر العدو لعدوه أنه يحبه ويكيد له فى الخفاء حتى يتمكن منه فيقتله . ولقد هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سرا . لماذا ؟ لأن الله أراد أن يقول لقريش لن تقدروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو بالمكر والخداع والتبييت .. هم بيتوا الفتية ليقتلوه . وجاءوا من كل قبيلة بفتى ليضيع دمه بين القبائل .. وخرج صلى الله عليه وسلم ووضع التراب على رءوس الفتية .. الله أرادهم أن يعرفوا انهم لن يقدروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكر والتبييت والخداع ولا بالعداء الظاهر .

قوله تعالى : « والله ذو الفضل العظيم » .. الفضل هو الأمر الزائد عن حاجتك الضرورية .. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . (من كان معه فضل ظهر فَلْيَعُدْ به على من لا ظهر له ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له)[1] .

(1) رواه مسلم فى اللقطة وأبو داود فى الزكاة وأحمد فى المسند .

وفضل مال أي مال زائد على حاجته. هذا عن الفضل بالنسبة للبشر. أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى فإن كل ما في كون الله الآن وفي الآخرة هو فضل لله لأنه زائد عن حاجته؛ فالله غير محتاج لخلقه ولا لكل نعمه التي سبقت والتي ستأتي. ولذلك قال: «والله ذو الفضل العظيم» أي ذو الفضل المائل الزائد على حاجته؛ لأنه ربما يكون عندي فضل، ولكني أبقيه لأنني سأحتاج إليه مستقبلا. والفضل الحقيقي هو الذي من عند الله. لذلك فإن الله سبحانه وتعالى هو ذو الفضل العظيم؛ لأنه غير محتاج إلى كل خلقه أو كونه، لأن الله سبحانه كان قبل أن يوجد شيء، وسيكون بعد ألا يوجد شيء. وهذا مايسمى بالفضل العظيم



﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) ﴾

ولكن ما هو السبب؟ السبب أن أهل الكتاب والمشركين لا يريدون خيرا للمؤمنين في دينهم ، لأنهم أحسوا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم في زمنه خير مما جاء به موسى وبقي إلى زمن محمد صلى الله عليه وسلم . وخير مما جاء به عيسى في زمن محمد صلى الله عليه وسلم . وليس معنى ذلك أننا نحاول أن ننتقص ما جاء به الرسل السابقون . لكننا نؤكد أن الرسل السابقين جاءوا في أزمنتهم بخير ما وُجد في هذه الأزمان .. فكل رسالة من الرسالات التي سبقت رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. جاءت لقوم محددين ولزمن محدد .. ثم جاء نبي جديد بنسخ ما في الرسالة السابقة لقوم محددين وزمن محدد . واقرأ قول عيسى عليه السلام حينما بعث إلى بني إسرائيل كما يروي لنا القرآن الكريم :

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) ﴾

(سورة آل عمران)

فكان عيسى عليه السلام جاء لينسخ بعض أحكام التوراة . ويحل لبني إسرائيل بعض ما حرمه الله عليهم .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرسول الخاتم أعطى الخير كله ؛ لأن دينه للعالمين وباق إلى يوم القيامة

وهكذا نرى أن المؤمنين بالرسل كلما جاء رسول جديد كانوا ينتقلون من خير إلى خير . وفيما تتفق فيه الرسالات كانوا ينتقلون إلى مثل هذا الخير .. وذلك فيما

يتعلق بالعقائد ، وإلى زيادة في الخير فيما يتعلق بمنهج الحياة هناك في رسالات السماء كلها أمور مشتركة لا فرق فيها بين رسول ورسول وهي قضية الإيمان بإله واحد أحد له الكمال المطلق . سبحانه في ذاته ، وسبحانه في صفاته ، وسبحانه في أفعاله . كل ذلك قدر الرسالات فيه مشترك . ولكن الحياة في تطورها توجد فيها قضايا لم تكن موجودة ولا مواجهة في العصر الذي سبق . فإذا قلنا إن رسالة بقيمتها العقائدية تبقى . فإنها لا تستطيع أن تواجه قضايا الحياة التي ستأتي بها العصور التي بعدها فيما عدا الإسلام . لأنه جاء دينا خاتما لا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة . على أننا نجد من يقول وماذا عن قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

نقول إن هذا يأتي في شيء واحد يتعلق بالأمر الثابت في رسالات السماء وهو قضية قمة العقيدة والإيمان بالله الواحد أما فيما يتعلق بقضايا الحياة فإننا نجد أحكاما في هذه الحركة حسب ما طرأ عليها من توسعات . ولذلك عندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم أعطى أشياء يعالج بها قضايا لم تكن موجودة في عهد الرسل السابقين

يقول الله تبارك وتعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها » .. كلمة ننسخ معناها نزيل آية كانت موجودة ونأتي بآية أخرى بدلا منها كما يقال نسخت الشمس الظل .. أي أن الظل كان موجودا وجاءت الشمس فمحته وحلت هي مكانه ويقال نسخت الكتاب أي نقلته إلى صور متعددة ، ونسخ الشيب الشباب أي أصبح الشاب شيخا .

وقوله تعالى « ننسها » لها معان متعددة قد يعني ذلك أن الله يجعل الإنسان يسهو ويغفل عنها .. فتضيع من ذاكرته أو يتركها إلى غيرها . والعلماء إختلفوا في

هذه المسألة .. وكان هذا الاختلاف لأن أحدهم يلحظ ملحظا وغيره يلحظ ملحظا آخر وكلاهما يريد الحق ..

نأتي للنسخ في القرآن الكريم .. قوم قالوا لا نسخ في القرآن أبدا .. لماذا ؟ لأن النسخ بداء على الله .. ما معنى البداء ؟ هو أن تأتي بحكم ثم يأتي التطبيق فيثبت قصور الحكم عن مواجهة القضية فيعدل الحكم .. وهذا محال بالنسبة لله سبحانه وتعالى .. نقول لهم طبعا هذا المعنى مرفوض ومحال أن يطلق على الله تبارك وتعالى .. ولكننا نقول إن النسخ ليس بداء ، وإنما هو إزالة الحكم والمجيء بحكم آخر .. ونقول لهم ساعة حكم الله الحكم أولا فهو سبحانه يعلم ان هذا الحكم له وقت محدود ينتهي فيه ثم يحل مكانه حكم جديد .. ولكن الظرف والمصلحة يقتضيان أن يحدث ذلك بالتدريج .. وليس معنى ذلك أن الله سبحانه قد حكم بشيء ثم جاء واقع آخر أثبت أن الحكم قاصر فعدل الله عن الحكم . إن هذا غير صحيح .

لماذا . لأنه ساعة حكم الله أولا كان يعلم أن الحكم له زمن أو يطبق لفترة .. ثم بعد ذلك ينسخ أو يبدل بحكم آخر إذن فالمشرع الذي وضع هذا الحكم وضعه على أساس انه سينتهي وسيحل محله حكم جديد ..

وليس هذا كواقع البشر .. فأحكام البشر وقوانينهم تعدل لأن واقع التطبيق يثبت قصور الحكم عن مواجهة قضايا الواقع . لأنه ساعة وضع الناس الحكم علموا أشياء وخفيت عنهم أشياء .. فجاء الواقع ليظهر ما خفي وأصبح الحكم لابد أن ينسخ أو يعدل .. ولكن الأمر مع الله سبحانه وتعالى ليس كذلك . أمر الله جعل الحكم موقوتا ساعة جاء الحكم الأول .

مثلا حين وجه الله المسلمين إلى بيت المقدس .. أكانت القضية عند الله أن القبلة ستبقى إلى بيت المقدس طالما وجد الإسلام وإلى يوم القيامة ؟ ثم بدا له سبحانه وتعالى أن يوجه المسلمين إلى الكعبة ؟ لا . لم تكن هذه هي الصورة . ولكن كان في شرع الله أن يتوجه المسلمون أولا إلى بيت المقدس فترة ثم بعد ذلك يتوجهون إلى الكعبة إلى يوم القيامة .

إذن فالواقع لم يضطر المشرع إلى أن يعدل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ..

وإنما كان في علمه وفي شرعه أنه سيغير القبلة بعد فترة إلى الكعبة .. ولعل لذلك هدفا إيمانيا في أن العلة في الأمور هي أنها من الله . فالاتجاه إلى بيت المقدس أو الاتجاه إلى الكعبة لا يكلف المؤمنين جهدا إيمانيا إضافيا ولا يضع عليهم تكاليف جديدة فالجهد نفسه الذي أبذله للاتجاه إلى الشرق أبذله للاتجاه إلى الغرب ولكن الاختبار الإيماني أن يكون علة الأمر أنه صادر من الله فإذا قال الله اتجه إلى بيت المقدس إتجهت وإن قال اتجه إلى الكعبة اتجهنا ولا قدسية لشيء في ذاته .. ولكن القدسية لأمر الله فيه

والله تبارك وتعالى حين أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم لم يسجدوا لذات آدم ولكنهم سجدوا لأمر الله بالسجود لآدم . والله سبحانه وتعالى اختار الكعبة المشرفة بيتا ومسجدا له في الأرض واتخذت الكعبة مقامها العالي عند المسلمين ليس لأنها بقعة في مكان ما جاءها إبراهيم والأنبياء وحج إليها الناس ، ولكن عظمتها جاءت من أنها هي بيت الله باختيار الله لها وكل مساجد الأرض هي بيوت الله باختيار خلق الله ولكن المسجد الوحيد الذي هو بيت لله باختيار الله هو الكعبة ولذلك كان لابد لكل المساجد التي هي باختيار خلق الله . أن تتجه إلى المسجد الذي هو باختيار الله .. ولكن العلة الإيمانية الكبرى هي أن نؤمن أن صدور الأمر من الله هو الحيثية لاتباع هذا الأمر دون أن نبحث عن أسبابه الدنيوية

فإذا قال الله سبحانه وتعالى الصلاة خمس مرات في اليوم . فدون أن نبحث عن السبب أو نقول لماذا خمسة ؟ فلننقص منها .. دون أن نفعل ذلك نصلي خمس مرات في اليوم ولسبب أن الله قال ، وهكذا الزكاة ، وهكذا الصوم وهكذا الحج كلها تتم طاعة لله . وهكذا تغيير القبلة تم اختباراً للطاعة الإيمانية لله .. فالله موجود في كل مكان . فلا يأتي أحد ليقول لماذا الكعبة ؟ وهل الله ليس موجوداً إلا في الكعبة ؟ نقول لا إنه موجود في كل مكان ولكنه أمرنا أن نتجه إلى الكعبة ونحن لا نتجه إليها لأننا نعتقد أن الله تبارك وتعالى موجود في هذا المكان فقط ولكن طاعة لأمر الله الذي أمرنا أن تكون قبلتنا إلى الكعبة

ولعل تغيير القبلة يعطينا فلسفة نسخ الآيات لماذا ؟ لأنه لم توجد أية ظروف أو تمهد وقائع ، أو تظهر أشياء كانت صعبة تجعل الاتجاه إلى بيت المقدس صعبا أو محوطا بالمشاكل أو غير ذلك ، ولكن تغيير القبلة جاء هنا لأن الله سبحانه وتعالى شاء أن يتوجه المسلمون إلى بيت المقدس فترة ثم يتوجهوا إلى الكعبة إلى يوم القيامة .

إذن فكل آية نسخت كان فى علم الله سبحانه وتعالى أنها ستطبق لفترة معينة ثم بعد ذلك ستعدل . وكان كل من الحكم الذى سينسخ ، والوقت الذى سيستغرقه ، والحكم الذى سيأتى بعده معلوما عند الله تبارك وتعالى ومقررا منذ الأزل وقبل بداية الكون . . وأيضا فإن الله أراد أن يلفتنا بالتوجه إلى بيت المقدس أولا . لأن الاسلام دين يشمل كل الأديان ، وأن بيت المقدس سيصبح من مقدسات الإسلام وأنه لا يمكن لأحد أن يدعى ان المسلمين لن يكون لهم شأن فى بيت المقدس ، لذلك أسرى الله سبحانه وتعالى برسوله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس . . ليثبت ان لبيت المقدس قداسة فى الإسلام وانه من المقدسات عند الله . . ومن هنا كان التوجه إلى بيت المقدس كقبلة أولى ، ثم نسخ الله القبلة إلى الكعبة . . فالحق جل جلاله يقول : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » . . أى أن النسخ يكون إما أن يأتى الله سبحانه وتعالى بخير من هذه الآية أو يأتى بمثلها . وهل الآية المنسوخة كان هناك خير منها ولم ينزله الله ؟ نقول لا . المعنى ان الآية المنسوخة كانت خيراً فى زمانها . . والحكم الثانى كان زيادة فى الخير بعد فترة من الزمن . كلاهما خير فى زمنه وفى أحكامه . . والله تبارك وتعالى أنزل الآية الكريمة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولكن من يستطيع أن يتقى الله حق تقاته . . ذلك صعب على المسلمين . . ولذلك عندما نزلت الآية قالوا ليس منا من يستطيع أن يتقى الله حق تقاته . . فنزلت الآية الكريمة :

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة التغابن)

الذى يتقى الله حق تقاته خير ، أم الذى يتقى الله ما استطاع ؟ طبعا حق تقاته خير من قدر الاستطاعة . . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : « نأت بخير منها » . .

تقول إنك لم تفهم عن الله .. « اتقو الله حق تقاته » في الآية الأولى أو « فاتقوا الله ما استطعتم » في الآية الثانية .. أي الحالتين أحسن ؟ نقول إن العبرة بالنتيجة .. عندما تريد أن تقيم شيئا لابد أن تبحث عن نتيجته أولا

ولنقرب المعنى للأذهان سنضرب مثلا ولله المثل الأعلى .. نفرض أن هناك تاجرا يبيع السلع بربح خمسين في المائة ثم جاء تاجر آخر يبيع نفس السلع بربح خمسة عشر في المائة .. ماذا يحدث ؟ سيقبل الناس طبعا على ذلك الذى يبيع السلع بربح خمسة عشر في المائة ويشترون منه كل ما يريدون ، والتاجر الذى يبيع السلع بربح خمسين في المائة يحقق ربحا أكبر . ولكن الذى يبيع بربح خمسة عشر في المائة يحقق ربحا أقل ولكن بزيادة الكمية المبيعة .. يكون الربح في النهاية أكبر .

والذى يطبق الآية الكريمة : « اتقوا الله حق تقاته » يحقق خيرا أكبر في عمله . ولكنه لا يستطيع أن يتقى الله حق تقاته إلا في أعمال محدودة جدا .

إذن الخير هنا أكبر ولكن العمل الذى تنطبق عليه الآية محدود .

أما قوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » فإنه قد حدد التقوى بقدر الاستطاعة .. ولذلك تكون الأعمال المقبولة كثيرة وإن كان الأجر عليها أقل .

عندما نأتى إلى النتيجة العامة أعمال أجرها أعلى ولكنها قليلة ومحدودة جدا . وأعمال أجرها أقل ولكنها كثيرة .. أيها فيه الخير ؟ طبعا الأعمال الكثيرة ذات الأجر الأقل في مجموعها تفوق الأعمال القليلة ذات الأجر المرتفع .

إذن فقد نسخت هذه الآية بما هو خير منها . رغم أن الظاهر لا يبدو كذلك ، لأن اتقاء الله حق تقاته خير من اتقاء الله قدر الاستطاعة .. ولكن في المحصلة العامة الخير في الآية التى نصت على الاستطاعة .

نأتى بعد ذلك إلى قوله تعالى : « أو مِثْلِهَا » هنا توقف بعض العلماء : قد يكون مفهوما أن ينسخ الله آية بخير منها ، ولكن ما هى الحكمة في أن ينسخها بمثلها ؟ إذا كانت الآية التى نسخت مثل الآية التى جاءت .. فلماذا تم النسخ ؟

يقول إننا إذا ضربنا مثلا لذلك فهو مثل تغيير القبلة . . ان الله تبارك وتعالى حين أمر المسلمين بالتوجه إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس نسخ آية بمثلها . . لأن التوجه إلى الكعبة لا يكلف المؤمن أية مشقة أو زيادة في التكليف . . فالإنسان يتوجه ناحية اليمين أو إلى اليسار أو إلى الأمام أو إلى الخلف وهو نفس الجهد . . والله سبحانه وتعالى كما قلت موجود . . وهنا تبرز الطاعة الإيمانية التي تحدثنا عنها وأن هناك أفعالا نقوم بها لأن الله قال . . وهذه تأتي في العبادات لأن العبادة هي طاعة عابد لأمر معبود . والله تبارك وتعالى يريد أن تثبت العبودية له عن حب واختيار . . فإن قال اعملوا كذا عملنا . . وإن قال لا تعملوا لا نفعل . . ولعلة في هذا أننا نريد اختياراً أن نجعل مراداتنا في الكون خاضعة لمرادات الله سبحانه وتعالى . . إذن مثلها لم تأت بلا حكمة بل جاءت لحكمة عالية .

والحق سبحانه وتعالى يقول . « أو ننسها » ما معنى ننسها ؟ قال بعض العلماء إن النسخ والنسيان شيء واحد . ولكن ساعة قال الله الحكم الأول كان في إرادته ومشيئته وعلمه أن يأتي حكم آخر بعد مدة . . ساعة جاء الحكم الأول ترك الحكم الثاني في مشيئته قدرا من الزمن حتى يأتي موعد نزوله .

إذن فساعة يأتي الحكم الأول . . يكون الحكم مرجأ ولكنه في علم الله . ينتظر انقضاء وقت الحكم الأول : « ما ننسخ من آية » هي الآية المنسوخة أو التي سيتم عدم العمل بها : « أو ننسها » . . أي لا يبلغها الله للرسول والمؤمنين عن طريق الوحي مع انها موجودة في علمه سبحانه . . ويجب أن ننتبه إلى أن النسخ لا يحدث في شيئين :

الأول: أمور العقائد فلا تنسخ آية آية أخرى في أمر العقيدة . . فالعقائد ثابتة لا تتغير منذ عهد آدم حتى يوم القيامة . . فالله سبحانه واحد أحد لا تغيير ولا تبديل ، والغيب قائم ، والآخرة قادمة والملائكة يقومون بمهامهم . . وكل ما يتعلق بأمور العقيدة لا ينسخ أبدا . .

والثاني: الإخبار من الله عندما يعطينا الله تبارك وتعالى آية فيها خبر لا ينسخها بآية جديدة . . لأن الإخبار هو الإبلاغ بشيء واقع . . والحق سبحانه وتعالى إخباره لنا بما حدث لا ينسخ لأنه بلاغ صدق من الله . . فلا تروى لنا حادثة الفيل ثم تنسخ

بعد ذلك وتروى بتفاصيل أخرى لأنها أبلغت كما وقعت .. إذن لا نسخ في العقائد والإخبار عن الله . ولكن النسخ يكون في التكليف .. مثل قول الحق تبارك وتعالى

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) ﴾

(سورة الأنفال)

كان المقياس ساعة نزول هذه الآية أن الواحد من المؤمنين يقابل عشرة من الكفار ويغلبهم . ولكن كانت هذه عملية شاقة على المؤمنين وبذلك نسخها الله ليعطينا على قدر طاقتنا .. فنزلت الآية الكريمة :

﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴾

(سورة الأنفال)

والحق سبحانه وتعالى علم أن المؤمنين فيهم ضعف . لذلك لن يستطيع الواحد منهم أن يقاتل عشرة ويغلبهم . فنقلها إلى خير يسير يقدر عليه المؤمنون بحيث يغلب المؤمن الواحد اثنين من الكفار وهذا حكم لا يدخل في العقيدة ولا في الإخبار .. وفي أول نزول القرآن كانت المرأة إذا زنت وشهد عليها أربعة يمسكونها في البيت لا تخرج منه حتى تموت .. واقرأ قوله تعالى .

﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) ﴾

(سورة النساء)

وبعد أن شاع الإسلام وامتلأت النفوس بالإيمان .. نزل تشريع جديد هو الرجم أو الجلد .. ساعة نزل الحكم الأول بحبسهن كان الحكم الثاني في علم الله .. وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : « أو يجعل الله لهن سبيلا » .. وقوله سبحانه :

﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وقوله تعالى حتى يأتي الله بأمره . كأن هناك حكما أو أمرا في علم الله سيأتي ليعدل الحكم الموجود . إذن الله حين أبلغنا بالحكم الأول أعطانا فكرة .. أن هذا الحكم ليس نهائيا وأن حكما جديدا سينزل .. بعد أن تتدرب النفوس على مراد الله من الحكم الأول .. ومن عظمة الله أن مشيئته اقتضت في الميراث أن يعطي الوالدين اللذين بلغا أرذل العمر فقال جل جلاله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

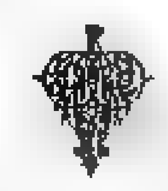
وهكذا جعلها في أول الأمر وصية ولم تكن ميراثا .. لماذا ؟ لأن الإنسان إن مات فهو الحلقة الموصولة بأبيه .. أما أبناؤه فحلقة أخرى . ولما استقرت الأحكام في النفوس وأقبلت على تنفيذ ما أمر به الله .. جعل سبحانه المسألة فرضا .. فيستوفى الحكم . ويقول جل جلاله .

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ

﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) ﴾

(سورة النساء)

وهكذ بعد أن كان نصيب الوالدين فى تركة الإبن وصية . إن شاء أوصى بها وإن شاء لم يوص أصبحت فرضا .. وقوله تعالى : « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » .. أى كل شيء يدخل فى إرادة الله وقدرته سبحانه . إذا قلنا إذا جاء الله بحكم لعصر فهذا هو قمة الخير . لأنه إذا عُدل الحكم بعد أن أدى مهمته فى عصره ، فإن الحكم الجديد الذى يأتى هو قمة الخير أيضا . لأن الله على كل شيء قدير ، يواجه كل عصر بقمة الخير للموجودين فيه .. ولذلك فمن عظمة الله انه لم يأت بالحكم خبرا من عنده ولكنه أشرك فيه المخاطب .. فلم يقل سبحانه « إن الله على كل شيء قدير » .. ولكنه قال : « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » .. لأنه واثق أن كل من يسمع سيقول نعم . وهذا ما يعرف بالاستفهام الإنكارى أو التقريرى .



﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١٠٧)

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا أن هناك آيات نسخت فى القرآن .. أراد أن يوضح لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة فى كونه يفعل ما يشاء .. ولذلك بدأ الآية الكريمة : « ألم تعلم » .. وهذا التعبير يسمى الاستفهام الاستنكارى أو التقريرى .. لأن السامع لا يجد إلا جوابا واحدا بأنه يقر ما قاله الله تبارك وتعالى . ويقول نعم يا رب أنت الحق وقولك الحق

قوله تعالى : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » .. الملك يقتضى مالكا ويقتضى مملوكا .. ويقتضى قدرة على استمرار هذا الملك وعدم زواله .. فكان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه يقدر ويملك المقدرة .. والإنسان ليست له قدرة التملك ولا المقدرة على استبقاء ما يملكه .. والإنسان لا يملك الفعل فى الكون .. إن أراد مثلا أن يبنى عمارة قد لا يجد الأرض .. فإن وجد الأرض قد لا يجد العامل الذى يبنى .. فإن وجده قد لا يجد مواد البناء .. فإن وجد هذا كله قد تأتى الحكومة أو الدولة وتمنع البناء على هذه الأرض .. أو أن تكون الأرض ملكا لإنسان آخر فتقام القضايا ولا يتم البناء .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » .. أى أن كل شىء فى الوجود هو ملك لله وهو يتصرف بقدرته فيما يملك . ولذلك عندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . كان اليهود يملكون المال ولهم معرفة ببعض العلم الدنيوى لذلك سادوا المدينة .. وبدأوا يمكرون برسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين .. والله تبارك وتعالى طمأن رسوله بأن طلاقة القدرة فى الكون هى لله وحده .. وأنه إذا كان لهم ملك فإنه لا يدوم لأن الله ينزع الملك عن

يشاء ويعطيه لمن يشاء . ولذلك حينما يأتي يوم القيمة ويُهلك الله الأرض ومن عليها . يقول سبحانه :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

ويرد جل جلاله بشهادة الذات للذات فيقول :

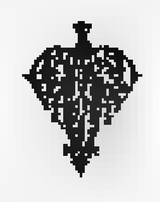
﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

ومادام الله هو المالك وحده .. فإنه يستطيع أن ينزع من اليهود وغيرهم ومن الدنيا كلها ما يملكونه . ويحدثنا العلماء أن العسس وهم الجنود الذين يسيرون ليلا لتفقد أحوال الناس وجدوا شخصا يسير ليلا فلما تقدموا منه جرى فجروا وراءه إلى أن وصل إلى مكان خرب ليستتر فيه . تقدم العسس وأمسكوا به وإذا بهم يجدون جثة قتيل في المكان .. فقالوا له أنت القاتل لأنك جريت حين رأيتنا ولأنك موجود الآن في المكان الذي فيه جثة القتيل فأخذوه ليحاكموه فقال لهم أمهلوني لأصلي ركعتين لله .. فأمهلوه فصلى ثم رفع يديه إلى السماء وقال اللهم إنك تعلم أنه لا شاهد على براءتي إلا أنت .. وأنت أمرتنا ألا نكتم الشهادة فأسألك ذلك في نفسك .. فبينما هم كذلك إذ أقبل رجل فقال .. أنا قاتل هذا القتيل وأنا أقر بجريمتي . فتعجب الناس وقالوا لماذا تقر بجريمتك ولم يرك أحد ولم يتهمك أحد .. فقال لهم والله ما أقررت إنما جاء هاتف فأجرى لساني بما قلت .. فلما أقر القاتل بما فعل وقام ولي المقتول وهو أبوه فقال . اللهم إني أشهدك إني قد أعفيت قاتل ابني من ديته وقصاصه .

انظر إلى علاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى القاتل أراد أن يختفي ولكن أنظر إلى دقة السؤال من السائل أو المتهم البريء وقد صلى ركعتين لله لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا أنه إذا حزبنا أمر فمنا إلى الصلاة فليس أمامنا إلا هذا الباب .. وبعد أن صلى سأل الله أنت أمرتنا ألا نكتم الشهادة ولا يشهد ببراءتي أحد إلا أنت فأسألك ذلك في نفسك وبعد ذلك كان ما كان .

وهذه القصة تدلنا على أننا في قبضة الله . أردنا أو لم نرد . بأسباب أو بغير أسباب . لماذا؟ . لأن الله له ملك السموات والأرض وهو على كل شيء قدير . وقوله تعالى : « وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » . الولي هو من يواليك ويحبك . والنصير هو الذي عنده القدرة على أن ينصرك وقد يكون النصير غير الولي . . الحق تبارك وتعالى يقول أنا لكم وليٌّ ونصير أي محب وأنصركم على من يعاديكم



﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

ثم ينقل الحق جل جلاله المسلمين بعد أن بين لهم أنه وليهم ونصيرهم .. ينقلهم الى سلوك أهل الكتاب من اليهود مع رسلهم حتى يتعلموا مثل هذا السلوك فيقول جل جلاله « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل » الحق يقول للمؤمنين أم تريدون أن تسألوا رسول الله كما سأل اليهود موسى . ولم يشأ الحق أن يشبه المسلمين باليهود فقال . « كما سُئِل موسى من قبل » . وكان من الممكن أن يقول أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل اليهود موسى .. ولكن الله لم يرد أن يشبه اليهود بالمؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم .. وهذا تكريم من الله للمؤمنين بأن ينزههم أن يتشبهوا باليهود .. وقد سأل اليهود موسى عليه السلام وقالوا كما يروى لنا القرآن الكريم

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة النساء)

وقد سأل أهل الكتاب والكفار رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يروى لنا القرآن الكريم .

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾
أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ
عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

الله تبارك وتعالى يهيب بالمؤمنين أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .. كي سأله أهل الكتاب والكفار ويقول لهم ان اليهود قد سألوا موسى أكبر من ذلك .. فبعد ان رأوا المعجزات وشق الله البحر لهم .. وعبروا البحر وهم يشاهدون المعجزة فلم تكن خافية عنهم . بل كانت ظاهرة لهم واضحة .. دالة دلالة حاسمة على وجود الله سبحانه وتعالى وعلى عظيم قدراته .. ورغم هذا فإن اليهود قالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة .. أى لم تكفهم هذه المعجزات وكأنما كانوا بماديتهم يريدون أن يروا فى حياتهم الدنيوية من لا تدركه الأبصار .. وبمجرد أن عبروا البحر أرادوا أن يجعل لهم موسى صنما يعبدونه وعبدوا العجل رغم كل الآيات التى شاهدوها .

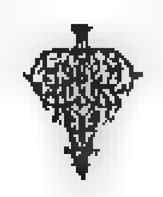
وقوله تعالى : « ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » .. قلنا ان الباء فى قوله تعالى : « بالإيمان » تدخل دائما على المتروك . كأن تقول اشتريت هذا بكذا درهم . يعنى تركت الدراهم وأخذت البضاعة .. ومعناها أن الكفر مأخوذ والإيمان متروك .. فقد أخذ اليهود الكفر وتركوا الإيمان حين قالوا لموسى : « أرنا الله جهرة » .. وقوله سبحانه : « فقد ضل سواء السبيل » .

ما هو الضلال ؟ .. هو أن تسلك سبيلا لا يؤدى بك إلى غايتك .. « وسواء السبيل » .. السواء هو الوسط .. و« سواء السبيل » .. هو وسط الطريق .. والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى فى وسط الجحيم . . أى أنه يكون بعيدا عن الحافتين بعدًا متساويًا وسواء الطريق هو وسطه . . والسبيل أو الطريق كان قبل استخدام التكنولوجيا الحديثة تكون أطرافه وعرة من جنس الأرض قبل أن تمهد . . أى لا تصلح للسير . ولذلك فإن السير فى وسط الطريق يبعدك عن المتاعب والصعوبات ويريد الله من المؤمنين به أن يسيروا فى الطريق الممهد أو فى وسط الطريق لأنه أكثر أمانا لهم . . فهم فيه لن يضلوا يمينا ولا يسارا بل يسيروا على منهج الله والإيمان . . وطريق الإيمان دائما ممهد لا يقودهم إلى الكفر



﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) ﴾

هذه الآية الكريمة تتناول أحداثا وقعت بعد غزوة أحد .. وفى غزوة أحد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم .. من الرماة ألا يغادروا مواقعهم عند سفح الجبل سواء إنتصر المسلمون أو انهزموا .. فلما بدأت بوادر النصر طمع الرماة فى الغنائم .. فخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فهزمهم الله .. ولكن الكفار لم يحققوا نصرا لأن النصر هو أن تحتل أرضا وتبقى .

هؤلاء الكفار بعد المعركة نطلقوا عائدين إلى مكة. حتى ان المسلمين عندما خرجو للقائهم فى اليوم التالى لم يجدوا أحدًا . يهود المدينة استغلوا هذا الحدث .. وعندما التقوا بحذيفة بن اليمان وطارق وغيرهما .. قالوا لهم إن كنتم مؤمنين حقا لماذا إنهزمتم فارجعوا إلى ديننا واتركوا دين محمد .. فقال لهم حذيفة مذا يقول دينكم فى نقض العهد ؟ .. يقصد ما تقوله التوراة فى نقض اليهود وعهودهم مع الله ومع موسى .. ثم قال انا لن انقض عهدى مع محمد ما حييت .. أما عمار فقال .. لقد آمنت بالله ربا وآمنت بمحمد رسولا وآمنت بالكتاب إماما وآمنت بالكعبة قبلة وآمنت بالمؤمنين إخوة وسأظل على هذا ما حييت

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قاله حذيفة وطارق بن ياسر فسر بذلك ولكن اليهود كانوا يستغلون ما حدث فى أحد ليهزوا العقيدة الإيمانية فى قلوب المسلمين كى استغلوا تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليهزو الإيمان فى القلوب وقالوا إذا كانت القبلة تجاه بيت المقدس باطلة فلماذا اتجهتم اليها ، وإذ كانت صحيحة فلماذا تركتموها ، فنزل قول الله تعالى : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم » .

انظر إلى دقة التعبير القرآني في قوله تعالى : « من أهل الكتاب » . . فكأن بعضهم فقط هم الذين كانوا يحاولون رد المؤمنين عن دينهم . . ولكن كانت هناك قلة تفكر في الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . . ولو أن الله جل جلاله حكم على كل أهل الكتاب سد الطريق أمام هذه القلة أن يؤمنوا . . أي أن أهل الكتاب من اليهود يحبون أن يردوكم عن دينكم وهؤلاء هم الكثرة . . لأن الله تعالى قال : « ود كثير من أهل الكتاب » .

وقوله تعالى : « من بعد إيمانكم كفارا » . كفارا بماذا ؟ . بما آمنتم به أو بما يطلبه منكم دينكم . . وهم لا يفعلون ذلك عن مبدأ أو عقيدة أو لصالحكم ولكن : « حسدا من عند أنفسهم » . فدينهم يأمرهم بعكس ذلك . يأمرهم أن يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ولذلك فهم لا يفعلون ماتأمرهم به التوراة حينما يرفضون الإيمان بالإسلام . . والذي يدعوهم إلى أن يحاولوا ردكم عن دينكم هو الحسد والحسد هو تمني زوال النعمة عمن تكره . . وقوله تعالى : « حسدا من عند أنفسهم » . أي هذه المسألة من ذواتهم لأنهم يحسدون المسلمين على نعمة الإيمان . . ويتمنون زوال هذه النعمة . . التي جعلت من المسلمين إخوانا متحابين متكاتفين مترابطين . . بينما هم شيع وأحزاب . . وهناك حسد يكون من منطق الدين وهذا مباح . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

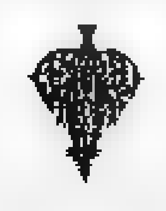
« لا حسد إلا في اثنين رجل آتاه الله مالا فسُلِّط على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس »[1]

فكأن الحسد حرام في غير هاتين الحالتين . . فكأن هؤلاء اليهود يحسدون المسلمين على دينهم . وهذا الحسد من عند أنفسهم لا تقره التوراة ولا كتبهم . . وقوله سبحانه : « من بعد ما تبين لهم أنه الحق » . . أي بعد ما تأكدوا من التوراة من شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه النبي الخاتم .

وقوله تعالى . « فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره » . . ما هو العفو وما هو الصفح ؟ . يقال عفت الريح الأثر أي مسحته وأزالته . . فالإنسان حين

(١) رواه البخاري في العلم ومسلم في قصر الصلاة وابن ماجة في الزكاة وأحمد في مسنده .

يمشي على الرمال تترك قدمه أثرا فتأتي الريح وتعفو الأثر أي تزيله .. ولذلك فإن العفو أن تمحو من نفسك أثر أي إساءة وكأنه لم يحدث شيء .. والصفح يعني طي صفحات هذا الموضوع لا تحمله في بالك ولا تجعله يشغلك .. وقوله تعالى : « حتى يأتي الله بأمره » .. أن هذا الوضع بالنسبة لليهود وما يفعلونه في المؤمنين لن يستمر لأن الله سبحانه قد أعد لهم أمرا ولكن هذا الأمر لم يأت وقته ولا أوانه .. وعندما يأتي سيتغير كل شيء .. لذلك يقول الله للمؤمنين لن تظلوا هكذا .. بل يوم تأخذونهم فيه بجرائمهم ولن يكون هذا اليوم بعيدا .. عندما يقول الله سبحانه : « حتى يأتي الله بأمره » .. فلابد أن أمر الله آت .. لأن هذه قضية تتعلق بجوهر الإيمان كله .. فلا يقال أبدا حتى يأتي الله بأمره ثم لا يجيء هذا الأمر .. بل أمر الله بلاشك نافذ وسينصركم عليهم .. وقوله تعالى : « إن الله على كل شيء قدير » .. أن الله له طلاقة القدرة في ملكه .. ولذلك إذا قال أنه سيأتي بأمر فسيتحقق هذا الأمر حتما وسيتم .. ولا توجد قدرة في هذا الكون إلا قدرة الله سبحانه .. ولا قوة إلا قوته جل جلاله .. ولا فعل إلا ما أراد .



﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٠ ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن أقصى أماني أهل الكتاب أن يردونا كفارا ، وأن هذا حسدا منهم أراد الله تبارك وتعالى أن يبين لنا ما الذي يكرهه أهل الكتاب .. وقال إن الذي يتعبهم ميزان العدل والحق الذي نتبعه .. منهج الله سبحانه وتعالى .. ولذلك يأمر الله المؤمنين أن يثبتوا ويتمسكوا بالإيمان ، وأن يقبلوا على التكليف فهذا أحسن رد عليهم .. والتكاليف التي جاء بها الإسلام منها تكليفات لا تتطلب إلا وقتا من الزمن وقليلا من الفعل كشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

إن شهادة لا إله إلا الله تقال مرة في العمر .. والزكاة والصوم مرة كل عام .. والحج للمستطيع مرة في العمر .. ولكن هناك من العبادات ما يتكرر كل يوم ليعطي المؤمن شحنة اليقين والإيمان ويأخذه من دنياه بالله أكبر خمس مرات في اليوم .. وهذه هي العبادة التي لا تسقط أبدا .. والإنسان سليم والإنسان مريض .. فالمؤمن يستطيع أن يصلي واقفا وأن يصلي جالسا وأن يصلي راقدا .. وأن يجري مراسم الصلاة على قلبه .. لذلك كانت هذه أول عبادة تذكر في قوله تعالى . « وأقيموا الصلاة » أي والتفتوا إلى نداءات ربكم للصلاة .. وعندما يرتفع صوت المؤذن بقوله الله أكبر فهذه دعوة للإقبال على الله . إقبال في ساعة معلومة لتقفوا أمامه سبحانه وتعالى وتكونوا في حضرته يعطيكم الله المدد .. ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا حزبه أمر صلى)[1] .

ومعنى حزبه أمر أي ضاقت به أسبابه فلم يجد مخرجا ولا طريقا إلا أن يلجأ

---

(١) رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة وفي رواية . كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

إلى الله .. إذ حدث هذا يتوضأ الإنسان ويصلى ركعتين غير الفريضة .. ثم يدعو ما يشاء فيفرج الله كربه .. إذن : « فأقيموا الصلاة » هي الرد المناسب على كل محاولاتهم ليسلبوكم دينكم .. ذلك أن هذا التكليف المقرر لإعلان الولاء الإيمانى لله كل يوم خمس مرات .. تترك كل ما فى الدنيا وتتجه إلى الله بالصلاة .. إنها عماد الدين وأساسه .

وقوله تعالى : « وآتوا الزكاة » .. ايتاء الزكاة لا يحدث إلا إذا كان لديهم ما هو زائد عن حاجتك .. فكأن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نضرب فى الأرض لنكسب حاجتنا وحاجة من نعول ونزيد .. وبذلك يخرج المسلمون من سيطرة اليهود الإقتصادية التى يستذلون بها المسلمين .

فالمؤمن حين يؤتى الزكاة معناه أن حركته اتسعت لتشمل حاجته وحاجة غيره .. ولذلك حتى الفقير يجد فى الزائد فى أموال المسلمين ما يكفى حاجته .. فلا يذهب إلى اليهودى ليقترض بالربا .. ولذلك فالله سبحانه وتعالى يريد أن يتكامل المسلمون .. بحيث تكفى أموالهم غنيهم وفقيرهم والقادر على العمل منهم وغير القادر.والله تبارك وتعالى يزيد أموال المسلمين بأكثر مما يخرج منها من زكاة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)[1] .

وقد سميت « الزكاة » لأنها فى ظاهرها نقص وفى حقيقتها زيادة .. والربا ظاهره زيادة وحقيقته نقص .. وفى ذلك يقول الله جل جلاله :


﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾

(من الآية ٢٧٦ سورة البقرة)

ثم يقول الحق سبحانه : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » .. إذن لابد أن يطمئن المؤمن لأن حركة حياته هى ثواب وأجر عند الله تبارك وتعالى .. فإذا

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذى عن أبى هريرة .

صلى فله أجر وإذا زكى فله أجر ، وإذا تصدق فله أجر ، وإذا صام فله أجر ، وإذا حج فله أجر ، كل ما يفعله من منهج الله له أجر . وليس أجرا بقدر العمل،بل أضعاف العمل . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا نعرف أن كل حركة في منهج الله ليس فقط لها أجر عند الله سبحانه وتعالى . ولكنه أجر مضاعف أضعافا مضاعفة . . وهو أجر ليس بقدرات البشر ولكنه بقدرة الله سبحانه . . ولذلك فهو ليس مضاعف فقط في عدد المرات ولكنه يضاعف في القدرة أيضا . . فكأن كل إنسان غير مؤمن لا أجر له في الآخرة . . وإذا أعطي في الدنيا يُعطى عطاء المثل ولكن المؤمن وحده له عطاء الآخرة أضعافا مضاعفة وهو عطاء ليس زائلا كعطاء الدنيا ولكنه باق وخالد .

والخير الذي تفعله بن تدخره عندك أو عند من قد ينكره ويقول لا شيء لك عندي. ولكن الله سيدخره لك . فانظر إلى الاطمئنان والعمل في يد الله الأمينة ، وفي مشيئته التي لا يغفل عنها شيء ، وفي قدرته التي تضاعف أضعافا مضاعفة . . وتجده في الوقت الذي تكون في أحوج اللحظات إليه وهو وقت الحساب .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « والله بما تعملون بصير » . أي لا تعتقد أن هناك شيئا يخفى على الله ، أو أن أحدا يستطيع أن يخدع الله ، فالله سبحانه وتعالى بصير بكل شيء . . ليس بالظاهر منك فقط . . ولكن بما تخفيه في نفسك ولا تطلع عليه أحدا من خلق الله ، إنه يعلم كل شيء واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

وهكذا نطمئن إلى أن الله بصير بكل شيء ، وانظر إلى قوله جل جلاله : « بعملون » لتفهم أهمية العمل .

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) ﴾

بعد أن بين الحق تبارك وتعالى كيف أن كل عمل فى منهج الله له أجر ، وأجر باق وثابت ومضاعف عند الله ومحفوظ بقدرة الله سبحانه .. أراد أن يرد على ادعاءات اليهود والنصارى الذين يحاولون أن يثيروا اليأس فى قلوب المؤمنين بالكذب والإحباط علهم ينصرفون عن الإسلام .. لذلك فقد أبلغنا الله سبحانه بما افتروه .

واقرأ قوله تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » .. وفى هذه الآية الكريمة يظهر التناقض بين أقوال اليهود والنصارى .. ولقد أوردنا كيف أن اليهود قد قالوا « لن يدخل الجنة إلا من كان هودا » .. وقالت النصارى : « لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا » .. والله سبحانه وتعالى يفضح التناقض فى آية ستأتى فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

ومعنى ذلك أنهم تناقضوا فى أقوالهم ، فقالت النصارى إنهم سيدخلون الجنة وحدهم ، وقالت اليهود القول نفسه .. ثم قالوا . لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا أو نصرانيا .. ثم قالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء .

ويقول المثل إذا كنت كذوبا فكن ذكورا .. ذلك أن الذي يكذب تتناقض أقواله لأنه ينسى مادام قد قال غير الحقيقة ، ولذلك تجد أن المحقق أو القاضى يظل يسأل

المتهم أسئلة مختلفة .. حتى تتناقض أقواله فيعرف أنه يكذب .. فأنت إذا رويت الواقعة كما حدثت فإنك ترويها مائة مرة دون أي خلاف في التفاصيل.ولكنك إذا كذبت تتناقض مع نفسك .. والله سبحانه وتعالى يقول . « تلك أمانيهم » .·. ما هي الأماني ؟ .. هي أن تعلق نفسك بأمنية وليس لهذه الأمنية سند من الواقع يوصلك إلى تحقيق هذه الأمنية .. ولكن إذا كان التمني قائما عن عمل يوصلك إلى تحقيق الأمنية فهذا شيء آخر .

بعض الناس يقول التمني وإن لم يتحقق فإنه يروح عن النفس .. فقد ترتاح النفس عندما تتعلق بأمل كاذب وتعيش أياما في نوع من السعادة وإن كانت سعادة وهمية .. نقول إن الصدمة التي ستلحق بالإنسان بعد ذلك ستدمره .. ولذلك لا يكون في الكذب أبدا راحة . فأحلام اليقظة لا تتحقق لأنها لا تقوم على أرضية من الواقع وهي لا تعطى الإنسان إلا نوعا من بعد عن الحقيقة . ولذلك يقول الشاعر :

مُنًى إِنْ تَكُنْ حقاً تَكُنْ أَحْسَنَ الْمُنَى ... وَإِلاَّ فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَنًا رَغَدَا

يعني الأماني لو كانت حقيقة أو تستند إلى الحقيقة فإنها أحسن الأماني لأنها تعيش معك .. فإن لم تكن حقيقة يقول الشاعر :

فقد عشنا بها زمنا رغدا

أماني من ليلى حسان كأنما ... سقتنا بها ليلى على ظمأ بردا

وقوله تعالى : « تلك أمانيهم » تبين لنا أن الأماني هي مطامع الحمقى لأنها لا تتحقق .. والحق سبحانه يقول : « قل هاتوا برهانكم » .. ما هو البرهان ؟ .. البرهان هو الدليل .. ولا تطلب البرهان إلا من إنسان وقعت معه في جدال واختلفت وجهات النظر بينك وبينه .. ولا تطلب البرهان إلا إذا كنت متأكداً أن عدلك كاذب .. وأنه لن يجد الدليل على ما يدعيه .

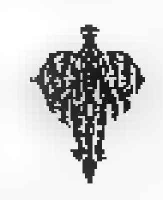
هب أن شخصا ادعى أن عليك مالا له .. وطلب منك أن تعيده إليه وأنت لم تأخذ منه مالا .. في هذه الحالة تطلب منه تقديم الدليل .. (فالكمبيالة) التي

كتبتها له أو الشيك أو إيصال الأمانة .. وأضعف الإيمان أن تطلب منه شهودا على أنك أخذت منه المال .. ولكن قبل أن تطالبه بالدليل .. يجب أن تكون واثقا من نفسك وأنه فعلا يكذب وأنك لم تأخذ منه شيئا .

إذن فقول الحق سبحانه : « هاتوا برهانكم » .. كلام من الله يؤكد أنهم كاذبون .. وأنهم لو أرادوا أن يأتوا بالدليل .. فلن يجدوا في كتب الله ولا في كلام رسله مايؤكد مايدعونه ، وإن أضاعوه يكن هذا افتراء على الله ويكن هناك الدليل الدامغ على أن هذا ليس من كلام الله ولكنه من افترائهم .

إذن فليس هناك برهان على ما يقولونه .. ولو كان هناك برهان ولو كان في هذا الكلام ولو جزءا من الحقيقة .. ما كان الله سبحانه وتعالى يطالبهم بالدليل

إذن لا تقول هاتوا برهانكم إلا إذا كنت واثقا أنه لا برهان على ما يقولون ؛ لأنك رددت الأمر إليه فيما يدعيه .. وهو يجب أن يثبته ويفعل كل شيء في سبيل الحصول على برهان .. ولا يمكن أن يقول الله : « هاتوا برهانكم » .. إلا وهو سبحانه يعلم أنهم يكذبون .. ولذلك قال : « إن كنتم صادقين » .. أي إن كنتم واثقين من أن ما تقولونه صحيح ، لأن الله يعرف يقينا أنكم تكذبون .



﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

بعد أن بين لنا الله تبارك وتعالى كذب اليهود وطالبهم بالدليل على ما قالوه من أنه لن يدخل الجنة إلا اليهود والنصارى جاء بحقيقة القضية ليخبرنا جل جلاله من الذى سيدخل الجنة . فقال : « بلى » .. وعندما تقرأ « بلى » اعلم انها حرف جواب ولابد أن يسبقها كلام ونفى .. ساعة يقول لك إنسان ليس لى عليك دين .. إذا قلت له نعم فقد صدقت أنه ليس عليه دين .. ولكن إذا قلت بلى فذلك يعنى أن عليه دين وأنه كاذب فيما قاله . إذن بلى تأتى جوابا لتثبت نفى ما تقدم .

هم قالوا « لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » .. عندما يقول الله لهم بلى فمعنى ذلك أن هذا الكلام غير صحيح . وأنه سيدخلها غير هؤلاء .. وليس معنى أنه سيدخلها غير اليهود والنصارى . أن كل يهودى وكل نصرانى سيدخل الجنة .. لأن الله سبحانه وتعالى قد حكم حينما جاء الإسلام بأن الذى لا يسلم لا يدخل الجنة .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فاذا لم يقل الله سبحانه وتعالى .. أنه لن يدخلها اليهود ولا النصارى .. لأن القرآن أزلى .. ما معنى أزلى ؟ .. أى أنه يعالج القضايا منذ بداية الخلق وحتى يوم القيامة .. فالقرآن كلام الله تبارك وتعالى .. فلو أنه قال لن يدخل الجنة إلا من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم لكان فى هذا تجاوزٌ .. لأن هناك من آمن بموسى وقت رسالته وعاصره واتبعه وحسن دينه ومات قبل أن يدرك محمدا عليه الصلاة

والسلام .. فهل هذا لا يدخل الجنة ويجازى بحسن عمله .. وهناك من النصارى من آمن بعيسى وقت حياته . وعاصره ونفذ تعاليمه ومنهجه ثم مات قبل أن يَبْعثْ محمدٌ عليه الصلاة والسلام .. أهذا لن يدخل الجنة ؟ .. لا .. يدخل وتكون منزلته حسب عمله ويجازى بأحسن الجزاء .. ولكن بعد أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم وجاء الإسلام ونزل القرآن ، فكل من لم يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم لن يدخل الجنة .. بل ولن يراها .. ولذلك جاء كلام الله دقيقا لم يظلم أحدا من خلقه .

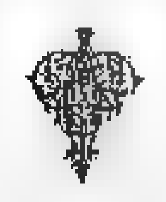
إذن فقوله تعالى : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن » .. أى لا يدخل الجنة إلا من أسلم وجهه لله وهو محسن .. فقد يسلم واحد وجهه لله ويكون منافقا يظهر غير ما يبطن .. نقول إن المنافقين لم يكونوا محسنين ولكنهم كانوا مسيئين .. لأن هم شخصيتين شخصية مؤمنة أمام الناس وشخصية كافرة فى الحقيقة أو فى قلوبهم .

قوله تعالى : « من أسلم وجهه لله » تدلنا على أن كل شىء أسلم لله لأن الوجه هو أشرف شىء فى الإنسان . فيه التمييز وفيه السمة وفيه الشخص وهو أعلى ما فى الجسم .. وحينما عرفوا الإنسان قالوا حيوان ناطق أى حيوان مفكر .. وقال بعضهم حيوان مستوى القامة يعنى قامته مرفوعة .. والقامة المرفوعة على بقية الجسم هى الوجه .. والإنسان مرفوع على بقية أجناس الأرض .. إذن هو مرفوع على بقية الأجناس ووجهه مرفوع عليه .. فإذا أسلم وجهه لله يكون قد أسلم أشرف شىء فيه لله ولذلك قيل .. أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد .. لماذا ؟ .. لأنه جاء بالوجه الذى رفعه الله به وكرمه .. وجعله مساويا لقدميه ليستوى أكمل شىء فيه بأدنى شىء .. فلم يبق عنده شىء يختال به على الله .

الحق سبحانه وتعالى يقول : « فله أجره عند ربه » .. كلمة« أجره عند ربه » .. دلت على أن الله لم يجعلنا مقهورين .. ولكنه كلفنا وجعلنا مختارين أن نفعل أو لا نفعل فإن فعلت فلنا أجر .. ولأن التكليف من الله سبحانه وتعالى فالمنطقى أن يكون الأجر عند الله .. وإلا يوجد خوف أو حزن . لأن الخوف يكون من شىء سيقع .. والحزن يأتى على شىء قد وقع .. ولا هذه ولا تلك تحدث عندما يكون أجرنا عند [redacted] .

ان الإنسان حين يكون له حق عند مساويه .. وربما يخاف أن ينكر المساوى هذا الحق أو يطمع فيه ، أو يحتاج إليه فيدعى عدم أحقيته فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين .. ولذلك فهو لا يطمع فيما فى أيدينا من خير لأنه من عنده .. ولا يطمع فيما معنا من مال لأن عنده خزائن السموات والأرض .

الله سبحانه لا ينكر حقا من حقوقنا لأنه يعطينا من فضله ويزيدنا .. ولذلك فإن ما عند الله لا خوف عليه بل هو يضاعف ويزداد .. وما عند الله لا حزن عليه .. لأن الإنسان يحزن إذا فاته خير .. ولكن ما عند الله باق لا يموتك ولا تفوته .. فلا يوجد شىء عند الله سبحانه وتعالى تحزن عليه لأنه فات .. ولذلك كان قول الحق سبحانه وتعالى : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .. أدق ما يمكن أن يقال عن حالة المؤمنين فى الآخرة .. لأنهم يكونون فرحين بما عند الله لا خوف عندهم ولا حزن .



﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

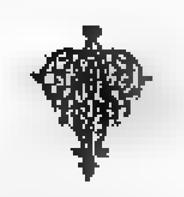
نقول إن أصدق ما قاله اليهود والنصارى .. هو أن كل طائفة منهم اتهمت الأخرى بأنها ليست على شيء .. فقال اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء . والعجيب إن الطائفتين أهل كتاب . اليهود أهل كتاب والنصارى أهل كتاب .. ومع ذلك كل منهما يتهم الآخر بأنه لا إيمان له وبذلك تساوى مع المشركين .

الذين يقولون إن أهل الكتاب ليسوا على شيء . أي ان المشركين يقولون اليهود ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء .. واليهود يقولون المشركون ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء .. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » .. وبذلك أصبح لدينا ثلاث مواقف يواجهون الدعوة الإسلامية .. طائفة لا تؤمن بمنهج سماوى ولا برسالة إلهية وهؤلاء هم المشركون .. وطائفتان لهم إيمان ورسل وكتب هم اليهود والنصارى .. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » .. أي الذين لا يعلمون دينا ولا يعلمون إلها ولا يعلمون أي شيء عن منهج السماء .. اتحدوا في القول مع اليهود والنصارى وأصبح قولهم واحدا .

وكان المفروض أن يتميز أهل الكتاب الذين لهم صلة بالسماء وكتب نزلت من الله ورسل جاءتهم للهداية .. كان من المفروض أن يتميزوا على المشركين .. ولكن تسوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .. وهذا معنى قوله تعالى : « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » .. ومادامت الطوائف الثلاث قالوا على بعضهم نفس القول .. يكون حجم الخلاف بينهم كبيرا وليس صغيرا .. لأن كل واحد منهم يتهم الآخر انه لا دين له

هذا الخلاف الكبير من الذي يحكم فيه ؟ لا يحكم فيه إلا الله . . فهو الذي يعلم كل شيء . وهو سبحانه القادر على أن يفصل بينهم بالحق ومتى يكون موعد هذا الفصل أو الحكم ؟ أهو فى الدنيا ؟ لا . . فالدنيا دار اختبار وليست دار حساب ولا محاسبة ولا فصل فى قضايا الإيمان . . ولذلك فإن الحكم بينهم يتم يوم القيامة وعلى مشهد من خلق الله جميعا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . . ومعنى الحكم هنا ليس هو بيان المخطىء من المصيب فالطوائف الثلاث مخطئة والطوائف الثلاث فى إنكارها للإسلام قد خرجت عن إطار الإيمان . ويأتى الحكم يوم القيامة ليبين ذلك ويواجه المخالفين بالعذاب .



﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

فالحق جل جلاله بعد أن بين لنا موقف اليهود والنصارى والمشركين من بعضهم البعض ومن الإسلام ، وكيف أن هذه الطوائف الثلاث تواجه الإسلام بعداء و يواجه بعضها البعض باتهامات .. فكل طائفة منها تتهم الأخرى انها على باطل .. أراد أن يحذرهم تبارك وتعالى من الحرب ضد الإسلام ومحاربة هذا الدين فقال : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه » .. مساجد الله هي الأماكن التي يتم فيها السجود لله .. والسجود علامة الخضوع وعلامة العبودية كما بينا .. لأنك تضع أشرف شيء فيك وهو وجهك على الأرض خضوعا لله وخشوعا له .

قبل الإسلام كان لا يمكن أن يصلي أتباع أى دين إلا في مكان خاص بدينهم .. مكان مخصص لا تجوز الصلاة إلا فيه .. ثم جاء الله بالإسلام فجعل الأرض كلها مسجدا وجعلها طهورا .. ومعنى ان تكون الأرض كلها مسجدا هو توسيع على عباد الله في مكان التقائهم بربهم وفي أماكن عبادتهم له حتى يمكن أن تلتقى بالله في أي مكان وفي أي زمان . لأنه لا يحدد لك مكانا معينا لا تصح الصلاة إلا فيه .. وأنت إذا أردت أن تصلى ركعتين لله بخلاف الفرض .. مثل صلاة الشكر أو صلاة الاستخارة أو صلاة الخوف .. أو أى صلاة من السنن التي علمها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فإنك تستطيع أن تؤديها في أى وقت .. فكأنك تلتقى بالله سبحانه أين ومتى تحب .

ومادام الله تبارك وتعالى أنعم على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى أمته بأن جعل لهم الأرض مسجدا طهورا فإنما يريد أن يوسع دائرة التقاء العباد بربهم .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(أُعطيتُ خمسا لم يُعطَهُن أحد من الأنبياء قبلى نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلتْ لى الأرضُ مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأُحِلَّتْ لى الغنائمُ ولم تحل لأحدٍ قبلى وأُعطيتُ الشفاعة وكان النبى يُبعَثُ إلى قومه خاصة وبُعثتُ إلى الناسِ عامة)[1] .

ولكن لماذا خص الله أمة محمد بهذه النعمة ؟ لأن الإسلام جاء على موعد مع ارتقاءات العقل وطموحات الدنيا .. كلما ارتقى العقل فى علوم الدنيا كشف قوانين وتغلب على عقبات .. وجاء بمبتكرات ومخترعات تفتن عقول الناس . وتجذبهم بعيدا عن الدين فيعبدون الأسباب بدلا من خالق الأسباب .

يريد الحق تبارك وتعالى أن يجعل عبادتهم له مبصرة دائما حتى يعصمهم من هذه الفتنة .. وهو جل جلاله يريدنا حين نرى التليفزيون مثلا ينقل الأحداث من أقصى الأرض إلى أقصاها ومن القمر إلى الأرض فى نفس لحظة حدوثها .. أن نسجد لله على نعمه التى كشف لنا عنها فى أى مكان نكون فيه .. فخصائص العلاقات الجوية موجودة فى الكون منذ خلق الله السموات والأرض .. لم يصنعها أحد من خلق الله فى كون الله هذه الأيام .. ولكنها خلقت مع خلق الكون .. وشاء الله ألا ندرك وجودها ونستخدمها إلا هذه الأيام .. فلابد أن نسجد لله شكرا على نعمه التى كشفت لنا أسرارا فى الكون لم نكن نعرفها .. وهذه الأسرار تبين لنا دقة الخلق وتقربنا إلى قضايا الغيب .

فإذا قيل لنا أن يوم القيامة سيقف خلق الله جميعا وهم يشاهدون الحساب .. وان كل واحد منهم سيرى الحساب لحظة حدوثه .. لا نتعجب ونقول هذا مستحيل .. لأن أحداث العالم الهامة نراها الآن كلها لحظة حدوثها ونحن فى منتهى الراحة .. ونحن جالسون فى منازلنا أمام التليفزيون .. أى اننا نراها جميعا فى وقت واحد دون جهد .. فإذا كانت هذه هى قدرات البشر للبشر .. فكيف بقدرات خالق البشر للبشر ؟ .

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى عن جابر

عندما نرى أسرار مواهب الله في كونه .. لابد أن نسجد لعظمة الخالق سبحانه وتعالى ، الذي وضع كل هذا العلم والإعجاز في الكون .. وهذا السجود يقتضي أن تكون الأرض كلها مساجد حتى يمكنك وأنت في مكانك أن تسجد لله شكرا .. ولا تضطر للذهاب إلى مكان آخر قد يكون بعيدا أو الطريق إليه شاق فيفوتك هذا شكر الله والسجود له .. فالله سبحانه وتعالى شاء أن يوسع على المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم دائرة الالتقاء بربهم ، لأن هناك أشياء ستأتي بعد الرسالة المحمدية في موعد كشفها لخلق الله .. وكلما تكشف سر من أسرار الوجود يغتر الإنسان بنفسه .. ومادام الغرور قد دخل إلى النفس البشرية فلابد أن يجعل الله في الكون ما يعدل هذا الغرور .

لقد كانت الأمور عكس ذلك قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم .. كانت الأمور فطرية جدا .. منعت الأمطار ونضبت العيون والآبار .. لم يكن أمامهم إلا أن يتوجهوا إلى السماء بصلاة الاستسقاء .. وكذلك في كل أمر يصعب عليهم مواجهته .. ولكن الآن بعد أن كشف الله لخلقه عن بعض أسراره في كونه أصبحت هناك أكثر من وسيلة يواجه بها الإنسان عددا من أزمات الكون .. هذه الوسائل قد جعلت البشر يعتقدون أنهم قادرون على حل مشكلاتهم .. بعيدا عن الله سبحانه وتعالى وبجهودهم الخاصة .. فبدأ الاعتماد على الخلق بدلا من الاعتماد على الحق .. ولذلك نزل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾

(الآية ٣٥ ومن الآية ٣٦ سورة النور)

ما هي هذه البيوت التي يرى فيها الناس نور الله تبارك وتعالى؟ هي المساجد . فَعُمَّارُ المساجد وزوارها الدائمون على الصلاة فيها هم الذين يرون نور الله .. فإذا أتى قوم يجترئون عليها ويمنعون أن يذكر اسم الله فيها . معنى ذلك ان المؤمنين القائمين على هذه المساجد ضعفاء الإيمان ضعفاء الدين تجرأ عليهم أعداؤهم .. لأنهم لو كانوا أقوياء ما كان يجرؤ عدوهم على أن يمنع ذكر اسم الله في مساجد الله . أو أن يسعى إلى خرابها فتهدم ولا تقام فيها صلاة الجمعة . ولكن ساعة يوجد من يخرب بيتا من بيوت الله .. يجب الناس لنعمه والضرب على يده يكون الإيمان قويا .. فإن تركوه فقد هان المؤمنون على عدوهم .. لماذا؟ لأن الكافر الذي يريد أن يطفيء مكان إشعاع نور الله خلقه .. يعيش في حركة الشر في الوجود التي تقوى وتشتد كلما استطاع غير المؤمنين أن يمنعوا ذكر اسم الله في بيته وأن يخربوه .

وقول الحق سبحانه وتعالى : « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » ..

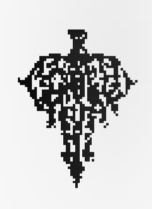
أي ان هؤلاء الكفار ما كان يصح لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين أن يفتك بهم المؤمنون من أصحاب المسجد والمصلين فيه . فإذا كانوا قد دخلوا غير خائفين فمعنى ذلك أن وازع الإيمان في نفوس المؤمنين قد ضعف .

قوله تعالى : « ومن أظلم » .. معناه انه لا يوجد أحد أظلم من ذلك الذي يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه .. أي ان هذا هو الظلم العظيم .. ظلم القمة . وقوله تعالى : « وسعى في خرابها » .. أي في إزالتها أو بقائها غير صالحة لأداء العبادة .. والسعي في خراب المسجد هو هدمه .

ويختم الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : « لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم » أي لن يتركهم الله في الدنيا ولا في الآخرة . بل يصيبهم في الدنيا خزي .. والخزي هو الشيء القبيح الذي تكره أن يراك عليه الناس . قوله تعالى : « لهم في الدنيا خزي » هذا مظهر غيرة الله على بيوته . وانظر إلى ما أذاقهم الله في الدنيا بالنسبة ليهود المدينة الذين كانوا يسعون في خراب مساجد الله .. لقد أخذت أموالهم وطردوا من ديارهم . هذا حدث . وهذا معنى قوله تعالى الخزي في الدنيا .. أما في الآخرة فإن أعداء الله سيحاسبون

حسابا عسيرا لتطاولهم على مساجد الله سبحانه ، ولكن فى الوقت نفسه فإن المؤمنين الذين سكتوا على هذا وتخاذلوا عن نصرة دين الله والدفاع عن بيوت الله .. سيكون لهم أيضا عذاب أليم .

إنى أحذر كل مؤمن أن يتخاذل أو يضعف أمام أولئك الذين يحاولون أن يمنعوا ذكر الله فى مساجده . لأنه فى هذه الحالة يكون مرتكبا لذنبهم نفسه وربما أكثر .. ولا يتركه الله يوم القيامة بل يسوقه إلى النار



﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى جزاء الذين يخربون مساجد الله ويهدمونها .. ويمنعون أن يذكر فيها اسمه والعذاب الذى ينتظرهم فى الآخرة أراد أن يذكرنا بأن تنفيذ هذا على مستوى تام وكامل عملية مستحيلة لأن الأرض كلها مساجد وتخريبها معناه أن تخرب الأرض كلها ولأن الله تبارك وتعالى موجود فى كل مكان فأينما كنتم فستجدون الله مقبلا عليكم بالتجليات

وقوله تعالى « فثم وجه الله » . أى هناك وجه الله .. وقوله تعالى : « والله واسع عليم » .. أى لا تضيقوا بمكان التقاءاتكم بربكم ؛ لأن الله واسع موجود فى كل مكان فى هذا الكون وفى كل مكان خارج هذا الكون .. ولكن إذا قال الله سبحانه وتعالى : « ولله المشرق والمغرب » لا يعنى تحديد جهة الشرق أو جهة الغرب فقط . ولكنه يتعداها إلى كل الجهات شرقها وغربها شمالها وجنوبها والشمال الشرقى والجنوب الغربى وكل جهة تفكر فيها .

ولكن لماذا ذكرت الآية الشرق والغرب فقط ؟ لأن بعد ذلك كل الجهات تحدد بشروق الشمس وغروبها .. فهناك شمال شرقى وجنوب شرقى وشمال غربى وجنوب غربى .. كما أن الشرق والغرب معروف بالفطرة عند الناس فلا أحد يجهل من أين تشرق الشمس ولا إلى أين تغرب فأنت كل يوم ترى شروقها وترى غروبها.

الله سبحانه وتعالى حين يقول . « ولله المشرق والمغرب » فليس معناها حصر الملكية لهاتين الجهتين ولكنه ما يعرف بالاختصاص بالتقليم .. كما تقول بالقلم

كتبت وبالسيارة أتيت . . أى ان الكتابة هى خصوص القلم والاتيان خصوص السيارة . . وهذا ما يعرف بالاختصاص . . فهذا مختص بكذا، وليس لغيره شيء فيه . . ولذلك فإن معنى . « ولله المشرق والمغرب » . . ان الملكية لله سبحانه وتعالى لا يشركه فيها أحد . وتغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليس معناه ان الله تبارك وتعالى فى بيت المقدس والاتجاه بعد ذلك إلى الكعبة ليس معناه ان الله جل جلاله فى الكعبة .

إن توحيد القبلة ليس معناه أكثر من أن يكون للمسلمين اتجاه واحد فى الصلاة . وذلك دليل على وحدة الهدف . فيجب أن تفرق بين اتجاه فى الصلاة واتجاه فى غير الصلاة . . اتجاه فى الصلاة نكون جميعا متجهين إلى مكان محدد إختاره الله لنا لنتجه إليه فى الصلاة . . والناس تصلى فى جميع أنحاء العالم متجهة إلى الكعبة . . الكعبة مكانها واحد لا يتغير . . ولكن اتجاهنا إليها من بقاع الأرض هو الذى يتغير . . فواحد يتجه شمالا وواحد يتجه جنوبا وواحد يتجه شرقا وواحد يتجه غربا . . كل منا يتجه اتجاها مختلفا حسب البقعة التى يوجد عليها من الأرض . . ولكننا جميعا نتجه إلى الكعبة رغم اختلاف وجهاتنا إلا اننا نلتقى فى اتجاهنا إلى مكان واحد .

الله جل جلاله يريدنا أن نعرف اننا إذا قلنا : «ولله المشرقُ» فلا نظن ان المشرق إتجاه واحد بل إن المشرق يختلف باختلاف المكان . . فكل مكان فى الأرض له مشرق وله مغرب . . فإذا أشرقت الشمس فى مكان فإنها فى نفس الوقت تغرب فى مكان آخر . . تشرق عندى وتغرب عند غيرى . . وبعد دقيقة تشرق عند قوم وتغرب عند آخرين . . فإذا نظرت إلى الشرق وإلى الغرب بالنسبة لشروق الشمس الظاهرى وغروبها . . تجد ان المشرق والمغرب لا ينتهيان من على سطح الأرض . . فى كل دقيقة شروق وغروب .

وقوله تعالى : « إن الله واسع عليم » . . أى يتسع لكل ملكه لا يشغله شيء عن شيء . ولذلك عندما سئل الإمام على كرم الله وجهه . . كيف يحاسب الله الناس جميعا فى وقت واحد ؟ قال كما يرزقهم جميعا فى وقت واحد .

إذن فالله لا يشغله شيء عن شيء . . ولا يحتاج فى عمله إلى شيء . إنما عمله « كن فيكون » .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ
مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى ان له كل شيء فى الكون لا يشغله شيء عن شيء . . أراد أن يرد على الذين حاولوا أن يجعلوا لله معينا فى ملكه . . الذين قالوا اتخذ الله ولدًا . . الله تبارك وتعالى رد عليهم انه لماذا يتخذ ولدا وله ما فى السموات والأرض كل له قانتون وجاء الرد مركزا فى ثلاث نقاط قوله تعالى : « سبحانه » أى تنزه وتعالى أن يكون له ولد . . وقوله تعالى : « له ما فى السموات والأرض » . . فإذا كان هذا ملكه وإذا كان الكون كله من خلقه وخاضعا له فما حاجته للولد ؟

وقوله سبحانه : « كل له قانتون » . . أى كل من فى السموات والأرض عابدون لله جل جلاله مقرون بألوهيته .

قضية إن لله سبحانه وتعالى ولداً جاءت فى القرآن الكريم تسع عشرة مرة ومعها الرد عليها . . ولأنها قضية فى قمة العقيدة فقد تكررت وتكرر الرد عليها مرة بعد أخرى . . وإذا نظرت للذين قالوا ذلك تجد ان هناك أقوالا متعددة . . هناك قول قاله المشركون . . و قرأ القرآن الكريم :

﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى
الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وقول اليهود كما يروى لنا القرآن :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة التوبة)

وقول النصارى :

﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة التوبة)

ثم فى قصة خلق عيسى عليه السلام من مريم بدون رجل .. الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة مريم)

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف إن هذا إدعاء خطير مستقبح مستنكر وممقوت .. لقد عالجت سورة مريم المسألة علاجا واضحا . علاجا اشترك فيه انفعال كل أجناس الكون غير الإنسان .. انفعال السموات والأرض والجبال وغيرها من خلق الله التى تلعن كل من قال ذلك .. بل وتكاد شعورا منها بفداحة الجريمة أن تنفطر السماء أى تسقط قطعا صغيرة .. وتنشق الأرض أى تتمزق .. وتخر الجبال أى تسقط كتراب .. كل هذا من هول ما قيل ومن كذب ما قيل .. لأن هذا الادعاء افتراء على الله . ولقد جاءت كل هذه الآيات فى سورة مريم التى أعطتنا معجزة خلق عيسى .. كما وردت القضية فى عدة سور أخرى .

والسؤال هنا ما هى الشبهة التى حملتهم يقولون ولد الله ؟ ما الذى جعلهم يلجأون إلى هذا الافتراء ؟ القرآن يقول عن عيسى بن مريم .. كلمة الله ألقاها إلى مريم . نقول لهم كلنا كلمة « كن »

لماذا فتنتم فى عيسى ابن مريم هذه الفتنة ؟ والله سبحانه وتعالى يشرح المسألة فيقول :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

قوله كمثل آدم مجرد مجاراة الخصم ولكن المعجزة فى آدم أقوى منها فى عيسى عليه السلام .. أنتم فتنتم فى عيسى لأن عنصر الأبوة ممتنع . وآدم امتنع فيه عنصر الأبوة والأمومة .. إذن فالمعجزة أقوى .. وكان الأولى أن تفتنوا بآدم بدل أن تفتنوا بعيسى .. ومن العجيب انكم لم تذكروا الفتنة فى آدم وذكرتم الفتنة فى فيه عنصر غائب من عنصرين غائبين فى آدم .. وكان من الواجب أن تنسبوا هذه القضية إلى آدم ولكنكم لم تفعلوا .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم . قال له الله إن القضية ليست قضية إنكار ولكنها قضية كاذبة . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

أى لن يضير الله سبحانه وتعالى أن يكون له ولد .. ولكنه جل جلاله لم يتخذ ولدا . فلا يمكن أن يعبد الناس شيئا لم يكن لله .. وإنما يدعوه واختلقوه ..

الله جل جلاله يقول « وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما فى السموات والأرض » .. قوله تعالى : « بل له ما فى السموات والأرض » تعطى الله سبحانه وتعالى الملكية لكل ما فى الكون .. والملكية تنافى الولدية .. لماذا ؟ لأن الملكية معناها أن كل ما فى الكون من خلق الله .. كل شىء هو خالقه بدون معارض ..

ومادام هو خالقه وموجده . فلا يمكن أن يكون هذا الشيء جزءا منه . . لأن الذي يخلق شيئا يكون فاعلا والفاعل له مفعول . والمفعول لا يكون منه أبدا . . هل رأيت واحدا صنع صنعة منه ؟ الذي يصنع سيارة مثلا . . هل صنعها من لحمه أو من لحم لبشر ؟ وكذلك الطائرة والكرسي والساعة والتليفزيون . هل هذه المصنوعات من جنس الذي صنعها ؟ طبعا لا .

إذن مادام ملكية . . فلا يقال إنها من نفس جنس صانعها . . ولا يقال إن الفاعل أوجد من جنسه . . لأن الفاعل لا يوجد من جنسه أبدا . . كل فاعل يوجد شيئا أقل منه . . فنقول الله « سبحانه » . . أي تنزيه له تبارك وتعالى . . لماذا ؟ لأن الولد يتخذ لاستبقاء حياة والده التي لا يضمنها له واقع الكون . فهو يحمل اسمه بعد أن يموت ويرث أملاكه . . إذن هو من أجل بقاء نوعه . . والذي يريد بقاء النوع لا يكفيه أن يكون له ولد واحد .

لو فرضنا جدلا إن له ولدًا واحدًا فالمفروض ان هذا الولد يكون له « . . ولكننا لم نر أولادا لمن زعموا انه ابن الله . وعندما وقبلما يوجد الولد ماذا كان الله سبحانه وتعالى يفعل وهو بدون ولد ؟ وماذا استجد على الله وعلى كونه بعد أن اتخذ ولدا كما يزعمون . . لم يتغير شيء في الوجود . . إذن إن وجود ولد بالنسبة للإله لم يعطه مظهرا من مظاهر القوة . . لأن الكون قبل أن يوجد الولد المزعوم وبعده لم يتغير فيه شيء .

إذن فما سبب اتخاذ الولد ؟ معونة ؟ الله لا تضعف قوته . . ضمان للحياة ؟ الله حياته أزلية . . هو الذي خلق الحياة وهو الذي يهبها وهو حي لا يموت . . فما هي حاجته لأي ضمان للحياة ؟ الحق سبحانه وتعالى تنفعل له الأشياء . . أي انه قادر على إبراز الشيء بمقتضى حكمه . وهو جل جلاله له كمال الصفات أزلا وبكمال صفاته خلق هذا الكون وأوجده . . لذلك فهو ليس في حاجة إلى أحد من خلقه . . لأنه ساعة خلق كانت له كل صفات القدرة على الخلق . . بل قبل أن يخلق كانت له كل صفات الخالق وبهذه الصفات خلق . . والله سبحانه وتعالى كان خالقا قبل أن يخلق أحدا من خلقه . . وكان رزاقا قبل أن يوجد من يرزقه وكان قهارا قبل أن يوجد من يقهره . . وكان توابا قبل أن يوجد من يتوب عليه . . وبهذه الصفات أوجد وخلق ورزق وقهر وتاب على خلقه

إذن كل هذا الكون لم يضف صفة من صفات الكمال إلى الله .. بل إن الله بكمال صفاته هو الذى أوجد. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى حديث قدسى :

(يا عبادى لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكمْ وجنكمْ قاموا فى صعيدٍ واحد ، فسألونى ، فأعطيتُ كلَّ إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكى شيئا إلا كما ينقصُ المخيطُ إذا غُمس فى البحر .)[1]

ثم إذا كان لله سبحانه وتعالى زوجة وولد .. فمن الذى وجد أولا ؟ .. إذا كان الله سبحانه وتعالى قد وجد أولا .. ثم بعد ذلك أوجد الزوجة والولد فهو خالق وهما مخلوقان .. وإن كان كل منهم قد أوجد نفسه فهم ثلاثة آلهة وليسوا إلها واحدا . إذن فالولد إما أن يكون مخلوقا أو يكون إلها .. والكمال الأول لله لم يزده الولد شيئا .. ومن هنا يصبح وجوده لا قيمة له .. وحين يعرض الحق تبارك وتعالى هذه القضية يعرضها عرضا واسعا فى كثير من سور القرآن الكريم وأولها سورة مريم فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة مريم)

إنه سبحانه منزه عن التماثل مع خلقه .. لا بالذات ولا بالصفات ولا بالأفعال .. كل شيء تراه فى الوجود .. الله منزه عنه .. وكل شيء يخطر على بالك فالله غير ذلك .. قوله تعالى : « له ما فى السموات والأرض » .. فتلك قضية تناقض اتخاذ الولد لأن كل ما فى السموات والأرض خاضع لله .

قوله تعالى : « كل له قانتون » .. أى خاضعون . وهذا يؤكد لنا أن كون الله فى قبضة الله خاضع مستجيب اختيارا أو قهرا لأمر الله

---

(١) رواه مسلم فى البر، ورواه أحمد

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝١١٧ ﴾

بعد أن بين الله تبارك وتعالى .. أن قولهم اتخذ الله ولدا هو افتراء على الله .. أراد الحق أن يلفتنا إلى بعض من قدراته .. فقال جل جلاله : « بديع السموات والأرض » .. أى خلق السموات والأرض وكل ما فيها من خلق على غير مثال سابق .. أى لم يكن هناك سماء أو أرض أو ملائكة أو جن أو إنسان .. ثم جاء الله سبحانه وتعالى وأوجد متشابها لهم فى شكل أو حجم أو قدرة .. أى أنه سبحانه لم يلجأ إلى مانسميه نحن بالقالب .

إن الذى يصنع كوب الماء يصنع أولا قالبا يصب فيه خام الزجاج المنصهر .. فتخرج فى النهاية أكواب متشابهة .. وكل صناعة لغير الله تتم على أساس صنع القالب أولا ثم بعد ذلك يبدأ الإنتاج .. وبذلك فإن التكلفة الحقيقية هى فى إعداد القالب الجيد الذى يعطينا صورة لما نريد .. والذى يخبز رغيفا مثلا قد لا يستخدم قالب ولكنه يقلد شيئا سبق .. فشكل الرغيف وحجمه سبق أن تم وهو يقوم بتقليدها فى كل مرة .. ولكنه لا يستطيع أن يعطى التماثل فى الميزان أو الشكل أو الاستدارة .. بل هناك اختلاف فى التقليد ولا يوجد كمال فى الصناعة .

وحين خلق الله جل جلاله الخلق من آدم إلى أن تقوم الساعة .. جعل الخلق متشابهين فى كل شىء .. فى تكوين الجسم وفى شكله فى الرأس والقدمين واليدين والعينين .. وغير ذلك من أعضاء الجسم .. تماثلا دقيقا فى الشكل وفى الوظائف . بحيث يؤدى كل عضو مهمته فى الحياة .. ولكن هذا التماثل لم يتم عن قالب وإنما تم بكلمة كن .. ورغم التشابه فى الخلق فكل منا يختلف عن الآخر اختلافا يجعلك قادرا على تمييزه بالعلم والعين .. فالعلم كل ما له بصمة أصبع وبصمة صوت يمكن

أن يميزه خبراء التسجيل .. وبصمة رائحة قد لا نميزها نحن ولكن تميزها الكلاب المدربة .. فتشم الشيء ثم تسرع فتدلك على صاحبه ولو كان بين ألف من البشر .. وبصمة شفرة تجعل الجسد يعرف بعضه بعضا .. فإن جئت بخلية من جسد آخر لفظه .. وإن جئت بخلية من الجسد نفسه التحم معها وعالج جراحها .

وإذا كان هذا بعض ما وصل إليه العلم .. فإن هناك الكثير مما قد نصل إليه ليؤكد لنا أنه رغم تشابه بلايين الأشخاص .. فإن لكل واحد ما يميزه وحده ولا يتكرر مع خلق الله كلهم .. وهذا هو الإعجاز في الخلق ودليل على طلاقة قدرة الله في كونه .

والله سبحانه وتعالى يعطينا المعنى العام في القرآن الكريم بأن هذا من آياته وأنه لم يحدث مصادفة ولم يأت بطريق غير مخطط بل هو ممد بقدرة الله سبحانه .. فيقول جل جلاله :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الروم)

هذا الاختلاف يبين لنا طلاقة قدرة الله سبحانه في الخلق على غير مثال .. فكل مخلوق يختلف عمن قبله وعمن بعده وعمن حوله .. مع أنهم في الشكل العام متماثلون .. ولو أنك جمعت الناس كلهم منذ عهد آدم إلى يوم القيامة تجدهم في صورة واحدة .. وكل واحد منهم مختلف عن الآخر .. فلا يوجد بشران من خلق الله كل منهما طبق الأصل من الآخر .. هذه دقة الصنع وهذا ما نفهمه من قوله تعالى « بديع » .. والدقة تعطى الحكمة .. والإبراز في صور متعددة يعطى القدرة .. ولذلك بعد أن نموت وتتبعثر عناصرنا في التراب يجمعنا الله يوم القيامة .. والإعجاز في هذا الجمع هو أن كل إنسان سيبعث من عناصره نفسها وصورته نفسها وهيئته نفسها التي كان عليها في الدنيا .. ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة ق)

إذن الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته فى الإيجاد قد خلقنا . وبطلاقة قدرته فى إعادة الخلق يحيينا بعد الموت . . بشكلنا ولحمنا وبصماتنا وكل ذرة فينا . هل هناك دقة بعد ذلك ؟ .

لو أننا أتينا بأحذق الصناع وأمهرهم وقلنا له : اصنع لنا شيئا تجيده . فلما صنعه قلنا له : اصنع مثله . إنه لايمكن أن يصنع نموذجا مثله بالمواصفات نفسها ؛ لأنه يفتقد المقاييس الدقيقة التى تمده بالمواصفات نفسها التى صنعها . إنه يستطيع أن يصنع نموذجا متشابها ولكن ليس مثل ماصنع تماما . لكن الله سبحانه وتعالى يتوفى خلقه وساعة القيامة أو ساعة بعثهم يعيدهم بمكوناتهم نفسها التى كانوا عليها دون زيادة أو نقص . وذلك لأنه الله جل جلاله لايخلق وفق قوالب معينة ، وإنما يقول للشىء : كن فيكون

تقول الآية الكريمة « بديع السموات والأرض إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون »

« وكن » وردت كثيرا فى القرآن الكريم . . وفى اللغة شىء يسمى المشترك اللفظ يكون واحدا ومعانيه تختلف حسب السياق . فمثلا كلمة قضى لها معان متعددة ولها معنى يجمع كل معانيها . . مرة يأتى بها الحق بمعنى فرغ أو انتهى . . فى قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾

(من الآية ٢٠٠ سورة البقرة)

ومعناها إذا انتهيتم من مناسك الحج . . ومرة يقول سبحانه

﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة طه)

والمعنى إفعل ما تريد . . وفى آية أخرى يقول الله تعالى .

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأحزاب)

والمعنى هنا أنه إذا قال الله شيئا لا يترك للمؤمنين حق الاختيار ومرة يصور الله جل جلاله الكفار في الآخرة وهم في النار يريدون أن يستريحوا من العذاب بالموت .

واقرأ قوله سبحانه :

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧)﴾

(سورة الزخرف)

لِيَقْضِ علينا هنا معناها يميتنا .. ومعنى آخر في قوله تعالى :

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾

(من الآية ٢٢ سورة ابراهيم)

أي لما انتهى الأمر ووقع الجزاء .. وفي موقع آخر قوله سبحانه :

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾

(من الآية ٢٩ سورة القصص)

قضى الأجل هنا بمعنى أتم الأجل وفي قوله تعالى .

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

(من الآية ٥٤ سورة يونس)

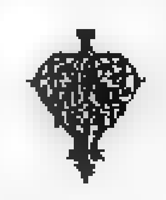
أى حكم وفصل بينهم . وقوله جل جلاله :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾

(من الآية ٤ سورة الإسراء)

بمعنى أعلمنا بنى إسرائيل فى كتابهم .. إذن « قضى » لها معان متعددة يحددها السياق .. ولكن هناك معنى تلتقى فيه كل المعانى .. وهو قضى أى حكم وهذا هو المعنى الأم .

إذن معنى قوله تعالى : « إذا قضى أمرا » .. أى إذا حكم بحكم فإنه يكون .. على أننا يجب أن نلاحظ قول الحق : « وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن » . معنى يقول له أن الأمر موجود عنده .. موجود فى علمه . ولكنه لم يصل إلى علمنا .. أى أنه ليس أمرا جديدا .. لأنه مادام الله سبحانه وتعالى قال : « يقول له » .. كأنه جل جلاله يخاطب موجودا .. ولكن هذا الموجود ليس فى علمنا ولا نعلم عنه شيئا .. وإنما هو موجود فى علم الله سبحانه وتعالى .. ولذلك قيل أن لله أمورًا يبديها ولا يبتديها . إنها موجودة عنده لأن الأقلام رُفعَتْ ، والصحف جفت .. ولكنه يبديها لنا نحن الذين لا نعلمها نعلمها .



﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا
آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ
تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ
(١١٨) ﴾

الحق سبحانه وتعالى حين قال «الذين لا يعلمون» . أى لا يعلمون عن كتاب الله شيئا لأنهم كفار . وهؤلاء سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم الله . ومعنى أن يكلمهم الله أن يسمعوا كلاما من الله سبحانه . كما سمع موسى كلام الله

وماذا كانوا يريدون من كلام الله تبارك وتعالى . أكانوا يريدون أن يقول لهم الله إنه أرسل محمدا رسولا ليبلغهم بمنهج السماء وكأن كل المعجزات التى أيد الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم - وعلى رأسها القرآن الكريم - لم تكن كافية لاقناعهم مع أن القرآن كلام معجز وقد أتى به رسول أمى .. سألوه عن أشياء حدثت فأوحى الله بها إليه بالتفصيل .. جاء القرآن ليتحدى فى أحداث المستقبل وفى أسرار النفس البشرية وكان ذلك يكفيهم لو انهم استخدموا عقولهم ولكنهم أرادوا العناد كلما جاءتهم آية كذبوا بها وطلبوا آية أخرى والله سبحانه وتعالى قد أبلغنا أنه لا يمكن لطبيعة البشر أن تتلقى عن الله مباشرة .. واقرأ قوله سبحانه

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ
بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الشورى)

إذن فالبشر حتى المصطفى من الله والمؤهل للتلقى عن الله .. لا يكلمه الله إلا وحيا أو إلهامَ خاطرٍ أو من وراء حجاب كما كلم موسى .. أو يرسل رسولا مبلغا للناس لمنهج الله .. أما الاتصال المباشر فهو أمر تمنعه بشرية الخلق

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « أو تأتينا آية » .. والآيات التى يطلبها الكفار ويأتى بها الله سبحانه وتعالى ويحققها لهم .. لا يؤمنون بها بل يزدادون كفرا وعنادا .. والله جل جلاله يقول :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

إذن فالآيات التى يطلبها الكفار ليؤمنوا لا تجعلهم يؤمنون .. ولكن يزدادون كفرا حتى ولو علموا يقينا أن هذه الآيات من عند الله سبحانه وتعالى كما حدث لآل فرعون .. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

وهكذا فإن طلبهم أن يكلمهم الله أو تأتيهم آية كان من باب العناد والكفر .. والحق سبحانه يقول : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم » .. فبنو إسرائيل قالوا لموسى أرنا الله جهرة .. الذين لا يعلمون قالوا لولا يكلمنا الله . ولكن الذين قالوا أرنا الله جهرة كانوا يعلمون لأنهم كانوا يؤمنون بالتوراة . فتساوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .. لذلك قال الله تبارك وتعالى . « تشابهت قلوبهم » . أى قلوب أولئك الذين كانوا معاصرين للمنهج والذين لا يعاصرون لمنهج قد تشابهت بمنطق واحد .

ولو أن الذين لا يعلمون قالوا ولم يقل الذين يعلمون لهان الأمر .. وقلنا جهلهم هو الذي أوحى إليهم بما قالوا .. ولكن ما صدر الذين علموا وعندهم كتاب أن يقولوا أرنا الله جهرة .. إذن فهناك شيء مشترك بينهم تشابهت قلوبهم في الهوى . إن مصدر كل حركة سلوكية أو حركة جارحة إنما هو القلب الذي تصدر عنه دوافع الحركة . ومادام القلب غير خالص لله فيستوي الذي يعلم والذي لا يعلم

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « قد بينا الآيات لقوم يوقنون » .. ما هو اليقين ؟ هو استقرار القضية في القلب استقرارا لا يحتمل شكا ولا زلزلة . ولا يمكن أن تخرج القضية مرة أخرى إلى العقل .. لتناقش من جديد لأنه أصبح يقينا .. واليقين يأتي من إخبار من تثق به وتصبح أخباره يقينا .. فإذا قال الله فالله اليقين .. وإذ قال الرسول صلى الله عليه وسلم فكلامه حق ولذلك من مصداقية الإيمان أن سيدنا أبا بكر رضي الله عنه .. عندما قيل له إن صاحبك يقول إنه صُعد به إلى السماء السابعة وذهب إلى بيت المقدس في ليلة واحدة . قال إن كان قد قال فقد صدق .

إن اليقين عنده نشأ من إخبار من يثق فيه وهذا نسميه علم يقين .. وقد يرتقي الأمر ليصير عين يقين عندما ترى الشيء بعينك بعد أن حُدثت عن رؤية غيرك له . ثم تدخل في حقيقة الشيء فيصبح حق يقين .. إذن اليقين علم إذا جاء عن إخبار من تثق به . وعين يقين إذا كان الأمر قد شوهد مشاهدة العين .. وحق يقين هو أن تدخل في حقيقة الشيء .. والله سبحانه وتعالى يشرح هذا في قوله تعالى :

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ⑥ ﴾

(سورة التكاثر)

هذه هي المرحلة الأولى أن يأتينا علم اليقين من الله سبحانه وتعالى . ثم تأتي المرحلة الثانية في قوله تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ⑦ ﴾

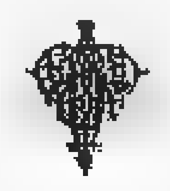
(سورة التكاثر)

أى أنتم ستشاهدون جهنم بأعينكم يوم القيامة . هذا علم يقين وعين يقين .. يأتى بعد ذلك حق اليقين فى قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

والمؤمن عافاه الله من أن يعاين النار كحق يقين .. إنه سيراها وهو يمر على الصراط .. ولكن الكافر هو الذى سيصلاها حقيقة يقين .. ولقد قال أهل الكتاب لأنبيائهم ما يوافق قول غير المؤمنين . فاليهود قالوا لموسى : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » . والمسيحيون قالوا لعيسى : « هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء » قال : « اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » . وهكذا شجع المؤمنون بالكتاب غير المؤمنين بأن يطلبوا رؤية الله ويطلبوا المعجزات المادية .



﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾

هنا لابد أن نلتفت إلى أن الله سبحانه وتعالى حينما يخبرنا عن قضية من عمله يأتي دائما بنون العظمة التي نسميها نون المتكلم .. ونلاحظ أن نون العظمة يستخدمها رؤساء الدول والملوك ويقولون نحن فلان أمرنا بما هو آت .. فكأن العظمة في الإنسان سخرت المواهب المختلفة لتنفيذ القرار الذي يصدره رئيس الدولة .. فيشترك في تنفيذه الشرطة والقضاء والدولة والقوات المسلحة إذا كان قرار حرب .. تشترك مواهب متعددة من جماعات مختلفة تتكاتف لتنفيذ القرار .. والله تبارك وتعالى عنده الكمال المطلق .. كل ما هو لازم للتنفيذ من صفات الله سبحانه وتعالى .. فإذا تحدث الله جل جلاله عن عمل يحتاج إلى كمال المواهب من الله تبارك وتعالى يقول « إنا »

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

ولكن حين يتكلم الله عن ألوهيته وحده وعن عبادته وحده يستخدم ضمير المفرد .. مثل قوله سبحانه :

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة طه)

ولا يقول فاعبدنا . . إذن ففي كل فعل يأتي الله سبحانه بنون العظمة . . وفي كل أمر يتعلق بالعبادة والتوحيد يأتي بالمفرد . . وذلك حتى نفهم أن العمل من الله ليس وليد قدرته وحدها . . ولا علمه وحده ولا حكمته وحدها ولا رحمته وحدها . . وإنما كل فعل من أفعال الله تكاملت فيه صفات الكمال المطلق لله .

إن نون العظمة تأتي لتلفتنا إلى هذه الحقيقة لتبرز للعقل تكامل الصفات في الله . . لأنك قد تقدر ولا تعلم . . وقد تعلم ولا تقدر ، وقد تعلم وتغيب عنك الحكمة . إذن فتكامل الصفات مطلوب .

قوله تعالى : « إنا أرسلناك بالحق » يعني بعثناك بالحق رسولا . . والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ولا يتناقض فإذا رأيت حدثا أمامك ثم طلب منك أن تحكي ما رأيت رويت ما حدث . فإذا طلب منك بعد فترة أن ترويه مرة أخرى فإنك ترويه بنفس التفاصيل . . أما إذا كنت تكذب فستتناقض في أقوالك . . ولذلك قيل إن كنت كذوبا فكن ذكورا .

إن الحق لا يتناقض ولا يتغير . . ومادام رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسل بالحق . فإن عليه أن يبلغه للناس وسيبقى الحق حقا إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : « بشيرا ونذيرا » . . البشارة هي إخبار بشيء يسرك زمنه قادم . . والإنذار هو الإخبار بشيء يسوءك زمنه قادم ربما استطعت أن تتلافاه . . يبشر بماذا ؟ وينذر بماذا ؟ يبشر من آمن بنعيم الجنة وينذر الكافر بعذاب النار . . والبشرى والإنذار يقتضيان منهجا يبلغ . . من آمن به كان بشارة له . ومن لا يؤمن كان إنذارا له .

ثم يقول الحق جل جلاله : « ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم » أي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس مسئولا عن الذين سيلقون بأنفسهم في النار والعذاب . إنه ليس مسئولا عن هداهم وإنما عليه البلاغ . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويقول جل جلاله .

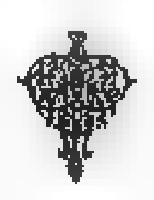
﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

فالله سبحانه وتعالى لو أرادنا أن نؤمن قسرا وقهرا . ما استطاع واحد من الخلق أن يكفر ولكنه تبارك وتعالى يريد أن تأتيه بقلوب تحبه وليس بقلوب مقهورة على الإيمان . . إن الله سبحانه وتعالى خلق الناس مختارين أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا وليس للرسول أن يرغم الناس على الإيمان بالقهر . لأن الله لو أراد لقهر كل خلقه

أما أصحاب الجحيم فهم أهل النار . والجحيم مأخوذة من الجموح . . وجمحت النار يعنى اضطربت ، وعندما ترى النار متأججة يقال جمحت النار . . أى أصبح لهيبها مضاعفا بحيث يلتهم كل ما يصل إليها فلا تخمد أبدا .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يطمئن رسوله صلى الله عليه وسلم أنه لا يجب أن يشغل قلبه بالذين كفروا لأنه قد أنذرهم . وهذا ما عليه ، وهذه مهمته التى كلفه الله بها



﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾

كان اليهود يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخل لؤم وكيد فيقولون هادنا ، أى قل لنا ما فى كتابنا حتى ننظر إذا كنا نتبعك أم لا .. يريد الله تبارك وتعالى أن يقطع على اليهود سبيل الكيد والمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم .. بأنه لا اليهود ولا النصارى سيتبعون ملتك . وإنما هم يريدون أن تتبع أنت ملتهم .. أنت تريد أن يكونوا معك وهم يطمعون أن تكون معهم .. فقال الله سبحانه : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » ..

نلاحظ هنا تكرار النفى وذلك حتى نفهم أن رضا اليهود غير رضا النصارى .. ولو قال الحق تبارك وتعالى « ولن ترضى عنك اليهود والنصارى بدون لا .. لكان معنى ذلك انهم يجتمعون على رضا واحد أو متفقون . ولكنهم مختلفون بدليل أن الله تعالى قال :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

إذن فلا يصح أن يقال فلن ترضى عنك اليهود والنصارى .. والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لن ترضى عنك اليهود ولن ترضى عنك النصارى .. وإنك لو صادفت رضا اليهود فلن ترضى عنك النصارى .. وإن صادفت رضا النصارى فلن ترضى عنك اليهود ..

ثم يقول الحق سبحانه : « حتى تتبع ملتهم » . والملة هي الدين وسميت بالملة لأنك تميل إليها حتى ولو كانت باطلا والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝ ﴾

(سورة الكافرون)

فجعل لهم دين وهم كافرون ومشركون . ولكن ما الذي يعصمنا من أن نتبع ملة اليهود أو ملة النصارى . الحق جل جلاله يقول :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة آل عمران)

فاليهود حرفوا في ملتهم والنصارى حرفوا فيها . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم معه هدى الله . . والهدى هو ما يوصلك إلى الغاية من أقصر طريق . . أو هو الطريق المستقيم باعتباره أقصر الطرق إلى الغاية . . وهدى الله طريق واحد ، أما هدى البشر فكل واحد له هدى ينبع من هواه .

ومن هنا فإنها طرق متشعبة ومتعددة توصلك إلى الضلال . ولكن الهدى الذي يوصل للحق هو هدى واحد . . هدى الله عز وجل .

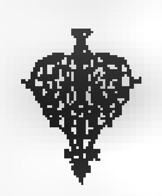
وقوله تعالى . « ولئن اتبعت أهواءهم » إشارة من الله سبحانه وتعالى إلى أن ملة اليهود وملة النصارى أهواء بشرية والأهواء جمع هوى . والهوى هو ما تريده النفس باطلا بعيدا عن الحق . . لذلك يقول الله جل جلاله : « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير » . .

والله تبارك وتعالى يقول لرسوله لو اتبعت الطريق المعوج الملىء بالشهوات بغير حق . . سواء كان طريق اليهود أو طريق النصارى بعدما جاءك من الله من الهدى فليس لك من الله من ولي يتولى أمرك ويعصمك ولا نصير ينصرك .

وهذا الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن نقف معه وقفة لنتأمل كيف يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم الذي اصطفاه . فالله حين يوجه هذا الخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام .. فالمراد به أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أتباع رسول الله الذين سيأتون من بعده . وهم الذين يمكن أن تميل قلوبهم إلى اليهود والنصارى . أما الرسول فقد عصمه الله من أن يتبعهم

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم يقينا أن ما لم يقبله من رسوله عليه الصلاة والسلام .. لا يمكن أن يقبله من أحد من أمته مهما علا شأنه .. وذلك حتى لا يأتي بعد رسول الله من يدعي العلم .. ويقول نتبع ملة اليهود أو النصارى لنجذبهم إلينا . نقول له لا ما لم يقبله الله من حبيبه ورسوله لا يقبله من أحد .

إن ضرب المثل هنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقصود به أن اتباع ملة اليهود أو النصارى مرفوض تماما تحت أي ظرف من الظروف ، لقد ضرب الله سبحانه المثل برسوله حتى يقطع على المغرضين أي طريق للعبث بهذا الدين بحجة التقارب مع اليهود والنصارى .



﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١ ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى قد حرفوا كتبهم ، أراد أن يبين أن هناك من اليهود والنصارى من لم يحرفوا فى كتبهم وأن هؤلاء يؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام وبرسالته . لأنهم يعرفونه من التوراة والإنجيل

ولو أن الله سبحانه لم يذكر هذه الآية لقال الذين يقرأون التوراة والإنجيل على حقيقتيهما . . ويفكرون فى الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لقالوا كيف تكون هذه الحملة على كل اليهود وكل النصارى ونحن نعتزم الإيمان بالإسلام وهذا ما يقال عنه قانون الاحتمال . أي أن هناك عددا مهما قل من اليهود أو النصارى يفكرون فى اعتناق الإسلام باعتباره دين الحق وقد كان هناك جماعة من اليهود عددهم أربعون قادمون من سيناء مع جعفر بن أبى طالب ليشهدوا أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم قرأوا التوراة غير المحرفة وآمنوا برسالته . وأراد الله أن يكرمهم ويكرم كل من سيؤمن من أهل الكتاب . . فقال جل جلاله :

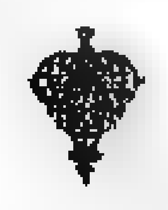


(من الآية ١٢١ سورة البقرة)

أى يتلونه كما أنزل بغير تحريف ولا تبديل . . فيعرفون الحقائق صافية غير مخلوطة بهوى البشر ولا بالتحريف الذى هو نقل شىء من حق إلى باطل .

يقول الله تبارك وتعالى : « أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون » وتلاحظ أن القرآن الكريم يأتي دائما بالمقارنة .. ليكرم المؤمنين ويلقي الحسرة في نفوس المكذبين .. لأن المقارنة دائما تظهر الفارق بين الشيئين .

إن الله سبحانه يريد أن يعلم الذين آتاهم الله الكتاب فلم يحرفوه وآمنوا به .. ليصلوا إلى النعمة التي ستقودهم إلى النعيم الأبدي .. وهي نعمة الإسلام والإيمان .. مقابل الذين يحرفون التوراة والإنجيل فمصيرهم الخسران المبين والخلود في النار .



﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ ﴾

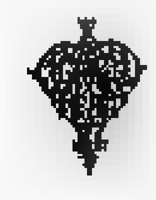
ورجعنا إلى ما قلناه عندما تعرضنا للآية (٤٠) من سورة البقرة .. وقوله تعالى : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون » .. فالحق سبحانه وتعالى لم ينه الجولة مع بنى إسرائيل قبل أن يذكرهم بما بدأهم به .. إنه سبحانه لا ينهى الكلام معهم فى هذه الجولة .. إلا بعد أن يذكرهم تذكيراً نهائياً بنعمه عليهم وتفضيله لهم على كثير من خلقه .. ومن أكبر مظاهر هذا التفضيل .. الآية الموجودة فى التوراة تبشر بمحمد عليه الصلاة والسلام وذلك تفضيل كبير.

التذكير بالنعمة هنا ، بالفضل هو تقريع لبنى إسرائيل أنهم لم يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم مع انه مذكور عندهم فى التوراة .. وكان يجب أن يأخذوا هذا الذكر بقوة ويسارعوا للإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه تفضيل كبير من الله سبحانه وتعالى لهم .. والله جل جلاله قال حين أخذت اليهود الرجفة وطلب موسى عليه السلام من ربه الرحمة قال كما يروى لنا القرآن الكريم

﴿ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ

فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ
عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

(سورة الأعراف)



﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة تتشابه مع الآية ٤٨ من سورة البقرة .. التي يقول فيها الله تبارك وتعالى :

« واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » .

نقول إن هذا التشابه ظاهرى .. ولكن كل آية تؤدى معنى مستقلا .. ففى الآية ٤٨ قال الحق سبحانه . « ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » .. وفى الآية التى نحن بصددها قال : « لا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة » . لماذا ؟ لأن قوله تعالى « لا تجزى نفس عن نفس شيئا » .. لو أردنا النفس الأولى فالسياق يناسبها فى الآية الأولى .. ولو أردنا النفس الثانية فالسياق يناسبها فى الآية الثانية التى نحن بصددها فكأن معنا نفسين إحداهما جازية والثانية مجزى عنها .. الجازية هى التى تشفع فأول شىء يقبل منها هو الشفاعة .. فإن لم تقبل شفاعتها تقول أنا أتحمل العدل .. أى آخذ الفدية أو ما يقابل الذنب .. ولكن النفس المجزى عنها أول ما تقدم هو العدل أو الفداء .. فإذا لم يقبل منها تبحث عن شفيع .. ولقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل عند تعرضنا للآية ٤٨ من سورة البقرة .

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ
إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

يأتى الحق سبحانه وتعالى إلى قصة إبراهيم عليه السلام .. ليصفى الجدل والتشكيك الذى أحدثه اليهود عند تغيير القبلة .. واتجاه المسلمين إلى الكعبة المشرفة بدلا من بيت المقدس .. كذلك الجدل الذى أثاره اليهود بأنهم شعب الله المختار وأنه لا يأتى نبى إلا منهم .

يريد الله تبارك وتعالى أن يبين صلة العرب بإبراهيم وصلتهم بالبيت .. فيقول الحق جل جلاله : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه » .. ومعناها اذكر إذا ابتلى الله إبراهيم .. وإذ هنا ظرف وهناك فرق بينها وبين إذا الشرطية فى قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النصر)

إذا هنا ظرف ولكنه يدل على الشرط .. أما إذ فهى ظرف فقط .. وقوله تعالى : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن » .. معناها اذكر وقت أن ابتلى الله إبراهيم بكلمات .

ما معنى الابتلاء ؟ الناس يظنون أنه شر ولكنه فى الحقيقة ليس كذلك .. لأن الابتلاء هو إمتحان إن نجحنا فيه فهو خير وإن رسبنا فيه فهو شر .. فالابتلاء ليس شرا ولكنه مقياس لاختبار الخير والشر .. الذى ابتلى هو الله سبحانه .. هو

الرب .. والرب معناه المربى الذى يأخذ من يربيه بأساليب تؤهله إلى الكمال المطلوب منه .. ومن أساس التربية أن يمتحن المربى من يربيه ليعلم هل نجح فى التربية أم لا ؟ والابتلاء هنا بكلمات والكلمات جمع كلمة .. والكلمة قد تطلق على الجملة مثل قوله تعالى :

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ④ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ⑤ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالكلمة قد تطلق على الجملة وقد تطلق على المفرد .. كأن تقول مثلا محمد وتسكت وفى هذه الحالة لا تكون جملة مفيدة والكلمة المرادة فى هذه الآية هى التكليف من الله .

قوله سبحانه إفعل ولا تفعل . فكان التكليف من الله مجرد كلمة وأنت تؤدى مطلوبها أو لا تؤديه .. وقد اختلف العلماء حول الكلمات التى تلقاها إبراهيم من ربه . نقول لهم ان هذه الكلمات لابد أن تناسب مقام إبراهيم أبى الأنبياء .. إنها ابتلاء يجعله أهلا لحمل الرسالة . أى لابد ان يكون الابتلاء كبيرا ولقد قال العلماء إن الابتلاءات كانت عشرة وقالوا أربعين منها عشرة فى سورة التوبة وهى قوله تعالى

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة التوبة)

وهذه رواية عبدالله بن عباس .. وعشرة ثانية فى سورة المؤمنون فى قوله سبحانه :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ
عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ
(٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) ﴾

(سورة المؤمنون)

وبعد ذلك قال : « أولئك هم الوارثون » .

وفي سورة الأحزاب يذكر منهم قوله جل جلاله :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ
وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ
وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾

(سورة الأحزاب)

وفي سورة المعارج يقول .

﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ
(٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ

رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾
فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة المعارج)

نخرج من هذا الجدل . بأن نقول إن الله ابتلى إبراهيم بكلمات تكليفية افعل كذا ولا تفعل كذا . وابتلاه بأن ألقي في النار وهو حي فلم يجزع ولم يتراجع ولم يتجه إلا لله وكانت قمة الابتلاء أن يذبح ابنه .

وكون إبراهيم أدى جميع التكليفات بعشق وحب وزاد عليه من جنسها . . وكونه يلقى في النار ولا يبالي يأتيه جبريل فيقول ألك حاجة فيرد إبراهيم أما إليك فلا . . وأما إلى الله فعلمه بحالي يغنيه عن سؤالي . . وكونه وهو شيخ كبير يبتلى بذبح ابنه الوحيد فيطيع بنفس مطمئنة ورضا بقدر الله . . يقول الحق :

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة النجم)

أي وفّى كل ما طلب منه وأداه بعشق للمنهج ولابتلاءات الله . لقد نجح إبراهيم عليه السلام في كل ما ابتلى به أو اختبر به . . والله كان أعز عليه من أهله ومن نفسه ومن ولده . . ماذا كافأه الله به ؟ قال :

﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

أى أن الحق تبارك وتعالى أتمته أن يكون إماما للبشر .. والله سبحانه كان يعلم وفاء إبراهيم ولكنه اختبره لنعرف نحن البشر كيف يصطفى الله تعالى عباده المقربين وكيف يكونون أئمة يتولون قيادة الأمور .. استقبل إبراهيم هذه البشرى من الله وقال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ما هى الذرية ؟ هى النسل الذى يأتى والولد الذى يجىء .. لأنه يحب استطراق الخير عن أولاده وأحفاده وهذه طبيعة البشر ، فهم يعطون ثمرة حركتهم وعملهم فى الحياة لأولادهم وأحفادهم وهم مسرورون .. ولذلك أراد إبراهيم أن ينقل الإمامية إلى أولاده وأحفاده .. حتى لا يحرموا من القيم الإيمانية تحرس حياتهم وتؤدى بهم إلى نعيم لا يزول .. ولكن الله سبحانه وتعالى يرد على إبراهيم بقضية إيمانية أيضا هى تقريع لليهود .. الذين تركوا القيم وعبدوا المادة فيقول جل جلاله :

﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فكأن إبراهيم بأعماله قد وصل إلى الإمامية .. ولكن هذا لا ينتقل إلا للصالحين من عباده العابدين المسبحين .

وقول الحق سبحانه : « لا ينال عهدى الظالمين » مقصود به اليهود الذين باعوا قيمهم الإيمانية بالمادة ، وهو استقراء للغيب أنه سيأتى من ذرية إبراهيم من سيفسق ويظلم .

ومن العجائب أن موسى وهارون عليهما السلام كانا رسولين .. الرسول الأصيل موسى وهارون جاء ليشد أزره لأنه فصيح اللسان .. وشاءت إرادة الله سبحانه أن تستمر الرسالة فى ذرية هارون وليس فى ذرية موسى .. والرسالة ليست ميراثا ..

وقوله تعالى « لا ينال عهدي الظالمين » .. فكأن عهد الله هو الذي يجذب صاحبه أي هو الفاعل .. نأتي بعد ذلك إلى مسألة الجنس والدم واللون .. بنوة الأنبياء غير بنوة الناس كلهم فالأنبياء اصطفاؤهم اصطفاء قيم وأبناؤهم هم الذين يأخذون منهم هذه القيم وليسوا الذين يأخذون الجنس والدم واللون .. ولو رجعنا إلى قصة نوح عليه السلام حين غرق ابنه .. رفع يديه إلى السماء وقال .

﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾

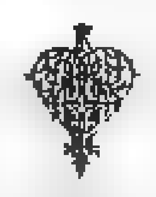
(من الآية ٤٥ سورة هود)

فرد عليه الحق سبحانه وتعالى فقال :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

إن أهل النبوة هم الذين يأخذون القيم عن الأنبياء .. ولولا أن الحق سبحانه قال لنا « إنه عمل غير صالح » .. لاعتقدنا أنه ربما جاء من رجل آخر أو غير ذلك .. ولكن الله يريدنا أن نعرف أن عدم نسبة ابن نوح إلى أبيه سببه « إنه عمل غير صالح »



﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾

وضحت لنا الآية التى سبقت أن اليهود قد انتفت صلتهم بإبراهيم عليه السلام . بعد أن تركوا القيم والدين واتجهوا إلى ماديات الحياة .. أنتم تدعون انكم أفضل شعوب الأرض لأنكم من ذرية إسحق بن إبراهيم والعرب لهم هذه الأفضلية والشرف لأنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم .. إذن فأنتم غير مفضلين عليهم .. فإذا انتقلنا إلى قصة بيت المقدس وتحويل القبلة إلى الكعبة .. نقول إن ذلك مكتوب منذ بداية الخلق أن تكون الكعبة قبلة كل من يعبد الله .

الحق سبحانه وتعالى يقول : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » .. تلص كلمة البيت وكلمة مثابة . بيت مأخوذ من البيتوتة وهو المأوى الذى تأوى إليه وتسكن فيه وتستريح وتكون فيه زوجتك وأولادك .. ولذلك سميت الكعبة بيتا لأنها هى المكان الذى يستريح إليه كل خلق الله .. ومثابة يعنى مرجعا تذهب إليه وتعود . ولذلك فإن الذى يذهب إلى بيت الله الحرام مرة يجب أن يرجع مرات ومرات .. إذن فهو مثابة له لأنه ذاق حلاوة وجوده فى بيت ربه .. وأتحدى أن يوجد شخص فى بيت الله الحرام يشغل ذهنه غير ذكر الله وكلامه وقرآنه وصلاته .. تنظر إلى الكعبة فيذهب كل ما فى صدرك من ضيق وهم وحزن ولا تتذكر أولادك ولا شئون دنياك ولو ظلت جاذبية بيت الله فى قلوب الناس مستمرة لتركوا كل شئون دنياهم ليبقوا بجوار البيت .. ولذلك كان عمر بن الخطاب حريصا على أن يعود الناس إلى أوطانهم وأولادهم بعد انتهاء مناسك الحج مباشرة ..

ومن رحمة الحق سبحانه أن الدنيا تختفى من عقل الحاج وقلبه . لأن الحجيج فى

بيت ربهم وكلما كربهم شيء أو همهم شيء توجهوا إلى ربهم وهم في بيته فيذهب عنهم الهم والكرب .. ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

أفئدة وليست أجسام وتهوى أى يلقون أنفسهم إلى البيت والحج هو الركن الوحيد الذى يحتال الناس ليؤدوه ، حتى غير المستطيع يشق على نفسه ليؤدى الفريضة والذى يؤديه مرة ويسقط عنه التكليف يريد أن يؤديه مرة أخرى ومرات

إن من الخير أن نترك الناس يثوبون إلى بيت الله .. ليمحو الله سبحانه ما في صدورهم من ضيق وهموم مشكلات الحياة

وقوله تعالى « مثابة للناس وأمنا » .. أمنا يعنى يؤمّن لمن فيه .. العرب حتى بعد أن تحللوا من دين إسمعيل وعبدوا الأصنام كانوا يؤمنون حجيج بيت الله الحرام يلقى أحدهم قاتل أبيه في بيت الله فلا يتعرض له إلا عندما يخرج

والله سبحانه وتعالى يضع من التشريعات ما يريح الناس من تقاتلهم ويحفظ لهم كبرياءهم فيأتى إلى مكان ويجعله آمنا . ويأتى إلى شهر ويجعله آمنا لا قتال فيه لعلهم حين يذوقون السلام والصفاء يمتنعون عن القتال .

والكلام عن هذه الآية يسوقنا إلى توضيح الفرق بين أن يخبرنا الله أن البيت آمن وأن يطلب منا جعله آمنا . إنه سبحانه لا يخبرنا بأن البيت آمن ولكن يطلب منا أن نؤمّن من فيه . الذى يطيع ربه يؤمن من في البيت والذى لا يطيعه لا يؤمنه .. عندما يحدث هياج من جماعة في الحرم اتخذته ستاراً لتحقيق أهدافها .. هل يتعارض هذا مع قوله تعالى . « مثابة للناس وأمنا » .. نقول لا ..

إن الله لم يعط لنا هذا كحكم ولكن كتشريع .. إن أطعنا الله نفذنا هذا التشريع وإن لم نطعه لا ننفذه

وقوله تعالى : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » .. وهنا نقف قليلا فهناك مَقام بفتح الميم ومُقام بضم الميم .. قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الأحزاب)

مَقام بفتح الميم إسم لمكان من قام .. ومُقام بضم الميم إسم لمكان من أقام .. فإذا نظرت إلى الإقامة فقل مُقام بضم الميم .. وإذا نظرت إلى مكان القيام فقل مقام بفتح الميم .. إذن فقوله تعالى : « و تخذوا من مقام إبراهيم مصلى » بفتح الميم اسم المكان الذى قام إبراهيم فيه ليرفع القواعد من البيت ويوجد فيه الحجر الذى وقف إبراهيم عليه وهو يرفع القواعد .

ولكن لماذا أمرنا الله بأن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى ؟ لأنهم كانوا يتحرجون عن الصلاة فيه .. فالذى يصلى خلف المقام يكون الحجر بينه وبين الكعبة .. وكان المسلمون يتحرجون أن يكون بينهم وبين الكعبة شيء فيخلون من الصلاة ذلك المكان الذى فيه مقام إبراهيم .. ولذلك قال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا نتخذ من مقام إبراهيم مصلى ؟ وسؤال عمر ينبع من الحرص على عدم الصلاة وبينه وبين الكعبة عائق وهم لا يريدون ذلك .. ولما رأى عمر مكانا فى البيت ليس فيه صلاة يصبح فجوة بين المصلين أراد أن تعم الصلاة كل البيت .. فنزلت الآية الكريمة .. « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى »

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى .. فكأنه جل جلاله أقر وجود مكان إبراهيم فى مكانه فاصلا بين المصلين خلفه وبين الكعبة .. وذلك لأن مقام إبراهيم له قصة تتصل بالصلاة وإتمامها على الوجه الأكمل .. والمقام سيعطينا حيثية الإمام لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

إذن هناك آيات واضحة يريدنا الله سبحانه أن نراها ونفهمها .. فمقام إبراهيم هو مكان قيامه عندما أمره الله برفع القواعد من البيت . والترتيب الزمني للأحداث هو أن البيت وُجد أولا . ثم بعد ذلك رفعت القواعد ووضع الحجر الأسود في موقعه وقد وضعه إبراهيم عليه السلام .

إن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يعطينا التاريخ بقدر ما يريد أن يعطينا العبرة ؛ فقصة بناء البيت وقع فيها خلاف بين العلماء .. متى بنى البيت ؟ بعض العلماء جعلوا بداية البناء أيام إبراهيم وبعضهم يرى أنه من عهد آدم وفريق ثالث يقول إنه من قبل آدم .. وإذا حكمنا المنطق والعقل وقرأت قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

نسأل ما الرفع أولا ؟ هو الصعود والإعلاء ، فكل بناء له طول وله عرض وله ارتفاع . ومادامت مهمة إبراهيم هي رفع القواعد فكان هناك طولا وعرضا للبيت وأن إبراهيم سيحدد البعد الثالث وهو الارتفاع .. إن البيت كان موجودا قبل إبراهيم .. ثم جاء الطوفان الذي غمر الأرض في عهد نوح فاختفى معالمه .. فأراد الله سبحانه وتعالى أن يظهره ويبين مكانه للناس .

والكعبة ليست هي البيت ولكنها هي المكين الذي يدلك على مكان البيت . إذن فالذين فهموا من قوله تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت » .. بمعنى أن إبراهيم هو الذي بنى البيت . نقول لهم إن البيت كان موجودا قبل إبراهيم وأن مهمة إبراهيم انحصرت على رفع القواعد لإظهار مكان البيت للناس .. ودليلنا على ذلك أنه الآن وقد ارتفع البناء حول الكعبة . من يصلى على السطح لا يسجد للكعبة ولكنه يسجد لجو الكعبة .. ومن يصلى في الدور الأسفل يصلى أيضا للكعبة لأن المكان غير المكين .

ولعل أكبر دليل على ذلك من القرآن الكريم .. أن إبراهيم حين أخذ هاجر وابنها

إسماعيل وتركهما في بيت الله الحرام ولم يكن قد بنى الكعبة في ذلك الوقت . وذكر البيت واقرأ قول الحق تبارك وتعالى في دعاء إبراهيم وهو يترك هاجر وطفلها الرضيع :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

يعني أن البيت كان موجوداً وإسماعيل طفل رضيع . ولكن القواعد من البيت قد أقيمت بعد أن أصبح إسماعيل شاباً يافعاً يستطيع أن يعاون أباه في بناء الكعبة . . إذن فمكان بيت الله الحرام كان موجوداً قبل أن يبني إبراهيم عليه السلام الكعبة . ولكن مكان البيت لم يكن ظاهراً للناس ، ولذلك بين الله سبحانه وتعالى لإبراهيم مكان البيت حتى يضع به العلامة التي تدل الناس عليه . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحج)

إن كثيراً من المفسرين يخفى عليهم حقيقة ما جاء في القرآن . والمفروض أننا حين نتعرض لقصة بناء البيت لابد أن نستعرض جميع الآيات التي وردت في القرآن الكريم حول هذه القصة . . ومنها قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والكلام هنا عن البيت والقول إنه وضع للناس والناس هم آدم وذريته حتى تقوم الساعة . وعلى ذلك لابد أن نفهم أن البيت مادام وضع للناس فالناس لم يضعوه . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي وضعه وحدده ، وعدل الله يأبى إلا أن يوجد البيت قبل أن يجيء آدم . ولذلك فإن الملائكة هم الذين وضعوه بأمر الله وحيث أراد الله لبيته أن يوضع . . والله مع نزول آدم إلى الأرض شرع التوبة وأوجد هذا البيت ليتوب الناس فيه إلى ربهم وليقيموا الصلاة ويتعبدوا فيه .

وعندما أراد إبراهيم أن يقيم القواعد من البيت كان يكفى أن يقيمها على قدر طول قامته ولكنه أتى بالحجر ليزيد القواعد بمقدار ارتفاع الحجر .. ويريد الله سبحانه وتعالى بمقام إبراهيم واتخاذه مصلى أن يلفتنا إلى أن الإنسان المؤمن لابد أن يعشق التكليف .. فلا يؤديه شكلا ولكن يؤديه بحب وعشق ليزيد تطوعا من جنس ما فرض الله عليه

إن الحجر الموجود فى مقام إبراهيم إنما هو دليل على عشقه عليه السلام لتكاليف ربه ومحاولته أن يزيد عليها . وإن الحجر الذى كان يقف عليه ابراهيم به حفر على شكل قدميه .. وهنا بين قائل أن الحجر لان تحت قدمى إبراهيم من خشية الله .. وبين قائل إن إبراهيم هو الذى قام بحفر مكان فى الحجر على هيئة قدميه .. حتى إذا وقف عليه ورفع يده إلى أعلى ما يمكن ليعلى القواعد من البيت كان توازنه مضبوطا

وقوله تعالى : « طهرا بيتى » دليل على أن البيت زالت معالمه تماما وأصبح مثل سائر الأرض فذبحت فيه الذبائح والقيت المحرمات ، فأمر الله سبحانه وتعالى أن يطهر هو وإسماعيل البيت من كل هذا الدنس ويجعله مكانا للثلاث طوائف : « الطائفين » وهذه مأخوذة من الطواف وهو الدوران حول الشيء .. ولذلك يسمون شرطة الحراسة بالليل طوافة لأنهم يطوفون فى الشوارع فى أثناء الليل . والله جل جلاله يقول :

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠ ﴾

(سورة القلم)

وهذه هى قصة الحديقة التى منع أولاد الرجل الصالح بعد وفاته حق الفقراء والمساكين فيها فأرسل الله سبحانه من طاف بها .. أى مشى فى كل جزء منها فأحرق أشجارها .. فالطائف هو الذى يطوف .. « والعاكفين » هم المقيمون « والركع السجود » هم المصلون فتطهير البيت لطواف به والإقامة والصلاة فيه . وهو مطهر أيضا لأنه سيكون قبلة للمسلمين لكل راكع أو ساجد فى الأرض حتى تقوم الساعة .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾

يقول الحق سبحانه وتعالى . « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » . . ومادام الله قد جعله أمنا فما هي جدوى دعوة إبراهيم أن تكون مكة بلدا آمنا . . نقول إذا رأيت طلب لموجود فاعلم أن القصد منه هو دوام بقاء ذلك الموجود . . فكأن إبراهيم يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يديم نعمة الأمن في البيت . . ذلك لأنك عندما تقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

هو خاطبهم بلفظ الإيمان ثم طلب منهم أن يؤمنوا . . كيف ؟ نقول إن الله سبحانه يأمرهم أن يستمروا ويداوموا على الإيمان . . ولذلك فإن كل مطلوب لموجود هو طلبٌ لاستمرار هذا الموجود

وقول إبراهيم : « رب اجعل هذا بلداً آمنا » . . أي يارب إذا كنت قد جعلت هذا البيت آمنا من قبل فأبقه حتى قيام الساعة . . ليكون كل من يدخل إليه آمنا لأنه

موجود فى واد غير ذى زرع .. وكانت الناس فى الماضى تخاف أن تذهب إليه لعدم وجود الأمان فى الطريق . أو آمنا أى أن يديم الله على كل من يدخله نعمة الإيمان .

وقوله تعالى : « اجعل هذا بلدا آمنا » تكررت فى آية أخرى تقول : « اجعل هذا البلد آمنا » .. فمرة جاء بها نكرة ومرة جاء بها معرفة .. نقول إن إبراهيم حين قال « رب اجعل هذا البلد آمنا » .. طلب من الله شيئين .. أن يجعل هذا المكان بلدا وأن يجعله آمنا .

ما معنى أن يجعله بلدا ؟ هناك أسماء تؤخذ من المحسات .. فكلمة غصب تعنى سلخ الجلد عن الشاة وكأن من يأخذ شيئا من إنسان غصبا كأنه يسلخه مما يبقى هو متمسك به .

كلمة بلد حين تسمعها تنصرف إلى المدينة . والبلد هو البقعة تنشأ فى الجلد فتميزه عن باقى الجلد كأن تكون هناك بقعة بيضاء فى الوجه أو الذراعين فتكون البقعة التى ظهرت مميزة ببياض اللون . والمكان إذا لم يكن فيه مساكن ومبان فيكون مستويا بالأرض لا تستطيع أن تميزه بسهولة . وإذا أقمت فيه مبانى جعلت فيه علامة تميزه عن باقى الأرض المحيطة به .

وقوله تعالى : « وارزق أهله من الثمرات » .. هذه من مستلزمات الأمن لأنه مادام هناك رزق وثمرات تكون مقومات الحياة موجودة فيبقى الناس فى هذا البلد . ولكن إبراهيم قال : « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم » فكأنه طلب الرزق للمؤمنين وحدهم . لماذا ؟ لأنه حينما قال له الله :



(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

قال إبراهيم :

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

قال الله سبحانه :

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فحتى إبراهيم وهو يطلب لمن سيقيمون في مكة أن تكون استجابة الله سبحانه كالاستجابة السابقة كان يقال له لا ينال رزق الله الظالمون. فاستدرك إبراهيم وقال « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم » ولكن الله سبحانه أراد أن يلفت إبراهيم إلى أن عطاء الألوهية ليس كعطاء الربوبية . فإمامة الناس عطاء ألوهية لا يناله إلا مؤمن ، أما الرزق فهو عطاء ربوبية يناله المؤمن والكافر لأن الله هو الذي استدعانا جميعا إلى الحياة وكفل لنا جميعا رزقنا وكان الحق سبحانه حين قال : « لا ينال عهدي الظالمين » . كان يتحدث عن قيم المنهج التي لا تعطى إلا للمؤمن ولكن الرزق يعطى للمؤمن والكافر . لذلك قال الله سبحانه . « ومن كفر » . . وفي هذا تصحيح مفاهيم بالنسبة لإبراهيم ليعرف أن كل من استدعاه الله تعالى للحياة له رزقه مؤمنا كان أو كافرا والخير في الدنيا على الشيوع . فمادام الله قد استدعاك فإنه ضمن لك رزقك .

إن الله لم يقل للشمس أشرقي على أرض المؤمن فقط ، ولم يقل للهواء لا يتنفسك كافر وإنما أعطى نعمه استبقاء الحياة واستمرارها لكل من خلق آمن أو كفر ولكن من كفر قال عنه الله سبحانه وتعالى . « ومن كفر فأمتعه قليلا » . . التمتع هو شيء يحبه الإنسان ويتمنى دوامه وتكراره .

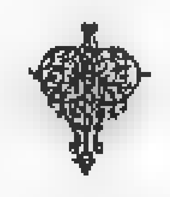
وقوله تعالى « فأمتعه » دليل على دوام متعته ، أي له المتعة في الدنيا ولكل نعمة متعة ، فالطعام له متعة والشراب له متعة والجنس له متعة إذن فالتمتع في الدنيا بأشياء مخادعة ولكن الله تبارك وتعالى وصفه بأنه قليل لأن المتعة في الدنيا مهما بلغت وتعددت ألوانها فهي قليلة

واقرأ قوله تعالى : « ثم اضطره إلى عذاب النار » .. ومعنى أضطره أنه لا اختيار له فى الآخرة ، فكأن الإنسان له اختيار فى الحياة الدنيا يأخذ هذه ويترك هذا ولكن فى الآخرة ليس له اختيار .. فلا يستطيع وهو من أهل النار مثلا أن يختار الجنة بل إن أعضاءه المسخرة لخدمته فى الحياة الدنيا والتى يأمرها بالمعصية فتفعل ، لا ولاية له عليها فى الآخرة وهذا معنى قوله سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة النور)

أى أن الجوارح التى كانت تطيع الكافر فى المعاصى فى الدنيا لا تطيعه يوم القيامة ؛ فاللسان الذى كان ينطق كلمة الكفر والعياذ بالله يأتى يوم القيامة يشهد على صاحبه .. والقدم التى كانت تمشى إلى أماكن الخمر والنهر والفسوق تشهد على صاحبها ، واليد التى كانت تقتل وتسرق تشهد على صاحبها.وقوله : « أضطره » معناه أن الإنسان يفقد اختياره فى الآخرة ثم ينتهى إلى النار وإلى العذاب الشديد مصداقا لقوله تعالى : « ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » .. أى أن الله سبحانه وتعالى يحذر الكافرين بأن لهم النار والعذاب فى الآخرة ليس على اختيار منهم ولكن وهم مقهورون .



﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ
رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾

يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم اذكر عندما كان إبراهيم يرفع القواعد من البيت .. وجاءت « يرفع » هنا فعلا مضارعا لتصوير الحدث الآن وفي المستقبل

ولكن هل يرفع إبراهيم القواعد من البيت الآن ؟ أم انه رفع وانتهى ؟ طبعا هو رفع وانتهى ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يستحضر حالة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت .. والله يريد من المؤمنين أن يتصوروا عملية الرفع ، فلم يكن إبراهيم يملك سلما حتى يرفعه ويقف فوقه ، ولم يكن يملك « سقالة » .. ولكن غياب هذه النعم لم يمنع إبراهيم من أن يتحايل ويأتي بالحجر .

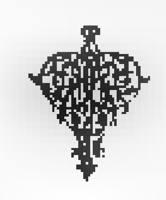
إن الله يريد منا ألا ننسى هذه العملية ، وإبراهيم وابنه إسماعيل يذهبان للبحث عن حجر ، ولابد أن يكون الحجر خفيف الوزن ليستطيعا أن يحملاه إلى مكان البناء .. ثم يقف إبراهيم على الحجر وإسماعيل يناوله الأحجار الأخرى التي سيتم بها رفع القواعد من البيت . ورغم المشقة التي يتحملها الإثنان هما سعيدان .. وكل ما يطلبانه من الله هو أن يتقبل منهما . والقبول والمقابلة والاستقبال كلها من مادة مواجهة .. أي أنهما يسألان الله في موقف المعرض عن عمله ، إنهما لا يريدان إلا الثواب : « تقبل منا » أي اعطنا الثواب عما نعمله لأجلك وتنفيذا لأمرك .

وقوله تعالى : « إنك أنت السميع العليم » .. أي أنت يارب السميع الذي تسمع دعاءنا وتسمع ما نقول . « والعليم » .. العليم بنيتنا ومدى إخلاصنا

لك . وإننا نعمل هذا العمل ابتغاء لوجهك ولا نقصد غيرك .. ذلك أن الأعمال بالنيات ، وقد يعمل رجلان عملا واحدا.أحدهما يثاب لأنه يعمله إرضاء لله وتقربا منه والآخر لا يثاب لأنه يفعله من أجل الدنيا

والله سبحانه وتعالى عليم بالنية فإن كان العمل خالصا لله تقبله ، وإذا لم يكن خالصا لوجهه لا يتقبله .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)(١) إذن فالعمل إن لم يكن خالصا لله فلا ثواب عليه



(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجة وأبو نعيم في الحلية والدارقطني بألفاظ مختلفة

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ
وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾

هناك فرق بين أن تكلف بشيء فتفعله بحب .. وأن تفعل شكلية التكليف وتخرج من عملك خروج الذي ألقى عن كاهله عبء التكليف .. في هذه الآية الكريمة دعاء إبراهيم وابنه إسماعيل وكأنهما يقولان يارب أنت أمرتنا أن نرفع القواعد من البيت وقد فعلنا ما أمرتنا .. وليس معنى ذلك أننا اكتفينا بتكليفك لنا لأننا نريد أن نذوق حلاوة التكليف منك مرات ومرات .. «ربنا واجعلنا مسلمين لك» نسلم كل أمورنا إليك.

إن الإنسان لا يمكن أن ينتهي من تكليف ليطلب تكليفا غيره إلا إذا كان قد عشق حلاوة التكليف ووجد فيه استمتاعا .. ولا يجد الإنسان استمتاعا في التكليف إلا إذا استحضر الجزاء عليه .. فكلما عمل شيئا استحضر النعيم الذي ينتظره على هذا العمل فطلب المزيد.

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بمجرد أن فرغا من رفع القواعد من البيت قالا «ربنا واجعلنا مسلمين لك» ولم يكتفيا بذلك بل أرادا امتداد حلاوة التكليف إلى ذريتهما من بعدهما .. فيقولان «ومن ذريتنا أمة مسلمة لك» .. ليتصل أمد منهج الله في الأرض ويستمر التكليف من ذرية إلى ذرية إلى يوم القيامة .. ثم يقولان: «وأرنا مناسكنا» .. أي بين لنا يارب ما تريده منا .. بين لنا كيف نعبدك وكيف نتقرب إليك .. والمناسك هي الأمور التي يريد الله سبحانه وتعالى أن نعبده بها.

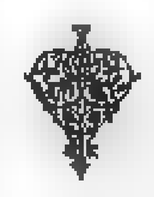
وقوله: «وأرنا مناسكنا» ترينا أن إبراهيم يرغب في فتح أبواب التكليف على

نفسه ، لأنه لا يرى في كل تكليف إلا تطهير للنفس وخيرا للذرية ونعيما في الآخرة ولذلك يقول كما يروى لنا الحق : « وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » وتب علينا ليس ضروريا أن نفهمها على أنها توبة من المعصية وأن إبراهيم وإسماعيل وقعا في المعصية فيريدان التوبة إلى الله . وإنما لأنهما علما أن من سيأتي بعدهما سيقع في الذنب فطلبا التوبة للذريتهما ومن أين علِما ؟ عندما قال الله سبحانه وتعالى لإبراهيم . « ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » .

لقد طلبا من الله تبارك وتعالى التوبة والرحمة لذريتهما والله يحب التوبة من عباده وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره وقد أضله في فلاة .. لأن المعصية عندما تأخذ الإنسان من منهج الله لتعطيه نفعا عاجلا فإن حلاوة الإيمان - إن كان مؤمنا - ستجذبه مرة أخرى إلى الإيمان بعيدا عن المعاصي . ولذلك قيل إن انتفعت بالتوبة وندمت عن ما فعلت فإن الله لا يغفر لك ذنوبك فقط ولكن يبدل سيئاتك حسنات .. وقلنا إن تشريع التوبة كان وقاية للمجتمع كله من أذى وشر كبير . لأنه لو كان الذنب الواحد يجعلك خالدا في النار ولا توبة بعده لتجبر العصاة وازدادوا شرا . ولأصبح المجتمع كله بشرورهم ولَيئس الناس من آخرتهم لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون)[1] .

لذلك فمن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية .



(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه والدارمي في سننه والحاكم في مستدركه

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

دعا إبراهيم عليه السلام الله سبحانه وتعالى ليتم نعمته على ذريته ويريد رحمته على عبده بأن يرسل لهم رسولا يبلغهم منهج السماء حتى لا تحدث فترة ظلام في الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر ويعبد الناس فيها الأصنام كما حدث قبل إبراهيم .

كلمة « رسولا منهم » ترد على اليهود الذين أحزنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب ، وأن الرسالة كان يجب أن تكون فيهم .. ونحن نقول لهم ان جدنا وجدكم إبراهيم وأنتم من ذرية يعقوب بن اسحق.ومحمد صلى الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم وأخ لإسحاق ولا حجة لما تدعونه من أن الله فضلكم واختاركم على سائر الشعوب .. إنما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يسلب منكم النبوة لأنكم ظلمتم في الأرض وعهد الله لا يناله الظالمون .

أراد الحق تبارك وتعالى أن يقول لهم ان هذا النبي من نسل إبراهيم وانه ينتمي إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

قوله تعالى : « يتلو عليهم آياتك » .. أي آيات القرآن الكريم

وقوله تعالى : « ويعلمهم الكتاب والحكمة » .. يجب أن نعرف ان هناك فرقا بين التلاوة وبين التعليم . فالتلاوة هي أن تقرأ القرآن ، أما التعليم فهو أن تعرف معناها وما جاءت به تطبقه وتعرف من أين جاءت .. وإذا كان الكتاب هو القرآن الكريم

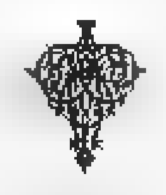
فإن الحكمة هي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي قال الحق سبحانه وتعالى فيها في خطابه لزوجات النبي :

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأحزاب)

وقوله تعالى « ويزكيهم » أي ويطهرهم ويقودهم إلى طريق الخير وتمام الإيمان

وقوله جل جلاله : « إنك أنت العزيز الحكيم » .. أي العزيز الذي لا يغلب جبروته ولا يسأله أحد .. « والحكيم » الذي لا يصدر منه الشيء إلا بحكمة بالغة .



﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

ماملة إبراهيم؟ إنها عبادة الله وحده لاشريك له وعشق التكاليف، فإبراهيم وَفَّى كل ما كلفه به الله وزاد عليه. وقبل الابتلاء بالطاعة والصبر.. فعندما ابتلاه الله بذبح ابنه الوحيد لم يتردد وكان يؤدى التكاليف بعشق ويحاول أن يستبقى المنهج السليم فى ذريته.

قوله تعالى: «ومن يرغب» يعنى يعرض ويرفض. ويقال رغب فى كذا أى أحبه وأراده. ورغب عن كذا أى صَدَّ عنه وأعرض.. والذين يصدُّون عن ملة إبراهيم ويرفضونها هؤلاء هم السفهاء الجهلة، لذلك قال عنهم الله سبحانه وتعالى: «إلا من سفه نفسه» دليل على ضعف الرأى وعدم التفرقة بين النافع والضار.. فعندما يكون هناك من ورثوا مالاً وهم غير ناضجى العقل لا يتفق عقلهم مع سنهم نسميهم السفهاء.. والسفيه هو من لم ينضج رأيه ولذلك تنتقل قوامته عن ماله إلى ولى أو وصى؛ لأنه بِسَفَهِهِ غيرُ قادر على أن ينفق المال فيما ينفع..

والقرآن الكريم يعالج هذه المسألة علاجا دقيقا فيقول:

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى سمى أموال السفهاء بأموال الولى ولم يعتبرها مال السفيه لأنه ليس أهلا للقيام عليها وجعل هذه الأموال تحت إشراف شخص آخر أكثر نضجا وحكمة .

وقوله تعالى : « أموالكم » ليكون للولى أو للوصى حرصا عليها كماله أو أكثر ولكن هو قيم فقط . فإذا بلغ الإنسان سن الرشد أو شفى السفيه من سفاهته يرد إليه ماله ليتصرف فيه .

ونحن نرى عددا من الأبناء يرفعون قضايا على آبائهم وأمهاتهم يتهمونهم فيها بالسفه لأنهم لا يحسنون التصرف فى أموالهم ثم يأخذون هذه الأموال ويعتبرونها لهم والذى يجب أن يعلمه كل من يقوم بهذه العملية أنه لا حق له فى إنفاق المال وتبديده لحسابه الخاص ، ولكنّ هناك حكمين.إما أن يكون الشخص فقيرا فله أن يأكل بالمعروف .. وإما أن يكون غنيا فيجعل عمله فى الولاية لله لا يتقاضى عنه شيئا . أما أن يأخذ المال وينفقه على نفسه وشهواته وعلى زوجته وأولاده فهذا مرفوض ويحاسب عليه . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إذن الذى يعرض عن ملة إبراهيم هو سفيه لا يملك عقلا يميز بين الضار والنافع .

ويقول الله سبحانه وتعالى : « ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » .. اصطفاه فى الدنيا بالمنهج وبأن جعله إماما وبالابتلاء . وكثير من الناس يظن ان ارتفاع مقامات بعضهم فى أمور الدنيا هو اصطفاء من الله لهم بأن أعطاهم زخرف الحياة الدنيا ويكون هذا مبررا لأن يعتقدوا أن لهم منزلة عالية فى الآخرة .. نقول لا ، فمنازل الدنيا لا علاقة لها بالآخرة ولذلك قال الله تبارك وتعالى : « ولقد اصطفيناه فى الدنيا » .. وأضاف : « وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » . لنعلم أن إبراهيم عليه السلام له منزلة عالية فى الدنيا ونعيم فى الآخرة أى الاثنين معا .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى انه قال لإبراهيم أسلم فقال أسلمت .. إذن فمطلوب الحق سبحانه وتعالى من عبده أن يسلم إليه .. ولم يقل الحق أسلم إلىّ لأنها مفهومة. ولم يقل أسلم لربك لأن الإسلام لا يكون إلا لله.لأنه هو سبحانه المأمون علينا. على أن إبراهيم عليه السلام قال في رده: «أسلمت لرب العالمين».

ومعنى ذلك أنه لن يكون وحده في الكون.لأنه إذا أسلم لله الذي سخر له ما في السموات والأرض .. يكون قد انسجم مع الكون المخلوق من الله للإنسان. ومَنْ أكثر نفعاً في العقل ممن يُسلم وجهه لله سبحانه. لأنه يكون بذلك قد أسلمه إلى عزيز حكيم قوى لا يقهر، قادر لا تنتهى قدرته. غالب لا يغلب، ورازق لا يأتي الرزق إلا منه. فكأنه أسلم وجهه للخير كله.

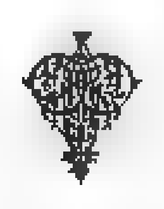
والدين عند الله سبحانه وتعالى منذ عهد آدم إلى يوم القيامة هو إسلام الوجه لله، ولماذا الوجه؟ لأن الوجه أشرف شيء في الإنسان يعتز به ويعتبره سمة من سمات كرامته وعزته .. ولذلك فنحن حين نريد منتهى الخضوع لله في الصلاة نضع جباهنا ووجوهنا على الأرض .. وهذا منتهى الخشوع والخضوع أن تضع أشرف ما فيك وهو وجهك على الأرض إعلانا لخضوعك لله سبحانه وتعالى.

والله جل جلاله يريد من الإنسان أن يسلم قيادته لله .. بأن يجعل اختياراته في الدنيا لما يريده الله تبارك وتعالى .. فإذا تحدث لا يكذب، لأن الله يحب الصدق،

وإذا كلف شيء يفعله لأن التكييف في صالحنا ولا يستفيد الله منه شيئا . . وإذا قال الله تعالى تصدق بمالك أسرع يتصدق بماله ليرد له أضعافا مضاعفة في الآخرة وبقدرة الله .

وهكذا نرى أن الخير كله للإنسان هو أن يجعل مراداته في الحياة الدنيا طبق لما أراده الله . . وفي هذه الحالة يكون قد انسجم مع الكون كله ونجد أن الكون يخدمه ويعطيه وهو سعيد .

أما من يسلم وجهه لغير الله فقد اعتمد على قوى يمكن أن يضعف ، وعلى غنى يمكن أن يفتقر وعلى موجود يمكن أن يموت ويصبح لا وجود له ولذلك فهو في هذه الحالة يتصف بالسفاهة لأنه اعتمد على الضار وترك النافع



﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝١٣٢ ﴾

عندما تقرأ كلمة وصى فاعلم أن الوصية تأتى لحمل الإنسان على شىء نافع فى آخر وقت لك فى الدنيا ، لأن آخر ساعات الإنسان فى الدنيا إن كان قد غش فيها يغش الناس جميعا فساعة يحتضر لا يغش نفسه أبدا ولا يغش أحدا من الناس لماذا ؟ لأنه يحس إنه مقبل على الله سبحانه فيقول كلمة الحق .

النصح أو الوصية هى عظة تحب أن يستمسك بها من تنصحه وتقولها له مخلصا فى آخر لحظة من لحظات حياته . . ولذلك سيأتى الله سبحانه وتعالى ليبين لنا ذلك فى قوله :

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة البقرة).

وهكذا يريد الله سبحانه أن يبين لنا أن الوصية دائما تكون لمن تحب . . وأن حب الإنسان لأولاده أكيد سواء أكان هذا الإنسان مؤمنا أم كافرا . . ونحن لا نتمنى أن يكون فى الدنيا من هو أحسن منا إلا أبناءنا ونعمل على ذلك ليكون لهم الخير كله .

وصىّ إبراهيم بنيه ، ويعقوب وصى بنيه . وكانت الوصية « يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين » إذن فالوصية لم تكن أمرا من عند إبراهيم ولا أمرا من عند يعقوب ، ولكن كانت أمرا يختاره الله للناس فلم يجد إبراهيم ولا يعقوب أن يوصيا

أولادهما إلا بما اختاره الله .. فكأن إبراهيم التمس الله على نفسه فنفذ التكاليف والتمسه على أولاده فأراد منهم أن يتمسكوا بما اختاره لهم الله .

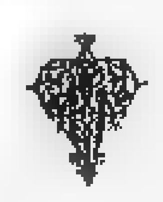
قوله تعالى : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب » إبراهيم هو الأب الكبير وابنه اسحق وابن اسحق يعقوب .. ويعقوب هو الأب المباشر لليهود ويعقوب وصاهم كما يروى لنا القرآن الكريم : « يا بنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون » .

أنت لا تنهى إنسانا عن أمر إلا إذا كان فى امكانه أن يتجنبه ولا تأمره به إلا إذا كان فى إمكانه أن ينفذه . فهل يملك أولاد يعقوب أن يموتوا وهم مسلمون ؟ والموت لا يملكه أحد . إنه يأتى فى أى وقت فجأة . ولكن مادام يعقوب قد وصى بنيه « لا تموتن إلا وأنتم مسلمون » فالمعنى لا تفارقوا الإسلام لحظة حتى لا يصادفكم الموت إلا وأنتم مسلمون .

والله سبحانه وتعالى أخفى موعد الموت ومكانه وسببه .. ليكون هذا إعلاما به ويتوقعه الناس فى أى سن وفى أى مكان وفى أى زمان .. ولذلك قد يلتمس العافية فى أشياء يكون الموت فيها . والشاعر يقول :

إن نام عنك فكل طب نافع
أو لم ينم فالطب من أسبابه

أى إن لم يكن قد جاء الأجل ، فالطب ينفعك ويكون من أسباب الشفاء . أما إذا جاء الأجل فيكون الطب سببا فى الموت ، كأن تذهب لإجراء عملية جراحية فتكون سبب موتك . فالإنسان لابد أن يتمسك بالإسلام وبالمنهج ولا يغفل عنه أبدا .. حتى لا يأتيه الموت فى غفلته فيموت غير مسلم .. والعياذ بالله .



﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

هذا خطاب من يعقوب ينطبق ويمس اليهود المعاصرين لنزول القرآن الكريم .. يعقوب قال لأبنائه ماذا تعبدون من بعدي : « قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون » ..

هذا إقرار من الأسباط أبناء يعقوب بأنهم مسلمون وأن آباءهم مسلمون .. وتأمل دقة الأداء القرآني في قوله تعالى : « نعبد إلهك وإله آبائك » .. فكأنه لم يحدث بعد موت إبراهيم وحين كان يعقوب يموت لم يحدث أن تغير المعبود وهو الله سبحانه وتعالى الواحد .. ولذلك قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم : « إلها واحدا » .. وسنأخذ من هذه الآية لقطة تفيدنا في أشياء كثيرة لأن القرآن سيتعرض في قصة إبراهيم انه تحدث مع أبيه في شئون العقيدة .. فقال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ونحن نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلالة إسماعيل ابن إبراهيم .. والرسول عليه الصلاة والسلام قال :

(أنا سيد ولد آدم)[١]

فإذا كان آزرُ أبو إبراهيم كافراً وعابداً للأصنام . فكيف تصح سلسلة النسب الشريف ؟ نقول إنه لو أن القرآن قال « وإذ قال إبراهيم لأبيه » وسكت لكان المعنى أن المخاطب هو أبو إبراهيم . . ولكن قول الله : « لأبيه آزر » . جاءت لحكمة لأنه ساعة يذكر اسم الأب يكون ليس هو الأب ولكن العم . فأنت إذا دخلت منزلا وقابلك أحد الأطفال تقول له هل أبوك موجود ولا تقول أبوك فلان لأنه معروف بحيث لن يخطيء الطفل فيه ولكن إذا كنت تقصد العم فإنك تسأل الطفل هل أبوك فلان موجود ؟ فأنت في هذه الحالة تقصد العم ولا تقصد الأب لأن العم في منزلة الأب خصوصا إذا كان الأب متوفيا .

إذن قول الحق سبحانه وتعالى « لأبيه آزر » بذكر الاسم سماه لعمه آزر . . فإذا قال إنسان هل هناك دليل على ذلك ؟ نقول نعم هناك دليل من القرآن في هذه الآية الكريمة : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك » والآباء جمع أب . ثم حدد الله تبارك وتعالى الآباء ، إبراهيم وهو الجد يطلق عليه أب وإسماعيل وهو العم يطلق عليه أب وإسحق وهو أبو يعقوب وجاء إسماعيل قبل إسحق .

إذن ففي هذه الآية جمع أب من ثلاثة هم إبراهيم وإسماعيل وإسحق . . ويعقوب الذي حضره الموت هو ابن إسحق ، ولكن أولاد يعقوب لما خاطبوا أباهم قالوا آبائك ثم جاءوا بأسمائهم بالتحديد . وهم إبراهيم الجد وإسماعيل العم وإسحق بن يعقوب وأطلقوا عليهم جميعا لقب الأب فكأن إسماعيل أطلق عليه الأب وهو العم وإبراهيم أطلق عليه الأب وهو الجد وإسحق أطلق عليه الأب وهو الأب فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(أنا أشرف الناس حسباً ولا فخر)[٢] .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس

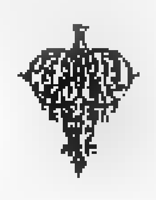
يقول بعض الناس كيف ذلك ووالد إبراهيم كان غير مسلم . ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« أنا سيد ولد آدم »(1) .

فإذا قال أحدهم كيف هذا وأبو إبراهيم عليه السلام كان مشركا عابدا للأصنام نقول له لم يكن آزر أبا لإبراهيم وإنما كان عمه ، ولذلك قال القرآن الكريم « لأبيه آزر » وجاء بالاسم يريد به الأبوة غير الحقيقية . . فأبوة إبراهيم وأبوة إسحق معلومة لأولاد يعقوب . . ولكن إسماعيل كان مقيما في مكة بعيدا عنهم ، فلماذا جاء اسمه بين إبراهيم وإسحق ؟ نقول جاء بالترتيب الزمني لأن إسماعيل أكبر من إسحق بأربعة عشر عاما .

وكونه وصف الثلاثة بأنهم آباء . . إشارة لنا من الله سبحانه وتعالى أن لفظ الأب يطلق على العم . .

والله تبارك وتعالى يريدنا أن ننتبه لمعنى كلمة آزر . . ويريد أن يلفتنا أيضا إلى أن تعدد البلاغ عن الله لا يعني تعدد الآلهة لذلك قال سبحانه : « إلها واحدا »



(1) أخرجه الإمام مسلم

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) ﴾

وقوله تعالى : « خلت » أى انفردت، وخلا فلان بفلان أى انفرد به .. وخلا المكان من نزيله أى أصبح المكان منفردا ، والنزيل منفردا ولا علاقة لأحدهما بالآخر .. الله تبارك وتعالى يقول .

﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة البقرة)

أى انفردوا هم وشياطينهم ولم يعد فى المكان غيرهم ، ولقد قلنا إن كل حدث لابد أن يكون له محدث ، ولا حدث يوجد بذاته ، وكل حدث يحتاج إلى زمان ويحتاج إلى مكان .. فإذا قال الحق تبارك وتعالى : « تلك أمة قد خلت » فمعناه أنه إنقضى زمانها وانفرد عن زمانكم

والمقصود بقوله تعالى : « تلك أمة قد خلت » أى انتهى زمانها .. وتلك إسم إشارة لمؤنث مخاطب وأمة هى المشار إليه والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولعامة المسلمين . والله سبحانه وتعالى حين يقول : « تلك أمة » فكأنها مميزة بوحدة عقيدتها ووحدة إيمانها حتى أصبحت شيئا واحدا .. ولذلك لابد أن يخاطبها بالوحدة .. واقرأ قوله تعالى .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) ﴾

(سورة الأنبياء)

وتلك هنا إشارة لأمة إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب .. هم جماعة كثيرة لهم عقيدة واحدة .

وقوله تعالى : « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » .. أى تلك جماعة على دين واحد تحاسب عما فعلته كما ستحاسبون أنتم على ما عملتم .. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾

(من الآية ١٢٠ سورة النحل)

وإبراهيم فرد وليس جماعة ؟ نقول نعم إن إبراهيم فرد ولكن اجتمعت فيه من خصال الخير ومواهب الكمال ما لا يجتمع إلا فى أمة

وقوله تعالى . « قد خلت » يراد بها إفهام اليهود ألا ينسبوا أنفسهم إلى إبراهيم نسبا كاذبا لأن نسب الأنبياء ليس نسبا دمويا أو جنسيا أو انتماء . وإنما نسب منهج واتباع .. فكأن الحق يقول لليهود لن ينفعكم أن تكونوا من سلالة إبراهيم ولا اسحق ولا يعقوب . لأن نسب النبوة هو نسب إيمانى فيه اتباع للمنهج والعقيدة ولا يشفع هذا النسب يوم القيامة لأن لكل واحد عمله

قوله تعالى : « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » .. الكسب يؤخذ على الخير والاكتساب يؤخذ فى الشر لأن الشر فيه افتعال .

إننا لابد أن نلتفت ونتنبه إلى آيات القرآن الكريم حتى نستطيع أن نرد على أولئك الذين يحاولون الطعن فى القرآن . فلا يوجد معنى لآية تهدمها آية أخرى ولكن يوجد عدم فهم .

يأتى بعض المستشرقين ليقول هناك آية فى القرآن تؤكد أن الله سبحانه وتعالى يعطى بالأنساب وذلك فى قوله جل جلاله :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ

﴿ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

الأبناء مؤمنون ، وقوله تعالى : « ألحقنا بهم ذريتهم » كلمة ألحقنا تأتى عندما تلحق ناقصا بكامل .. فإذا كان الاثنان مؤمنين فكأنك تريد درجة الأبناء إكراما لآبائهم المؤمنين .. تقول إن الإيمان شيء والعمل بمقتضى الإيمان شيء آخر .. الأب والذرية مؤمنون ولكن الآباء تفانوا فى العمل والأبناء ربما قصروا قليلا . ولكن هنا رفع درجة بالنسبة للمؤمنين أى لابد أن يكون الأب والذرية مؤمنين . ولكن غير المؤمنين منفصلون ليس لهم علاقة بآبائهم انقطعت الصلة بينهم بسبب الإيمان والكفر . فالآباء لهم أعمال حسنة كثيرة .. والأبناء لهم أعمال حسنة أقل . ينزل الله الأبناء فى الجنة مع آبائهم لأن الإيمان واحد .

وقوله تعالى : « وما ألتناهم » أى أنتقصناهم من عملهم من شيء . إذن فالآباء والذرية مأخوذون بإيمانهم ، والله بفضله يلحق الأبناء بالآباء .

قوله تعالى : « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » .. هذه عملية الإيمان فى العقيدة .. قد يقول البعض إن الله تبارك وتعالى يقول .



(من الآية ٢١ سورة الطور)

ويقول سبحانه :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النجم)

فكيف يأخذ الأبناء جزاء بدون سعى ؟ نقول افهموا النصوص جيدا . قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » تحدد العدل ولكنها لا تحدد الفضل الذى يعطيه الله سبحانه لمن شاء من عباده ، وهذا يعطى بلا حساب . ثم من الذى قال

إن هذا ليس من سعيهم ؟ إن إلحاق الأبناء المؤمنين بالمنزلة العالية لآبائهم-تكريم لعمل الآباء وليس زيادة لعمل الأبناء .

ولقد روى لنا العلماء ان ولدا كان مؤمنا طائعا عابدا وأبوه كان مسرفا على نفسه .. فلما مات الأب حزن عليه ابنه ولكنه رأى أن أباه جالس فوق رأسه ومعه واحدة من الحور العين تؤنسه .. فتعجب الإبن كيف ينال أبوه هذه المكافأة وقد كان مسرفا على نفسه فسأله : كيف وصلت هذه المنزلة ؟ فقال الأب أى منزلة .. قال الابن أن تكون معك واحدة من الحور العين .. فقال الأب وهل فهمت انها نعيم لى .. قال الابن نعم . فقال الأب:لا،أنا عقوبة لها .. الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٥٨)

(سورة يونس)

إذن أنت فى الآخرة ستفرح بفضل الله ورحمته أكثر من فرحك بعملك الصالح .. مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يُدْخِلَ الجنة أحداً عَمَلُه ، قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمته)[1] .

ربما يأتى أحد ويقول الصلاة على الميت ما هو القصد الشرعى منها .. إن كانت تفيدُه فستكون الفائدة زيادة على عمله .. وإن لم تكن تعطيه أكثر من عمله فما فائدتها ؟.

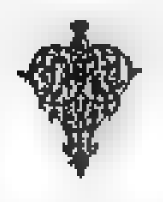
نقول:مادام الشرع كلفنا بها فلها فائدة . وهل تظن أن الصلاة على الميت ليست من عمله ؟ هى داخلة فى عمله لأنه مؤمن وإيمانه هو الذى دفعك للصلاة عليه .. والذى تدعو له بالخير وبالرحمة وبالمغفرة ويتقبلها الله .. أيقال انه أخذ غير عمله ؟ لا،إنك لم تدع له إلا بعد أن أصابك الخير منه .. ولكنك لا تدعو مثلا

---

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد فى مسنده

لإنسان لتمد يدك إلى خمارة أو إلى فاحشة أو إلى منكر . . بل تدعو لمن أعطاك خيرا فإن استجاب الله لك فهو من عمله .

الله سبحانه وتعالى يقول إن ما كان يعمله من سبقكم من الأمم لا تسألون عنه . . وإن كنتم تدعون ان إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا نقل لكم أنتم لن تسألوا عما كان يعمل إبراهيم ولكن عليكم أنفسكم . السؤال يكون عن عملكم .



﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

عندما تأتى - قالوا - معناها إن الذين قالوا جماعة .. الذين قالوا هم اليهود والنصارى.ولكن كلا منهم قال قولا مختلفا عن الآخر .. قالت اليهود كونوا هودا، وقالت النصارى كونوا نصارى ..

ونحن عندنا عناصر ثلاثة : اليهود والنصارى والمشركون.ويقابل كل هؤلاء المؤمنون. « وقالوا كونوا » من المقصود بالخطاب ؟ المؤمنين .. أو قد يكون المعنى وقالت اليهود للمؤمنين والمشركين والنصارى كونوا هودا .. وقالت النصارى لليهود والمشركين والمؤمنين كونوا نصارى .. لأن كل واحد منهما لا يرى الخير إلا فى نفسه .. ولكن الإسلام جاء وأخذ من اليهودية موسى وتوراته الصحيحة،وأخذ من المسيحية عيسى وإنجيله الصحيح . وكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

ومعنى ذلك ان الإسلام أخذ وحدة الصفقة الإيمانية المعقودة بين الله سبحانه وبين كل مؤمن . ولذلك نجد فى القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾

(من الآية ٢٨٥ سورة البقرة)

ويلاحظ أن المشركين لم يدخلوا فى القول لأنهم ليسوا أهل كتاب .

قوله تعالى : « بل ملة إبراهيم حنيفا » . . أى رد عليهم ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنى سأكون تابعا لدين إبراهيم وهو الحنيفية . . وهم لا يمكن أن يخالفوا فى إبراهيم فاليهود اعتبروه نبيا من أنبيائهم . . والنصارى اعتبروه نبيا من أنبيائهم ولم ينفوا عنه النبوة ولكن كلا منهم أراد أن ينسبه لنفسه

ما معنى حنيف ؟ إن الاشتقاقات اللفظية لابد أن يكون لها علاقة بالمعنى اللغوى . . الحنف ميل فى القدمين أن تميل قدم إلى أخرى . هو تقوس فى القدمين فتميل القدم اليمنى إلى اليسار أو اليسرى إلى اليمين هذا هو الحنف . ولكن كيف يؤتى بلفظ يدل على العوج ويجعله رمزا للصراط المستقيم ؟

لقد قلنا إن الرسل لا يأتون إلا عندما تعم الغفلة منهج الله . لأنه مادام وجد من أتباع الرسول من يدعو إلى منهجه ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يكون هناك خير .

النفس البشرية لها ألوان فهناك النفس اللوامة تصنع شرا مرة فيأتى من داخل النفس ما يستنكر هذا الشر فتعود إلى الخير . . ولكن هناك النفس الأمارة بالسوء وهى التى لا تعيش إلا فى الشر تأمر به وتغرى الآخرين بفعله إذا فسد المجتمع وأصبحت النفوس أمارة بالسوء ينطبق عليها قول الحق سبحانه :

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة المائدة)

. تتدخل السماء برسول يعالج عوجاج المجتمع ولكن الله تبارك وتعالى وضع عنصر الخيرية فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة

قال تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فقد ائتمن الله تبارك وتعالى أمة محمد على المنهج .. ومادام فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فلن يأتي رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم .

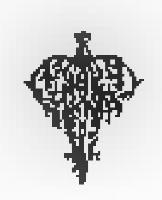
نعود إلى قوله تعالى حنيفا .. قلنا إن الحنف هو الاعوجاج .. ونقول إن الاعوجاج عن المعوج اعتدال .. والرسل لا يأتون إلا بعد اعوجاج كامل في المجتمع . ليصرفوا الناس عن الاعوجاج القائم فيميلون إلى الاعتدال .. لأن مخالفة الاعوجاج اعتدال .

وقوله تعالى : « حنيفا » تذكرنا بنعمة الله على الوجود كله لأنه يصحح حركة البشر عن منهج الله ويأخذ الناس من الاعوجاج الموجود إلى الاعتدال .. والهداية عند اليهود والنصارى مفهومها تحقيق شهوات نفوسهم لأن بشرا يهدى بشر .. والله سبحانه وتعالى قال :



(من الآية ١٢٠ سورة البقرة)

ولقد تعايش رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة مع اليهود ولكنهم حاربوه ولم يرضوا عنه . وإبراهيم عليه السلام كان مؤمنا حقا ولم يكن مشركا ..



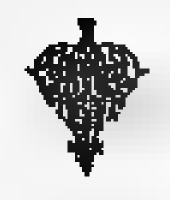
﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ ﴾

هذه الآية الكريمة تعطينا تفسيرا لقوله تعالى: «ملة إبراهيم» إيمان بالله وحده لا شريك له. إيمان بما أنزل إلينا وهو القرآن وما أنزل لإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى أى التوراة وما أوتى عيسى أى الإنجيل وما أوتى النبيون بالإجمال فالبلاغ الصحيح عن الله منذ عهد آدم حتى لأن هو وحدة العقيدة بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له. ووحدة الكون بأن الله هو الخالق وهو المدبر وكل شيء يخرج عن الألوهية لله الواحد الأحد .. وأن كل شيء يخرج عن ذلك يكون من تحريف الديانات السابقة هو افتراء على الله سبحانه لا نقبله

قوله تعالى «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا» وهو القرآن الكريم. ولا يمكن أن يعطف عليه ما يصطدم معه ولذلك فإن ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط هذه ملة إبراهيم .. وهذا يؤكد لنا أن ملة إبراهيم من وحى الله إليه .. والرسالات كلها كما قلت تدعو لعبادة الله الواحد الأحد الذى لا شريك له.

وقوله تعالى: «ونحن له مسلمون» .. أى أن إبراهيم كان مسلما وكل الأنبياء كانوا مسلمين وكل ما يخالف ذلك من صنع البشر .. ومعنى الإسلام أن هناك مسلما ومسلما إليه وهو الله عز وجل. ونحن نسلم له فى العبودية - سبحانه - وفى اتباع

منهجه .. والإنسان لا يسلم وجهه إلا لمن هو أقدر منه وأعلم منه وأقوى منه ولمن لا هوى له .. فإن تشككت في أحد العناصر فإسلامك ليس حقيقة وإنما تخمين .. وأنت لا تسلم زمامك لله سبحانه وتعالى إلا وأنت متأكد أن قدراته سبحانه فوق قدرات المخلوقين جميعا ، وأنه سبحانه غني عن العالمين ، ولذلك فإنه غير محتاج إلى ما في يدك بل هو يعطيك جل جلاله من الخير والنعم ولا يوجد إلا الوجود الأعلى لتسلم وجهك له .



﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾

نقول إن السؤال الذى يطرح نفسه بالنسبة لهذه الآية . . هل إذا آمنا به مثل حتى يؤمنوا به ؟ إنك لكى تؤمن لابد أن تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله . . فهل إذا قالها أحد بعدك يكون قال ما قلته أم مثل ما قلته ؟ يكون قال مثل ما قلت . أى أننى حين أعلن إيمانى وآخذ الشهادة التى قلتها أنت أكون قد قلت مثلها لأن ما نطقت به لا يفارقك أنت . . ولكنى إذا صنعت شيئا وقلت لغيرى اصنع مثله . فهو سيصنع شيئا جديدا ولن يصنع ما صنعته أنا .

الشىء نفسه حين تقول لى : تصدق بمثل ماتصدق به فلان . لن تكون الصدقة هى المال نفسه بل تكون مثله . نقول لمن يردد هذا الكلام : إنك لم تفهم المعنى إيمانهم أن يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله وإيمان غيرهم أن يقولوا مثل هذه العبارة أى أن يصبح إيمانهم مثلنا بالله ورسوله . . فالمثل هنا يرتبط بالشهادة وكل من آمن بالإسلام نطق بالشهادتين مثل من سبقوه فى الإيمان . فالمثلية هنا فى العبارة وإيمانهم هو أن يقولوا مثل ما قلنا .

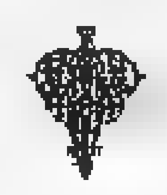
يقول الحق تبارك وتعالى : « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا » أى اهتدوا إلى الحق . . « وإن تولوا فإنما هم فى شقاق » وتولوا يعنى أعرضوا . وشقاق يعنى خلافا معكم وخلافا مع بعضهم البعض ؛ فلكل منهم وجهة نظر يصححها وهداية اخترعها . . حتى إذا اتفقوا فى الكفر فلن يتفقوا فى أسباب الكفر كل واحد اتخذ سببا ولذلك اختلفوا . . والشقاق من المشقة والنزاع والمشاجرة ، والشق هو الفرقة بين شيئين .

وقوله تعالى : « فسيكفيكهم الله » أي لا تلتفت إلى معاركهم ولا إلى حوارهم فالله يكفيك بكل الوسائل عمن سواه واقرأ قوله سبحانه :

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾

(سورة الزمر)

الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم إذا حاول اليهود والنصارى والمنافقون أن يكيدوا لك ويؤذوك والمؤمنين ، فالله سبحانه وتعالى يكفيك لأنه عليم سميع بصير لا يخفى عليه شيء . . ولقد حاول اليهود قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة وحاولوا إيذاءه بالسحر فأبطل الله كيدهم وأظهر ما خفي منه وأطلع رسوله عليه . . فمهما استحدثوا من وسائل ظاهرة أو خفية فسيكفيك الله شرها ولذلك قال تعالى : «فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » . . أي سميع بما يقال ، عليم بما يدبرونه . بل يعلم ما في صدورهم قبل أن ينطقوا به . . فلا تعتقد أن شيئا يفوت على الله سبحانه أو يفلت منه . إن كل حركة قبل أن تحدث يعلمها سبحانه، وكل كيد قبل أن يتم هو يعلمه . فإذ كان الله سبحانه وتعالى معك فماذا تخشى ؟ وممن تخاف؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يصل إليك ؟ . وأنت معك خالق هذا الكون ومدبره الذي لا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض . . عليم بكل ما سيحدث حتى يوم القيامة وبعد يوم القيامة . . ومادام معك القوي الذي لا يضعف أبدا والحي الذي لا يموت أبدا والعليم بكل شيء فلا تخش أحدا لأنك في أمان الله سبحانه .



﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

ما هي الصبغة ؟ الصبغة هي إدخال لون على شيء بحيث يغيره بلون آخر .. تصبغ الشيء أحمر أو أزرق أو أي لون تختاره . والصبغ ينفذ في المصبوغ خاصة إذا كان المصبوغ له شعيرات مسام كالقطن أو الصوف . ولذلك فإن الألياف الصناعية لا يمكن أن تصبغ لماذا ؟ لأن شعرة القطن أو الصوف أشبه بالأنبوبة في تركيبها

وإذا جئنا بقنديل من الزيت ووضعنا فيه فتيلا من القطن بحيث يكون رأس الفتيل في الزيت ثم تشعله من أعلاه نجد أن الزيت يسرى في الأنابيب ويشعل الفتيل . فإذا جربنا هذا في الألياف الصناعية فلا يمكن أن يسرى فيها الزيت وإنما النار تأكل الألياف لأنه ليس فيها أنابيب شعرية كالقطن والصوف . ولذلك نجد الألياف الصناعية سهلة في الغسيل لأن العرق لا يدخل في مسامها بينما الملابس القطنية تحتاج لجهد كبير لأن مسامها مشبعة بالعرق والتراب .

إذن الصبغة لابد أن تتدخل مادتها في مسام القماش . أما الطلاء فهو مختلف . إنه طبقة خارجية تستطيع أن تزيلها .. ولذلك فإن الذين يفتون في طلاء الأظافر بالنسبة للسيدات ويقولون إنه مثل الحناء نقول لهم لا . الحناء صبغة تتخلل المادة الحية وتبقى حتى يذهب الجلد بها أي لا تستطيع أن تزيلها عندما تريد . ولكن الطلاء يمكن أن تزيله في أي وقت ولو بعد إتمامه بلحظات . إذن فطلاء الأظافر ليس صبغة .

قوله سبحانه : « صبغة الله » فكأن الإيمان بالله وملة إبراهيم وما أنزل الله على

وسلم هي الصبغة الإلهية التي تتخلل في الجسد البشري . ولماذا كلمة صبغة ؟ حتى تعرف أن الإيمان يتخلل جسدك كله . إنه ليس صبغة من خارج جسمك ولكنها صبغة جعلها الله في خلايا القلب موجودة فيه ساعة الخلق . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه »[1] .

فكأن الإيمان صبغة موجودة بالفطرة . إنها صبغة الله . . فإن كان أبواه مسلمين ظل على الفطرة.وإن كان أبواه من اليهود أو النصارى يهودانه أو ينصرانه أي يأخذانه ويضعانه في ماء ويقولون صبغته بماء المعمودية . . هذا هو معنى صبغة الله

ويريد الحق سبحانه أن يبين لنا ذلك بأن يجعل من آيات قدرته اختلاف ألواننا . . هذا الاختلاف في اللون من صبغة الله . لاختلاف ألوان البشر ليس طلاء وإنما في ذات التكوين . فيكون هذا أبيض وهذا أسمر وهذا أصفر وهذا أحمر ، هذه هي صبغة الله . . وما يفعلونه من تعميد للطفل لا يعطى صبغة.لأن الإيمان والدين لا يأتى من خارج الإنسان وإنما يأتى من داخله . . ولذلك فإن الإيمان يهز كل أعضاء الجسد البشري.واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الزمر)

هذا هو التأثير الذي يضعه الله في القلوب . . أمر داخلي وليس خارجيا . . أما إيمان غير المسلمين فهو طلاء خارجي وليس صبغة لأنهم تركوا صبغة الله . ونقول لهم : لا.هذا الطلاء من عندكم أنتم ، أما ديننا فهو صبغة الله . .

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والطبراني في الكبير والبيهقي في سننه .

وقوله تعالى : « ومن أحسن من الله صبغة » .. استفهام لا يمكن أن يكذبوه ولكن الجواب يأتي على وفق ما يريده السائل سبحانه من أنه لا يوجد من هو أحسن من الله صبغة .

وقوله تعالى . « ونحن له عابدون » أي مطيعون لأوامره والعابد هو من يطيع أوامر الله ويجتنب ما نهى عنه .

والأوامر دائما تأتي بأمر فيه مشقة يطلب منك أن تفعله والنهي يأتي عن أمر محبب إلى نفسك فنك مشقة أن تتركه ذلك أن الإنسان يريد النفع العاجل . النفع السطحي ، والله سبحانه وتعالى يوجهك إلى النفع الحقيقي . النفع العاجل يعطيك لذة عاجلة ويعطيك نعيما دائما في الآخرة ومتعا بقدرات الله سبحانه وتعالى

وأنت حين تسمع المؤذن ولا تقوم للصلاة لأنها ثقيلة على نفسك قد أعطيت نفسك لذة عاجلة كأن تشغل نفسك بالحديث مع شخص أو بلعب الطاولة أو بغير ذلك . وتترك ذلك النفع الحقيقي الذي يقربك إلى الجنة . ولذلك قال الله سبحانه .

﴿ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾

(من الآيتين ٤٥ ـ ٤٦ سورة البقرة)

إذن العبادة أمر ونهي .. أمر يشق على نفسك فتستثقله ، ونهي عن شيء محبب إلى نفسك يعطيك لذة عاجلة ولذلك تريد أن تفعله .

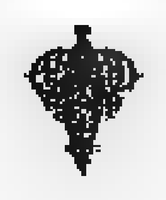
إذن فقوله تعالى : « ونحن له عابدون » . أي مطيعون لأوامره لأننا آمنا بالآمر إلها وربا يعبد .. فإذا آمنت حبب الله إليك فعل الأشياء التي كنت تستثقلها وسهل عليك الامتناع عن الأشياء التي تحبها لأنها تعطيك لذة عاجلة .. هذه هي صبغة الله التي تعطيك العبادة واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ

إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ
أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾

(سورة الحجرات)

وهكذا زين الله سبحانه وتعالى بصبغة الإيمان يحبب إلينا الخير ويجعلنا نبغض الشر لا عن رياء ونفاق خارج النفس كالطلاء ولكن كالصبغة التي تتخلل الشيء وتصبح هي وهو شيئا واحدا لا يفترقان ..



﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

تحديد الأمر بقُلْ إيقاظ لمهمة التكليف عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . والله سبحانه وتعالى حين يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام ـ قل ـ كان يكفي أن يقول ما يريده سبحانه . فأنت إذ قلت لابنك اذهب إلى أخيك وقل له أبوك يأمرك بكذا فيذهب الولد ويقول هذا الكلام دون أن يقول كلمة قل . . ولكن خطاب الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بكلمة قل تلفتنا إلى أن هذا الأمر ليس من عنده ولكنه من عند الله سبحانه ، ومهمة الرسول هي البلاغ .

إن تكرار كلمة « قل » في الآيات هي نسبة الكلام المقول إلى عظمة قائله الأول وهو الله تبارك وتعالى . . فالكلام ليس من عند رسول الله ولكن قائله هو الله جل جلاله .

قوله تعالى « قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم » . . المحاجة معناها حوار بالحجة ، كل من المتحاورين يأتي بالحجة التي تؤيد رأيه أو وجهة نظره . . وإذا قرأت قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

أي قال كل منهما حجته . . ولابد أن يكونا خصمين كل منهما يعاند رأيه الرأي

الآخر وكل يحاول أن يأتي بالحجة التي تثبت صدق كلامه فيرد عليه خصمه بالحجة التي تهدم هذا الكلام وهكذا .

قوله تعالى : « أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم » . . ومادام الله رب الجميع كان من المنطق أن نلتقي لأنه ربي وربكم جعلنا معه سواء . . ولكن مادامت قد قامت الحجة بيننا فأحدنا على باطل . . واقرأ قوله سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الشورى)

والمحاجة لا يمكن أن تقوم بين حق وحق وإنما تقوم بين حق وباطل وبين باطل وباطل لأن هناك حقا واحدا ولكن هناك مائة طريق إلى الباطل . . فمادامت المحاجة قد قامت بيننا وبينكم ونحن على حق فلابد أنكم على باطل . . وليحسم الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة ويمنع الجدل والجدال قال سبحانه : « ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون » . أي لا نريد جدلا لأن الجدل لن يفيد شيئا . . نحن لنا أعمالنا وأنتم لكم أعمالكم وكل عمل سيجازى صاحبه عليه بمدى إخلاصه لله . ونحن أخلصنا العبادة لله وحده وأنتم اتجهتم بعبادتكم إلى ما تحبه أهواؤكم .

إن الله سبحانه وتعالى الذي هو ربنا وربكم لا يفضل أحدا عن أحد إلا بالعمل الصالح المخلص لوجه الله . ولذلك فنحن نضع الإخلاص أولا وقد يكون العمل واحدا أمام الناس . . هذا يأخذ به ثوابا وذلك يأخذ به وزرا وعذابا فالمهم هو أن يكون العمل خالصا لله .

قد يقول إنسان إن الإخلاص في العمل والعمل مكانه القلب . ومادام الإنسان لا يؤذي أحدا ولا يفعل منكرا فليس من الضروري أن يصلي مادامت النية خالصة . نقول إن المسألة ليست نيات فقط ولكنها أعمال ونيات . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إنما الأعمال بالنيات)(١) .

فلابد من عمل بعد النية . لأن النية تنتفع بها وحدك والعمل يعود على الناس .. فإذا كان في نيتك أن تتصدق وتصدقت انتفع الفقراء بمالك .. ولكن إذا لم يكن في نيتك فعل الخير وفعلته لتحصل على سمعة أو ترضي بشرا انتفع الفقراء بمالك ولن تنتفع أنت بثواب هذا المال . والله سبحانه وتعالى يريد أن يقترن عملك بنية الإخلاص لله . والعمل حركة في الحياة.والنية هي التي تعطي الثواب لصاحبه أو تمنع عنه الثواب ولذلك يقول الله جل جلاله :

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نتصدق . والفقير سينتفع بالصدقة سواء كانت نيتك أن يقال عنك رجل الخير المتصدق . أو أن يقال عنك رجل البر والتقوى أو أن تخفي صدقتك . فالعمل يفعل فينتفع به الناس سواء أردت أم لم ترد .

أنت إذا قررت أن تبني عمارة ، لنية هنا هي التمسك.ولكن ينتفع ألوف الناس بهذا العمل ابتداء من الذي باع لك قطعة الأرض والذي أعد لك الرسم الهندسي وعمال الحفر والذي وضع الأساس ومن قام بالبناء وغيرهم وغيرهم .. هؤلاء انتفعوا من عملك بررق لهم . سواء أكان في بالك الله أم لم يكن في بالك الله فقد انتفعوا .

إذن فكل عمل فيه نفع للناس أردت أو لم ترد .. ولكن الله لا يجزي على الأعمال بإطلاقها وإنما يجزي على النيات بإخلاصها .. فإن كان عملك خالصا لله جزاك الله عليه . وإن كان عملك لهدف آخر فلا جزاء لك عند الله لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك .

إن الذين يتعجبون من أن إنسانا كافرا قدم كشفا هاما للبشرية ولكنه لم يكن مؤمنا بالله .. يتعجبون أيعذب في النار ؟ نقول نعم لأنه عمل وليس في نيته الله ولذلك يجازى في الحياة الدنيا ، فتقام له التماثيل ويطلق اسمه على الميادين ويخلد اسمه في الدنيا التي عمل من أجلها . ولكن مادام ليس في نيته الله فلا جزاء له عند الله .

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبو نعيم في حليته والدارقطني بألفاظ مختلفة

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

اليهود والنصارى إدعوا أن الأنبياء السابقين لموسى وعيسى كانوا يهودا أو نصارى . فاليهود ادعوا أنهم كانوا يهودا . والنصارى ادعوا أنهم كانوا نصارى ، الله سبحانه وتعالى يرد عليهم بقوله : « قل أأنتم أعلم أم الله » .

والسؤال هنا لا يوجد له إلا رد واحد لأنهم لن يستطيعوا أن يقولوا نحن أعلم من الله . . وقلنا إنه إذا طرح سؤال في القرآن الكريم فلابد أن يكون جوابه مؤيدا بما يريده الحق سبحانه وتعالى ولا يوجد له إلا جواب واحد . . ولذلك فإن قوله تعالى : « أأنتم أعلم أم الله » . . والله لاشك أعلم وهذا واقع .

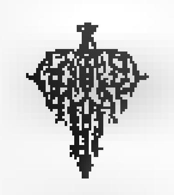
إذن فكأن الله بالسؤال قد أخبر عن القضية . ولكن يلاحظ في هذه الآية الكريمة ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط . . وفي ذكر إسماعيل دائما مع إسحق ويعقوب يدل على وحدة البلاغ الإيماني عن الله ، لأن إسماعيل كان في أمة العرب وإسحق ويعقوب كانا في بني إسرائيل .

والحق سبحانه وتعالى يتحدث عن وحدة المصدر الإيماني لخلقه ، لأنه لا علاقة أن يكون إسماعيل للعرب وإسحق لغير العرب بوحدة المنهج الإلهي. ولذلك تقرأ قول الحق تعالى :

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة البقرة)

والله الذى بعث إسماعيل هو الله الذى بعث اسحق إله واحد أحد ومادام الإله واحداً فالمنهج الإيمانى لابد أن يكون واحدا .. فإذا حدث خلاف فالخلاف من البشر الذين يحرفون المنهج ليحققوا شهوات ومكاسب لهم .. وكل نفس لها ما كسبت فلن ينفعكم نسبكم اليهم ولن يضيف إليكم شيئا فى الآخرة . إن كانوا مؤمنين فلن ينفعكم أن تكفروا وأن تقولوا نحن ننتسب إلى ابراهيم وإسماعيل واسحق .. وإن كانوا غير ذلك فلا يضركم شيئا



﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ
وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١) ﴾

بعض الناس يقول إن هذه الآية مكررة فقد تقدمتها آية تقول •

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا
نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ
عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) ﴾

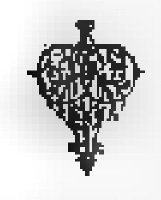
(سورة البقرة)

بعض السطحيين يقولون إن في هاتين الآيتين تكرارا. نقول إنك لم تفهم المعنى الآية الأولى تقول لليهود إن نسبكم إلى إبراهيم واسحق لن يشفع لكم عند الله بما حرفتموه وغيرتموه في التوراة . . وبما تعملونه من غير شرع الله.فاعلموا أن عملكم هو الذى ستحاسبون عليه وليس نسبكم .

أما في الآية التي نحن بصددها فقد قالوا إن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى . . الله تبارك وتعالى لا يجادلهم وإنما يقول لهم لنفرض ـ وهذا فرض غير

صحيح - إن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى فهذا لن يكون عذرا لكم .. لأن لهم ما كسبوا ولكم ما كسبتم ، فلا تأخذوا ذلك حجة على الله يوم القيامة ولا تقولوا إننا كنا نحسب أن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى أى كانوا على غير دين الإسلام لأن هذه حجة غير مقبولة وهل أنتم أعلم أم الله سبحانه الذى يشهد بأنهم كانوا مسلمين .

إياك أن تقول إن هناك تكراراً .. فإن السياق فى الآية الأولى يقول لا شفاعة لكم يوم القيامة فى نسبكم إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق .. والسياق فى الآية الثانية يقول لا حجة لكم يوم القيامة فى قولكم إنهم كانوا هودا أو نصارى . فلن ينفعكم نسبكم إليهم ولن يقبل الله حجتكم وهكذا فإن المعنى مختلف تماما بين موقفين مختلفين يوم القيامة



﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾

هذه الآية نزلت لتصفى مسألة توجه محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس .. وهذا أول نسخ فى القرآن الكريم .. يريد الله سبحانه وتعالى أن يعطيه العناية اللائقة ، لأنه سيكون مثار تشكيك وجدل عنيف من كل من يعادى الإسلام ، فكفار قريش سيأخذون منه ذريعة للتشكيك وكذلك المنافقون واليهود .

الله تبارك وتعالى يريد أن يمهد للمسألة قبل أن تتم هذه التشكيكات .. فيقول جل جلاله : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » .. حرف السين هنا يؤكد إنهم لم يقولوا بعد .. ولذلك قال سبحانه : « سيقول السفهاء » فقبل أن يتم تحويل القبلة قال الحق تعالى: إن هذه العملية ستحدث هزة عنيفة يستغلها المشككون .

ورغم أن الله سبحانه وتعالى قال : « سيقول السفهاء » .. أى أنهم لم يقولوها إلا بعد أن نزلت هذه الآية .. مما يدل على أنهم سفهاء حقا ، لأن الله جل جلاله أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم فى قرآن يتلى ويصلى به ولا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة .. قال : « سيقول السفهاء من الناس » .. فلو أنهم امتنعوا عن القول ولم يعلقوا على تحويل القبلة لكان ذلك تشكيكا فى القرآن الكريم .. لأنهم فى هذه الحالة كانوا يستطيعون أن يقولوا: إن قرآنا أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم لا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة .. قال : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم » .. ولم يقل أحد شيئا ..

ولكن لأنهم سفهاء فعلا .. والسفه جهل وحمق وطيش قالوها .. فكانوا وهم الكافرون بالقرآن الذين يريدون هدم هذا الدين من المثبتين للإيمان الذين تشهد أعمالهم بصدق القرآن.لأن الله سبحانه قال : « سيقول السفهاء » وهم قالوا فعلا .. ولقد قال كفار مكة عن الكعبة إنها بيتنا وبيت آبائنا وليست بيت الله .. فصرف الله رسوله في أول الإسلام ووجهه إلى بيت المقدس . وعندئذ قال اليهود:يسفه ديننا ويتبع قبلتنا .. والله سبحانه وتعالى أراد أن يحتوى الإسلام كل دين قبله فتكون القداسة للكل .. ولذلك أسرى برسوله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس .. حتى يدخل بيت المقدس في مقدسات الإسلام لأنه أصبح محتوى في الإسلام

ولم يشأ الله أن يجعل القبلة إلى الكعبة أول الأمر لأنهم كانوا يقدسونها على أنها بيت العرب وكانوا يضعون فيها أصنامهم .. ووضع الأصنام في الكعبة شهادة بأن لها قداسة في ذاتها .. فالقداسة لم تأت بأصنامهم بل هم أرادوا أن يجعلوا هذه الأصنام فوضعوها في الكعبة .. لماذا لم يضعوها في مكان آخر ؟ لأن الكعبة مقدسة بدون أصنام .

والله سبحانه وتعالى حين قال : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها » .. ولاه يعني حوله ورده . والقبلة التي كانوا عليها هي بيت المقدس . وهنا يأتي الحق برد جامع هو أن أوامر الله الإيمانية لا ترتبط بالعلة . إنما علة التنفيذ فيما يأمرنا الله سبحانه به جل جلاله أن الله هو الآمر .. ولو أن الحق تبارك وتعالى بين لك السبب أو العلة في تغيير القبلة لما كان الأمر امتحانا للإيمان في القلوب .. لأن الإيمان والعبادة هي طاعة معبود فيما يأمر وما ينهى يقول لك الله عظم هذا الحجر وهو الحجر الأسود الموجود في الكعبة وتعظمه بالاستلام والتقبيل .. ويقول لك : ارجم هذا الحجر الذي يرمز إلى إبليس فترجمه بالحصى ، ولا يقول الله سبحانه لماذا ؟ لأنه لو قال لماذا ضاع الإيمان هنا وأصبح الأمر مسألة اقتناع واقتاع .

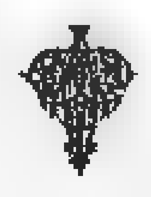
فأما حين أقول لك لا تأكل هذا لأنه مر وكل هذا لأنه حلو يكون السبب واضحا . ولكن الله تبارك وتعالى يقول لك كل هذا ولا تأكل هذا .. فإن أكلت مما حرمه تكون آثما.وإن امتنعت تكون طائعا وتثاب .

إذن العلة الإيمانية هي أن الأمر صادر من الله سبحانه .. ولو أنك امتنعت عن

شرب الخمر لأنها ضارة بالصحة أو تفسد الكبد فلا ثواب لك ، ولو امتنعت عن أكل لحم الخنزير لأن فيه كمية كبيرة من الكولسترول وله مضار كثيرة فلا ثواب لك . ولكنك لو امتنعت عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير لأن الله حرمهما . . فهذه هي العبادة وهذا هو الثواب

الله سبحانه وتعالى أراد أن يرد على هؤلاء السفهاء فقال . « قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » . . أي انك إذا اتجهت إلى بيت المقدس أو اتجهت إلى الكعبة أو اتجهت إلى أي مكان في هذا الكون فالله موجود فيه . . فبيت المقدس ليس له خصوصية بذاته ، والكعبة ليس لها خصوصية بذاتها . . ولكن أمر الله تبارك وتعالى هو الذي يعطيها هذه الخصوصية . . فإذا اتجهنا إلى بيت المقدس فنحن نتجه إليه طاعة لأمر الله . . فإذا قال الله سبحانه اتجهوا إلى الكعبة اتجهنا إليها طاعة لأمر الله .

قوله تعالى : « يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » . . الصراط هو الطريق المستقيم لا التواء فيه بحيث يكون أقرب المسافات إلى الهدف والله سبحانه وجهنا لبيت المقدس فهو صراط مستقيم نتبعه . وجهنا إلى الكعبة فهو صراط مستقيم نتبعه . فالأمر لله .



﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) ﴾

ساعة ترى كذلك فهناك تشبيه .. الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نتنبه إلى نعمته في أنه جعلنا أمة وسطا . فكل ما يشرعه الله يدخل في باب النعم على المؤمنين .. وإذا كان الاتجاه إلى الكعبة هو اختبار لليقين الإيماني في نفوس المسلمين .. فإنه سبحانه جعلنا أمة وسطا نعمة منه ، ومادمنا وسطا فلابد أن هناك أطرافا حتى يتحدد الوسط .. هذا طرف ثم الوسط ثم طرف آخر . ووسط الشيء منتصفه أو ما بين الطرفين .

ولكن ما معنى أمة وسطا ؟ وسط في الإيمان والعقيدة فهناك من أنكروا وجود الإله الحق . وهناك من أسرفوا فعددوا الآلهة . هذا الطرف خطئ، وهذا الطرف خطئ . أما نحن المسلمين فقلنا لا إله إلا الله وحده لا شريك له واحد أحد وهذه قضية من بديهيات هذا الكون . لأن الله تبارك وتعالى خلق الكون وخلق كل ما فيه وقال سبحانه إنه خلق . ولم يأت ولن يأتي من يدعي الخلق . إذن فالدعوى خالصة لله تبارك وتعالى . ولو كان في هذا الكون آلهة متعددة لادعى كل واحد منهم الخلق .. ولذلك فإن الله جل جلاله يقول :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٩١ سورة المؤمنون)

أي لتنازع الخلق ولاضطرب الكون .. فالإسلام دين وسط بين الإلحاد وتعدد الآلهة .. على أن هناك أناساً يسرفون في المادية ويهملون القيم الروحية .. وأناساً يهملون المادة ويؤمنون بالقيم الروحية وحدها

واقع الحياة أن الماديين يقسون الروحانيين لأن عندهم المال والقوة .. الإسلام جاء وسطا فيه المادة والروح .. وإياك أن تقول ان الروح أحسن من المادة أو المادة أحسن من الروح . فالمادة وحدها والروح وحدها مسخرة وعابدة ومسبحة لله تعالى .. لكن حين تختلط المادة بالروح فإنه توجد النفس . والنفس هي التي لها اختيار تطيع أو تعصي .. تعبد أو تكفر والعياذ بالله

الله سبحانه يريد من المؤمنين أن يعيشوا مادية الحياة بقيم السماء .. وهذه وسطية الإسلام ، لم يأخذ الروح وحدها ولا المادة وحدها .. وإنما أوجد مادية الحياة محروسة بقيم السماء . فحين يخبرنا الله سبحانه أنه سيجعلنا أمة وسطا تجمع خير الطرفين نعرف أن الدين جاء ليعصم البشر من أهواء البشر .

الله تبارك وتعالى يريدنا أن نبحث في ماديات الكون بما يحقق التقدم والرفاهية والقوة للبشرية . فما هو مادي معمل لا يختلف البشر فيه .. لكن ما يدخل فيه أهواء البشر ستضع السماء لكم قانونه .. فإذا عشتم بالأهواء ستشقون .. وإذا عشتم بنظريات السماء ستسعدون .

قد يتساءل البعض هل الشيوعية التي جاءت منذ أكثر من نصف قرن ارتقت بشعوبها أم لا ؟ نقول انظروا إليها الآن لقد بنت ما ادعته من ارتقاءات على الكذب والزيف .. ثم تراجعت ثم انهارت تماما . وكما انهارت الشيوعية ستنهار الرأسمالية لأنهما طرفان متناقضان إنما نحن أمة وسطا . ولذلك أعطانا الله سبحانه خيري الدنيا والآخرة .

الحق سبحانه يقول : « لتكونوا شهداء على الناس » . أي أن الحجة ستكون لكم في المستقبل . وسيضطر العالم إلى الرجوع إلى ما يقننه دينكم .. والله تبارك وتعالى قال . « أمة وسطا » ولم يقل الوسط بكسر الواو أي المنتصف حتى لا يقال إن هؤلاء الرأسماليين والشيوعيين سيتراجعون إلى الحق تماما .. ولكن بعضهم سيميل

قليلا إلى هذه الناحية أو تلك بحيث يتم النفع .. ولذلك عندما يقولون نأخذ أموال الأغنياء ونوزعها على الفقراء . نقول لهم وعندما يأتي فقير في المستقبل .. من أين تعطيه بعد أن قضيت على الأغنياء ؟.

وقد سمعت من شخص له تجربة في السياسة والحكم .. قال إن الذي كان يعمل معي وأضاع ماله كله على الخمر والقمار والنساء كان أحسن مني .. لأني احتفظت بأموالي ونميتها فقالوا إنك إقطاعي وصادروها .. بينما ذلك الذي أسرف لم يفعلوا به شيئا .. قلت إن الله سبحانه وتعالى يريد منك أن تنمي مالك .. لأنك إن لم تنمه ودفعت عنه زكاة ٢٫٥٪ فالمال يفنى خلال أربعين سنة .. ولكن إذا نميت مالك وجاءوا إلى ناتج عملك وأخذوه بدعوى أنك إقطاعي فإنهم يقعدون عن العمل في المجتمع .. لأنه إذا كنت ستأخذ ناتج عمله بدون حق فلماذا يعمل ؟ إن الإسلام جاء ليزيد مجال حركة الحياة ويضمن مال المتحرك .. ليأخذ من ماله زكاة ويعين غير القادر حتى لا يحقد على المجتمع .. هذا وسط .

وقوله تعالى « لتكونوا شهداء على الناس » فكأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه ستحدث في الكون معركة لن يفصل فيها إلا شهادة هذه الأمة .. فاليمين أو الرأسمالية على خطأ ، والشيوعية على خطأ .. أما منهج الله الذي وضع الموازين القسط للكون ولحياة الإنسان فهو الصواب .. ثم يخبرنا الحق تبارك وتعالى أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون شهيدا علينا .. هل كان عملنا وتحركنا مطابقا لما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم وبلغه الرسول عليه الصلاة والسلام لنا ؟ أم أننا اتبعنا أهواءنا وانحرفنا عن المنهج .

الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون شهيداً علينا في هذه النقطة .. تلك الآية وإن كانت قد بشرت الأمة الوسط بأن العالم سيعود إلى حكمها، فذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا سادت شهادة الحق والعدل فيها .

وقوله تعالى « وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » .. هذه عودة إلى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة .. الله تبارك وتعالى لا يحصر اتجاهنا في اتجاه .. ولذلك فإن الذين يتجهون إلى الكعبة ستختلف اتجاهاتهم حسب موقع بلادهم من الكعبة .. هذا يتجه إلى الشرق، وهذا يتجه إلى الشمال الشرقي .. وهذا يتجه إلى الجنوب الغربي .

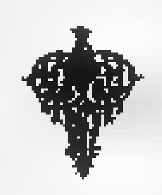
إنه ليس هناك عند الله اتجاه مفضل على اتجاه .. ولكن تغيير القبلة جعله الله سبحانه اختبارا إيمانيا ليس علم معرفة ولكن علم مشهد .. لأن الله سبحانه وتعالى يعلم .. ولكنه جل جلاله يريد أن يكون الإنسان شهيدا على نفسه يوم القيامة .. ولكنه اختبار إيماني ليعلم الله مدى إيمانكم ومن سيطيع الرسول فيما جاءه من الله ومن سينقلب على عقبيه .. فكان أمر تحويل القبلة سيحدث هزة إيمانية عنيفة في المسلمين أنفسهم .. فيعلم الله من يستمر في إيمانه واتباعه لرسول الله .. ومن سيرفض ويتحول عن دين الإسلام .

وقوله تعالى : « وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » .. والله يريد هنا العلم الذي سيكون شهيدا على الناس يوم القيامة .. وعملية الابتلاء أو الاختبار في تغيير القبلة عملية شاقة .. إلا على المؤمنين الذين يرحبون بكل تكليف .. لأنهم يعرفون أن الإيمان هو الطاعة ولا ينظرون إلى علة الأشياء .

ولكن الكفار والمنافقين واليهود لم يتركوا عملية تحويل القبلة تمر هكذا فقالوا : إن كانت القبلة هي الكعبة فقد ضاعت صلاتكم أيام اتجهتم إلى بيت المقدس .. وإن كانت القبلة هي بيت المقدس فستضيع صلاتكم وأنتم متجهون إلى الكعبة .

نقول لهم لا تعزلوا الحكم عن زمنه .. قبلة بيت المقدس كانت في زمنها والكعبة تأتي في زمنها .. لا هذه اعتدت على هذه ولا هذه اعتدت على هذه .. ولقد مات أناس من المؤمنين وهم يصلون إلى بيت المقدس فقام المشككون وقالوا صلاتهم غير مقبولة .. ورد الله سبحانه بقوله : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » .. لأن الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس كانوا مطيعين لله مؤمنين به فلا يضيع الله إيمانهم .

وقوله تعالى : « إن الله بالناس لرءوف رحيم » .. أي تذكروا أنكم تؤمنون برب رءوف لا يريد بكم مشقة .. رحيم يمنع البلاء عنكم .



﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً
تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ
وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ
بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

نحن نعلم أن « قد » للتحقيق .. و « نرى » . فعل مضارع مما يدل على أن الحدث في زمن التكلم .. الحق سبحانه وتعالى يعطينا صورة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. انه يحب ويشتاق أن يتجه إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس .. وكان عليه الصلاة والسلام قد اعتاد أن يأتيه الوحي من علو فكأنه صلى الله عليه وسلم كان يتجه ببصره إلى السماء مكان مجيء الوحي ولا يأتي ذلك إلا إذا كان قلبه متعلقا بأن يأتيه الوحي بتغيير القبلة .. فكأن هذا أمر شغله

إن الله سبحانه يحيط رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه قد رأى تقلب وجه رسوله الكريم في السماء وأحبه ليتجه إلى القبلة التي يرضاها فهل معنى ذلك أن القبلة التي كان عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وهي بيت المقدس لم يكن راضيا عنها ؟ نقول لا وإنما الرضا ذاتي يتعلق بالعاطفة . وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل . ولذلك لا يقول أحد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن راضيا عن قبلة بيت المقدس وإن كان يتجه إلى بيت المقدس وفي قلبه عاطفة تتجه إلى الكعبة .. هذا يدل على الطاعة والالتزام

الله يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام : « فلنولينك قبلة ترضاها » أي تحبها بعاطفتك ورسول الله عليه الصلاة والسلام كان يتطلع إلى هذا التعبير،فكان عواطفه صلى الله عليه وسلم اتجهت لتصنع مقدمات التحويل .

قال الله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » .. والمراد بالوجه هو الذات كلها وكلمة شطر معناها الجهة ، والشطر معناه النصف .. وكلا المعنيين صحيح لأنه حين يوجد الإنسان في مكان يصبح مركزاً لدائرة ينتهي بشيء اسمه الأفق وهو مدى البصر .. وما يخيل إليك عنده أن السماء انطبقت على الأرض .

إن كل إنسان ما له دائرة على حسب نظره فإذا ارتفع الإنسان تتسع الدائرة . وإذا كان بصره ضعيفا يكون أفقه أقل ، ويكون هو في وسط دائرة نصفها أمامه ونصفها خلفه .

إذن الذي يقول الشطر هو النصف صحيح والذي يقول ان الشطر هو الجهة صحيح .

وقوله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » .. أي اجعل وجهك جهة المسجد الحرام أو اجعل المسجد الحرام في نصف الدائرة التي أمامك .. وفي الزمن الماضي كانت العبادات تتم في أماكن خاصة .. إلى أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الله له الأرض كلها مسجدا

إن المسجد هو مكان السجود ونظراً لأن السجود هو منتهى الخضوع لله فسمي المكان الذي تصلي فيه مسجدا .. ولكن هناك فرق بين مكان تسجد فيه ومكان تجعله مقصورا على الصلاة لله ولاتزاول فيه شيئا آخر . المسجد مخصص للصلاة والعبادة .. أما المكان الذي تسجد فيه وتزاول حركة حياتك فلا يسمى مسجداً إلا ساعة تسجد فيه .. والكعبة بيت الله . باختيار الله.وجميع مساجد الأرض بيوت الله باختيار خلق الله .. ولذلك كان بيت الله باختيار الله قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

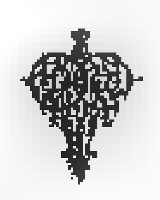
وقوله تعالى : « وحيثما كنتم » يعني أينما كنتم .. « فولوا وجوهكم شطره » .. لأن الآية نزلت وهم في مسجد بني سلمة بالمدينة فتحول المسلمون إلى المسجد الحرام . وحتى لا يعتقد أحد أن التحويل في هذا المسجد فقط وفي الوقت الذي نزلت فيه الآية فقط قال تعالى « وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

وقوله جل جلاله : « وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله

بغافل عما يعملون » . . أي أن الذين أوتوا الكتاب ويحاولون التشكيك في اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم . يعلمون أن رسول الله هو الرسول الخاتم ويعرفون أوصافه التي ذكرت في التوراة والإنجيل ويعلمون أنه صاحب القبلتين ولو لم يتجه الرسول صلى الله عليه وسلم من بيت المقدس إلى الكعبة . . لقالوا إن التوراة والإنجيل تقولان إن الرسول الخاتم محمداً صلى الله عليه وسلم يصلي إلى قبلتين فلماذا لم تتحقق؟ ولكان هذا أدعى إلى التشكيك

إذن فالذين أوتوا الكتاب يعلمون أنه الحق من ربهم لأنه في التوراة أن الرسول الذي سيجيء وسيتجه إلى بيت المقدس ثم يتجه إلى البيت الحرام فكأن هذا التحويل بالنسبة لأهل الكتاب تثبيت لإيمانهم بالرسول عليه الصلاة والسلام وليس سببا في زعزعة اليقين .

وقوله تعالى . « وما الله بغافل عما يعملون » . . يريد الحق تبارك وتعالى أن يطمئن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تشكيكهم لا يقدم ولا يؤخر . فموقفهم ليس تطلب الحجة ولكن للمكابرة فهم لا يريدون حجة ولا دليلا إيمانيا . ولكنهم يريدون المكابرة



﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

أتباع القبلة مظهر إيمان في الدين ، فمادمت آمنت بدينك فاتبع قبلتك ، لا أؤمن بدينك لا أتبع قبلتك .

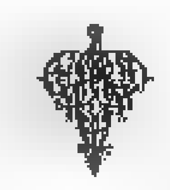
وقوله تعالى : « ولئن أتيت » ساعة تسمع « ولئن » واو ولام وإن . هذا قسم فكأن الحق تبارك وتعالى أقسم أنه لو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب بكل آية ما آمنوا بدينه ولا اتبعوا قبلته .. لماذا ؟ لأنهم لا يبحثون عن دليل ولا يريدون الاقتناع بصحة الدين الجديد .. ولو كانوا يريدون دليلا أو اقتناعا لوجدوه في كتبهم التي أنبأتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه النبي الخاتم وأعطتهم أوصافه . فكأن الدليل عندهم ولكنهم يأخذون الأمر سفها وعنادا ومكابرة .

وقوله تعالى : « وما أنت بتابع قبلتهم » .. فكأنه حين جاءت الآية بتغيير القبلة أعلمنا الله أن المسلمين لن يعودوا مرة أخرى إلى الاتجاه نحو بيت المقدس ولن يحولهم الله إلى جهة ثالثة .. ولكن يعلمنا الله سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى سيكونون في جانب ونحن سنكون في جانب آخر . وأنه ليس هناك التقاء بيننا وبينهم . قال سبحانه : « وما بعضهم بتابع قبلة بعض » .. فالخلاف في القبلة مستمر إلى يوم القيامة .

ونقول لهم : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين » .. حين يخاطب اللهُ سبحانه وتعالى رسوله وحبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم بهذه الآية .. وهو يعلم أن محمدا الرسول المعصوم لا يمكن أن يتبع أهواءهم .. نقول إن المقصود بهذه الآية هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم

إن الله يخاطب أمته في شخصه قائلا : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين » .. ما هي أهواء أهل الكتاب ؟ هي أن يهادنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يقول إن ما حرفوه في كتبهم أنزله الله .. وهكذا يجعل هوى نفوسهم أمراً متبعا . فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفت أمة محمد عليه الصلاة والسلام .. إلى أن كل من يتبع أهواء أهل الكتاب وما حرفوه سيكون من الظالمين مهما كانت درجته من الإيمان وإذا كان الله تبارك وتعالى لن يقبل هذا من رسوله وحبيبه فكيف يقبله من أي فرد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

إن الخطاب هنا يمس قمة من قمم الإيمان التي تفسد العقيدة كلها . والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف انه لا يتسامح فيها ولا يقبلها حتى لو حدثت من رسوله ولو أنها لن تحدث . ولكن لنعرف أنها مرفوضة تماما من الله على أي مستوى من مستويات الإيمان حتى في مستوى القمة فتبتعد أمة محمد عن مثل هذا الفعل تماما



﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

الله تبارك وتعالى يقول إن الذين جاءهم الكتاب قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفونه .. يعرفون ماذا ؟ هل يعرفون أمر تحويل القبلة ؟ أم يعرفون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثه ورسالته التي يحاولون أن يشككوا فيها ؟ الله سبحانه وتعالى يشرح لنا ذلك في قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فكان اليهود والنصارى يعرفون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .. ومكتوب في التوراة والإنجيل أنه الحق ومطلوب منهم أن يؤمنوا به .. إن كعب الأحبار كان جالسا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان موجودا فسأله عمر أكنتم تعرفونه يا كعب ؟ أي أكنتم تعرفون محمدا صلى الله عليه وسلم ورسالته وأوصافه ؟ فقال كعب وهو من أحبار اليهود .. أعرفه كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد .. فلما سألوه لماذا ؟ قال لأن ابني أخاف أن تكون امرأتي خانتني فيه أما محمد (صلى الله عليه وسلم) فأوصافه مذكورة بالدقة في التوراة بحيث لا نخطئه .

إذن فأهل الكتاب يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرفون زمنه ورسالته .. والذين أسلموا منهم وآمنوا فعلوا ذلك عن اقتناع ، أما الذين لم يؤمنوا

وكفروا بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفوا ولكنهم كتموا ما يعرفونه .
ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى عنهم : « وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » . . وساعة تقول كتم الشيء . . فكأن الشيء بطبيعته كان يجب أن يبرز وينتشر . . والحق بطبيعته لابد أن يبرز وينتشر ولكن إنكار الحق وكتمه يحتاج إلى مجهود .

إن الذين يحققون فى القضايا الدقيقة يحاولون أن يمنعوا القوة أن تكتم الحق . . فيجعلون من يحققون معه لا ينام حتى تنهار قواه فينطق بالحقيقة . . لأن النطق بالحق لا يحتاج إلى مجهود ، أما كتم الحق فهو الذى يحتاج إلى مجهود وقوة ، وعدم النطق بالحق عملية شاقة . . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : « ليكتمون الحق وهم يعلمون » . أى أنهم ليسوا جاهلين ولكنهم على علم بالحقيقة والحق من الله فهل يستطيع هؤلاء كتمانه ؟ طبعا لا ، لابد أن يظهر . . فإذا انتشر الكذب والباطل فهو كالألم الذى يحدث فى الجسد . . الناس تكره الألم ولكن الألم من جنود الشفاء لأنه يجعلك تحس أن هناك شيئا أصابه مرض فتتجه إليه بأسباب العافية .

إن أخطر الأمراض هى التى لا يصاحبها ألم ولا تحس بها إلا بعد أن يكون قد فات وقت العلاج . . والحق دائما غالب على أمره ولذلك لا توجد معركة بين حقين أما الباطل فتوجد معركة بين باطل وباطل . وبين حق وباطل . لأنه لا يوجد إلا حق واحد أما الباطل فكثير . .

والمعارك بين الحق والباطل تنتهى بهزيمة الباطل بسرعة . . ولكن الذى يطول هو معركة بين باطلين . ولذلك فإن معارك العصر الحديث تطول وتتعب الدنيا فمعارك الحرب العالمية الثانية مثلا لازالت آثارها ممتدة حتى الآن فى الحرب الباردة وغير ذلك من الحروب الصغيرة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)[1] .

---

(١) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١٤٧﴾

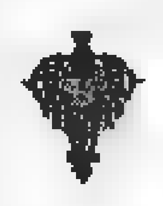
الحق من الله سبحانه وتعالى وما دام من الله فلا تكونن من الذين يشكون في أن الحق سينتصر. ولكن الحق لابد من قوة تحميه. وكما يقول الشاعر

السيف إن يزهى بجوهره

وليس يعمل إلا في يدي بطل

ما فائدة أن يكون معك سيف بتار.. دون أن توجد اليد القوية التي ستضرب به ونحن غالبا نكون مضيعين للحق لأننا لا نوفر له القوة التي ينتصر بها

وقوله تعالى «فلا تكونن من الممترين» الممترى هو الذي يشك في حدوث الشيء، والشك معناه أنه ليست هناك نسبة تتغلب على نسبة. أي أن الاحتمالين متساويان.. ولكن الحق من الله ولا توجد نسبة تقابله. ولذلك لا يجب أن نشك ولا ندخل في جدل عقيم حول انتصار الحق.



﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾

شاء الله سبحانه أن يجعل الإنسان مختارا . ومن هنا فإن له الاختيار فى أن يؤمن أو لا يؤمن .. أن ينصر الحق أو ينصر الباطل .. أن يفعل الخير أو يفعل الشر .. كل هذه اختيارات شاء الله أن يعطيها للإنسان فى الدنيا بحيث يستطيع أن يفعل أو لا يفعل .. ولكن هذا لن يبقى إلى الأبد.إن هذا الاختيار موجود فى الحياة الدنيا .

ولكن بشرية الإنسان تنتهى ساعة الاحتضار عند مواجهة الموت ونهاية العمر يصبح الإنسان مقهورا وليس مختارا . فهو لا يملك شيئا لنفسه ولا يستطيع أن يقول لن أموت الآن .. انتهت بشريته وسيطرته عن نفسه حتى أعضاؤه تشهد عليه . ففى الحياة الدنيا كل واحد يختار الوجهة التى يتجه إليها ، هذا يختار الكفر وهذا يختار الإيمان .. هذا يختار الطاعة وهذا يختار المعصية ، فمادام للإنسان اختيار فكل واحد له وجهة مختلفة عن الآخر .. والذى يهديه الله يتجه إلى الخيرات وكأنه يتسابق إليها .. لماذا ؟ لأنه لا يعرف متى يموت ولذلك كلما تسابق إلى خير كان ذلك حسنة أضافها لرصيده .

إن المطلوب من المؤمنين فى الحياة الدنيا أن يتسابقوا إلى الخيرات قبل أن يأتيهم الأجل ولا يحسب واحد منهم أنه سيفلت من الله . لأنه كما يقول عز وجل : « أينما تكونوا يأت بكم اللهُ جميعا » . أى أنه ليس هناك مكان تستطيعون أن تختفوا فيه عن علم الله تبارك وتعالى بل هو يعرف أماكنكم جميعا واحدا واحدا وسيأتى بكم جميعا مصداقا لقوله تعالى .

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الكهف)

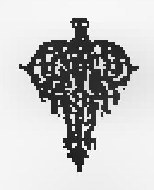
وقوله سبحانه :

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

(سورة الذاريات)

أى أن الحق جل جلاله يريدنا أن نعرف يقينا أننا لا نستطيع أن نفر من علمه . ولا من قدره ولا من عذابه . وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أن نفر إلى الله . . وأنه لا منجاة من الله إلا إليه . ولذلك لا يظن كافر أو عاص أنه سيفلت من الله . . ولا يظن أنه لن يكون موجودا يوم القيامة أو أنه لن يحاسب أو أنه يستطيع أن يختفى .

إن غرور الدنيا قد يركب بعض الناس فيظنون أنهم فى منعة من الله وأنهم لن يلاقوه . . نقول لهم إنكم ستفاجأون فى الآخرة حين تعرفون أن الحساب حق والجنة حق والنار حق. ستفاجأون بما سيحدث لكم . . ومن لم يؤمن ولم يسارع إلى الخير سيلقى الخزى والعذاب الأليم . إن الله ينصحنا أن نؤمن وأن نسارع فى الخيرات لننجوا من عذابه ، ويقول لنا لن يفلت واحد منكم ولا ذرة من تراب جسده من الوقوف بين يدى الله للحساب . ولذلك ختم الله هذه الآية الكريمة بقوله : « إن الله على كل شىء قدير » أى أن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شىء ولا يخرج عن طاعته شىء . . إنه سبحانه على كل شىء قدير .



﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

لابد أن نتأمل كم مرة أكد القرآن الكريم قضية تحويل القبلة .. أكدها ثلاث مرات متقاربة . لأن تحويل القبلة أحدث هزة عنيفة فى نفوس المؤمنين .. والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُذهب هذا الأثر ويؤكد تحويل القبلة تأكيدا إيمانيا .

نقد جاء بثلاث آيات التى هى أقل الجمع واحدة للمتجه إلى الكعبة وهو داخل المسجد . والثانية للمتجه وهو خارج المسجد .. والثالثة للمتجه من الجهات جميعا .

قوله تعالى : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام » .. هو رد على المنافقين واليهود والنصارى الذين حاولوا التشكيك فى الإسلام .. بأن واجهوا المسلمين بقضية تغيير القبلة .. على أساس انها قضية ما كان يجب أن تتم لأنه ليس فيها زيادة فى التكليف ولا مشقة زائدة تزيد ثواب المؤمن .. فالجهد الذى يبذله المؤمن فى الاتجاه إلى المسجد الأقصى هو نفس الجهد الذى يبذله فى الاتجاه إلى البيت الحرام .. فأنت إذا اتجهت فى صلاتك يمينا أو شمالا أو شرقا أو غربا فإن ذلك لا يضيف إليك مشقة. فما هو سبب التغيير؟.

نقول لهم إن هذه ليست حجة للتشكيك فى تحويل القبلة لأن الاتجاه إلى المسجد الحرام هو طاعة لأمر الله وما دام الله سبحانه وتعالى قد قال فعلينا أن نطيع طاعة إيمانية .. يقول المولى جل جلاله : « وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون » .. أى أن ما فعلتموه من تحويل القبلة هو حق جاءكم من الله تبارك وتعالى . والله عز وجل ليس غافلا عن عملكم بحيث تكونون قد اتجهتم إلى البيت الحرام. بل الله يعلم ما تبدون وما تكتمون .. فاطمئنوا انكم على الحق وولوا وجوهكم تجاه المسجد الحرام . واعلموا أن الله سبحانه محيط بكم فى كل ما تعملون

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى يؤكد لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوجه هو والمسلمون إلى المسجد الحرام . سواء كانوا في المدينة أو في خارج المدينة أو في أي مكان على الأرض . وتلك هي قبلتهم في كل صلاة بصرف النظر عن المكان الذي يصلون فيه

وقوله تعالى : « لئلا يكون للناس عليكم حجة » . الناس هنا المقصود بهم المنافقون واليهود والنصارى . . حجة في ماذا ؟ لأن المسلمين كانوا يتجهون إلى بيت المقدس فاتجهوا إلى المسجد الحرام . . وليس لبيت المقدس قدسية في ذاته ولا للمسجد الحرام قدسية في ذاته كما قلنا . . ولكن نحن نطيع الأمر من الأعلى وهو الله إن الله تبارك وتعالى أطلق على المنافقين واليهود والنصارى كلمة (ظلموا) ووصفهم بأنهم الذين ظلموا . فمن هو الظالم ؟ الظالم هو من ينكر الحق أو يغير وجهته .أو ينقل الحق إلى باطل والباطل إلى حق . والظلم هو تجاوز الحد وكأنه سبحانه وصفهم بأنهم قد تجاوزوا الحق وأنكروه يقول سبحانه : « فلا تخشوهم » أي لا تخشوا الذين ظلموا : « واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون » . . أي أن الخشية لله وحده والمؤمن لا يخشى بشرا لأنه يعلم أن القوة لله جميعا . ولذلك فإنه يقدم على كل عمل بقلب لا يهاب أحدا إلا الحق .

وقوله سبحانه : « ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون » . . تمام النعمة هو

الإيمان وتمام النعمة هو تنفيذ مطلوبات الإيمان . فإذا هدانا الله للإيمان فهذا من تمام نعمه علينا . ولكي يكون الإيمان صحيحا ومقبولا فلابد أن أؤدي مطالبه والمداومة على تنفيذ تكليفات الله لنا ، فلا نجعل التكليف ينقطع . لأن التكليف نعمة نحيرها لا تصلح حياتنا ولا تتوالى نعم التكليف من الله سبحانه وتعالى إلا إذا أقبلنا على منهج الله بعشق . . وأنت حينما تأتي إلى المنهج قد يكون شاقا ، ولكن إذا تذكرت ثواب كل طاعة فإنك ستخشع وتعشق التكليف . . لأنك تعرف العمل الصالح بثوابه والعمل في المعصية بعقابه . ولذلك قال الله تبارك وتعالى

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

(سورة البقرة)

إذن الخاشعون هم الذين يقرنون الطاعة بالثواب والمعصية بالعقاب والعذاب ، لأن الذي ينصرف عن الطاعة لمشقتها عزل الطاعة عن الثواب فأصبحت ثقيلة ، والذي يذهب إلى المعصية عزل المعصية عن العقاب فأصبحت سهلة . فمن تمام النعمة أن يديم الله علينا فعل مطلوبات الإيمان . ولذلك في حجة الوداع نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة :

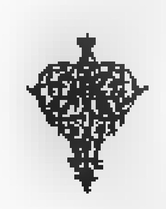
﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

وكان ذلك إخبارا بتمام رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الأحكام التكليفية قد انتهت . ولكن الذين يستثقلون التكليف تجدهم يقولون لك لقد عم الفساد والله لا يكلف نفسا إلا وسعها . كأنه يحكم بأن هذا في وسعه وهذا ليس في وسعه وعلى ضوئه يأخذ التكليف . . نقول له أكلف الله أم لم يكلف ، إن كان قد كلف فيكون التكليف في وسعك . . لأنه سبحانه حين يجد مشقة يأمر بالتخفيف مثل إباحة قصر الصلاة للمسافر وإباحة الإفطار في رمضان للمريض والمسافر فهو سبحانه قد حدد ما في وسعك .

قوله تعالى « ولعلكم تهتدون » .. الهداية هي الطريق المستقيم الموصل إلى الغاية وهو أقصر الطرق ، وغاية هذه الحياة هي أن تصل إلى نعيم الآخرة . الله أعطاك في الدنيا الأسباب لتحكم حركة حياتك ولكن هذه ليست غاية الحياة .. بل الغاية أن تذهب إلى حياة بلا أسباب وهذه هي عظمة قدرة الله سبحانه وتعالى .. والله جل جلاله يأن ليعلمنا في الآخرة انه خلقنا لنعيش في الدنيا بالأسباب وفي الآخرة لنعيش في كنفه بلا أسباب .

إذن قوله تعالى . «ولعلكم تهتدون» . أي لعلكم تسهون وتعرفون الغاية المطلوبة منكم . ولا يظن أحدكم أن الحياة الدنيا هي الغاية أو هي النهاية أو هي الهدف .. فيعمل من أجل الدنيا فيأخذ منها ما يستطيع حلالا أو حراما باعتبارها المتعة الوحيدة المخلوقة له . نقول لا ، إنه في هذه الحالة يكون قد ضل ولم يهتد لأنه لو اهتدى لعرف أن الحياة الحقيقية للإنسان هي في الآخرة ولعرف أن نعيم الآخرة الذي لا تفوته ولا يفوتك . يجب أن يكون هدفنا في الحياة الدنيا فنعمل ما نستطيع لنصل إلى النعيم بلا أسباب في الجنة .



﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

الله جل جلاله بعد أن حدثنا عن الهداية إلى منهجه وإلى طريقه حدثنا عن نعمته علينا بإرسال رسول يتلو علينا آيات الله. ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي ستأتي على يديه قمة النعم وهو القرآن والدين الخاتم

قوله تعالى: « رسولا منكم » أي ليس من جنس آخر ولكنه صلى الله عليه وسلم رسول منكم تعرفونه قبل أن يكلف بالرسالة وقبل أن يأتي بالحجة .. لماذا؟ لأنه معروف بالخلق العظيم وبالقول الكريم والأمانة وبكل ما يريد الإنسان رحمة وعلوا واحتراما إن أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم هم أولئك الذين يعرفونه أكثر من غيرهم كأبي بكر الصديق وزوجته صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة وابن عمه علي بن أبي طالب. هؤلاء آمنوا دون أن يطلبوا دليلا لأنهم أخذوا الإيمان من معرفتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلف بالرسالة .. فهم لم يعرفوا عنه كذبا قط. فقالوا إن الذي لا يكذب على الناس لا يمكن أن يكذب على الله فآمنوا. فالله سبحانه وتعالى من رحمته أنه أرسل إليهم رسولا منهم أميا ليعلمه ربه ولذلك قال الحق تبارك وتعالى:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

الحق سبحانه يقول : « يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم » .. الآيات هي القرآن الكريم والتزكية هي التطهير ولابد أن يكون هناك دنس ليطهرهم منه . فطهرهم من عبادة الأصنام ومن وأد البنات والخمر والميسر والربا .. ومعنى التزكية أيضا سبب الضار فكأنه جاءهم بالنفع وسلب منهم الضر .

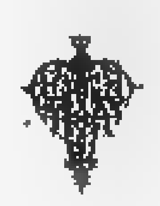
وقوله تعالى : « ويعلمكم الكتاب والحكمة » الكتاب على إطلاقه ينصرف إلى القرآن الكريم والحكمة هي وضع الشيء في موضعه .. والكتاب يبحث التكليف إما أن يأمرك بشيء وإما أن ينهاك عن شيء .

إذن فهي دائرة بين الفعل والترك .. والحكمة أن تفعل العمل الذي يحقق لك خيرا ويمنع عنك الشر وهي مأخوذة من الحكمة أو الحديدة التي توضع في فم الجواد لتحكم حركته في السير والوقوف ، وتصبح كل حركة تؤدي الغرض منها والحكمة أيضا هي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأحزاب)

وقوله سبحانه : « ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » لأنكم أمة أمية فإن بهرتكم الدنيا بحضارتها فستبهرونهم بالإشعاعات الإيمانية التي تجعلكم متفوقين عليهم . فكل ما يأتيكم من السماء هو فوق كل حضارات الأرض ولذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما عمر لولا الإسلام .



﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾

قوله تعالى . « فاذكروني » أي كل هذه النعم والفضل عليكم يجب ألا تنسوها . . أن تعيشوا دائما في ذكر من أنعم عليكم . . فالله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذكر وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم . . والله سبحانه وتعالى يقول في حديث قدسي .

[أنا عند حسن ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني . وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وأن تقرب إليّ بشبر تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة](١)

هذه هي رحمة الكريم في أن يعطي بشرط أن تكون أهلا للعطاء لأنه يريد أن يعطيك أكثر وأكثر . . فقوله تعالى : « اذكروني » أي اذكروا الله في كل شيء . في نعمه . في عطائه . في ستره . في رحمته . في توبته . يقول بعض الصالحين : سمعت فيمن سمع عن حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم انك إذا ما أقبلت على شرب الماء فقسمه ثلاثاً . أول جرعة قل باسم الله واشربها ، ثم قل الحمد لله وابدأ شرب الجرعة الثانية وقل باسم الله وبعد الانتهاء منه قل الحمد لله . ثم قل باسم الله واشرب الجرعة الثالثة واختمها بقولك الحمد لله . فمادام هذا الماء في جوفك فلن تحدثك ذرة من جسدك بمعصية الله . جربها يوما في نفسك وقل باسم الله واشرب ، وقل الحمدلله وكررها ثلاث مرات فإنك تكون قد استقبلت النعمة بذكر المنعم وأبعدت عن نفسك حولك وقوتك ، وأنهيت النعمة بحمد لله . ولكن لماذا الماء ؟ لأن الماء في الجوف أشبع من أي شيء آخر .

---

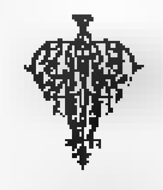
(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد في مسنده بألفاظ مختلفة

قوله تعالى : « واشكروا لي ولا تكفرون » لشكر عن النعمة يجعل الله سبحانه وتعالى يزيدك منها واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

وشكر الله يذهب الغرور عن نفسك فلا تفتنك الأسباب وتقول أوتيته على علم مني . « ولا تكفرون » أي لا تستروا نعم الله بل اجعلوها دائما على ألسنتكم . . فإن كل نعمة من نعم الله لو استقبلت بقولك « ماشاء الله لا قوة إلا بالله » لا ترى في النعمة مكروها أبدا لأنك حصنت النعمة بسياج المنعم . أعطيت لله حقه في نعمته فإن لم تفعل وتركتها كأنها منك وأنت موجدها ونسيت المنعم وهو الله سبحانه وتعالى فإن النعمة تتركك .



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ ﴾

الله سبحانه وتعالى يطالبنا أن نستعين بالصبر والصلاة . . على ماذا ؟ على كل ما يطلبه منا الله . على تكليفاته ومنهجه نستعين على ذلك بالصبر والصلاة ولكن لماذا الصبر ؟ لأن الصبر هو منع النفس من الجزع من أى شىء يحدث وهو يأخذ ألوانا شتى حسب تسامى الناس فى العبادة .

فمثلا سئل الإمام على رضى الله عنه عن حق الجار ؟ قال : تعلمون أنك لا تؤذيه ؟ قالوا نعم . . قال وأن تصبر على أذاه . . فكأنه ليس مطلوبا منك فقط ألا تؤذى جارك بل تصبر على أذاه . والصبر هو الذى يعينك على أن تفعل ما أمرك الله به ولا تفعل ما نهاك الله عنه .

إن الله منعك من أشياء هى من شهوات النفس وأمرك بأشياء فيها مشقة وهذه محتاجة إلى الصبر . . وأنت أن أخذت منهج الله تعبداً ستأخذه بى بعد عادة.يقول أحد الصالحين فى دعائه : اللهم إنى أسألك ألا تكلنى إلى نفسى فإن أخشى يارب الا تثيبنى على الطاعة لأننى أصبحت أشتهيها فسبحانك أمرتنا أن نحارب شهواتنا . أنظر إلى الطاعة من كثرة حب الله أصبحت مرغوبة محببة إلى النفس . . رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لبلال ساعة الأذان :

(أرحنا بها يا بلال) .

. ولم يقل كما يقول بعض الناس والعياذ بالله أرحنا منها ، ذلك أن هناك من يقول

لك: أن الصلاة تكون على كتفى مثل الجبل وأرتاح ، نقول له أنت ترتاح بها ولا ترتاح منها »، لأنك وقفت بين يدى الله المكلف ، ومادام الإنسان واقفا أمام ربه فكل أمر شاق يصبح سهلا .

يقول أحد العابدين : أنا لا أواجه الله بعبوديتى ولكن أواجهه بربوبيته فأرتاح لأنه ربى ورب العالمين .. الذى له أب يعينه لا يحمل هما فبالك بالذى له رب يعينه وينصره

قول الحق سبحانه . « إن الله مع الصابرين » أى أنه يطلب منك أن تواجه الحياة فى معية الله ، فأنت لو واجهت المشكلات فى معية من تثق فى قوته تواجه الأمور بشجاعة فما بالك إذا كنت فى معية الله وكل شىء فى الوجود خاضع لله ، أيجرؤ شىء أن يقف أمامك وأنت مع الله ؟

إن الأحداث لا تملأ الخلق بالفزع والهلع إلا ساعة الانفلات من حضانة ربهم .. وإنما من يعيش فى حضانة ربه لا يجرؤ عليه الشيطان فالشيطان خناس .. ما معنى خناس ؟ إذا سهوت عن الله اجترأ عليك وإذا ذكرت الله خنس وضعف فهو لا قوة له . وهو لا يدخل مع الله سبحانه وتعالى فى معركة ، وإنما يدخل مع خلق الله الذين ينسون الله ويبتعدون عنه يقول القرآن الكريم :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

ومادام الله سبحانه وتعالى مع الصابرين فلابد أن نعشق الصبر . وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا ؟ يقول الحق جل جلاله فى الحديث القدسى :

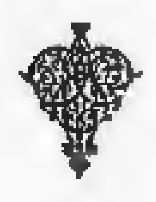
[يا بن آدم مرضت فلم تعدنى قال : يارب وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده][1] ؟ يقول بعض الصالحين : اللهم إنى أستحى أن أسألك الشفاء والعافية

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه .

حتى لا يكون ذلك زهدا في معيتي لك .. إذن لابد أن نعشق الصبر لأنه يجعلنا دائما في معية الله .

الله سبحانه وتعالى يقول : « إن الله مع الصابرين » .. ونحن نريد أن يكون الله سبحانه معنا دائما .. إن هذه الآية لا تجعل الإنسان ييأس مهما لقي في حركة حياته من المشقة .



﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

الحق جل جلاله يعلم أن أحداث الإيمان وخصوم الإيمان سيواجهون المسلمين بمشقة عنيفة .. لا تهددهم فى أموالهم فقط ولكن تهددهم فى نفوسهم ، فأراد الله عز وجل أن يعطى المؤمنين مناعة ضد هذه الأحداث .. وأوصاهم بالصبر والصلاة يواجهون بها كل حدث يهزهم بعنف .. قال لهم إن المسألة قد تصل إلى القتل .. إلى الاستشهاد فى سبيل الله.وأراد أن يطمئنهم بأن الشهادة هى أعلى مرتبة إيمانية يستطيع الإنسان المؤمن أن يصل إليها فى الدنيا فقال سبحانه : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات » .

إن القتل هو أشد ما يمكن أن يقع على الإنسان .. فأنت تصاب فى مالك أو فى ولدك أو فى رزقك أو فى صحتك ، أما أن تصاب فى نفسك فتقتل فهذه هى المصيبة الكبرى .. والله سبحانه وتعالى سَمّى الموتَ مصيبة.واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة المائدة)

الله تبارك وتعالى أراد أن يفهم المؤمنون أن الذى يقتل فى سبيل الله لا يموت .. وإنما يعطيه الله لونا جديدا من الحياة فيه من النعم ما لا يعد ولا يحصى.يقول جل جلاله : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » .

ماهو مظهر الحياة التى يعيشونها ؟ الحياة عندنا مظهرها الحركة ، والذى قتل فى سبيل الله ما هى حركته ؟ حركته بالنسبة لغير المؤمنين خصوم الإسلام والإيمان بأنه لن يسلب منه الحياة .. لأنه سيذهب إلى حياة أسعد والموت ينقله إلى خير مما هو فيه .. فإذا كان الكفار قد قتلوه فهم لم يسلبوه شيئا وإنما نقلوه إلى نعمة أكبر مما كان يعيش فيها .. أما بالنسبة للمؤمنين فإنه سيحمى لهم منهج الله ليصل إليهم إلى أن تقوم الساعة .

إن كل المعارك التى يستشهد فيها المؤمنون إنما هى سلسلة متصلة لحماية حركة الإيمان فى الوجود .. وعظمة الحياة ليست فى أن أتحرك أنا ولكن أن أجعل من بعدى يتحرك .. والمؤمن حين يستشهد يبقى أثره فى الوجود لكل حركة من متحرك بعده .. فكل حركة لحماية الإيمان تستشهد به وبما فعله وتأخذ من سلوكه الإيمانى دافعا لتقاتل وتستشهد.فكأن الحركة متصلة والعملية متصلة .. أما الكافر فإن الحياة تنتهى عنده بالموت ولكن تنتظره حياة أخرى حينما يبعث الله الناس جميعا ثم يأتى بالموت فيموت .. وحين يموت الموت تصبح الحياة بلا موت إما فى الجنة وإما فى النار .

الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم أن من يقتل فى سبيل الله هو حى عند ربه ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة مباشرة .. ولا يكتب عليه الموت فى حياة البرزخ حتى يوم القيامة مثل من يموت ميتة طبيعية ولا يموت شهيدا .. ولأن هذه الحياة حياة الشهداء أخفى الله سبحانه عنا تفاصيلها لأنها من حياة الآخرة .. وهى غيب عنا قال تبارك وتعالى : « ولكن لا تشعرون » .. ومادمنا لا نشعر بها فلابد أن تكون حياة أعلى من حياتنا الدنيوية .

الذى استشهد فى عرف الناس سلب نفسه الحياة ولكنه فى عرف الله أخذ حياة جديدة .. ونحن حين نفتح قبر أحد الشهداء نجد جسده كما هو فنقول إنه ميت أمامنا .. لابد أن تتنبه إنك لحظة فتحت عليه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة والله سبحانه قال : « أحياء عند ربهم » ولم يقل أحياء فى عالم الشهادة .. فهو حى مادام فى عالم الغيب ولكن أن تفتح وتكشف تجده جسدا فى قبره لأنه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة .. أما كيف ؟ قلنا إن الغيب ليس فيه كيف .. لذلك لن تعرف وليس مطلوبا منك أن تعرف .

إننا حين نجرى عملية جراحية لمريض يعطيه الطبيب (البنج) لكى يفقده الوعى والحس ولكن لا يعطيه له ليموت ثم يبدأ يجرى العملية فلا يشعر المريض بشيء من الألم .

فالمادة لا تحس لأنها هى التى أجريت عليها العملية والجسد لازال فيه الحياة من نبض وتنفس ولكنه لا يحس .. ولكن النفس الواعية التى غابت هى التى تحس بالألم .

أنت عندما يكون هناك ألم فى جسدك وتنام ينقطع الاحساس بالألم فكأن الألم ليس مسألة عضوية ولكنه مرتبط بالوعى .. فعند النوم تنتقل إلى عالم آخر قوانينه مختلفة .. والعلماء فحصوا مخ الإنسان وهو نائم فوجدوا انه لا يستطيع أن يعمل أكثر من سبع ثوان يرى فيها رؤيا يظل يحكيها ساعات .. فإذا قال الحق تبارك وتعالى : « إنهم أحياء عند ربهم » .. فلابد ان نأخذ هذه الحياة على أنها بقدرات الله ومن عنده .. والله عز وجل أراد أن يقرب لنا مسألة البعث والقيامة مثل مسألة النوم .

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

فكأن الحق جل جلاله يعطى الشهداء حياة دائمة خالدة لأنهم ماتوا فى سبيله .. ومادام تعالى قال : « لا تشعرون » فلا تحاول أن تدركها بشعورك وحسك لأنك لن تدركها على أن الشهيد لابد أن يقتل فى سبيل الله وليس لأى غرض دنيوى .. وإنما لتكون كلمة الله هى العليا .

